العلوم التأسيسية

مدخل إلى فهم العصر



الطبعة الأولى

1446 هـ – 2024 م

ISBN: 978-625-94914-2-4

جميع الحقوق محفوظة



www.safwacenter.net
safwacultural
contact@safwacenter.net
+90 535 781 99 57

Safva Araştırma Ve Yayıncılık Hizmetleri Ticaret Limited Şirketi
SAFWA For Research and Publishing Services Trade Limited Company
Sicil No: 313638/5

تدقيق

أ. محـي الديــن قبرصــلـي د. إياد محمد صبحي دخان

تصميم وإخراج فني

آية قبلاوي

تصميم الغلاف

رفاه شرف الدين

Baskı Cilt: ERG Matbaa maltepe Mh. Litros Yolu 2.Matbaacılar Sıt, 2E1 Istanbul



العلـوم التأسيسـية هـي حزمـةٌ مـن المعـارف، خطَّهـا الناظـمُ: هـو تشـكيلُ عقليـةٍ تفهـم عصرهـا وتحدياتـه، وتـرى الإمكان، فتثمـره وتوسِّـع مـداه، عقليةٍ تأخذ مـن الماضي العبـرة، ولكن لا تجعلـه الوجهـة، وترى أحلام الغـد دون أن تنفصل عن الواقع.

لم يكن مخطَّطاً لهذه المحاضرات أن تتحوَّل لكتابٍ، ممَّا ألقى العبء في الترتيب والضبط على الأخت رِيّ شقير -محرّرة الكتاب-، والأخت آية قبلاوي -مصممته الفنية-، وهو عبءٌ كبير في مادّةٍ متنوعةٍ من هذه الطبيعة؛ فلهما الشكر موصول ومن ورائهما كل فريق الصفوة الذين أداروا كل ذلك على مدى عشرة أشهرٍ متواصلةٍ دون كللٍ. تلك شموع الأمل تُؤذن بفجر جديد تتضح معالمه بالتدريج، ولكنَّ العين لا تخطِئُها، فلكل من شاركنا وسيشاركنا رحلة البرناج الأساس، ومن يقرأ هذه الأوراق باحثاً عن إشراقة الغد التحية والسلام والدعاء.

الدكتور سالم السلطان

المحتويات

مقدمة البرنامج التأسيسي **10**

أولاً- سبب تسمية البرنامج وأهميته 10

ثانياً- النسق وتعريف النسق 11

ثالثاً- مراحل البرنامج الكلي 12

رابعاً- علاقة النسق بقاعدة "الحكم على الشيء فرع من تصوُّره" 13

خامساً- مشكلة التعريفات في العلوم الإنسانية 14

سادساً- طلبٌ مهمٌّ (الكرم الفلسفي) 15

سابعاً- إستراتيجياتنا التأسيسية 16

الفصل الأول: العقل والتفكُّر **22**

أولاً: المعرفة 23

ثانياً: المنطق 47

الفصل الثاني: التاريخ والدين والفلسفة **88**

المسار الكبير للنهضة 90

الفلسفة لماذا سندرسها؟ **108**

الفلسفة وأثرها في العلوم: من الطبيعة إلى الذرة 110

الفلسفة وأثرها في تشكُّل الحياة: الوجود والخالق **116**

التصوُّر الأول: وحدة الوجود 118

التصوُّر الثاني: إلهٌ خلق وتخلَّى 124

التصوُّر الثالث- إله خلق واعتنى 124

التصوُّر الرابع- لا خالق للوجود 126

الفلسفة والحياة: التحقُّق من ادِّعاءتنا الكبرى بالمعرفة **128**

أولاً- ماهيات الأشياء 130

ثانياً-الزمكان Spacetime 131

ثالثاً- السببية 132
رابعاً- الفلسفة والأخلاق 133
خامساً- نظرية المعرفة (الجوهر) 136
سادساً- مستويات المعرفة 138

المسار العقلي والحضارات 142

أولاً- نقطة البدء ونواة الأفكار 143
ثانياً- العصور الوسطى (عصور الظلام) 152
ثالثاً- عصر النور الإسلامي 154
رابعاً- المعضلات التي واجهت الحضارة الإسلامية وأعاقت تقدُّمها وتطوُّرها 156
خامساً- سنن الإمبراطوريات 159
سادساً- القيام الحضاري الأوروبي 161

رحلة أوروبا ومقدمات النهوض 162

أولاً- أوروبا والتغييرات التي سبقت النهوض 164
ثانياً- النهضة وإنسان النهضة 165
ثالثاً- عصر التنوير ومقدماته 167
رابعاً- تجلّيات عدم الوثوقية بالعقل 171
خامساً- أثر الفلسفة والحرب في السياسة والمجتمع 176

الفلسفة وأثرها: تجلّيات الخوف من الوثوقية 178

الفلسفة المثالية 180
الفلسفة المادية 180
الفلسفة الفرويدية 181
الفلسفة الرومانسية 181
الفلسفة الوجودية 181
الاشتباك مع النص 182
البرغماتية (المذهب العملي) 186
الروحية 187
الفينومولوجيا 187

الحروب الداخلية الثقافية في الغـرب -1- 190

أولاً: الليبرالية والماركسية (من حيث الفكرة) 191

ثانياً: بين القيمة وإسقاطها في الواقـع 192

ثالثاً: تمثيلات الليبرالية والماركسية 193

رابعاً: الماركسية الجديدة 196

خامساً: أثر الماركسية الجديدة في البيئة العربية الإسلامية 198

الحروب الداخلية في الغـرب -2-: ثلاثية الحداثة والعلمانية والتنوير 200

أولاً: مرحلة التنوير 201

ثانياً: الحداثة (Modernity) 202

ثالثاً: العلمانية 205

رابعاً: موقع المجتمعات العربية من الحداثة والعقلانية (المجتمعات العالقة) 208

فلسفة الأديان وأهمية الدين في حياة المجتمعات 210

أولاً- روح الأديان وأهميتها 212

ثانياً- بين الدين والفلسفة 212

ثالثاً- عوائد الأديان على أتباعها 213

رابعاً- اعتقاد الصوابية وأثره في توجيه طاقة الأديان إزاء المخالف ٢١٦

خامساً- توجيه طاقة الدين الداخلية بين أبنائه (الصراع الداخلي حول أسس تأويلية) 218

مسار الحضارات عبر التاريخ ومآلات الحضارة الغربية 220

عصور الظلام 222

الحملات الصليبية 223

الوافد العلمي من الحضارة الإسلامية 223

اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح 225

نشاط الموانئ وظهور الطبقة البرجوازية 226

اكتشاف المطبعة 227

الدولة العثمانية مقابل الأطماع الأوروبية 227

الثورة على الكنيسة وبدايات المنهج التجريبي 228
عصر الآلة 229
الاستعمار الأوروبي 230

الحضارات عبر التاريخ الحضارة الإسلامية -1-
الخط العثماني والفجوة الكبرى 232
منطقة ماوراء النهر 233
الخط العثماني (التركي) 235
نهاية الدولة العثمانية واستلام أتاتورك 238
خارج ثنائية أتاتورك وعبد الحميد 239

الحضارات عبر التاريخ الحضارة الإسلامية -2-
من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر 242
سمات المرحلة 243
الدولة السلجوقية 246
الدولة الزنكية 247
الدولة الأيوبية 248
دولة المماليك 249

فلسفــة التاريـخ 252
أولاً- هيجل Hegel 253
ثانياً- عبد الرحمن بن خلدون 258
ثالثاً- أرنولد توينبي 263
رابعاً- مالك بن نبي ومشروع النهضة 268
خامساً- مالك بن نبي ومشروع النهضة الذي نطرحه 274

علم الاجتماع 288
أولاً- المنتظم الاجتماعي 289
ثانياً- الفكرة المركزية والفكرة المحفِّزة 294
ثالثاً- علم الاجتماع 297
رابعاً- نظرية النخبة 305

السياسة **310**

أولاً- السياسة والتدافع ومرتكزات القرار السياسي 311

ثانياً- الإستراتيجية (الغموض والجمال) 322

الجيوبوليتيك **332**

أولاً- الخارطة وصراع القوى العالمية 333

ثانياً- تموقع الدول الكبرى وردود الأفعال 347

ثالثاً- لعبة الشطرنج العالمية 359

رابعاً- الوطن العربي جيبوبوليتيكيًّاً (معايير التقييم) 369

خامساً- فلسطين جيوبوليتيكيًّاً 374

الاقتصاد **380**

أولاً- أنواع الاقتصاد 381

ثانياً- العملية الأساسية في الاقتصاد 381

ثالثاً- الحكومة كعامل اقتصادي 382

رابعاً- إجمالي الناتج المحلي للدول"GDP" 384

خامساً- سعر الفائدة وأثره على اقتصاد الدول 387

سادساً- مشكلات السوق التجارية التي تؤدّي إلى خللٍ في الاقتصاد 389

سابعاً- الاستقرار الاقتصادي للدول 390

ثامناً- الخضوع للنظام الاقتصادي العالمي 390

الدولة: التصوُّر العامُّ للدولة ومشكلات التنمية **392**

أولاً- شكل الدولة 393

ثانياً- مشكلات التنمية السياسية 395

ثالثاً- كتاب علوم السياسة 397

إنشاء الدول **398**

أولاً- نشوء الدولة والاحتياج الإنساني لها 398

ثانياً- بناء الدول والأمم 400

ثالثاً- الإستراتيجيات المتَّبعة عند بناء الدول 406

الإدارة **410**

أولاً- جوهر الإدارة 411

ثانياً- تقويم المنظَّمات 414

ثالثاً- تاريخ الإدارة 419

رابعاً- الوظائف الإدارية 420

خامساً- رحلة الإدارة عبر الأزمان 428

الجهاز المعرفي **448**

أولاً- موقع الجهاز المعرفي من عملية الفهم 450

ثانياً- ماهية الجهاز المعرفي 453

ثالثاً- تعدُّد الأجهزة المعرفية 457

رابعاً- الاستعارة بين الأجهزة المعرفية 458

خامساً- الصدام المعرفي في البيئات الإسلامية 459

سادساً- أنماط المخاوف المثارة في وجه الاقتراب من الجهاز المعرفي الديني 461

سابعاً- الجهاز الذي يحتاجه الواقع 464

مقدمة البرنامج التأسيسي

غالباً ما يهمل الناس المقدمات؛ استعجالاً منهم للدخول بشكل فوري للعلوم، ولكنَّ مقدمة هذه الرحلة ليست من النوع الذي يُهمَل؛ بل يجب على المتعلّم استحضارها دائماً معه في رحلة "التأسيس المعرفي".

وسأجيب في هذه المقدمة عن أسئلةٍ هامةٍ لا بد لنا من الوقوف عندها ابتداءً..

أولاً- سبب تسمية البرنامج وأهميته

هنالك كثير من البرامج التي تَعِدُ نتائجها بشيءٍ ما؛ بحيث إنها تخبرنا مثلاً كيف نكون قادةً، أو كيف نفكر بشكل جيد.. أما برنامجنا هذا، فهو يَعِدُ بالأساس، لا بالنتائج الأخيرة، فنحن سننطلق من نقطةٍ نشكِّل فيها أسس المعرفة لدى المتعلِّم، ثم يتابع بناءَه المعرفي من حيث شاء.

إن الاستعداد للرحلة لا يقل أهميةً عن الرحلة ذاتها؛ بل هو الضمان لبلوغ الرحلة أهدافَها بنجاحٍ.. ورحلة تكوين الإنسان معرفيًّاً تقتضي وضع الأساس أولاً، ثم تأتي مجموعة الطوابق فوق هذا الأساس ليصبح المبنى في أحسن حالٍ..

وإن كثيراً من المتعلِّمين ممَّن يقرؤون كثيراً من الكتب، تراهم مشتَّتين، ويشتكون من كونهم لا يحتفظون بالمعلومات، ولا يجيدون إنزالها في مكانها الصحيح بشكلٍ فعَّالٍ؛ وذلك لكونهم اهتمُّوا بطوابق البناء، ولم يهتموا بالأساس الذي سيقف عليه هذا البناء، وهذا يخلق فجوةً كبيرةً في العقل المثقف، كحال إنسانٍ يبني مبناه على الرمال!

فهذا التأسيس المعرفي يعطي الإنسان أرضاً صلبةً، ومساحةً من الحرية بأطرٍ من الضوابط المعرفية، ومن ثم يؤهِّله لإكمال البناء باختياره المعارفَ التي يريد أن ينتمي إليها، بعد أن امتلك الأدوات التي يفكِّك ويفتح بها مغاليق الأمور.

والمتعلِّمون أشكالٌ وأجناس، وليسوا نسخاً مكرَّرةً، وما نزوِّدهم به في برنامجنا الأساس وما بعده هو بداية المجتهد ونهاية المقتصد.

ثانياً- النسق وتعريف النسق

المقصود بالنسق: المدخلات، والعمليات، والمخرجات، والبيئة، ونظام التحكُّم، فالغاية ممَّن سيتلقى البرنامج الكلي أن يدخل في نسقٍ متكاملٍ، فهو:

- سيأخذ المعلومات ابتداءً كـ(مدخلاتٍ) علميةٍ إلى عقله..
- ثم سيجري لها (عملياتٍ) في دماغة ويرتِّبها في عقله..
- ثم سيخرج منها بأدواتٍ (مخرجاتٍ) عمليةٍ ليعالج بها الواقع الذي يعيش فيه..
- وكلّما احتكَّ بواقعه أكثر (البيئة) وتجادل معه، تولَّدت لديه معارف جديدة ليعيد الدورة مرّة ثانية؛ سعياً لإنضاج معارفه لإنزالها على الواقع كرَّةً أخرى.
- وكل هذا من خلال (نظام تحكُّم) يسير من خلاله.



فهذا البرنامج سيطوف بنا في مساحةٍ واسعةٍ من المعارف، وهو ليس مصمَّماً لطالب المعرفة المجزَّأة، إنما لمن يريد أن يرى نسقاً متكاملاً للمعارف، وهم بالضرورة قلَّة القلَّة.. وحتى هؤلاء سيواجهون صعوبة رؤية النسق الكلي الذي تصب فيه آلاف المعلومات الجزئية؛ ولذلك فالاستعداد للرحلة مهمٌّ.

ثالثاً- مراحل البرنامج الكلي

سيقسم هذا البرنامج إلى مرحلتين رئيسيتين: التأسيس، والتكميل. ونحن الآن في مرحلة التأسيس التي سننتقل منها إلى مرحلةٍ تكميليةٍ تبدأ من: فهم الدين؛ وذلك لأن فهم الدين دون فهم هذه المقدمات سيؤدي إلى إرباكٍ في الخارطة المعرفية لدى المتلقي.. وبعد مرحلة فهم الدين سنكمل مع مرحلة إدارة الواقع.

والغرض الأخير من ذلك هو إعداد جيلٍ جديدٍ مسلَّحٍ بمعارف عصره، ومدركٍ للأزمة الحضارية وأبعادها.

البرنامج الكلي

1. المرحلة الأولى	التأسيس
2. المرحلة الثانية	المرحلة الثانية: وتبدأ من: 1 - فهم الدين. 2 - إدارة الواقع.

رابعاً- علاقة النسق بقاعدة "الحكم على الشيء فرعٌ من تصوُّره"

هنالك قاعدة تقول:

الحكم على الشيء فرعٌ من تصوُّره

والسؤال هنا ما علاقة هذه القاعدة بقضية النسق الكلي لهذا البرنامج؟!

وفي سبيل توضيح ذلك سنسوق قصةً صغيرةً لشخصٍ أراد أن يدخل التجارة من خلال شراء عقارٍ قديمٍ بسعرٍ قليلٍ، والقيام بتجديده ثم بيعه بسعرٍ جيِّدٍ.. وحينما تمَّ سؤاله عن المعايير التي سيُقَيِّم من خلالها مدى صلاح العقار للشراء من عدمه، وإن كانت العملية ستعود فعلاً بالربح عليه.. فأجاب بأنه سينظر لأمورٍ عدَّةٍ؛ منها: قيمة العقار، ونوعية السوق الموجود فيه هذا العقار، وهل العقارات سترتفع مستقبلاً، أم ستهبط؟ وهل أساسات المنزل قوية وثابتة، أو يحتاج فقط لإصلاحاتٍ خارجيةٍ؟ وهل المنزل فيه مشكلة بنيوية؟ وأخيراً، ما الأشياء التي تحتاج للإصلاح في أيِّ بيتٍ قديمٍ؟ وكم ستكون تكلفتها؟ ..

(فمن هذه الصورة الكلية التي يمتلكها عن المنازل استطاع أن يصدر حكماً من كونه سيشتري ويربح)، (وإننا من امتلاكنا لتصوُّرٍ شاملٍ عن المعارف الأساسية سنتمكَّن من الحكم على القضايا المتعلِّقة بها بشكلٍ أكثر سلامةً).

فالرجل في القصة ليس سبَّاكاً ولا حدَّاداً ولا كهربائيًّاً.. ولكن من خلال معرفته العامة بهذه الجوانب استطاع أن يصدر أحكاماً سليمةً تقوده للربح.

فعلاقة الحكم على الشيء فرعٌ من تصوُّره بالنسق علاقةٌ أساسيةٌ؛ فمن يمتلك تصوُّراتٍ كلية للسياسة والاقتصاد والتاريخ والفلسفة والاجتماع وغيرها.. سيتمكن من إصدار أحكامٍ أكثر نضجاً في أنساق هذه العلوم.

خامساً- مشكلة التعريفات في العلوم الإنسانية

في إحدى الجلسات النقاشية حول تعريف القيم، احتدَّ النقاش حول تعريف الحرية والعدالة ونحو ذلك.. ليسوق كلٌّ من الحضور تعريفه الذي يراه يمثِّل الحقيقة ويتمسَّك به..

على الإنسان الذي يريد أن يقوم بنظامٍ تأسيسي في عقله، أن يدرك أنه في العلوم الإنسانية لا يوجد تعريفٌ جامع مانع؛ فالتعريفات في العلوم الإنسانية متداخلة جدًّا، وبالتالي يصعب تعريف شيءٍ بها في دقَّةٍ متناهية، فمن المقبول في العلوم الإنسانية أن يكون للمفاهيم عشرات التعريفات.. وعلى المؤلف بقضيةٍ ما أن يحرِّر ابتداءً المفهوم، ويسوق التعريف الذي فهمه والذي بنى عليه موضوعه.

والسبب في ذلك أن طبيعة العلوم الإنسانية تتأبَّى على التعريف الواحد الجامع المانع، حتى إن أكمل التعريفات عبر التاريخ تمَّ إثبات أنها لا تصمد في العلوم الإنسانية؛ فالتعريف بالحدِّ مثلاً كان يعتبر أكمل أنواع التعريفات؛ لكونه يذكر الجنس والنوع والفصل، ومثاله: تعريف أرسطو الإنسانَ بأنه حيوان ناطق، فذَكَر فيه جنس الإنسان وفصله بكونه ناطقاً، فحتى هذا النوع من التعريفات تلقَّى ضربةً قاضية على يد شيخ الإسلام "ابن تيمية" وغيره من العلماء الذين انتقدوا المنطق الصوري، وكان نقدهم حادًّاً لقضية التعريف، فقالوا: إن تعريف الإنسان كونه ناطقاً لا يمكِّننا من معرفة معنى كلمة ناطق ما لم نكن قد شاهدنا الإنسان! وبذلك قد تمَّ تعريف الإنسان بالإنسان، وهذا ممَّا لا فائدة فيه!

فحتى ما كان يعتبر أسلم أنواع التعريفات، هو تعريفٌ قليل الجدوى في العلوم الإنسانية!

والتعريفات تأخذ أنواعاً كثيرة، فمنها:

التعريف الوصفي، والتعريف بالنماذج؛ فمثلاً: كان بوسعنا حينما عرَّفنا النسق في الفقرات السابقة أن نقول: إن النسق (عبارة عن بنيةٍ متعددة الأجزاء، تعمل بطريقةٍ متناسقة يدعم بعضها بعضاً، لتنتج لنا شيئاً في نهاية المطاف)، وهذا أشبه بالتعريف الوصفي، ولكننا اختزلنا هذا كلَّه بنموذجٍ ذهني للموضوع حينما قلنا: إن النسق مدخلات وعمليات ومخرجات..

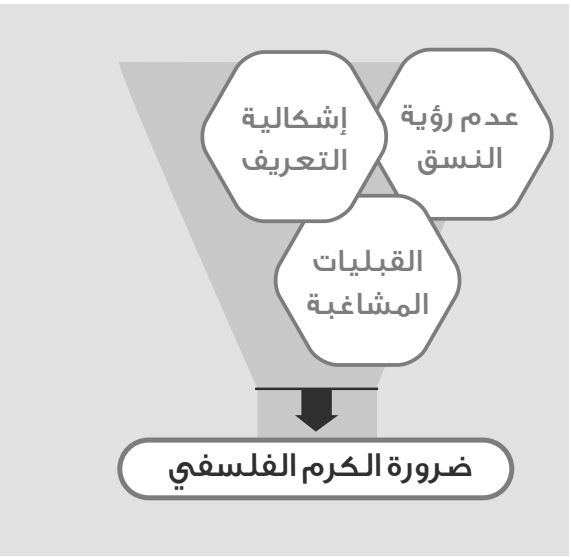
وهنالك أنواع أخرى للتعريفات، كالتعريف الإجرائي، والتعريف القاموسي، وسنفصِّلها أكثر في فقراتٍ لاحقة..

سادساً- طلب مهمٌّ (الكرم الفلسفي)

قال الشافعي:

اِصبِر عَلى مُرِّ الجَفا مِن مُعَلِّمٍ ... فَإِنَّ رُسوبَ العِلمِ في نَفَراتِهِ

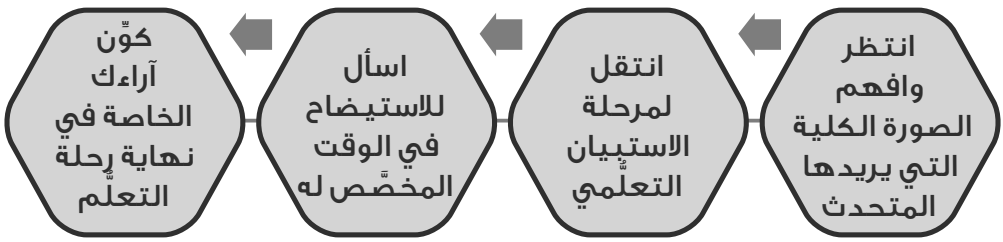
وَمَن لَم يَذُق مُرَّ التَعَلُّمِ ساعَةً ... تَجَرَّعَ ذُلَّ الجَهلِ طولَ حَياتِهِ



يأتي الإنسان للمعرفة محمَّلاً بقبلياته ومعارفه، وبالتالي يتلقى الجديد من المعلومات ويقارنها بمعارفه السابقة، ويستشكل أموراً ويتقبَّل أخرى بناءً على قبْليَّاتِه، وتلك طبيعة إنسانية مفهومة، ولكن تصحبها ظاهرة تشغِّب على التعلُّم، وهي ظاهرة التسرُّع والاستعجال في ردود الأفعال دون انتظار اكتمال الصورة؛ بحيث لا يستكمل فهم ما يقال قبل أن يطرح السؤال! مما يحرمه من الفهم الجيد، وإذا صحب ذلك قراءةٌ سابقة غير منظَّمة، شغَّب كلَّ ذلك على حُسن التحصيل..

استكمال الصورة قبل إيراد الأحكام، وضبط قبْليَّات العقل من أن تشغِّب على رحلة التعلُّم

ولذلك نقترح كحلٍّ لذلك التعامل بمبدأ الكرم الفلسفي، والذي يعني:



خلاصة خطوات مبدأ الكرم الفلسفي:

سابعاً- إستراتيجياتنا التأسيسية



التبسيط:

من إستراتيجياتنا التأسيسية سيكون التبسيط، أي: التركيز على المهم

Simlicity means focussing on the important

1 المشكلة

أي: السؤال الذي يبحث عن حلٍّ.

2 الإشكال

حيث يواجه السؤال باثنين أو أكثر من الحلول المحتملة التي لا تمتلك قابلية الحسم، فاختيار أحدها لا يزيل المشروعية عن غيره.

3 الاستشكال

وهو شبكة الأسئلة التي يثيرها الباحث في موضوعٍ قبل بحثه.

البحث عن أرض:

الدورة ليست بحثاً تفصيليًّاً في كل مبحثٍ؛ فمثلاً: نظرية المعرفة كمبحثٍ عميق في الفلسفة تدير جدلاً بين العديد من النظريات المتضاربة والاستشكالات غير المحلولة..

وهنا يجدر أن نمايز بين المشكلة، والإشكال، والإشكالية.

وطبيعة الفلسفة أنها تعالج ما يسمَّى: الإشكال، لا المشكلة، فهل سنغوص في الإشكاليات كمبحثٍ فلسفي ينتهي إلى استشكالٍ، أي: إلى مجموعة حلولٍ مفتوحة كما يحلو لطلَّاب الفلسفة تناولها؟

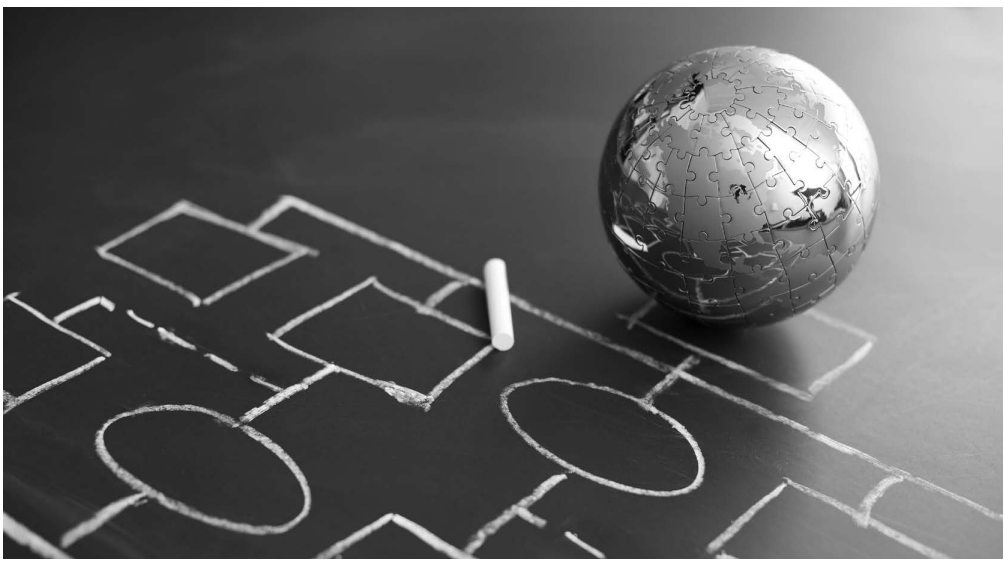
نحن هنا سنسلك مسلكاً مختلفاً يتفق مع فكرة التأسيس المعرفي التي تسمح لطالب المعرفة أن يقف على أرض المعرفة؛ ابتداءً من مرتكزاتها الأكثر ملائمةً للبناء العلمي التأسيسي، وفي ذات الوقت نترك المجال لطالب التوسُّع أن يمارس شغفه في رحلة العلم التي لا تنتهي.. لذلك أنصح المشاركين في هذه الرحلة إتقان ما هو مطروحٌ ابتداءً، ووقف ذلك الصوت الخفي الذي يصادر اللحظة المعرفية لصالح الشغف الأكبر في المعرفة المفتوحة.. وسأضرب لذلك مثلاً يُسهِّل تصوُّر ما أقول؛ مبحث مثل (إثبات الوجود الخارج عن العقل) وهو إشكاليةٌ فلسفية كبيرة، يُطرح كالتالي: (هل هناك عالم خارجي أصلاً؟)، هناك في

الفلسفة من يقول بأنه غير موجود؛ فالعالم فكرة في العقل لا أكثر.. ولكنَّ الأخذ بهذا القول هو نهاية القول؛ فالعلوم كلها تنهار ولا داعي حتى للاستمرار في هذه الدورة إذا كان الأمر كذلك! ولكننا نعلم أن عالمنا قائمٌ على عكس هذا المفهوم، فنحن سنختار ما تستمر به المعرفة لا ما يقطعها، وذلك دون أن نصادر الشغف العقلي لمعرفة هذا النوع من وجهات النظر، ولكن في مرحلةٍ لاحقة من حياة طالب المعرفة، فإذا اتضح ذلك، عرف الملتحق بالدورة أنَّ الغرض هو التأسيس والتركيز، لا الاستفاضة والتشقيق.

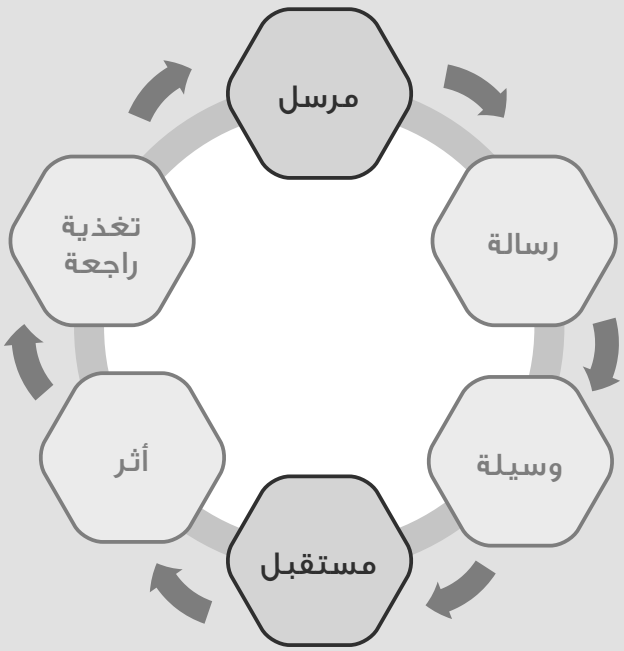
أهميــة النماذج (The mapping method):

الخرائط المعرفية تقوم بثلاث وظائف: الاستيعاب + تركيز المعلومة + ربط المعلومات ببعضها.

في رحلة التعلُّم، لم أجد أكثر فائدةً من النماذج المصغَّرة للتخزين والاستدعاء؛ فهي عندي أفضل من الكلام المسترسل، ومع أن النماذج هي تمثيلٌ للمعرفة واختزالٌ لها، والواقع أشدُّ تعقيداً وأكثر ثراءً.. إلا أن عقل الإنسان محدود.. وبالتالي حاجته للنماذج جزءٌ من تلك المحدودية، وليتضح معنى قولي سأضرب مثالاً.. حين يسأل شخصٌ: ما الإعلام؟ يمكن أن يتكلم الإنسان ساعاتٍ في بيان الموضوع، ويدخل في تفصيلاتٍ لا حصر لها.. وغالباً ما يعجز المتابع عن استجماع الصورة؛ لأن القائل لا يستجمعها..



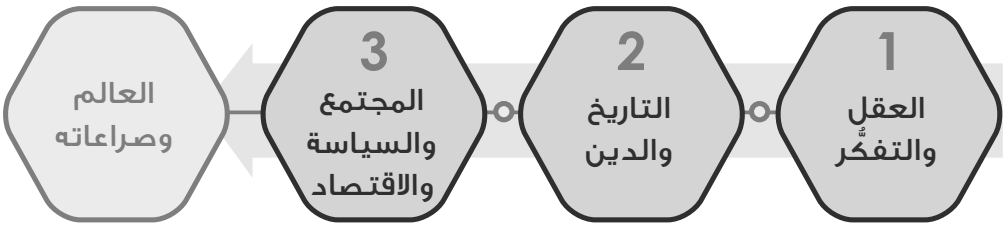
ولكنَّ المُدرَّب على استخدام النماذج يمكنه أن يقول: الإعلام هو (مرسل، ورسالة، ووسيلة، ومستقبل، وأثر، وتغذية راجعة)؛ لأنه في ذهنه ارتسمت صورة للموضوع على الشكل التالي:



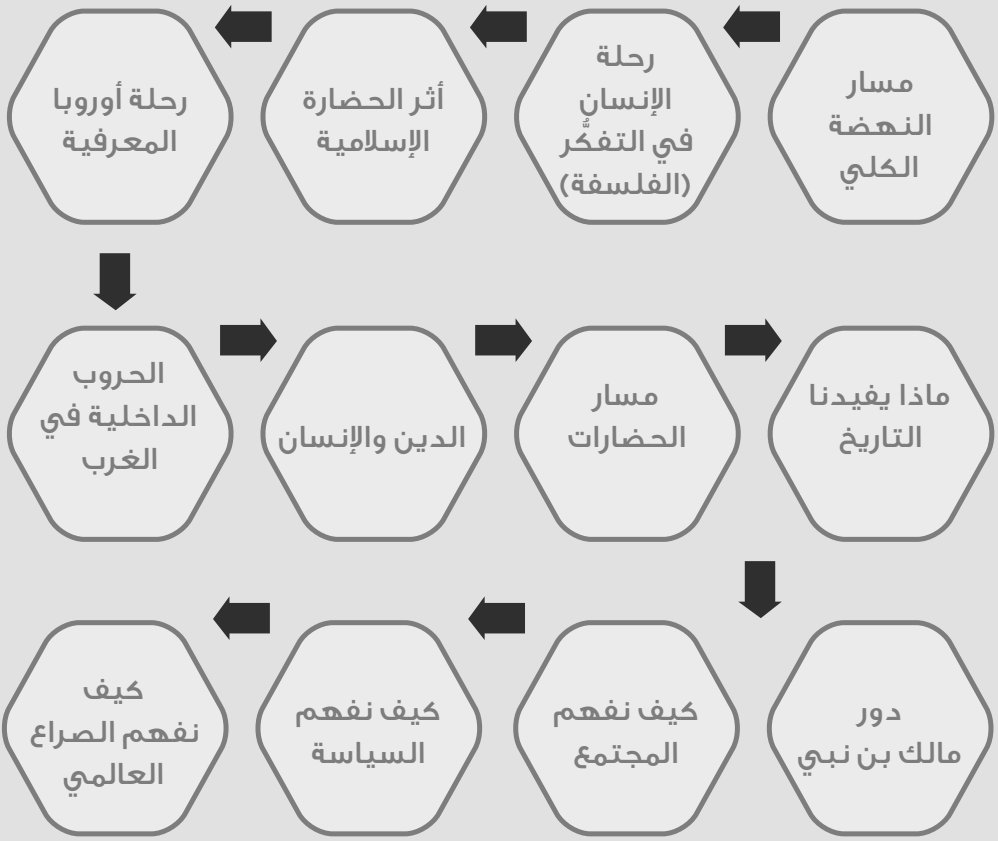
ومن هنا، يسهل أن ينطلق للتفصيل في كل جزءٍ من النموذج، فلا تضيع الصورة الكلية، ولا يضيع المستمع.. ومن المهمِّ أن يدقِّق المتلقي في قولنا: إن النماذج اختزالٌ من الواقع، فيمكن الاستشكال عليها؛ لأنها لا تحتوي على كافة التفصيلات، ولكنها توصف بالمفيدة أو غير المفيدة؛ فإن أنتج المتلقي نموذجاً، أو تبنَّى نموذجاً استحسنه، فالمقياس هو فائدته في عملية التذكُّر ورؤية العلاقات.

استحضار النسق الكلي:

إن استحضار النسق الكلي لهذا البرنامج في ذهن المتعلِّم هو أمرٌ هامٌّ.. وسأوضِّح هذا النسق من خلال نموذجٍ مبسَّطٍ يليه نموذج أكثر تفصيلاً.



1. يلزم تحديد إمكانية المعرفة من عدمها
2. يلزم معرفة لَبِنات المعرفة
3. الاطِّلاع على محاولات الإنسان لضبط المعرفة
4. محاولات الإنسان لضبط المنطق



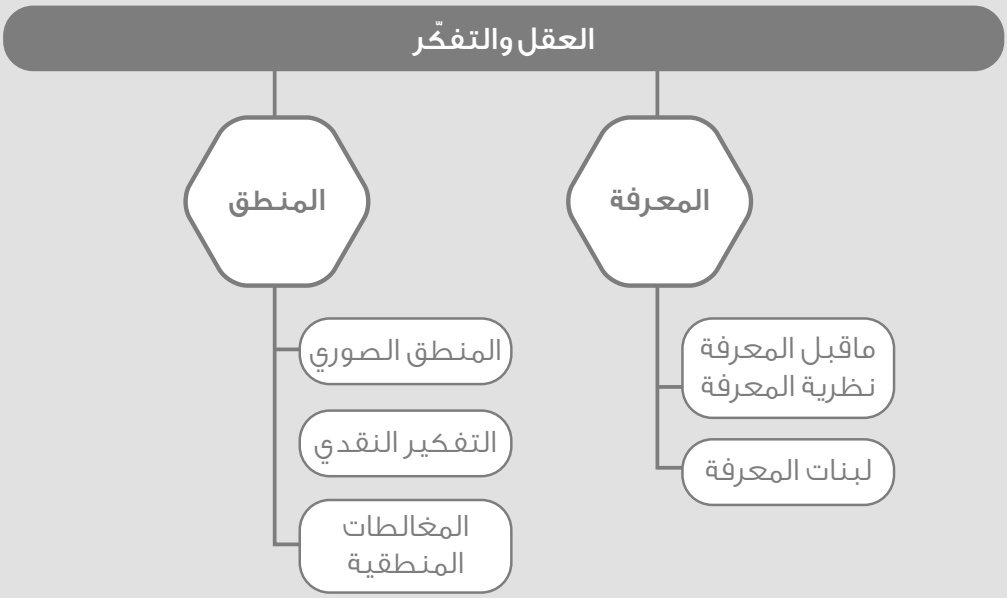
خلاصة المقدمة:



الفصل الأول:
العقل والتفكّر



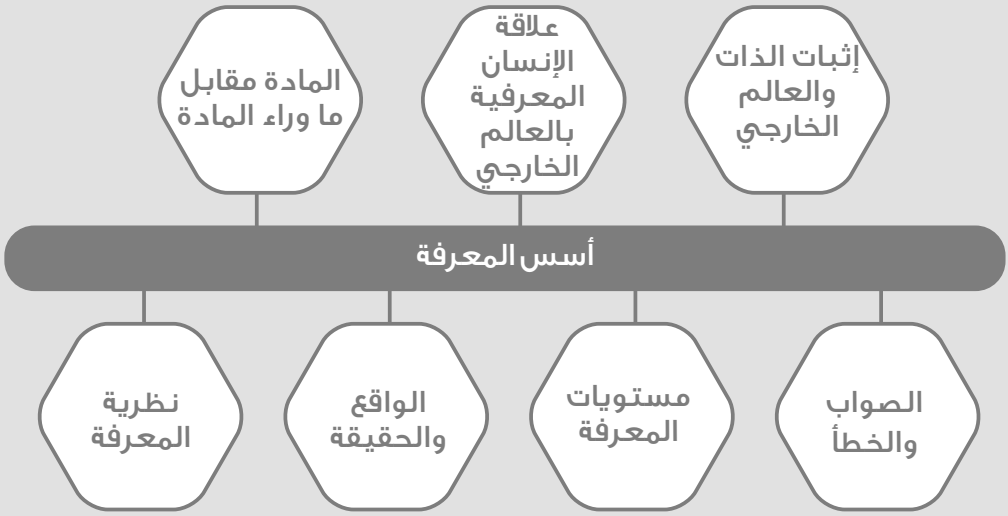
أولاً: المعرفة



1. ما قبل المعرفة

كثيراً ما يُطرح سؤال: كيف يمكن لطالب العلم، أو العامل بمشاريع النهضة، أن يبني معرفةً منظَّمة لديه..؟ وإننا وبهدف الوصول إلى هذه الإجابة، سنمر بهذا المبحث على بعض المحطات التي تشكَّلت منها المعرفة لدى الإنسان عبر العصور، وببعض ما أشكل عليه بها.. وبالتالي، سننتقل من هذه المقدمات لنصل منها إلى نظرية المعرفة..

لنرى أولاً جانباً من إشكال إمكانية المعرفة قبل الولوج للموضوع من خلال ما يعرف بـ"طاولة راسل"، ويقدِّمه الفيلسوف البريطاني (بيرتراند راسل Bertrand Russell) على الشكل التالي: هبْ أن شخصاً سألني أن أُعرِّفَ الطاولة، فقلت له: هي جسم مربع يشغل حيزاً مقداره كذا، لها أربعة أقدام، تستخدم للكتابة، ولونها بني، ومن ثم شرع بتغيير تلك الأوصاف وصفاً وصفاً واستبدالها؛ فمثلاً استبدل جسمها المربع بجسم مستطيل، وحجمها



بحجم آخر، ولونها بلون آخر، ووظيفة الكتابة تحوَّلت لتناول الطعام..! فنجد أنها قد بقيت طاولةً على الرغم من تبدُّل كافة الأوصاف التي ذُكِرَت في التعريف! ومع نزع تلك الصفات واستبدالها، يتعقَّد موضوع المعرفة أكثر وأكثر.. حتى إن الإشكال لم يقف عند هذا الحد، فإن الرائي يرى شكل الطاولة من زاوية نظره هو، فيتغيَّر الشكل مع تغيُّر زاوية النظر، أي: "المسقط الرأسي"، فإننا لو أحضرنا عشرة رسامين ليرسموا الطاولة، لَرسمها كل واحدٍ منهم وفق نظرته الخاصة؛ فبالنسبة للَّون، كلما تغيَّر الضوء تغيَّر اللون، وقد يتغيَّر الشكل المستطيل بتغيُّر زاوية النظر أيضاً، وإن اختيارنا لزاوية النظر التي أعطتنا الشكل المستطيل، أو ضوء النهار الذي أعطانا اللون البني، لا يصادر وجود بقية الاحتمالات..

من أجل تقريب الإشكال، لنفترض أن حقيقة الطاولة هي المخدة التي يغرس بها الخيَّاط الإبر، والإبر هي هذه الأوصاف الخارجية القابلة للتغيير، فها نحن عند تجريد الأعراض لا نمسك بشيءٍ محدَّدٍ.. نحن فقط نلتقي بظواهر الأشياء، وتغيب عنَّا حقيقتها الثانوية تحتها.

إن بناء المعرفة المنظَّمة، لا يمكن إلا من خلال البدء من الصغائر؛ فوعينا بالمعرفة يتطلَّب

نزولاً إلى الأساسات التي لا نراها في عالمنا العقلي الذي نعيش فيه، فكما أننا نبدأ بعمارة بيتٍ ما مِن أساسه لا من أشيائه العلوية، وكذلك تُبنى المعرفة..

وإننا بتناولنا لأسس المعرفة في سبيل بناء معرفةٍ منظَّمةٍ، سنمر على الأسس التي تشكَّلت منها جذور نظرية المعرفة (Epistemology)، فسنتكلَّم عن الوجود، والعقل، وعلاقتهم ببعضهم البعض من خلال سبع محطَّاتٍ:

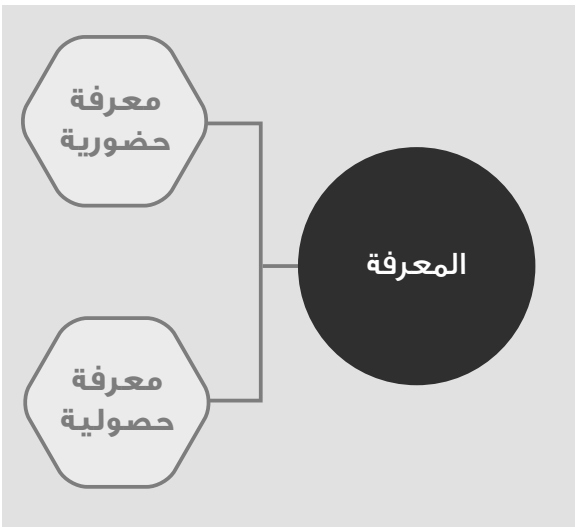
1. المحطـة الأولـى: إثبـات الـذات والعـالم الخارجـي

في نقاشات المعرفة قد تتفاجَأ بسؤالٍ يشكِّك في إمكان المعرفة أصلاً، وفي هذه الحالة أمامك طريقان؛ إما أن تناقش موضوعاً لا تعرف جذوره. وإما أن تتوقف عن الحديث؛ لأن النقاش انقطع حيث انعدم إمكان المعرفة أصلاً.

● تجربة الشكِّ الجذري:

مسألة إثبات الذات تولَّاها (رينيه ديكارت Rene Descartes) وشاعت مقولته: "أنا أشكُّ، فأنا موجود"، بصياغاتها المختلفة، فهناك ذاتٌ ما تشكُّ، وهي الشيء الوحيد الذي لا يمكن إنكاره، واعتبرها نقطة الارتكاز الأولى لينطلق منها إلى المعرفة.

● مقولة المعرفة الحضورية:



إن عملية تعرُّف العقل (الذات الشاكَّة) بالوجود المحيط هي ثاني قضيةٍ كبرى في مسألة المعرفة، وإن أول سؤالٍ يُطرح بهذه القضية هو "كيفية إثبات وجود عالمٍ خارجيٍّ حقيقيٍّ"؛ فالعقل لا يتلقَّى معرفة الوجود بشكلٍ مباشرٍ؛ بل غالباً ما تتمُّ المعرفة من خلال وسائط، تصلنا

بشكل ذبذباتٍ؛ سواء كانت موجات صوتية، أو موجات أخرى.. فتأتي على الأجهزه الجسمانية لدينا؛ فالأشعة تصل للبصر، والصوت يصل للأذنين، واللمس يصل لليدين، وهكذا.. فنحن نتصل بالعالم الخارجي عبر جهازنا العصبي الذي يتلقى الذبذبات التي تمر منه إلى العقل، ليترجمها بالأشكال أو الكيفيات التى نراها، وإن هذه الوسائط قد تكذب أو توهِم صاحبها؛ فالإنسان في أثناء الأحلام قد يحزن ويتخاصم مع أشخاصٍ، ويضحك مع آخرين، ويرى عالماً ثانياً يتفاعل معه بكُلِّيَّتِه، ويعتقد بأنه عالم حقيقي.. كما أن تائهاً عطشاناً في الصحراء قد يرى سراباً فيجري مسرعاً ظنًّاً منه بأنه ماء، وعندما يصل إليه سيكتشف أن حواسه قد خدعته! فما الضامن لنا أن الحواس لا تخدعنا، وبأننا نعيش بالوجود الحقيقي فعلاً؟!

إن هذا أول الأسئلة المتعلقة بقضية نظرية المعرفة.. وعلى الرغم من أننا نتساءل عن الوجود الخارجي، إلا أننا وبطريقةٍ ما نتعامل معه على أنه موجود، وهذا ينقلنا لأهمِّ قضيتين نتلقَّى من خلالهما المعرفة: المعرفة الحضورية، والمعرفة الحصولية:

1. المعرفة الحضورية Immediate Knowledge

وهي المعرفة التي تأتينا من غير سؤالٍ أو تفكيرٍ مسبقٍ، وهي أول معرفةٍ يتعرَّض لها الإنسان في حياته؛ فنحن نولد من بطون أمهاتنا صفحةً بيضاء، ونتعامل مع الوجود ونتفاعل معه من دون أدنى تساؤلٍ فلسفيٍّ عن الوجود الخارجي؛ لكون معرفتنا فيه شيئاً من البداهة، وهذا النوع غير المفكَّر فيه من المعرفة يسمَّى: "المعرفه الحضورية" التي تحصل مباشرةً من دون أن نتحصَّل عليها بالتفكير أو السؤال؛ فلا يُلقِّننا إياها أو يناقشنا بها أحد، كما أنها تحدث دون أيِّ نوعٍ من أنواع القلق أو التساؤلات التي تحدث للإنسان بعدما يكبر وينضج، فعلاقتنا بالعالم عندما نولد ليست علاقه دراسةٍ، فنتعلم المشي دون أن نسأل أو أن نطلب برنامجاً عن كيفية المشي، فيجد الإنسان نفسه في عمر التسعة أشهرٍ يمشي فجأةً، ويعيش هذا الوجود الجديد على أنه كائنٌ متحرِّك.. وهذا النوع من المعرفة أنشأ "علم الفينولوجيا"، وهو علم كامل جوهره يجيب على هذا السؤال الضخم: "من أين أثبتنا الوجود الخارجي؟"، والجواب: أثبتناه لأنه علمٌ حضوري إزاء الوجود الذي لا يحتمل أسئلةً فلسفيةً، وهو أعمق أنواع الوجود؛ لكون معرفته حاصلةً بالضرورة من دون أدنى جهدٍ أو عناءٍ أو شكٍّ.

2. المعرفة الحصولية Mediate Knowledge

وهي المعرفة التي نَتَحصَّل عليها بالتفكير والتساؤل والنظر، بعد ربط الأشياء ببعضها، وبالتالي هي معرفةٌ ليست مباشرةً، إنما تأتينا بوساطة البحث والتفكير والتلقين.

إن المحطة السابقة محطةٌ في غاية الأهمية، فإذا ما غادرناها من غير إدراكٍ أو اقتناعٍ كاملٍ، فلن نستطيع أن نبني شيئاً بعدها؛ فإننا إن أنكرنا الوجود الخارجي أو شكَّكنا به، أو قلنا بتعذُّر إثباته.. فلن يبقى من داعٍ لإكمال الحوار بيننا، فاعترافنا بالوجود الخارجي هو أول المقدمات الأساسية التي يجب التسليم بها؛ لننتقل منها إلى قضايا أخرى تُبنى عليها، وإن إلغاءَها يلغي ما بعدها، فاقتناعنا بفكرة العلم الحضوري (الذي قدَّم العلم بالوجود الخارجي فطرةً)، ساعدنا على أن نعبر هذه الفجوة المعقَّدة في الفلسفة.

وإن وجود المشكِّكين بالوجود، ممَّا لا يقدِّم شيئاً ولا يؤخِّره؛ فالفلسفة انفتاحٌ على أجوبةٍ متعددة، وقد تمكَّنت فكرة العلم الحضوري بقوتها أن تَعْبُر بنا تلك الفجوة لنكمل منها إلى قضايا أخرى.

2. المحطة الثانية: علاقة الإنسان المعرفية بالعالم الخارجي

بعد أن أثبتنا التسليم بحقيقة الوجود الخارجي، ننتقل منه إلى نوعية العلاقة المعرفية بيننا كبشرٍ وبين العالم الوجودي؛ حيث قام بدراسة هذا القضية ثلَّةٌ من العلماء والفلاسفة، وكانت آراؤهم على الشكل التالي:

- **أرسطو Aristotle**: يرى أرسطو بأننا نولَد صفحةً بيضاء تماماً؛ فعقولنا فارغةٌ من أيِّ مخزونٍ علمي، وكل ما يأتينا من المعلومات ناتجٌ عمَّا تلتقطه الحواس من الخارج؛ سواء المعلومات الأولية كالشجرة والظلام..، أو الثانوية كالرياضيات والطب..، وكلام أرسطو في هذه المسألة هو اتجاهٌ مدرسيٌّ قائمٌ في الفلسفة.
- **أفلاطون Plato**: وهو أستاذ أرسطو، ويرى أننا لم نولد صفحةً بيضاء؛ بل لنا وجودٌ سابقٌ على هذا الوجود، يعني: أنه بداخل جسم المولود يوجد ما هو متأتٍّ من العالم الثاني

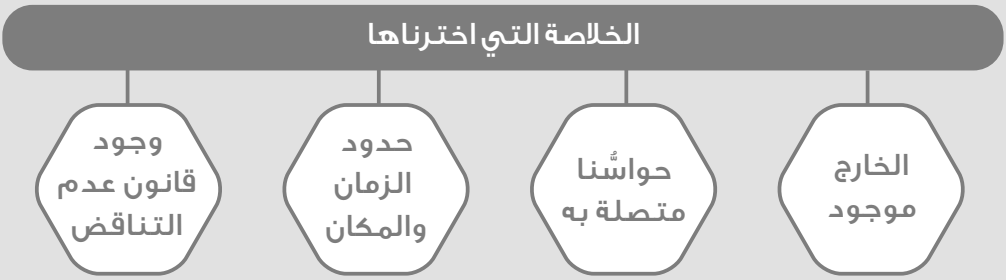
المتجلِّي بالروح، أو بالعقل، أو بشيءٍ آخر؛ فبالتالي لدينا عالمان: العالم المادي الذي هو الدماغ، وعالم الأفكار وهو عالمٌ خارجي مستقل عن عالم الدماغ، وهذا العالم الخارجي هو عالم مليء بالأفكار الكاملة التي التقينا بها في وقتٍ ما كنَّا فيه خارج الجسم المادي؛ فالتقينا بشجرةٍ كاملة، وبشابٍّ كامل، وبذكاءٍ كامل.. فهو وجودٌ خالٍ من أيِّ نقص، ثم بحلول العقل الخارجي في الجسد المادي الجديد، بقيت عنده ذكرياتٌ من هذا العالم المثالي، فأيُّ شيءٍ سيراه في الخارج عنده، له صوره المسبقة الكاملة، فمهما رأى في عالمه المادي من جمالٍ، فلديه في عقله ما هو أجمل وأكمل منه؛ جرَّاء صورةٍ اختزنها في عالمه السابق الذي يسمِّيه أفلاطون: عالم المُثُل، أما عالمنا المادي فيسمِّيه: عالم الظِّلال، فنولد وفي ذهننا عالم المثال، ونلتقي بعالم الظلال الذي نمكث عمرنا فيه نقارن بين النقص والكمال. وفكرة أفلاطون هذه لعبت دوراً كبيراً في الفلسفة؛ لكونها أقرب للفكرة الدينية.

- جورج بيركلي George Berkeley: كعادة الآراء في مسألةٍ ما، يأتي دوماً رأيٌ مبالَغٌ فيه أو متطرِّف، فيرى بيركلي أنه لا يوجد عالمٌ خارجي أساساً، وأن ما يدور في عقولنا المتمثل بعالم الأفكار هو الوجود، وكل الذي نحن فيه ونعيشه هو وهمٌ وخيالٌ، فلا يوجد سوى عالم الأفكار.

- كَانْت Immanuel Kant: وكالعادة أيضاً في صراع مدرستين، تخرج دائماً فكرةٌ وسطية، حمل هذه الوسطية الفيلسوف كَانْت، الذي يرى أن العقل مزوَّدٌ فعلاً بأدواتٍ أساسية للتفكير، ومن دون هذه الأدوات لا يمكن أن تأتي المعرفة، ولا أن نحيط بأيِّ مسألةٍ، إلا أنه لا يرى أن هذه الأدوات هي عالم المُثُل الذي تحدث عنه أفلاطون؛ بل يرى أن عالم الدماغ لا يستطيع أن يستقبل الأشياء التي تأتي من الخارج إلا من خلال فكرة الزمان وفكرة المكان؛ فالإنسان بمجرَّد أنه يسأل: ماذا يوجد بعد هذا الزمن، فإنه بسؤاله: ماذا قبل وماذا بعد، يعني أنه ينحصر بالزمان والمكان، وسيأتي جواب سؤاله أيضاً محصوراً في إطار الزمان والمكان، وفي ذلك الاستقبال، هناك على الأقلِّ قانونٌ أساسيٌّ لا يخرج عنه: قانون عدم التناقض؛ فالعقل لا يتقبَّل أن فلاناً موجودٌ في البيت وغير موجودٍ في وقتٍ واحدٍ؛ فالعقل الإنساني يستقبل أحداث العالم من حوله في إطار الزمان والمكان اللذين قد لا يكون لهما بالفعل وجودٌ خارجي، إنما العقل لا يستقبل إلا بهما، كما أنه من عدَّة الإنسان المزوَّدبها

الحواسُّ التي تمكِّنه من الاتصال بالعالم الخارجي، والتي تكشف باتصالها مع الوجود الخارجي فاعلية القدرات والأدوات التي زُوِّد بها الإنسان، وعليه فإن التجربة الخارجية أساسيةٌ بالنسبة لنا؛ حيث تكشف عن فاعليه الأجهزة لدينا، ومن خلالها نتعرَّف على حقائق الواقع بدرجةٍ من الدرجات.

إذاً وصلت الفلسفة في مسألة "علاقة العقل أو دوره بالوجود الخارجي" إلى أربع إجاباتٍ كبيرةٍ، وأقرب تلك الإجابات إلى التصوُّر السائد، هي أننا فعلاً مزوَّدون بهذا الجهاز المعرفي المحكوم بالزمان والمكان، وأنه لدينا على الأقل قانون عدم التناقض، والحواس التي تصلنا بالخارج.



وبوصولنا إلى اختيار هذا الموقف، نكون قد عَبَرنا المحطة الثانية، بعد أن كنَّا قد عَبَرنا المحطة الأولى بإجابة ما سمَّيناه: "العلم الحضوري". وإن اختيارنا في المحطة الثانية لموقفٍ دون آخر، لا يمنع الدارس من اختيار موقفٍ ثانٍ مغايرٍ لذاك الذي اخترناه، ولكنَّنا نبني هنا على ذاك الموقف بغية استمرار الحوار بيننا باتجاه ما اختارته البشرية، بأن الإنسان مزوَّدٌ بمَلَكَاتٍ ثلاثٍ، ويبني معرفته من الداخل والخارج.

تذكَّـــر

إنَّ الفلسفة تبحث في إشكالٍ، ولا تبحث المشكلة؛ أي: إنها تبحث في قضايا تحتمل عدَّة وجوهٍ، لا وجهاً واحداً

- رينيه ديكارت Rene Descartes: وهو أحد أكبر فلاسفة عصر التنوير، وهو عالم رياضيات وفيلسوف في وقتٍ واحدٍ، وصل إلى أن العقل قادرٌ على إيجاد معرفةٍ صلبةٍ على الأقل، وهو أنه يشكُّ: "أنا أشكُّ، فأنا موجود"، كما أسلفنا.

أما عن مصدر المعرفة، فيرى ديكارت أن المعرفة تأتينا من داخل العقل، فنحن مزوَّدون أساساً بجهازٍ معرفيٍّ، ويكون موثوقاً بالأفكار التي نبنيها بداخله عن طريق الرياضيات، بينما المعلومات التي نأتي بها من الخارج، ليست بذات الدرجة من الثقة، وسعى لتكوين فلسفةٍ كاملةٍ تقوم على صناعة العالم من خلال الرياضيات باعتبار أن العقل هو الذي يمتلك القدرات الموثوقة، بينما الحواس تنقل لنا أشياء متضاربةً من العالم الخارجي..

سمِّيت مدرسة ديكارت بالمدرسة العقلانية (Rationalism)؛ لكونها تعتقد أن عالم الأفكار هو السيد، وأنه بالنقاش الذي يدور فيه يُبنى العالم الخارجي، وإذا اعتمدنا الرياضيات كلغةٍ داخل هذا العالم، يصبح عندنا عالمٌ صلبٌ نستطيع أن نفسِّر من خلاله العالم الخارجي.

- فرانسيس بيكون Francis Bacon: كعادة المدارس والآراء؛ يخرج دوماً مقابل اتجاهٍ ما ما يناقضه، فيأخذ بيكون منحىً آخر مغايراً عن منحى ديكارت، ليرى أن جميع معلوماتنا تأتي من العالم الخارجي عن طريق التجربة. وبالتالي؛ فإن التجربة هي التي أعطتنا جميع المعلومات الداخلية. وقد عاصر بيكون الفترة التي عاش فيها ديكارت؛ فكانت كلا المدرستين؛ المدرسة التجريبية (Empiricist) والمدرسة العقلية (Rationalist) على صراعٍ دائمٍ فيما بينهما.

من هذين المزدوجين سيتشكَّل العصر بشكلٍ من الأشكال؛ أي: من تصليب المعرفة بالأرقام، ومن اختبار المعرفة بالتجارب؛ سواء التجارب الاجتماعية، أو المخبرية، ومن دمج الآليَّتين ببعضهما، سنصل إلى معرفةٍ أكثر احتماليةً من المعرفة الناتجة عن استنتاجات العقل فقط.

وإن الأمم التي لم تعبُر من منطقة المعرفة هذه، ستبقى عاجزةً؛ لأن الأمم الداخلة في الحسابات والتجارب هي أممٌ أصلب في مواجهة الواقع الذي تعيشه المجتمعات من غيرها؛ حيث سنجد فيها من سيصل إلى القمر، ومن سيصنع الأسلحة والصواريخ، اعتماداً على هذه الآليات الصلبة.

3. المحطــة الثالثــة: المــادة مقابــل ما وراء المــادة

إن السبب الرئيسيَّ من تشكُّل هذه المحطة هو التقاء العقل بالوجود الخارجي، فنَشَأَ عن هذا الالتقاء عدة أسئلةٍ ولَّدت قضايا فلسفيةً كبرى نوقشت على مرِّ العصور ومن هذه القضايا:

● قضية المادة:

من القضايا الفلسفية الكبرى التي نشأت في العقل البشري، هي الأسئلة المتعلِّقة بمكونات الكون، أو بتعبيرٍ آخر: بالوجود المادي (physics)، وتناوَلَ تلك القضيةَ فلاسفةٌ سُمُّوا بفلاسفة الطبيعة، نشأت فلسفتهم من التقاء الإنسان بالمادة، فتساءَلوا عن المادة.. ما هي؟ وممَّ تتكوَّن؟ ورست الإجابات ابتداءً من أنها تتكوَّن من الماء والتراب والنار والهواء؛ فهي العناصر الأساسية التي يتكون منها الوجود، وظلَّ هذ الرأي هو السائد دون حسمٍ من فترة ما قبل الميلاد بحوالي 3000 – 4000 عام، حتى القرن السابع عشر؛ حيث حسمته العلوم الحديثة التي أظهرت بأن الذرات هي العنصر الأساسي في تشكُّل الكون.

● قضية ما وراء المادة:

لم يكتفِ العقل الإنساني بالبحث عن المادة وممَّ تتكوَّن.. بل امتدَّ إلى ما وراء المادة؛ فالطاولة على سبيل المثال إذا جرَّدناها من صفاتها، سنصل في نهاية المطاف إلى كونها عبارةً عن ذرَّاتٍ متراكبةٍ في أساسها، ثم يأتي السؤال: ماذا وراء هذه الذرة؟ وممَّ تتكوَّن في أساسها؟.. وصولاً إلى أسئلة (الميتافيزيقا Metaphysics) الأسئلة الماورائية: ماذا يختفي وراء المادة؟ وما الذي يختفي وراء الزمن؟ وما الذي يختفي وراء المكان؟ وماذا يعني الوجود؟ وماذا يعني العدم؟ فتكوَّنت مباحث ما وراء المادة، وهي مباحث فلسفيةٌ كبيرة شغلت الناس لعصورٍ طويلةٍ.

● المادة مقابل ما وراء المادة Physics vs Metaphysics

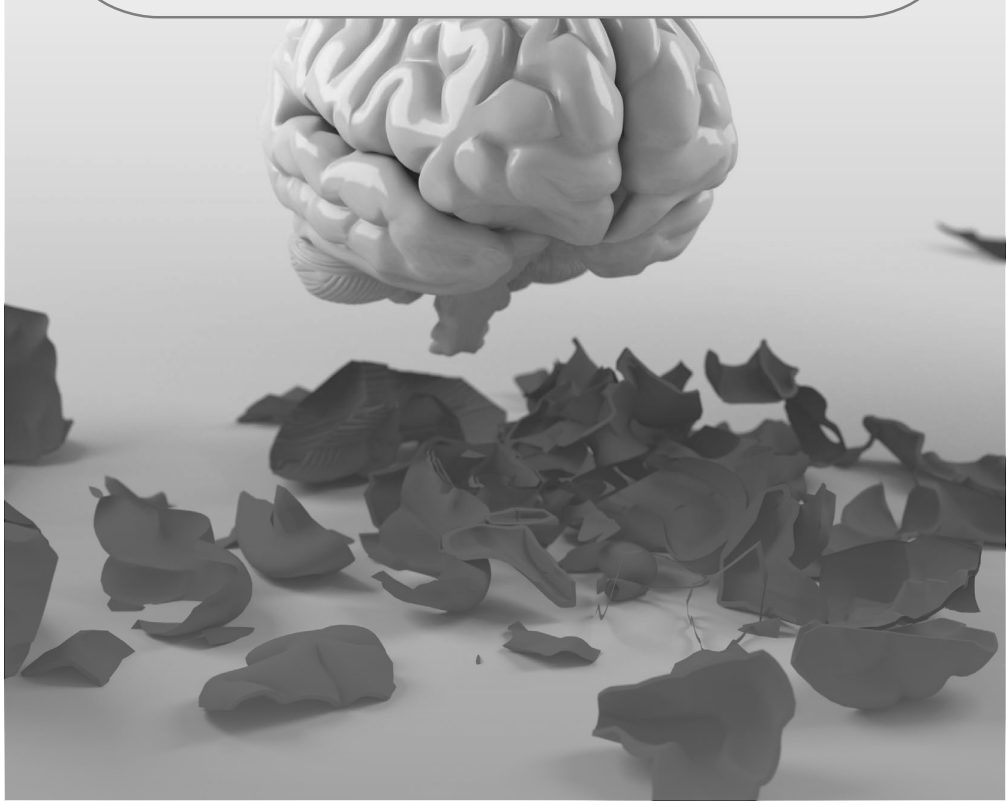


● حدود الإنسان بتلقّي المعرفة:

إن الوصول لانسداداتٍ معرفيةٍ أوصل الإنسان لسؤال: ما أكثر ما نستطيع معرفتَه نحن كبشرٍ؟ وكان من الطبيعي أن يسأل الإنسان نفسه عن قدرته للإحاطة بالمعرفة، فتكلَّمت نظرية المعرفة عن طبيعة المعرفة، وما هي المعرفة؟ وكم حدود المعرفة؟ وما وسائل المعرفة؟ وهل يثق الإنسان في المعرفة لديه، أم أن معرفته تتخلَّلها الفجوات؟.. كل هذه الاسئلة الأساسية نشأت من لقاء عقل الإنسان بالوجود الخارجي.

نظرية المعرفة Epistemology

إذا أزلنا التعقيدات التي يثيرها المصطلح في الذهن، فيمكن تلخيصه في سؤالٍ واحدٍ:
كيف نتأكَّد من أننا نعرف؟



4. المحطــة الرابعة: الصواب والخطــأ

من المسائل التي طرأت على الإنسان وأشكلت عليه: مسألة العادات الخُلُقية؛ حيث وَجَدَ الإنسان نفسه يعيش مع أشخاصٍ آخرين، ومن طبيعة الحياة مع طبيعة البشر، نَشأَت الأسئلة الخُلُقية عن الصواب والخطأ.

إذاً؛ فالفلسفة في جوهرها بُنِيَت على بنية العقل الإنساني، وما يدور فيه من نقاشٍ حول المادة، وما وراء المادة، وأسس المعرفة، والسؤال الأخلاقي أو غير الأخلاقي.. فهذه المسائل الأساسية التي تكوَّنت منها المعرفة البشرية والتي ستستمرُّ عبر العصور.

الخلاصة

العقل الإنساني واهتماماته هي الفلسفة:
هل يمكنني أن أعرف؟ .. ما المادة؟ .. وما وراءَها؟ ..
ما الصواب والخطأ؟ ..

5. المحطــة الخامســة مستويات المعرفــة

ونصل إلى محطةٍ ذات أهميةٍ كبيرةٍ جدًّاً في بناء المعرفة، وهي مستويات المعرفة، وسنمرُّ على ثلاثة مستوياتٍ؛ منها:



1. الوعي (الإدراك):

هو المستوى الأول من مستويات المعرفة، وهو مسألةٌ أوليةٌ تلقائية غير مقصودةٍ منَّا، وتحدث دون استئذانٍ؛ فنحن لا نقرِّر الوعي ثم نعي؛ بل يأتينا الوعي بالمحيط تلقائيًّاً أوليًّاً. ويحدث الوعي بالمحيط عن طريق الحواس، فيمتد إلى الأشياء المحيطة بنا ليعطينا نوعاً من الإدراك بها،

فالمُغْمى عليه الذي قد ينقطع عمَّن حوله، يقولون عنه: فاقدٌ للوعي، وحتى يتمَّ التأكُّد من وعيه أو عدمه، يُسأل عن مدى سمعه أو إحساسه بالمحيط؛ حيث يُطلَب منه الإشارة بإصبعه، أو برمش عينه إن لم يكن قادراً على الحركة. وغياب شيءٍ من الوجود عن أحد الأشخاص كالصوت مثلاً، لا يعني عدم وجود هذا الصوت؛ بل قد يكون خارج حيِّز وعيه؛ فالوجود موجود؛ سواء دخل في وعي شخصٍ ما، أم لم يدخل.

2. العلم:

وهو المستوى الثاني من مستويات المعرفة، والعلم يجب أن يمرَّ بثلاثة مراحل أو شروطٍ حتى يسمَّى علماً:

- المرحلة الأولى: وجود معتقدٍ؛ بأن يعتقد شخصٌ ما اعتقاداً ما؛ فيقول على سبيل المثال: "أنا أعلم بأن هذه الدورة مفيدة"، فمع وجود هذا المعتقد، يكون قد توفَّر لدينا أول شرطٍ.
- المرحلة الثانية: إمكانية البرهان على المعتقد؛ وهي المرحلة التي يتمكَّن فيها صاحب المعتقد من أن يبرهن اعتقاده، فإن تمكَّن الرجل في المثال السابق أن يثبت للآخرين بأنها دورة مفيدة، نكون قد دخلنا المرحلة الثانية وتحقَّق الشرط الثاني.
- المرحلة الثالثة: صحة المعتقد في الواقع العملي؛ بأن يطبِّق هذا الاعتقاد في الواقع العملي، ويكون صحيحاً فعلاً.

إذاً؛ فهي ثلاثة شروطٍ لما يُسمَّى علماً: أن يكون معتقداً، ومبرهناً، وصحيحاً في الواقع، فإذا تحقَّقت هذه الشروط، سمِّي علماً، وهنالك شروطٌ أخرى في نظرية المعرفة، إنما هذه الأسس الأولية لمقصد العلم.



3. الفهم:

إذا كان العلم بهذا المضمون.. فكيف نفرِّق بين العلم والفهم؟

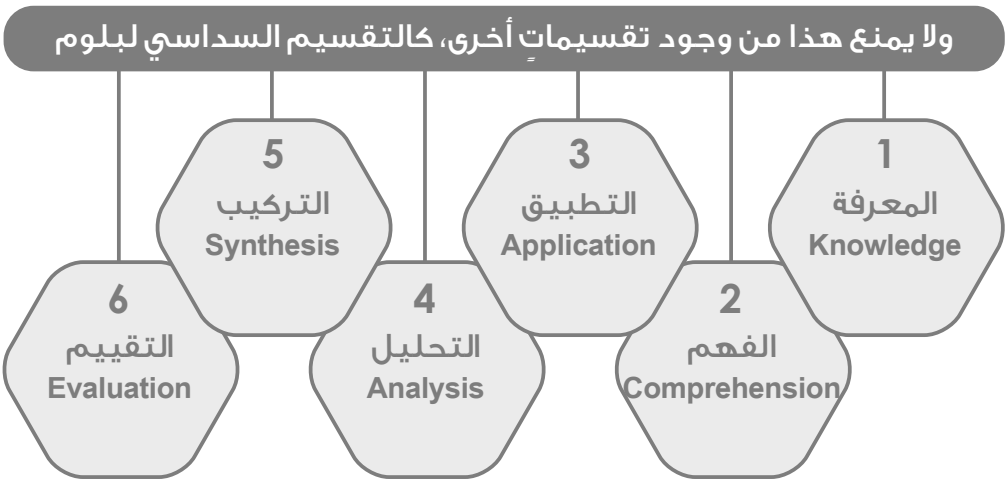
إن للفهم ثلاثة مستوياتٍ تتمثَّل بالتالي:

- **المستوى الأول: حينما يُطلب من شخصٍ ما على سبيل المثال أن يذهب للقاء سعيدٍ في الساعة السابعة، يكون حينها فَهِم ماذا عليه أن يفعل، فيحصل الفهم في أبسط مستوياته حينما يكون المطروح جواباً لسؤال: "ماذا سأفعل؟"..**
- **المستوى الثاني: يكون الفهم في مستوى أعمق من السابق حينما يسأل الشخص: "لماذا سأقابل سعيداً؟"، فالفهم هنا هو جواب لـ "لماذا عليَّ أن أفعل؟"..**
- **المستوى الثالث: يكون الفهم فيه للنظام الذي سيُشتغل فيه بموضوعٍ ما؛ فنفهم النظام الذي تشتغل فيه الحادثة الجزئية، كأن يفهم رئيس قسم المبيعات وظيفته بكونها على سبيل المثال تسويقاً للقمح، وبالتالي يفهم النظام الذي يتمُّ فيه هذا التسويق.**

إذاً؛ فمستويات الفهم ثلاثةٌ: أن نعرف ماذا، ولماذا، والنظام الذي نشتغل فيه. وهذه القضية من القضايا الهامة جدَّاً في الحياة العملية، فسؤال "ماذا" هو مستوياتٌ دنيا للفهم، فعلى الإنسان أن لا يكتفي بهذا المستوى، فإذا ما اعتدنا أن نفهم إجابات "لماذا" و"نظام العمل" لشيءٍ ما.. نكون عندها في مستويات الفهم العليا التي يحدث عندها الإبداع.

إن مستويات الفهم التي يحدث بها الإبداع هي ما يكون بها التعلُّم بمستوياتٍ غير صفريةٍ؛ أي: التي تكون إجاباتٍ لـ: لماذا، أو كيف، أو نظام العمل لشيءٍ ما..





6. المحطة السادسة: الواقع Reality، والحقيقة Truth



- نأتي في هذه المحطة إلى مصطلحين كثيري التواجد في الكتب، وكثيراً مانُربَك بهما، وهما: الواقع والحقيقة؛ فقد نسمع قائلًا يقول: في الواقع كذا وكذا، وفي الحقيقة كذا وكذا.. فما الفرق بين الواقع و بين الحقيقة؟

- إن الواقع في معناه العلمي هو عالم الشهود، أي: العالم المحسوس الذي نتلقَّاه كبشرٍ في حواسنا، فلو قيل على سبيل المثال: إن محمداً موجود في الغرفة، ثم دخلنا وتحقَّقنا من وجود محمدٍ في الغرفة، فيكون هذا هو ما نعنيه بالواقع.

- أما الحقيقة، فهي وجود ادِّعاءٍ بأن محمداً موجود في الغرفة، فإذا ما طابق الادعاء الواقع سمِّي بـ: الحقيقة.

فالواقع هو عالم الشهود كما هو، أما الحقيقة فتتمثَّل بادعاءاتنا البشرية عن عالم الشهود التي طابقت الموجود؛ سواء ما كان منها ماديًّاً، أو عقليًّاً، فهنالك علاقة بين كلا المفهومين، إلا أن هناك اختلافاً بينهما، وإن معرفة الفرق بينهما من الأمور الأساسية في بناء المعرفة.

7. المحطـة السـابعـة نظريـة المعرفـة

إن المحطات التي مررنا بها سابقاً هي أساساتٌ نبني عليها لنصل إلى نظرية المعرفة.

فما نظرية المعرفة؟

هي النظرية التي بَحَثَتْ في طبيعة المعرفة، وما المقصود منها، وما نطاقها الذي يمكن للإنسان أن يصل إليه، وما شروط اعتبارها معرفةً، أي: متى نعتبر أنّ الذي لدينا علمٌ، وليس فقط مجرَّد إدراكٍ؟

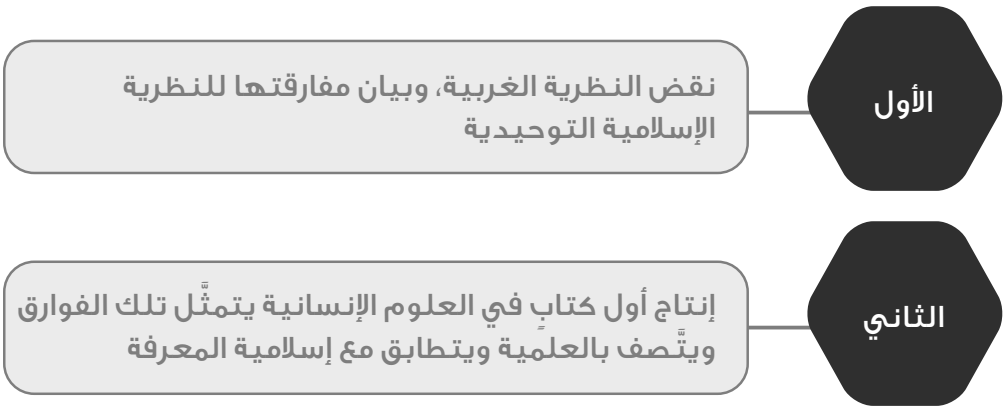
فنظرية المعرفة هي التي تبحث في تلك المسائل الأساسية، وإن نظرية المعرفة الغربية معروفةٌ وواضحةٌ، فإذا ما فتحنا أيَّ كتابٍ بعنوان: Epistemology، فسوف نجد نظرية الغرب بالمعرفة بتفصيلاتها (طبيعتها، تسميتها، حدودها..). إنما نحن المسلمون بحاجةٍ إلى أن نعرف عن نظرية المعرفة الإسلامية، وكيف تُحقَّق المعرفة في هذه البيئة وبضوء النظرة الإسلامية..

فما نظرية المعرفة الإسلامية؟ وما المصادر المعزِّزة أو البانية لمفهوم المسلم عن المعرفة التي يستيطع الشاب أو الفتاة الداخلان إلى عصر الثقافة أن يعرفوا من خلالها المقصود بالمصطلح الذي يبرز تحت اسم "إسلامية المعرفة"؟.. فمِن أين برزت التسمية؟ وما قصتها؟

أول مَن طرح موضوع إسلامية المعرفة هو إسماعيل الفاروقي -رحمه الله- في أمريكا، وهو أستاذ لفلسفة الأديان من أصولٍ فلسطينية.. وهو أول رئيسٍ لمعهد الفكر الإسلامي 1981، والفكرة تدور حول قضيةٍ مركزيةٍ، وهي: أن العلوم الغربية تستند في العمق على تصوُّرٍ ماديٍّ لا يرى للغيب مكاناً في المعرفة، وأننا في العالم الإسلامي نظراً لاختلافنا في المنطلقات عن



الغرب وإيماننا بوجود معرفةٍ تتعلَّق بالغيب، وأن مصدر المعرفة عندنا واحدٌ هو الله، فهذا يقتضي أن تكون العلوم الإسلامية مختلفةً في غايتها ومناهجها ومخرجاتها عن المخرجات الغربية؛ وخاصَّةً في العلوم الإنسانية وعلم الاجتماع، ومِن هنا كان حلم المعهد العالمي للفكر الإسلامي أن يقوم بدورين:



لكن، مضى على المشروع ما يقرب من أربعين سنةً ولم يتمَّ إخراج أيِّ كتابٍ يحمل هذا الوصف، بالرغم من أن حملة الفكرة علماء أفاضل، مثل: القرضاوي، والريسوني، وأبي القاسم حاج حمد، والشيخ محمد الغزالي.. وبقي المشروع يراوح مكانه دون أيِّ اختراقٍ حتى اليوم.

وبغضِّ النظر عن الفائدة التي قد تحقَّقت من هذه الفكرة، أو لا ..، فإن الإنسان الذي يعيش داخل الثقافة الإسلامية، بات محتاجاً ليعرف: لماذا طُرحت هذه الفكرة؟ وما جذورها التي نشأت عليها؟ وأين وصلت اليوم؟ وهل له من إسهامٍ في مستقبل الحياه البشرية؟

إننا بختام هذه المحطة نكون قد مررنا على سبع محطاتٍ في موضوعنا الذي نتكلم عنه، والذي هو بأساسه جزءٌ من نظرية المعرفة، المتمثِّل بعلاقة العقل بالوجود الخارجي، وكيف شكَّلت العالم بعد ذلك، والقضايا التي يدرسها العالم، والأفكار الكبرى الموجودة فيه، المتأتِّي أساسُها التحتيُّ من هذه الأسئلة الكبرى التي تحيط بنظرية المعرفة.

كما أننا مررنا على موضوعٍ مهمٍّ جدًّا، ألا وهو علاقة العقل بالوجود؛ كيف أنتجت مجموعة علومٍ وتصوُّراتٍ، وما زالت تتفاعل في حياتنا ونعيش حولها؛ سواء كنَّا مسلمين، أو غير مسلمين.

2. لبنات المعرفة

الحياة تدور حول النظريات.. منها ما هو ناضج، ومنها ما هو أولي انطباعي، والنظريات تتكون من الكثير من المفاهيم.. وأول سؤالٍ سنطرحه: ما النظرية الجيدة؟ وما الذي يحيط بها من مصطلحاتٍ؟ ماذا إذا كانت النظرية غير قابلة للفحص، أو أنها تعتمد على معاييرٍ غير متفقٍ عليها؟

ننتقل الآن إلى منطقةٍ مهمَّةٍ في التأسيس، تتبع ما تحدَّثنا عنه في المبحث السابق، وهي "اللَّبنات الأساسية التي تُرَكَّب منها المعرفة"، والمتمثِّلة بالنماذج والنظريات والمفاهيم، التي نحتاج إلى أن نتعرَّف عليها من الأساس، وأن نعرف قيمتها وموضوعها قبل أن نبدأ في رحلتنا مع المعرفة المنظَّمة..



اللبنــة الأولــى: المفهــوم (Concept)

كثيراً ما نسمع في العلوم الإنسانية مصطلح "المفهوم"، وقد يقال: مفاهيم فلانٍ صحيحة، أما مفاهيم فلان فخاطئة؛ فما المقصود بكلمة مفاهيم؟ وكيف يضعها العقل؟ ولماذا؟

قد نطلق على شيءٍ ما اسماً ما؛ كأن نقول: هذه زجاجة، ونسمِّي الاسم ذاته لزجاجةٍ أخرى، على الرغم من الفارق الشديد بين الزجاجة الأولى والثانية، فلماذا أطلقنا على كلتيهما ذات الاسم؟ وما الذي جعل لدينا مفهوماً واحداً للزجاجة مهما تغيَّرت الأشكال أو كثرت؟

إن هذا ما نسمِّيه: "المفهوم"؛ فعقل الإنسان مركَّب على محاولة إدراج الخصائص الرئيسية لفكرةٍ ما تحت عنوانٍ كبيرٍ، ثم يُعمِّم ذاك العنوان على كل ما تنطبق عليه الخصائص الرئيسية لشيءٍ آخر..

وقد يتَّسع المفهوم ليشمل الأشياء المادية والأشياء غير المادية؛ فالصدق على سبيل المثال ليس بشيءٍ ماديٍّ، إنما هو مفهومٌ موجود في العقل، فإذا ما طلبنا أن ندلِّل على الصدق في الواقع، فسأدلِّل مثلاً على فلانٍ الذي اعترف بجريمته، فأسمي اعترافه: صدقاً، ففي الواقع الخارجي الصدق نفسه هو "مفهومٌ ذهنيٌّ"، إلا أنه يتمثَّل في الواقع الخارجي من خلال "حالات" الصدق. ومثالٌ آخر: مفهموم الإنسان، فإذا ما رأينا محمداً أو سعيداً أو عليًّا، فسوف نسمِّيهم: إنساناً، في حين أنه ليس هناك وجودٌ خارجي لشيءٍ اسمه "إنسان"، لكنه متمثِّلٌ في آحاد الناس.

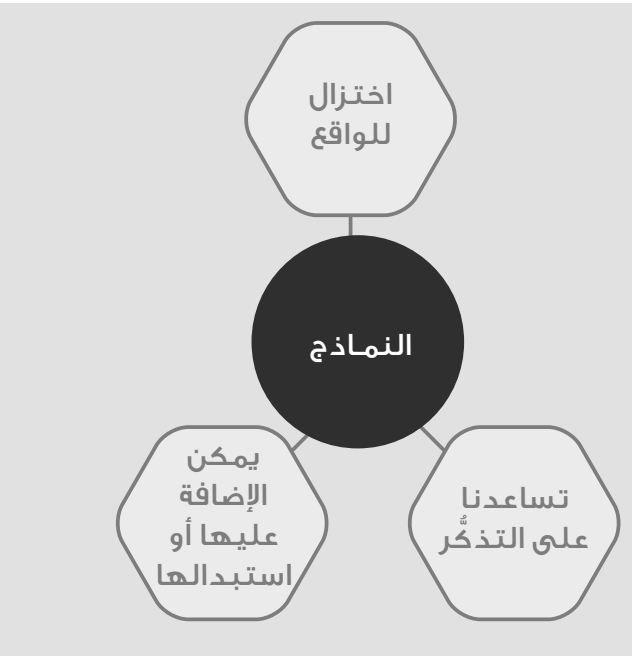
كما أن هناك فرقاً بين التجريد العقلي للمفهوم الذي يشمل كل هذه الوحدات، وبين التحقُّق العملي الذي يسمُّونه: المصاديق الخارجية، التي هي عبارةٌ عن آحاد الأشياء؛ فعندما نقول: "مفهوم"، فإننا نتكلم هنا عن شيءٍ تجريديٍّ في العقل تندرج تحته أشياء كثيرة جدًّاً في الواقع؛ فالإنسان يختزن معنىً تجريديًّاً في العقل يطلق على الأشياء الخارجية التي تحمل ذات الخصائص الأساسية مهما اختلفت خصائصها الفرعية.

المفهوم

تجريد عقلي يغطي مساحة واسعة من الأشياء في الخارج بشكل أفرادٍ

ويمكن أن ننتقل بالمفاهيم إلى مرحلةٍ ثانيةٍ حينما نحوِّلها إلى إجراءاتٍ، فإذا ما أردنا التأكُّد من تحقُّق المفهوم وعدمه، فعلينا أن نضع إجراءاتٍ للمفهوم، ومن ثم نتأكد من تحقُّق هذه الإجراءات، فعلى سبيل المثال: للتأكُّد من أن مفهوم الاكتئاب ينطبق على شخصٍ ما أو لا، نضع إجراءاتٍ لمفهوم الاكتئاب، ثم نتأكد من مدى تحقُّق هذه الإجراءات على الشخص، كأن نتأكد من مدى كره الشخص لخلطة الناس، ومن مدى شعوره بالضيق وعدم الراحة، وشعوره بعدم الكفاءة أو الجدوى، وإن كان يميل للتخلُّص من الحياة.. فإذا تحقَّقت هذه الإجراءات، نكون قد تأكَّدنا من تحقُّق مفهوم الاكتئاب لديه.

اللبنــة الثانيــة: النمــوذج أو الدياجــرام (Diagram)



النموذج هو خارطة طريقٍ لأجرأة المفاهيم، وتبسيط الفهم، وتحديد خطوات تحقيق الأهداف؛ فالنموذج عبارةٌ عن صورٍ تقوم بتوصيل الفكرة بطريقةٍ أفضل من الشرح المجرَّد، وهو أداة تفسيرٍ لواقعٍ ما في الوجود، **فهو يشبه النظرية من جانبها التفسيري، إلا أنه يختلف عنها بكونه لا يقتصر على التفسير فقط؛ بل يمتدُّ ليشمل التفسير والتبسيط والاختزال، فقد يوضع نموذجٌ لنظامٍ سياسيٍّ فيه: مدخلات، وحكومة، ومخرجات، بشكل قراراتٍ، ثم تغذية راجعة، ثم اختيار الجماهير، ثم أحزاب تدخل الحكومة.. وهذا ليس السياسة، إنما هو نموذجٌ للتعبير عن العملية السياسية؛ فالنماذج أدوات تفسيرٍ وتبسيطٍ تختزل الواقع، ولاتَتَضَمَّن جميع تفصيلاته، ويمكن لها أن تُعدَّل وتُهَنْدَس من شخصٍ لآخر؛ فإذا ما قال قائل: أريد أن أضيف أو أعدِّل في النموذج، فنقول له: لا بأس أضف وعدِّل كما تريد، فالنماذج لا تُنعَت بالصواب أو الخطأ؛ بل قد تُنعَت بكونها مفيدةً أو غير مفيدة، وبالتالي فإن صاحب النموذج هو المسؤول عن نموذجه في نهايه المطاف..**

إن عقلنا البشري مركَّبٌ على النمذجة، والنماذج جزءٌ كبير جدًّا من عملنا نحن كبشرٍ؛ فالبشر دائمو صنع النماذج في الحياة حتى في الحياه العادية؛ فقد يتحفَّظ الوالدان على صحبة ابنهما لصديقٍ ما، بناءً على أنه يخالف نموذج الصاحب المثالي في عقولهم، فلدى كل إنسانٍ نماذج قد تطال أبسط شؤون الحياة أو أعقدها وأكبرها.. وقدرة الفرد على العمل من خلال النماذج تسهِّل مهمَّته؛ سواء في تذكُّر الفكرة، أو في القدرة على شرحها.

اللبنــة الثـالثــة: النظريــة (Theory)

ما النظرية في العلوم الإنسانية؟

النظرية في العلوم الإنسانية هي تفسيرٌ منظِّمٌ لحقائق وقوانين متعلقةٍ بجانبٍ معيَّنٍ من الحياة.

وهنا تبدأ أول مشكلةٍ.. فما الفرق بين النظرية والحقائق في هذا التعريف؟

الحقائق

نحن نلاحظ ظواهر معينة تتكرر أمامنا، فمثلاً: ابن خلدون لاحظ حقيقة قيام الدول وسقوطها، وتماثُل أعمارها بين النشأة والسقوط.. فتلك حقائق لا تقبل الإنكار، ويمكن أن يلاحظها أيُّ باحثٍ آخر ويتأكد منها.

النظرية

هي تفسيرٌ منظِّمٌ لتلك الحقائق؛ بمحاولة فهم ما يقف خلف تلك الظاهرة وتفسيرها.

ما النظرية في العلوم التطبيقية؟

هي ذاتها من ناحيةٍ تبسيطيةٍ؛ **فهنا تُلاحَظ أيضاً ظواهر كونية؛ كسقوط الأجسام إلى الأرض باستمرارٍ، أو وجود ثقوبٍ سوداء في الفضاء الخارجي، وتباعد النجوم باستمرارٍ، ووجود بقايا إشعاعاتٍ في خلفية المشهد الكوني.. وعندها يضع العلماء تفسيراً يحاول تعليل الظواهر؛ سواء كان سقوط الأجسام للأرض، كما في نظرية الجاذبية، أو خط رابط يفسِّر تلك الظاهرة المتعددة في الفضاء بتعليلٍ محتملٍ، كما تفعل نظرية الانفجار الكبير.**

لكن ما الفرق بين الفرضية غير المختبرة والنظرية؟

نحن نضع فرضيةً أو فرضياتٍ، وهي أقرب الاحتمالات التي يمكن أن تفسِّر الظاهرة، وهي تبقى افتراضاتٍ إلى أن يتمَّ اختبارها والتحقُّق من قدرتها التفسيرية؛ أي: درجة احتماليَّتها بمعيارٍ إحصائي رقمي، أو مصادقتها من قبل نتائج علميةٍ جديدةٍ.. فمثلاً: قيمة نظرية الانفجار الكبير زادت بعد اكتشاف "مسبار هابل" وتوسُّع الكون، واكتشاف الموجات القصيرة المنتشرة في الكون، واكتشاف العنصر الخفيف وانتشاره في الكون.

والنظريات هي نوعٌ عقلاني من التفكير المجرَّد، يتعلق بظاهرةٍ ما؛ حيث تتمُّ ملاحظة الظواهر المتعددة، ومحاولة الربط بينها بتفسيرٍ واحدٍ يجمع هذه الظواهر بشكلٍ منطقي.

وإن عقولنا البشرية مبرمجةٌ على التفسيرات لأبسط الوقائع المبهمة، فمثلاً: قد يرى رجل في الشارع ثلاث سيارات تصادمت مع بعضها، وقد انزوت منها سيارة متضررة إلى الجهة الثانية من الشارع، فحينها سيحاول عقل الرجل أن يربط الظواهر مع بعضها ليقدّم تفسيراتٍ لانزواء هذه السيارة. وإذا وسَّعنا زاوية النظر، ودخلنا إلى العلوم، وجدنا أنها ممتلئةٌ بالنظريات؛ فنظرية داروين على سبيل المثال نجد حولها صراعاتٍ كثيرةً، بين مَن يرى صوابها، وبين مَن يرى العكس، وكذلك نظرية الانفجار الكبير (Big Bang Theory) التي تشرح نشأة الكون في لحظةٍ ما من مليارات السنين، من انفجار غازاتٍ مجتمعةٍ تكوَّنت منها مجموعات الكواكب الموجودة والشمس، وقد أتوا بهذه النظرية من ملاحظتهم لغبارٍ في خلفية الكون، ولثقوبٍ سوداء داخل هذا الغبار؛ بحيث إنها تبتلع أيَّ شيءٍ يمر بها، ومن ملاحظتهم أن المسافة بين النجوم باتساعٍ وتباعدٍ مستمرٍّ، وبرصدهم للموجات السلكية واللاسلكية وجدوا صوت تشويشٍ من موجاتٍ أخرى، ففسَّروا هذه الظواهر مجتمعةً بانفجارٍ إشعاعي كبير حدث في لحظةٍ ما من التاريخ الكوني، ولا زالت تتَّسع وتتكثَّف منها الكواكب، أما الفجوات الكبيرة الموجودة، فهي عبارةٌ عن نجومٍ انفجرت فكوَّنت فراغاتٍ هائلةً أصبحت مكنسات فضائية.. وانبنت على هذه النظرية الأبحاث العلمية لمحاولة تعزيزها ودعمها؛ بحيث أصبحت هي التفسير الأغلب للوجود، ولا يخلو الأمر من نظرياتٍ أخرى؛ منها ما يقول بانكماش الكون وليس باتساعه..

إذاً؛ فالنظريات عبارةٌ عن محاولات الإنسان لتفسير ظواهر معقَّدةٍ من خلال تفسيرٍ واحدٍ يربط ويبسِّط العلاقة بين هذه الظواهر، وهي ليست بالضروره صحيحةً، فتتنافس النظريات في الدائرة نفسها وفي الزمان نفسه، وتتوقف شدة قبولها من عدمه بناءً على قدرتها التفسيرية لظواهر أكثر؛ فكلما كان التفسير أبسط، وشمل ظواهر أكثر، كانت النظرية أقوى، وكلما استطاعت النظرية أن تقف أمام النقد الموجَّه لها، استطاعت أن تهيمن أكثر؛ فنظرية داروين ونظرية الانفجار الكبير مهيمنتان في عصرنا رغم كل الهجوم الذي نسمعه؛ لكون التفسيرات التي قدَّمتها النظريتان فسَّرتَا كثيراً من الظواهر الموجودة في العلوم البيولوجية، والأدلة الداعمة لهما كثيرةٌ جدًّاً.

إن النظريات جزءٌ أساسيٌّ من العلم، والمعرفة الإنسانية، وطبيعة العقل الإنساني، وكما أنه يصنع نماذج، فإنه أيضاً يقيِّم نظرياتٍ، فيحتاج الإنسان الداخل إلى مجال المعرفة أن يدرك جيِّداً أن النماذج هي عبارةٌ عن نظرياتٍ مصغَّرةٍ، وأن النظريات الكبيرة هي أدوات تفسيرية أيضاً، لكنها مكبَّرةٌ قليلاً عن النماذج، مع ضرورة التنويه بأن بعض الناس يتناولون النموذج والنظرية بالمعنى ذاته..

لكن ما النظرية الجيدة؟

يقال عن النظرية: إنها جيدة، إذا كانت تقدِّم تفسيراً متماسكاً لظاهرةٍ ما، وتجيب عن عددٍ كبيرٍ من جزئياتها، وتساهم في توضيح علاقة الأجزاء الملاحظة ببعضها، وتفتح الأفق لمزيدٍ من البحث وقابليَّتها للرفض، وأخيراً يوجد أهمُّ شرط أنها مفتوحةٌ على الفحص المستقل.

استخدام المجاز:

والنظريات في العلوم الإنسانية كثيراً ما تستخدم المجازات لتوصيل الفكرة، وتكثر استعاراتها من حقولٍ أخرى.. فعندما يشبِّه ابن خلدون الدولة بمراحل عمر الإنسان من الميلاد إلى الطفولة، فالشباب فالمشيب فالموت، أو عندما يستخدم شخصٌ وصف الدولة بالكائن الأميبي (Amoeba)؛ ليبرِّر تصرُّفها بغزو الآخرين، أو يقرر شخصٌ استعارة البقاء للأصلح من علم البيولوجيا إلى حقل العلوم الإنسانية؛ فيولد مبرِّرٌ لإبادة الضعفاء.. في كل هذه الأحوال، يلعب المجاز دوراً كبيراً في النمذجة والتبسيط.

متى تكون النظرية علمية؟

حتى تكون النظرية علميةً، فلها شروطٌ عدة، ومن أهمِّ هذه الشروط كما قال "كارل بوبر" أن تكون قابلةً للتكذيب، وشرط تكذيبها أن تكون قابلةً للبحث، فإذا كان الشيء لا يقبل التكذيب لا يكون علميًّاً؛ لأن العلم هو تراكميٌّ مستمرٌّ، والتفسير الذي لا يقبل التكذيب يدخل في الرجم بالغيب؛ فالعلم مبنيٌّ على أن التفسير باستمرارٍ يحمل معه احتمال الخطأ.

وإذا ما أردنا في هذا السياق أن ننزل للساحة العملية، فعندنا ما يسمَّى نظرية المؤامرة، التي ترى أن كل ما يحدث في الكون هو من تدبير قوةٍ خفيَّةٍ شيطانيةٍ، وإذا ما نظرنا للعالم من حولنا سعياً لتأكيد النظرية أو إضعافها، سنجد أن هناك صراعاً واضحاً للإرادات، فلو قلنا:

إن الأمريكيين هم الذين خطَّطوا لما حدث في أفغانستان، إذاً فلا تسويغ لهزيمتهم وخروجهم منها، وكذلك لهزيمتهم في الفيتنام، فهل قرَّروا بعد أن أنفقوا الأموال والطاقات في الفيتنام أو في أفغانستان أن يُخرِجوا أنفسهم منها ؟!

وهنا علينا التنبُّه للقضايا التالية:

1. إن المُشاهَد في عالم الحياة أن هناك تدافعَ إراداتٍ، وإنكار ما هو واضحٌ لصالح ما هو محتملٌ يُضعِف نظرية المؤامرة.

2. نظرية المؤامرة تختزن بداخلها ذكاء القوى المسيطرة وعدم احتمالية تعرُّضها للخطأ، وهذا ما يكذِّبه الواقع العملي، فباستقراء التاريخ نجد فشلاً ذريعاً للقوى والحكومات الكبرى في كثيرٍ من القضايا.

3. إن النظرية تختزن فكرة أن العالم يسير وفق تخطيطٍ محكَم، وهذا أيضاً ما يعارضه الواقع في كثيرٍ من الأحيان؛ ففي حين أن كثيراً من تخطيطات الحركات الإسلامية قد فشلت في الانقلاب على حكوماتها، نجد أن حادثاً ظرفيَّاً غير مخطَّطٍ له في تونس لسيدةٍ تصفع شاباً، فيحرق نفسه من اليأس، يُحدِث ما لم تُحدثه كل الخطط الموجودة، فيُؤجِّج ثورةً تصل آثارها لآخر العالم العربي!

4. يختزن الشخص المؤمن بنظرية المؤامرة في داخله انطباعاً بعدم إمكانية تكذيبها؛ فإذا ما ناقشنا نظرية المؤامرة مع أحدٍ ممَّن يؤمن بها؛ فسيكون الشاب الذي أحرق نفسه والمرأة التي صفعته جزءاً من المؤامرة، وسيكون الفشل الأمريكي في فيتنام وأفغانستان جزءاً من المؤامرة أيضاً، وإن مِن أهمِّ شروط علميَّة النظرية أن تكون قابلةً للتكذيب.

فنظرية المؤامرة أشبة بنظرية "كارل ماركس" المادية التي يرى أن فيها حتمياتٍ لا تُخطئ!

إن هذه العناصر التي تجعل من نظرية المؤامرة أمراً غير ممكنٍ، لا تلغي فكرة وجود: التخطيط في العالم، وقوىً مهيمنةٍ، ووجود أخيارٍ وأشرارٍ، فكل ذلك موجود، ولكن ليس بالشكل الذي تخبر به نظرية المؤامرة.

وإننا، وبفهمنا للفارق بين النموذج والنظرية والمفهوم، نكون قد بنينا خطوةً ثانية في المعرفة، وتسلَّحنا بأدواتٍ قويةٍ ندخل بها نافذة المعرفة، وأصبح بيننا لغةٌ مشتركة نتكلم بها، من أجل المباحث القادمة.



ثانياً: المنطق

1. المنطق الصوري الأرسطي

كلنا نفكر.. لكن، لسنا جميعاً نسأل كيف نفكر.. وحين نصل لموضوع أننا نريد أن نحسِّن من أساليب التفكير، وأن نمسك بالعملية عن وعيٍ.. فلا سبيل لذلك إلا بالإمساك بزمام اللغة المتعلقة بالموضوع.. فكلماتٌ مثل: الموضوع، والمحمول، والقضية، والتعريف بالحدِّ وبالرسم.. أساسياتٌ للإمساك بالموضوع.. فإن خوض مغامرة الإمساك بالمصطلحات، هو ما يهمُّنا اليوم

سنتناول في هذا القسم من البرنامج التأسيسي "المنطق"، وعلى القارئ أن يلتزم بمبدأ "الكرم الفلسفي"، والذي يُقصَد به تأجيل الأحكام إلى ما بعد مرحلة فهم المادة واستيعابها ونضجها، ثم له بعد ذلك أن يتصرَّف ويُعمِل عقله بالنقد الذي يريد.

كنَّا تكلَّمنا سابقاً عن احتكاك العقل البشري مع الوجود الخارجي الذي ولَّد أسئلةً عدَّةً لدى الإنسان؛ في المادة وتكوُّنها، وبما وراء المادة، وعن المعرفة، أو إمكانية المعرفة، وعن الأخلاق والقيم، وهذا ما سيقودنا إلى المنطقة التي سنتكلم فيها الآن، ألا وهي: العقل، وكيف نضبطه من الشطط والخطأ..

فالعقل لدينا قد يخطئ أو يتوهَّم أحياناً، ويصيب في أحيانٍ أخرى، فكيف يمكن أن نضبط العقل بأدواتٍ تستطيع أن تعطيَه أفضل فرص الإجابة عن الأسئلة، والمقدرة على محاكمةٍ منطقيةٍ للمعلومات الموجودة لديه؟

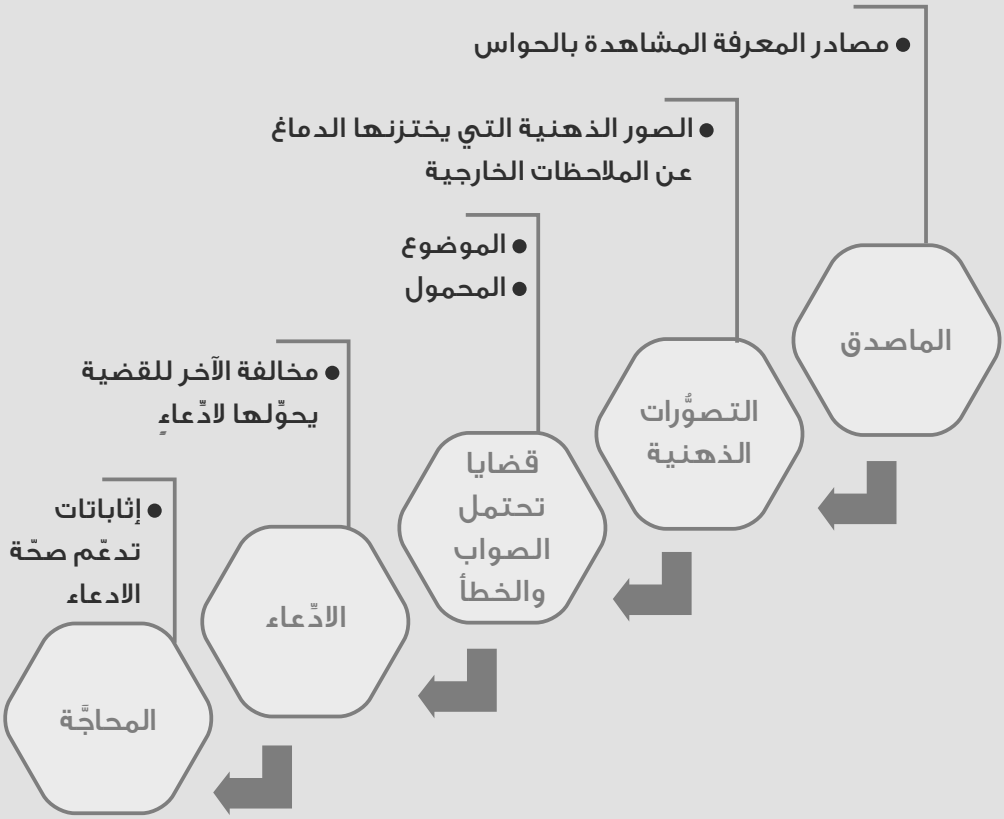
من أوائل مَن فكَّر في هذا الموضوع بطريقةٍ منظَّمةٍ هو "أرسطو" الذي ارتبط اسمه دوماً بالمنطق الصُّوري.. وقبل البدء بالحديث عن المنطق الصوري أو النقدي، نستعرض حواراً بسيطاً واقعيًّاً (حدث فعلاً): بين مدرِّسٍ وأحد تلامذته.. فبعد أن أنهى المدرس مادة أرسطو

سأل الطلَّابَ: هل استفدتم من المحاضرات التي طرحناها في المنطق الصوري لأرسطو؟ فتجرَّأ أحد الطلاب ورفع يده وقال: والله لم أستفد شيئاً من كل الكلام الذي قلته. فوقف المدرس قليلاً، ثم قال: لماذا لم تستفِد؟ قال: لأننا نحن لا نتحدث بهذه الطريقة.. وكان الطالب يقصد طريقة المنطق الأرسطي، والذي من أشهر أمثلته: "كل إنسانٍ فانٍ، وسقراط إنسانٌ، إذاً؛ فسقراط سوف يفنى"، فالطالب يقول: لا أحد سيتكلم بهذه اللغة في الحياة العادية، فطريقة كلامنا ومقالاتنا مختلفةٌ جدَّاً عن هذه الطريقة. ففكَّر الأستاذ قليلاً فيما قاله الطالب، ثم أجابه: كلامك صحيحٌ، سوف أفكِّر في الموضوع؛ لأن الموضوع جديٌّ، فأمضى الأستاذ خمس سنواتٍ من عمره وأنتج ما يسمَّى بـ: "التفكير النقدي"، المختلف تماماً عن المنظومة التى وضعها أرسطو "المنطق الصوري"، إلا أنني ومِن مفارقات الموضوع، سأبدأ بالمنطق الصوري أولاً؛ لأنني سأستمدُّ منه أُسُساً وأفكاراً تهمُّنا في المنطق والتفكير النقدي.

إن المنطق في جزءٍ منه معقَّدٌ، ولكنَّ المبادئ الأولية في المنطق هي أمورٌ يسيرةٌ، وإن الجزء المعقَّد منه لا نحتاجه في العصر الذي نعيش فيه، وما سنتناوله في الفقرات القادمة من المنطق هي الأجزاء البسيطة التي تهمُّنا..

سنتكلم بدايةً عن "المنطق الصوري"؛ من أجل أن ننقله معنا إلى المرحلة القادمة.. وسنقسِّم حديثنا إلى عدة مراحل تتمثَّل في التالي:

- في الحياة الطبيعية تصلنا أمورٌ عدَّةٌ عبر الحواس تسمَّى في المنطق: (الماصدق).
- نضع في مقابل الماصدق أسماءً، كاختزالٍ لها في الذهن، تسمَّى: (تصوُّرات).
- ومن هذه الأسماء نكوِّن جملاً كانطباعاتٍ.
- وإذا ما كانت تحتمل هذه الجمل الصواب أو الخطأ، فإنها تسمَّى في المنطق: (قضية)، كقولنا: الشجر مثمرٌ.
- وإن القضية تتألَّف من: الموضوع (الشجر)، والمحمول (مثمر).
- حينما نتبنَّى جملةً فيها حكمٌ، قد يخالفنا الآخر بمدى صوابيَّته، فإن هذا يسمَّى في المنطق: (ادِّعاءً)، مثلاً: إذا ما ناقشنا أحداً ما في كون الشجر مثمراً.
- وعندما نقوم بالدفاع عن صواب الادعاء بمجموعة جملٍ، فإن هذه الجمل تسمَّى: (المحاجَّة)؛ بما أنَّ كذا.. فالشجرة كذا.



وإن القضايا أو الادِّعاءات التي نحملها، قد تكون قضايا كبرى، كادِّعاءٍ لباحثٍ ما بأن الحضارات تزول وتنقرض، وقد يتمُّ إثباته ببحثٍ كبيرٍ، (كمقدمة ابن خلدون)، أو قد يكون أيديولوجيا معينة، أو خطاباً لسياسي..

إننا بمعرفتنا لمصطلحات المنطق هذه: (الماصدق، والتصوُّرات، والقضية، والموضوع، والمحمول، والادعاء، والمحاجَّة)، نكون قد أمسكنا بأولى أدوات علم المنطق.

فما فعله علماء المنطق هو أنهم رتَّبوا لنا طريقة "التفكير في المنطق"؛ حتى نطرح القضايا ونحاجج عليها بشكلٍ سليمٍ، ونقيِّم القضايا المطروحة علينا ومدى صحة حجاجها.

فمثلاً: لنفترض أن شخصاً ما وُلد حنفيًّاً أو حنبليًّاً أو.. وتعلَّم المنهجية التي يفكِّر بها أهل بيئته ممَّن يحتذون هذا المذهب، وتعلَّم النقاش والردَّ وفق منهجيَّتهم في التفكير، وأصبح

يحاجج ويدافع ويناقش وفق هذه المنهجية للدفاع عن هذه القلعة، ولكنَّ "التفكير في المنطق" هو ما يجعل الإنسان يفكِّر: كيف بنى قومه هذه القلعة؟ ولماذا بُنيت؟ وهل فعلاً لديه معايير ليقيِّم صوابيَّة هذه القلعة؟ فوظيفة التفكير الناقد وعلماء المنطق أن يُقدِروا الإنسان على التفكير بالأسس التي بُنيت عليها القلعة، وهل هي صوابٌ أم خطأ؟ وكيف يمكن تحسينها وتطويرها؟ وكيف يتمُّ اكتشاف ما إذا كانت تحمل خطأً بنيويًّا في أساسها؟ فالمنطق يخترق برمجيَّات العقل التي دخلت إليه على أنها مسلَّماتٌ، ويقيِّمها، فلا يبقى عقله أسيراً لشيءٍ، ويغدو قابلاً للتفكير بذاته.

إن علم المنطق يمكِّننا -إذا أحسنَّاه- من التفكير بذواتنا، فبدل أن نوكِّل إنساناً بأن يفكِّر عنَّا ويعطيَنا الإجابات ويصبح وصيَّاً علينا، نصبح قادرين على التفكير بأنفسنا، وإن تمكين الإنسان بأن يفكِّر بذاته هو أعظم تحريرٍ له؛ لأن هذا أساس المسؤولية الأخلاقية لدى الإنسان، وأساس المحاسبة أمام الله تعالى



كيف نقيِّم منطقيَّاً، أو كيف نتأكد بطريقةٍ عمليةٍ منظَّمةٍ من صوابيَّة ما تطرحه عقولنا، وما يطرحه الناس؟

سنحاول تفكيك مايُطرَح بطريقةٍ منظَّمةٍ؛ فنبدأ من نقطة الواقع الذي (ما صدق) عليه الناس، ثم سننطلق إلى منطقة المصطلحات للتأكُّد من الاتفاق على المعنى، أو من كوننا فهِمنا المصطلحات بحسب المراد منها، فهنا يجب أن نضع تعريفاتٍ واضحةً للمصطلحات للتأكُّد من فهمها بشكلٍ علميٍّ.

وحينما يتحوَّل الطرح لادِّعاءٍ، ويُدعَّم من قبل صاحبه بالحجاج، حينها يتوجَّب التأكُّد من صحة الحجاج، وبشكلٍ تفصيليٍّ، هناك بعض القضايا التي تجب مراعاتها، والتي سنفصِّلها بلغةٍ واقعيةٍ من خلال التالي:

1. أولاً: تحديد القضية

(حكمٌ يحتمل الصواب والخطأ، ويشكِّل أرضيةً للتنازع)

لنتخيَّل سويَّاً مشهداً من لعبة كرة القدم التي يتوسَّطها الحَكَم في الملعب (الماصدق)، وإذ بلاعبٍ من اللاعبين يرسل الكرة إلى صاحبه ليضربها برأسه وتدخل المرمى، فيصفِّر الحكم قائلاً: هدف صحيح.. إنَّ مِن جملة الحَكَم هذه التي قالها "هدف صحيح" يبدأ أول المنطق؛ فالحَكَم استخدم كلمتين؛ كلمة "الهدف" وهي التي تصبُّ بكون الكلام عن الهدف، فالهدف هو (الموضوع) الذي يُتكلَّم عنه، والكلمة الثانية "صحيح" التي تفيد بصحة الهدف، وهي (المحمول) بتعريف المناطقة، فلدينا مفهومان رُكِّبَا على بعضهما فخرج منهما (قضية) أنَّ الهدف صحيحٌ، وهذه الجملة تختزل الموضوع المتعلِّق بقضية التفكير النقدي؛ بل حتى التفكير المنطقي؛ لأن جميع الحوارات التي تدور حول المنطق، تدور بهدف التأكُّد من الدعاوى التي قد يُختَلف عليها، فسيأتي بعد حُكم الحَكَم مَن سيختلف معه؛ سواء بحجة وجود تسلُّلٍ، أو لوجود مشكلةٍ أخرى.. فالحَكَم قام (بادِّعاءٍ)، وهذا عمق المنطق؛ وجود ادعاءٍ، وكيف نتأكَّد من أنه صحيحٌ أم خاطئٌ..

2. ثانياً: تحديد نطاق الادِّعاء

(الهدف صحيحٌ، أم بعض الأهداف صحيحةٌ، أم كل الأهداف صحيحةٌ، أم لا شيء من الأهداف صحيح، أم بعض الأهداف غير صحيح.. هل نطاق الادِّعاء مهمٌّ؟).

إذا ما انتقلنا إلى حوار ثلاثةٍ من المشاهدين في المدرَّجات في اللعبة نفسها، سنجد شخصاً يقول: هذا هدفٌ جميل، وشخص آخر بجانبه يقول: إن بعض الأهداف في هذه المباراة جميلة، والثالث يقول: إن كل الأهداف رائعة في هذه اللعبة.. فهل هذه الجمل لها المعنى نفسه، أم أنها مختلفة عن بعضها البعض؟

إن هذا ما يسمُّونه في المنطق: "نطاق الادِّعاء"، فصاحب القول الثالث تحمَّل ادِّعاءً ضخماً جدَّاً؛ فأيُّ وجودٍ لمشكلةٍ صغيرةٍ بهدفٍ ما في المباراة، سيُفقِد كلامه الصحة، أما صاحب القول الثاني، فقد خفَّف الحمولة عن نفسه، على غرار الأول الذي حصر نطاقه بهدفٍ واحدٍ فقط.. فالقضية هنا هي مدى نطاق الادِّعاء الذي يتحمَّله الشخص المدَّعي، وتحديد نطاق الادِّعاء مسألةٌ في عمق عملية التفكير النقدي، والناس كثيراً ما تلعب في نطاق الادعاء أثناء الحوارات؛ فقد أكتب مقالاً وأقول فيه: بعض المسلمين لا يتمتَّعون بالأخلاق الحميدة، فيأتي شخصٌ ما ويوسِّع نطاق الادعاء، ويكتب ردَّاً عليَّ يقول فيه: هذا الشخص الذي يقول إنَّ المسلمين لا يتمتعون بالأخلاق..! أنا لم أقل: "المسلمين"، أنا قلت: "بعض المسلمين"! لكنه وسَّع نطاق الادعاء حتى يُسهِّل مهاجمه الكلام الذي قلته.. فوظيفة التفكير النقدي حمايتنا من هذا النوع غير الأخلاقي في التعامل، فمِن المهمِّ جدَّاً أن نحتفظ بنسبة الادعاء الصحيحة للقائل.. وإن عادة كثيرٍ من الناس في المناكفات الكلامية أن تعتدي على نطاق الادعاء؛ فقد يقول قائل: إن أمريكا في حالة تراجعٍ اقتصاديٍّ، فيأتي شخص آخر يقول: أنت قلت: أمريكا سوف تنهار، فيُحَمِّل كثيرٌ من الناس نطاق الادعاء أكبر ممَّا يحمل، وهذا لا يعتبر من الرشد في التفكير النقدي.

3. ثالثاً: تحوُّل الادِّعاء إلى قضيةٍ تحتمل الصواب أو الخطأ

إن الهدف الذي دخل أثناء المباراة، سينتقل الحديث عنه إلى التلفاز، فعادةً ما يأتون بثلاثة معلِّقين أو أكثر، ويبدؤون بالنقاش، فيقول شخص منهم: هذا الهدف ليس صحيحاً، هو تسلُّلٌ. فيردُّ عليه الثاني قائلاً: الهدف صحيح مئة بالمئة. أما الثالث فيقول: لست متأكِّداً، نحن بحاجة تقنية الـ (var). وهذه التقنية تقوم على مراجعة القرارات التي يتَّخذها حَكَم

المباراة باستخدام لقطات الفيديو.. فنشأت بينهم قضيةٌ يمكنهم الذهاب بها إلى المحكمة العليا، وهذه القضية هي جوهر المنطق.

فالحَكَم أثار القضية ابتداءً في الملعب، ثم انتقلت إلى نطاق ادِّعاءٍ عند الجمهور، ثم انتقلت إلى المعلِّقين، ونشأ بينهم حوار حول صحة الهدف من عدمه، فأصبحت قضيةً للنقاش تحتمل الصدق أو الكذب، والقضية التي تحتمل الصدق أو الكذب هي عبارةٌ عن عمق ما يسمَّى: التفكير النقدي، كما سنرى لاحقاً.

4. رابعاً: تحديد الموضوع

(حين يضيع الموضوع، يقول مَن شاء ما شاء.. هل الموضوع هو الهدف الثاني في المباراة، أم هدفٌ من مبارياتٍ سابقةٍ، أم حتى هدف لفريقٍ آخر.. وما هو الموضوع؟).

ننتقل إلى مشهدٍ في الشارع؛ حيث يخرج شخصٌ ما إلى الخارج، فيرى شخصين يتضاربان ويتشادَّان حول صحة الهدف في اللعبة، فيسأل هذا الشخص عن السبب أو الموضوع الذي يتمُّ الشجار من أجله.. إن تحديد الموضوع أمرٌ في غاية الأهمية، وفي واقعنا كثيرٌ من النقاشات تدور ونحن لا نعرف ما الموضوع، فالموضوع في المثال أعلاه هو الهدف والحُكم عليه، وكذلك لو قلنا: أمريكا سوف تنهار؛ فالموضوع هنا هو أمريكا، والانهيار نُسِبَ إليها، كذلك لو قلنا: العالم الاسلامي الآن يشهد صحوةً؛ فالموضوع هو العالم الإسلامي، والصحوة نُسبت إليه، فبمعرفتنا للموضوع نكون قد أمسكنا الثور من قرنَيهِ كما يقال، أي: أننا بدأنا نعرف: عن ماذا يدور الكلام، ففي بعض الأحيان يأتي شخصٌ ما يتكلم في عشرة مواضيع، لا تعرف ما هو الموضوع الذي كان يتكلم عنه، وكلما حاولنا الإمساك بطرف الموضوع، انتقل لموضوعٍ آخر، فبعض الناس تتلاعب بالموضوع كما تتلاعب بنطاق الادِّعاء.

فالتفكير النقدي والمنطق يعتنيان جدَّاً في تحديد الموضوع، وعلى أساس فهمه وتحديده تُرى النسبة بين الموضوع وماحُمِّل عليه، وهذا يسمَّى: الموضوع والمحمول، والقضايا الحملية كلُّها من هذه النوعيَّات؛ ففيها موضوعٌ حملناه على حُكمٍ من الأحكام.

5. خامساً: الاستنباط وأهمية التعريف في محاجّات إثبات الادّعاء

(بما أن القانون يقول: إنه إذا عبرت الكرة خطَّ المرمى بكُلِّيَّتِها، فهي هدفٌ، وبما أن تقنية الـ (var) متفقٌ عليها، وهي تقول: إن الكرة عبرت بكُليِّتها، فالنتيجة أن دخول الكرة أحدث هدفاً صحيحاً).

لنفترض أن قضية الهدف لم تتوقف عند هذا الحدِّ، وأن الفريق الثاني لم يقبل بالنتيجة، وهذا الهدف هو هدفٌ حاسمٌ لكأس العالم، فاجتمعت لجنه التظلُّم، وقال قائلهم: إن الهدف يُحتسب إذا عبَرت الكرة بكلِّيَّتها خطَّ المرمى، وحسب تقنيه الـ (var) قد عبرت خطَّ المرمى، فالهدف صحيحٌ.. فهذا النوع من العمل يسمُّونه: الاستنباط في سبيل المحاجّة، وإثبات صحة الادعاء، وفي داخل الاستنباط قضيةٌ هامَّةٌ جدَّاً ودقيقةٌ جدَّاً، وهي التعريف، فالقائل بالمثال استخدم تعريفاً محدَّداً: "الكرة إذا عبرت بكلِّيَّتها خطَّ المرمى مع صحة العوامل الأخرى بعدم وجود تسلُّلٍ أو نحوه، وأكَّدت تقنية الـ (var) ذلك، فنحتسبه هدفاً صحيحاً"، فقُدِّم تعريفٌ لقضية "صحة الهدف" المتفق عليه بين الناس، وتمَّ اللجوء إليه من أجل حسم الخلاف الموجود بينهم، فيعتبر التعريف من أهمِّ قضايا المنطق، وبوجوده نستطيع الإحاطة بالقضية والتحاور حولها، ولو قُدِّمت تعريفاتٌ غامضةٌ للأشياء، لَافتقرنا لشيءٍ نحتكم إليه؛ فعندها كل شخصٍ سيقول ما يريد بالطريقة التي يريد، ويستطيع أن يسرح ذهاباً وعودةً دون ضبطٍ



للكلام بمعيارٍ محدَّدٍ، فعلى افتراض عدم وجود تعريفٍ واضحٍ للهدف، فسيقول قائلٌ بعبور نصف الكرة للمرمى بأن الهدف صحيحٌ، وآخر بعبور ربعها.. فينتج لدينا تعريفاتٌ متضاربةٌ، ولذلك يقال: لا مشاحَّة في الاصطلاح، فمعرفتنا الجيدة بالقضية المطروحة وفهمها الدقيق يوصلنا إلى التفاهم حول النطاق المطروح..

وبعد أن أدركنا أهمية التعريف باستنباط الأحكام، يبقى السؤال: كيف نصل إلى التعريف؟ وما التعريف الأنسب لشيءٍ ما؟..

إن التعريف بأصله هو إزالة الغموض عن الألفاظ، فلو قلتُ مثلاً كلمة "حنكش"، واستمرَرْت بالحديث عنها لساعاتٍ دون أن أُعرِّفَها.. فغالباً لن يفهم المستمع ما أريد ما لم أقم بإزالة الغموض عن الكلمة أو الفكرة، وعلى سبيل المثال: كثيراً ما يمرُّ معنا لدى قراءتنا لبعض الكتب عبارة "الإنسان حيوان ناطق"، ونجد أن معظم الناس يحفظونها ولا يعرفون شيئاً عن الموضوع، فقد يقولها شخصٌ ما.. ويأتي شخصٌ آخر يجادله فيقول: إن الإنسان ليس بحيوانٍ، فالإنسان كائنٌ مكرَّمٌ.. فبمثل هذا الحوار يتحدَّث كِلا الشخصين بموضوعين مختلفين تماماً، فتعريف الإنسان بكونه حيواناً ناطقاً، هو تعريفٌ متفق عليه في المنطق، والفرضية المنطقية الموجودة وراء هذا الموضوع بأننا بإمكاننا في علم المنطق وضع كلِّ شيءٍ نريد تعريفه في إطار جنسٍ معيَّنٍ ونوعٍ معيَّنٍ، ثم نفصله بفاصلٍ ما عن بقية الأشياء الموجودة، فعندما أقول: الإنسان حيوان ناطق؛ أكون قد استخدمت أداة أنَّ الإنسان كائنٌ من جنس الحيوانات، لكن داخل هذا الجنس هناك أنواع متعددة..، وبقولي: إنه ناطق -أي: إنه يمتلك العقل- أكون قد فصلته عنهم، فهو مختلفٌ عن الزرافة وعن الفيل وعن الأسد..، وعن البقية الموجودين بأنه ناطقٌ، إذاً هو يدخل في نوعٍ ويدخل في جنسٍ، ونفصله عن بقيه المجموعة التي ينتمي لها بفاصلٍ واضحٍ بين هذه الأشياء، وهذا كان التصوُّر الأرسطي القديم الذي نُقِد، إلَّا أنه لا زال كثيرٌ من الناس يتكلَّمون عنه حينما يُدَرِّسون المنطق بشكلٍ من الأشكال..

6. سادساً: التعريف

(الأول: كيف عرفت أن هذا هدف؟ الثاني: وفق التعريف المتفق عليه، هذا هدف).

للتعريف أنواعٌ عدَّةٌ، يجدر بنا أن نذكر بعضاً منها للضرورة في هذا المقام:

- التعريف القاموسي:

وهو الشرح الذي يقدِّمه القاموس لمصطلحٍ ما يراد تعريفه؛ فكلمة "صحيح" يخرج من القاموس أن مرادفها اللفظي كلمة "صواب"، وخلال تعميق البحث أكثر، قد نجد أنها تعني "مقبولاً" أو "حسناً"، فإذا قام المعنى القاموسي بإيضاحٍ جيِّدٍ للمصطلح المراد فهمُه، نكون قد عرَّفنا به، ونسمِّيه: تعريفاً قاموسيَّاً.

- التعريف الإجرائي:

كأن يأتي شارحٌ للإجراءات التي توضِّح لنا المصطلح؛ فيَشرَح على سبيل المثال الإجراءات التي تجعل من الهدف هدفاً صحيحاً، فيقول: إذا عَبَرَت الكرة المرمى بكلِّيَّتها، وشُوهد ذلك بالجهاز الإلكتروني الموجود، سنعتبر الهدف صحيحاً، فنكون قد وصلنا لتعريف "الهدف الصحيح" من خلال شرح إجراءاته.

- التعريف بالتقسيم:

والمقصود به التعريف من خلال ذكر أقسام الشيء؛ كالشِّعر الذي يذكر في اللغة العربية بقصد تعريف الكلام، القائل:

"كلامنا لفظٌ مفيدٌ، كاستقمْ واسمٌ وفعلٌ ثمَّ حرفٌ الكَلِمْ"

فتمَّ بذلك تعريف الكلام بأقسامه؛ كونه اسماً وفعلاً وحرفاً.

- التعريف بالتمثيل:

بأن نعرِّف الشيء بالتمثيل له بأمثلةٍ من شأنها توضيحُ المعنى وإزالة الغموض عنه، كأن أعرِّف الإنسان لسائلٍ من خلال التمثيل بفاطمة وأحمد وزيد.. والكثير من الأنواع الأخرى للتعريف التي لا يسع المقام ذكرها..

إذاً؛ فلدينا مستوياتٌ من التعريف، ووظيفة التعريف الأساسية تكمن في إزالة الغموض عن الألفاظ، وإلا ضاع الحوار والنتائج، ولذلك نجد في الكتب العلمية عادةً قائمةً بالمفردات وتعريف الكاتب لها، تحسُّباً لئلَّا يحاسَب على ما لم يقصده حينما استخدم تلك المصطلحات.

وإلى هنا نكون قد أتممنا مقدمة ما يسمَّى: "التفكير النقدي"، واقتبسنا تلك المقدمة من المنطق الصوري الأرسطي، وقمنا بشرحها بطريقةٍ مبسَّطةٍ جدَّاً وبأمثلةٍ واقعيةٍ، لتبقى في ذهن المتعلِّم ليكون قادراً على استدعائها بسهولةٍ ويسرٍ، فمن الحَكَم في الملعب، إلى الجمهور داخل الملعب، إلى الجالسين على طاولة الحوار، إلى الشجار خارج الملعب، إلى التظلُّم.. فكلٌّ مِن الأمثلة التي وردت توضِّح قضيةً من القضايا التي نحتاجها في التعامل مع التفكير النقدي..

2. التفكير النقدي

مررنا في القسم السابق على بعض أسس المنطق الصوري لأرسطو التي سوف نستفيد منها في كلامنا عن التفكير النقدي.. وإننا نستذكر هنا قصة الشابِّ الذي تَحَفَّظَ على طريقة أرسطو انطلاقاً من أننا لا نتكلم بهذه الطريقة (بما أنَّ كذا.. إذاً فكذا.. وننتهي بالنتائج)، فكلامنا عادةً هو سردٌ عامٌّ يستمع الآخر إليه ويحلِّله بطريقته، ونسمِّي هذا التحليل والمحاكاة لطريقة البشر الطبيعية التي يتكلَّمون بها: بـ: "التفكير النقدي"، فبعيداً عن كل التعقيدات، سندخل للتفكير النقدي انطلاقاً من سؤال:

كيف نستطيع القيام بمحاكمةٍ للمقالات أو الأطروحات المُتَكَلَّمة بطريقة الناس الطبيعية؛ بحيث تكون تلك المحاكمة موضوعيةً ومنصفةً للكاتب ولعقليَّة القارئ أيضاً؟

في هذا الموضوع سنقف أولاً على كتابٍ مهمٍّ جدَّاً، وهو كتاب "التفكير النقدي" للدكتور الشاب عمرو صالح ياسين، وهو كتابٌ ننصح الشباب بقراءته، مع التنويه بأن قراءة هذا النوع من الكتب يحتاج جهداً كبيراً؛ وذلك لطبيعة المادة التي يتناولها؛ فطبيعة مادته لا تحتمل طرحاً مبسَّطاً بأكثر ممَّا جاء في الكتاب.. ومع جميع التحديات التي يمكن أن تعترض القارئ، فإن العائد من كتابٍ كهذا عائدٌ كبيرٌ جدَّاً، كما أنه ممَّا يجدر قوله لقارئ الكتاب أو دارسه: إنه من المهمِّ جدَّاً التمكُّن من الأمثلة التي طرحها المؤلِّف، حتى تصبح جزءاً من التكوين العقلي للقارئ؛ حيث إن كثيراً من القرَّاء ينتقلون إلى تطبيقاتٍ خارجيةٍ ليزيدون كفاءتهم قبل إتقان المادة التأسيسية، ممَّا يُحدِث خللاً في الفهم والتطبيق.

ومن صور حرص العلماء على فهم الكتب قصةٌ لطيفةٌ لابن سينا، يقول فيها: إنه قرأ أحد كتب أرسطو بموضوعٍ ما وراء الطبيعة أربعين مرَّةً ليفهمه، حتى أصبح يتذكر كلَّ جزئيَّات الكتاب دون أن يستطيع فهم المقصود منه أو الإمساك بتلابيبه! فيئس من الكتاب تماماً.. وفي أحد الأيام مرَّ على أحد الباعة فأقنعه بشراء كتابٍ بثمنٍ بخسٍ، في نفس موضع الكتاب السابق، فردَّه في البداية معتقداً أنه لا فائدة له منه، فبعد أن أخذه لإصرار البائع؛ فإذ بالكتاب يشرح المادة التي هو يحفظها عن ظهر قلبٍ، ولشدَّة سعادته لفهمه لذاك الكتاب أخيراً، تصدَّق في اليوم الثاني باليسير شكراً لله.

فالمغزى من هذه القصة ضرورة تمكُّن الإنسان من بعض الكتب القيِّمة التي تغنينا أحياناً عن كتبٍ كثيرةٍ جدًّا، وهذا شأن كتاب الدكتور عمرو ياسين؛ فالتمكُّن من الجزئيَّات الموجودة في الكتاب سيسعفنا بالنافع للعمر كله، فعلى القارئ أن يتمكَّن من الأمثلة الموجودة، ويحاول لأكثر من مرَّةٍ في الأمثلة ذاتها، إلى أن يصبح الأمر بالنسبة له طبيعيًّاً وراسخاً، أي: أن يغدو قادراً على التفكير بهذه الطريقة، حتى لو لم يمسك ورقةً وقلماً، وهذا ما يُسمَّى: (Second Nature)، أي: يكتسب طبيعةً ثانيةً تصاحبه في الحياة، فيغدو الموضوع تلقائيًّاً؛ حادثاً من غير تكلُّفٍ.

أمورٌ هامَّةٌ في التفكير النقدي قبل البدء

- التفكير النقدي ليس موضوعه المناظرات وهزيمة الآخرين.
- التفكير النقدي وسيلةٌ لمعايرة المحاجَّة كمقدِّمةٍ لمعرفة أوجه قصورها.
- التفكير النقدي هو وسيلةٌ لإنصاف المخالفين وإعطائهم ميزة الشكِّ لصالحهم.

1. أولاً- تناول الادِّعاء في التفكير الناقد

طرح الموضوع:

لو طُلِبَ من شخصٍ كتابة مقالٍ عن أضرار التدخين، فمن الطبيعي أن يبدأ برأيه الذي سيدافع عنه: (التدخين ضارٌّ، ويجب تركه)، وهذه العبارة تتضمَّن الموضوع والمحمول، ثم يسوق البراهين الداعمة للادعاء عن مضارِّ التدخين ما وسعه الأمر، ثم يختم بالنتيجة مثلاً: (التدخين ضارٌّ بالصحة والمال، فاتركوه).. هكذا تعلَّمنا الإنشاء في المدارس.. فالباحث يبحث عن القضية أو الادعاء، ثم البراهين وصدقيَّتها ودرجة ترابطها، ثم النتيجة.

محامي الشيطان:

لطرحٍ أكثر احترافاً، هناك مرحلةٌ يبحث فيها الطارح لموضوعٍ ما عن ما هو أكثر، فيتوقع الاعتراضات التي يمكن أن يثيرها مؤيِّدو التدخين ويردَّ عليها، فجزءٌ من الحجاج الناجح هو في تفنيد ما يمكن أن يثيره الطرف المقابل. وهكذا تتكامل الحجَّة.



2. ثانياً- أنواع القضايا والسياقات

القضايا التي يتناولها المنطق تأتي بأشكالٍ مختلفةٍ؛ إما بسيطة، أو مركَّبة:

- **القضايا البسيطة:**

مثال: الأرض كروية - التدخين ضارٌّ.

● القضايا المركَّبة:

تتنوَّع أشكال القضايا المركَّبة التي يعالجها المنطق، وقد يتمُّ التنازع على قضيةٍ قائمةٍ أو مستقبليةٍ، أو حتى من الماضي، أو قياساتٍ أو نظريَّاتٍ أو ما ورائيَّات.. كقولنا: (إذا درسنا، سننجح.. الحرب إمَّا ربحٌ أو خسارةٌ.. السفر متعةٌ وفائدةٌ.. إذا جاء الشتاء، وزرعنا، فسنحصد ونبيع ونخزِّن.. خلال عقدٍ من الزمن، ستعمل جميع السيارات على الكهرباء..)، فهذا الكلام كلُّه داخلٌ في التفكير النقدي؛ لكونه يتضمَّن القضية التي حمَّلنا عليها حكماً ما..

إن الادِّعاء في المنطق حينما يتكوَّن من جملتين معطوفتين على بعضهما البعض، يشترط صحة كليهما، حتى يُعتبر الطرح صحيحاً منطقيَّاً؛ فما دام هناك ادعاءٌ مجموعٌ في جملةٍ واحدةٍ، فعلينا أن نبحث عن صحة الأمرين سويَّاً..

فمثلاً:

- **الحرب إما ربحٌ أو خسارة: (قضيَّتان في ادعاءٍ واحدٍ وصحة إحديهما تنفي صحة الأخرى).**
- **السفر متعةٌ وفائدةٌ: (قضيَّتان في ادعاءٍ واحدٍ، ويشترط أن تصحَّ القضيَّتان حتى يصحَّ الادعاء).**
- **إذا جاء الشتاء وزرعنا، حصدنا وخزَّنَّا وبعنا: (عددٌ من القضايا في ادعاءٍ واحدٍ، فصحة الادعاء الواحد يستلزم صحتها مجتمعةً).**

في بعض الأحيان، قد تكون الجمل أكثر تعقيداً من ذلك، كأن يقال: "المباريات تحتاج إلى التقويم، لكن ذلك يحتاج إلى جهدٍ ووقتٍ"؛ فلدينا في هذه القضية ثلاثة أمورٍ مجتمعة في طرحٍ واحد: "إن المباراة تحتاج إلى تقويم، والتقويم يحتاج إلى جهدٍ، ويحتاج إلى وقتٍ"، ولصحة القضية منطقيَّاً، يجب أن تكون العبارة صحيحةً بأجزائها الثلاثة، فإن تعدُّد القضايا التي تحتمل الجمع بينها بالطرح الواحد، يُشترط لصحتها صحة جميع القضايا.

أهمية السياق:

وهنا يجدر التنويه.. بأن المنطق النقدي يفرِّق ويميِّز بحساسيةٍ عاليةٍ بين العبارات التي تقبل الجمع، والعبارات التي لا تقبل الجمع، ومن هنا تأتي أهمية السياق؛ إذ من المهمِّ جدَّاً حينما نتعاطى مع القضايا أن ننظر إلى السياقات التي وردت فيها، فمثلاً:

- لنفترض أنك ذهبت إلى مطعمٍ، و قلت للمسؤول هناك: أريد لائحة الطعام، فقال لك: لكَ أن تطلب طبق اللحم، أو السمك، أو الدجاج.. فهنا لا يقصد بـ (أو) التخيير، لكن إذا كنت في الطائرة، وجاءت المضيفة، فقالت: يوجد لدينا دجاج، أو سمك، فهنا أنت في خانة الاختيار.
- أن تطلب سمكاً أو دجاجاً أو لحماً (في المطعم) لا تعني عدم إمكان طلبها جميعاً.
- أما أن تطلب سمكاً أو دجاجاً (في الطائرة)، فهذا يعني أن لك خياراً واحداً.
- ففي هذين المثالين توحَّد شكل الادعاء، إنما اختلف مضمونه لاختلاف السياق الذي وُلد فيه، وعندما يغيب السياق الذي وُلد فيه الحديث، سيؤثِّر غيابه على الفهم بشكلٍ كبيرٍ جدًّا. فحينما يسوق أحدهم نصًّا مقتطعاً، فنحن بحاجةٍ إلى العودة إلى سياقه الذي جاء فيه، كأسباب النزول، والسياق الاقتصادي، وسياق المخاطَبين، والحدث الذي جرى من قبلُ واستدعى هذا القول.. وإن كل تغييرٍ في هذه السياقات الواردة، يمكن أن يؤدي إلى اختلافاتٍ في معاني النص ومراداته.

3. ثالثاً- التفكير النقدي حارسٌ على بوَّابة العقل

قدَّم الدكتور عمرو ياسين تعريفاً جميلاً للتفكير الناقد، فوصفه بأنه "حارسٌ على بوَّابة العقل"، فمِن بوابة العقل لدينا، نُخرِج أفكاراً للناس ونستقبل أفكاراً منهم. وللتفكير النقدي كحارسٍ للعقل أدوارٌ عدَّةٌ يقوم بها؛ منها:

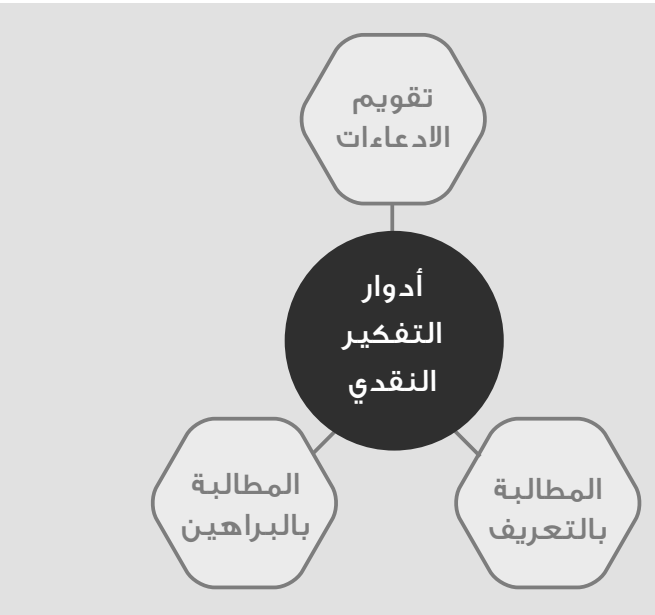
تقويم قيمة الادِّعاءات:

إن أول ما يقوم به التفكير النقدي هو تقويم ادعاءٍ ما، إن كان بحاجةٍ للتفكير، أم لا، فكثيرٌ من القضايا تمرُّ على الإنسان ولا يلقِي لها اهتماماً، في حين أن هناك قضايا صغيرةً يقف عندها، وذلك وفقاً لفرز العقل لها.. فهذا الحارس منتبهٌ انتباهاً شديداً جدًّا لقيمة الأشياء التي تقال له؛ سواء كانت من عنده للآخرين، أو من عند الآخرين له.

مطالبة المفاهيم بالتعريف:

وهذا ما تحدَّثنا عنه سابقاً؛ فالمنطق لا يسمح للعقل بأن يتعامل مع المفاهيم الغامضة، فهو يطالب دائماً بتعريفاتٍ لإزالة الغموض عن الألفاظ.

مطالبة الادِّعاءات بالبراهين:



إن التفكير النقدي يقوِّم صحة الادِّعاءات بتقويمه لصحة البراهين المتعلِّقة بها، فلا يُسمح للعقل بأن يأخذ القضايا بطريقةٍ ساذجةٍ لمجرَّد سماعه للكلام.. بل يطالِب دوماً ببراهين تُثبت صحة الادعاء، فمثلاً: إذا أتيتَ بادعاءٍ، فقلت: "إن أمريكا سوف تسقط في عشر سنين"، أو قلت: "إن فلسطين سوف تتحرَّر في عام (2023)". فما البرهان على هذا الموضوع؟..

إن أمَّةً لا تحسن بناء العقلية النقدية؛ بحيث تستطيع القيام بهذه الأدوار الثلاثة، هي عادةً ما تكون أمَّةً متخلِّفةً

كيف يتعامل التفكير النقدي مع الأرقام؟

حينما تُساق الإحصائيات والأرقام؛ فلا بدَّ بالنسبة للتفكير النقدي معرفة خلفيَّة هذه الأرقام والإحصائيات ودلالاتها!

فعندما يقول شخصٌ ما: (تقدَّمتُ للعمل، والحمد لله كنت الأول وفزت بالوظيفة)، فللوهلة الأولى يبدو الأمر رائعاً، ولكن لو علمنا أنه المتقدِّم الوحيد، فالوضع سيختلف..

عندما يكون في الادعاء رقمٌ مثل: (منتجنا هو الخامس على مستوى العالم)، فنحن نحتاج إلى أن نطرح أسئلةً عن خلفيَّة الرقم؛ لنقارن قيمة الادعاء؛ فصاحب الادعاء الأول ادعاؤه صحيحٌ، ولكنَّ قيمة الفوز بوظيفةٍ هو الوحيد المتقدِّم لها ستختلف فيما لو كان التنافس

مع عشر متنافسين، والادعاء الثاني أيضاً مرتبطٌ بعدد الشركات التي تقدِّم المنتج ذاته، فالخامس على مئة شركةٍ شيءٌ ذو قيمةٍ، ولكنَّ الخامس على ستِّ شركاتٍ يعني أنه يأتي قبل الأخير بدرجةٍ.. فقيمة الادعاء تختلف عن صحته، فالصحة موجودةٌ في الحالتين، ولكنَّ القيمة تعتمد على الخلفيات الرقمية التي نقارن الرقم بها.

4. رابعاً- أمثلةٌ ومعالجاتٌ

سنفصِّل قبل ختام هذا المبحث من خلال مثالٍ تدريبيٍّ بسيطٍ لنوضح فكرة تقويم الادعاء، وكيفية معالجة التفكير النقدي للقضايا:

الادعاء: "هناك مَن يقول: إن خمسةً من آخر سبعة رؤساء جمهورية في أمريكا حتى عهد الرئيس أوباما، كانوا ممَّن يستخدمون اليد اليسرى (عسراويين)".

سؤال الصحة: للتأكُّد أن المعلومة صحيحةٌ ومعروفةٌ.

سؤال القيمة: يبحث إن كان الطرح هو ممَّا يحتاج إلى بحثٍ، وكيف سنفحصه؟ وكيف يعمل التفكير النقدي؟

السؤال عن قيمة هذه المعلومة ما هي؟ وكيف نستطيع أن نضع ميزاناً لهذه المعلومة؟ وهل نأخذها بجديةٍ، أم لا؟ وهل تعني شيئاً، أم لا؟ هذا يتحقَّق من خلال الخطوات التالية:

الخطوة الأولى التحقُّق من الأرقام:

يجب أن نرصد كمرحلةٍ أولى النسبة.. والنسبة هنا هي خمسة رؤساء من سبعةٍ، يعني: هناك احتمال بنسبة 70% تقريباً أن يأتي رئيسٌ أعسر للحكم، وهذا الرقم كبيرٌ جدَّاً، يعني: لو تنافس أمامنا أشخاصٌ، وتبيَّن أن هناك شخصاً أعسر ففرصته بالنسبة للباقين عاليةٌ جدَّاً.

أمَّا الخطوة الثانية:

فهي رصد الخلفية الاجتماعية لمنطقة الإحصاء عموماً، أي: إن كانت نسبة الناس الذين يكتبون باليد اليسرى في أمريكا 70%، فلا يبقى دلالة (قيمةٌ) للطرح، أمَّا إذا تبيَّن أن نسبتهم 10%، فدلالة (قيمة) الموضوع قائمةٌ، والنسبة ليست بيسيرةٍ.

أمَّا الخطوة الثالثة:

فسنقوم بإحصائيةٍ أوسع في خلفية الأشخاص المعنيِّين، أي: سنرصد بقية الرؤساء في أمريكا قبل هؤلاء السبعة، فيتبيَّن أن هناك 37 رئيساً أمريكيًّاً، ولكن كم منهم كان يستخدم يده اليسرى؟ فتبيَّن أنهم ثلاثةٌ فقط؛ أي: 8%، ممَّا يعني أن النسبة قريبةٌ جدًّاً من النسبة العامَّة في المجتمع الأمريكي، وبالتالي لا يوجد فرقٌ.. لكن بالنسبة للسبعة الآخرين، فالنسبة عاليةٌ جدًّاً، إذاً فالمعلومة أصبح لها قيمةٌ!

فيجب علينا أن نجد لها تفسيراً، فما التفسير المنطقي لهذا الطرح؟

إن وظيفة المفكر النقدي أن يرى أفضل تفسيرٍ محتملٍ لهذه الظاهرة، وهنالك عدَّة تفسيراتٍ قُدِّمت، أو يمكن أن تُقدَّم في ذلك:

1. **التفسير الأول:** إن التفكير الحدسيَّ عند الأشخاص الذين يستخدمون يدهم اليسرى أعلى من الأشخاص الذين يستخدمون يدهم اليمنى، والحدسيُّ هو مَن يتَّخذ القرارات دون احتياجٍ لإمساك ورقةٍ أو قلمٍ، أو تفكيرٍ، فتنتج قراراته عن الحدس، كالتاجر الذي لديه مقدرةٌ على معرفة الصفقات الجيدة دون برهانٍ، فيقال: إن لديه شبكةً عقليةً من الخلايا داخل ذهنه تسمح له أن يتخذ قراراً أسرع من بقية الناس، فيقال: إن الأشخاص الذين يستخدمون يدهم اليسرى، هذه الشبكة عندهم قويةٌ.

2. **التفسير الثاني:** إن بعض الدراسات النفسية تقول بأن الناس الذين يستخدمون يدهم اليسرى شخصياتهم مهيمنةٌ، ممَّا يعني أنهم يحبون السيطرة، وهذا مناسبٌ جدًّاً للعمل السياسي.

3. **التفسير الثالث:** إن الناس الذين يستخدمون يدهم اليسرى عادةً يتمركزون في مجالات المحاماة والتمثيل والهندسة.

4. **التفسير الرابع:** إن الشخص الأعسر لديه قدرةٌ خطابيةٌ أعلى من الشخص الأيمن، وهذا ينفع كاحتمالٍ؛ لأن السياسي هو خطيبٌ جيد، وبالتالي يستطيع إقناع الجماهير.

5. **التفسير الخامس:** إن بعض الناس العُسْر يتعرَّضون منذ صغرهم لضغوطٍ من أجل أن يستخدموا يدهم اليمنى، فتنشأ عندهم شخصيةٌ عنيدةٌ تستطيع أن تصمد في وجه مشاكل الحياة.

فأصبح لدينا خمسة احتمالاتٍ، بعد أن حسمنا أن هذه الملاحظات هامَّةٌ، ويبقى السؤال: أيُّ تلك الاحتمالات هو الأرجح؟ وعلى افتراض أنه تمَّ ترجيح احتمالين: احتمال أن الأشخاص العُسْر يتعرَّضون لضغوطٍ وهم صغارٌ من أجل أن يكتبوا باليد اليمنى، فتنشأ عندهم شخصيةٌ قادرةٌ على المقاومة، واحتمال المهن. وقد تمَّ الردُّ على الاحتمال الأول بأن عملية الضغط على الأطفال من أجل استخدام اليد اليمنى انتهت في أمريكا في العام (1960م)، وبعض الرؤساء كأوباما أصغر من هذا السنِّ، فكيف فاز وهو أعسر؟ إذاً نزيل هذا الاحتمال.

وأمَّا الاحتمال الثاني، فإن ثلاثةً من هؤلاء السبعة هم محامون، ممَّا يعني أن نسبة 42% يناسبون فكرة المهن، وإذا اتضح لنا أن نسبة المحامين من الناس العُسْر 40%، فالمعلومة أصبحت أكثر قوَّةً لترجيح فرصة المحامي الرئاسية.. فهنا قمنا بما يسمَّى: المفاضلة بين التفسيرات، وهذا نوعٌ من أنواع التفكير النقدي.

إذاً؛ فمن أوائل العمليات الرئيسية في التفكير الناقد، عملية "تقويم الادعاءات" التي تتمُّ على خطواتٍ؛ أولها: تقويم الادعاء من حيث الأهمية؛ فإننا لن نقف عند كل ادعاءٍ ونحاول تحليله ما لم نتأكد من أهميته، ومن ثم إذا ما تأكدنا من أهميته، نشتغل على الادعاء بما يسمَّى: التفكير النقدي؛ فنبحث عن تفسيراتٍ للادعاء، ومن ثم نرجِّح -بناءً على معاييرٍ معينةٍ- تفسيراً واحداً، هو الغالب من التفسيرات.

5. خامساً: أهمية التفكير النقدي في تحطيم الأصنام

ممَّا يهمُّ استحضاره عند الحديث عن أهمية التفكير النقدي في حياتنا: الأصنام التي تعترضنا في الحياة التي نحتاج إلى التفكير النقدي في سبيل تحطيمها والتخلُّص منها، وممَّن كتب عن هذه الأصنام "فرانسيس بيكون" (Francis Bacon) الذي كتب كتاباً هامَّاً في المنهج التجريبي، أسماه: (الأورجانون الجديد) أو (المنهج الجديد)، ويخبرنا بيكون في كتابه أن الإنسان يعاني بُنيويَّاً من أربعة تحدياتٍ يسمِّيها: أصنام العقل؛ لأن الإنسان إذا لم يتحدَّها، ستحجبه عن التفكير السليم، في حين تُترجم في الكتب بأوهام العقل الأربعة، وهي:

أولاً- صنم القبيلة: بحسب تسميته عند بيكون، وسنسمِّيها نحن: (البرمجة الأولى)، وهي ما تُلقِّنه لنا الأسرة ومحاضن التربية من تصوُّراتٍ تصبح مع الوقت مسلَّماتٍ نستقبل بها

العالم الخارجي، ونحاكم إليها الأشياء دون أن نضعها ذاتَها موضع المسائلة، وقد يتمُّ إضافة ما تمَّ نقله من أيديولوجيَّاتٍ ومذاهبَ كبر مجةٍ ثانيةٍ، فتتحول لتصبح كأداةٍ للتفكير، ولا تقبل أن تتحوَّل إلى موضوعٍ للتفكير.

ثانياً- أصنام الكهف: وسنطلق عليها: (كاميرا العقل)، إن الأجهزة العصبية متفاوتةٌ بين الناس؛ سواء في جودة التلقِّي، أو في ردود الأفعال؛ فالموروثات الجينية تتفاوت بين شخصٍ وآخر، وهذا يؤثِّر في أحكامه.

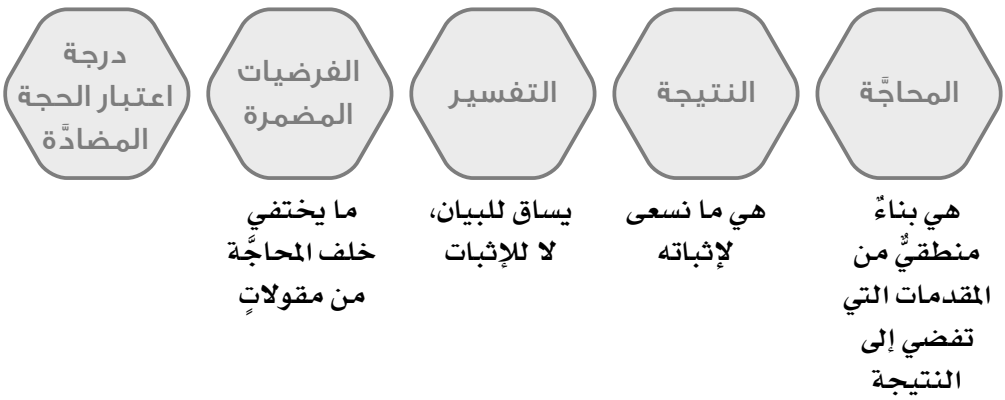
ثالثاً- أصنام السوق: وسنطلق عليها: (التفاعل مع المحيط)؛ فالمحيط البشري يشحننا بالعواطف، وقد يوجِّه ردود أفعالنا العاطفية في الحب والبغض، لا سيما في القضايا المحمَّلة بالعواطف، كالحروب والخصومات، فأمثال تلك القضايا قد يغيب معها العقل.

رابعاً- أصنام المسرح: وسنطلق عليها: (الأفكار المحصَّنة من السؤال)؛ فعلى مسرح حياتنا يحاول المخرجون أن يركِّزوا انتباهنا على أشياء، ويحجبوا عنَّا أشياء، والأفكار التي لا يريدون منَّا نقاشها، يسيِّجونها بالحصانة الموهومة (التخويف والترهيب)، فيصبح الاقتراب منها غير متَخَيَّلٍ، وكأنها فوق المساءلة.

والتفكير النقدي هو أداتنا للتقليل من آثار تلك الأوهام والأصنام من خلال:

كشف بنية المحاجَّة/ كشف الفرضيَّات المختفية/ التأكُّد من حضور المحاجَّة المضادَّة.

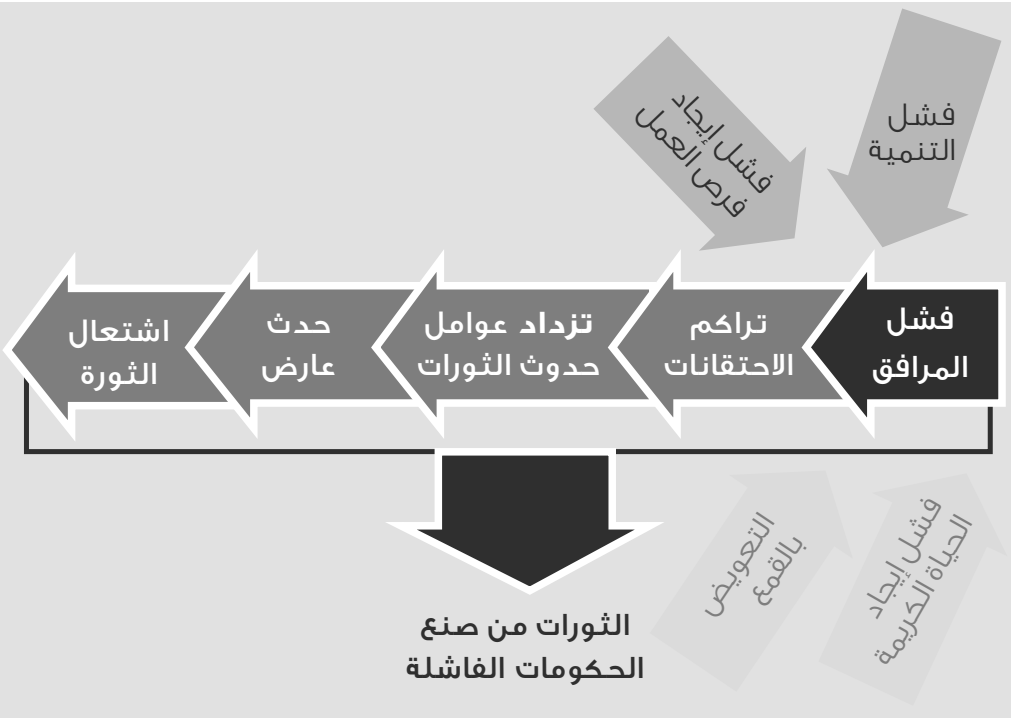
6. سادساً: تقويم المحاجَّة



مثال: الثورات -بمعنى: خروج الناس لإسقاط الحكومات-، هي من صنع الحكومات الفاشلة؛ فحين تفشل الحكومة في التنمية، وتفشل في توفير فرص العمل، وتفشل في بناء المرافق، وتفشل في توفير حدود العيش الكريم، وتعوِّض الفشل بأدوات القمع، تتراكم الاحتقانات، وتزداد عوامل حدوث الثورة، ومع أيِّ حدثٍ عارضٍ تندلع شرارة الثورات. فالثورات بامتيازٍ هي من صنع الحكومات الفاشلة.

بنية المحاجَّة هنا على الشكل التالي:

فبنية المحاجَّة تساعدنا على فهم طريقة الاستدلال، وتمكِّننا من إدراك الفراغات بين المقدمات إن وجدت.



التفسير:

لننظر إلى عبارة: (الثورة بمعنى خروج الناس لإسقاط الحكومات)، في المحاجَّة سنجد أنها تفسيرٌ لكلمة ثورةٍ، وزوالها لا يؤثِّر في المحاجَّة.

الفرضيَّات المضمرة:

سنجد أن خلف كل الأسباب فرضيةً اعتبرها الكاتب مسلَّمةً؛ وهي أن الحكومات هي التي تتخذ القرارات وتضع السياسات لكل المجالات التنموية والأمنية، وهي هنا فرضيةٌ صحيحةٌ.. ولكن، لو نظرت إلى محاجَّةٍ مِن جنسٍ آخر، كقول: (اليوم إجازةٌ، ونحتاج إلى بعض الراحة، وأنا اشتريت تذكرتين إلى السينما حتى نستمتع بالمشاهدة)؛ فالفرضية من شراء التذكرتين أن الشخص الآخر وقتُه فارغٌ اليوم، وأنه يحتاج إلى الراحة، وأنه لا مانع عنده أن يشتري أحدٌ عنه التذكرة، وأنه يحب السينما، كلها فرضياتٌ، قد تصحُّ، أو لا تصحُّ.

المحاجَّة المضادَّة:

يمكن أن تَبنيَ المحاجَّة المضادَّة؛ إما على أخطاءٍ في بنية المحاجَّة، أو على أفكارٍ مضمرةٍ في بنية المحاجَّة لم يقلها صاحبها، وإن مِن كمال المحاجَّة أن يقوم مقدِّم المحاجَّة بوضع اعتبارات الطرف الآخر، ويعرض سبب عدم اعتبارها عنده.

في أغلب الأحوال، عندما نواجه ادعاءً ما -سواء عند قراءة أحد الكتب، أو سماع محاضرةٍ ما-، يكون صاحب الادعاء غير موجودٍ، وبالتالي هناك فارقٌ كبيرٌ بين وجود صاحب القضية الذي يدافع عن قضيته، وبين عدم وجوده؛ فوجود صاحب الادعاء يسهِّل علينا السؤال عن التعريفات، وعن الفجوات داخل الحجاج الموجودة، حتى إننا نستطيع أن نستوضح منه المقصد ممَّا التبس علينا فهمه، ولكن بغياب صاحب الادعاء هناك قابليةٌ ما للظلم، بمعنى أننا قد نفترض أشياء على لسانه، وقد نحمِّله ما لا يحتمل، وبالتالي فإن مِن وظيفة التفكير النقدي تنقيح الافتراضات التي تأتي على غير لسان صاحبها..





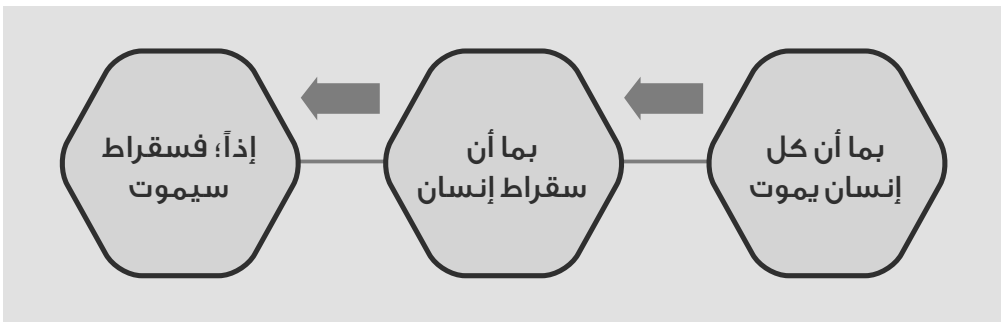
7. سابعاً: الاستنباط والاستقراء

الاستنباط:

كثيراً ما سيقع على مسمع المتعلِّم أو القارئ في رحلته مصطلحَا: "الاستنباط، والاستقراء"، ويحتاج أن يتعرَّف على هاتين القضيَّتَين، وأن يدرك الفرق بينهما..

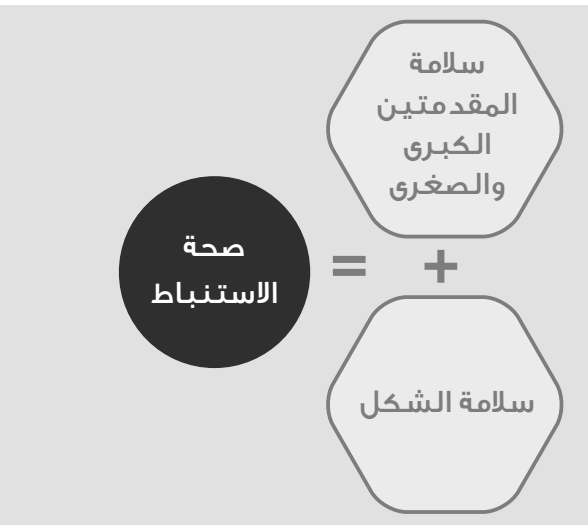
إن التفكير الاستنباطيَّ يبدأ عادةً بمقدمةٍ كبيرةٍ يعتبرها مسلَّمةً، أي: قضيةً واضحة المعالم، وينطلق منها إلى قضيةٍ أصغر فيضعها تحت العنوان الكبير ويخلص منهما لنتيجةٍ..

انظر إلى تسلسل المحاجَّة القصيرة التالية:



فهناك مقدمةٌ كبرى مقبولةٌ: (كل الناس تموت)، وهناك مقدمةٌ صغرى: (سقراط إنسانٌ)، فالنتيجة تبدو منطقيةً وحتميةً: (أن سقراط سيموت). فالحكم بموت سقراط حتميٌّ إذا صحَّت المقدمتان الكبرى والصغرى، وذلك هو الاستنباط.

وإن بنية المعارف في العصور الوسطى كانت تقوم جوهريًّاً على فكرة الاستنباط، فمثلاً: فكرة تصوُّر الكون في شكلٍ دائريٍّ في العصور الوسطى انبنت على تصوُّر أن الشكل الدائري هو أكمل الأشكال، والكامل -وهو (الله)- لا يخلق إلا كاملاً -وهو الكون-، فلا بدَّ أن يكون الكون دائريًّاً. ومن هنا نرى صور مركزية الأرض، والكون يدور من حولها بشكلٍ دائريٍّ. وعلى الرغم من أن المنهج التجريبي الاستقرائي كان حاضراً في أعمال أناسٍ كأرسطو وأرخميدس، إلا أن الطابع العامَّ كان استنباطيًّاً نظريًّاً.

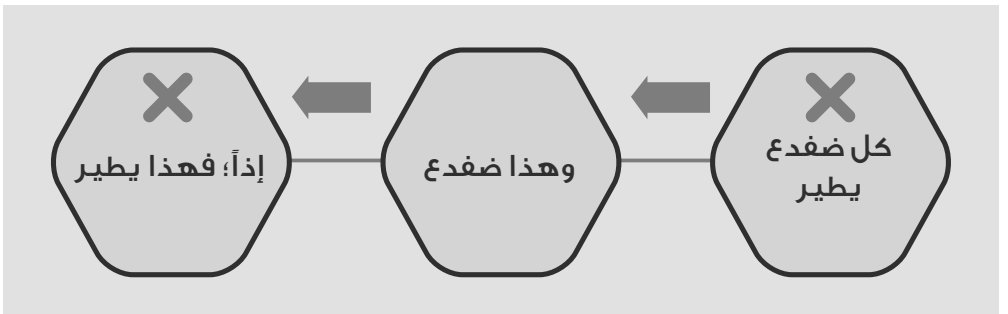


وقد حدَّ المنهج الاستنباطيُّ من العلم بشكلٍ كبيرٍ؛ بحيث إننا لم نعد نلاحظ الواقع وتغيُّراته؛ بل أصبحنا نضع قاعدة ونضع، تحتها عنواناً معيَّناً، ومن ثم نحصل على النتيجة التي نريدها بالشكل الذي نريده.

صحة الاستنباط يحتاج إلى أمرين:

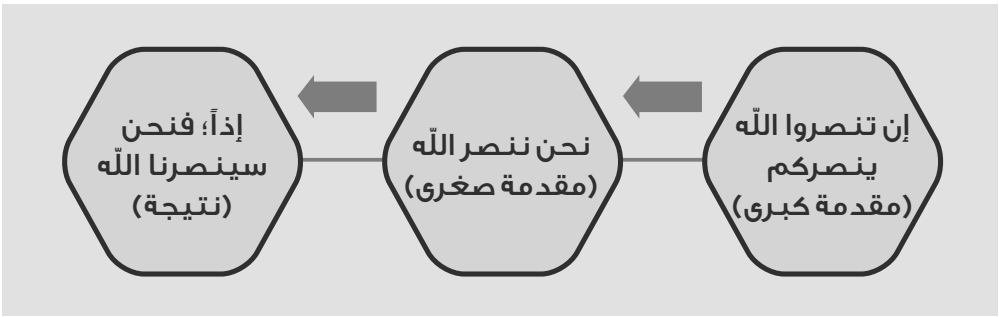
- سلامة الشكل
- سلامة المقدمتين الكبرى والصغرى

مثال على سلامة الشكل وخَلَل المقدمات:



إن التعامل مع المنهج الاستنباطي مهمٌّ جدًّا؛ خاصَّةً في بيئاتنا؛ حيث يتمُّ استدعاء نصٍّ قرآنيٍّ أو حديثيٍّ واعتباره مقدمةً كبرى، ووضع حالةٍ يراد حكمها كمقدمةٍ صغرى، ثم استخلاص النتيجة.. وهذا كثيرٌ في الخطابة عندنا، وفي الأحاديث العادية، وخاصَّةً تلك التي تحمل طابعاً دينيًّاً، وبالمثال يتضح المقال. فمثلاً:

في معرض القيام بمواجهة جيشٍ مدجَّجٍ بالعدد والعتاد، والانضباط والتدريب، يتمُّ استخدام المنطق التالي لتبرير المواجهة بالقوة من فئةٍ قليلة العدد والعتاد والتدريب:

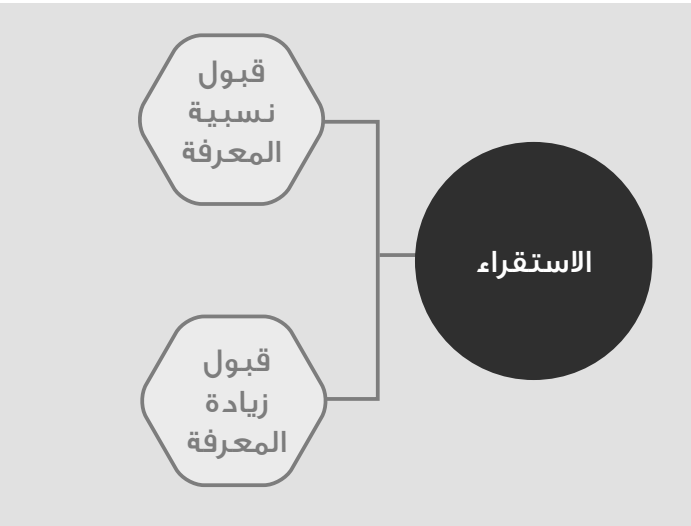


للوهلة الأولى يبدو منطقاً محكَماً، ولكن إذا ما حاولنا أن نحلِّل المقدمة الأولى ونفحصها فحصاً عميقاً؛ بمعنى: فحص معنى (نصر الله) في القرآن والسيرة، فسوف نلاحظ عدة أمورٍ: لماذا امتنع الرسول صلى الله عليه وسلم وهو أَولى الناس بنصر الله عن القتال في مكَّة؟ ولماذا دافَعَ في مرحلةٍ، وهاجم في مرحلةٍ، وهادن في مرحلةٍ؟ ولماذا كان يبحث في القبائل عمَّن يتكاتف معه إلى أن جاء الأنصار واحتضنوه في المدينة؟.. فبعد هذا الجهد من النبي صلى الله عليه وسلم أصبح لديه كمٌّ نوعيٌّ ليبدأ معه المعارك، ومن ثم يأمل بنصر الله عزَّ وجلَّ.

فالأَولى بأسباب النصر أن تتمَّ بطريقةٍ علميةٍ منهجيةٍ، فلو درسنا الحروب بأشكالها المختلفة؛ مثل الحروب المتكافئة، وحروب القلَّة غير المتكافئة، والشروط الموضوعية لنجاح القلَّة كما في فيتنام وغيرها.. لَاكتشفنا أن مفهوم (إن تنصروا الله ينصركم)، ليس بمفهومٍ ساذجٍ ينطبق على أيَّة حالٍ، وأن مقولة (نحن ننصر الله)، إذا لم تحقِّق شروط الدراسة الاستقرائية للسنن، قد تقود إلى كوارث.

وإن هذا الشكل من التفكير الذي كان سائداً في مجتمعات القرون الوسطى، لا زال البعض يعيش فيه إلى اليوم!

الاستقراء:



لقد كان الانتقال من المنهج الاستنباطي إلى المنهج الاستقرائي صراعاً مريراً في أوروبا، بدأ منذ تعرُّض شخصٍ مثل روجر بيكون للمدخلات التجريبية في الكتابات الإسلامية الأولى المترجمة في الجامعات الفرنسية في القرن الثالث عشر، ولم تبدأ مرحلة الاعتراف بقوَّته إلا مع كوبرنيكس وجاليليو، ونضجت أفكاره مع فرانسيس بيكون، وتُوِّجت بأعمال نيوتن.. وهكذا تجذَّرت أرجحية المنهج التجريبي المعتمد على الاستقراء.. فما الاستقراء؟

الاستقراء: هو الانطلاق من الجزئيَّات إلى وضع القاعدة العامَّة، فهو منهجٌ قائمٌ على ملاحظة الواقع ودراسته، واعتبار أن النتائج احتماليةٌ وليست يقينيةً، وبالتالي لو جاءت دراسةٌ أدقُّ أو تغيَّر الواقع، لَتغيَّر الاستنتاج، وبالتالي يبقى الإنسان منفتحاً على العلم وتغيُّرات الواقع.

فمثلاً من الملاحظ أن بحَّارة السفن يصابون بنزيف اللِّثة، وعدم شفاء الجروح، وتساقط الأسنان أثناء الرحلات الطويلة، والموت، وأن بعض البحَّارة لا يصابون بالداء ذاته، والقاسم المشترك بين مَن لا يصابون أنهم يأكلون الليمون، فتُجرى تجارب على عينةٍ كبيرةٍ بإعطائها الليمون، فتُشْفى، فتُعمَّم قاعدة أن في الليمون مادةٌ تمنع المرض..

ومثله ما حدث مع نيوتن، فمِن ملاحظة تكرُّر سقوط الأجسام من الأعلى إلى الأرض، استنتج وجود الجاذبية؛ فالجسم ذو الكتلة الأكبر يجذب إليه الجسم الأقل كتلةً، والأرض كتلةٌ كبيرة تقوم بجذب الكتل الأقل إلى مركزها، وبتكرار التجربة والحسابات وضع قانون الجاذبية العام.

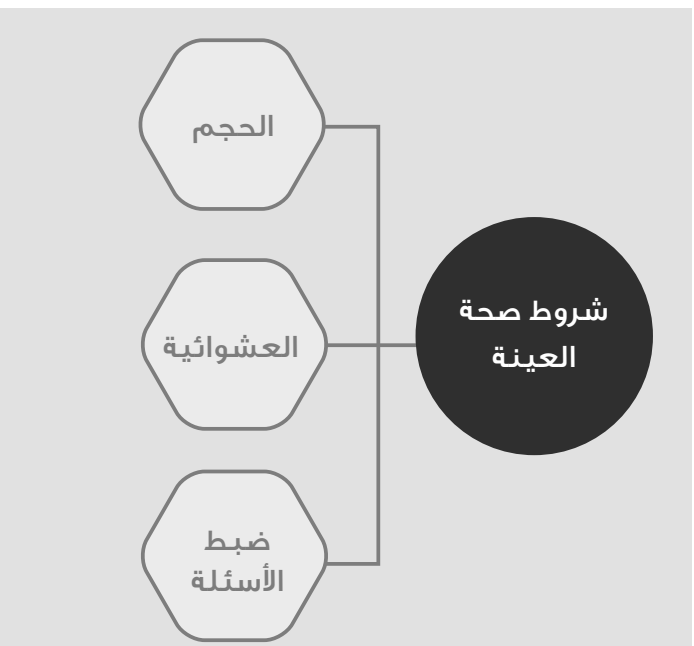
خطوات المنهج الاستقرائي:

فملاحظةٌ عابرةٌ، مثل: عدم إصابة مَن يأكل الليمون بالنزيف (داء الإسقربوط)، تمَّ تجريبه على المصابين فشُفوا، ومنه عُرِف الفيتامين (س). فمِنْ جَمْعِ البيانات الجزئية عن الظاهرة المدروسة، إمَّا بشكلٍ كاملٍ (استقراءٍ كاملٍ)، أو بشكلٍ ناقصٍ (استقراءٍ ناقصٍ)، يتمُّ استخلاص القوانين العامَّة. وبطبيعة الحال، كلما صغرت العيِّنة المدروسة، قلَّت القدرة على التعميم، والعكس صحيحٌ. وبتحقيق شرط عدم تحيُّز العينة، ونقصد بالتحيُّز: فقدان شرط العشوائية، فلا يمكن الاعتماد مثلاً على شعبية كرة القدم في بلدٍ ما بسؤال مرتادِي الملاعب عن رأيهم في اللعبة! إذ من الطبيعي أن تكون النسبة 100%.

إن العلم الحديث مبنيٌّ على هذه الفكرة، فكرة الاستقراء، والاحتمال، وقابلية التغيُّر المستمر في الأحكام داخل الكون الذي نعيش فيه، فتظهر نتائج الاستقراء نتائج احتمالية، بينما يعطينا الاستنباط نتائجَ تبدو في شكلها الخارجي قطعيةً، ولكنها في الحقيقة قد لا تكون كذلك.

شروط صحة العينة في منهج الاستقراء:

- **حجم العينة:**



إن صحة الاستقراء مرتبطةٌ بشكلٍ أساسيٍّ بحجم العينة؛ فمثلاً: حينما نقوم بإحصائيةٍ على الشعب البريطاني، عدد المشاركين فيها 80 مليوناً من أصل 90 مليونَ نسمةٍ، فلو استنتجت من هذه الإحصائية أن الناس لا تريد الأسرة الحاكمة، فاستنتاجي يكون قويًّا ومنطقيًّا؛ لكون النسبة كبيرةً مقارنةً بعدد الشعب، ولكن لو كانت العينة فيها 100 ألفٍ من أصل 90 مليون نسمةٍ، و90 بالمئة منهم قالوا: لا نريد

الأسرة الحاكمة، فالاحتمالية هنا أصبحت ضئيلةً، ولا أستطيع أن أصل منها لنتيجة أن الشعب لا يريد الأسرة الحاكمة، فكلما زادت العينة، كانت النتائج أكثر قرباً للواقع.

● عشوائية العينة:

إن من الشروط الأساسية أيضاً في العينة عشوائيَّتَها؛ أي: تنوُّع الأوساط التي تؤخذ منها العينة، فلنفترض أننا نريد أن نقوم بإحصائيةٍ لمحبِّي كرة القدم في منطقةٍ ما، فذهبنا إلى الملعب وقمنا بالإحصائية على الجمهور هناك! فهذه العينة لا يمكن اعتبارها دليلاً على أن الشعب في تلك المنطقة يحب كرة القدم؛ لأن العينة التي نستطيع أن نؤمن بنتائجها، يجب أن تكون ملتقَطةً من أماكن مختلفة، ومن جميع الناس على اختلاف ألوانهم، وأجناسهم، واتجاهاتهم.

العينة في الاستقراء كلما كانت أكبر، وكانت العشوائية فيها أكثر.. كانت دلالاتها أقوى وأوثق في إيضاح الواقع الموجود

● نوعية الأسئلة المطروحة:

إن طبيعة الأسئلة المطروحة أمرٌ في غاية الأهمية؛ حيث يجب أن تكون الأسئلة مصمَّمةً لمعرفة الحقيقة، لا لتلقين المستجيب ما يجب أن يختار.

إذاً؛ فإن العينة تحتاج إلى توفُّر ثلاثة شروطٍ: حجم العينة، وعشوائية العينة، ونوعية الأسئلة المطروحة على الجمهور.

لقد أصبح طابع العصور الحديثة هو الاستقراء، وهو بالرغم من نسبيَّته، إلا أنه أداة العلم والمعرفة المنفتحة على التجدُّد.

8. ثامناً: التشبيه والقياس

في هذه الفقرة سنتعرَّض لقضيةٍ في غاية الأهمية في التفكير النقدي، وهي التشبيه والقياس، فكثيراً ما يلجأ الناس بطبيعتهم إلى ضرب الأمثلة، ولضمان صحة التشبيهات والأمثلة، علينا أن ندرك معنى التشبيه والقياس بشكلٍ واضحٍ؟

أولاً- التشبيه:

نقول مثلاً: الرجل كالأسد في شجاعته؛ فهناك المشبَّه: (الرجل)، والمشبَّه به: (الأسد)، ووجه الشبه: (الشجاعة)، وأداة التشبيه: (ك)، وتأتي عملية التشبيه بمختلف الأشكال، كأن يتمَّ إلغاء وجه الشبه: (الرجل كالأسد)، أو أداة التشبيه: (الرجل أسدٌ في الشجاعة).. لكنَّ روح الموضوع واحدةٌ.. ففي كل الأحوال ليس هناك تطابقٌ، ولكنَّ هناك وجهاً للتشبيه وفروقاً، والذي يعني هو تحديد أوجه التشابه والافتراق؛ لأن ذلك ما سيحدِّد منطقية التشبيه أو قصورَها المنطقيَّ.

ثانياً- القياس:

في المنطق الصوري يُقصد بالقياس: المحاجَّة القصيرة، مثل: (العالم متغيِّر، وكل متغيِّر حادثٌ؛ فالعالم حادثٌ)؛ أي: مقدمةٌ كبرى، ومقدمةٌ صغرى، ونتيجةٌ.

أمَّا القياس في المنطق الأصولي، فهو وجود حادثةٍ قديمةٍ لها حكمٌ منصوصٌ، ومقارنتها بحادثةٍ معاصرةٍ حكمها مجهولٌ، وعن طريق التشابه بين علَّة الحكم الأول وعلَّة الحكم الثاني، مثل: (الحكم بتحريم المخدرات، قياساً على حكم الخمر المنصوص؛ لوجود علَّة الإسكار في كلٍّ منهما).

وأيضاً، مثالٌ حول إشكاليَّات دعوى التشابه كمبرِّرٍ للحكم:

من المقولات الشائعة بين المسلمين: أن المسلمين هزموا إمبراطوريَّتين (الفرس، والروم) في وقتٍ واحدٍ! وبما أنهم استطاعوا أن يهزموا إمبراطوريتَي ذاك الزمان، فسيستطيعون أن يهزموا إمبراطوريتَي هذا الزمان، والإمبراطوريتان هنا كنايةٌ عن (روسيا، وأمريكا). فيبدو الأمر وكأنه تشبيهٌ بسيطٌ؛ فإذا كنَّا واحداً ضدَّ اثنين وفزنا، فاليوم أيضاً سنفوز..

والسؤال: هل المثال أو التشبيه هنا يعتبر تشبيهاً صحيحاً؟! وهل وضعية الفرس والروم في تلك اللحظة التاريخية كوضعية روسيا وأميركا اليوم؟ وهل وضعية المسلمين آنذاك كوضعيَّتهم اليوم؟! وما الأشياء التي لم نُدخِلها في المقارنة وقد تؤدِّي إلى نسف المقارنة بالكلية، وتنفي وجودها من الأصل؟! فإننا عندما نشبِّه شيئين ببعضهما، تكون درجه التقارب والاختلاف بينهما مهمَّةً جدَّاً، فللوصول إلى النتيجة الصحيحة يجب أن تكون درجة التشابه عاليةً بين الاثنين، والتشابه هنا لا يعني التطابق، فالتطابق يؤدي إلى عدم حاجة المقارنة

من الأصل، ولكن نقصد بالتشابه أن يكون كلٌّ من المشبَّه والمشبَّه به بدرجةٍ مقبولةٍ من أوجه التشابه. فعلى سبيل المثال:

إن قوة التشبيه تكون في مدى قوة درجة الاقتراب من التماثل بين الظاهرتين الموجودتين

هنالك مَن كَتَبَ يقول: "70 بالمئة يعتقدون بضرورة إنهاء ظاهرة الفقر في العالم، والأمين العامُّ للأمم المتحدة يقول: ذلك ممكنٌ، فهو هدفٌ كبيرٌ، ولكنه ليس أكبر من إنهاء العبودية، أو من وضع شخصٍ على سطح القمر". فهل إنهاء الفقر في العالم يقارَن أو يشبَّه بالوصول إلى سطح القمر؟ وهل المقارنة هنا منطقيةٌ؟

الجواب: إننا حينما نضع القضيتين أمام بعضهما، ونبحث في الفوارق، نجد أن النزول إلى القمر هدفٌ سهل التحقيق مقارنةً بقضية إنهاء الفقر في العالم، فإذا درسنا القضية من عدَّة زوايا، فيكفي أن يرى رئيس دولةٍ كبرى مثل أميركا أن على العلماء أن يصلوا إلى القمر، ومن ثم يترتَّب على تلك القضية تحديد الزمن الذي سيصلون فيه، وتحديد الأطراف المسؤولة، وهي عبارةٌ عن مؤسسة ناسا مثلاً، والأطراف التي يحتاجون إلى تعاونهم هم الموظفون في ناسا، أمَّا عن درجة المقاومة لهذه العملية، فهي غير موجودةٍ؛ لأن الحكومة تريد، والعلماء يريدون، فالموضوع سهلٌ وبسيطٌ. ولكن إذا بحثنا في مشكلة الفقر في العالم، فتحديد الهدف أمرٌ ليس بالبسيط؛ فماذا نقصد بإنهاء الفقر في العالم؟ وعملية تحديد الزمن، أي: متى سينتهي الفقر؟ أمرٌ صعبٌ جدًّا، وكذلك تحديد الأطراف الذين سيشاركون؛ فكيف ستتعاون الأطراف، مثل: أمريكا، وروسيا، واليابان، والصين، والهند، وباكستان، وبينهم خلافاتٌ.. فهم لم يقبلوا التعاون بالقضايا الأبسط، فكيف سيتعاونون بموضوع القضاء على الفقر!

9. تاسعاً: التحيُّزات البشرية في التفكير النقدي

بوصولنا إلى هذه النقطة، نكون قد وصلنا إلى آخر مسار التفكير النقدي، وقبل أن ننهي المبحث، سنقف عند أمرٍ هامٍّ متمثِّلٍ بالتحيُّزات البشرية؛ فالإنسان الذي سيُقدِم على التفكير النقدي محمَّلٌ بطبعه بالتحيُّزات، فهو يريد للمحاجَّة أن تنجح، أو يريدها أن تسقط، فكيف سينتبه لدوافعه الداخلية؟

تحريف مقولة الطرف المقابل:

كنَّا قد أسلفنا بأن التفكير النقديَّ ليس انتقاماً من الطرف الآخر، إنما هو محاولةٌ لإنصاف الطرف الآخر، ولكنَّ هذه المحاولة ستمرُّ أيضاً بتحيُّزاتنا الذاتية، فمثلاً: إذا تصفَّحنا وسائل التواصل الاجتماعي، وراقبنا آراء وأقوال مؤيِّدي الأديان واللاأديان بحقِّ بعضهم، وكيف يتمُّ تغيير مقولات أهل ديانةٍ أخرى فقط من أجل الانتصار للذات، سنجد عندها العالم مليئاً بعدم الإنصاف؛ وذلك لأن التحيُّزات الإنسانية لا يُتخَلَّص منها بسهولةٍ، وهذا ممَّا يجدر التعامل معه بانتباهٍ.

الإيهام بادعاء الخبرة وتغطية المصادر:

إن من أكبر ما تعانيه المجتمعات العربية والإسلامية جهازها المعرفي، وعدم مقدرتها في الحكم على الأشياء بسلامة

في التعقيبات على ظاهرة كورونا، سنجد مَن يقولون: إن العالِم الفلانيَّ أو المؤسسة الفلانية قالت عكس ما تقوله كل الدوائر العلمية الموجودة، وعادةً تكون أسماء ملفتةً ولامعةً، إنما الوزن العلمي لها غير واضحٍ، أو هو ممَّن لا يُسأل عنه! فوظيفة التفكير النقدي هنا أن يحمينا من "المصادر الموهومة"، التي من السهل تشكيلها وكأنها حقيقيةٌ وواقعٌ، والبشر في كثيرٍ من الأحيان يتركون الأدلَّة الكبيرة لصالح الأدلَّة الجزئية، وهذا نراه بوضوحٍ أيضاً إزاء فكرة "نظرية المؤامرة" الواضحة جدَّاً في قضية انتشار كورونا، ففي الوقت الذي لدينا فيه آلاف المرضى في المستشفيات حول العالم، والإحصائيات التي تبرزها الحكومات من مصابين وأمواتٍ، والاقتصاديات المتدنِّية التي تشهد على حجم الكارثة الموجودة.. يمكن لشخصٍ ما لا يحمل التفكير النقدي أن ينظر إلى خبرٍ صغيرٍ ساقته صحيفةٌ أو مقولةٌ لشخصٍ ينفي فيه وجود الفايروس! بغضِّ النظر عن كمية وتضافر الأدلَّة الكبيرة التي تشير في الاتجاه الثاني.

إذاً؛ فالتفكير النقدي هو حارسٌ على بوَّابة العقل، وكلما كان هذا الحارس أكثر كفاءةً، كانت الأشياء التي نخرجها للآخرين أو نستقبلها من الخارج منضبطةً.

ما تمَّ بيانه هو تمهيدٌ وتأكيدٌ على أهمية التفكير الناقد، إلا أن هذا الطرح لا يغني عن قراءة كتاب "التفكير النقدي"، والتمكُّن من أدواته للأشخاص الذين يريدون أن يشاركوا في مشروع النهضة، ويصنعوا المجتمعات العربية والإسلامية، فإن أكبر ما نعانيه هو بسبب جهازنا المعرفي وقدرتنا في الحكم على الأشياء.

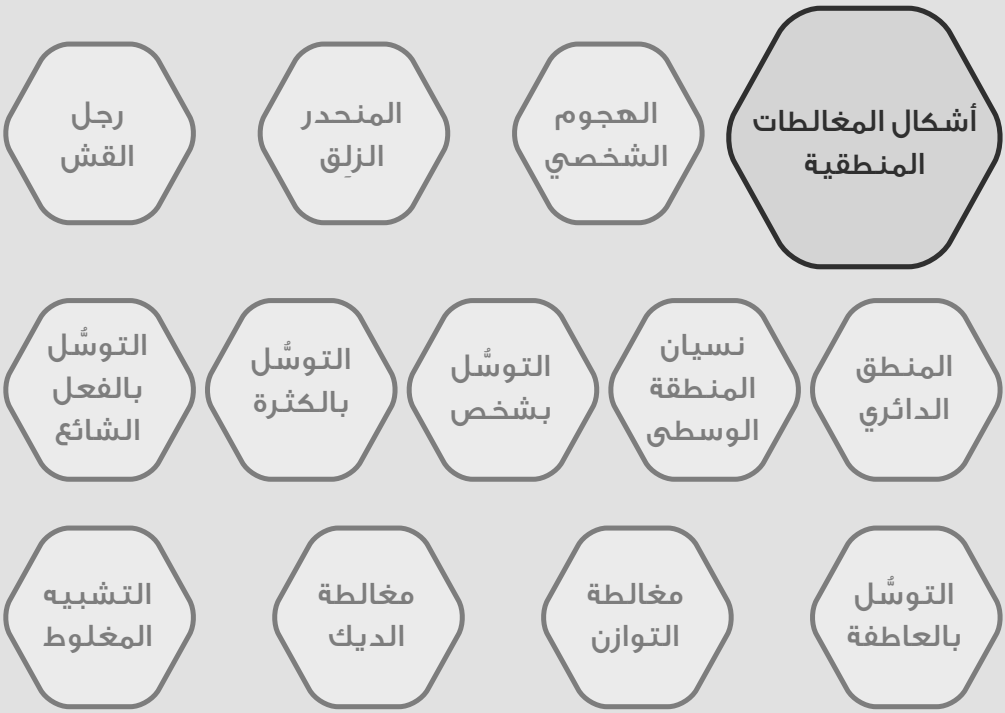
3. المغالطـات المنـطقيـــة

أين مكمن الخطأ في مقولاتٍ مثل:

"لنا الصدر أو القبر.. تقول لشخصٍ: لن ينجح الموضوع الفلاني؛ لأنك لا تمتلك المعرفة ولا المال له، وهو يحتاجهما، فيقول لك: اللّه قادرٌ على كل شيءٍ.. كل مَن قابلتهم يؤكِّدون صحة الموضوع، فلماذا لا تصدق؟.. حدسي يقول: إن الخبر صحيحٌ.. الخبر متداولٌ في الواتس أب، فهو صحيحٌ بالتأكيد.."؟

تتكرَّر المغالطات المنطقية بين الناس بكثرةٍ؛ بحيث تأخذ الشكل الخارجي للمنطق السليم، ممَّا يصعِّب على الناس اكتشافها في كثيرٍ من الأحيان، وهذه المغالطات تأخذ أشكالاً عديدةً، نوجزها فيما يلي:





1. أولاً- مغالطة الهجوم الشخصي:

وهي أشهر مغالطةٍ يمكن أن يتعرَّض لها الإنسان، وفيها يتمُّ حرف الموضوع عمَّا هو عليه، وتحويله إلى هجومٍ على الشخص الطارح للموضوع، ومن أبرز أمثلته ما نشاهده في بعض البرامج التلفزيونية، كبرنامج "الاتجاه المعاكس".

لنأخذ مثالاً: يدور حديثٌ حول قضية التبادل الثقافي مع الغرب، وفيه رأيان؛ رأيٌ مؤيِّد لضرورة ذلك ويدعمه بالبراهين، ورأيٌ آخر يرى أخذ الصناعات فقط وترك الأفكار، فبينما يسوق الطرف الأول البراهين التي تؤكِّد ضرورة التبادل الثقافي، يردُّ الآخر فيقول: أنا لا أعتقد أن هناك خيانةً أعظم من هذا الكلام الذي يقوله صاحبنا، فهذا هو ما تريده الشيوعية والصهيونية والإمبريالية والقوى الظلامية التي تريد أن تسحبنا للخلف، هؤلاء الناس أمثال هذا الشخص عملاء.. فينتقل من الحديث عن الثقافة إلى الحديث عن

الشخص، وهذه مغالطةٌ منطقية كبيرة جدًّاً يقولون عنها في الاصطلاح العادي: "تَرْكُ الرسالة والإمساك بخناق الرسول"، مثلاً: مشركو قريشٍ في الغالب لم يناقشوا قول "لا إله إلا الله"، إنما اتجهوا إلى شخص الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فقالوا عنه: ساحرٌ، وكذَّابٌ، ومجنون. وهذا النوع من المغالطات المنطقية مشهورٌ جدًّاً في حواراتٍ كثيرةٍ.



2. ثانياً- مغالطة المنحدر الزلِق:

وهو نوعٌ مشهورٌ جدًّاً في المغالطات المنطقية، يسمُّونه: المنحدر الزلِق (Slippery Slope)، ويعني: اختيار أسوء سيناريو محتملٍ من بين احتمالاتٍ حسنةٍ، ويُبنى عليه القرار، وهذه المغالطة استُخدمت كثيراً في محاربة تعليم المرأة، فكان الكثير من الناس ينادي بمنع تعلُّم المرأة؛ لكونها إذا تعلَّمت لَربَّما ستقرأ رواياتٍ فيها فحشٌ، وستبدأ بالعلاقات، وسيعمُّ الفساد، وبالتالي ستضيع الأسرة، فاعتبروا تعليم المرأة طريقاً منحدراً سيفسد العالم به. في حين أن هذا المنحدر هو احتمالٌ واحدٌ مقابل احتمالاتٍ عدَّةٍ، فيمكن للمرأة أن تصبح مربيةً ناجحةً، ويمكن أن تصبح طبيبةً، كما يمكن للنساء أن يصبحنَ عالماتٍ في العلوم التي تحتاجها الأمة، وأيضاً المرأة المتعلِّمة ستخلق بيئةً ثقافيةً في بيتها، وهذا سيصبُّ في مصلحة الفرد والمجتمع.

وأيضاً لدينا مثال الذهاب بتجلِّيات بعض المفاهيم إلى المنحدرات بغرض إبعاد الناس عنها،

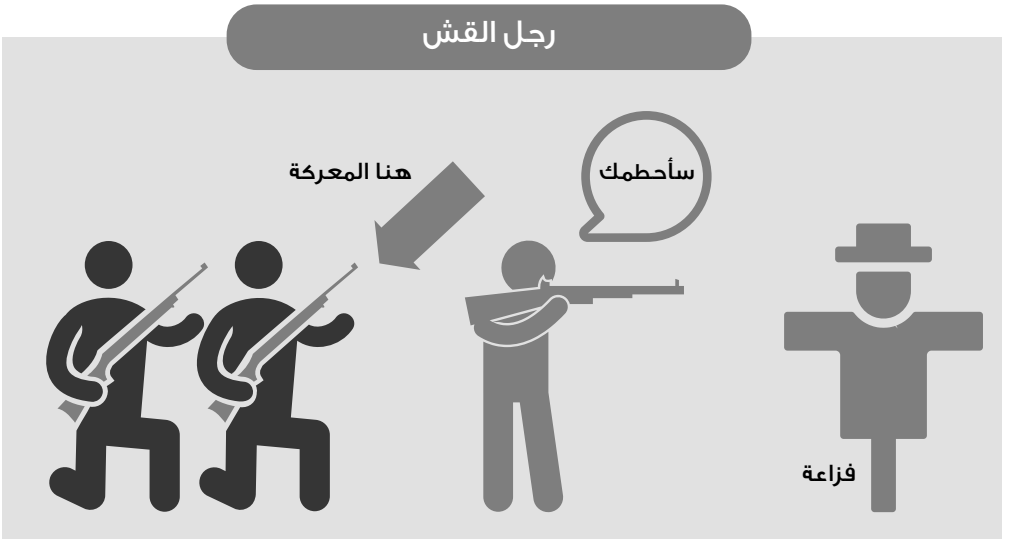
كالمناداة بالحرية مثلاً؛ فالحرية قد تعني حرية الكلمة، أو حرية المعتقد، أو حرية السفر والتملُّك، ومن احتمالات الحرية أن تودي بصاحبها إلى الفساد والتخريب، فيأتي شخصٌ ما ويرفض الحرية بمغالطة أخذه لاحتمال المنحدر، فاختيرت أسوء السيناريوهات، في حين كان يمكن لسيناريوهاتٍ أخرى أن تكون هي المخرج!



3. ثالثاً- مغالطة رجل القش:

رجل القش كنايةٌ عن فزَّاعةٍ مصنوعةٍ من القش على شكل إنسانٍ لإخافة الطيور وإبعادها عن الحقول.. والسؤال: لماذا سمِّيت هذه المغالطة بمغالطة رجل القش؟

إن رجل القش هذا لا يقاتل، إنما هو عبارةٌ عن خشبةٍ، فإن كان أمامك شخصٌ قويٌّ ولا تريد مواجهته، فتأخذ عصاك وتضرب رجل القش؛ لكونه لا يردُّ الضربات، ومثال ذلك أن يتحدَّث شخصٌ في موضوعٍ ما، وبجواره شخصٌ آخر يريد أن يحارب الفكرة التي يتحدث بها، ولكنَّ الفكرة في أساسها قويةٌ ويصعب محاربتها، فلا يملك لذلك سبيلاً، فيتصيَّد من طرحه مثالاً مبالغاً فيه، أو نسبةً مؤيةً خاطئةً، ويهاجمه بهذا الخطأ، أو قد يتقوَّل عليه ما لم يقله ويحاربه به، أو يناقشه بقضايا خلافيةٍ يحيد بها عن الطرح الأساسي لطرحٍ يستطيع أن يحاربه من خلاله.

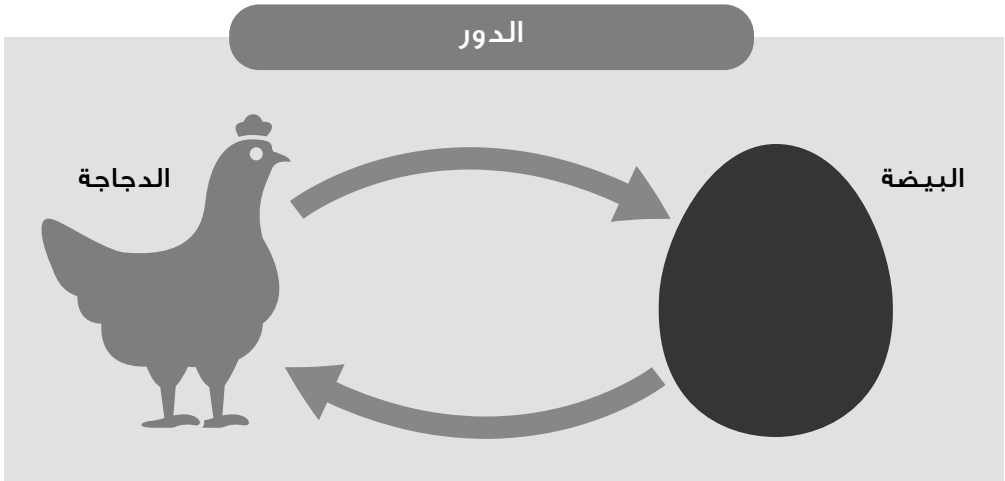


4. رابعاً- مغالطة المنطق الدائري:

وهو ما يسمُّونه: (Circular Reasoning) الدور أو المصادرة؛ بأن نجيب جواباً لا يفيد الإجابة؛ بل نصادر الإجابة بالجواب المطروح؛ وهذا كسؤال: من أين أتت البيضة؟ الجواب: من الدجاجة. يسأل ثانيةً: من أين أتت الدجاجة؟ الجواب: من البيضة.. وهكذا إلى ما لا نهاية.

وهذا نجده في حياتنا عند سؤالنا لشخصٍ مِن معتنقِي المسيحية: "ما الدليل على أن المسيح ابن الله؟"، فيجيبنا بأن الكتاب المقدَّس هو الذي يقول ذلك، وإذا سألتَه: من الذي أحضر الكتاب المقدس؟ يجيبك بأن ابن الله هو الذي أحضره! فتكون الإجابة بأن ابن الله هو الذي قال: إنه ابن الله، فهو لم يضف شيئاً إلى المسألة.

وأيضاً، هناك مثالٌ هامٌّ في هذا الطرح، فقد نسمع هذه المغالطة من أحد المسلمين فيقول: إن الإسلام فيه حلولٌ لكل شيءٍ، فإذا أجبته بأن واقع المسلمين المتدهور اليوم لا يقول ذلك، يجيبك بأن المسلمين لا يطبِّقون الإسلام الصحيح وهذا سبب تدهور حالهم، وإذا سألته: لماذا لا يطبِّق المسلمون الإسلام الصحيح؟ يقول لك: لأنهم لا يلتزمون بمنهج الصحابة.. وهكذا إلى حالة الدوران في الحلقة ذاتها دون إيجاد إجاباتٍ حقيقيةٍ، فهنا لم يتمَّ إضافة شيءٍ للحوار؛ بل قمنا بمصادرة المطلوب، فكيف لفكرةٍ ما أن تُثبِت نفسها بنفسها! فهذا منطقيًّاً مرفوضٌ، ويندرج ضمن المغالطات المنطقية.



5. خامساً- مغالطة الثالث المرفوع:

وهي مغالطةٌ مشهورةٌ جدًّا، متعلِّقةٌ بقضية إهمال المنطقة الوسطى، هناك بيتٌ شهيرٌ في الشعر العربي يقول:

ونحن أناسٌ لا توسُّطَ عندنا لنا الصدرُ دون العالمين أو القبرُ

فبين الصدر والقبر مساحةٌ كبيرةٌ جدًّا، فهذه المغالطة تقول: إنه لا يوجد شيءٌ في الوسط، إما الأول أو الأخير، إما أن تكون أبيض، أو تكون بالسواد المطلق، إما إسلام أو غير إسلام، إما علمانية أو غير علمانية.. والحال أن هذه الخيارات الحَدِّية في أغلبها تصطدم بالواقع، والعالم غير مرتَّبٍ على هذه الكيفية، فغالباً ما تلتقي الخيارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية



والوطنية في المنتصف.. فالمجتمع لا يحتمل هكذا نوع من الاختيارات، فلا بدَّ اليوم من منطقةٍ في المنتصف تلتقي فيها الاختيارات من أجل أن يستقرَّ المجتمع ويبني نفسه بنفسه، فالخيارات الحدِّيَّة تدخل في المغالطات المنطقية في كثيرٍ من أحوالها.

6. سادساً- مغالطة التوسُّل بشخصٍ:

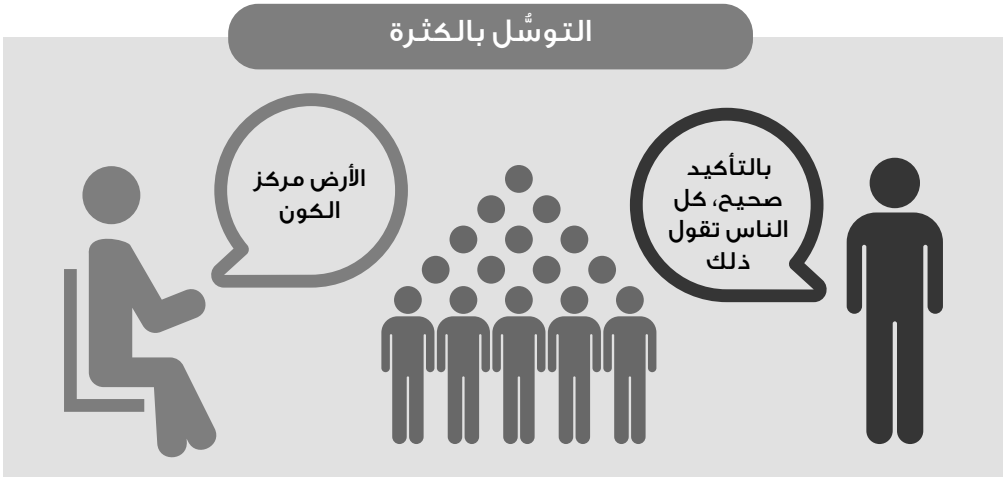
وهذه أيضاً من المغالطات الشهيرة، وتحدث بأن يتوسَّل الإنسان بدليلٍ، وهو ليس بدليلٍ، كأن يقول قائلٌ: هذا القول قال به العلَّامة فلان أكبر علماء عصره وزمانه، وهذا الشخص يؤكِّد على أن الأرض ليست كرويةً! فنحن هنا لا نناقش عظمة فلان؛ بل نناقش كروية الأرض، وهذا الموضوع يحتاج إلى دليلٍ علميٍّ، ولدينا حقائق موضوعيةٌ تتعلَّق بالطيران وبالأقمار الصناعية وبالتلسكوبات وبالحسابات الرياضية تشير إلى كروية الأرض، فعظمة الشخص بذاتها ليست دليلاً، وتحويل النقاش من القضية إلى الشخص يُعتبر مغالطةً منطقيةً.



7. سابعاً- مغالطة التوسُّل بالكثرة:

كثيراً ما نسمع سؤالاً يوجَّه لشخصٍ ما عند مخالفته للسائد: "هل جميع الناس مخطئةٌ وأنت الوحيد الذي على صوابٍ؟!"، فهذا السؤال ينطلق من مغالطة التوسُّل بالكثرة، فالكثرة ليست دلالة الصحة؛ بل هناك أحداثٌ كثيرةٌ جدَّاً في تاريخ البشرية كانت البشرية كلها على اعتقاداتٍ خاطئةٍ، ومنها مثلاً اعتقاد الناس لفترةٍ من الفترات بأن الأرض هي مركز

الكون، وهو اعتقادٌ ساد لسنواتٍ طويلةٍ لدى ملايين من الناس، إلى أن جاء العلم ليثبت أن الأرض ليست مركز الكون، إنما هي كوكبٌ صغيرٌ يدور حول الشمس، والشمس جزءٌ من مجرَّةٍ فيها ملايين الشموس وملايين الكواكب.



8. ثامناً- مغالطة التوسُّل بالفعل الشائع:

هو أن يميل الناس لتصحيح فعلٍ ما توسُّلاً بكونه فعلاً شائعاً بين الناس، كأن يقول قائلٌ: "الناس كلها تكذب"؛ فكثرة فعل الناس لأمرٍ ما، لا يمكن اعتباره دليلاً على صحة الفعل، فالحسم بالحكم على الفعل يكون بالنظر بالفعل ذاته من حيث الصحة أو الخطأ.

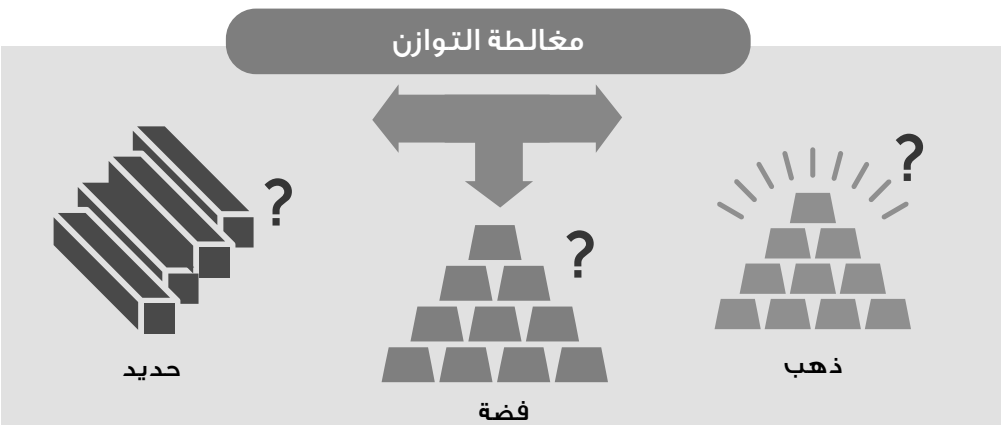


9. تاسعاً- مغالطة التوسُّل بالعاطفة:



وهي مغالطةٌ تسود بكثرةٍ في أواسط الناس، ومن أمثلتها أن يقف محامٍ خلال دفاعه عن أحد القتلة فيقول: انظروا إلى طفولته المعذَّبة، وكيف عانى في صغره! فتُثار العاطفة نحوه، وهذا نجده في بيئاتنا بكثرةٍ في القضايا التي تحمل طابعاً عاطفيًّاً دينيًّاً، كأن يصرخ أحدهم في ردَّة فعلٍ على انتشار فجورٍ ما في المجتمع: أين الإسلام؟! أين دين الله؟! ويحوِّل الموضوع إلى قضيةٍ عاطفيةٍ تؤثِّر بالناس بشكلٍ عاطفيٍّ وتعطِّل عليه عقله، علماً أن موضوعاً كهذا جديرٌ أن يُتناوَل في نطاقٍ علميٍّ بعيداً عن العاطفة.. وهذه القضايا تكثر في الخطابة ويجب الحذر الدائم منها؛ لكونها قد تشحن بعواطفَ معيَّنةٍ، وتهيِّجها في مكانٍ خاطئٍ!

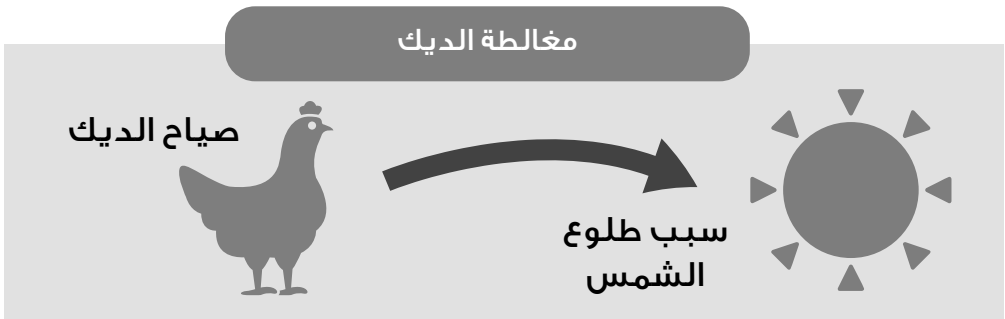
10. عاشراً- مغالطة التوازن (Balance Fallacy):



وهو اختيار رأيٍ وسطٍ بين الآراء؛ سواءٌ كان صحيحاً، أم غير صحيحٍ؛ بغية حلِّ الخلاف والموازنة بين الطرفين، كأن يقول شخصٌ ما: إن السماء خضراء كرأيٍ وسطٍ بين مختصمين على أنها زرقاء أو صفراء، وهذا قد لا يفيد شيئاً بالوصول إلى الحقيقة، فالطرح بهذه الكيفية ينتج عنه في كثيرٍ من الأحيان ما نسمِّيه: مغالطة التوازن.

11. حادي عشر – مغالطة الديك:

هي مغالطةٌ يُعتَقَد فيها أنه نتيجة تَتَابع حدثين متتاليين، فإن أحدهما هو سببٌ للآخر، ورُبِطَت هذه المغالطة بالديك لربط البعض ظهور الشمس بصياح الديك، فكلَّ مرَّةٍ تطلع الشمس فيها، يصيح الديك، وبالتالي يعتقدون أن سبب ظهور الشمس هو صياح الديك! وهو ربطٌ غير منطقيٍّ؛ لخلوِّ العلاقة بينهما، وهذا أشبه بشخصٍ يربط تسجيل الأهداف بسبب شرائه لأحد الأحذية الرياضية!



12. ثاني عشر– التشبيه المغلوط:

وهو ما يسمُّونه: (Analogy Fallacy)، وهو تشبيهٌ زائفٌ، مثل أن نقول: فلان كسول؛ لأننا نعرف أن ابن عمه شخصٌ كسول، فهذا ما يسمُّونه: مغالطة التشبيه.

إن كثيراً من المغالطات المنطقية تُستخدم بحسن نيةٍ ضمن الأسرة من أحد الأبوين، أو ضمن فئات المجتمع.. أو على أصعدةٍ أكبر وأوسع.

وفي ختام هذا الفصل نكون قد تحدَّثنا عن مقدمةٍ في المنطق الأرسطي الصوري، وتكلَّمنا عن أهمِّ الأشياء في التفكير الناقد، وعن المغالطات المنطقية السائدة، غير أن ما أوردناه لا يغني عن قراءة كتابٍ منظَّم في تلك الأبواب، منها: كتاب الدكتور عمرو ياسين "التفكير النقدي"، أو كتاب "رجل القش" للمؤلف يوسف صامت بوحايك، فكِلا الكتابين ينفعان جدًّاً في بناء منظومةٍ عقليةٍ منظَّمةٍ تسمح بنقاش الأشياء بطريقةٍ موضوعيةٍ.

الفصل الثاني:
التاريخ والدين والفلسفة




المسار الكبير لتاريخ ومستقبل فكرة النهضة في المنطقة العربية والإسلامية
المسار الكبير للنهضة
إنسان ما قبل الحضارة
إنسان الحضارة
أفول الحضارة
إنسان ما بعد الحضارة
المادة
محاولات التشخيص
عدم إدراك نقطة ارتكاز العصور الحديثة
الواقع وفرز الأفكار
أفق اليقظة
المهام الثلاث
الشرائح الثلاث
مؤشرات النهضة
الإسهام الحضاري
ضمانات الاستمرار

المسار الكبير للنهضة

نحتاج بدايةً في هذه المرحلة أن نمرَّ على الخارطة الكبرى لمسار النهضة الذي نتحرَّك ضمنه..

وعلى أهمية هذا المسار لطالب العلم والعامل على النهضة، غير أنه كثيراً ما يَفقِد هذا الشخص معالم هذا المسار فلا يدري في أيِّ مرحلةٍ يسير، وفي أيِّ سياقٍ تتموضع المرحلة التي يعمل فيها، وما المقصد من كل مرحلةٍ. إذاً؛ فنحن أمام قضايا مهمَّةٍ:

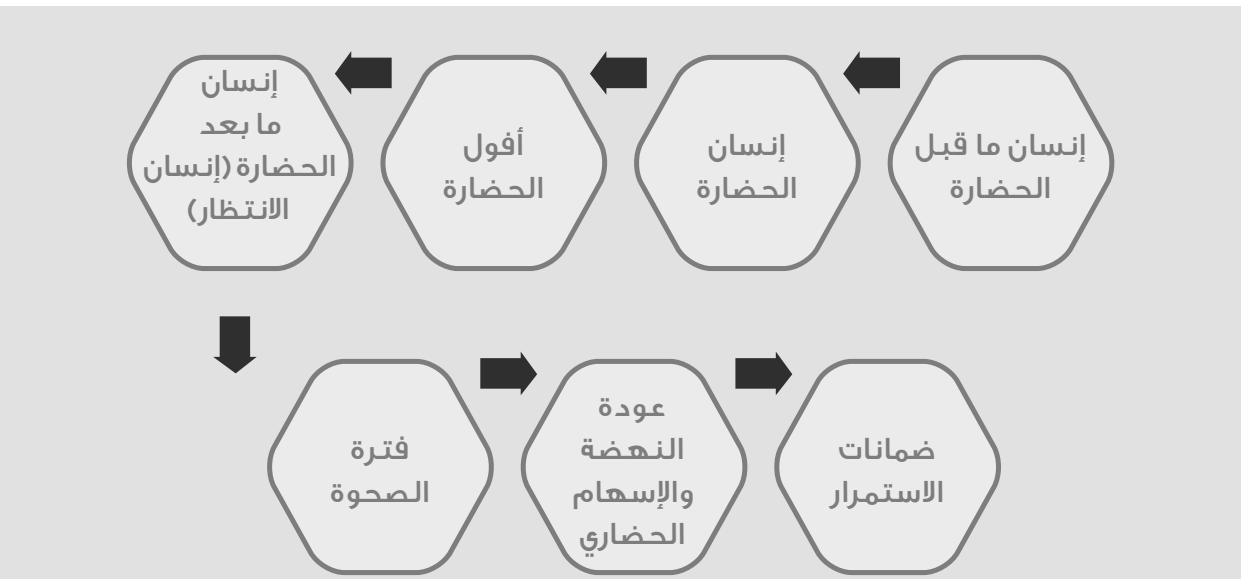
- الإحاطة بالمسار الكلي لفكرة النهضة في المنطقة العربية والإسلامية.

- فهم المعنى من وراء هذا المسار.

فإذا تمَّت الإحاطة بهذه القضايا، ستتضح لنا معالم سيره ووصوله، وندرك إلى أيِّ مرحلةٍ وصل مشروع النهضة، ممَّا سيؤهِّلنا لأن نكون أقدر على السير نحو النهوض وحمل قضيته، وكذلك تمكين مَن سيكمل السير بعدنا مِن حملها إلى فضاءٍ جديدٍ أيضاً.

وسنستعين في طرح بعض القضايا بأعمال وأفكار "مالك بن نبي" رحمه الله، التي ستكون العدَّة في شرح الخارطة، ولغة الوصف.

المسار الافتراضي للحضارة في المنطقة العربية:



1. إنسان ما قبل الحضارة وتفاعله مع الرسالة:

من التقسيمات الرائعة التي قسَّمها "مالك بن نبي" رحمه الله مرحلتَا الإنسان: ما قبل الحضارة وما بعدها، فاعتبر أن مشروع الإسلام أو مشروع الإنسان الجديد الذي تنزَّل مع رسالة (اقرأ) قد وافَقَ نزولُه في شبه الجزيرة العربية الإنسانَ الذي يسمِّيه "ابن نبي": إنسانَ ما قبل الحضارة، وإنسان ما قبل الحضارة هو إنسانٌ خام؛ بمعنى: أنه صفحةٌ شبه بيضاء، فجدله مع الرسالة ليس بالجدل الفلسفي المعقَّد؛ بل حتى إن إسلامه إسلامٌ بسيطٌ لم تمرَّ عليه الأيدي الكثيرة من الفلسفات والأفكار والتصوُّرات، فكان سهلاً أن يتمَّ استقطابه؛ فأهل المدينة قد جاءهم شخصٌ واحدٌ فقط، هو "مصعب بن عمير" رضي الله عنه، وتحدَّث مع القوم، وكان من ضمنهم قائدان من قادة المدينة المنوَّرة، فاقتنعَا بكلامه وذهب كلٌّ إلى قومه، فأسلموا، وأصبحت هذه القبائل جند الإسلام وروحه، أما في يومنا الحالي، فإن الشخص منَّا إذا جاء ليكلِّم ابنه بموضوعٍ بسيطٍ، لا علاقة له بتغيير معتقداتٍ، سيجد عدداً من المشكلات تعترضه في النقاش؛ فالبيئة في وقت نزول الرسالة لم تكن محمَّلةً بحمولةٍ معقَّدةٍ ومركَّبةٍ من الفلسفات والأفكار، فالفكرة إذا ما وصلت إلى قلب إنسانٍ حينها، كان تبنِّيها سهلاً، وتفاعله معها سهلاً أيضاً.

2. إنسان الحضارة:

سيدخل إنسان شبه الجزيرة العربية مرحلة الحضارة، ويأتي هنا السؤال: إنه وإن كانت معطيات البيئة المتمثِّلة بالإنسان والتراب والوقت متوفِّرةً في كل تجمُّعٍ بشريٍّ، فما الذي يجدُّ على الإنسان والتراب والوقت ليحوِّلهم إلى قيمةٍ تصنع الحضارة؟ يرى "مالك بن نبي" أن الفكرة الناظمة الدينية هي التي جدَّت على البيئة التي صنعت الحضارة، ولا يرى "ابن نبي" أن هذه الفكرة محصورةٌ بكونها دينيةً إسلاميةً بالضرورة؛ فكل فكرةٍ قادرةٌ على تنظيم الجماهير وبثِّ معانٍ جديدةٍ، وفاعليةٍ مختلفةٍ للإنسان والتراب والوقت يمكن أن تصنع حضارةً؛ فإنسان الجزيرة العربية التقى بالفكرة الناظمة التي جعلت لحركته معنىً، وهذا نلحظه في كلام الصحابي الجليل "ربعيِّ بن عامر" إلى "رستم" قائد الفرس، حينما قال: "جئنا لنُخْرِج العباد من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد، ومن جَور الأديان إلى عدل الإسلام"، فهذه المعاني الكبيرة المختزنة في تلك الكلمات البسيطة التي قالها، تدلُّ على أن الصفحة البيضاء لدى ذاك

الإنسان البدوي قد حُمِّلت بمعنىً وتصوُّرٍ عميقٍ للحركة، تجلَّى بفعلهم التنموي الحضاري والاجتماعي والإنساني لتحرير الإنسان.

انطلق أهل الجزيرة العربية وفتحوا بلاد الشام، ومصر، وبلاد فارس، ثم جاء العصر العباسي، ونشأت حضارةٌ أخذت بعصارة الحضارات اليونانية والفارسية والهندية، وتحوَّلت البيئة في عصر المأمون إلى بيئةٍ علميةٍ صرفةٍ، سادت فيها نقاشاتٌ عميقة تركت آثارها وبصماتها إلى يومنا هذا، فانتقل المجتمع العربي في تلك المرحلة من البسيط إلى المركَّب، ومن بيئة الصحراء وأفكارها البسيطة إلى بيئةٍ معقَّدةٍ مليئةٍ بالنقاشات الفلسفية والرياضية والفلكية والعقائدية والفقهية..، وتحوَّل المجتمع إلى مركبٍ شديد الحركة والكثافة، ورغم أن تلك الحركة خفَّت بعد المأمون بشكلٍ كبيرٍ في بدء العصر العباسي الثاني، إلا أن الإشعاعات الحضارية توالت من الحضارة الإسلامية، وألقت ببذورٍ كثيرةٍ ستستفيد منها الحضارات المعاصرة في الانتقال إلى عصورها الحديثة.

3. أفول الحضارة:

مع تنامي الوقت، وبنهاية العصر العباسي الأول، بدت الحضارة الإسلامية مرهقةً، وتسلَّلت فيها عوامل الضعف، فكان أكبر شواهد ضعفها أن أصبحت البيئة جاذبةً للخصوم لاحتلالها.

لم يكتشف العالم الإسلامي ضعفه الحقيقي مع غزو المغول والصليبيِّين؛ نظراً لاستطاعته ردَّ الحملات الصليبية، ولعدم حمل الصليبيِّين حينها مشروعاً حضاريًّاً أو أفكاراً متفوِّقةً على أفكار البيئة العربية.

استمرَّ التردِّي المعرفيُّ في المنطقة العربية، بينما شهدت أوروبا انتعاشاً كبيراً في مساراتها الإدارية والفكرية، وفي تطوُّرها العلمي والمعرفي، وقد عزَّز استمرار الانتصارات العسكرية على أيدي الأتراك حالةَ الغفلة، فلم تتنبَّه البيئة العربية إلى حجم الفجوة المعرفية المتسارعة النموِّ بين القسم الأوروبي وبين القسم المشرقي.. إلى أن جاءت حملة "نابليون بونابرت" إلى مصر عام 1798م، فهنا جاءت الصدمة الحضارية للمسلمين، ففي حين كانوا على اعتقاد بأنهم مخزَنُ العلوم، إلا أنهم صُدموا بما وصلت إليه أوروبا، وقد وصف المؤرخ "عبد الرحمن الجبرتي" في

كتابه "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" حال الصدمة التي تلقَّتها البيئة العربية بحملة "نابليون"، فشخَّص الوضع الاجتماعي والوضع العلمي وتفاعُل الناس مع الأزمة وأحوال الناس الاقتصادية والمعرفية والدينية.. فضمَّن "الجبرتي" كتابه قصةً حقيقيةً للوضعية التي التقى فيها المسلمون بـ"نابليون" وحجم الصدمة آنذاك.. وهذا سيقودنا إلى مرحلة إنسان ما بعد الحضارة.

4. إنسان ما بعد الحضارة (إنسان الانتظار):

من الحضارة، إلى التراجع، إلى الأزمة التي لم يُشعَر بوجودها، إلى الصدمة العنيفة.. كانت صدمةً عنيفةً جدًّا، ومزلزلةً نفسيًّا وحضاريًّا ومعرفيًّا، ولَّدت عشرات الأسئلة في البيئة العربية، ووُلد بتلك الصدمة إنسان ما بعد الحضارة.

وإنسان ما بعد الحضارة بحسب "مالك بن نبي" لديه مشكلتان:

المشكلة الأولى

مشكلة اليأس التي سمَّاها "ابن نبي": (فقدان الروح)، أي: إن إنسان ما بعد الحضارة بلا حلمٍ للمستقبل، وفاقدٌ للفاعلية في بيئته.

المشكلة الثانية

مشكلة الخلل في الجهاز المعرفي؛ فإنسان ما بعد الحضارة لديه خللٌ في تلقِّي المعرفة، وتفعيلها، وتشغيلها، والاستنتاج منها.



فتولَّد من هذا الإنسان ما يسمِّيه "ابن نبي": إنسان الانتظار؛ وهو الإنسان الذي يعتقد أن المشاكل ستُحلُّ بمعجزةٍ ما! فإذا ما سبَّح كثيراً، فإنه قد يستطيع الطيران في الهواء، أو المشي على الماء، وستُطوى له المسافات آذِنةً بحدوث المعجزات، وإنه بمجرد أن يمسك سبحته طوال النهار فستنفتح له العوالم الأخرى التي ستقوده إلى المعجزات الكونية الموجودة.

إنسان الانتظار هذا ينتظر مُخَلِّصاً يأتي عبر الزمان، فهو يعتقد أن الزمان يسوء يوماً بعد يوم، والقيامة قادمةٌ لا محالة، وأن العناصر التي يراها حوله ليست أشياء تولِّد فيه استفزازاً لطاقة الفعل، إنما هي عبارةٌ عن لحظات الاحتضار الأخير، ويأتي جيلٌ بعد جيلٍ يحملون جميعاً هذه السمات الأساسية لـ: إنسان الانتظار.

5. مرحلة الصحوة:

انطلقت في الأمة منذ حملة "نابليون" إلى يومنا هذا محاولاتٌ مستمرَّةٌ للخروج من حالة الأفول الحضاري. وطبيعة مرحلة الصحوة أن فيها حماساً شديداً، ولكن يصحبه قلَّة رشدٍ أيضاً، فأخطاؤها كبيرةٌ وفادحةٌ نتيجةَ أنها جاءت عقب سُباتٍ عميقٍ، فالصاحي من نومه على منبِّهٍ شديد الوقع قد يرتطم بمَن حوله، فيؤذي نفسه أو يؤذي غيره بخطواته غير الواعية بعدُ، ومرحلة الصحوة هي المرحلة التي لا تزال أمتنا تمرُّ فيها منذ حملة "نابليون" إلى يومنا هذا، ويُفترض بأننا يوماً ما سننتقل إلى مرحلة اليقظة التي يكون الإنسان فيها أكثر انتباهاً وفهماً للأمكنة التي يتحرَّك فيها، فيدرس محيطه بشكلٍ جيدٍ، ويحاول أن يرسم مساراتٍ أكثر دقَّةً وعلميةً للانتقال من واقعٍ إلى واقعٍ.

المادة

1. محاولات التشخيص:

استُقبلَت الأمر عند دخول "نابليون" إلى مصر بصدمةٍ كبيرةٍ، ويصوِّر "الجبرتي" في "تاريخه" كيف أن الإنسان العربي حينها لم يكن يدرك بعدُ: أين نحن؟ وأين أصبحت فرنسا؟ فيحاول التصدي آنذاك لحملة "نابليون" بالعصيِّ والوسائل البدائية!

بعد ثلاث سنواتٍ اضطُرَّ "نابليون" للعودة مهزوماً إلى فرنسا، مخلِّفاً آثاراً وتصوُّراتٍ فكريةً هامَّةً، وبرزت أسماء كبيرةٌ حاولت مقاربة وفهم أسباب تطوُّر الغرب، لتوظيفها في محاولة نهوض بلادهم، ومن هذه الأسماء:





حينما أراد "محمد علي باشا" تجديد الحياة في مصر والنهوض بها، قرَّر استقطاب الصناعة الغربية، فاستقطب أصحاب الصناعات من الغرب، وابتعث الفنيِّين المهنيِّين من حاشيته إلى فرنسا ليتعلَّموا ويستقطبوا الصناعات؛ خاصَّةً الصناعات البحرية، كبناء السفن، والصناعات العسكرية، كصناعة الأسلحة..

تضمَّنت نهضة "محمد علي" عدة مشاكل؛ حيث كان التصوُّر بأن النهضة ببساطةٍ تعتمد على حلول تطوير الصناعة، كما أن هذه النهضة قامت على الاستقطاب الخارجي أكثر من الاعتماد على تأهيل الشعب لإحداث النهضة المرجوَّة، فبنى "محمد علي باشا" أسطوله العسكري، وتطوَّرت مصر في الصناعة وأصبحت تُصنِّع سفنها، وإنما المشكلة أن اعتمادها في ذلك كله كان على غير المصريِّين، ولم تكن هناك أيُّ منابت ثقافيةٍ حقيقيةٍ، فأول ما حاول الأوروبيُّون فعلَه هو تفكيك هذا البناء الذي لا أساس حقيقيًّاً له من الشعب، فلم يعد هناك

ما يُبنَى عليه ثانيةً! وهذا إذا ما قارنَّاه بألمانيا، فسنجد بأنها قد فُكِّكَت بالكامل، ولكن أُعيد تركيبها لوجود العقل الذي يمكن له أن يعيد البناء.

اتّسمت الأفكار الأولى التي تصبو لإحداث النهضة عموماً ببساطة الحلول واستنساخها.. كجلب الإدارة أو جلب الفنيين، أو فهم الحياة الأوروبية الاجتماعية ومظاهرها من زواج وطلاق وفنون.. ونحوه.

وكان من ضمن المبتَعَثين في حملات "محمد علي باشا" شخصيةٌ كبيرةٌ اشتهر بُعدُها في الحضارة الإسلامية، وهو "الإمام رفاعة الطهطاوي"؛ حيث كان لـ"رفاعة" شيخٌ أوصاه بالذهاب إلى فرنسا لدراسة المجتمع الفرنسي بشكلٍ عميقٍ وكتابة أسباب التفوُّق فيه.. فذهب مبتعثاً ليؤمَّ طلَّاب البعثة، فأمضى خمس سنواتٍ تعلَّم فيها اللغة الفرنسية، واختلط بالمجتمع، وكتب عن تفصيلات الحياة الفرنسية كتاباً أسماه: "تخليص الإبريز في خبر باريس"، أي: تخليص الذهب من الشوائب التي تحيط في معرفة أخبار أهل باريس، وقد وجد أن نهضة أمتنا تبدأ من احتذاء مسلك الغرب؛ بأن نأخذ كافة ما فعلوه من فنونٍ وآدابٍ ومسرحٍ وصناعاتٍ ونحو ذلك.. فكانت حلول "الطهطاوي" باختصارٍ أن نقوم بنسخ ما لديهم، ونلصقه في مجتمعاتنا، وهذا ما لا يمكن بشكلٍ من الأشكال؛ فنسخ حلول الحضارة الفرنسية التي تراكمت ومرَّت بمراحل من التطوُّر حتى نضجت بمرور السنين، ولصقها ببلدٍ يعيش ببساطةٍ وسكونٍ منذ أيام المماليك، لا يمكن له أن يُحدِث تطوُّراً أو نهضةً، فحتى وإن قُدِّمت الحلول الجاهزة، فإن المجتمع لا يمتلك أدوات التنفيذ لها.

وكان "خير الدين التونسيُّ" أيضاً في الحقبة نفسها، وكان من عِلْيَة قومه آنذاك، وقد فرَّغ وقته لدراسة المجتمعات الغربية، وجلس ثلاث أو أربع سنواتٍ في أوروبا، درس فيها النظام الاجتماعي والسياسي والعسكري، وكيفية تدبير المالية في هذه الدول، ثم ألَّف كتابه: "أقوم المسالك"؛ الذي رأى فيه بأنه لو تمَّ إحضار فنون ونُظُم الإدارة الأوروبية إلى المنطقة العربية الإسلامية، فسيحدث تحوُّلٌ كبيرٌ على غرار التحوُّل الذي حدث في أوروبا، وفعلاً حاول التونسي ذلك، وعرض خطته على كبار الناس، ولكن نظراً لعدم جاهزية المجتمع لذلك، تمَّ رفض محاولاته، وقد ماتت أفكاره، وحُورِب بشدَّةٍ، وانتهت حياته بطريقةٍ عسيرةٍ..

سيظهر بعد ذلك شخصيتان هما: "جمال الدين الأفغاني"، و"عبد الرحمن الكواكبي"، وكانَا يريان أن المشكلة هي مشكلةٌ سياسيةٌ، وأنه يتوجَّب تغيير النظام السياسي وإزالة الاستبداد؛ فأقام "الأفغاني" مجلَّة "العروة الوثقى"، وكافح كفاحاً مريراً في محاولة تغيير المسار السائد، وإقناع النخب السياسية الحاكمة، فحُورِب بشدَّةٍ، إلى درجة أنه يُحكى بأنه مات مسموماً. و"الكواكبي" وضع كتابه الشهير: "طبائع الاستبداد"، لكن أيضاً لم تستطِع المجتمعات الاستجابة لتلك الحلول.

أما "محمد عبده" - تلميذ "الأفغاني"-، فقد كان ينادي ابتداءً بأفكار "الأفغاني"، ولكن بعد هزيمة ثورة "عرابي"، رأى بأن تغيير المسار السياسي ليس هو الحل، فاتجه إلى المسار الثقافي، ودعا إلى تطوير التعليم، وإدخال التعليم الغربي إلى المنطقة؛ حيث سيصبح لدينا تعليمٌ حديثٌ مَدَنِيٌّ إلى جانب التعليم الديني في الأزهر والمدارس الشرعية، وسيصبح لدينا عقولٌ قادرةٌ على تحمُّل التغيُّر الذي نحتاجه، ولكن على الرغم من دخول التعليم المدني إلى الأزهر والمدارس الشرعية، إلا أنه لم تتحقَّق النهضة المنتظرة!

2. غياب الوعي بنقطة التحوُّل الجوهرية في العصور الحديثة:

سنجد في فترة اليقظة الكثير من المحاولات الجادَّة من أناسٍ مخلصين قاموا بأعمالٍ عظيمةٍ، إلا أن هذه الأعمال لم تكن تمتلك الرؤية الحقيقية لسبب الأزمة.

لم يدرك العاملون على النهضة في فترة الصحوة أن الذي تغيَّر في العصر ليس مجرد حوادث صغيرة فقط! إنما هي تغيُّراتٌ في الأرضية التي يقف عليها العصر فكريّاً وماديّاً وعسكريّاً ولغةً ومفاهيم وتصوُّراتٍ..

في أواخر حياة "الأفغاني" و"محمد عبده" بدأت قضية النقاش حول: أيُّهما أفضل: الحضارة الغربية، أم الإسلامية؟ وكان ذلك نتيجة تعرُّض المسلمين في الهند آنذاك لكثيرٍ من الانتهاكات على أيدي الإنجليز، فتحوَّل النقاش من "ماذا نأخذ؟" إلى "مَن أفضل: نحن، أم هم؟".. وإيماناً بعظمة وشمولية الدين الذي نؤمن به، والذي لا يملكه الغرب، بدأت تسود فكرة بأن الحلَّ موجودٌ في الماضي ولكنه مُهمَلٌ، ويتوجَّب علينا أن نعيد البحث سعياً وراء تلك الحلول.

ومن هنا تبنَّى "محمد رشيد رضا" تلميذ "محمد عبده" فكرة إحياء التراث، فأعاد طباعة الكتب القديمة، وبما أن الجهاز المعرفيَّ الموجود لدينا يقوم على القياس، فبالتالي كان المطلوب دائماً أن نبحث في الماضي عن حادثةٍ تشبه حادثةً أخرى في هذا العصر لنقارن بينهما حتى نستطيع أن نستنتج! فكان الظنُّ أن الذي تغيَّر أمورٌ وحوادث صغيرةٌ، إذا ركَّزنا العمل عليها معاً، ستُحلُّ الأزمات!

فبعد أن كانت المحاولات السابقة تتجه إلى المستقبل، أصبحت المحاولات تتجه نحو الماضي، وإذا لم نجد ما نريده في الماضي، أخذنا نتاجات الحاضر ووضعنا عليها آيةً أو حديثاً لتصبح وكأنها نتاج الماضي، وقد انتشرت فكرة (أن الحلول موجودةٌ في التاريخ) انتشار النار في الهشيم!

3. الواقع وفرز الأفكار

ولَّدت فترة الإحيائية والجذب للتراث هذه تصوُّراً آخر بأننا لا ينقصنا معرفةٌ ولا علمٌ، وبأن كل شيءٍ موجودٌ لدينا في التراث، وعلينا أن نستنتجه بطريقةٍ ما، وتأثَّر الإمام "حسن البنَّا" بهذا الاتجاه لينادي بفكرة أننا نحتاج إلى أن نبدأ من منطقةٍ معيَّنةٍ، وهذه المنطقة ستقوم بها دولةٌ إسلاميةٌ نموذجيةٌ على غرار الخلافة الإسلامية الأولى التي ستجمع شتات المسلمين.. ومن أجل هذا الغرض كان لا بدَّ من إنشاء تنظيمٍ مختلفٍ عن التنظيمات الأخرى، وظيفته الوصول إلى الحكم، وتطبيق ما يتوقَّع أنه موجودٌ في التراث على الحاضر، وقد أخذت هذه الفكرة مداها أيضاً وتضحياتها، وفي نهاية المطاف انكسرت الموجات على الموجات، ولم تؤتِ الحلول ثمارها!

سيأتي مَن يقول: إن الحلَّ ليس في قضية الدولة مباشرةً، إنما الحلُّ في العودة إلى الوراء ثانيةً، وإنشاء طليعةٍ خاصَّةٍ، وهذه كانت فكرة "المودودي" و"سيد قطب"؛ إنشاء طليعةٍ من الصفر، تبدأ بتعليم "لا إله إلا الله"، وتعليم الإسلام تدريجيًّا.. وفعلاً أخذ "المودودي" منطقةً في باكستان سمَّاها: المنصورة، وبدأ يستقطب الأفراد الذين قرَّروا أن يتبرَّؤوا من المجتمع ويعيشوا حياةً مختلفةً، ولكن أيضاً هذا الحلُّ لم يؤتِ ثماره، ولم ينجز وعوده في البيئة.

ومع فشل الحلول الآنفة المتمثِّلة بحلِّ الدولة وحلول الطليعة، نشأ اتجاهٌ يعتقد أن ما ينقصنا هو القوَّة والتزوُّد بالسلاح، فإذا ما تمَّ التزوُّد بالسلاح والقتال، يتحقَّق قوله تعالى:

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وكما حدث مع الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته، سيحدث معهم.. فخرجت مقدمات أفكار الجماعات الإسلامية التي قرَّرت حمل السلاح، لتتبلور لاحقاً بـ: "القاعدة" ثم "داعش"، وبلغ الموضوع مداه في أفغانستان مع فكرة إخراج الروس، فبدأ يتوافد الشباب ووصل السلاح، وبدأت روسيا بالخروج، ولكن انقلب الحدث بأن بدأت الجماعات تتقاتل فيما بينها بعد خروج الروس، وانقلبت "آيات الرحمن في جهاد الأفغان" إلى قتالٍ بين الأفغان، وبعد أن كان صراعاً على الاستقلال، تطوَّر إلى صراع "القاعدة"، والحرب على الغرب في دياره وعلى قواعده في الخارج، ثم ظهرت "داعش" التي أنشأت دولةً على الأرض، وجمعت السلاح والمقاتلين. إن هذه الاتجاهات العنيفة مثَّلت الصيحات الأخيرة للحلول المحتملة التي حاولنا أن نتجنَّبها في بدايات المراحل، والتي بظهورها بدأت البيئة العربية المسلمة تستنفد طاقة الأفكار القديمة بشكلٍ كبيرٍ، فبعد أن فقدت الاشتراكيةُ جاذبيتَها بالتجارب المتعددة الفاشلة التي مرَّت بها، وكذلك القومية، بقي داخل الساحة التيار الإسلامي الذي كان على حلم الخلافة ووعد الخلافة، والذي تمثَّل عموماً بالتيَّارات المدنية التي انتهجت السلمية في عملها العامِّ، ليتْبَع تلك التيارات تياراتٌ أعنف وأشدُّ.. تعتقد أن التيارات السابقة مُفَرِّطةٌ، وأن الحلَّ في حمل السلاح والقتال، فبلغت مداها بموضوع "داعش" والمحاولات التي قامت بها في سبيل إنشاء كيانٍ سياسيٍّ في العراق وسوريا وفي المناطق المحيطة..

في أثناء هذه الفترة، نادى الدكتور "حسن الترابي" بأن فكرة التنظيم الاجتماعي الواسع دون اختراقٍ للجيش والتحالف معه لن ينجح، وبالتالي لا بدَّ من هذا الاختراق، ونجحت التجربة في السودان، وبدأ الحلم يتبلور ثانيةً، معتقدين بأن السودان هي الأرض التي سينطلق منها التغيير، وسيتحقَّق لها حلم الخلافة، فذهب كثيرٌ ممَّن شارك في حرب أفغانستان إلى السودان؛ باعتبار أن الحلول موجودةٌ في التراث، فلم يبقَ أمام "الترابي" وجماعته سوى أن يطبِّقوا الحلول، وقد أخذ التطبيق مداه خلال 33 عاماً، ولكنَّ الصدمة أن الحركة انهارت انهياراً ساحقاً بعد الرفض الاجتماعي، والحراك الذي نشأ ضدَّها!

وكان الحلُّ الأخير الذي نتج عن توالي الخيبات والاحتقان الكبير لدى الشعوب العربية هو الحراك الشعبي (ثورات الربيع العربي)، وكان كافياً لانطلاقها أن تصفع سيدةٌ شابَّاً في تونس

فيحرق نفسه، ليتابع الفتيل اشتعاله إلى بقية الدول بمطالبات الديمقراطية والعيش بإنسانيةٍ. ليتخلَّل ذلك المشهد محاولات الإسلاميِّين إقامة حلمهم تمهيداً لقيام الدولة الإسلامية.

وينتكس الموضوع مرَّةً أخرى انتكاسةً كبرى؛ نتيجة ما خلَّفته الثورات من أسىً وحزنٍ ونكباتٍ، وتظهر موجات الإلحاد والتشكيك، هذا بالإضافة إلى الخصام الذاتي، والحركات التي يصارع بعضها بعضاً؟

وهكذا تكفَّل الواقع بفرز الأفكار وتجربتها على محكَّاته، فاستنفَدَها ووفَّر كثيراً من عناء النقاشات النظرية بعد أن تبيَّن عجزُ تلك المحاولات، وحاجة الواقع إلى غيرها من الحلول.

4. أفق اليقظة:

ومع أن قسماً من الشباب خرج مأزوماً يائساً من حركات الربيع العربي.. إلا أن قسماً آخر بدأ يتطلَّع إلى فضاءٍ جديدٍ وحيويةٍ جديدةٍ..

وبدأت تساؤلاتٌ كبرى تطرح نفسها على الساحة، وبدأت محاولات إعادة النظر في أصول الفقه، وظهرت فكرة مقاصد الشريعة، وأهمية تفعيل فقه الضرورات وفقه الأولويات، وفقه الموازنات والنوازل، فبدأنا نستشعر حاجةً إصلاحيةً جديدةً علميةً.. إلا أن الجهاز القديم ظلَّ ينازع بشكلٍ قويٍّ جميع هذه التيارات، متَّهماً إيَّاها بالليبرالية والعلمانية والتمييع.. ولكنَّ صوت العصر طاحنٌ، وإيقاف عجلة التحوُّلات أمرٌ متعذِّرٌ!

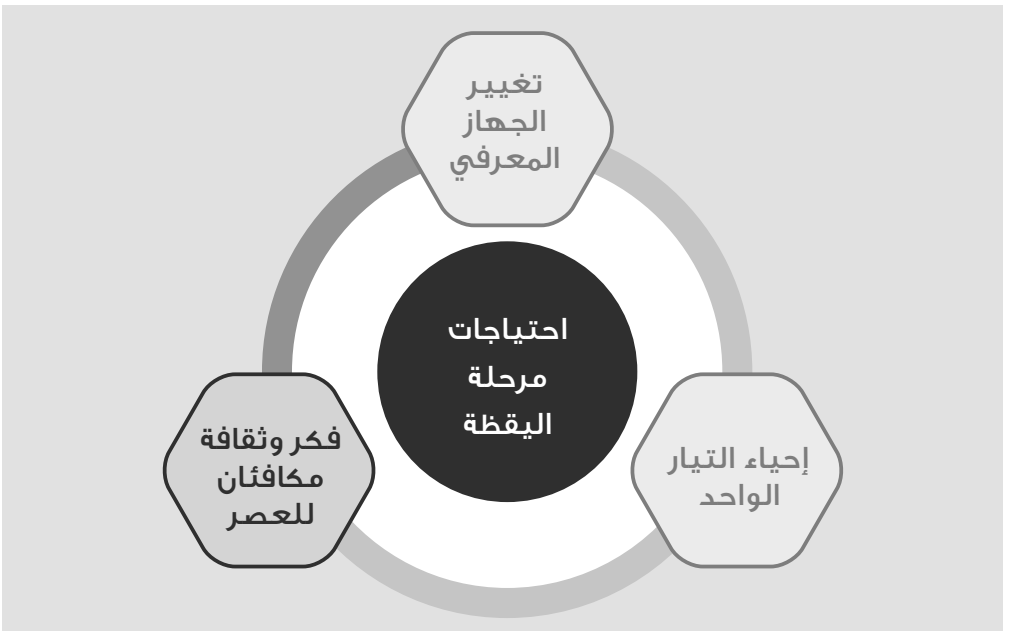
5. مهامُّ مرحلة اليقظة:

أعقب المرحلةَ السابقة عمليةُ مراجعةٍ للجهاز المعرفيِّ، وعمليات البحث عن فضاءٍ جديدٍ لتحقيق الفعل النهضوي داخل المجتمعات العربية والإسلامية، وهي المرحلة التي أسمِّيها: "بدايات مرحلة اليقظة"، وهي مرحلةٌ نحتاج فيها إلى ثلاثة تغيُّراتٍ كبرى رئيسية:

- **التغيُّر الأول:** تَغيُّر الجهاز المعرفيِّ من فكرة الاستنباط إلى فكرة الاستقراء، ومن فكرة الاستعلاء على الواقع إلى إشراكه في اتخاذ القرارات. فإن الحلول السالفة تؤكِّد لنا

وجود خللٍ جذريٍّ في الجهاز المعرفي الذي نُنْتِج من خلاله الحلول، فجميع الحلول السالفة ناتجةٌ عن الاستنباط ومستعليةٌ على الواقع. فمِن أين جاءت فكرة أن البعث الإسلامي الجديد سيكون من السودان! والسودان بلدٌ فقيرٌ بموارده ومتآكلٌ بالحروب الأهلية! فهذا كله خيالٌ فوق الواقع يحدث لأن الواقع ليس جزءاً من الجهاز المعرفي الذي نتحرَّك فيه.

- **التغيُّر الثاني**: إيجاد فكرة التيَّار الواحد، وهذا يحدث بإيجاد القاسم المشترك الأكبر في المنطقة بين القوميِّين والعلمانيِّين والإسلاميِّين والليبراليِّين بفئاتهم المختلفة، فنتحرك رغم الاختلاف، ويستمع بعضنا إلى بعضٍ من أجل النهوض بالوطن؛ باعتبار أن لا أحد منَّا يمتلك الحقيقة كاملةً، إنما نتكامل بالأجزاء التي نمتلكها، فنتعاون مع الآخرين في سبيل بناء وطنٍ مستقرٍّ وعادلٍ للجميع، فتتحوَّل عملية بناء القلاع بين الفئات المختلفة إلى عملية مدِّ جسورٍ فيما بينهم، وإلا ستأتي الفرص وتضيع كما حدث في الربيع العربي.
- **التغيُّر الثالث**: العمل على توليد فكرٍ وثقافةٍ مكافئَين للعصر؛ وفي هذه الجزئية يصبُّ برنامجنا الذي نعمل على تقديمه.. بأن نوجِد ثقافةً مكافئةً للعصر؛ تسمح لنا بأن نرى المنطقة التي نتحرك فيها، ومجريات العصر المعقَّد، وما الأفكار التي نحتاج إلى أن نستحضرها عندما نتحدَّث عن العصر ومتطلَّباته.



إننا في أمسِّ الحاجة إلى تيَّارٍ يحاور بعضُه بعضاً، ويحسن الحديث البينيَّ، وإلى تغييرٍ ضخمٍ في الجهاز المعرفي؛ لينقلنا من عصر إلى عصرٍ جديدٍ، وإلى ثقافةٍ مكافئةٍ للعصر ندرك بها التحوُّلات الكبرى التي حدثت في الأفكار، وكيف أنها لم تعد أفكاراً بسيطةً ساذجةً كتلك التي كانت في القرون الماضية؛ فأفكار اليوم معقَّدةٌ مركَّبةٌ، والنقاش فيها صعبٌ وليس يسيراً

وبولادة هذا التيار العامِّ، بهذه المواصفات التي أسمِّيها: "الكتلة الحرجة" من احتياجات أيِّ مجتمعٍ، من التواصي بالخيرية، إلى التواصي بالعمل المشترك، وإقامة أوطانٍ حرَّةٍ وكريمةٍ، سيصبح من السهل أن يلتقي مع بعضها البعض ما نطلق عليه: الشرائح الثلاث.

6. الشرائح الثلاث الضرورية لقيام الأوطان:

شريحة البدء

وهي الشريحة التي تتحرَّك الآن في المجتمع.

شريحة التغيير

بيدها مقاليد الأمور والحكم؛ سواء وصلت عبر انتخاباتٍ، أو بدون انتخاباتٍ، فهذه الشريحة قادرةٌ على التقاط الأفكار الحيَّة المطروحة داخل المجتمع ودعمها.

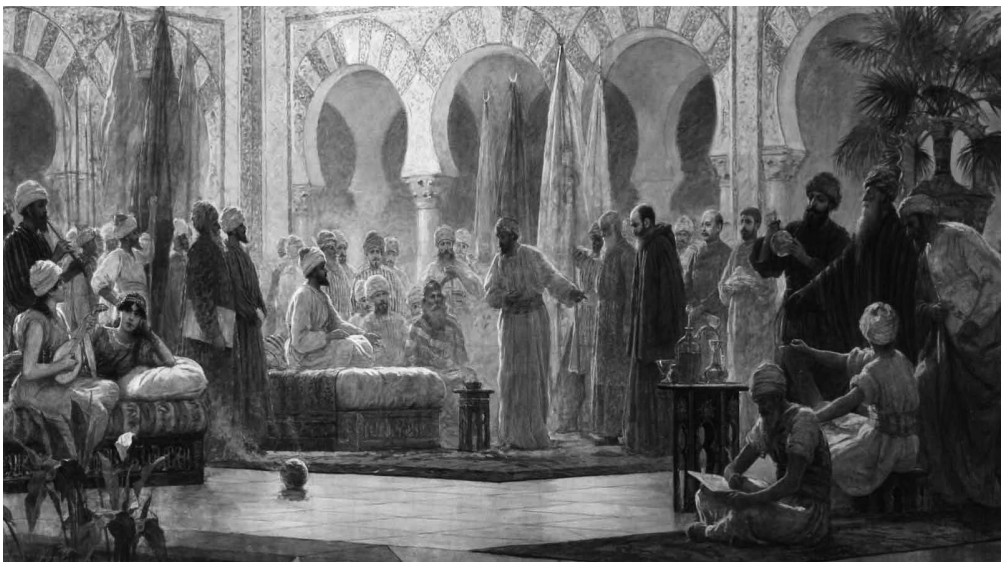
تطلّعات المجتمع

حيث تلتحم شريحتَا البدء والتغيير مع تطلُّعات المجتمع في: الحرية، والعدالة، والكرامة.

7. مؤشِّرات النهضة:

إذا ما اجتمعت الشرائح الثلاث، فعندها تكون هناك رافعة لإحداث التحوُّلات الأساسية الكبرى المتمثِّلة بـ:

1. **كون المجتمع يحمل هويةً جامعةً تسعى للتجميع، لا للتفتيت.**
2. **وجود علمٍ يتعدَّى مسأله اجترار العلوم.. إلى مسأله إنتاجها والبحث فيها، والنظر في العالم الذي نعيش فيه، وصولاً إلى سعة وسائل العمران.**
3. **أن يصبح النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي مناسباً لمتطلَّبات الأجيال القائمة، ويغطِّي احتياجاتهم النفسية والمادية.**
4. **أن يكون هناك اتجاهٌ في المجتمع قادرٌ على الدفاع الذاتي، وتحقيق الأمن القومي؛ بحيث إن المجتمع لا يتعرَّض للابتزاز.**



8. عودة النهضة والإسهام الحضاري:

بتوفُّر الشروط الأربعة الآنفة الذكر، تكون فكرة النهضة قد قامت داخل المجتمع، ويكون ما تبقَّى عبارةً عن مسارٍ تكميليٍّ.. وإن المجتمع إذا وصل إلى مرحلة النهضة، يستطيع عندها أن يختار منطقة إسهامه الحضاري بين المجتمعات.. فإذا ما سألنا اليوم عن الإسهام الحضاري لدولةٍ صغيرةٍ كـ"سنغفورة" على سبيل المثال، سنجد لديهم جوانب معيَّنةً طوَّروا البحوث فيها واهتمُّوا اهتماماً شديداً بها.. فإذا ما احتاج العالم من هذه البحوث شيئاً، سيقصد "سنغافورة". وبهذا أصبح لها إسهامٌ في الوجود الكوني الواسع. وبالتالي ليس بالضرورة أن نمتلك حضارةً مهيمنةً على الآخرين؛ فهذه مساحةٌ ضخمةٌ جدًّاً من الفعل.. لكن أن نجد منطقةً نُسَاهِم بها في الحضارة العالمية، فهذا ما تقوم به معظم المجتمعات الحديثة؛ بأنها تقوم بتبادليةٍ تعطي من خلالها العالم شيئاً، وتأخذ منه أشياء.

9. ضمانات الاستمرار:

إن آخِر ما سنتكلَّم عنه في هذا المبحث نموذجاً جميلاً طرحه أستاذنا "حسن بن حسن"، ضمَّن به بنوداً تُعتبَر ضماناتٍ لاستمرار نهضة المجتمع.. وهي بنودٌ ثلاثةٌ تتمثَّل بما يلي:

الضمان الأول: استنبات محرك النقد داخل المجتمع وضمان قوَّته ونفاذه:

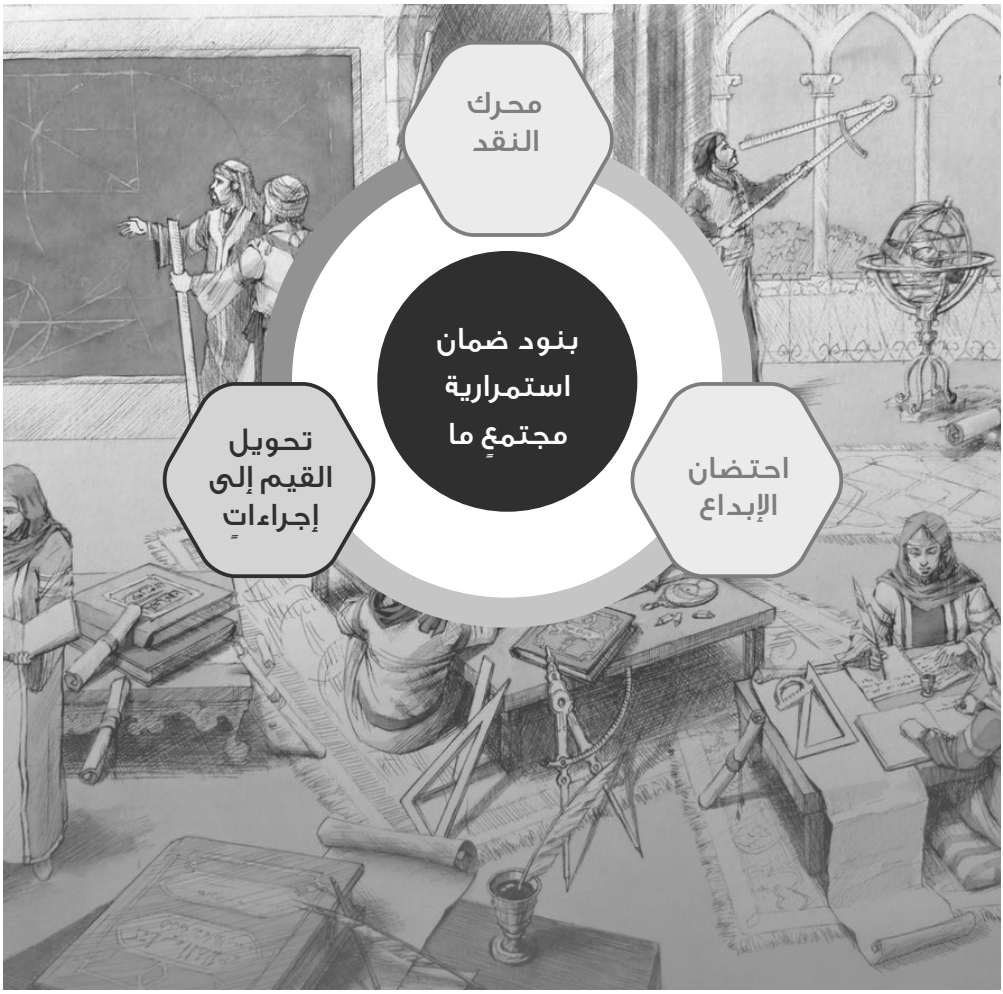
فإن المجتمعات التي تخاف من النقد، مجتمعاتٌ تضمن دمارها، والمجتمعات المستمرَّة في نقد ذاتها، تعلم أن محرِّك النقد هو الضمان الحقيقي لها للإقلاع والإبحار، ولرؤية الزوايا الغامضة في حركتها الاجتماعية.

الضمان الثاني: احتضان الإبداع من قِبَل المجتمع:

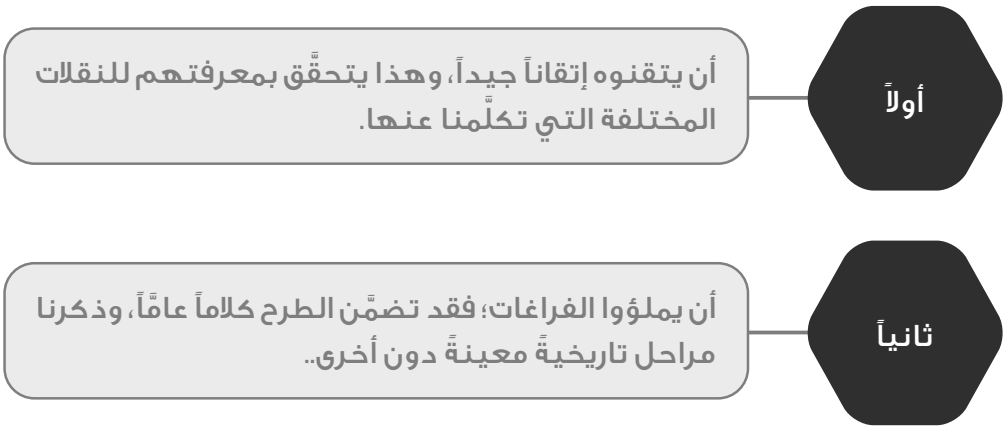
فالمبدعون اليوم كُثُرٌ، إلا أنهم يتسرَّبون في أنفاق الحياة دون أن نستشعر وجودهم، أو أن ننتفع بهم، وإن المجتمعات الحيَّة تبحث عن هؤلاء المبدعين؛ لكونهم ثروةً هشَّةً تتبدَّد بسهولةٍ.. فتجمعهم وتستفيد من طاقاتهم في عملية الإحياء الحضاري.

الضمان الثالث والمهمُّ: القدرة على تحويل القيم إلى إجراءاتٍ:

فمِن السهل جدًّا التحدُّث عن قيمٍ كبيرةٍ. لكن، هل لنا القدرة على تحويلها إلى إجراءاتٍ واقعيةٍ؟ فقد يقول قائلٌ: الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان . .﴾، ونعتقد أن هذا كافٍ لإنتاج العدل والإحسان! إلا أنهما واقعيًّا لن يتحقَّقَا إلا إذا مرَّا بشروطٍ ورحلة عملٍ تحوِّلهما من كلماتٍ إلى إجراءاتٍ، ومِن إجراءاتٍ إلى نظامٍ.



أخيراً.. إنَّ هذا النموذج الذي تكلَّمنا عنه في هذا المبحث، والذي أسميناه: "المسار الكبير لفكرة النهضة"، يحتاج من روَّاد المشروع إلى:



فهؤلاء الروَّاد يحتاجون إلى أن يقوُّوا هذه الأطروحات ويُنضِجوها لديهم، حتى إذا درسوا النموذج استطاعوا التعامل معه بأريحيةٍ، ومن ثم استطاعوا تدريسه، وإن تعبئة الفراغ للنموذج وتنضيجه بالمعلومات بات متاحاً بكبسة زرٍّ نستطيع من خلالها الوصول إلى المادة التي نريد.

الفلسفة
لماذا سندرسها؟



وفق الخطة التي نسير عليها لإيصال البرنامج، يُفترض بنا بدء الحديث عن الفلسفة..
وهنا قد يسأل سائلٌ: ما لي وللفلسفة وعلمها في تعلِّمي لمثل هذا البرنامج؟!..
سنحاول استشفاف الجواب من خلال السطور اللاحقة من هذا المبحث..



ننوِّه هنا إلى أن الإنسان ما إن يدخل في منطقة "لماذا"، فإنه يدخل في الفلسفة دون أن يشعر؛ لأن الفلسفة في عمقها محاولةٌ لفهم الأشياء وتعليلها، وهذا أعمق من مجرَّد معرفتنا لكيفياتها، فمرحلة سؤال: (ماذا، ولماذا) هي بوَّابتنا للفلسفة.

وقد كانت البشرية قد بدأت العلم مع مرحلة تساؤلٍ بـ: "كيف؟"، ثم انتقلت نقلةً كبيرةً إلى: "لماذا؟"، ومحاولة فهم: "ماذا؟"، ثم جاء العلم الحديث ليبحث في الموضوع بحسب الأدلَّة التي تتاح في الواقع العملي الذي يحيط بالإنسان من خلال: "كيف تتحقَّق؟".

فقد دخلنا حقل الفلسفة بـ:

كيف؟	ماذا؟	لماذا؟	كيف تتحقق؟
سؤال يتعلق بقوانين المادة: كيف يحدث ذلك الأمر؟	سؤال الماهيَّة، أو حقيقة الشيء	سؤال التعليل ومحاولة الكشف عن الأسباب والغايات	سؤال التحقُّق التجريبي

فالفلسفة محاولةٌ للإجابة عن التساؤلات السابقة، وبالتالي هي مجالٌ معرفيٌّ يحاول تقديم أجوبةٍ على أسئلة الإنسان الوجودية في محاولةٍ لفهم نفسه وفهم ما يحيط به..

الفلسفة وأثرها في العلوم: من الطبيعة إلى الذرة

سنبدأ الكلام عن أُولى محطات الفلسفة التي نحتاج استصحابها معنا في مسيرتنا، وهي التقاء العقل بالطبيعة.. فكان نتيجة التقائه أن رأى الجبال والأنهار والغيوم والبحار والحيوانات والنباتات.. وبما أن الفلسفة باستمرارٍ تَعبُر من الحسيِّ المادي إلى المجرَّد العقلي، فإن الفيلسوف لا يَقنع بأنه سيتعامل مع الجبل على أنه مادةٌ خارجيةٌ فقط (حجم وطول وعرض وارتفاع ومساحة وتشعُّبات..)؛ بل سيحوِّل هذا الجسم المادي إلى سؤالٍ معرفيٍّ عقليٍّ، فكانت أُولى الملاحظات الكبرى التي خطرت في عقل الفلاسفة (فلاسفة الطبيعة) أنهم لاحظوا أن الطبيعة في تغيُّرٍ مستمرٍّ وفق نظامٍ ما، أي: أن الفيلسوف حينما وقف أمام شجرةٍ، وجدها في الربيع مكتسيةً خضراء، وبساط الأرض ممتدٌّ أمامه ملوَّنٌ بأفضل الألوان، والحيوانات تلعب في كل مكانٍ، وإذا دخل الخريف، سقطت أوراق الأشجار واختفت الحشائش والحيوانات، وأصبح العالم موحشاً، ثم إذا نزل المطر انتعشت الأرض مرَّةً أخرى وعادت البهجة الموجودة في المكان، فمِن أين يأتي ذاك التغيُّر؟ وما الذي يتغيَّر ثم يعود؟ وما الجزء الذي في الشجرة أو في الأرض أو في النبات والحيوان الذي يجعله يختفي ثم يعود مرَّةً أخرى؟ هذه المشاهد البسيطه قادت إلى محاولة معرفة: ممَّ يتركَّب هذا العالم الذي نعيش فيه؟

1. نظرية العناصر الأربعة:

سنبدأ بالإجابة الأكثر شهرةً -وإن لم تكن هي أقدم الإجابات عن أساس الكون- التي ظهرت مع بدايات عصور الفلسفة، أي: ثلاثة أو أربعة آلاف سنةٍ قبل الميلاد، وهي ما يسمَّى بـ: العناصر الأربعة الأساسية التي يتألَّف منها الكون؛ حيث رأى أحد الفلاسفة بأن الكون أمامنا فيه الأمطار التي تأتي من السحاب، فيكون الماء عنصراً أساسيًّاً في الكون، ومن سير السحابة في الجوِّ يوجد البرق، الذي هو النار، وهو العنصر الثاني من المكونات، ثم بين طبقات الجوِّ والأرض مادَّةٌ لا تُرى، واعتبروها العنصر الثالث، وهي الهواء، ثم العنصر الرابع المتمثِّل بالتربة التي تستقبل الماء.. وهنالك حضاراتٌ أخرى في العالم أضافت عنصراً أو عنصرين إلى تلك

العناصر الأربعة، إلا أن فكرة العناصر الأربعة كأساسٍ للوجود لا تزال حاضرةً إلى يومنا هذا، وتقوم عليها كثيرٌ من العلوم والأفكار، كعلم الطاقة، والطبِّ البديل، ونحوه..

2. نظرية الأجسام الصغيرة (الذرة):

سننتقل إلى الاحتمال الثاني عن نشأة الكون، الذي يرى البعض أنه قد تولَّد ربما قبل فكرة العناصر الأربعة، ويتمثَّل هذا الرأي بفكرة الجسم الذي لا ينقسم (الذرة)؛ فهنالك فلاسفةٌ نفَوا احتمالية أن يكون الكون تألَّف ابتداءً من التراب والماء والهواء والنار، فقالوا: إن هذا الوجود المعقَّد هو عبارةٌ عن ليجو (Lego) كونيٍّ كبيرٍ جدًّا، له قوانين تُنَظِّم تركيبه مع بعضه البعض، كالليجو التي يلعب بها الأطفال، تتركَّب من جُزَيئاتٍ، وهذه الجزيئات هي المكوِّن الأساسي لهذا الوجود على اختلافه، فحينما تنحلُّ هذه الجزيئات تعود بسيطةً، وإذا ما تركَّبت ثانيةً كوَّنت عناصر الوجود، كالشجرة والغيمة.. وهذه الفكرة تبِعتها فكرةٌ كبيرةٌ جدًّا: أن الكون الموجود مهما صغُر، لا بدَّ أن يكون جسماً، فحكمت جسمانية الوجود (المادية) البشريةَ لآمادٍ طويلةٍ جدًّا، وربما لبدايات القرن العشرين؛ حيث أتى منذ القرن السابع عشر مَن أحيا ودعَّم هذا الكلام المتعلِّق بالذرة كـ"نيوتن"، ثم لتخرج عنه الكيمياء الموجودة اليوم، وفيزياء "نيوتن" المعروفة، ثم ليصل الإنسان إلى الفضاء، وتُختَرع الطائرات.. وكل ذلك من فكرةٍ طُرِحت في إطارٍ فلسفيٍّ؛ حيث إن أصلها الأساسي فلسفيٌّ، وهي: "مِن ماذا يتكوَّن العالم؟"، فساقنا هذا التساؤل إلى فكرة: أنه إذا كان الكون يتكوَّن من أجسامٍ، فللجسم كتلةٌ وحركةٌ وطاقةٌ، فتولَّد سؤال: كيف نحسب هذه العناصر؟ كيف نضبط القوانين الموجودة في الكون؟ وهذا كان عمل "نيوتن"، الذي نجح بشكلٍ كبيرٍ، وأدار لنا العالم الذي نعيش فيه.

توضيحٌ بمثال رأس الدبوس:

في عصرنا الحديث، يعمل العلماء على ما يسمَّى بالـ (Nano robots) النانو روبتس، وهي روبوتات صغيرةٌ جدًّا؛ بحيث يُفتَرض أن تدخل إلى خليَّةٍ ما، وتقوم بمعالجاتٍ على مستوىً صغيرٍ أصغر ممَّا نعرف؛ فقد يذهب المريض مثلاً إلى المستشفى، فيُدخِلون له أنبوباً يصل إلى القلب، ثم يحقنون القلب بالنانو، ليصل الأطباء إلى نتيجةٍ ما..

وهنا السؤال: ماذا يعني إدخال جسمٍ صغيرٍ؟ وماذا نقصد بكلمة "صغير"؟ وإلى أيِّ درجةٍ هو صغيرٌ؟ يُجَاب عادةً عن هذا السؤال بأنه لا يُرى بالعين المجرَّدة، إلا أننا بهذا الجواب لم نصل إلى جوابٍ دقيقٍ، فكم يعني "لا يرى بالعين المجرَّدة"؟

إذا قمت بمحاولة بحثٍ بمحرك البحث "غوغل"، فكتبت السؤال التالي: كم عدد الذرات التي يمكن لها أن تقف على رأس الدبوس؟ أي: لو افترضنا أننا املتكنا عيوناً قادرةً على رؤية سطح الدبوس المدبَّب بشكلٍ واضحٍ وكبيرٍ.. فكم من الذرات يمكن أن نشاهد عليه؟

فكان الجواب 5 ملايين ذرة هايدروجين!

أما عن عدد الخلايا، فيمكن أن يقف على رأس الدبوس الواحد أحد عشر ألف خليةٍ حية!

أما عن ذرة الحديد، فيبلغ عدد ذرَّات الحديد على مكعَّبٍ طوله وعرضه واحد ملم.. فسنجد ستين مليار ذرَّة حديدٍ.. أرقامٌ مذهلةٌ وعجيبةٌ!

وهذه الكائنات المجهرية أيضاً يستطيع العلماء أن يروها من داخلها ويعملوا عليها؛ فالعلم حقَّاً قد وصل إلى مساحاتٍ مهولةٍ! فنحن أمام عالمٍ ضخمٍ جدَّاً وفي غاية التعقيد!

إن الحديث عن قضية النانو وعلاقته بفيزياء الكم (Quantum physics) مجرَّد محاولةٍ إيضاحيةٍ للحجم الدقيق الذي يعمل عليه العلماء؛ فعلماء هذه العلوم يعملون على مستوى الذرة التي هي بقَدْرِ أن نقسم رأس الدبوس إلى مليون مليون قسمٍ، ويحاولون معالجة القضايا بهذه المساحة، فبالتالي هم يشاهدون كيف تتحرك النواة؟ كيف يتحرك الإلكترون داخل هذه الذرة..؟ وهو شيءٌ عجيبٌ لا يمكن للعقل أن يصل إليه! فإننا حينما نسمع عبارة: "لا يُرى بالعين المجرَّدة"، قد نتخيل الموضوع أبسط ممَّا هو عليه، إلا أننا إذا أدركنا أن الذرة هي جزءٌ من مليون مليون جزءٍ من رأس الدبوس، وأن العلماء لا يعملون على مستوى الذرة نفسها فقط، إنما على مستوى نواة الذرة والإلكترونات الداخلية الموجودة حولها!.. قد نستطيع حينها إدراك الموضوع بشكلٍ أفضل، وأن نعرف أسباب الثقة التي اكتسبها العلم في نفسه؛ وذلك نتيجة بحثه بتلك الجزئيات، ما أكسب العلمَ أيضاً غروراً في ذاته.

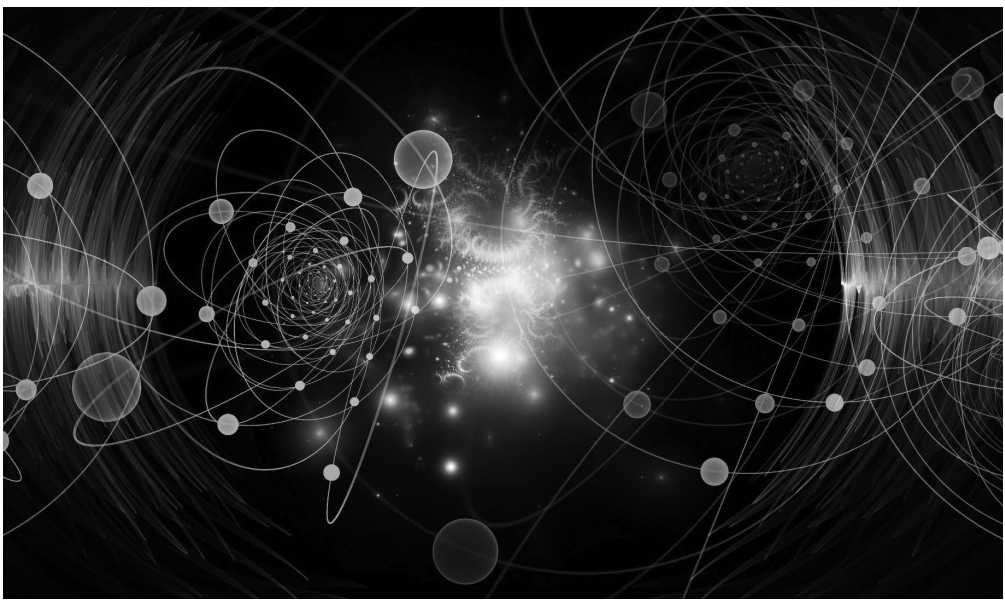
من الذرة إلى الكوانتم (من الكون المنظَّم إلى الكون العشوائي):

إن الفلسفة لم تقف عند حدِّ اكتشاف الذرَّات، فرغم النجاح الذي حقَّقته فيزياء "نيوتن"،

إلا أنه أتى من يقول: لماذا افترضنا أن الكون مركَّبٌ من ذرَّاتٍ؟ وهل الذرات هي أجسامٌ بالضرورة؟ فولدت هنا أول الأفكار عن الذرة التي فيها نواةٌ، وتحيط بها إلكترونات تدور في مدارات طاقةٍ محدَّدةٍ وفق قوانين منظَّمةٍ.

ثم أتى من يقول: لماذا افترضنا أن هذا الوجود مكوَّنٌ من هذه الأجسام التي نحن نتصوَّرها أجساماً؟ ولماذا لا نعتبرها كائناتٍ صغيرةً تتصرَّف أحياناً كأجسامٍ وأحياناً أخرى كموجاتٍ؟ وبالتالي هل تحديد زمانها ومكانها أمرٌ ممكنٌ؟ وهل تخضع لقوانين ثابتةٍ؟

خرج من هذه التساؤلات فكرة فيزياء الكم (Quantum Physics)، وأن هذا الوجود مركَّبٌ من أكياسٍ من الموجات الصغيره جدَّاً.. فبداخل الذرة توجد نواةٌ، والنواة يحيط بها إلكترون، والإلكترون هذا الذي نتكلم عنه سوف يوصف بأنه ليس جسماً، إنما هو طاقةٌ تنتقل من مكانٍ إلى آخر.. وبطرحٍ كهذا الطرح، سيتغيَّر شكل العالم تغييراً ضخماً؛ بحيث لم يعد يخضع للأنظمة التي كان يخضع لها بحسب فيزياء "نيوتن"، حتى إن العالِم "أَلْبِرْت أينْشتاين Albert Einstein" المشهور العملاق صُدِم حينما طرحت هذه الفكرة؛ لأن الذي في ذهنه أن العالم منظَّمٌ كنظام العالم الكبير الذي يحيط به (عالم ما فوق الذرة)، فعالم ما فوق الذرة بالنسبة لـ"أينشتاين" منظَّمٌ بطريقة الإله التي يمكن حساب قوانينها،



لكن إذا ما تبيَّن أن الكون بأساسه عبارةٌ عن موجاتٍ، وهذه الموجات تتحرَّك من مكانٍ إلى آخر، فإنه يتعذَّر ضبط مكانها وحساب قوانينها، فبالتالي يكون العالم في حالة فوضى في عمقه.. ما جعل "أينشتاين" يردُّ على "ماكس بلانك Max Planck" في كلامه الشهير: "إن الله لا يلعب النرد"؛ كنايةٌ عن أنه لا يتصرف بالكون بعشوائيةٍ، كحال لعبة النرد، فردَّ عليه "بلانك" في لقاءٍ بينهما: مَن الذي جعلك وليَّاً على العالم حتى تقرِّر كيف ينظِّمه الإله! فكان هذا النقاش الفلسفي العميق هو بدايات التحوُّلات الكبرى.

ومن هذه الثورات العلمية يصل العلماء إلى حقيقة أن ما يبدو بالنسبة لنا نظاماً، هو في الحقيقة قناعٌ يخفي تحته وجوداً لا نعرف كيف نضبط قوانينه!

هل حلَّت الفيزياء بدل الفلسفة؟

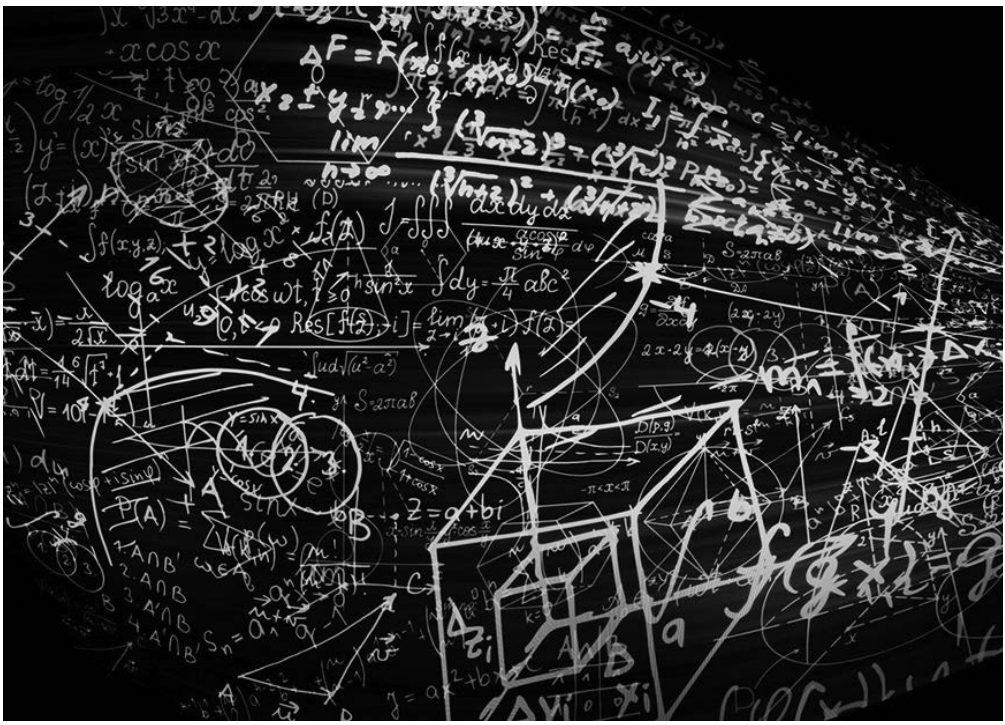
بعد أن حكمت المنظومة القديمة المتضمِّنة لأفكار الفلاسفة القدماء العالم لفتراتٍ طويلةٍ، وقد رأت بأن الكون قد فاض عن الموجِد الأول (نظرية الفيض)، انهارت انهياراً ضخماً عن بكرة أبيها حينما بدأ العلم بمراصده وحساباته وأرقامه.. وبدأت الفيزياء تحتلُّ مكان الفلسفة بعد أن كانت الفلسفة هي أمَّ العلوم، حتى إن بعضهم قد كتب عن موت الفلسفة أمام العلم.. فهل ماتت الفلسفة حقيقةً وانتهى دورها؟؟

إن إطار الحياة الكليَّ تشغله الفلسفة حتماً بشكلٍ من الأشكال، وإن الثورات الكبرى في أيِّ علمٍ ليست في ذات العلم ولكن في تغيير فلسفته؛ فالفلسفة عبارةٌ عن فضاءٍ للعمل العقلي والاجتماعي، بينما العلم جوهره الكلام عن المادة والقوانين التي تحكمها، وإن الفضاء العلميَّ لن يشتغل بدون الإنسان الذي يشغِّل المادة والعالم الذي يتصوَّره

إننا وبوقفةٍ صغيرةٍ نجد أن الأهداف التي يريد أن يصل إليها العلم في سبيل خدمة الإنسان، والطرق التي يريد أن يتحقَّق بها من المعلومات، وإعطاء لغةٍ للموضوعات التي يتناولها.. كل ذلك يحتاج بشكلٍ أساسيٍّ إلى فلسفةٍ.

إن نظرية العلوم تقول: إن القفزات الكبرى في العلم عبر التاريخ كانت في فلسفة العلم، ولم تكن في ذات العلم، فإن العلم بعد لحظةٍ معيَّنةٍ تُستَنفَد آلياته؛ ففيزياء "نيوتن" مثلاً استهلكت أغراضها، والبحوث اليوم كلها تجري في منطقه "فيزياء الكم"؛ لكونها منطقةً جديدةً خصبةً جدًّاً للعلماء، وإن الذي نقلنا من فكرة "نيوتن" والمادة إلى فكرة الموجات هي الفلسفة؛ فلم يرَ أحدٌ من الفلاسفة الموجات، ولم يرَ أحدٌ منهم الذرَّات، إنما تصوَّروها تصوُّراً فلسفيًّاً، فالعلوم الفلسفية تغذِّي العلوم الحديثه بالنقلات الكبرى التي تُحدثها في الفكر نتيجة طرحها لأسئلةٍ جديدةٍ عن هذا العالم.

إن الفلسفة ليست شيئاً بعيداً عنَّا، خاصَّاً بعصورٍ مضت؛ بل هي علمٌ يمسُّ حياتنا اليومية.. وبالتالي نحن بحاجةٍ إلى تتبُّعها لندرك كيفية نشوء العصور الحديثة على وجه النقلات الفلسفية الكبرى التي حملت العالم والبشرية إلى العصور الحديثة، والتي غدا الصراع فيها على مَن يستطيع أن ينتقل بكفاءةٍ أكبر إلى هذا الفكر الجديد، وتصوُّراته التي يحملها أو يحتاجها هذا العصر.



الفلسفة وأثرها في تشكُّل الحياة: الوجود والخالق



◄ ◄ ◄

تكلَّمنا في المبحث السابق عن أن الفلسفة قد سبقت العلوم وكانت حاضنتها الأولى، وأنه بعد أن تشكَّل العلم بشكله الحديث أصبح هنالك سباقٌ بين العلم والفلسفة، فتقدَّم العلم على الفلسفة في تفسيره لظواهر الكون؛ لكونه يتحقَّق من الظواهر عمليًّاً، في حين تبقى تصوُّرات الفلسفة تصوُّراتٍ نظريةً، إلا أن الفلسفة بالمقابل احتفظت بدورٍ كبيرٍ يحيط بالعلم بعدها؛ فإن النقلات الكبرى في التطوُّر الإنساني كانت نقلاتٍ فلسفيةً؛ فالعلم كي يشتغل يحتاج إلى مقدماتٍ توفِّرها الفلسفة؛ فالفلسفة تحدِّد الأهداف التي يشتغل عليها العلم، ومنتجات العلم، والجانب الأخلاقي الذي يحكم إنتاجها في الخارج. فإن جوهر النقلات كائنٌ في العمق؛ فمِن فكرة العناصر الأربعة، إلى فكرة الذرة، إلى فكرة الموجات.. كانت جميعها نقلاتٍ فكريةً كبرى أساسها تحوُّلٌ في فلسفة العلم، وليس في العلم ذاته..

واليوم أنتقل للحديث عن الفلسفة والدين. فهل الدين خالٍ من الفلسفة مستغنٍ عنها؟ أم أنها أحاطت به كما أحاطت ببقيَّة العلوم؟

إن العقل الإنساني حينما التقى بالواقع الخارجي لاحظ ظاهرتين واضحتين، تحدَّث عنهما فلاسفة الطبيعة بإسهابٍ واسعٍ:

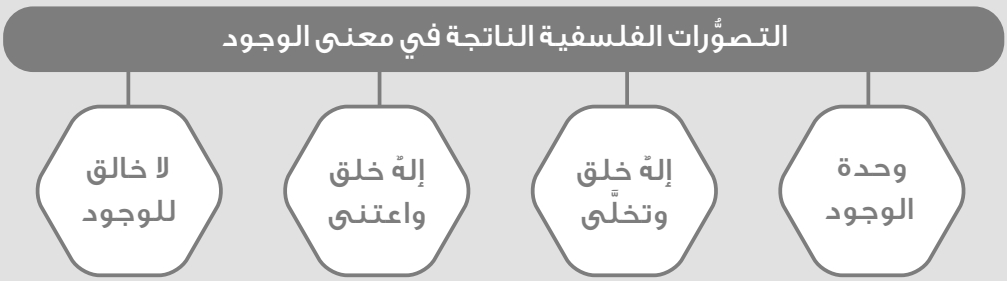
1. القضية الأولى: قضية التغيير

حيث إن جميع الموجودات في تغيُّرٍ دائمٍ؛ فالكائنات تموت، والأرض تتشقَّق وتتصدَّع، والمياه تفيض وتجري وتتبخَّر..، فبنى الفلاسفة على هذا التغيُّر أن جميع الكائنات حادثةٌ؛ لأنها لو كانت أزليةً لَبقيت على ما هي عليه، وقادت فكرة الحدوث إلى بداية السلسلة التي أحدثت كافَّة التغييرات في الكون، فالحادث لا بدَّ له من موجِدٍ أوجده، والعقل الإنساني بطبيعته يتجه في محاولة معرفة نقطة البداية؛ فهو لا يتصوَّر تسلسلاً لا ينتهي لأبد الآبدين، كما أنه لا بدَّ لديه من سابقٍ لهذه الحوادث نشأت عنه وتطوَّرت إليه. فقادت هذه الفكرة إلى فكرة المحرك الأول، وسيبقى الخلاف بعد ذلك حول طبيعة هذا المحرك الذي أحدث هذه التغييرات.

2. القضية الثانية: عظمة الوجود

فالإنسان وَجَدَ أمامه دورةً منظَّمةً من الحياة والموت والنشأة والذهاب والإياب، فمن دورة الحيوانات التي تولد وتكبر، ثم تموت وتفنى، إلى نظام الليل والنهار، إلى تعاقب الفصول

الأربعة.. كل شيءٍ يمشي في أنظمةٍ دقيقةٍ مدروسةٍ بعنايةٍ فائقةٍ، وهذا كله يوصل إلى أن المحرك الأول كاملٌ من جميع الجهات والصفات، فشغلت طبيعة هذا المحرِّك البشريةَ عبر التاريخ.. فغاصت الفلسفة في أعماق هذا السؤال محاولةً الإجابة عنه، والفلسفة بطبعها علمٌ لا يعالج المشاكل، إنما يعالج إشكالاتٍ؛ بمعنى: أن القضايا الفلسفية قد تنتهي إلى عددٍ من الإجابات تظلُّ مفتوحةً على الناس للنقاش إلى أبد الآبدين، إلا أنها توصلنا إلى محطاتٍ نعرف فيها الخيارات المتاحة أمامنا للتفكير.. ففي معنى هذا الوجود تولَّدت تصوُّراتٌ كبرى شكَّلت عقل الإنسان:



التصوُّر الأول: وحدة الوجود

ربما يتساءل البعض عن سبب مناقشة هذه الفكرة في يومنا الحالي؟.. إن فكرة وحدة الوجود هي فكرةٌ كبرى في تاريخ البشرية، ولا زالت قائمةً وفاعلةً إلى اليوم، وفي المجتمع الصوفي على الخصوص، والمجتمع الصوفي اليوم ليس بالمجتمع اليسير، فإذا نظرنا إلى باكستان والهند وتركيا وأندونيسيا ومصر وبلاد الشام والمغرب العربي وإفريقيا وأوروبا.. وجدنا أن ظاهرة الصوفية حاضرةٌ وبقوَّةٍ، وبالتالي يحتاج الإنسان حينما يبني الجهاز المعرفي أن تكون فكرةٌ كهذه واضحةً بالنسبة له..

هنالك عبر التاريخ مَن قال: إن المحرك الأول ليس شيئاً مستقلاً عن الوجود؛ بل إن الوجود قد فاض عن هذا المحرك المكتمل كما تفيض الكأس المكتملة بالماء؛ فهو الطاقة الموجودة في الوجود، وهو النور المنبثُّ فيه، فكل الموجودات هي الله، والله هو هذه الموجودات، وهذا عند الذين يؤمنون بالله، أما عند الذين لا يؤمنون بالله، فإن الحياة تُسيَّر عبر وجودٍ كونيٍّ

يديرها (الطبيعة) وهو الوجود ذاته، وإن مدرسة وحدة الوجود شكَّلَت ثقافة أممٍ كثيرةٍ، فإذا نظرنا إلى الهند وإلى المناطق التي تحيط بها، سنلحظ تواجد فكرة اتحاد الموجِد مع الموجود بقوَّةٍ؛ سواء بموجِدٍ مختفٍ متعالٍ كما في "البراهما"، أو بموجودٍ كونيٍّ حاضرٍ في الطبيعة، وهم الناس الذين يرون أن أمَّهم هي الطبيعة..

الخلق

الخلق شيءٌ من العدم، أوجده الخالق بحسب إرادته

الصدور (الفيض)

فعلٌ لازمٌ لحالة الكمال عند الموجود الأول وخارجٌ عن إرادته

وإن تشكُّل العقليات على هذه الفكرة سيبني جهازاً معرفيًّاً خاصًّاً بها، أي: أن مخرجات الفئات التي تؤمن بفكرة وحدة الوجود ستكون كلها نابعةً من تلك الفكرة؛ فتمَّ ملء فراغ التفصيلات المتمثِّلة بـ: كيف يعاقب الإنسان؟ وماذا سيحدث له؟ ولماذا يجب عليه أن يقوم بالفضيلة؟ وتفصيلاتٌ أخرى على عامودٍ فقريٍّ عنوانه: "كيف سيعيش الإنسان موجوداً في فكرة وحدة الوجود".

وهنا لا بدَّ لنا من وقفةٍ سريعةٍ -ستطول في وقتٍ لاحقٍ- عن معنى الجهاز المعرفي، وإسقاطه على الواقع، وكيف ستتأثَّر كل مخرجات محتَذِي جهازٍ معرفيٍّ معيَّنٍ به.



إن لكل جهازٍ معرفيٍّ خمسة عناصر أساسية،
هي على الشكل التالي:

1 المصدر
المقصود بالمصدر منبع الفكرة التي يحتذيها الجهاز المعرفي..

2 الأداة
يقصد بالأداة طريقة الحجاج التي سيستخدمها الإنسان

3 الدينامو المولد
ويقصد به المفتاح الذي سنفهم من خلاله كافة منتجات الجهاز المعرفي

4 الفهم
إطار الفهم الذي سيُفهم به جهازٌ ما

5 المنتجات
ومنتجات كل جهازٍ معرفيٍّ هي تبعٌ له؛ فالجهاز المعرفي الفلسفي منتجاته فلسفيةٌ، والعرفاني عرفانيةٌ

ولمزيدٍ من التوضيح عن تأثُّر مخرجات الإنسان بالجهاز المعرفي الذي يحمله، نسوق مثالاً للرازي حينما فسَّر القرآن الكريم؛ حيث بنى الرازي تفسيره متأثِّراً بعقدة الجهاز المعرفي لديه، فنجد أنه حينما مرَّ على تفسير: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ..﴾، يقول: "الأول" هو ما يصدر عنه كل موجودٍ، ولم يقل: "خالق"، على الرغم من أن في القرآن الكريم آياتٍ كثيرةً تفيد فكرة الخلق، إلا أن الرازي متأثِّراً بفكرة أن البسيط لا يلد إلا بسيطاً (وحدة الوجود)، فهو لم يأتِ إلى الآيات خالي البال من الحمولة الفلسفية التي يحملها، وبالتالي حمولته ستنعكس بالضرورة على كل شرحٍ له، وهنا ندخل فكرة "القَبْليَّات" التي تحكم الإنسان عند تعاطيه مع أيِّ نصٍّ من النصوص؛ فالإنسان حتى وإن ظنَّ نفسه خالياً من الفلسفة، سيجد أنه يحملها معه دون أن يدري!

1. الجهاز الوجودي الفلسفي:

إن فكرة وحدة الوجود قد تشكَّلت في الفضاء الإنساني بأشكالٍ وصورٍ مختلفةٍ باختلاف المصادر التي صدرت عنها، فكان أحد أشكالها (نظرية الفيض) التي كان المصدر الأساسي لها العقل الفلسفي، وهي عبارةٌ عن دمج مجموعاتٍ من الأفكار المتعلقة بوجود المحرك الأول بوحدة الوجود، والمتعلقة بالأفلاك، والأفلاطونية (العالم الكامل، وعالم الظلال).

وقد حكمت نظرية الفيض الحضارةَ اليونانية، وتبِعتها لجزءٍ من الحضارة الإسلامية، فتفنَّن الفلاسفة المسلمون في محاولة شرح "نظرية الفيض"، واعتبروا أن الوجود إن لم يكن هو الإله، فهو فيضٌ منه، وامتدادٌ له بشكلٍ من الأشكال، وهذا مبثوثٌ في التراث الصوفي العرفاني، وفي التراث الفلسفي بشكلٍ كبيرٍ، وقد نجده على شكل قصائد وأبياتٍ من الشعر، أو نسمعه في حلقات التصوُّف.. وقد شكَّل هذا الفضاء علاقةً بالعالم مختلفةً عن تشكُّلاتٍ أخرى سنراها لاحقاً، فأثَّرت فكرة الفيض في حياة الناس، وفي قراراتهم وتصوُّراتهم للوجود، وفي علاقاتهم بالموجودات.

الجهاز المعرفي للمدرسة الفلسفية	المصدر	أداة النحت	الدينمو المولِّد	الفهم	المنتجات
	العقل الفلسفي	البرهان المنطقي	وحدة الوجود	فلسفيٌّ	فلسفيةٌ

2. الجهاز الوجودي العرفاني:

سنتوقف مع قصةٍ صغيرةٍ تشرح لنا العرفان بشكلٍ جيدٍ..

"في فترةٍ من الفترات تخرَّج أحد القضاة من المدارس الشرعية، وكان متفوِّقاً جدًّاً، فعيَّنه السلطان في إحدى الولايات البعيدة.. أخذ حصانه وسيفه وبعض الزاد والماء وقطع المسافات.. وفي طريقه الصحراوي أصيب وحصانه بالعطش بعد أن نفد الماء الذي كان يحمله، ثم صادف شيخاً يسير في الطريق فسأله إن كان يعرف مكاناً فيه ماءٌ، فأجابه الشيخ بأن المطر سينزل بعد قليلٍ، استغرب الرجل وسأل الشيخ: كيف سينزل المطر وهذا ليس موسم أمطارٍ ونحن في الصحراء؟! بعد قليلٍ بدأ المطر ينهمر، ودخل الاثنان إلى الكهف، ثم دار بينهما حوارٌ

سيعكس الفارق لمن أراد أن يتذكَّر ما هي مدرسة العرفان وعلاقتها بمدرسة وحدة الوجود.. فالقاضي الذي درس العلوم الشرعية -أي: درس ظاهر العلم الشرعي كما يقال- سأل الشيخ: هل لديك كشفٌ وإلهامٌ ورؤىً، أم أنك رجلٌ بصيرٌ بالطقس والجوِّ وتعرف متى سينزل المطر؟ لم يلتفت الشيخ له، وقال: ليس لديَّ إلهامٌ، إلا أنني دائماً قبل نزول المطر بقليلٍ أشعر بخشونةٍ وألم في ركبتي، فعلمي بنزول المطر ناتجٌ عن هذا الإحساس في ركبتي. استغرب القاضي قائلاً: ما علاقة ركبتك بالمطر؟ قال: هل أصبت يوماً في رجلك فنتج عن إصابتك صداعٌ في رأسك؟ فأجاب القاضي: نعم. فقال الشيخ: ما يحدث معي هو ما يحدث في الجسد، فأنا وهذا الوجود شيءٌ واحدٌ، فأحياناً يُسمِّع الوجود في جسدي لأنني جزءٌ منه!

فهذا الشيخ يمثِّل ثقافة العرفان التي نجدها منتشرةً في البيئة الصوفية بشدَّةٍ، فنجد مثلاً في الدراما التركية كيف أن الرجل الصالح قد يشعر بتلميذه وما يحلُّ به من أذيَّةٍ حتى لو كان منقطعاً عنه، وكيف أنه يتنقَّل في الطبيعة بسرعةٍ وسهولةٍ..

وعلى الرغم من أن اشتراك الجذر بين مدرسة العرفان ومدرسة الفيض -فالجذر عندهم هو "وحدة الوجود"، أو أن "البسيط لا يلد إلا بسيطاً"، أو "الاتصال مع الإله بشكلٍ عضويّ"-، إلا أن الجهاز المعرفي للعرفانية فيه اختلافاتٌ؛ فالمصدر هنا ليس الفكر الفلسفي، إنما هو الإلهام؛ أي: أن هذا ما أُلقي في روع أو وجدان الإنسان الصالح، والأداة هي الكشف القلبي، فالإنسان الصالح لديهم يتلقَّى المعرفة دون حاجةٍ لعلم خارجيٍّ، والدينمو المولِّد هو وحدة الوجود، والفهم عرفانيٌّ، وبالتالي نجد المنتجات عرفانيةً.

الجهاز المعرفي للمدرسة العرفانية	المصدر	أداة النحت	الدينمو المولِّد	الفهم	المنتجات
	الإلهام	الكشف القلبي	وحدة الوجود	عرفانيٌّ	عرفانيةٌ

ويرى العرفانيُّون أن التوحيد ثلاثة أصناف:

1 توحيد العوامِّ

أي: المتشرعنة الذين يحملون ظاهر الأمور.

2 توحيد الخواصّ

أو يسمُّونهم: المتخلِّقة، وهم الناس الذين يلتزمون بالجانب الأخلاقي الناشئ عن الصلة بالله، ويتَّسمون بكونهم لا يعاينون الأقدار، إنما يسلِّمون أنفسهم للميكانيكا الكونية.

3 توحيد خواصّ الخواصّ

هو للعرفاء فقط، وهو الفناء المحض في الله عزَّ وجلَّ، وهنا تأتي قضية: ((ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لَأعطينَّه، ولَئن استعاذني لَأعيذنَّه)).



إن الجهاز المعرفي المتحكِّم هو أساس مخرجات الإنسان

والعرفانية تجد أن الفيض فيضان؛ الفيض الأول (الفيض الأقدس): الذي فاض فوُلدت الأشكال في العلم الإلهي قبل أن تأتي إلى عالمنا المدنَّس. والفيض الثاني (الفيض المقدَّس): وهو الفيض الذي سيُخرِج الموجودات من عالم الغيب إلى عالم الشهادة.

وإن الجهاز العرفانيَّ حينما يقف على آية ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ . . ﴾، سيقول لنا: إن الكثرة والتعدُّد تعود إلى واحدٍ، وهو الباطن في ذاته..

وبعد هذا الشرح حينما يأتينا شخصٌ فيقول شعراً:

أَنا مَن أَهوى وَمَن أَهوى أَنا　　نَحنُ روحانِ حَلَلنا بَدَنا

فَإِذا أَبصَرتَنـــي أَبصَرتَـهُ　　وَإِذا أَبصَرتَهُ أَبصَرتَنـــا

فهنا ندرك أنه يتكلَّم عن الوحدة والفناء التامِّ بين الموجِد والموجود.

التصوُّر الثاني: إلهٌ خلق وتخلَّى

الرؤية الكونية التي تحكمنا نحن المسلمين ناتجةٌ بكل تفاصيلها عن الرؤية الفلسفية الأولى «وجود إلهٍ خالقٍ ومعتنٍ»

إن النظرة الأخرى عن المحرك الأول وسبب الوجود هو اعتقاد أن هنالك إلهاً خلق وتخلَّى؛ أي: إنه إلهٌ مستقلٌّ عن الكون، خلق الوجود وتخلَّى عنه، والذي يدير الوجود من بعده هم الأصنام، والآلهة الموجودة على الأرض، والكهنة المحيطون بها. وكان هذا اعتقادَ عرب الجاهلية؛ حيث كانوا يؤمنون بخالقٍ للكون: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾.. وحينما جاءهم محمد ﷺ وقال لهم: "بسم الله الرحمن الرحيم"، قالوا: ما نعرف الرحمن الرحيم! إنما نعرف "باسمك اللَّهمَّ". فأصحاب التصوُّر الثاني يجدون أن الخالق خلق وتخلَّى، وهنالك من يقوم بدوره، وبإلحاق "الرحمن الرحيم"، يبرز معنى أنه إلهٌ معتنٍ لم يترك عمله للأصنام والكهنة..

فنجد أنه وبمجرد تغيير الفلسفة التي تقف خلف عبارةٍ بسيطةٍ جدَّاً، كان يمكن أن تتغيَّر الحياة بالكامل.. وقد فعلت!

التصوُّر الثالث- إلهٌ خلق واعتنى

إذاً؛ فهي نظرةٌ أخرى تخلَّقت عن قضية المحرك الأول، تقتضي وجود إلهٍ خلق واعتنى بموجب الرحمة بهذا الوجود، على نحو الفهم الإسلامي للإله، وهو أيضاً فهمٌ نتج عنه تصوُّرٌ لكيفية الحياة وكيفية العبادات، فنحن المسلمون نعيش عبر رؤيةٍ كونيةٍ كبرى بأن

هنالك إلهاً خالقاً معتنياً، وبالتالي هنالك حسابٌ وعقابٌ، وتفصيلاتٌ أخرى في القانون الإلهي المتمثِّل بالقرآن الكريم، وأن على الإنسان أن يتبع هذا النظام الكوني الذي وضعه الله عزَّ وجلَّ، إلا أن المسلمين في علاج الشأن الإسلامي عموماً على انقساماتٍ عديدةٍ، تختلف باختلاف الأجهزة المعرفية المحتذاة؛ فلدينا تفسير المتصوِّفة، وتفسير الفلاسفة، وتفسير المتكلِّمين، وتفسير البيانيِّين..

فالفلسفة تطال حتى البنية الكثيفة المشتغلة في كتبنا الإسلامية المتمثِّلة في "المدرسة البيانية"، التي تتعامل اليوم مع النصِّ وفق اللغة العربية والظاهر العرفي في عصر الرسالة؛ حيث إن وراء هذه الكتلة فلسفةً قويةً تنادي بأن اللغة العربية والظاهر العرفي في عصر النبوة كافيان لفتح مغاليق النصِّ وفهم المراد منه دون إضافاتٍ عقليةٍ أخرى، مثل: العرفان، والفلسفة، وكلام المتكلِّمين.

الجهاز المعرفي للمدرسة البيانية	المصدر	أداة النحت	الدينمو المولِّد	الفهم	المنتجات
	النص	اللغة العربية	الدلالة العرفية في العصر النبوي	بيانيٌّ	بيانيةٌ



التصوُّر الرابع- لا خالق للوجود

كما نعرف جميعاً أن هنالك نظرةً تنفي احتمالية وجود خالقٍ للكون أساساً، ويرى محتذو هذه النظرة أن العلم بما وصل إليه قادرٌ على فكِّ شيفرة الكون وتقديم تفسيراتٍ أكثر كفاءةً من تلك التي تقدِّمها الأديان، فيتمُّ النظر إلى الوجود بنظرةٍ ماديةٍ صرفةٍ، عبر نظرية التطوُّر، ونظرية الانفجار الكبير التي مفادها أن الوجود بدأ من انفجارٍ كونيٍّ ضخمٍ؛ نتج عن غازاتٍ صغيرةٍ جدَّاً، وذلك ما يسمَّى بنظرية الانفجار الكبير، وأن الأدلَّة على الانفجار مبثوثةٌ في الكون بشكلٍ واضحٍ جدَّاً، فلا تزال بقايا الغبار الكوني جرَّاء الانفجار موجودةً، ولا زالت الدنيا تتَّسع باتساع البالون الذي خلَّفه هذا الانفجار، ولا تزال الكواكب تتباعد، وتتخلَّق الفجوات في الفضاء، وما زلنا إلى اليوم قادرين عبر الرادارات أن نرصد الغبار الكوني والإشعاع الخلفي نتيجة الانفجار.

وهذا التصوُّر المادي للكون قاد إلى قناعاتٍ بأنه إذا كانت الحياة حاصلةً نتيجة الصدف المتراكمة عبر مليارات السنين التي بدورها أوجدت المخلوقات بعملية التطوُّر والنشوء والارتقاء بشكلٍ من الأشكال.. إذاً؛ فعلى الإنسان أن يصنع عالمه بنفسه، وأن يقرِّر الصواب والخطأ من دون احتياجٍ إلى فكرة الإله أو شيءٍ ما ورائيٍّ للوجود.

ومرَّةً أخرى، نعود إلى القول ذاته بأن ما كان يبدو أنه خالٍ من الفلسفة، سنجده معبَّأً بالفلسفة ومليئاً بها، فكما ذكرنا سابقاً بأنه وبمجرَّد دخولنا بـ: "ماذا" و"لماذا"، سنكون قد دخلنا في الفلسفة، فجميع هذه القضايا هي قضايا في عمق الفلسفة، وقد استنفرت ثلَّةً كبيرةً من الفلاسفة والمتكلِّمين وغيرهم.. في سبيل البحث في تلك القضايا والدفاع عن المنظومات العقلية التي حملها الإنسان.

فلم تقتصر الفلسفة على تشكيل الجانب العلمي الذي تناولناه سابقاً؛ بل امتدَّت لتشكِّل لنا فضاءً للدفاع عن أفكارنا في القضايا المتعلقة بالوجود الأول، وعلاقته بالكون الذي نعيش فيه، فإننا لو نظرنا في صفحات الإنترنت التي تتناول جدال المؤمنين والملحدين، لَوجدناه في النهاية جدالاً فلسفيَّاً بعيد الأثر يطال أفعال الإنسان اليومية؛ حيث إنه يبدأ من الكلام الكبير عن وجود إلهٍ أو عدمه.. وينتهي بما يتوجَّب علينا فعله في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

فاللإنسان بطبيعته خُلِقَ متسائلاً.. وإنَّ سبب تغيير ديننا من دينٍ إلى دينٍ، وسبب انتقال الجاهليِّين من الجاهلية إلى الإسلام، وجود أسئلةٍ غير مجابٍ عنها، فلما ظهرت ديانةٌ أجابت عن أسئلتهم، انتقلوا إليها، ولما تعقَّدت الأفكار المطروحة، ظهر المتكلِّمون والفلاسفة.. فكما أن الفلسفة ليست شيئاً معزولاً عن حياتنا، فإنها أيضاً شيءٌ لا يمكننا عزله؛ فوجودنا كله مرتبطٌ بهذه التصوُّرات؛ سواءٌ أدركنا، أو لم ندرك، وسواءٌ أردنا، أم لم نرد!

الفلسفة والحياة: التحقُّق من ادِّعاءاتنا الكبرى بالمعرفة

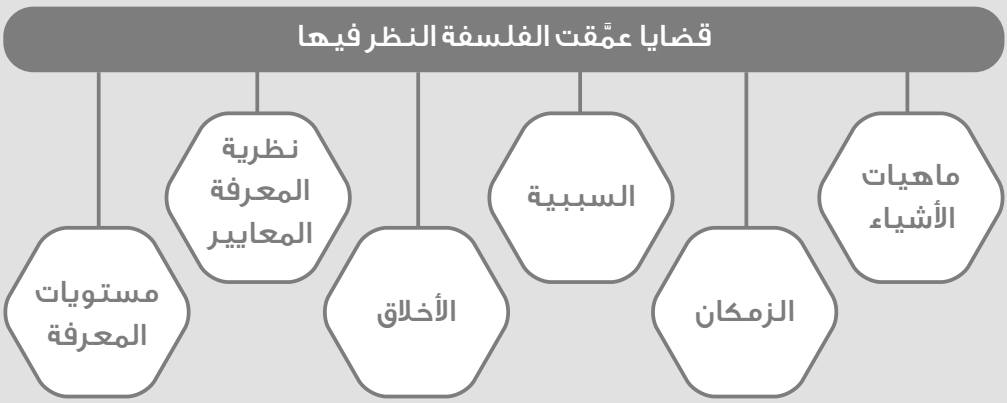


نأتي في هذا الطرح إلى بعض القضايا المحسوبة أيضاً على نظرية المعرفة، التي قد تعترضنا في أثناء القراءة والاطلاع.

الفلسفة كشفٌ عن المجهول باستمرارٍ لمحاولة معرفة ما يمكن أن ينتجه العقل من إجاباتٍ عن الأسئلة المحيِّرة

ولا زلنا ننتقل بالتدريج خطوةً خطوةً في درب استيضاح أثر الفلسفة على حياتنا اليومية.. حيث إن نطاق الفلسفة لم يقتصر على القضايا التي ذكرناها، والمتمثِّلة بقضية العلم، وكيف نؤسِّس العلم والمعرفة؛ سواء عبر تصوُّر الوجود بأنه ماءٌ وهواء ونار وتراب، أو عبر تصوُّر الوجود بأنه ذرَّاتٌ، أو تصوُّر الوجود بأنه موجاتٌ، أو في مرحلةٍ أخرى متمثِّلةٍ بـ: "هل يوجد لهذا الوجود خالقٌ (محرك أول) أطلقه، أم أن هذا الوجود هو امتدادٌ متسلسلٌ إلى ما لا نهاية، أم أن هذا الوجود ناتجٌ عن انفجارٍ..؟" وكل ما تبِع هذه التصوُّرات من إيمانٍ أو كفرٍ بحسب تشكُّل العالم بشكلٍ أو بآخر في عقول الناس عبر التاريخ.. فالبشرية لم تقف عند هذه المواضيع فحسب..

وسنتعرَّف في هذا المبحث على بعض المفاهيم التي حاولت الفلسفة أن تعمِّق النظر فيها من باب اكتشاف العبارات التي نستخدمها في الحياة ومدى دقَّتها..

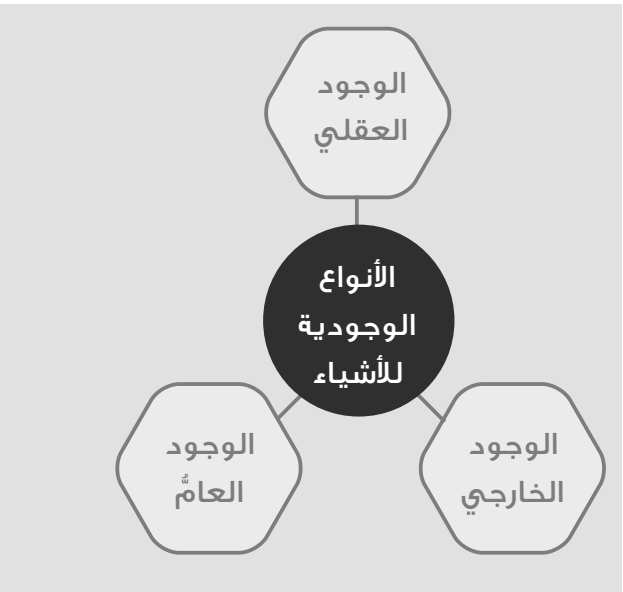


أولاً– ماهيات الأشياء

نقصد بماهية الأشياء روح الأشياء، أو ما يختفي وراءها، أو جذورها، أو ما يعرف بـ: (روح الأشياء Essance)..

من الأمور التي دخلت إليها الفلسفة مسألة "الوجود الخارجي"، فأنا أخاطبكم وتقرؤون كلماتي على أساس: أنا موجودٌ.. فالسؤال المفصلي هنا: ما هو هذا الوجود؟ وهل هنالك وجودٌ حقيقيٌّ للأشياء في الخارج، أم هي صورٌ في أذهاننا فقط؟ وهل أول ما سنطفئ أذهاننا ستختفي هذه الصور التي نراها؟

تتمثَّل الأشياء في ثلاثة أنواعٍ وجوديةٍ: وجودٍ عقليٍّ، وماديٍّ، وعامٍّ:



1. **الوجود العقلي للماهيات:** صورةٌ ذهنية نختزنها في أذهاننا عن الوجود، وقد نتفاعل معها دون وجودٍ خارجيٍّ لها إلا في عقولنا. فحينما أقول: أنا أعرف، أو نحن نفكر، فإن الشخص الذي يخاطب نفسه هنا هو في حقيقة الأمر يخاطب وجوداً عقليًّاً في ذهن الشخص نفسه.
2. **الوجود الخارجي:** هو الوجود المادي المحسوس، ونسمِّيه بحسب تعبيرنا: وجوداً حقيقيًّاً.
3. **الوجود العامُّ:** وهو التقاء وعينا بشيءٍ لا قِبَلَ لنا بصدِّه، فيمثِّل الشعور لدينا بأن هنالك شيئاً في الخارج.

إذاً؛ فنحن أمام ثلاثة أنواعٍ للوجود؛ الوجود الخارجي المتعيِّن، وهو هذه الموجودات التي نعيش بها، والوجود العقلي الذي هو الأسئلة التي نتداولها حول مفهوم اسمه: الوجود، والوجود العامُّ الذي نلتقيه في المعرفة المباشرة التي لا تحتاج منَّا علماً خارجيًّاً، والتي تلقَّيناها عندما كنَّا صغاراً، فحينها لم يعلِّمنا أو يناقشنا أحدٌ عن الوجود الخارجي، فتعاملنا معه على أنه حقيقةٌ

واضحةٌ.. فيسمُّون هذا الوجود بـ: "أوضح الواضحات"، أي: أن الوجود في ذاته أوضح الواضحات؛ حيث يلتقي الوعي بشيءٍ لا يستطيع أن يدفعه، ولا يحتاج الفرد أن يعلم وجوده من أحدٍ، فهذا ما يسمَّى: الوجود العامَّ.

فالفلسفة حاولت أن تفكِّك لنا كلمة الوجود التي ندَّعيها من جوانبها المختلفة، وأبحرت في هذا الفضاء إبحاراً كبيراً.

ثانياً- الزمكان Spacetime

وهي فكرةٌ معاصرةٌ متعلِّقةٌ بنظريات "آينشتاين". ومن الضروري جدًّاً أن يعرفها الإنسان؛ لأنها ممَّا قد يواجهه بكثرةٍ خلال مسيرته العلمية..

لقد احتلَّ سؤال المكان -أي: الاستفسار عن ماهية المكان- حيّزاً كبيراً في العقل الإنساني، فعنيت الفلسفة بالمكان، وبماذا نعني بالمكان؟ وهل المكان شيءٌ يصنعه عقلنا كي يضع فيه الأشياء، أم هنالك شيءٌ خارج العقل اسمه: المكان، أم هو وجودٌ عقليٌّ بحيث إن العقل مهيَّأٌ ليستقبل كلَّ الموجودات في حيِّزٍ اسمه: المكان؟ وقد كان المخيال القديم يتصوَّر ثلاثة أبعادٍ للوجود تحتوي داخلها جميع الموجودات، وهي: "الطول، والعرض، والعمق"، وكأن العالم يعيش ضمن صندوقٍ ضخمٍ ذو أبعادٍ. ثم طرح "آينشتاين" سؤاله، ووضع له معادلةً رياضيةً، والسؤال هو: ماذا لو أضفنا "بُعد الزمن" إلى الأبعاد الثلاثة السابقة؟

ومن هذا السؤال تولَّدت عدة أسئلةٍ كبيرةٍ؛ منها:

- هل الزمان يتجة إلى الإمام، أم يمكن له أن يتجه إلى الخلف أيضاً، أي: أن نرتحل في الزمان إلى الخلف؟
- هل الزمكان عقليٌّ لا يثبت وجوده الخارجي، أم هو وجودٌ خارجيٌّ؟ أي: هل عقولنا مبر مجةٌ على استقبال الأشياء وفق الأبعاد، أم أن هذه الأبعاد لها وجودٌ فعليٌّ خارج العقل؟

وقد طرح "آينشتاين" لمثل هذه الأسئلة نماذج تفسيريةً ضخمةً، مثل: أن التوقيت قد يختلف في الفضاء عن التوقيت في الأرض، وغيرها من القضايا التي تبدو في الظاهر لا لزوم لها! إلا

أنها قضايا قامت عليها تغيُّراتٌ كبرى؛ فـ"آينشتاين" استطاع بإدخال هذه المعادلة أن يحدِّد أماكن الأشياء في الفضاء الخارجي باستخدام الزمن بعد أن كان يستخدم المكان.

فالذي كان يبدو وكأنه فلسفةٌ، تحوَّل إلى مصطلحاتٍ موجودةٍ في الفيزياء وتطبَّق عليها الرحلات الضوئية للضوء والتصوُّرات المتعلِّقة بالعلوم التطبيقية في الانتقال الكوني..

إذاً؛ فبشكلٍ من الأشكال دمجت الفلسفة بين قضية الأسئلة التي لا يريد العقل "العقل البسيط" أن يتعامل معها، وبين العلوم التجريبية والتطبيقية، كما أنها أعطت لغةً جديدةً لهذه الأشياء الموجودة.

ثالثاً- السببية

السبب والنتيجة تتابع ناتج عن خصائص المواد

السبب والنتيجة تتابع لارابط بينه

ومن الأشياء التي بحثتها الفلسفة أيضاً علاقة السبب بالنتيجة، التي زاحمت الفلسفةَ مسافةً طويلةً، فمثلاً: لو أننا وضعنا ورقاً ووضعنا أمامه ناراً.. فهل سيحترق الورق لأنَّ النار فيها خصائص الإحراق والورق فيه خصائص الاحتراق؟ أم أن هذه الاحتراق حادثٌ بفعل الله، ولا علاقة تربط بين كلا الشيئين؟

لدينا في التاريخ الإسلامي مَن قال: إنه لا توجد علاقةٌ بين الحارق والمحترق، والعقل لا يوجِب الاحتراق لوجود النار والورقة، فمِن الممكن أن يوجدَا ولا يحترقَا! فالله سبحانه وتعالى يفعل هذا، وقد كان يقال: "ومن يقل بالطبع أو العلَّة، فذاك كفرٌ عند أهل الملَّة"، فكانوا يعتقدون أن القول في خصائص الأشياء ينفي فعل الله عنها. ثم قام "الجويني" بحلٍّ تلك المشكلة، فقال: إن الله قد وضع الخصائص للأشياء، وهي تتناهى إلى السبب الأول وهو الله؛ فالمواد لها طبيعتها الخاصة التي خلقها الله فيها؛ فالنار تحرق لأن الله وضع فيها خصائص الإحراق، والورقة تحترق لأنه

عزَّ وجلَّ وضع فيها خصائص الاحتراق، والمسافه كبيرةٌ جدًّاً بين الذين يقولون بالأولى والذين يقولون بالثانية؛ فالناس الذين يقولون بالثانية سيدرسون الماده وتطبيقاتها وخصائص النار، وما الذي يحترق في النار، ومن أين تنشأ الطاقة في النار، ومن أين تنشأ قابلية الاحتراق في الورق، وسيصلون إلى فكرة أن المادة المحترقة مكوَّنةٌ من جزيئاتٍ تربطها طاقةٌ، وأنه بتحرير الطاقة يحدث الاشتعال.. أما الرأي الآخر، فينفي العلاقة بينهما. وإن هذا التصوُّر لَربما هو الذي أدَّى إلى سقوط الحضارة الإسلامية، فحينما أتت الحضارة التي نفت الخصائص في المواد، لم يعد من داعٍ لدراسة الأسباب التي أدَّت إلى الإشعال والاشتعال؛ فالمجتمعات التي تعتقد أن داخل الظواهر قوانين ثابتةً تحكمها، تحاول أن توظِّف هذه القوانين لخدمة الإنسان والحياة بشكلٍ أكبر من الأمم التي تعتقد أنه لا علاقة بينهما سوى التتابع الذي يلحظه العقل فيها لا أكثر ولا أقل.

إن موضوع العلاقة بين السبب والنتيجة قد يبدو للوهلة الأولى أنه موضوعٌ لا قيمة له قد مات وانتهى! إلا أنه في الحقيقة موضوعٌ قد يقيم حضارةً أو يسقط حضارةً، فكم من معلوماتٍ هائلةٍ تركَّبت عن هذا التغيير الفلسفي!

رابعاً- الفلسفة والأخلاق

إن علم الأخلاق هو علمٌ يتمُّ من خلاله إصدار الحكم على الأشياء، وتوصَف تلك الأحكام بأنها قيمٌ معياريةٌ تظهر في الخارج؛ وتعني: القيمة التي نعطيها لشيءٍ ما؛ فمعايرة الذهب يعني اكتشاف قيمته.

إننا كبشرٍ طوال الوقت لدينا أحكامٌ عن الأشياء؛ فالإنسان إزاء أيِّ تصرُّفٍ يُصدِر تقييماتٍ (هذا صواب وهذا خطأ، هذا عمل جميل، وهذا

المعيارية

هي إصدار الحكم على الشيء من ناحية قيمته

عمل قبيح..)، وإننا بدخولنا في مساحة الأحكام (الصواب والخطأ، الحسن والقبيح..)، نكون قد دخلنا في منطقة ما يسمَّى: علم الأخلاق، أو الـ(Axiolgy).

مسألة التحسين والتقبيح:

قد أخذت هذه المسألة نقاشاً في الفلسفة الإسلامية، لا سيما بين المعتزلة والأشاعرة، وتمظهرت في قضية التحسين والتقبيح العقليَّين، وقد كان الاختلاف بينهما حول مصدر الأحكام الأخلاقية، هل هو عقليٌّ، أم ليس من ممكنات العقل (مصدره إلهيٌّ)؟ رأت المعتزلة أن العقل قادرٌ على التحسين والتقبيح ويحكم الشرع، بينما رأى الأشاعرة أن المصدر إلهيٌّ، والعقل موضع الضلال.. وقد قاد هذا إلى أسئلةٍ كبيرةٍ.. فهل جاءت الشريعة لتتمِّم مكارم الأخلاق التي كانت موجودةً أصلاً؟ وبالتالي هل استطاعوا من خلال المعيار العقلي الموجود لديهم أن يميِّزوا بين صدق الرسول وكذبه، وبين كرمه وبخله، وبين حُسن ما يقول أو سوء ما يقول؟ بل إن هذا المعيار العقليَّ كان سبب دخولهم في الإيمان؛ فلولا أن العقل يستحسن وجود رابطٍ بين الأشياء، ووجود عللٍ وأسبابٍ متتابعةٍ فيها، وأن العقل يمكن له من خلال التأمُّل أن يصل إلى الموجِد الأول، لَمَا دخلوا في الإيمان، وهذا على عكس ما قالت به الأشاعرة تماماً، وإن هذا النزاع الكبير هو جزءٌ من علم الأخلاق، وبه تحدَّدت أشياء كثيرةٌ. ومسألة التحسين والتقبيح العقلي لم تُثَر عند المسلمين فقط؛ بل هو موضوعٌ فلسفيٌّ عالميٌّ، جوهره: هل الإنسان قادرٌ على الوصول إلى القبيح والحسن؟

هل الأخلاق نسبيَّةٌ؟

إن القول بنسبية الأخلاق هو قولٌ خطيرٌ جدًّا، وهو ينفي القول بوجود معيارٍ واحدٍ للأخلاق؛ بمعنى: أن الحسن في بيئةٍ قد يكون سيئاً في بيئةٍ ثانيةٍ، فعلى سبيل المثال: قد نقول لإنسانٍ ما: "هذا العمل ليس صواباً"، فيجيبنا بأن "الأخلاق نسبيةٌ"!

وهنا يجدر أن نطرح عدَّة مواقف لنصل من خلالها إلى الفيصل في هذه المسألة..

فلنأخذ على سبيل المثال قيمة الإيثار والتضحية من أجل المجتمع.. فهل توجد أمَّةٌ من أمم الأرض لا تُقيِّم الناس الذين ضحَّوا من أجل بقائها؟ إننا في كل أمم الأرض سنجد صور الناس الذين ضحَّوا منتشرةً، وذلك بغضِّ النظر عن الحضارة، أو شكل الحضارة، أو شكل المجتمع.



كما إننا بالنظر إلى قيمٍ أخرى؛ لو ذهبنا نبحث في كتب الأمم المختلفة، سنجد لدى كلٍّ منها قصصاً تتعلَّق بالأخلاق، وأخرى تتعلَّق بالصبر، وأخرى بالأمانة.. ولن نجد مجتمعاتٍ بشريةً تخلو من قصصٍ للأطفال تحثُّ على القيم، فهذا مشتركٌ إنسانيٌّ عامٌّ سنجده في كل المجتمعات البشرية.

ثم إننا إن ذهبنا إلى القوانين الاجتماعية، فلن نجد مجتمعاً إلا وفيه عقوبةٌ للقتل وللسرقة، ولن نجد مجتمعاً إلا وينظر بازدراءٍ إلى الكذَّابين، كما أن المطالبة بالمساواة أمام القانون موجودةٌ في كل المجتمعات.. و أكثر من ذلك، الناس الذين يقولون بنسبية الأخلاق تجدهم يمارسون الفعل الخلقيَّ في حياتهم العادية، فقد تجد إنساناً يقول بصلابة الأخلاق وموضوعيَّتها ولا يطبِّقها، وتجد إنساناً آخر يقول بنسبية الأخلاق، وتجده في منتهى الأخلاق.. فما الذي يجعله يعتقد بنسبية الأخلاق ويتمسَّك بها؟

إننا فطريَّاً إذا سافرنا إلى مجتمعٍ من المجتمعات وتلقَّينا معاملةً سيئةً في المطار أو في سيارة الأجرة أو في الفندق.. فبغضِّ النظر عن جنسيَّتنا أيَّاً كانت، سنجد أنفسنا منزعجين، ونفوسنا متعبة، وإذا ما وجدنا معاملةً حسنة وخلقاً طيباً، سنبتهج..

إننا في كل الأحوال نقول دون أن نشعر أن هنالك قدراً مشتركاً من الأخلاق والقيم موجودٌ في كل المجتمعات البشرية! ولذلك نجد القرآن الكريم لمَّا أمر المسلمين بالعدل، وأمرهم بالإحسان، لم يستفض في شرح هذه المعاني؛ لكونها موجودةً في فطرة الناس، المسلمين وغيرهم.. ومن هنا فإن فكرة نسبية القيم تحتاج إلى إعادة تدويرٍ ونظرٍ من زاويةٍ أخرى.

خامساً- نظرية المعرفة (الجوهر)

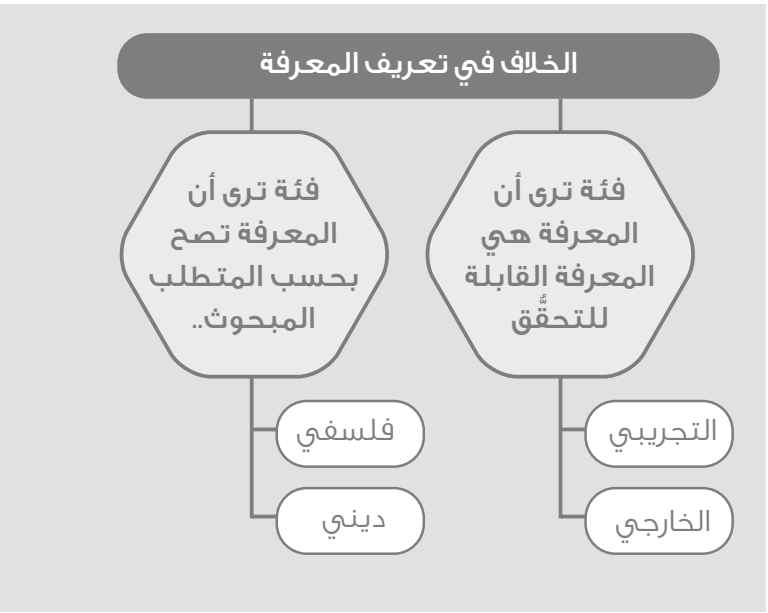
كنَّا قد تحدَّثنا عن نظرية المعرفة سابقاً.. وأن نظرية المعرفة هي التفكير في التفكير. وما أريد الحديث عنه في هذه القسم هو جوهر نظرية المعرفة، وهو البحث عن المعايير المشتركة في النظرية والابتعاد عن المعايير الخاصَّة، وأقصد بالمعايير المشتركة المعايير التي يتفق عليها الجميع، فعلى سبيل المثال: أيُّ شخصٍ مهما اختلفت جنسيَّته أو طريقة تفكيره، إذا ما حدَّثته بكلامٍ يضرب بعضه بعضاً، فسيكتشف على الفور بأني أقول كلاماً متناقضاً، والسبب في ذلك أننا لدينا قواعد مشتركةٌ في عقولنا مهما اختلفنا.. فمن القضايا المشتركة في المعرفة قانون "عدم التناقض"، وأيضاً "البحث التجريبي"، فإذا ما قامت تجربةٌ حملت ذات الظروف؛ سواء في الصين، أو في الهند، أو في اليابان.. فستحمل قطعاً ذات النتائج، وبالتالي نستطيع أن نحتكم إلى معيارٍ واحدٍ في مسألةٍ ما، وهذه هي المعايير المشتركة.

أما المعايير الخاصة، فقد يكون أحد أشكالها الحكم على الأشياء بالرؤى وقول الشيخ، أي: "المعايير العرفانية".

الخلاف في تعريف المعرفة:

اتجه الناس أولاً في نظرية المعرفة إلى فكرةٍ ناسبت العصور التي نتجت ونمت وتطوَّرت فيها هذه النظرية، وهي عصورٌ بشكلٍ من الأشكال غلب عليها الطابع المعرفي المادي الذي يعترف بالتجربة الخارجية كبرهانٍ، وبالتالي تبلورت فكرة أن المعرفة يجب أن تكون معتقداً نجزم به ونستطيع أن ندلِّل عليه، فيكون صحيحاً إذا ما قارنَّاه بالواقع الخارجي.

إلا أن الناس الذين يحملون الفكر والتصوُّر الفلسفي أضافوا إلى هذا الموضوع لفظاً آخر يناسب ما يريدون الذهاب إليه، حيث إنهم وجدوا أن التجربة الخارجية أو البرهان الخارجي



أمرٌ يتعذَّر تحقيقه على كثيرٍ من العلوم الموجودة، فاعتبروا أن الصحيح صحيحٌ بالنسبة للموضوع الذي يتمُّ الحديث عنه؛ فما هو من طبيعته فلسفيٌّ يحاجَج به فلسفيًّا، وما هو من طبيعته دينيٌّ يحاجَج به دينيًّا.. وبالتالي هو صحيحٌ بالنسبة لنوعية المعرفة الموجودة..

وإن الخلاف بين كلا الفئتين، نجده حاضراً بقوَّةٍ في الحوارات بين الملاحدة والمتديِّنين، فإن الملحد يرفض أيَّ موضوعٍ خارجٍ عن الاختبار والتجريب، فهذه الفئة ترى أن المعارف التي لا يمكن للبرهنة العملية أن تتمَّ عليها، فستدخلها الميول والآراء الشخصية لا محالة، في حين أن المتديِّنين يخاطبونهم بنوعٍ ثانٍ من الفلسفة يُفضي بأن لكل علمٍ ما يقابله من سبل الإثبات.

إن الشيء المتفق عليه بين الناس أنَّ ما يجزم به الإنسان، ويستطيع أن يبرهن عنه، وأن يطابقه بالواقع، فهو صحيحٌ.. وبذلك قد أضيفت في هذه القضية إضافةٌ مهمَّةٌ لعلاج قضايا أخرى سيأتي مكانها في سياقٍ آخر.. وإنَّ أيَّ شخصٍ يشتغل في مشروع الفكر، يحتاج أن يعرف هذا الخلاف، ونوعيَّته، وإلى أين يتجه؟

ومن اللطيف في هذه القضية بأن كلتا المدرستين بدأت تقترب اليوم من الأخرى؛ فنجد لدينا أن الفلسفة التجريبية بدأت تدرِّس اليوم فلسفة العلوم، وسنجد عندنا أن الناس المشتغلين بالعلوم الإنسانية بدؤوا يعتمدون على الأرقام بدلاً من الفلسفة المطلقة، فيحوِّلون غير المحسوس إلى أرقامٍ وإحصائياتٍ بهدف الوصول إلى معرفةٍ أكثر صلابةً، فظهرت بين الفلسفتين منطقةٌ مشتركةٌ.

سادساً- مستويات المعرفة

إن من الأمور التي تُشْكِل على الناس الفارقَ بين المعتقد واليقين، ونتوقف عند هذه المسألة لكونها تحتاج إلى البيان فيها بدرجةٍ من الدرجات..



المعتقد

إن المعتقد هو ما يُجزَم به وإن لم يصاحبه دليلٌ، مثل: اعتقاد أن صنماً ما عند الهندوس له قوةٌ خارقةٌ، فهذا معتقدٌ قد لا نجد له دليلاً، ولكن قد يموت صاحبه من أجله.

اليقين

أمَّا اليقين، فهو شيءٌ نستطيع أن نبرهن عليه بما هو مشتركٌ مع الآخرين، فإذا قال قائلٌ: ذرَّتَا هيدروجين وذرة أوكسجين يؤدُّون إلى وجود الماء، فهذا القول إن جرَّبناه في أيِّ معملٍ من معامل البشرية، سينتج لدينا ذات النتيجة التي تبرهن على صحة هذا القول بشيءٍ محسوسٍ ومتفقٍ عليه بين الناس، وكذلك إذا ما تمَّ الاحتكام إلى معيارٍ معيَّنٍ، فإن هذا المعيار يكون ملزماً حتى نصل إلى ما يسمَّى: اليقين في المسألة. إذاً؛ فاليقين هو عبارةٌ عن معتقدٍ، لدينا قدرة البرهنة عليه.

الظنُّ الراجح

إن معظم قضايانا في الحياة تقوم على هذا المستوى من المعرفة، أي: أنها ليست من النوع اليقيني؛ بمعنى: أنه يغلب عليها الظنُّ الراجح؛ فالفقه الإسلامي مثلاً بنيته الأساسية على الظنِّ، فلو كان الفقه يقيناً، لَمَا اختلفت الناس بمسائله، ولَمَا تضخَّمت كتب الفقه، فكتب الفقه تضخَّمت ونمت نتيجة أن القضايا التي تعالَج فيه هي قضايا ظنيةٌ يغلب على ظنِّ الفقيه أن الراجح فيها هو ألف أو باء. إلا أن بعض الناس يعتقد أن ما يتوصَّل الفقه إليه يصل إلى درجة اليقين! فيحدث الخلط بكثرةٍ بين مسألة اليقين وبين مسأله الظنِّ الراجح في المجتمعات التي نعيش فيها..

والظنُّ الراجح يمكن أن يكون ظنَّاً علميَّاً؛ أي: مبنيَّاً على الاستقراء، ويمكن أن يكون ظنَّاً فلسفيَّاً؛ مبنيَّاً على الحِجاج النظري.. وبالتالي؛ فإن الكليات الشرعية التي تعتمد على الظنِّ الراجح المبنيِّ على الحِجاج النظري، إذا دُعِّمت أقوالها بعمليات استقراءٍ

واسعةٍ للكلام الذي تقوله، سيكون حديثها أكثر موثوقيةً؛ فالحديث عن دولةٍ إسلاميةٍ حينما يكون مدعَّماً بتجارب قائمةٍ، يُقارَن فيما بينها.. يكون أقوى بكثيرٍ من كلامٍ مجرَّدٍ يحوي أدلَّةً وأحاديث فقط.

الشكُّ

هنالك المنطقة التي يتخلَّلها الشكُّ حينما لا يترجَّح عند الإنسان النفي ولا الإثبات، ويتوقَّف في المسألة، وهذا مستوىً من مستويات المعرفة، وموقفٌ معرفيٌّ أيضاً؛ حيث لا يحسم الإنسان اتجاهاً إيجابيًّاً أو سلبيًّاً.



الظنُّ المرجوح

وهنالك أيضاً موقفٌ معرفيٌّ يترك فيه الإنسان الرأي الراجح ويمسك بالمرجوح عن طريق تمسُّكه بدليلٍ أقلَّ قوةً لسببٍ من الأسباب، أو اعتبارٍ من الاعتبارات.

الباطل

يأتي بعد الظنِّ المرجوح الباطل؛ فقد يدرك الإنسان أن ما يتمسَّك به غير صحيحٍ، ومع ذلك قد يتمسَّك به في مستوىً معيَّنٍ من الوعي والإدراك لسببٍ من الأسباب.

إذاً؛ فهذه مستوياتٌ من المعرفة، وإن أيَّ شيءٍ نتلقَّاه، نحتاج أن نضعه في صندوقٍ من هذه الصناديق؛ لندرك درجة الحجاج ودرجة الغضب الذي ينتابنا أحياناً.. فإذا كانت قضيةٌ من الظنِّيَّات، وقمنا بمعاملتها على أساس أنها من اليقينيَّات، سندخل في حروبٍ سنكتشف بعد سنين من العمر أنه كان من الأولى لنا فيها أن ننتظر حتى ننضِّج بأنفسنا الظروف المعرفية التي تسمح لنا بالوعي، فالفارق دقيقٌ جدًّا بين قضايا اليقين وبين القضايا الظنية، وإن أغلب حياة البشر تدور حول القضايا الظنية التي يغلب فيها الظنُّ.

إن المعرفة المعتمدة لدى العلماء في العالم كله؛ هي المعرفة المتمثلة بالمعتقد الصحيح المبرهن، فعلى مُثبِتٍ لمسألةٍ ما أن يستحضر دوماً الدليل الذي يبرهن المعتقد الذي ذهب إليه

المسار العقلي والحضارات



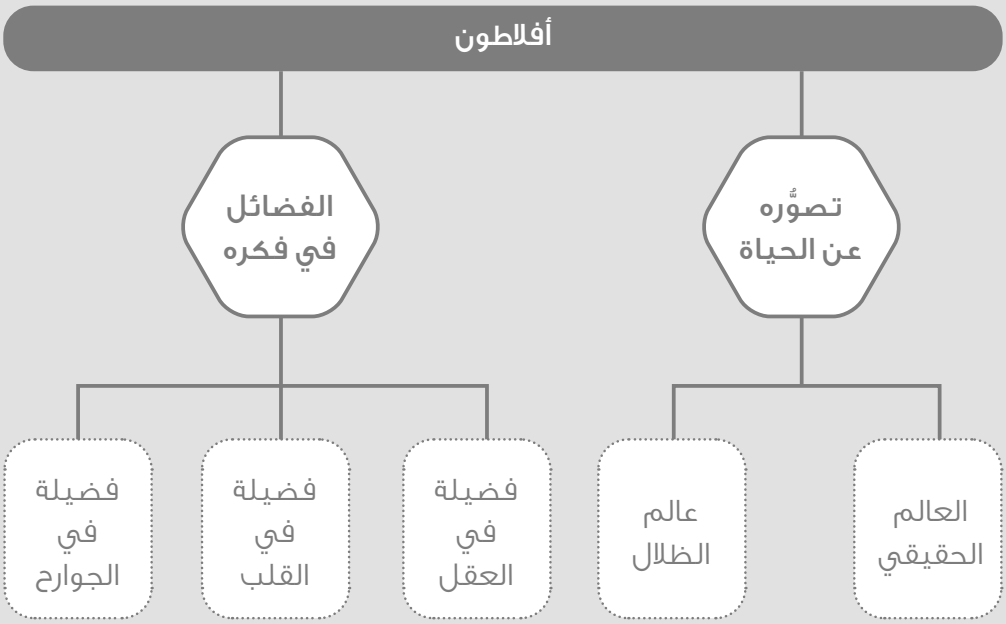
يتوجَّب على مَن يريد فهم الفلسفة وقضاياها بطريقةٍ جيدةٍ أن يقرأ أولاً الملفات الكبيرة للشخصيات المؤثِّرة، كي يعرف بعد ذلك كيف انتقلنا إلى العصور الوسطى، ومن ثم إلى العصور الحديثة..

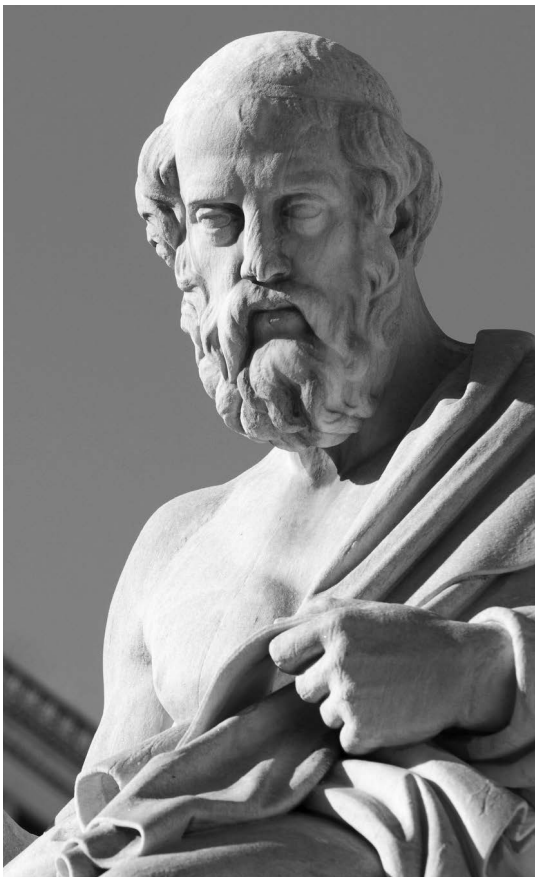
وسنتعرَّض في هذا المبحث ابتداءً لشخصيَّتين كبيرتين في التاريخ الفلسفي القديم، هما: "أفلاطون"، و"أرسطو"، وبعد ذلك سنُعرِّج على القرون الوسطى، وكيف تَشَكَّل فيها الفكر والتصوُّر، ثم العصور الحديثة.

وإننا في سيرنا المتسلسل في الفلسفة تصاعديًّا، نراعي المتعلِّم غير المعتاد على هذا الفضاء؛ حيث يحتاج إلى نقلاتٍ تدريجيةٍ ليتمكَّن من بناء معرفةٍ أكثر تنظيماً لتكون معالم في طريقه..

أولاً- نقطة البدء ونواة الأفكار

أفلاطون





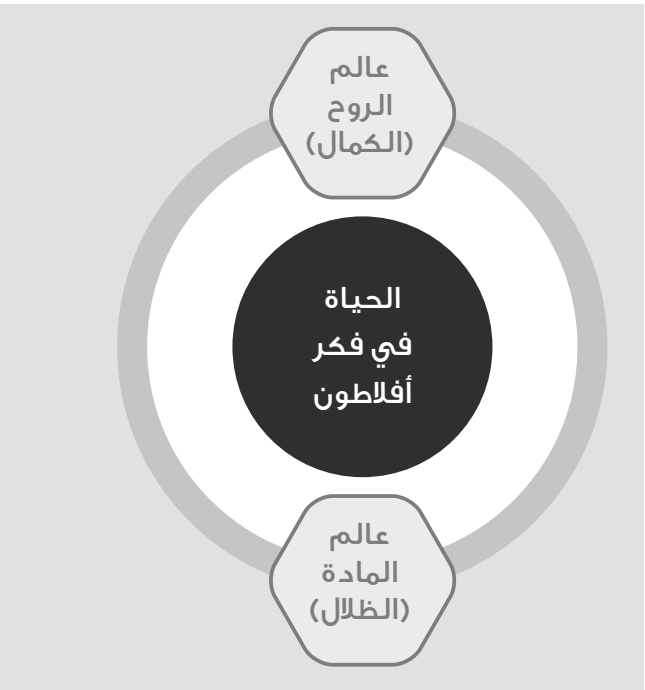
إن ممَّا يقال في نشأة الفلسفة: إن "أفلاطون" هو مَن وضع الأجندة الرئيسية لها، وبالتالي إن كثيراً من الحوارات التي تدور، تكون ردَّاً على أفكاره بطريقةٍ مباشرةٍ أو غير مباشرةٍ.. سواءٌ بمعارضته، أو بأخذ موقفٍ من أفكاره، أو بتبنِّيها.. فالقضايا التي طرحها في مجالاتٍ متعدِّدةٍ، قد شكَّلت العالم الذي نعيش فيه، فلا يكاد يمرُّ مارٌّ من العلوم الإنسانية، إلا وقد مرَّ بذكر "أفلاطون"، أو الناس الذين في حقبته، مثل: "أرسطو" وغيره..

البيئة التي نشأ فيها:

عاش "أفلاطون" قبل الميلاد بحوالي 300 - 400 سنةٍ، وقد بدأ حياته من البيئة اليونانية التي تتعدَّد فيها الآلهة بشكلٍ كبيرٍ، وتتصارع مثلها مثل البشر، ثم ذهب إلى البيئة المصرية للتعلُّم، وهي بيئةٌ أيضاً كانت تتكلَّم حينها عن الآلهة المتعدِّدة بشكلٍ من الأشكال، ومن ثم عاد إلى بلاده ليفكِّر في كيفية ترتيب هذا العالم، فتحصَّلت لديه مادةٌ خام عن الآلهة ووجودها، والبُعد الأخروي، وذلك نتيجة أن الحضارة المصرية تحتوي في بنيتها الأساسية الاستعدادَ للآخرة؛ فالمعابد المصرية عبارةٌ عن قبورٍ، والقبور فيها جثثٌ محنَّطةٌ مع الكلاب والمشغولات التي تنتظر العودة الأخروية، والتي سيحتاج الإنسان فيها إلى أمواله وكلابه وحرسه حتى يقوموا معه في قومته الأخرى.

تصوُّر "أفلاطون" عن الحياة:

تكلَّم "أفلاطون" عن الوجود على أساس أنه عالمان؛ عالمٌ كاملٌ يسمِّيه: "العالم الحقيقيَّ"، فيه الروح والأفكار الكاملة، وهو عالم الخير والجمال والحقِّ بأرقى وجودٍ لها، وعالم المادة غير الحقيقي الذي يسمِّيه: "عالم الظلال"، وهو عالم ظلامٍ وأوهامٍ. ويرى أن العقل الإنسانيَّ



قد سكن العالم الكامل خارج الجسد ابتداءً، ثم أتى إلى عالم الظلال ليسكن الجسد الفاني في الدماغ.. وأن العقل حينما يدخل الجسد -وهو الكيان المظلم-، يصبح أسيراً داخله، وبالتالي فإن الإنسان في حياته سجينٌ لجسمه، ويسعى للتحرُّر من أسره في العالم الفاني ليعود إلى ذلك الكمال الأزلي في العالم الباقي.. ونجد فكرة "أفلاطون" هذه بتفصيلاتها في فلمٍ شهيرٍ: "The Terminator" لـ: (أرنولد شوازينجر).

وقد مثَّل "أفلاطون" هذه الأزمة للإنسان فيما يسمَّى بـ: "كهف أفلاطون"؛ حيث يتخيَّل البشر جالسين في كهفٍ، مقيَّدي الأيدي والأرجل، ومقابلين لجدار الكهف لا يلتفت منهم أحدٌ، ومن ورائهم عالمٌ تتحرَّك فيه أشياء حقيقية بشكلٍ غريبٍ، وتنعكس صورهم على الجدار الكائن أمام البشر المقيَّدين، فالبشر طوال حياتهم منذ الولادة إلى الموت لا يرون إلا ظلالاً تتحرَّك، ومن خوفهم مِن هذه الأشياء، يعتقدون أنها موجوداتٌ ستؤذيهم فلا يحرِّكون ساكناً ولا يلتفتون إليها، إلّا أن هناك مِن هؤلاء الناس مَن بدأ ينظر إلى الخلف حتى يفهم ماذا يحدث، فبدأ يتحرَّر من الأسر، ومن ثم بدأ محاولة الخروج من الكهف، وفي رحلته للخروج سيبدأ برؤية العالم الحقيقي شيئاً فشيئاً، وستؤلمه عيناه، ويزداد خوفه.. إلَّا أنَّه كلما ازداد اقتراباً من العالم الخارجي، بدأت تتفتَّح له الحياة، وأدرك أن فيها شيئاً مختلفاً، وأدرك روعة العالم الذي يقترب منه..

إن عقل الإنسان -في تصوُّر "أفلاطون"-، يستطيع العبور من أَسْر الدماغ إلى العالم الرائع عن طريق الحكمة والبحث عن الحقيقة (الفلسفة)، والفلاسفة وحدهم -بنظره- الذين يبحرون في هذا العالم، ويبحثون عن الحقيقه، ويصلون إلى المثال الكامل، ومن ثم يتَّحدون مع المثال الموجود.

وإن هذه الفكرة للعالَمَيْن (العالم الثنائيِّ الأقطاب)، ستظلُّ نقاشاً فلسفيًّاً دائراً طوال البشرية إلى يومنا هذا.. فنراها متمثِّلةً اليوم بالخلاف بين الملاحدة الذين يرون الوجود عبارةً عن مادِّيَّاتٍ فقط، وبين المتديِّنين الذين يرون الوجود عالَمَيْن: وجوداً ماديًّاً، ووجوداً غيبيًّاً.

الفضائل في فكر "أفلاطون":

من الحقائق الموضوعية أنه لا يمكننا فهم الأفكار بمعزلٍ عن البيئة التي نشأت فيها، وتفاعلات الإنسان معها آنذاك

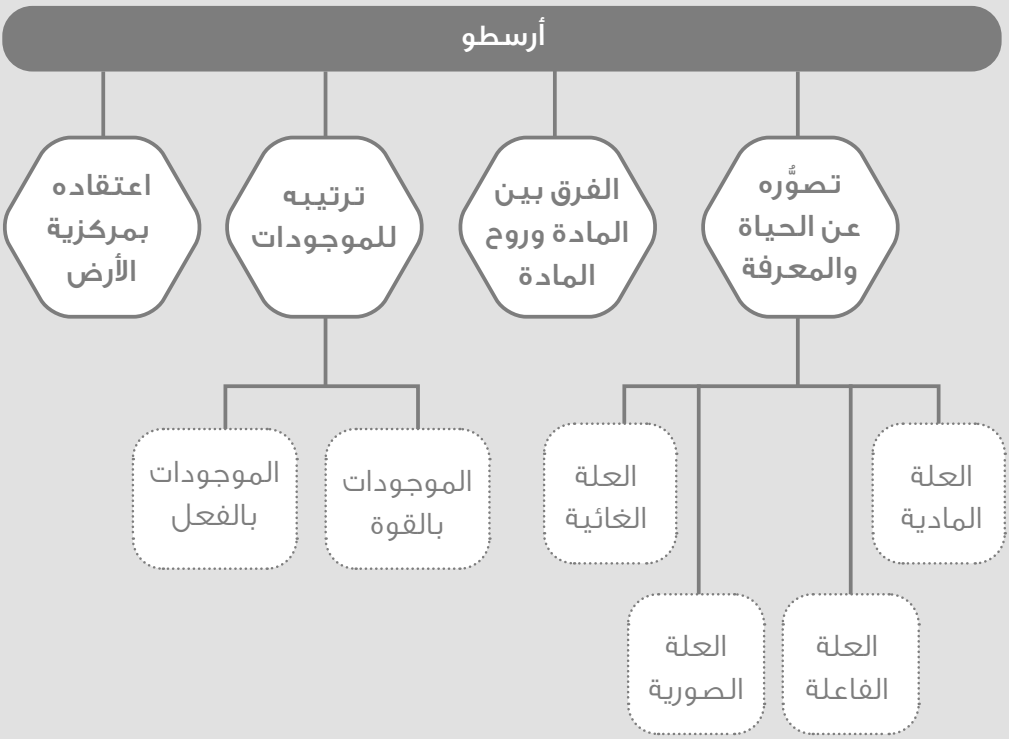
يرى "أفلاطون" أن الفضائل ثلاث: فضيلة في العقل، وفضيلة في القلب، وفضيلة في الجوارح؛ فالعقل هو القائد وفضيلته الحكمة، والقلب فضيلته الشجاعة، وأعلى الشجاعة ضبط الغضب، والجسد مطالبه الشهوات، وأقوى ما فيه العفَّة، وهي ضبط الشهوات.

وإن الإنسان لدى "أفلاطون" إذا كان لديه عقلٌ راجحٌ، وضابطٌ للغضب والشهوات، يصل إلى ما يسمِّيه: العدالة؛ وهي أمُّ الفضائل التي تقود إلى التوازن؛ فالشجاعة على سبيل المثال، إذا لم تُضبط بالاعتدال، قد تقود إلى التهوُّر، وكذلك الإغراق في الشهوات أو التفريط بها رغم احتياج الإنسان إليها، يؤدِّي إلى الألم والاضطراب، فالمنطقة التي في المنتصف تصل بصاحبها إلى ما يسمِّيه "أفلاطون": "اللذة الأعلى".

خلَّف "أفلاطون" منظومةً كبرى سيظلُّ الكلام عنها والنقاش حولها دائراً عند البشرية، ومن دون شكٍّ، فإن هناك كميةً كبيرةً من الإشكاليات التي تطرح نفسها في هذه المنظومة؛ فإذا ما نظرنا إلى كتاب "جمهورية أفلاطون" الكتاب الشهير، سنجد الكثير من الكوارث التي لا تناسب ما نفكِّر فيه كمجتمعاتٍ، إلا أنها مفهومةٌ في سياقات المجتمعات التي كانوا يعيشون فيها؛ فالإنسان الذي يتعاطى مع الفكر هو ابن بيئته، يأخذ ويعطي من بيئته، كما يأخذ ويعطي من البيئات الأخرى.

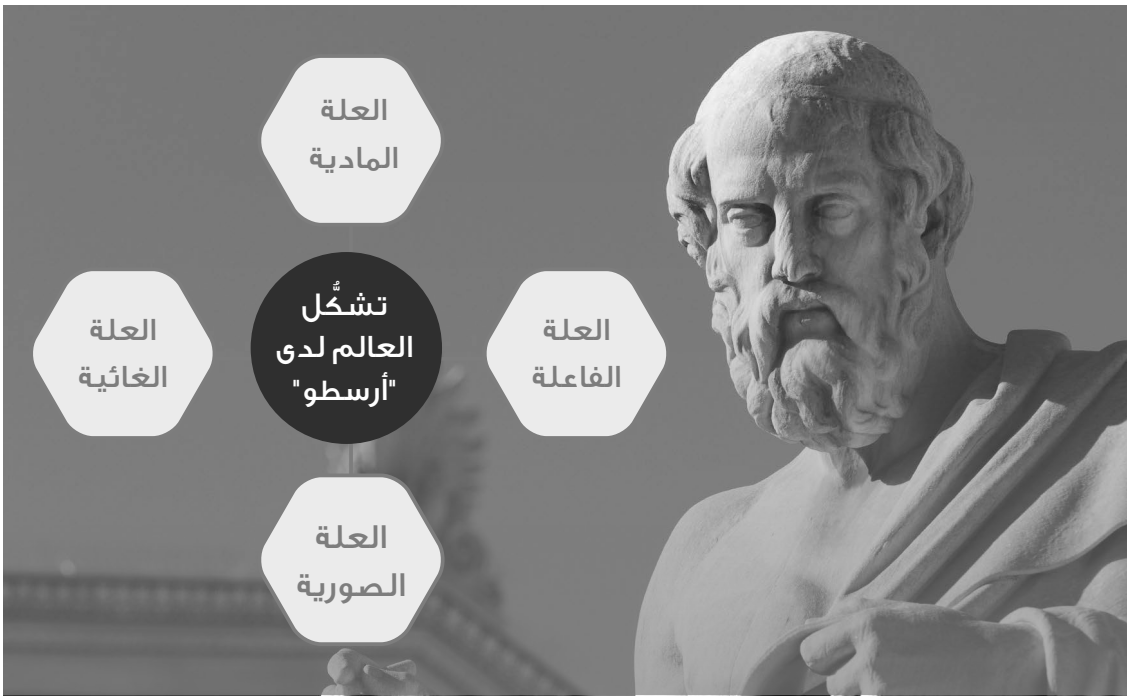
أرسطو

إن النموذج الذي تكلَّم عنه "أفلاطون" سيكمله نموذجٌ آخر وهو نموذج تلميذه "أرسطو"، الذي أعطانا بعض الأدوات الأساسية لفهم العالم الذي نعيشه، وأعطانا لغةً نستطيع أن نتكلَّم بها عن العالم الذي نحن موجودون فيه، وإنَّ من الأشياء التي كانت تميِّز فكر "أرسطو" أنه كان ينظر إلى هذا العالم، ثم يقيسه -وفق علمه- على بقية العوالم التي نتحدَّث عنها.



تصوُّر "أرسطو" عن الحياة ومصدر المعرفة:

إن أول قضيةٍ رئيسيةٍ في فكر "أرسطو" أنه رفض فكرة "أفلاطون" حول قضية "عالم المُثُل"، فرأى أن المعلومات التي لدينا هي من العالم الواقعي الذي نعيش فيه، فنحن نولَد صفحةً بيضاء، وبالتالي فإن العالم الذي نعيش فيه وتجاربنا الحياتية، هي التي تشكِّل معلوماتنا ومعارفنا الموجودة.



وكان يرى أن العالم يُبنى من أربعة أشياء، سمَّاها: "العلل الأربع"، وبيانها وفق التالي:

العلة الأولى: العلة المادية، أي: المواد الأولية التي يتمُّ العمل عليها، فالنحَّات مثلاً يحتاج إلى الطين أو إلى الخشب حتى ينحت.

العلة الثانية: العلة الفاعلة (الصانع)، فإن المادة لا تتكيَّف بذاتها؛ بل تحتاج إلى صانعٍ لها.

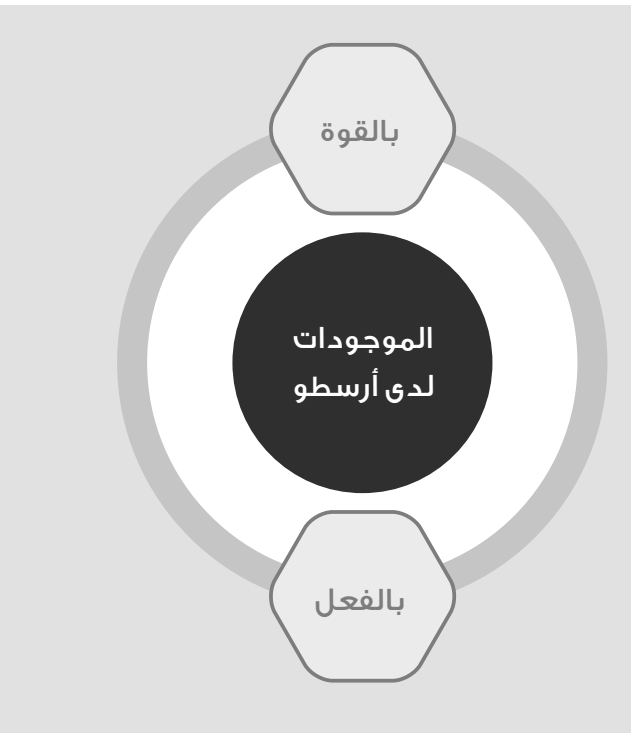
العلة الثالثة: العلة الصورية، فكما أن الصانع يحتاج المادة للصناعة، فإنه أيضاً يحتاج إلى أن تكون لديه في ذهنه صورةٌ معيَّنةٌ للشيء الذي يريد أن ينحته.

العلة الرابعة: العلة الغائية (الوظيفية)، فالصانع لا ينتج صنعته في فراغٍ، إنما ينتجها لتقوم بوظيفةٍ معينةٍ في الحياة..

ويضربون مثالاً على هذه القضية "السرير"، فالغاية من السرير هي النوم، وصورة السرير نفسها هي العلة الصورية، والخشب الذي صنع منه هو العلة المادية، وصانع السرير هو النجَّار.. وسنجد أن أرسطو سيقيس كلَّ شيءٍ بعد ذلك على هذه القضية كما سنرى لاحقاً، وإن فكرة احتياجنا إلى أربع عللٍ، هي فكرةٌ جيدةٌ يمكن استصحابها في طريقة التفكير.

"أرسطو" وترتيب الموجودات:

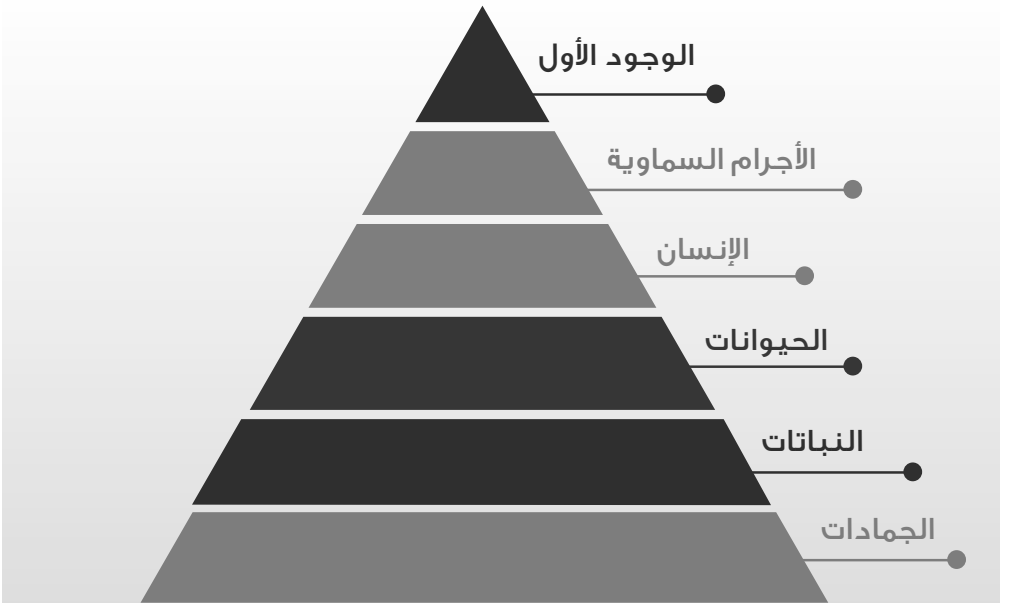
ممَّا يراه "أرسطو" أيضاً أن الأشياء الموجودة تنقسم من حيث وجودها إلى قسمين:



1. الموجودات بالقوَّة: وهي القوة الموجودة داخل شيءٍ ما، والتي تُوجِد لديه قابليةَ التحوُّل من خلال القوة الموجودة فيه؛ فبذرة النخيل على سبيل المثال: يَفتَرِض "أرسطو" أن بداخلها قوَّةً من خلالها قد تتحوَّل إلى نخلةٍ، فالنخلة موجودةٌ داخل البذرة بالقوة، وقد تصبح أو لا تصبح.

2. الموجودات بالفعل: وتكون الموجودات بالفعل حينما تتحوَّل القوة الموجودة داخل الشيء إلى فعلٍ حقيقيٍّ، فحينما نضع بذرة النخيل في التراب، ونسقيها بالماء، وتظهر النخلة الحقيقية، فحينها تكون قد وُجدت بالفعل.. وكذلك الإنسان عندما يكون عبارةً عن بويضةٍ وحيوانٍ منويٍّ، فيكون إنساناً بالقوَّة، وقد يصبح إنساناً بالفعل وقد لا يصبح، إنما لديه القوَّة والقدرة لأن يصبح إنساناً كاملاً، فإذا ما تبلور في الوجود، أصبح إنساناً بالفعل.

لم يقتصر فكر "أرسطو" على أن ينظِّم علل العالم بأربعِ عللٍ، وتقسيم الموجودات إلى موجوداتٍ بالفعل أو بالقوة؛ بل امتدَّ فكره لينظِّم العالم في هرمٍ؛ حيث رأى أن الجمادات كالأحجار، وأنها أكثر الجمادات كثافةً، وهي آخر سُلَّم الوجود، وفوقها تأتي النباتات التي هي موجوداتٌ ثابتةٌ تنمو ولكن لا تتحرَّك، ومن فوقها تأتي الحيوانات التي تتحرَّك وتنمو، ثم يأتي فوقها الإنسان الذي ينمو ويتحرَّك، ويتمتَّع أيضاً: بالعقل، وبقابليَّة التعلُّم، وفوق الإنسان تأتي الأساطير اليونانية؛ التي ظهرت نتيجة أن البشر في الحضارة اليونانية كانوا يراقبون السماء ويرون حركة الأجرام السماوية، فرأى "أرسطو" أن الأجرام السماوية كالقمر



والنجوم هي أرواحٌ، أو هي كائناتٌ تصحب الأرواح، فهي أيضاً إما أن تكون بذاتها عقولاً، أو أنها تصحب العقول، وبالتالي هي موجوداتٌ عاقلةٌ، وهذه الموجودات العاقلة تقوم بوظائف ومهمَّاتٍ للمحرِّك الأول، فرتَّب "أرسطو" الكون ترتيباً تصاعديًّاً من: الوجود البسيط، إلى الوجود المعقَّد الذي أراده، ويرى "أرسطو" أن الموجود الأول إذا كان نوراً وكمالاً، فكلما نزلنا أسفل الهرم، زادت كثافة المادة، وبالتالي زادت الظلمة وقلَّت النورانية في الموجودات، والإنسان كلَّما صعد، صعد نورانيًّاً، وحينما ينزل، ينزل نورانيًّاً، وكانوا يرون أن الوجود الأعلى الكامل موجودٌ في السماء؛ حيث كانوا ينظرون إلى السماء بهذا الاعتبار..

الفرق بين الجوهر والأعراض:

من الأشياء التي لفت "أرسطو" الأنظار إليها، أنه فرَّق بين المادة وروح المادة، فهو -كما ذكرنا سابقاً- يقول: إننا ندرك المادة في ظاهرها، لكننا لا ندركها في جوهرها.

إن الترتيب الذي رتَّبه "أرسطو" للموجودات سيترك أثراً كبيراً فيما بعد.. وإنه بترتيبه للموجودات كان يجمع عيِّناتٍ، أي: أنه بدأ يشتغل شغلاً علميًّاً، فبجمعه للعيِّنات يتبيَّن له كيف تصعد الموجودات من الأحجار، وكيف ترتقي الأحجار إلى الموجودات، كالإنسان مثلاً،

أي: أنه بذلك صنع أساساتٍ لما يسمَّى بـ: "نظرية التطوُّر"، وبالتالي فإن أول البحوث الموجودة لنظرية التطوُّر قديمةٌ جدًّا من أيام اليونان القدماء، وبالتالي لها أساسٌ جذريٌّ قديمٌ متضَمَّنٌ بتصوُّر أن الكائنات مرتَّبةٌ في سُلَّمٍ تصاعديٍّ منذ القِدَم؛ أي: منذ أيام "أرسطو" ورؤيته..

اعتقاده بمركزيَّة الأرض:

إن فكر "أرسطو" قد حكم العالم بأكثر من مجرَّد المواضيع التي أوردناها، فلأكثر من ألف عامٍ كان العالم يتحرَّك ويدور من خلال تصوُّرات "أرسطو"..

وكان ممَّا اعتقده "أرسطو" أيضاً أن الأرض هي مركز الكون، وأن مركز الكون تحيط به دائرةٌ يدور فيها القمر، وأن القمر هو أول الكائنات الروحانية التي تشارك في صنع العالم الذي نوجد فيه؛ فالفاصل بين العالم الفاني الذي نوجد فيه والعالم الكامل الأزليِّ الممتدِّ هو القمر، وفوق القمر توجد الأفلاك التي تعدُّ كائناتٍ روحيةً أيضاً، وخارج هذا البناء يوجد المحرك الأول (الإله)، الذي يعتبره "أرسطو" نقاءً مطلقاً، فالمحرك الأول -حسب نظرية "أرسطو"- وجد المادة التي سيشتغل عليها؛ لأنه في نظريته التي كنَّا نتكلَّم عنها (العلل الأربع) لا بدَّ أن يكون للصانع مادةٌ يشتغل بها، فدخلت الفلسفة في المادة التي يُصنع منها هذا الوجود، وسمَّى "أرسطو" هذه المادة: "الهَيُولا" (Hyle)، وحاول أن يعرِّفَها، إلا أنه أشكل عليه ذلك. فإذا ما عرَّفناها بأنها مادةٌ فستصبح حادثةً وليست قديمةً، وهو يريدها قديمةً كي يستطيع الإله أن يصنع منها المادة الموجودة، وأخيراً توصَّل لأن يقول: إنها مادةٌ فيها قابليَّة التشكُّل لتُوْجِد الوجود الموجود.

إذاً؛ يبقى عندنا الترتيب بحسب "أرسطو" متمثِّلاً بالإله والهيولا (المادة الموجودة)، ثم هذا الوجود الذي نحن فيه، والذي يحوي الأفلاك العالية التي تساعد الإله في صناعة الكون، ثم القمر الذي هو الفاصل بيننا نحن البشر، ثم الأرض التي هي مركز الكون، وتدور حولها الأشياء. وقد أُنْتِجَ حول هذه الفكرة فيلم: "Fifth Element".

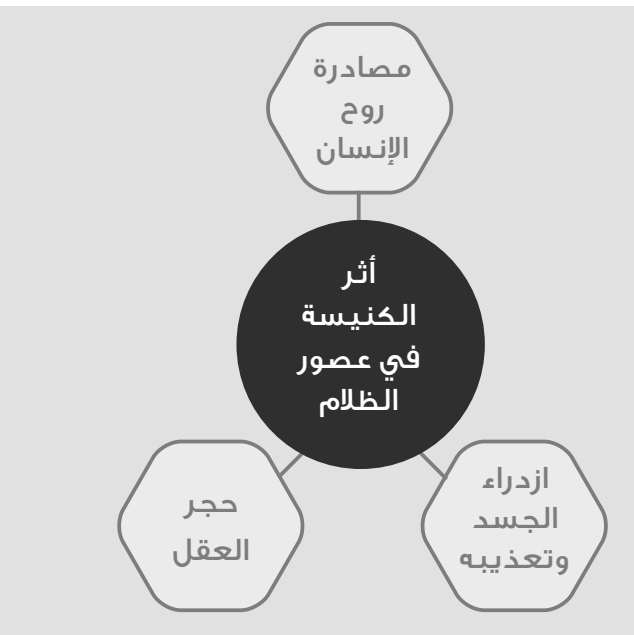
بدأ منطق "أرسطو" وفكره يشكِّل العالم من بعده لألف سنةٍ، فتبنَّت الكنيسة في العصور الوسطى مقولاته، واعتبرتها تفسيراً للكتاب المقدَّس -وذلك كما يحدث في كثيرٍ من الأحيان عندما يرى أحدهم نصَّاً في الكتاب المقدَّس، وكلاماً لأحد العلماء فيقاربه به-، ولكن

لو اتضح بعد ذلك أن هذه المعلومات خاطئةٌ، سيصبح الكتاب المقدَّس أيضاً فيه خطأ، وهذا ما حدث فعلاً في الحضارة الأوروبية الحديثة؛ فالعصور الوسطى كانت تحت سلطة "أرسطو" بشكلٍ من الأشكال، ثم انفكَّت عن هذه السلطة!

ثانياً- العصور الوسطى (عصور الظلام)

بدأت هذه العصور من القرن الخامس الميلادي، وامتدَّت إلى القرن السادس عشر الميلادي تقريباً، إلا أنه قد تخلَّل هذه العصور كثيرٌ من الأشياء الجيدة بالنسبة للأوروبيِّين.. ولكن الطابع الأساسيَّ لها كان الظلام والجهل؛ فالكنيسة في تلك الحقبة هيمنت بقوَّةٍ، فأضرَّت بالحياة الأوروبية بشكلٍ كبيرٍ، ولمن يريد أن يتصوَّر هذه العصور بشكلٍ أفضل، فقد تمثَّلت في فيلم: "أشباح غويا Goya's Ghosts" بوضوحٍ، وكان من أبرز ملامحها:

1. مصادرة روح الإنسان:



إن أول قضيةٍ رئيسيةٍ قد أثَّرت بها الكنيسة أن صادرت روح الإنسان الأوروبي، أي: أن الإنسان لم يعد حرًّا في الاتصال بخالقه، فبثَّت اعتقاد أن ابن آدم مرتكبٌ للخطيئة كأبيه، والمحمَّل بالخطيئة غير قادرٍ على الاتصال بخالقه، فيحتاج إلى نقاءٍ لا يحمله إلا القساوسة والرهبان والعبَّاد الذين قاموا على حياةٍ خشنةٍ وتطهَّروا من خلالها.. فأصبحت الكنيسة هي صلة الوصل بين العبد وربِّه، فيذهب الإنسان ويعترف بخطيئته في الكنيسة، ومن ثم يُعطَى رضا الرب. ومصادرة الروح هذه، تطوَّرت إلى "صكوك الغفران"، فبدل أن يذهب المخطئ ويأخذ من وقت القساوسة، أصبح بإمكانه أن يشتري صكَّ الغفران من أقرب مكتبٍ

إليه، فتُمحى خطيئته ويرضى الإله عنه بما قدَّمه من مالٍ لأجل الكنيسة، فيكفي أن يكون للإنسان مالٌ من أجل الخلاص من الذنوب، وبهذه الظواهر المعقَّدة، قُطِعت الصلة تماماً بين الإنسان وبين الإله.

2. ازدراء الجسد وتعذيبه:

أخذت الكنيسة تعذيب الجسد كخطوةٍ رئيسيةٍ ليتطهَّر من خلالها الإنسان من الخطيئة، فانتشرت في الأديرة والصوامع عملية تعذيب الأجساد إلى درجة أن الناس المتديِّنين كانوا يأكلون الرماد بدلاً من الخبز، وكانوا يعيشون دون اغتسالٍ أو تمشيطٍ لشعورهم أو تقليم لأظافرهم.. اعتقاداً منهم بأنهم في هذه الحالة المزرية يكونون إلى الله أقرب، فأصبح اعتقاد إدانة الجسد طابعاً ضخماً جدَّاً في الحياة الأوروبية.

3. حجر العقل:

أصبح الإنسان مداناً في عقله، وعليه أن لا يفكِّر في أيِّ شيءٍ، والكنيسة بدورها هي التي تجيبه عن جميع تساؤلاته، ويروى في ذلك قصةٌ على سبيل تصوير الحَجْر الذي تمارسه الكنيسة على العقول.. "بأن شخصاً بعث إلى الكنيسة يسألها عن عدد أسنان الحصان.. فبحث القساوسة في الكتاب المقدَّس واختلفوا في الإجابة، فاقترح أحدهم أخذ رأس الحصان وعدَّ أسنانه، فاستجاب بعضهم للفكرة، إلا أن أحد القساوسة من الطرف الآخر نهره لعدم إيمانه بأن الإجابة موجودةٌ في الكتاب المقدَّس! وهنا عرف الرجل حدَّه؛ خوفاً من أن يطير رأسه!

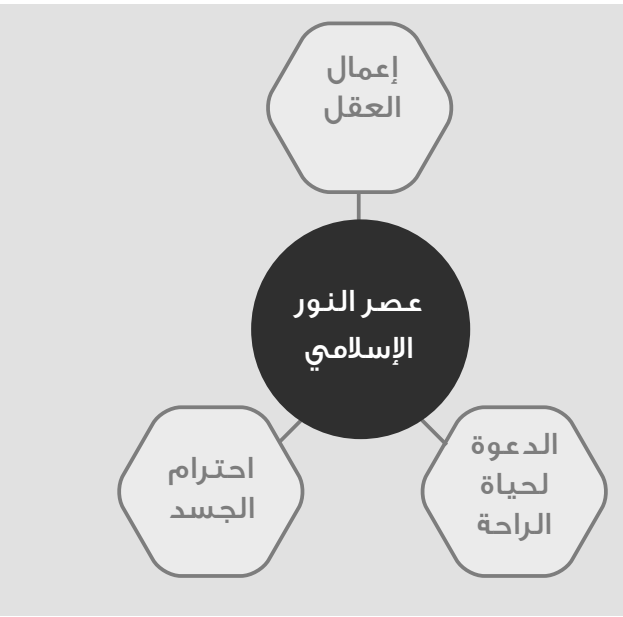
وبتلك الطرق تمَّت مصادرة العقل والروح والجسد، وانسدَّ الفضاء أمام الناس في المعرفة، حتى إن قراءة الكتاب المقدَّس كانت من الممنوعات في تلك العصور، فكان يُكتب باللغة اللاتينية التي لا تعرفها الشعوب الأوروبية، كما مُنِعَت أيضاً الكتب اليونانية وأصبحت تُخَبَّأ بالسراديب، ولم يعد أحدٌ يقدر أن يطَّلع عليها، حتى إن الحكام أصبحوا ممَّن لا يقرؤون ولا يكتبون، والكنيسة تحتكر المعرفة احتكاراً مطلقاً، وتستغلُّ الناس بأبشع أشكال الاستغلال من خلال ما تأخذه منهم من ضرائب.

وبعد حصار الأشياء الثلاثة الأساسية التي تُبنى بها الحضارات: (العقل، والروح، والجسد)، انهارت الحضارة الأوروبية من داخلها بهذا المفعول الكبير.

ثالثاً- عصر النور الإسلامي

إن تفوُّق الحضارة الإسلامية في عصر النور الإسلامي يظهر في فيلم: "المقاتل الثالث عشر"؛ حيث إنها تميَّزت تميُّزاً واضحاً عن بقية الحضارات، ففي حين صادرت حضارة الغرب الروح والعقل والجسد، تميَّزت الحضارة التي قامت على القرآن الكريم بـ:

1. إعمال العقل:



الدعوة لإعمال العقل، والدعوة للتفكُّر والتدبُّر والبحث عن الدليل والبرهان، فـ﴿اقْرَأْ﴾ و﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ كانتَا دعوةً لفكِّ القيودَ عن العقل تفكيراً وعلماً وبحثاً.

2. الدعوة لحياة الروح:

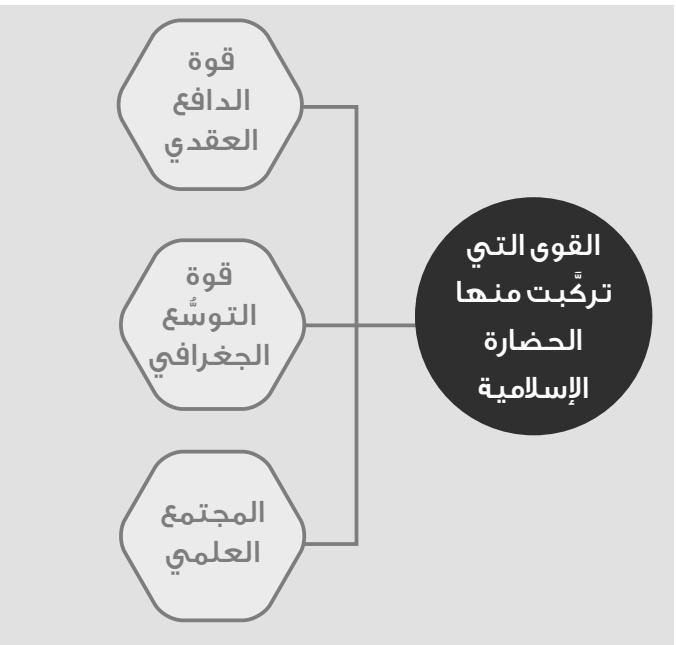
الاتصال بالله بدون واسطةٍ، فنزلت: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾؛ تقريباً للمسافة بين الإنسان وبين الإله.

3. احترام الجسد:

الاستمتاع بطيِّبات الحياة؛ امتثالاً لـ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؛ فأصبح التنعُّم بالحياة جزءاً من نعم الله على الإنسان.

وبعد أن تحرَّرت هذه الأساسات (الروح، والعقل، والجسد) التي تقوم عليها الحضارات، أذِن الله للحضارة الإسلامية بالقيام. ولا نريد من هذا الطرح التزكية الذاتية، إنما الهدف الوعي بمركب التقدُّم والتخلُّف، فالتحوُّلات الإيجابية في علاقات العقل والروح والجسد

فتحت نافذة التقدُّم أمام الإنسان، وقد كان ميلاد حضارة الأمة الإسلامية ميلاداً مركَّباً من قوىً متعدِّدةٍ:



1. قوة الدافع العقدي:

حيث إنه كان وراء الأعمال ثوابٌ كبيرٌ، وجنةٌ ونارٌ، فظهرت غايةٌ عليا للإنسان للتسامي وطلب العُلا والكمالات.

2. قوة التوسُّع الجغرافي:

قادت احتياجاتٌ كثيرةٌ إلى قوة الاندفاع والتوسُّع الجغرافي، وهذه القوة كانت تفوق قوة الدفع العقدي؛ فالمسلمون انساحوا في عصرٍ كان أساس التحرُّك فيه للإمبراطوريات؛ فمن كان لا يغزو سيُغزى، فتحرَّك المسلمون بفعل الدافع العقدي والاحتياجات الأخرى الاقتصادية والاجتماعية إلى خارج نطاق الجزيرة العربية، وفتحوا مساحاتٍ واسعةً من العالم.

3. المجتمع العلمي:

نشأت احتياجاتٌ علميةٌ مطَّردةٌ في البيئة الإسلامية؛ فقد احتكَّ المسلمون بفضاءاتٍ جديدةٍ، كالفئات الباطنية التي كانت تعتمد على الفلسفة في النقاشات، وبالتالي جدَّت الحاجة إلى التفكير والتجديد مرَّةً أخرى، وكان لا بدَّ أن تنمو العضلات الفلسفية والمنطقية في البيئة؛ درءاً من حدوث الخلل، فنشأ الطلب على العلوم اليونانية والفلسفة. وأيضاً زاد الاحتياج إلى الرياضيات مع اتساع المساحات المتعلِّقة بالزكاة والخراج، وظهر الاحتياج إلى علم الفلك لضبط المواقيت والأزمنة. فشبكة الاحتياجات الداخلية وقوة الحضارة الإسلامية آنذاك ولَّدت طلباً قويَّاً على العلم، فنشأت دار الحكمة، ونشطت التراجم، وانتشر العلماء، وبرز علماء الفرس القادمون من بيئاتٍ علميةٍ، الذين وجدوا في الحضارة الإسلامية منفذاً

لتصريف الطاقات الضخمة التي يحملونها، فدرسوا بالعربية، وألَّفوا بها، وبالتالي أُثريت الحياة داخل القلب الإسلامي، وانتقلت الحضارة الإسلامية بالبشرية نقلاتٍ كبرى كانت تؤهِّلها للدخول بقوَّةٍ إلى العصر الجديد (عصر الآلة).

ولكن يبقى السؤال هنا.. ما الذي أعاق الحضارة الإسلامية وأوقفها؟! وهو أحد الأسئلة الهامَّة جدًّا في التاريخ.

رابعاً- المعضلات التي واجهت الحضارة الإسلامية وأعاقت تقدُّمها وتطوُّرها

سنركِّز على العوائق الداخلية التي -ومنذ اللحظة الأولى لميلاد الحضارة الإسلامية- كانت تنمو بالتدريج حتى امتدَّت إلى يومنا هذا، وتتمثَّل بما يلي:



1. معضلة الحكم:

وهي معضلةٌ لا تزال باقيةً إلى اليوم، فمع أن النصَّ الشرعيَّ قد أمر بالعدل والشورى، إلا أن آليات تحقيقهما، ووعي إنسان عصر الرسالة بأهمية تلك القضيَّتين من أجل تحقيق الاستقرار الاجتماعي، من حيث الإجراءات، وأهميتها، والانضباط حولها، لم يكن حاضراً؛ فالبيئة كانت بيئةً بدويةً قبليةً متصارعةً في بنيتها الأساسية، ووعي البشرية لم يكن قد وصل إلى مرحلة أجرأة القيم، فتجلَّت مظاهر هذه المعضلة بموت ثلاثة خلفاء مقتولين باشتعال الفتن الداخلية الموجودة، وحدوث الانقلاب الأموي، واستلاب الحكم، واستبدال المنظور الشوري بالنظام الملكي، ممَّا أدَّى إلى استفزاز البيئة، فقامت الثورات من قِبل الطالبيِّين والعباسيِّين والخوارج، وانتهت بسقوط الحكم الأموي واستلام العباسيِّين للسلطة، امتاز حكم العباسيِّين بالقوة في عصره الأول، إلا أنه بدأ بالضعف في العصر الثاني والثالث، فانقسمت الدولة إلى دويلاتٍ صغيرةٍ متصارعةٍ، تدخَّل بينها الصليبيُّون والمغول.. وكذلك احتدم الصراع بين الأيوبيِّين والسلاجقة.. وإلى يومنا هذا معضلة الحكم ممتدَّةٌ وقائمةٌ، ونشهدها في السودان، وفي مصر، وفي كثيرٍ من الدول الأخرى.

2. معضلة الترف:

إن تفشِّي الترف والانغماس المفرط في الملذَّات والشهوات، أدَّى إلى ظهور ردَّات فعلٍ عنيفةٍ تجلَّى بعضها بالانسحاب من الحياة، إلى أن وصلنا إلى مرحلةٍ اسمها: "صوفية الأرزاق"؛ تتمثَّل بأناسٍ يجلسون في منازلهم وينتظرون مدد الناس بالطعام والشراب باعتبار أنهم عبَّادٌ لله.

3. معضلة الصراع العرقي والقبلي:

وهي المعضلة ذات الأثر الكبير؛ حيث تجلَّت مظاهرها في: انقسام قريشٍ وعودتها إلى ما قبل الإسلام، فظلَّت بيوتات الهاشميِّين والأمويِّين تتصارع، وانقسم الهاشميون إلى علويِّين وعباسيِّين، واستمرَّ الصراع بينهم، وأيضاً حدث انقسامٌ بين قبائل الجزيرة العربية القيسية واليمانية، ثم انتقل الصراع إلى الأندلس ليصل بهم إلى أن يدمِّروا أنفسهم بأنفسهم.

ولم نستطع أن نجد حلاً موضوعيًّاً عمليًّاً لقضية الانقسامات القبلية التاريخية إلى يومنا هذا.. وبالتالي ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ لم تجد الآليات الإجرائية التي تنفُذ إلى البيئة من خلالها، فبقيت هذه القيم في جانبٍ، ونحن في جانبٍ آخر.

إن وصلة النجاح الحقيقية تكون حينما تتحوَّل القيم الإسلامية إلى إجراءاتٍ فعليةٍ حقيقيةٍ في حياتنا.. وإن تحويلها ليحتاج إلى عملٍ ثقافيٍّ ضخمٍ ووعيٍ كبيرٍ

4. معضلة الصراع الفقهي:

وهو صراعٌ أشبه بالصراع الذي حدث داخل الكنيسة؛ حيث إن الكنائس قد اختلفت باختلاف طبيعة المسيح لديها (اللاهوت والناسوت - العلاقة بينهما - الأب والابن)، وتشعَّبت الصراعات وتضخَّمت إلى حدودٍ عاليةٍ جدًّاً حتى وصلت إلى التكفير. وأيضاً عندنا البيئة الإسلامية لم تكتفِ بعموميَّات الآيات في وحدانية الله سبحانه وتنزيهه، فدخلنا في كيفيات إلحاق الصفات بالإله، ونتيجةً لهذا الصراع حول طبيعة الإله، وعلاقة الصفات به، نشأ صراعٌ مريرٌ حول الأسماء والصفات، وانتشر التكفير والتبديع والتفسيق.. في قضيةٍ لم يدخل فيها الصحابة، واكتفَوا فيها بأنه إلهٌ واحدٌ منزَّهٌ عمَّا سواه.

وأيضاً، ظهر الصراع الفقهي على أشُدِّه، إلى أن اتفق الناس على المذاهب الأربعة، وأصبحت تقام في المساجد أربعة صلواتٍ يقتدي الناس بها بحسب مذاهبهم، فلم ينظروا إلى الأمور المشتركة، ولكن ركَّزوا على الاختلافات!

5. تغيير كيمياء الإسلام:

إن ما نسمِّيه اليوم إسلاماً ليس إسلاماً نقيًّاً (كإسلام الأوائل)؛ هو نهرٌ بدأ من ذاك العصر، ثم حُمِّل أفهامَ وممارسات المسلمين، فتحوَّل لإسلامٍ مركَّبٍ انقسم لفرقٍ كثيرةٍ، كل فرقةٍ تقوِّي التفسيرات وتصحِّح الأحاديث الداعمة لموقفها، تاركةً الأَولى إلى غيرها، والأقوى إلى الأضعف!

إن الهزيمة تأتي من الداخل أولاً، أما الخارج، فهو عنصرٌ ثابتٌ؛ حيث إن الآخر على ترصُّدٍ دائمٍ لنقطة ضعفنا حتى يباغتنا منها!

وما نريده من هذا الطرح هنا أن نفهم جذور الإشكاليات، لا أن نصبح جزءاً منها، فعلينا أن نفهم الأسباب الحقيقية لهذه الاختلالات العظمى في الحياة الإسلامية؛ فالهزيمة لم تكن قد أتتنا من الخارج أولاً؛ فالخارج هو عنصرٌ ثابتٌ على ترقُّبٍ دائمٍ لنقطة الضعف التي سيأتي منها، ونقطة الضعف هي الضعف الداخلي الذي علينا أن نتتبَّعه باستمرارٍ، وأن نقف عند أسبابه لنصحِّحها، ولكن ما فعلناه نحن، أننا ننظر دائماً إلى الخارج، ونلقي اللوم عليه، ونحاول أن ندافع عن الداخل باستمرارٍ!

خامساً- سنن الإمبراطوريَّات

الإمبراطورية «عبارةٌ عن تمدُّد قوةٍ ما تعتقد أن لديها فرصةً تاريخيةً للهيمنة على العالم»

البعض يحلم اليوم باستعادة الإمبراطورية الإسلامية مرَّةً أخرى، وهي في مخيالهم دائماً، إلا أن الإمبراطوريَّات لها سننٌ غلَّابةٌ لا بدَّ لنا من الوقوف عندها..

1. كما تنشأ، تزول:

إن الأوضاع والظروف التي سمحت بنشوء الإمبراطورية تتغيَّر مع مرور الأيام، وبالتالي تزول بزوال أسبابها، فكثيراً ما نشأت في التاريخ إمبرطورياتٌ، كالإسلامية، والرومانية، واليونانية، والمغولية، وغيرها.. إلا أنها كما نشأت زالت.

2. معضلة القلب والأطراف:

إن ضعف الإمبراطوريات يؤدِّي بالضرورة إلى ضعف قوة التحكُّم بالأطراف التي امتدَّت إليها، وحينما تكون الأطراف التي وصلت الإمبراطورية إليها أقوى من قلب الإمبراطورية، فقد يصل بها الأمر إلى انتقال الإدارة والحكم إلى الأطراف. وإن هذا قانونٌ تاريخيٌّ مطَّردٌ نشاهده عند قراءة تاريخ الإمبراطوريات العظمى في صعودها وهبوطها.

3. فقدان الميزة الحضارية:

إن تبدُّل الأزمان والبيئة والأجيال، قد يؤدِّي إلى فقدان الميزة التي تحملها الإمبراطورية؛ فالإمبراطورية غالباً لها رسالةٌ وتصوُّرٌ تعتزُّ به وتقدِّمه للآخرين كمنفعةٍ لهم (علم، أو صناعة، أو قائد موهوب نهض بالجموع..)، وإن هذه الميزة إذا ما اختفت، بدأت الإمبراطورية بالضعف والانحلال.

4. الانكماش والتآكل:

حينما تنشأ الإمبراطورية، تبدأ قويةً وفتيةً، وتنطلق باتجاه البلاد الأخرى للسيطرة عليها انطلاقاً من مصالح اقتصاديةٍ على الغالب، فميزانية الإمبراطوريات تغتني بما تسلبه من الآخرين من مقدَّراتٍ، وممَّا تسيطر عليه من أسواقٍ.. وبحكم أن التمدُّد لهذه القوى يتطلَّب نفقاتٍ على القوات المسلحة والقدرات اللوجستية، فإنه مع استمرار تقدُّم القوات وابتعادها عن القلب تصبح تكلفة صيانة القوات والإمداد لها عمليةً أكثر كلفةً وتعقيداً، وكذلك



إدارة الصراعات الناشئة في المناطق التي تمَّ احتلالها، فأيضاً تزداد تكلفتها إلى أن تصبح الإمبراطورية ضعيفةً من القلب؛ لعجزها عن إمداد القوات المنتشرة في المناطق البعيدة بما يلبِّي متطلَّباتها، وهكذا إلى أن تصبح تكلفة التمدُّد أعلى من العائد منه، فعندها تبدأ الإمبراطورية بالانكماش شيئاً فشيئاً إلى أن تنهار!

سادساً- القيام الحضاري الأوروبي

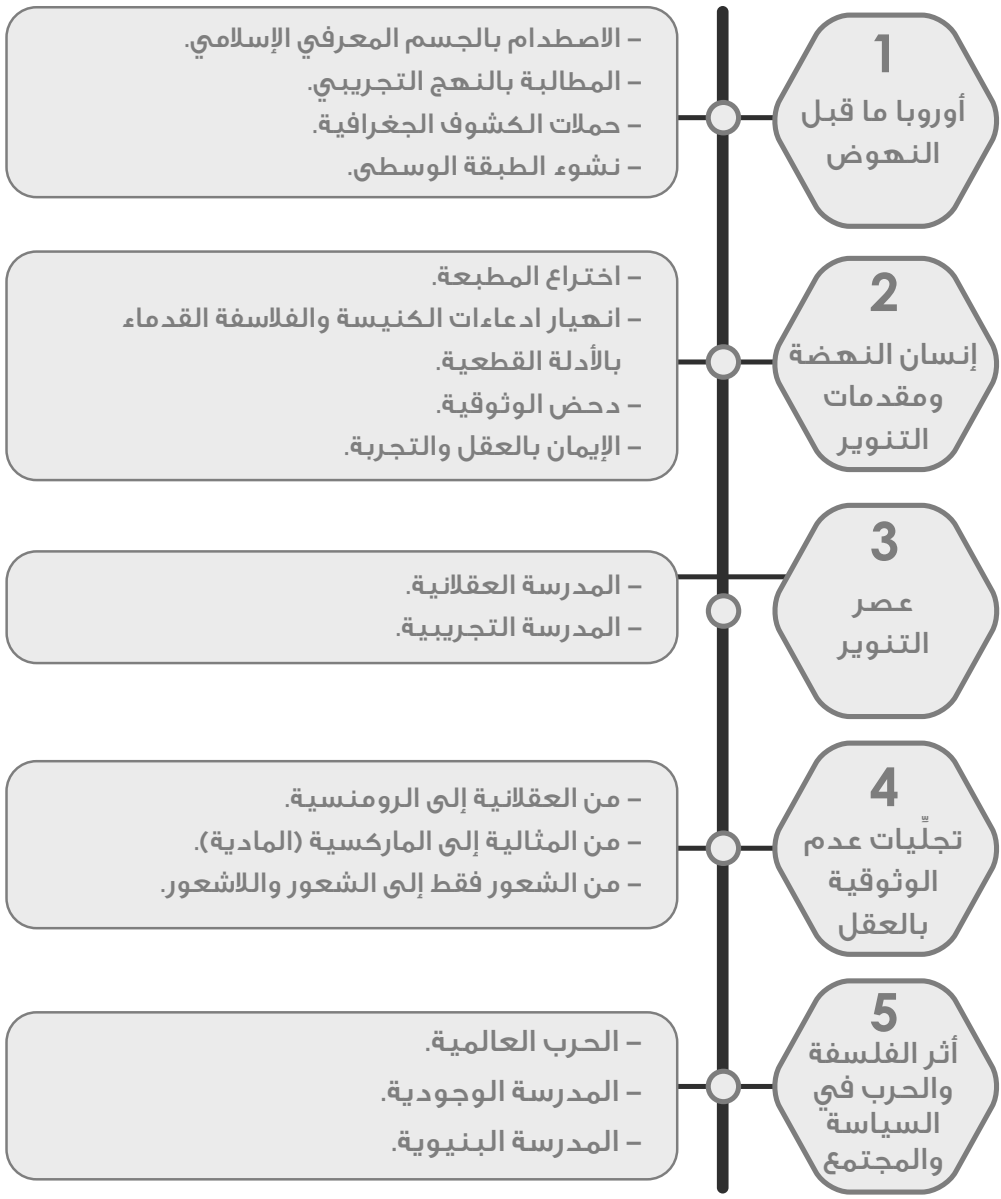
بعد تآكل الحضارة الإسلامية، نشأت الحضارة الأوروبية على أعقابها. وقد قامت على ضلعين فاعلين قويَّين: إعمال العقل، والعناية بالجسد، وغاب ضلع العناية بالروح، فأتت حضارةً ماديةً تسعى للمنفعة بدرجةٍ عاليةٍ جدًّاً، إلا أنها تعتمد العقل والتخطيط العلمي والاكتشاف والاختراع.. وهذا حقَّق لها تفوُّقاً على حضاراتٍ أخرى توقَّف لديها العقل والروح، حتى إن الجسد لم يعد له متعته الحقيقية كبقية الأمم..

وإن الأزمة الحادثة في عمق الحضارة الأوروبية نتيجة إهمالها للروح، لَربما ستسمح بنشوء حضارةٍ جديدةٍ على أعقابها إذا ما تخلَّصت من آفة الضلع المهمل؛ بحيث تعود ثلاثية الروح والعقل والجسم مرَّةً أخرى..

رحلة أوروبا
ومقدمات النهوض



كنَّا قد تكلَّمنا في المبحث السابق عن الحضارة الأوروبية، وكيف أنها قامت على ضلعين فاعلين: (العقل، والجسم)، وأهملت (الروح)، وسنتابع في هذا المبحث مزيداً من التفاصيل الكيفية التي استطاعت بها أوروبا النهوض بعد غيبةٍ طويلةٍ، ولماذا تجنح الأخلاق لديها للقسوة والعنف مع الخارج؟ ولماذا أعملت العقل، واهتمَّت بالجسم لأعلى الدرجات، وأهملت الروح؟



أولاً– أوروبا والتغييرات التي سبقت النهوض

في نهايات القرن الحادي عشر حوالي 1096م، بدأت الحملات الصليبية على المسلمين، ودخلوا البلاد الإسلامية، ولم يخرجوا منها حتى نهايات القرن الثالث عشر 1291م، في هذه الفترة اصطدموا بالجسم المعرفي الإسلامي الذي لم يتوقَّعوا وجوده في العالم الإسلامي آنذاك، ونقلوا هذه الكتب بما فيها من معارف إلى الجامعات الأوروبية التي كانت قد بدأت نشأتها من القرن الثاني عشر، وستخرج شخصيةٌ مهمَّةٌ في القرن الثالث عشر، وهو "روجر بيكون Roger Bacon"، وسيُطالِب بناءً على الاحتكاكَ بهذه المعارف الجديدة باعتماد المنهج التجريبي بدلاً عن المنهج الاستنباطي الأرسطي، وصاحب هذه الشخصية سيواجه هجوماً شرساً في تلك اللحظة التاريخية، وسيُسجن في دير لمدة 27 عاماً، وسيكمل القيام بتجاربه باعتباره عالماً مجنوناً يقوم بتجارب جنونيةٍ وشيءٍ من السحر.

في القرن الرابع عشر بدأت أوروبا تشهد تحوُّلاتٍ ضخمةً جدًّاً؛ حيث بدأت ما يسمَّى: "حملات الكشوف الجغرافية"، وبدأ الأوروبيُّون يحتكُّون بالحضارات الإنسانية الأخرى، فوصلوا إلى شواطئ أمريكا الجنوبية، ونهبوا الثروة التي كانت موجودةً فيها، ووصلوا إلى أمريكا الشمالية، وإلى الهند والصين عبر طريق رأس الرجاء الصالح، ما أدَّى إلى انتعاش الموانئ الأوروبية، ونتج عنه أيضاً حركة نزوحٍ كبيرةٍ من القرى إلى هذه الموانئ النشطة، فنشأت الطبقة الوسطى في أوروبا التي ستصبح الطبقة الرأسمالية فيما بعد، وستطرح نتيجة التغيُّرات "الكشوف الجغرافية" أفكاراً جديدةً في أوروبا (الليبرالية، والديمقراطية، والأفكار الحداثية..)، وأعقب هذه التغييرات نشوءُ النظام الرأسمالي شيئاً فشيئاً، وبدأ النظام الإقطاعي المبنيُّ على الفلاحين يتآكل نتيجة هجرتهم من الأرياف إلى المدن، وهي لحظةٌ تاريخيةٌ جديدةٌ؛ حيث بدأنا نشهد ثلاثة مؤشِّراتٍ هامَّةٍ:



ومع تلك التغييرات ظهر النظام الرأسمالي في إيطاليا "فلورنسا"؛ حيث أسرة (مديشي Medici)، وهي أسرةٌ تجاريةٌ كان لها دورٌ كبيرٌ في الاقتصاد والسياسة طوال الفترة الممتدَّة ما بين القرن الخامس عشر والثامن عشر ميلادي.

ثانياً- النهضة وإنسان النهضة

قادت تحوُّلات أوروبا الضخمة إلى أن بدأت الناس تنبهر بالتراث اليوناني القديم، وبدأت تحوُّلات ما يسمَّى بعصر النهضة أو ما يسمَّى بإنسان النهضة. وإنسان النهضة لم يكن مخترع الآلة ومخترع الأشياء الضخمة فقط، إنسان النهضة مختلفٌ بكيانه الرئيسي؛ حيث ظهرت آنذاك حركة الأنسنة التي تميل إلى قضية التماهي مع النموذج اليوناني في النحت والرسم، فتوقَّفت الرسومات التي تحمل رموز التقديس للشخصيات الدينية، وبدؤوا ينحتون أجساماً حيَّةً مفصَّلةً على الطريقة اليونانية، وإن كتابات "دانتي أليغييري Dante Alighieri" الكوميديا الإلهية على غرار كتاب "رسالة الغفران" لـ"أبي العلاء المعرّي" من أبرز النتاجات الفكرية التي عبَّرت عن تلك التحوُّلات على الصعيد الديني، وبدأت فكرة الإصلاح الديني تشقُّ طريقها إلى أوروبا، وظهر في تلك الآونة قسيس ألماني اسمه: "مارتن لوثر Martin Luther"، زار الفاتيكان، وصُدِمَ بالأبَّهة والملكية الموجودة هناك، البعيدة عن بساطة الديانة الأولى، وحينها قرَّر أن يقود ثورةً ضخمةً جدَّاً ضدَّ الأفكار التأسيسية التي تقوم عليها الكاثوليكية، فنشر رسالته الشهيرة المؤلَّفة من 95 مطلباً، وكان أهمَّ ما فيها ضرورةُ ترجمة الكتاب المقدَّس إلى اللغات المحلية؛ بحيث تذوب الفجوة بينه وبين الناس، وأن يستغني الناس بالكامل عن فكرة الاعتراف الكنسي؛ فتُلغى صكوك الغفران، وتصبح صلتهم مع الخالق صلةً مباشرةً دون الحاجة إلى الكنيسة، كما ضمَّن رسالته بأنه لا بدَّ للقساوسة ورجال الدين أن يُمنحوا فرصةً للزواج كبقية البشر، ونحوها من الإصلاحات.. سُمِّيت هذه الإصلاحات بأفكار المحمديِّين، بدعوى أنهم تأثَّروا بالديانة الإسلامية، وقادوا حملة قمعٍ دعائيةٍ ضخمةٍ عليهم.

إنسان النهضة ينظر إلى نفسه على أنه كيانٌ قائمٌ بذاته، حرٌّ بعقله، يستطيع التفكير بنفسه

وبدأ اتجاهٌ عامٌّ للقراءة والاطلاع في كل المجالات الموجودة، فأصبح عنوان العصر آنذاك: "إنساناً لديه ريشةٌ، ويقرأ، ووراءه مكتبةٌ"، حتى إن سيدات العصر معظمهنَّ لم يكنَّ يقرَأْنَ ولا يكْتُبنَ، فلم يكن قد انتشر التعليم في أوروبا بعدُ؛ حيث كانت نسبته 55% فقط، ومع ذلك فإن معظم سيدات القصور اللاتي لا يقرأن كُنَّ يأتينَ برسَّامين يرسمونهنَّ وهنَّ يُمسكْنَ بالريشة وأمامهنَّ ورقة ووراءهنَّ مكتبة، على أساس أن هذه سمة العصر، فبدأ الافتخار بالإنجاز الذاتي، وبدأت رغبة الإنسان في أن يُظهر ذاته بعد أن كانت الكنيسة تفرض على الناس نظاماً يقوم على فكرة تخلِّي الإنسان عن ذاته وعن ملذَّاته.. فتمرَّد الناس على تلك الأفكار، وتجدَّدت نظرتهم للحياة، وبدأ الاحتفاء بالإنسان وبالتعليم العالي المتعدِّد المواهب الذي يدرس في أكثر من فنٍّ وأكثر من أدبٍ، كما بدأ الناس يفضِّلون الرحلة التي فيها مغامرةٌ وبحثٌ في الحضارات الأخرى، وبدأت الرياضيات تتغيَّر، وبُثَّت الأفكار الجديدة في محاولات البحث العلمي.. فظهرت عوامل العافية، ووُلد ما يسمَّى بإنسان النهضة الذي يختلف عن إنسان العصور الوسطى بأحلامه، وبعلاقته بالعلم وبالكتاب.

ونجد في عام 1440م نقلةً مهمَّةً أيضاً، وهي اختراع "جوهان غونتبرغ Johannes Gutenberg" للمطبعة المتحرِّكة التي بعد اختراعها بخمسين عاماً أصبح عدد الكتب المتداوَل في أوروبا 90 مليون كتابٍ، بعد أن كان عدد الكتب قبل اختراعها 30 ألف كتابٍ مكتوبٍ باليد! فتطوَّر حجم المعرفة بشكلٍ هائلٍ مع فكرة وجود المطبعة، وبدأ الناس يطَّلعون على المعارف الجديدة ويتواصلون معها، كما بدؤوا يطَّلعون على التراث اليوناني الذي كان مغيَّباً عنهم لقرونٍ طويلةٍ.

كان عصر النهضه في أوروبا بين القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر حافلاً بالأحداث التي غيَّرت كيمياء أوروبا؛ من الكيمياء الساكنة التي تنظر من خلال الكتاب المقدَّس ومقولات "أرسطو"، إلى تطلُّعاتٍ أخرى حول تجريب الأشياء ذاتيّاً، والاحتفاء بالموهبة الإنسانية الفردية على اعتبار أنها هي التي ستشكِّل الاختراقات في العصور القادمة

انتشرت الحروب الدينية في أرجاء أوروبا للتحرُّر من سلطة الكنيسة، وكانت حروباً طويلةً وعنيفةً جدًّاً؛ حيث يقال: إن ثلث ألمانيا تمَّت إبادتها في هذه الحروب الدينية التي استمرَّت إلى منتصف القرن السابع عشر 1648م تقريباً؛ حيث عقد صلح "ويستفاليا" الذي وصلوا فيه إلى الاتفاق على أن لكل إنسانٍ دينه ومذهبه ومنهجه.

ثالثاً- عصر التنوير ومقدماته

بدأ يتشكَّل العصر في ثوبٍ جديدٍ، وبدأت تظهر فكرةٌ جديدةٌ عن العالم وعن كيفية مقاربته، وهذه الفكرة ستتبلور فيما يسمَّى: القرن السابع عشر، أو "عصر التنوير".

في عصر التنوير سيصاب كل الموروث اليوناني بضربةٍ قاتلةٍ، وستصاب مع إصابته الحضارة الدينية المسيحية أيضاً، فقد ذكرنا سابقاً أن "أرسطو" و"بطليموس" كانَا قد قالَا بمركزية الأرض للكون، وتبنَّت الكنيسة هذه التفسيرات على اعتبار أنها تمثِّل الحقيقة المعرفية، فتطابق العلم اليوناني مع الكتاب المقدَّس، وأصبح هو التفسير لما في الكتاب المقدَّس، ولكن ماذا لو أثبت العلم الطبيعي أن كلام "أرسطو" وكلام الكنيسة خاطئٌ بالدليل والبرهان القاطع الذي لا يمكن نقضه بأيِّ شكلٍ من الأشكال؟! وماذا لو ثبت أن الاستقراء الذي هو بحث الظواهر كما هي في الواقع يعطينا نتائج أفضل من الاستنباط الأرسطي ومقولات الكنيسة؟! وقد حصل ذلك فعلاً؛ حيث ستظهر في العلم شخصيتان؛ الأولى: "يوهانس كيبلر Johannes Kepler"، ومن بعده "نيكولاس كوبرنيكوس Nicolaus Copernicus"، سيقولان بالحسابات: إن الشمس هي المركز، وإن الأرض تدور حول الشمس. وسيأتي "غاليليو غاليلي Galileo Galilei" بالمنظار ويقول لهم: إن فينوس (كوكب الزهرة) لا يدور حول الأرض، إنما يدور حول الشمس، فالأجسام الأصغر تدور حول الجسم الكبير الذي هو الشمس..

عندما وصلت أوروبا إلى هذا المنحنى، قامت ولم تقعد، طلبوا من "غاليليو" أن يتوقَّف عن هذا الكلام، وأُمِر بأن يسجن في بيته؛ فالعصور القديمة لم تكن لتستسلم بسهولةٍ على الرغم من سهولة ذهاب شخصٍ ما لينظر في المنظار الذي نظر فيه جاليليو، ويتأكَّد أن كلامه صحيحٌ، فعلى الرغم من سلطة النظر المباشر ووجود العلوم الأخرى (الرياضيات والحسابات

الفلكية..) التي تؤكِّد ذلك، إلا أنه لم يكن للسلطة القديمة أن تقبل بحقائق العلم والمعرفة، وهذا الجزء من إشكاليات العصور الوسطى؛ حيث العلم والمعرفة المباشرة لا تشكِّل شيئاً في مقابل المستقرَّات الموجودة في الأذهان، فالأمة التي لديها برادايم معيَّنٌ، لا تستسلم بسهولةٍ حتى ولو جاءتها الدلالات القطعية! إلا أنه في حركة التاريخ لا يمكن وقف التقدُّم العلمي والحقائق من أن تفعل فعلها في الواقع، طال الزمن أم قصر، فانهارت أكبر السلطات موثوقيةً في أوروبا المتمثلة بالكنيسة، وانهارت معها مقولات "أرسطو" و"بطليموس".

تشكَّل بعد هذا الانهيار فراغٌ معرفيٌّ كبيرٌ يُبحَث عمَّا يملؤه، وهنا تقوم سلطة الكتابات التأسيسية الكبرى التي تبحث عن افتتاحية عصرٍ جديدٍ، والعصر الجديد يبحث عن منهجٍ ورؤيةٍ وتصوُّرٍ حتى يبدأ بدايةً جديدةً، فالتغيُّر الذي يحدث في العصور الجديدة هو تغيُّرٌ جذريٌّ من برادايم إلى برادايم آخر؛ أي: من كتلة تصوُّراتٍ إلى كتلة تصوُّراتٍ أخرى؛ فمن نظرة القداسة تلك التي كان الإنسان الأوروبي يحملها لـ"بطليموس" و"أرسطو" وللمعارف التي قدَّمتها الكنيسة.. إلى تطلُّعٍ جديدٍ تماماً يفتتح به عالمه..

سيخرج في تلك اللحظة التاريخية شخصيةٌ كبيرةٌ جدًّاً، وهي للعالم "رينيه ديكارت René Descartes"، وهو مؤلِّف الإحداثيات الديكارتية في الرياضيات التي درسناها في المرحلة الثانوية (س- ص، أو x- y). وسيضع كتاباً صغيراً تعقيباً على الأحداث اسمه "التأمُّلات" سنة 1641م، وكان ممَّا أورده في هذا الكتاب: أننا كنَّا مغشوشين بالعقل الإنساني وبالمعارف السابقة لمدة ألف سنةٍ! فما الذي سيضمن لنا الألف سنةٍ القادمة بأن لا نكون أيضاً مغشوشين بطريقةٍ أخرى؟! فتساءل في كتابه: من أين سنبدأ التأسيس المعرفيَّ على أرضيةٍ أكثر صلابةً وأكثر قدرةً على تأميننا من مثل هذه النكسات الكبرى والوثوقية التي كنَّا نتمتَّع بها؟.. فالوثوقية التي كانت في تلك المنظومة القديمة أدَّت إلى خسارة ألف سنةٍ من عمر البشرية، ولم تعد البشرية -على الأقل في المنظور الأوروبي- مستعدَّةً لخسارة ألف سنةٍ ثانيةٍ مع منظومةٍ أخرى بفعل الانغلاق المعرفي والانحباس.

أنشأ "ديكارت" ما يسمَّى بـ: "الشكِّ الجذري"، والشك الجذري لدى "ديكارت" ليس شكًّاً عدميًّاً لا ينبني عليه شيءٌ، أو نكوصيًّاً يرتدُّ على المعرفة بالنقض أو الهروب..، والجدير بالذكر هنا أن الشكَّ الجذري حدث في التاريخ الإسلامي مرَّتين؛ إحداهما: مشهورةٌ جدًّاً

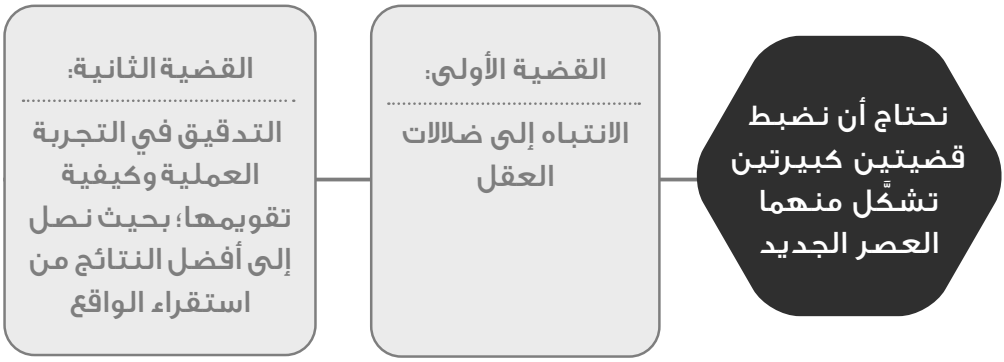
عن "الغزالي" عندما حاكَمَ كلَّ أفكاره مرَّة أخرى، إلا أن شكَّ "الغزالي" لم يكن شكَّاً بنائيًّاً، بمعنى أنه لم يصل إلى منطقةٍ يقول فيها: إننا سننتقل إلى نظامٍ معرفيٍّ جديدٍ؛ بل رأى أنه يتوجب علينا العودة إلى منظومةٍ قديمةٍ، فعاد إلى منظومة التصوُّف بنظامٍ قديمٍ معروفٍ، وهو النظام العرفاني الذي كان موجوداً في عصره آنذاك. والمرة الثانية للشكِّ الجذري حدثت مع "الفخر الرازي"؛ حيث إنه مرَّ بذات التجربة، ولكنه لم يتقدَّم فيها.. فانتهى إلى أن يقول: لو أن عندي إيمانَ عجائز نيسابور، لَكان خيراً لي! فكانت عمليات الشكِّ في التاريخ الإسلامي عمليات انهيارٍ نفسيةً، ولم تؤدِّ إلى انفتاحاتٍ كبرى على عصورٍ جديدةٍ. أما "ديكارت" فقد تمكَّن من خلال الشكِّ الجذري من الوصول إلى منطقةٍ يمكن أن يبدأ منها لتأسيس عالمٍ جديدٍ، فـ"ديكارت" ظلَّ في تساؤلاته يردِّد "العقل يخدعني، والحواس تخدعني".. فكان الشيء الوحيد المتأكِّد منه ابتداءً أنه في حالة شكٍّ، واشتهر بمقولة: "أنا أشكُّ.. فإذا كنت أشكُّ؛ يعني: أنا أفكِّر، وما دمت أفكِّر، إذاً أنا موجودٌ"، وباقي المنظومة التي سيبنيها ليست ذات أهميةٍ؛ لكونه لم يثبِت بعدُ أن العالم الذي يتكلم عنه موجودٌ، فلو أثبت أنه موجودٌ، أو أن هنالك ذاتاً ما موجودة؛ وهي التي فكرت لبدء البناء من منطقة ثباتٍ يبدأ بها العصر الجديد..

وصل "ديكارت" إلى فكرة بأنه يوجد داخل العقل منطقة ارتكازٍ يمكن البناء عليها، وهي العقل، وسيصبح مذهبه العقلاني أحد معالم العصر الجديد، وسيصبح السؤال: "كيف يمكن للعقل البشري أن يقوم بوظائفه بأفضل صورةٍ من الصور؟"، وهو ما سُمِّيَ: الـ(rationalist)، أي: المدرسة العقلانية، والتي تدَّعي أن أساس المعرفة العقل المنطقي الرياضي، وأن العالَمَ يمكن له أن يتحاكم إلى الرياضيات؛ لكونه بناءً صلباً يبدأ من نقطةٍ ما ويبني عليها إلى بناءٍ آخر، وأصبحت فكرة المُساءلة العقلية تمسُّ جذور أيِّ فكرةٍ، وذلك لتأمين عدم ضياع ألف سنةٍ أخرى من الوثوقية.

أصبحت الوثوقية مكاناً للخوف داخل العصور الحديثة بعد أن كانت مطلباً تاريخيّاً، فبات النظام المعرفي لا ينغلق عن الأسئلة الجديدة، بل يظلُّ مفتوحاً عليها حتى لا يتمَّ الغرق في متاهات الجهل والظلام ألف سنةٍ أخرى، وهذا التصوُّر سيحكم العصور الحديثة بشكل كبير

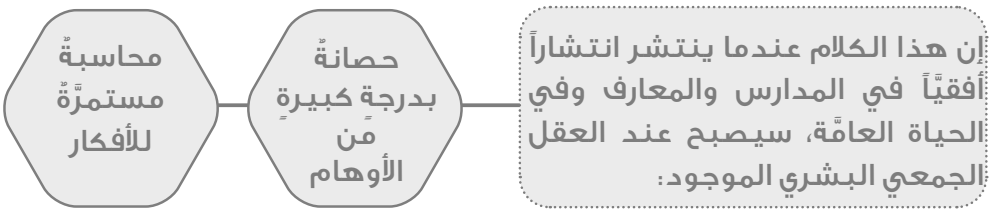
ومن ثم ستأتي الأفكار بنقائضها، فبعد أن اعتبر "ديكارت" أن المعرفة

الحقيقية -أو بعضها على الأقل- هي المعرفة الناشئة عن التركيب العقلي، أي: البناء العقلي الصرف؛ لأن التجارب والحواس يمكن لها أن تخدع.. سيأتي شخصٌ اسمه "فرانسيس بيكون Francis Bacon"، ويكتب في سنة 1620م كتاباً اسمه: "Novum Organum"، ويعني المنهج الحديث، وسيبني فيه نظاماً لكيفية ممارسة العلم التجريبي، وسيعتبر أن هذا النظام هو الطريق للمستقبل، وسيسمِّيه: "Scientific method"، وستسمَّى مدرسته: (Empiricism) المدرسة التجريبية، وفيها أن الحواس هي أساس المعرفة، وعنوانها الكبير هو التجربة العملية!



ستصبح في هذه الفترة سلطة التجربة سلطةً كبيرةً جدًّا، وستصبح إحدى وظائف الإنسان التدقيق بالتجربة، والتدقيق بالعمل العقلي الذي يقوم به، واستشفاف مدى الانحياز به من خلال البحث باستمرارٍ عمَّا يضمن عدم وجود خللٍ في البناء الفكري التتابعي، أو بالمنهج التجريبي الذي يقوم به، فكل تجربةٍ ستقوم، سيحاول أن يتأكَّد منها بتجارب أخرى، وإذا تواجدت عيِّناتٌ صغيرةٌ، سيحاول أن يبحث عن عيِّناتٍ أكبر، كما سيعيد النظر في المصادر المشكوك فيها..

وهنالك أيضاً مسألةٌ دقيقةٌ جدًّا، وهي أن التجربة نفسها تحتاج إلى إعاده تأكيدٍ ونظامِ تثبُّتٍ من أنها تمَّت بطريقةٍ صحيحةٍ.. وهذا سيشكِّل العقلية العلمية الموجودة في العصر الجديد.



هذه القضية المتمثِّلة بالتجربة، والعقل، ومحدودية الإنسان، ستصبح هي عنوان العصور الحديثة، والمقصود هنا بمحدودية المعرفة ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾؛ أي: ستصبح المعرفة شيئاً ليس بمُنتهٍ، ولا بشيءٍ نغلق عليه الباب ونقول: قد علمنا؛ بل هي شيءٌ مفتوحٌ يزداد مع كل تجربةٍ من التجارب، ومع كل سؤالٍ من الأسئلة.

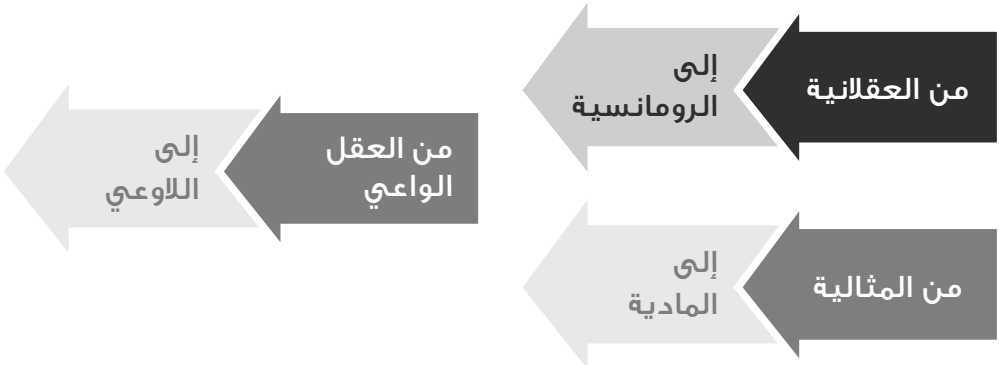
وقد مهَّدت تلك الاكتشافات والتحوُّلات إلى قيام الثورة الفرنسية، والثورة الصناعية، وزيادة القوة العسكرية، والتقدُّم العلمي، ووفرة الإنتاج.

وسنشاهد في مرحلةٍ متقدمةٍ كيف أن منهج المعرفة بذاته سيصبح موضوعاً للبحث، فنكون قد انتقلنا من قضية محاسبة الوقائع إلى محاسبة المنهج ذاته، فكل مسلَّمات المنهج يعاد النظر فيها مرَّةً بعد أخرى للتدقيق، حتى لا تدخل البشرية في طورٍ من الوثوقية قد يؤدي إلى انغلاقها وانحباسها في عصرٍ من العصور.

إن حضارةً ما حينما تصل إلى مرحلةٍ معيَّنةٍ من النضج، سيصبح المنهج عندها موضوعاً للبحث، فيكون هو في ذاته غير محصَّنٍ من الأسئلة والمراجعات

رابعاً- تجلِّيات عدم الوثوقية بالعقل

إن فكرة "عدم الوثوقية" والشكِّ قد فتحت آفاقاً جديدةً للنظر في الأمور من زوايا أخرى، فكان لا بدَّ أن تخلق حقيقة الوثوقية في العقل نقائضها في الحياه الأوروبية، بأن يبحث الناس في فضاءاتٍ جديدةٍ.



فالنزعة العقلانية الشديدة جدًّاً، ستقابلها النزعة الرومانسية، والنزعة المثالية التي يتمتَّع بها عالم الأفكار ستقابلها النزعة المادية، وفكرة العقل الواعي سيقابلها العقل اللاواعي (اللاشعوري)، ونحتاج في مقام الطرح لدينا أن نرصد هذه الظواهر في الحياة الأوروبية؛ لكونها ستشكِّل مساحةً جديدةً في العالم بعد ذلك..

- من العقلانية إلى الرومانسية:

وقفت الرومانسية في وجه العقلانية والتنميط.. وقد وُلد اتجاه الرومانسية والاعتراف بالمشاعر حوالي 1800-1850م، وهي حركةٌ أدبيةٌ فنيةٌ واسعةٌ، كانت أهمُّ خصائصها: الاحتفاء بالطبيعة -الاعتراف بالانفعالات-، الاحتفاء بالخيال والفنِّ -الاحتفاء بالفنون البدائية-، الاحتفاء بالروحانيَّات والماورائيَّات؛ فنظرةٌ واحدةٌ إلى أعمال الفنَّان "فرانسيس جويا" ولوحاته المليئة بالكوابيس، تعرِّفنا بطبيعة المرحلة التي تعتمد على محاكاة مخاوف الإنسان، واضطرابات الطبيعة، وعالم الجنِّ والعفاريت، وكيف صوَّر الرسم والقصة والمسرح تلك الهواجس في لحظةٍ تاريخيةٍ معيَّنةٍ.

- من المثالية إلى الماركسية (المادية):

سنجد في الفلسفة المثالية القديمة، وفي الفلسفة الألمانية، فكرة عالَم المُثُل وعالَم الأشباح لدى "أفلاطون" التي تكلَّمنا عنها سابقاً، وأيضاً سنجد أن "هيجل" قد تكلَّم عن العقل بأنه هو الواقع المحض، وبأنه روح العالم؛ فالعالم كله تسكنه روحٌ هي في ذاتها عقلٌ، وتقوم بتحريك العالم في اتجاه الكمال وتحرير الإنسان، وأيضاً "كَانْت"، كان يرى أن هنالك عالماً محسوساً بظواهره، ويختفي أسفل منه العالمُ الآخر الذي لا نراه؛ فالشيء في ذاته هو غير الشيء في ذواتنا؛ فالشيء في ذاته لا يمكننا أن نطَّلع عليه.. فكان لا بدَّ لجميع الأفكار المطروحة آنفاً في الفلسفة المثالية أن تجد ما يقابلها.. فسيخرج "كارل ماركس Karl Marx" -بنقيض المدرسة المثالية- ليقول: إن الإنسان في صراعٍ على الأرض، وعلى الموارد، وعلى وسائل الإنتاج.. ولولا هذا الصراع على العالم المادي، ما تقدَّمت البشرية خطوةً.. فقديماً كان الإنسان حرَّاً سارحاً في البرية يعيش في مشاعٍ، فكلُّ ما يحتاجه مشاعٌ؛ يشرب الماء، ويأكل الفواكه، ويصطاد الحيوانات، ويلبس.. فيعيش الإنسان على قدر احتياجاته، ولا يسيطر على البريّة

أحدٌ، إلى أن جاء من فكَّر أن يسيطر على قطعة الأرض ويحتكرها له ولأبنائه، وبالتالي اختار من الموارد أفضلها، وسيطر على هذه الموارد، ومن ثم احتاج إلي أيدٍ عاملةٍ لتشغيل هذه الموارد.. فبدأ عصر العبودية باستعباد الناس وتسخيرهم للعمل، وأيضاً كانت المرأة في السابق حرَّةً، فأراد أن يسيطر عليها، فعقد معها عقد زواجٍ من أجل تسخير أبنائها للعمل والخدمة..

فالعالم لدى "ماركس" بدأ يتشكَّل حول ملكية وسائل الإنتاج وإدارتها.. فالمالك لوسيلة الإنتاج سيشكِّل العالم الذي حوَّله من العبيد والعمَّال الذين يعملون من أجله، ومن ثم فإن كل الثروة ستعود إليه، وهؤلاء لن ينالهم إلا اللظى من الحياة، ومن هنا يأتي العصر التالي، وهو العصر الذي تحرَّرت فيه الناس من العبودية المباشرة، إلا أنهم أصبحوا عبيداً للأرض في النظام الإقطاعي؛ فالفلاحون كلهم يشتغلون على الأرض لصالح النبيل، والنبيل يعطي جزءاً من الأرباح للملك؛ بحيث إنهم يسيطرون مع الكنيسة على الناس، ويأخذون منهم زهرة حياتهم في مقابل لا شيء. ومن ثم اتّبع النظام الإقطاعي النظام الرأسمالي؛ فأصبح صاحب المصنع هو الذي يُسخِّر العمَّال والشباب القادمين من فلاحة الأراضي للعمل لديه بأجورٍ زهيدةٍ، ويتحكَّم بحياتهم، رغم أن الفئة العاملة أو المستغَلَّة تشكِّل ملايين الناس، والفئة الحاكمة لا تشكِّل إلا خمسة أو عشرة أشخاصٍ في المجتمع! وقد قبلت جموع ملايين الناس أن ترضخ لسلطة ثلَّةٍ قليلةٍ جدًّاً؛ لكونهم يمتلكون وسائل الإنتاج، ويمتلكون تشكيل التعليم، وتشكيل القانون، والجيش والشرطة.. فهم مالكون لجميع القوى المحرِّكة التي من خلالها وبمساعدة رجال الدين يستطيعون تزييف وعي العمَّال؛ حيث يقدِّم رجال الدين أفيوناً للناس مفادُه ترك الدنيا والمتاع في سبيل الآخرة.. فتتظافر هاتان السلطتان المعرفيَّتان في المجتمع على تطويع الملايين من الناس.. وهكذا فسَّر "ماركس" العالم تفسيراً ماديًّاً؛ فجعل الأساس في المجتمع الصراع بين هذه الطبقات للعودة إلى نقطة البداية (المشاع) التي لا يمتلك أحدٌ من الناس فيها شيئاً، وكل الناس سواسيةٌ فيما بينهم، فظهرت الفلسفة الماركسية وفق هذا المبدأ، وشكَّلت العصور الحديثة بشكلٍ كبيرٍ جدًّاً؛ فاليوم لا يستطع داخلٌ أن يدخلَ إلى العلوم الإنسانية إلا وهو على معرفةٍ بالفلسفة الماركسية وجذورها وأبعادها وحواراتها التي أدارتْهَا..

- من الشعور فقط إلى الشعور واللاشعور:

إن المسائل والقضايا لم تتوقَّف هنا؛ فالنقاش أو التفكير عند الفلاسفة والعلماء لم يتوقَّف عند العالَم المثالي، أو عالَمَي الفكرة والمادة، فسيظهر عالِمٌ اسمه: "سيجموند فرويد Sigmund Freud" سيفرِّق بين عالَمَي الشعور واللاشعور، وسيستنكر الافتراض السائد بأن الذي يحرِّك الإنسان هو العالَم الواعي (الشعور)، فرأى "فرويد" أن الأشياء الدفينة في عقلية الإنسان هي التي تحكمه، فتصوَّر طبيعة الإنسان النفسية على شكل مستوياتٍ كالبصلة تماماً؛ نواتها الأساسية باقيةٌ في قلبها، وتنمو حولها طبقاتٌ جديدةٌ، وكذلك الإنسان تبقى جميع مراحله موجودةً داخله، وتتحكَّم به على الرغم من تنوُّع المراحل العمرية والشخصيات التي تنمو فوقها، فالإنسان باقٍ في داخله مرحلة الجنين الذي لا زال يريد السباحة في الماء، ولا زال يبحث عن الثدي وعن الحضن والحنان، وأيضاً المرحلة الثانية التي فيها فُطِم عن الرضاعة، ويتحرك للتعرُّف على بيئته، وفوق هذه المرحلة مرحلة المراهقة التي يبحث فيها عن شخصيَّته، وفوقها الإنسان العاقل الذي يحاول التحكُّم في بيئته، وفوقها الإنسان الكبير في السنِّ الذي أصبح متحكِّماً أكثر في بيئته.. فكلُّ هذه الشخصيات موجودةٌ في ذات الإنسان، وفي أيِّ لحظة ضعفٍ قد تنكشف المستويات الأدنى من تصرُّفاته؛ فقد يكون عمره 60 عاماً، وفي لحظة ضعفٍ معيَّنةٍ يتصرَّف كالمراهقين؛ وما ذلك إلا لكون شخصية المراهق ما زالت حاضرةً في حياته، فيفقد التحكُّم، ويصرخ ويضرب ويدخل في مشاكل؛ نتيجة أن القشرة التي تحيط به وتضبطه قد لانَت..

إذاً؛ فالإنسان لدى "فرويد" مستوياتٌ عدَّةٌ:

المستوى الأول

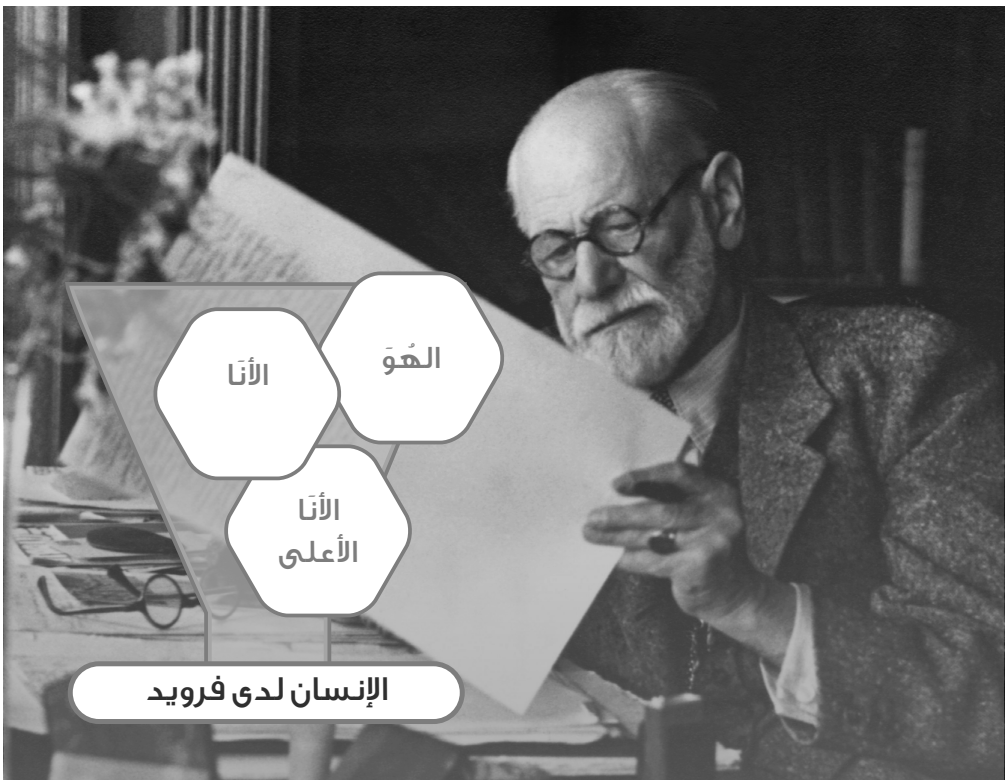
هو المستوى البدائي من الإنسان، الذي يسمِّيه "فرويد": «الهُوَ – id»، وتحكمه الغرائز فقط، وهو على علاقةٍ وثيقةٍ باللاوعي (اللاشعور).

المستوى الثاني

وهو مستوى العقل المنضبط بالإنسان «الأنا – Ego»، يحتكُّ بالواقع الخارجي، ويضبط الصراع بين بدائية الإنسان «المستوى الأول»، والمثالية بـ«المستوى الثالث»، وهو أكثر المستويات اعتدالاً ووعياً.

المستوى الثالث

وهو المستوى الذي ينزع إلى المثالية «الأنا الأعلى – The Super Ego»، وهو بمثابة معايير خُلُقِيَّةٍ داخل الإنسان (الضمير).



أصبح الإنسان يُفَسَّر بهذه الظاهرة التي أوجدها "فرويد"، وأصبح عالم اللاشعور عالماً كبيراً جدًّا، وأنشأ كتاب تفسير الأحلام الذي يقوم على مبدأ اللاوعي، كما تكوَّنت فكرة تسمَّى بـ: "فتح اللاوعي"، أو "التنويم المغناطيسي"، كما نشأ "التحليل الكلاسيكي"؛ بأن يبحث في ذكريات المريض -من خلال تنويمه- عن العقدة الموجودة لديه؛ التي إن حُلَّت، قد تُحَلُّ معها مشاكل الإنسان النفسية.. وكذلك ظهرت أمورٌ أخرى جميعها تبحث عن إجاباتٍ للجوانب التي أُهمِلَت نتيجة العقلانية وقوة العقلانية آنذاك. وهكذا وصولاً إلى القرن العشرين.

خامساً- أثر الفلسفة والحرب في السياسة والمجتمع

إن الفلسفة تقوم على الدوام بمطاردةٍ مستمرَّةٍ لإشكاليَّات الإنسان مع زمانه ومنتجات عصره، من خلال رحلاتٍ عنوانها الأساسي هو الشكُّ وإزالة الوثوقية عن الأشياء

في القرن العشرين، وبعد الوثوقية الضخمة بالمنهج العلمي وبالعقل وبالتدبير السياسي.. قامت الحربان العالميَّتان الأولى والثانية، وكانت تكلفتهما أكثر من 70 مليون ضحيةٍ! وفي فترةٍ زمنيةٍ قصيرةٍ جدًّاً؛ فالحرب العالمية الأولى استمرَّت من 1914-1918م وكانت حصيلتها 10 ملايين ماتوا في الخنادق، ثم لم يمضِ كثيرٌ من الزمن حتى جاءت الحرب العالمية الثانية سنة 1939م، وكانت تكلفتها 60 مليون قتيلٍ، فأين ذهب العقل والعلم والمعرفة والمنطق!؟

إن هذا الدمار المهول ولَّد ردود أفعالٍ ضخمة جدًّاً داخل الحضارة الأوروبية لمساءلة جذور الفكر مرَّةً أخرى، وكان من نتاج ردود الأفعال ما يسمَّى بـ: التيار الوجودي (Existentialism)، وإن هذا التيار قد وجد صداه قديماً، أي: منذ سنة 1855م مع فيلسوفٍ مؤمنٍ بوجود الإله، اسمه: "سرن كيركيجاراد Seren Kierkegaard"، وقلب الفلسفة الوجودية هو الإحساس بالقلق من الحياة، ومن معنى وجود الإنسان فيها، وجدوى وجوده؛ فالحديث يدور حول (سخف الإنسان- قلق الإنسان- غربة الإنسان- غياب المعنى- صراع الرغبات والاحتياجات والمشاعر)، إلا أن هذا التيار وجد صداه الأكبر والأوسع من بعد الحربين العالميَّتين الأولى والثانية، فلنا أن نتخيَّل حالة الإنسان الأوروبي الذي شهد موت 60 مليون شابٍّ وفتاةٍ في القارة خلال 6 سنواتٍ، فلا توجد منطقةٌ في أوروبا ليست مبتلاةً، فـ 60 مليوناً ليس بالرقم البسيط، وهذا عدد القتلى فقط، ناهيك عن الجرحى والدمار الذي حلَّ بالمدن، والأزمات الاقتصادية والمجاعات، فالصدمة النفسية العنيفة جعلت ردَّة الفعل ضخمةً جدًّاً، وأحيَت ما يسمَّى بالتيار الوجودي الذي سعى لتثبيت العقل على اعتبار أن الإله لم يستطع حلَّ المشكلات، وأن على الإنسان أن يجد حلولاً بغيابه، وأصبح الوجود بحسب أواخر المدرسة ليس له إلهٌ، وبالتالي على الإنسان

أن يصنع مفهوماً للوجود يعيش به، وهذا المفهوم هو مفهومٌ أخلاقيٌّ، يختاره بحريةٍ، ويعيش به حياته؛ فالإنسان سيعيش طول حياته في القلق، والخوف من المرض، والفقر، وفقد الأحبة، والكبر في السنِّ، وستحيط به المصائب.. فما المبرِّر من انتظار ذلك كله؟! فلا بدَّ للإنسان أن يصنع معنىً للحياة؛ لكون المعنى لها مفقوداً! وتوصَّل "سارتر" إلى المبدأ الأساس للمدرسة الوجودية بأن "الإنسان يصنع وجوده بنفسه"؛ ففكرة الإله كانت تخلق معنىً للحياة، أما الآن، فبات المعنى مفقوداً، وبرزت هنا عدَّة قضايا ليصنع الإنسان بها معنىً لوجوده، فنرى البعض يتبنَّى معنى وجوده بخدمة الفقراء، والبعض يتبنَّى تعليم الناس، والبعض اتجه لمناطق الناس المحرومين في المجتمعات، والبعض يداوي المرضى.. فالمبدأ بالمدرسة الوجودية أن يصنع الإنسان لنفسه معنىً يعيش من أجله، ويتحمَّل آلام الحياة في سبيله ومن خلاله..

ونشطت المدرسة الوجودية واتَّسع صداها؛ حيث إن آثارها لم تقتصر على الكتابة الفلسفية؛ بل امتدَّت للأعمال الفنية والأدبية وغيرها، وهنالك مسرحيةٌ كتبها "Jean paul sarter جان بول سارتر" بعنوان: (No Exit)، أي: ليس هنالك مخرجٌ، وهي تدلُّ على النزعة اليائسة الموجودة في المدرسة الوجودية، وداخل هذه المسرحية أناسٌ مؤمنون يعتقدون وجود الجنة والنار، يموتون ويدخلون إلى غرفةٍ، وفي هذه الغرفة يوجد بابٌ، وهذا الباب يُفترض أنه سيُدخلهم إلى جهنم لكونهم جميعاً مرتكبي آثامٍ في الحياة، وفي أثناء الجلوس سيبدأ بينهم حوارٌ تلاوميٌّ، فسيحاول كل شخصٍ أن يؤنِّب الثاني بما فعله، ولماذا فعله، وكيف فعله.. وعلى الآخر أن يبرِّر لماذا فعل وكيف فعل.. وهم ينتظرون أن يفتح الباب حتى يذهبوا إلى مصائرهم، ويحتدَّ الصراع بينهم في هذه الغرفة بشكلٍ كبيرٍ جدَّاً، ومن ثم يُفتح الباب فلا يجدون جهنم ولا أيَّ شيءٍ آخر! وستأتي عبارةٌ هنا ستصبح عنواناً للعصر، وهي: "أن الجحيم هو وجود الإنسان مع الآخرين"؛ فالإنسان طوال حياته يلبس أقنعةً متنوِّعةً ليرضي الآخرين، فالألم الحقيقي ليس هو النار؛ بل يكمن في محاولة الإنسان أن يرضي كلَّ مَن حوله..

وكان لـ"سارتر" موقفٌ من النصِّ المكتوب؛ فالنصُّ لديه يجب أن يكون لغرضٍ محدَّدٍ وهدفٍ محدَّدٍ، وعلى الكاتب أن يكون ملتزماً ودقيقاً في الوصول إلى هدفه.

أما المدرسة البنيوية، فقد كان لها رأيٌ، فبعد أن كان النقد الأدبي الأوروربي القديم يرى أن النصَّ حاملٌ للمعنى، وأن الكاتب عنده رسالةٌ، ووظيفة القارئ معرفة الرسالة من خلال الاطِّلاع على بيئة الكاتب وظرفه.. رأت البنيوية أن النصَّ مكتفٍ بذاته، فيكفي فيه الكشف عن القاعدة والهيكل، وهو الذي سيكشف لنا عن حياة الكاتب وبيئته، وليس العكس.

الفلسفة وأثرها
تجلّيات الخوف من الوثوقية

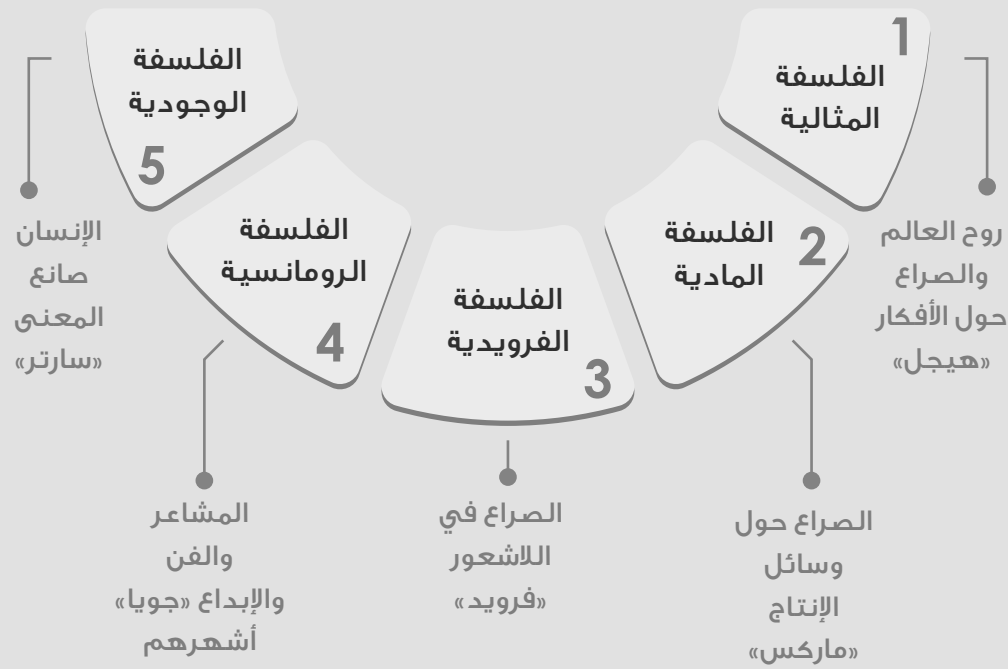


كما كنَّا قد أسلفنا سابقاً.. قادت الاكتشافات الكبرى التي حملت نسفاً جذريَّاً للتصوُّرات السائدة (تصوُّرات "أرسطو" والكنيسة..) إلى ردَّة فعلٍ عنيفةٍ وخوفٍ من الوثوقية، فأصاب أوروبا قلقٌ معرفيٌّ جعلها لا تثق بأيِّ معلومةٍ تأتيها..

تولَّدت فكرة الاستمرار في عملية نقاش الأفكار لضمان عدم تجدُّد الغيبوبة لمدةٍ طويلةٍ؛ بحيث لا تبقى فكرةٌ إلى أبد الآبدين مقدَّسةٌ كالأصنام؛ بل تُحوَّل إلى موضوعٍ بحثيٍّ مستمرٍّ.

ظلَّ الأوربيون كمن يقلِّب العملة على أحد وجهيها إلى يومنا هذا. يذهبون بأفكارٍ، ويجيئون بأفكارٍ أخرى، وأن هذا التقليب لم يُحدث خللاً في عملية استمرار التقدُّم؛ بل اعتبرت فكرة عدم تحصين الأفكار والترحيب بالجديد المبدع هو الضمان الحقيقي للتقدُّم.

وسنقوم بعرضٍ مقتضبٍ لتلك الوجوه المتعاكسة، يتخلَّله بعض ما كنَّا قد مهَّدنا له أو تحدَّثنا فيه في المحاضرة السابقة.



الفلسفة المثالية

كنَّا تحدَّثنا عن مرحلة ما بعد الثورة الفرنسية؛ حيث إن "هيجل" مع مجموعةٍ من الفلاسفة الألمان طرحوا أفكاراً لُقِّبوا على إثرها بالمثاليِّين، ولا نعني بالمثاليِّين هنا المعنى المتداول من كونهم أصحاب قيمٍ عليا ومبادئ ساميةٍ. المقصود بالمثالية اتجاهٌ يصوِّر العالم بأن له فضاءَين؛ فضاءً فكريَّاً وفضاءً ماديَّاً. والفضاء الفكري مستقلٌّ عن الفضاء المادي، وله قدسيةٌ خاصَّةٌ.. فاعتبر "هيجل" أن العالم الفكري هو روح العالم الذي يتَّجه لتحقيق كمالات العالم، والعالم المادي يتبع له.. وهذا كحركة التاريخ، فرغم أنها حركةٌ ماديةٌ، إلا أنها تتقدَّم باستمرارٍ نحو اتجاهٍ واحدٍ وهو تحرير الإنسان. وإن فكر "أفلاطون" في عالَمي المثل والظلال يجسِّد الفلسفة المثالية القديمة.

اعتبر "هيجل" أن العقل هو الواقع المحض وروح العالم؛ فالروح التي تسكن العالم هي في ذاتها عقلٌ، وتقوم بتحريك العالم في اتجاه الكمال وتحرير الإنسان. وأن صراع العالم وتقدُّمه ناتجٌ عن صراع الأفكار، فيرى أن العالم قام على وجود الفكرة ونقيضها، بمعنى أنه إذا وُلدت فكرةٌ، فإن عقل الإنسان مباشرةً سينتج فكرةً نقيضةً عنها، ومن ثم سيتشكَّل صراعٌ بين الفكرتين تاريخيَّاً، ثم سينتج حلَّاً وسطاً، والحل الوسط سيتخلَّله أيضاً النقص، وبالتالي ستنتج فكرةٌ نقيضةٌ له، وتنتج فكرةٌ ثالثةٌ، وهكذا.. ليتطوَّر العالم كله عبر جدل الأفكار.

الفلسفة المادية

كان لا بدَّ للأفكار المطروحة في الفلسفة المثالية أن تجد ما يقابلها.. فمقابل الطرح المثالي، سيأتي "كارل ماركس Karl Marx" ويرمي العملة مرَّةً أخرى ليخرج بنقيض المدرسة المثالية، فيقول: إن "هيجل" يقف على رأسه، وأنا أريد أن أوقفه على رجليه؛ وذلك لأن "هيجل" كان يعتقد أن العالم يتحرك من خلال العقل، في حين كان "ماركس" يرى أن الإنسان واقفٌ على الأرض ويتحرك على رجليه؛ فالذي يشكِّل حركة الإنسان ويؤثِّر في توازنه هو وقوفه على الأرض، أما عمل العقل، فهو ضبط موازنة الإنسان حينما يتحرك.. فيرى "ماركس" أن العالم لم يتقدَّم نتيجة جدل الأفكار؛ بل الإنسان في صراعٍ على الأرض (في الواقع الحي) حول

الموارد ووسائل الإنتاج.. فمن امتلك الأرض سيطر على الفلاحين، ومن امتلك المصنع سيطر على العمَّال. وإن حركة العمَّال والفلاحين هي نقيض حركة الرأسمالية (حركة التجار)، ويأتي يومٌ تنتصر فيه حركة العبيد في المدينة الفاضلة الاشتراكية التي توصل بعدها إلى الشيوعية.. ولولا هذا الصراع على العالم المادي، ما تقدَّمت البشرية خطوةً..

الفلسفة الفرويدية

يظهر عالِمٌ اسمه: "سيجموند فرويد" ليقول: إن هنالك مشكلةً في عصر الأنوار الذي يعتبر أن العقل الواعي هو الذي يسيطر على العالم، فيسأل سؤالاً أيضاً هو كمقلوب العملة: لماذا لا يكون عالم اللاشعور، أي: الأمور التي نراها في الأحلام، هي التي تشكِّل تصرُّفاتنا وليست الأشياء الظاهرة؟ ليصل إلى أن العالم الخفيَّ للإنسان هو الذي يحكمه، وبالتالي البحث عن العُقَد عبر التحليل النفسي أصبح سائداً بعد أن كان التحليل العقلاني هو السائد.

الفلسفة الرومانسية

ظهرت الرومانسية بعد أن كان عصر التنوير قد فرض سلطة العقل على حياة الناس؛ بحيث إن كل شيءٍ يجب أن يكون مهندساً ومقيَّداً بنمطٍ عقليٍّ معيَّنٍ، فيفرض على الإنسان ما يحب وما يكره، اختيارات الأشياء، والألوان، والملابس.. فأتى الاتجاه الرومانسي مستنكراً العقلانية والتنميط، محتفياً بالطبيعة، والخيال، والروحانيات، والفنِّ الحرِّ البدائي غير المنمَّط.

الفلسفة الوجودية

بعد الحرب العالمية الأولى والثانية التي فتكت بـ 70 مليوناً من الشباب، وأحدثت دماراً شاملاً، حدثت صدماتٌ كبيرةٌ في النفوس، وهذا انعكس أثره على الحالة الإيمانية للشعوب، كالانعكاس الذي أعقب الربيع العربي.. فعادةً الحروب المدمِّرة تُحدث صدماتٍ نفسيةً كبرى، يتبعها آثارٌ كهذه، فيبدأ التساؤل: أين الإله؟ مقابل الكوارث الكبرى.

نشأت مدرسةٌ كبيرةٌ تسائل موضوع الإله بشكلٍ جذريٍّ، ومع الوصول إلى فكرة عدم وجود الإله، أصبح الإنسان عارياً في الوجود، فبعد أن كانت الأديان تخبره سيره وما عليه أن يفعل وتحيِي معنىً لوجوده.. أصبح عليه هو أن ينظِّم حياته ويصنع لوجوده المعنى؛ فالوجودية هي صناعة معنىً في غياب الإله، وهنا لا أتحدث عن الوجودية التي تقرُّ بوجود الإله؛ بل أتكلَّم عن الوجودية التي مثَّلها "سارتر" التي بدأت بعد الحرب العالمية الثانية وشاعت في الستينات.

الاشتباك مع النصّ

كان الأدب القديم يرى أننا لكي نفهم كتاباً من الكتب أو قصيدةً من القصائد، يجب أن ندرس حياة الكاتب وعصره، ومنه سنفهم غايته من النصِّ والمؤثرات التي أثَّرت فيه، فكانت المقولة السائدة: "ادرس حياة الكاتب، تفهم أدبه"، ولكن مع دخول الستينات والسبعينات أصبحت الفترة حُبلى بالأفكار والمعتقدات التي تبحث في جذور الجذور المتعلِّقة بالأدب ومنهجه..



المدرسة البنيوية:

ظهرت المدرسة البنيوية واشتهرت بشكلٍ كبيرٍ، وهي مدرسةٌ قد يستعصي فهم تصوُّرها بسهولةٍ، إلا أننا سنحاول عرض أفكارها الرئيسية الواضحة حتى يسهل تشكيل تصوُّرٍ عنها في ذهن المتلقِّي.

ترى البنيوية أن كل نصٍّ يتكوَّن من بناءٍ، وأن كل بناءٍ يتكوَّن من هيكلٍ وأساسٍ، وأن تتمَّة البناء ستوضع بشكلٍ يوائم الأساس والهيكل، فإننا حينما نقرأ نصَّاً ما، كنصِّ "الأميرة النائمة"، فإن القصص من هذا النوع مبنيةٌ على هيكلٍ معيَّنٍ أساسه:

- الأميرات طيبات.
- زوجات الأب شريرات.

- الأمراء منقذون.
- الأمراء يتزوَّجون الأميرات.

إن تحديد النصِّ بمحدِّداتٍ كهذه، ستجعل أيَّ كاتبٍ يحشو القصة ملتزماً بهذا الإطار من الحشو، فمن معرفة البنية الأساسية لأيِّ نصٍّ، نستطيع أن نعرف ماذا يريد الشاعر أن يقول. وهذه أساسات البنيوية.

الحفر المعرفي:

سيظهر "ميشيل فوكو" ويقول: إن النصَّ الأدبي مغتصبٌ دائماً لصالح السلطة المسيطرة بزمنٍ معيَّنٍ؛ سواءٌ كانت سلطةً أدبيةً، أم ثقافيةً، أم سياسيةً؛ فهو يصادر باستمرارٍ صوت المحرومين.

وضع "فوكو" كتاباً أسماه: "تاريخ الجنون"، يقول فيه: إن الجنون كان موجوداً في كل عصرٍ، إلا أنه في عصرٍ من العصور كان محلَّاً للسخرية تُكتب به الطرائف، وفي عصرٍ آخر كانوا يعتبرون الجنون له علاقةٌ بالجنِّ والتباسهم بإنسانٍ معيَّنٍ، فيُحبس المجنون ويضرب حتى يخرج منه، وفي عصرٍ ثالثٍ كان يوضع في مستشفياتٍ ويجرون له دراساتٍ نفسيةً ويناقشونه ويسألونه، وفي عصرٍ رابعٍ أصبح يُبحَث في حقوقه ككائنٍ إنسانيٍّ..

يسأل "فوكو" في كتابه: هل الجنون تغيَّر طوال هذه العصور، أم أن الموقف الثقافي من الجنون هو الذي تغيَّر؟ ويصل إلى فكرة أن سلطة العصر فرضت نفسها في زمنٍ ما وبيئةٍ ما، لتعطينا صورةً عن الجنون، فجميع الناس نظروا إلى الجنون حسب النظرة التي أعطتها السلطة، فالثقافة تفرض نفسها على الفهم، ونحن لسنا أحراراً؛ بل مغتصبين باستمرارٍ لصالح السلطة الموجودة.

يرى "فوكو" أيضاً أن الكتابة التاريخية هي ما يكتبه الأقوياء؛ فالحروب قامت، وكُتب عن شجاعة القائد والجيوش القوية، وحجم الانتصارات ونحوه من الكلام الضخم.. ولو أننا بحثنا في الجانب الآخر من الصورة، سنجد الحقيقة الواضحة في رسالة جنديٍّ مجهولٍ لزوجته يصف فيها الأوضاع، ويشرحها بشكلٍ أصدق وأفضل من النصوص التي كُتبت بإشراف السلطة الزمانية.

ف"فوكو" يؤكِّد أن السلطة الموجودة تفرض علينا النصوص التي يجب أن نقرأها في السياقات التي تريدها، وإذا أردنا أن نعرف الحقيقة، علينا أن نجري حفراً معرفيَّاً بالاتجاه المعاكس؛ لنجد ماذا كان صوت المحرومين من معتقلين وجياعٍ..

فينقلنا "فوكو" من اعتقادنا بأن النصوص المكتوبة في عصرٍ ما تُمثِّل صوت الواقع بشكلٍ كبيرٍ، إلى حقيقة أن النصَّ يمثِّل صوت السلطة، والحفر المعرفي لـ"ميشيل فوكو" هو الحفر عن النصوص المغيَّبة والمهملة باعتبارها الكاشفَ الحقيقيَّ عن صوت المظلومين في ذلك العصر.

النص لا يقول شيئاً:

يظهر الفيلسوف "جاك دريدا" ليحمل مطرقةً ويهشِّم كلَّ ما يمكن أن يُنسب للنص من وضوحٍ وحجيَّةٍ وبيانٍ بأفكارٍ خلاصتها "أن النص لا يقول شيئاً!"وتتمثَّل تلك الأفكار بما يلي:



1. يرى "دريدا" أن الكلمة لها مستوياتٌ عدَّةٌ؛ فكلمة "شجرة" على سبيل المثال: المستوى الأول لها صوتُها، فبعد أن أقول: "شجرة"، سيظهر صوتٌ ويختفي فوراً. أما المستوى الثاني، فهو الكود السمعي الذي تختزنه أذهاننا لتلك الكلمة، فحينما نكرِّرها، تأتي وكأننا نسمعها من جديدٍ. أما المستوى الثالث، فهو مفهوم الكلمة، أي: المعنى الذي تثيره الكلمة في الذهن حينما يستذكرها الذهن، ويتمثَّل باستحضار صورة الشجرة. والمستوى الأخير للكلمة هو الكلمة المكتوبة التي تمثِّل رمزاً عن المستويات الثلاثة السابقة.

فاعتبر المسافة بين الكلمة المكتوبة وبين حقيقة الكلمة مستوىً أخيراً، فهي ظلُّ الظلِّ الأساسي، وبذلك تكون الكتابة نسخةً من نسخٍ مكتوبةٍ، وهي المستوى الأخير الذي يُعبَّر من خلاله عن الكلمة.

2. اعتبر أن النصَّ تملؤه ثقوبٌ وفراغات كثيرة جدًّاً، فحينما يكتب إنسان: "التقينا في المقهى، تحدثنا، ثم خرجنا"، فهنا فراغاتٌ كثيرة بدأت من شكل المقهى، وألوانه، ورائحته، والحديث، ونوعه.. وكل إنسانٍ سيملأ الفراغات بحسبه.

3. التعريف مستحيلٌ لكلمات النصِّ، فكلمة "طفل" مثلاً: إذا أردنا معرفة مقصدها، فيمكن أن يتمَّ التوضيح بكونه طفلاً أبيض، والأطفال البيض كثرٌ، فسنجد أن هذا التعريف غير كافٍ، ومهما استمرَّينا في محاولة التعريف، فإننا سنصل إلى محاولاتٍ مفتوحةٍ دون أن يفهم الذي أمامنا المعنى، وذلك كمحاولة تعريفنا للكائن الفضائي عن النبات.

حتى أن التعريف عن طريق المغايرة غير ممكنٍ، كأن نقول: "النبات ليس كالصخر"؛ لكوننا سننتهي إلى معضلة: ما هو الصخر!؟ فمع عدم وجود المرتكزات المشتركة للحديث، يعتبر التعريف مستحيلاً بنظر "دريدا".

4. المعنى المؤجَّل: والمقصود من هذه الفكرة أن مصطلحات النصِّ مفتوحةٌ، وتحتاج إلى انتظارٍ وتروٍّ قبل أن تُفهَم، فإذا قلنا: "وردة"، فإن شخصاً ما سيفهم الوردة أنها فتاةٌ، وشخصاً آخر سيفهمها على أنها رسمٌ، وآخر سيفهمها على أنها وردة صناعية، وآخر على أنها طبيعية.. والأمر ذاته إذا ما طلبنا من مجموعةٍ أن يرسموا "شجرة جميلة"، فسنجد أن كل شخصٍ رسم الشجرة الجميلة لديه بشكلٍ مختلفٍ عن الشكل الآخر،

فما بدا لنا واضحاً ومشتركاً، اتَّضح أنه يختلف من شخصٍ لآخر، ولن يتَّضح معناه ما لم يكتمل النصُّ، فيتوقف ويؤجَّل الفهم إلى أن يكتمل النصُّ.

5. التحيُّز المبطَّن: يرى "دريدا" أن الإنسان متحيِّزٌ في اللغة أساساً، فبرواية "البطة السوداء" اختار الكاتب أن السوداء هي السيئة، وهذا تحيُّزٌ تاريخيٌّ مبطَّنٌ ضدَّ السود، واللغة مسكونةٌ بتحيُّزات الإنسان دون أن نشعر، فلماذا البياض مفضَّلٌ على السواد؟ ولماذا الظلام مفضَّلٌ على النور، والرجل على المرأة؟ ..

6. التأجيل يؤدِّي إلى محو المعنى المجرَّد، وهذه مشكلةٌ حقيقيةٌ في موضوع الكلمة التي تحمل مفهوماً عامًّاً، فنجد لدينا سراباً لمدلول الوردة، وهذا السراب يؤدِّي إلى محو المعنى، أي: إلى تأجيل المعنى إلى أن يتمَّ اكتشافه.

7. الثنائيَّات المضلِّلة: قد يبدو لنا واضحاً جدًّاً معنى السواد والبياض، والحسن والقبيح، إلا أن "دريدا" يعتبر أن هنالك منطقةً في المنتصف بين المعنيَين، منطقة محيِّرة ومضلِّلة، وهي منطقة مهملة في الحديث.

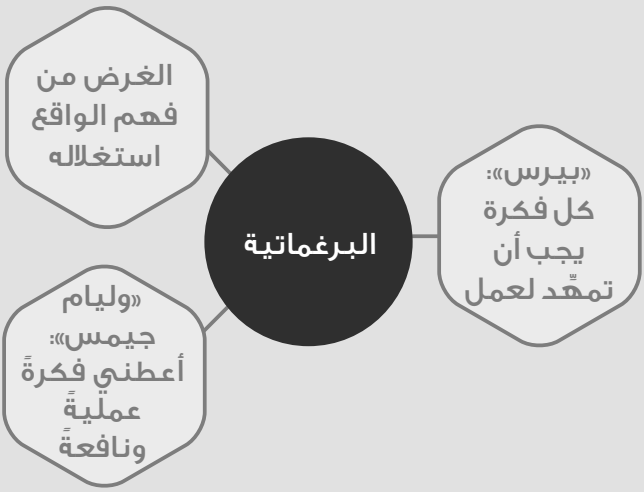
وهكذا هشَّم "دريدا" بتلك الأطروحات يمنةً ويسرةً كلَّ وضوحٍ منسوبٍ إلى النصِّ، فأدخلنا في ثقبٍ أسود، وهو جزءٌ من دورة الحضارة الغربية في مسائلة ما لا يمكن مسائلته. وقد كان في الكتابة من أصعب الكتَّاب؛ لأن منهجه اللَّامنهج..

البرغماتية (المذهب العملي)

أمام دورات الشكِّ الفلسفي: كيف يمكن أن يكون المخرج؟ كيف يمكن أن ينبني اليقين؟ ظهرت المدرسة البرغماتية أو ما يسمَّى بـ: المذهب العملاني، وكان صاحب الأفكار فيها هم "بيرس" و"وليام جيمس"، فقالوا: إن الفلسفة لَتفعل فعلها، ولْيطرح العلماء النظريات كما شاؤوا، لكن ستبقى لكل فكرةٍ قيمتها الحقيقية التي تمهِّد للعمل..

يقول "جيمس": أعطني فكرةً عمليةً ونافعةً في الواقع وأنا سأطبِّقها، بغضِّ النظر عن حقيقتها ومشكلاتها ومصداقيَّتها النظرية.. فالغرض من فهم الواقع تطبيقه.

نجح المذهب البرغماتي في أمريكا وأوروبا نجاحاً باهراً؛ لكونه يأخذ الخلاصات المفيدة ويوظِّفها في الحياة.

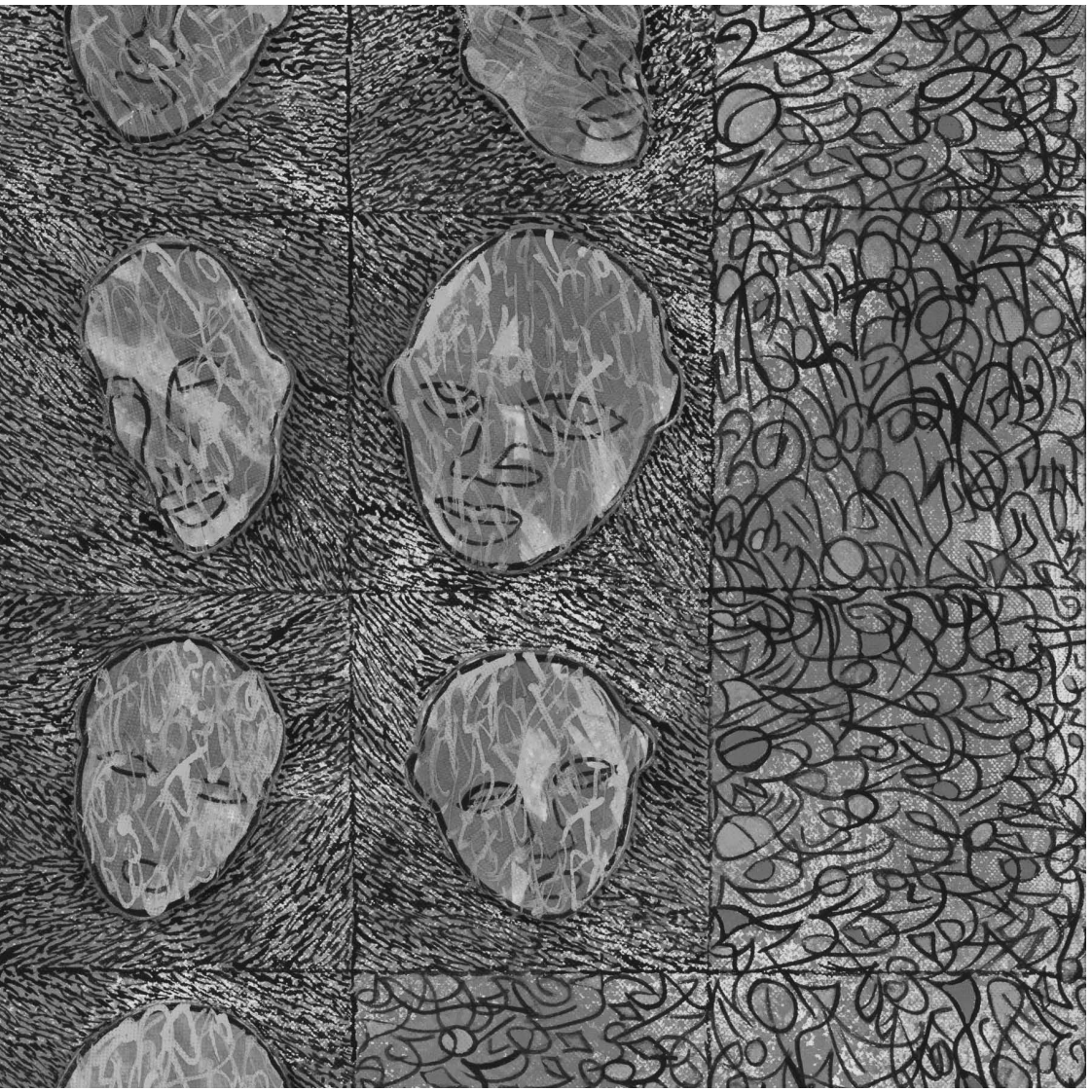


الروحية

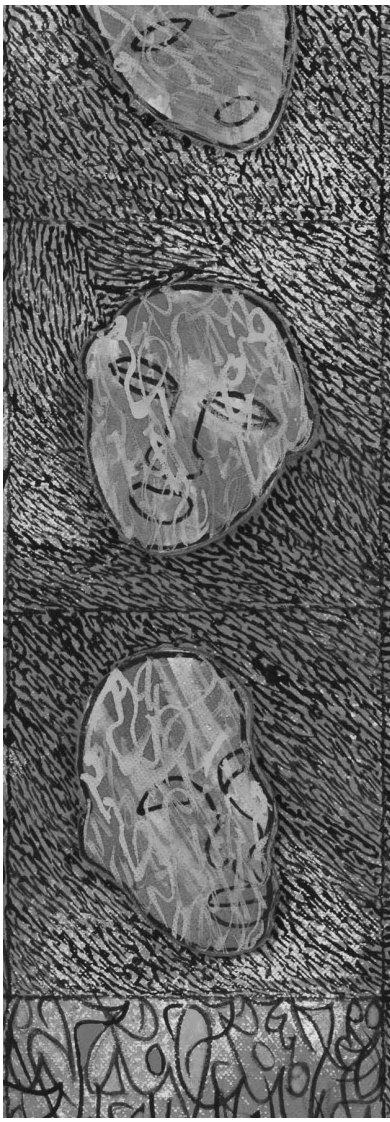
يظهر "هنري بيرجسون" ويتكلَّم عن قضية الروح ويدافع عنها، ويعتبر أن كلَّ ما نراه في الوجود من مادةٍ هو بعضٌ من تجلِّيات الروح؛ فالروحاني يؤمن أن هنالك بُعداً روحيًّاً في الإنسان متعالياً على بُعد المادة..

الفينومولوجيا

ستظهر فئةٌ من الفلاسفة مقابل المدرسة التجريبية لتقول: إن العلم المادي تابعٌ لعلمٍ أعلى منه، هو "الفينومينولوجيا"، وتعتقد هذه المدرسة أن علاقتنا بالعالم الخارجي ليست علاقة دراسةٍ، فنحن جزءٌ من هذا العالم، والمعرفة الحقيقية لا تتولَّد عن الدراسة النظرية له، إنما تتولَّد فعليًّاً عن التجربة الحسية المباشرة في استخدام العالم والعيش فيه، فالفينومولوجيا لا تصف التفاحة حينما أمسك بها حجماً ووزناً.. إنما تصف نتيجةَ إحساسي بها في لحظة



الالتقاء! وسأضرب على ذلك مثالاً عملياً لمعنى الاختلاف بين المدرسة التجريبية التلقائية التي نقدِّم لها استبياناتٍ وإحصائياتٍ، وبين المدرسة التي تعتمد على الحسِّ المباشر التلقائي للإنسان من أجل أن تعطي أوصافاً للظاهرة المدروسة.. إذا أخذنا على سبيل المثال مدينة لندن، وقمنا بدراسة إحصائيةٍ لنسبة الجرائم في شرق لندن، فوجدنا أنه خلال السنوات العشر هنالك تصاعدٌ مستمرٌّ كثيفٌ للجرائم في هذه المنطقة من السرقات إلى القتل.. إذاً؛



فالإحصائيات توحي أن هذه المنطقة ذاهبةٌ إلى التدهور؛ لأن الأمن فيها معدومٌ، فينتج بالدراسة الإحصائية أن هذه المنطقه لا تُسكَن، وبالتالي لا يوجد عليها إقبالٌ، فيفترض نظريًّاً أن يبيع الناس منازلهم للانتقال إلى مناطق أكثر أمناً، ولكن سنكتشف أن في هذه المنطقة لا أحد يبيع بيته، والناس يُقبلون على الشراء أكثر وأكثر! فبالدراسة الفينومولوجية وبالسؤال المباشر، سنجد نتائج مغايرةً لنتائج الإحصائيَّات، فإذا سألت سكَّان المنطقة عن شعورهم عند ذكر شارع المنطقة التي يعيشون فيها، قد يقولون لك: الأمان، وإذا سألناهم عن خواطرهم إزاء الجيران قد يقولون: المساعدة! أي: أننا إذا جئنا نحلِّل الكلام الذي قاله الناس لنا نتيجة التجربة المباشرة، سنجد أن النتائج مختلفةٌ تماماً عن النتائج الأولى، فالنتائج الأولى تقول: إن المنطقة إلى الهاوية، أما هذه النتائج فتقول: إن الناس يشعرون بالأمان!

إذاً؛ فالفينومولجيا تبحث في انطباعات الروح بغضِّ النظر عن الأرقام الموجودة، فعلاقة الإنسان ببيئته ليست علاقةً بالأرقام فقط، فمشاعر الناس بالأمان والراحة تجاه منطقتهم، قد تجعلهم متمسِّكين بالمنطقة، ولا يستشعرون ثقل الأرقام فيها! فالدراسات الفينومولوجية قد تعطي نتائج مغايرةً تماماً عن الدراسات في المدرسة التجريبية التقليدية التي تقدِّم إحصائياتٍ وأرقاماً.

ختاماً.. إن هدفي من الطرح السابق تجنيب المتعلِّم من الوقوع في منطقة الثقب الأسود، أو التعصُّب لمكانٍ والاختناق فيه.. فإن مشاهدة الصورة الكلية للموضوع تحمي من الوقوع. وإن الغرب قلَّب العلوم والأفكار باستمرارٍ خشية الوقوع في مسألة الوثوقية؛ فالفضاء مليءٌ بالأفكار المتناقضة، وتستمرُّ الحياة على ما تتمُّ به المصالح العامَّة.

الحروب الداخلية الثقافية في الغـرب -1-



◄ ◄ ◄

سنتحدَّث في هذا القسم عن الحروب الداخلية الثقافية في الغرب، وكيف أن هذه الحروب لها انعكاساتٌ في منطقتنا العربية، فإننا بصراعاتنا نستبطن بشكلٍ أو بآخر هذه الصراعات الكبرى الموجودة في الغرب.

أولاً: الليبرالية والماركسية (من حيث الفكرة)

تشتغل في الغرب مدرستان كبيرتان جدًّا، هما: "الليبرالية"، و"الماركسية":

- الليبرالية فلسفةٌ سياسيةٌ وأخلاقيةٌ، تؤمن بالحرية والتراضي في الحكم، والمساواة أمام القانون وحرية التجارة، أي: تساوِي الفرص أمام أبناء المجتمع.

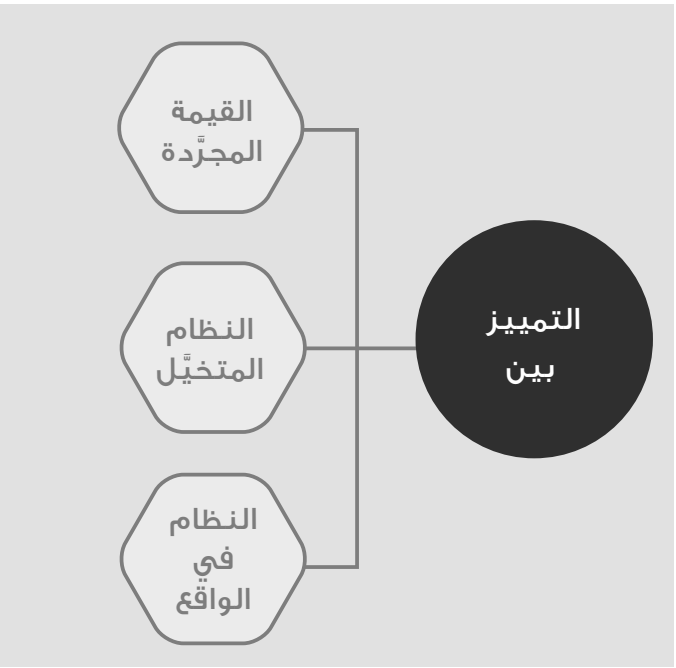
- أما الماركسية، فهي طيفٌ واسعٌ من الأفكار، تتمحور حول فكرة العدالة الاجتماعية، والمساواة بين الناس، فتنادي بضرورة إنهاء نظام الطبقات (الطبقة الوسطى، والطبقة العليا..)؛ بحيث يمسك العمَّال المجتمع، ويصبحون هم الطبقة السائدة فيه، فيختفي المجتمع الطبقي بالكامل، ويظهر النظام الشيوعي.

تصارعت هذه الأقطاب فيما بينها، وأنتجت مادةً معرفيةً تعبِّر عن هذا الصراع؛ فأنتجت الليبرالية مادةً معرفيةً تعزِّز الوضعية الاجتماعية المتمثِّلة بالرأسمالية، وتعزِّز الانقسام الطبقي؛ بتركيز الثروة بيد هذه القلَّة مقابل الكثرة التي لا تحظى بذلك، وتنتقد الماركسية بطيفٍ من أطيافها المختلفة.

وبالمقابل، تُنتج الماركسية مادةً معرفيةً كثيفةً، تنقد الليبرالية وتعرِّيها، وتهاجم النظام الاقتصادي الرأسمالي، وتصِمه بالكثير من الوصمات.

ونحن في بلادنا على الضفة الأخرى نأخذ هذه المنتجات، ونستخدمها، وكأنها منتجاتنا الخاصة، فحينما ينتقد الماركسيون الرأسمالية، نعتبر مادتهم مادةً تصلح لنا لمهاجمة النظام الرأسمالي بشكلٍ من الأشكال.

ثانياً: بين القيمة وإسقاطها في الواقـع



وهنا يجدر بنا الوقوف عند قضيةٍ في غاية الأهمية، وتحمل معها الإفادة للتفكير وللتصوُّر عند الإنسان، وهو الفارق بين القيمة المجردة، والنظام المتخيَّل في الذهن إسقاطاً لتلك القيمة، والنظام في الواقع. فعلى سبيل المثال: إذا قلنا: إن العدالة هي جوهر الإسلام، ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾؛ فمقابل هذه القيمة سيتخيَّل العقل المسلم نظاماً مثاليًّا معيَّناً اسمه: الشورى؛ فيه مسؤولٌ، وفيه مجلس شورى، وتصوُّراتٌ أخرى تخطر في البال مقابل قيمة العدل.. ولنا أمثلةٌ في كلٍّ من تصوُّر "الترابي" أو "النبهاني" رحمهما الله وغيرهم، ممَّن كتب في النظام الإسلامي من تصوُّراتٍ، بعضها بقيت كلماتٍ على ورقٍ، أو أفكاراً في الذهن، وبعضها أخذت خطًّاً في الواقع، فكُتب لها التجريب، وتمَّ التحقُّق من نجاحها أو فشلها كنظامٍ في الواقع..

تجربة الترابي:

من التصوُّرات التي نفذت لتُطبَّق في الواقع أفكار الدكتور "الترابي" رحمه الله، وقد كان عالماً شرعيًّا، وأستاذاً في القانون الدستوري، درس في "السربون"، وأتقن أكثر من لغةٍ، وقاد الحركة الإسلامية في السودان، واستطاع أن يمكر بأعدائه، وأن يخترق الجيش السوداني ويقوم بانقلابٍ، وأن يموِّه على الدول الأخرى فيساندون الانقلاب.. أي: أنه نفَّذ كافَّة الطرق التكتيكية بطريقةٍ جيدةٍ، ومن ثم وقع على أتباعه أن يُترجموا النظام السياسي الذي في ذهنه؛ فظهر نظام المؤتمر الوطني في السودان الذي قاد الناس 33 عاماً، ثم انتهى بأن ثارت عليه

الناس، فخرجت في الشوارع وطالبت بمطاردة أتباعه، ولا يزال الصراع قائماً بين مَن هم في السلطة وفي الشوارع، وبين هذا النظام..

فمع أن القيمة الأساسية في عقل "الترابي" كانت ممتازةً، وكذلك النظام المتخيَّل في ذهنه الذي كان سيحلُّ كافَّة الإشكاليَّات التي من ضمنها (التغلُّب على لعبة الجيش، فساد الأفراد، النظام الإقليمي، والنظام العالمي..)، إلا أن النظام في الواقع لم يصل لا إلى الدولة الحضارية، ولا إلى الدولة المدنية، ولا حتى إلى مجتمعٍ راضٍ، ولا مجتمع كفايةٍ، ولا مجتمعٍ مستقرٍّ إقليميَّاً ولا مستقلٍّ دوليًّا!

فالأنظمة كقيمةٍ مجرَّدةٍ قد تبدو أنظمةً رائعةً، ولكن حينما ننزلها على أرض الواقع، نكون قد دخلنا في مكانٍ آخر؛ فقد نكتب في الكتب عن نظامٍ إسلاميٍّ ممتازٍ، ولكن عند وضعه على محكِّ الواقع، قد لا يتمكَّن من الوقوف والتوازن على الأرجل الأربعة الأساسية -التي أتكلم عنها باستمرارٍ- المتمثِّلة بـ: قوة المشروع في ذاته، ومدى تقبُّله في بيئته، وقبوله إقليميَّاً، وقبوله عالميَّاً، فبوقوفه على هذه الأقدام الأربعة سيتوازن، وباختلال أحدها سيتحوَّل إلى نظامٍ قلقٍ.

ثالثاً: تمثيلات الليبرالية والماركسية

نجد أن الطيف الليبراليَّ قام على عدَّة أطيافٍ وتمثيلَينِ بارزينِ:

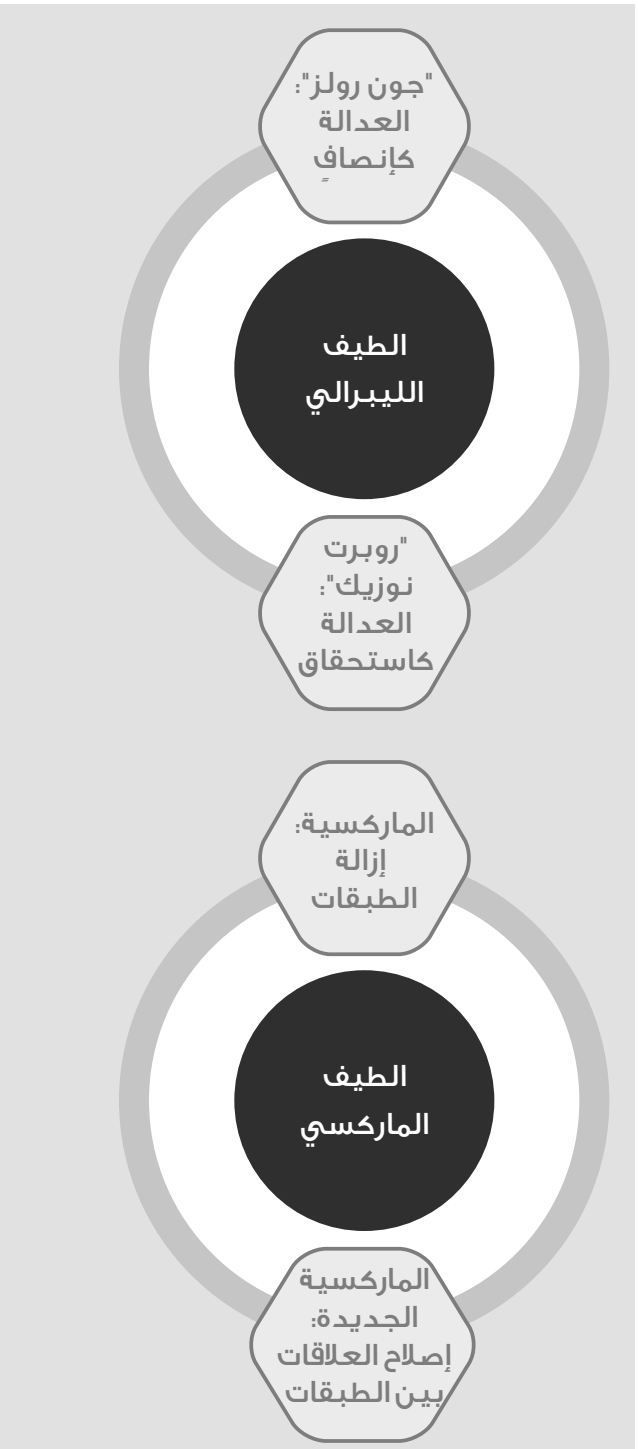
1. حمل التمثيل الأول فيلسوفٌ كبيرٌ اسمه: "جون رولز"، المتأثِّر بالمنهج الاشتراكي؛ حيث يرى "رولز" أنه مقابل الفئة التي تستأثر بالسلطة والمال -تاركةً الفقراء والمحرومين دون سكنٍ وخدماتٍ ونحوه..-، يجب أن يقام الإنصاف؛ بأن نأخذ من الأغنياء ونعطي الفقراء، ولكن ليس على طريقة الشيوعية (إزالة الطبقات)؛ بل من خلال نظامٍ ضريبيٍّ عادلٍ يسمح بإنصاف الفقراء، ويحقِّق لهم عيشاً كريماً.
2. وفي الطرف الآخر البعيد، سنجد الفيلسوف "روبرت نوزيك" ينادي بأن العدالة استحقاقٌ وليست إنصافاً؛ فالسلطة لا يحقُّ لها أن تتدخَّل بثروة أحدٍ أو إعطاء مال أحدٍ لأحدٍ، فمن استحقَّ بجهده وعرقه أخذ، ومن لم يستحقَّ فلا علاقة للسلطة بذلك.

أما الطيف الماركسي فقد تمثّل في مرحلتين رئيسيَّتين:

1. المرحلة الأولى الماركسية: إزالة الطبقات

تمثُّلها في الذهن:

مرحلة "ماركس" التي بدأت من ملاحظة "ماركس" لفقر العمَّال، واضطهاد الأغنياء الرأسماليِّين لهم، فاستنكر خضوع جموع العمَّال لفئةٍ قليلةٍ من الرأسماليِّين دون مقابلٍ، وقاده استنكاره إلى وضع نظريةٍ كاملةٍ فسَّر بها التاريخ والصراع على رأس المال (الأراضي الزراعية في النظام الإقطاعي، والمصانع في العصر الصناعي)، وكيف أن صاحب المال سيبني المدارس ويقود الإعلام، ومن خلالهما سيشوِّه وعي الناس ويضمن استمرار رضوخهم، فصاحب المال لا يمتلك المال فقط؛ بل يمتلك وعي الناس أيضاً! وهذا يحتاج إلى ثورةٍ عمَّاليةٍ يقودها الحزب الشيوعي الذي سيُنشِئ النظام الاشتراكيَّ، الذي سينحلُّ بعد أن يدرِّب الناس على الحياة الجماعية؛ حيث لا يبقى من ضرورةٍ للدولة لعودة المجتمع إلى عصر المشاع (الجنة الموعودة للشيوعيِّين) الذي يقوم على فكرة إزالة الطبقات.



إسقاطها في الواقع:

قامت الثورة الماركسية وقدَّم صاحبها الكثير من الآلام والجراح، وأنشأ "لينين" الدولة الشيوعية، وحكم الحزب الواحد في البلد، وأمَّم الثروات، فصادر أموال الناس، واعتبر نفسه ممثِّلاً للعمَّال والفلَّاحين، فحكم باسم الطبقة العاملة.. وأصبح لكل إنسانٍ بيتٌ وعملٌ وطعامٌ. فمن المفترض هنا بحسب قيم الماركسية أن يُنتَج المجتمع الذي كان مأمولاً -مجتمع العدالة والحرية والإنسان-، وأن يصبح الإنسان عزيزاً مرتاحاً.. ولكنَّ المجتمع المأمول لم يتحقَّق، والسعادة الموهومة لم تحدث؛ بل نشأت غربةٌ أخرى إضافةً إلى غربة المصنع، فنشأت غربة الوطن داخل الوطن.. ثم إن الإنسان تعطَّل لديه حسُّ الإبداع والبذل والتميُّز؛ فالإنسان الذي سينتهي به المطاف بأن يحصل على كسرة خبزٍ؛ سواءٌ قلَّ جهده، أم كثر، وهو سواءٌ مع الجميع، فلماذا سيبذل جهداً مضاعفاً أو يتقن أو يفكِّر؟! فتوقفت حركة الإبداع والإنتاج، وبدأ الاقتصاد ينهار شيئاً فشيئاً.. وبدأ الناس يفرُّون كلاجئين من هذه الجنة الموهومة، حتى نشأت في أوروبا الشرقية ما يسمَّى بـ: ظاهرة الستار الحديدي؛ هذا الستار الذي لا يسمح للناس الخروج منه، فأصبح كلُّ مَن يخرج من بلاد الشيوعية يخضع لرقابةٍ معيَّنةٍ حتى لا يطلب اللجوء السياسيَّ. ولم يوضع إصلاحاتٌ للنظرية توازي الواقع، فانهار المجتمع الشيوعي، وعاد مجدَّداً إلى الرأسمالية مرَّةً أخرى!

إن مشروعية نزعة أو اتجاه ما لايفضي بالضرورة لصحّة النظام الذي ستنتجه هذه النزعة!

فالتجربة حينما نُقِلَت من الإطار النظري المثالي إلى الواقع العملي التجريبي، شهدت إخفاقاً ضخماً، وهنا يجب أن نُقرَّ بمشروعية التوجُّه الذي وُجِدَ عند القطاعات الضخمة من المجتمعات الأوروبية؛ ففكرة الاشتراكية، وفكرة وقوف مجموع الناس في وجه الحراك الرأسمالي، كانت مشروعةً وأخلاقيةً جدَّاً، ولكن بين فكرة مشروعية النزعة، وبين إمكانية إنتاج نظامٍ سياسيٍّ واقتصاديٍّ يمثِّل العدالة ويحقِّقها في المجتمع، فجوةٌ كبيرةٌ جدَّاً، وهذا ما لا يدركه الناس في كثيرٍ من الأحيان، فنحن نعتقد بأنه ما دامت المُثُل التي نريدها كبيرةً جدَّاً، فبالتالي؛ إن النظام الذي سنقترحه، سيكون عظيماً.. وفي الحقيقة ليس الأمر كذلك؛ فقد تُتَبَنَّى أفضل الأفكار، ولكن يُنشَأُ نظامٌ من أسوء النظم!

2. المرحلة الثانية الماركسية الجديدة: إصلاح العلاقة بين الطبقات

بعد مجموعة التجارب المريرة في أوروبا، نشأ فضاءٌ واسعٌ ليبحث عن تصريفٍ للفكرة الاشتراكية مغايرٌ للتصريف الشيوعي الذي تمَّ تطبيقه في الماركسية "اللينينية" في روسيا.. وهذا النموذج هو ماسمَّيناه: تيَّار "الماركسية الجديد"، وهذا التيار سيُطلق عليه اسم: مدرسة "فرانكفورت".

رابعاً: الماركسية الجديدة



في سنة 1923م سيأتي بفكرة الماركسية الجديدة مجموعةٌ من اليساريِّين -المؤمنين بأفكار "ماركس"- الدراسين في "فرانكفورت" في علم الاجتماع وعلم النفس، من أمثال "ماكس هوركهايمرMax Horkheimer"، و"تيودور أدورنو Theodor W. Adorno"، و"يورغن هابرماس Jürgen Habermas".. وهم جميعاً فلاسفةٌ من الوزن الثقيل جدًّا، ولديهم أجندة عملٍ كبيرةٍ داخل أوروبا، والفكرة الرئيسية عندهم: أن العالم مبنيٌّ على التناقض بين المضطهَدين والمضطهِدين، وأن هناك صراعَ طبقاتٍ وأعراقٍ، وصراعَ رجلٍ وامرأةٍ، وبالتالي سيتولَّون إدارة المجتمعات الجديدة فكريًّا عبر نقد النظام الرأسمالي والديمقراطيَّات الغربية نقداً جذريًّا.

عملت مجموعات مدرسة "فرانكفورت" على هدف التحوُّل الكامل للمجتمع في قضايا السلام والثروة والحرية، ولم يكن التغيير مرهوناً لديهم بتوحيد الطبقات؛ بل أقرُّوا وجود الطبقات، ولكن رفضوا الجزء المتعلِّق باحتكار رأس المال لدى فئةٍ معيَّنةٍ، وفَرْضِ الفقر على الناس، واستغلالهم والهيمنة عليهم. فقبلت جماعات "فرانكفورت" النظام الليبرالي، ولكن مع إحداث الإصلاحات التي تضمن حقوق الفئات المضطهدة والمحرومة..

وعملوا على صناعة التغيير باستخدام عدَّةٍ جديدةٍ، واستراتيجيَّاتٍ جديدةٍ، بعيداً عن الثورات التي حدثت في المجتمع اللينيني الماركسي، فقاموا بـ:

تعرية الاختلالات، وكشف القوى المستترة، معتمدين في ذلك على العامل الثقافي، مستفيدين من مكانتهم كعلماء كبارٍ في علم النفس والاجتماع.. ففعَّلوا النظرية النقدية التي فكَّكت البنى الأساسية للنظام الليبرالي وكشفت عيوبه، وأظهرت القوة المختفية وراء الفعل السياسي والاقتصادي والاجتماعي. ودمجوا علم الاجتماع مع التحليل النفسي الاجتماعي، وأنتجوا عدَّةً معرفيةً ضخمةً، لها لغتها الخاصَّة، فوضعوا قاموساً كبيراً من المصطلحات، إضافةً إلى مصطلحات "ماركس" الأساسية؛ فسنسمع عن "السيولة"، وعن "الكونكريتية"، وعن "تشيِيء الإنسان"، وعن "تسليعه"، وعن "اغترابه".. فأعطوا لغةً لآلام الناس المحرومين والمهمَّشين. واعتبروا طلَّاب الجامعات هم الخميرة الأساسية التي سيحمِّلون عليها البنية الفكرية الجديدة الرافضة للنظام الرأسمالي وأدواته، وبالتالي هم الفئة التي ستقوم بعمليات التمرُّد على النظام.

كما استخدموا استراتيجيةً عمليةً اعتمدت على استقطاب الفئات الساخطة على النظام الرأسمالي، فغذَّوا شعور الطلَّاب، وعزَّزوا الالتحام بقضايا المجموعات المهمَّشة، كالسود في أوروبا، وقضايا الأقلِّيَّات المضطهدة، والمجموعات التي تحمل مطالب اجتماعيةً، كالمثليِّين والحركات النسوية.. فتمَّ دعم المشروع من أناسٍ لديهم قابليةٌ للثورة وللتمرُّد.

فكانت استراتيجيَّتهم الرئيسية: العملَ من داخل المجتمع، وإقامةَ تحالفاتٍ، وتوفيرَ العدَّة الثقافية؛ لزعزعة النظام الرأسمالي من داخله.

خامساً: أثر الماركسية الجديدة في البيئة العربية الإسلامية

نجد أن كثيراً من الأعمال الموجودة في بيئتنا -لا سيَّما أفكار الدكتور "عبد الوهاب المسيري"، و"وائل حلاق"، وغيرهم..- تعود إلى أفكار الماركسية الجديدة التي يقولون لنا من خلالها: إن النظام القائم في الغرب هو نظامٌ سيِّئٌ وغير صالحٍ، وعلينا أن ننتج نظاماً آخر بديلاً عنه. وقد ضمَّنوا كتبهم تلك الأفكار حتى بدت وكأنها لبوسٌ إسلاميٌّ، أي: مادة إسلامية قابلة للتداول في البيئة لدينا، بينما هي عبارةٌ عن عملٍ داخليٍّ في الحضارة الأوروبية حدثت نتيجة الصراعات الموجودة بين نظم الأفكار، وهذا ناسَبَ الأجواء الإسلامية الموجودة عندنا، فسنشهد بعد ذلك كثيراً من الناس يحملون فكراً إسلاميًّا، ويتداولون المصطلحات الشائعة داخل هذه المدرسة، معتقدين أنها صدرت من الأستاذ "المسيري" رحمه الله، وهي في الحقيقة جزءٌ من هذا التراث، تراث الماركسية الجديدة.. فاستعرنا اللغة، واقْتَتْنَا على نواتج الصراع الغربي دون أن ندري خلفية الصراع الأساسي، علماً أن لغة "اليسار الماركسي" فُكِّكت دون أن تجد نظاماً بديلاً عن "الرأسمالية"، ولا تزال في عمليات التفكيك التي تقوم بها، فكان أقصى ما وصلت إليه ما فعله "هابرماس"، وفكرته الرئيسية إصلاح العملية الديمقراطية عبر ما يسمِّيه: "التداولية"؛ بأن يتمَّ إنشاء تجمُّعاتٍ، وأخرى أصغر منها، ثم أصغر، وأصغر.. تناقش القضايا الكبرى، وتزوَّد بالمعلومات؛ بحيث تصير الانتخابات أكثر كفاءةً وأكثر تعبيراً عن احتياجات الناس.

ختاماً.. إن ما نريد أن نصل إليه من هذا الطرح قضيتان أساسيتان..

1 القضية الأولى

أن هناك فارقاً كبيراً بين سموِّ الفكرة ونظامها في العقل، وبين تجسيدها على الأرض؛ فالمساحة واسعةٌ بين فكرةٍ عظيمةٍ، وبين نظامٍ تتجلَّى فيه على أرض الواقع.

2 القضية الثانية

عند احتكاكنا بالعالم، علينا على الأقلِّ أن نعرف الاتجاهات الكبرى الموجودة فيه؛ لكوننا في بعض الأحيان نستعير دون أن نعرف: لِمَ نستعير؟ وماذا نستعير؟ وبِمَ استخدموا ما نستعيره؟ وما مصدره؟ فتحدث الأشياء من حولنا دون أن ندري الخلفيات التي جاءت منها، وتمرُّ فتراتٌ طويلةٌ ولا ندري: نحن نسير مع من! فنحن نقول: إننا مجتمعاتٌ مضطهدةٌ ومظلومةٌ بشكلٍ من الأشكال.. سواءٌ من النظام الرأسمالي، أو النظام غير الجائز، أو النظام اللاأخلاقي.. فتُرى مثل هذه الأطروحات: «التشييء»، و«الكونكريتية»، و«عملية تغريب الإنسان»، و«تشكيل عقله بطريقةٍ معيَّنةٍ»..، هل هي نوعٌ من الثورة التي نريدها، أم أننا لدينا مقولاتٌ أخرى؟! فيجدر بنا أن ندرك: أين نلتقي مع بقية العالم، وأين نختلف؟ وهذا الإدراك يحدث نتيجة الوعي بما يقوله العالم وما خلَّف هذا العالم من قوةٍ موجودةٍ..

فأول شرطٍ للعبور أن نعرف: ما هو هذا العالم؟ وبعد أن نعرف، سنكون قادرين على أن نختار موقعنا منه بوعيٍ، لا برفضٍ مطلقٍ، ولا بقبولٍ مطلقٍ! إنّما بعمليةٍ عاقلةٍ نوازن فيها تصوُّراتنا ورؤانا للحياة.

الحروب الداخلية في الغـرب -2-

ثلاثية الحداثة والعلمانية والتنوير



◄ ◄ ◄

ممَّا لا بدَّ منه في رحلتنا المعرفية أن نسلِّط الضوء على المدلولات الكبيرة التي تحمل أجزاءً هامَّةً من رحلة حروب الغرب (الحداثة، العلمانية، التنوير). وإن القضايا المتعلِّقة بهذه المدلولات كثيراً ما تثار في منطقتنا العربية، ويحتدم الجدال حولها بطابعين: طابعٍ علميٍّ؛ بأن يحمل الإنسان معلوماتٍ عنها. وطابعٍ عاطفيٍّ؛ بحمله مشاعر الرفض لها كونها بضاعةً غربيةً.

إن ما نحتاجه هو أن نفرز الأمور، ونعي المضامين -بتسليط ولو ضوءٍ صغيرٍ- على أمثال هذه المسمَّيات والمصطلحات لاستخلاص المفيد لنا من تجارب الآخرين.

أولاً: مرحلة التنوير

كنَّا قد تحدَّثنا عن صدمة الغرب الكبيرة بعد ثبوت أخطاءٍ علميةٍ في مقرَّرات "أرسطو" والكنيسة للجانبين الفيزيائي والفلكي على الأقلِّ، وبالتالي فقدت هذه السلطة الروحية مكانتها كمصدرٍ للمعرفة. فانتقل العقل من فكرة وجود المعرفة في الكتاب المقدَّس، إلى فكرة أن السلطة الحقيقية في المعرفة هي ما نستطيع أن نكتشفه ونختبره، وبالتالي ما لا نستطيع أن نختبره هو خارجٌ عن نطاق الحديث والنقاش بشكلٍ من الأشكال.

هناك فارقٌ كبيرٌ جدَّاً بين تدقيق المنهج الذي يعمل به العقل، وبين إلغاء المنهج من أساسه؛ فالفرق بين إسقاط العقل وبين فحص حدوده، كالفرق بين الشكِّ العلمي وبين الشكِّ المَرَضي

فبدأ عصرٌ جديدٌ يرى أن العقل بما اكتشفه من آلةٍ وأدواتٍ قادرٌ على حلِّ مشكلات الحياة، وظهرت في تلك الحقبة كتلةٌ حرجةٌ في أوروبا من الفنَّانين والأدباء والسياسيِّين والاقتصاديِّين، ونشأت العلوم المتنوعة.. ونشأت فكرةٌ أساسيةٌ هي الـ(Rationality) أو العقلانية (وضع كل شيءٍ تحت مسطرة العقل). ولكن بما أن الثقة بالمقولات أصبحت مهزوزةً إلى حدٍّ كبيرٍ، فحتى فكرة التسليم للعقل لم تسلم؛ فبدأت النقاشات الحادَّة حول قدرات العقل وأين تقف، لتظهر ثانيةً دورةٌ من الشُكَّاك تشكِّك في قدرات العقل على الوصول إلى الحقيقة والفهم..

كلما استطعنا أن نجعل المنهج تحت الفحص والنظر -تطويراً لا إلغاءً-، أصبحنا أمَّةً أقوى وفي وضعيةٍ حضاريةٍ أفضل

إلا أن خطَّ التشكيك لم يكن الخطَّ الرئيسي الذي صنع الحضارة الغربية، فخطُّ الشكِّ استُخدم كخطٍّ (فحصٍ وتأكُّدٍ) فقط؛ فالحياة الأوروبية على الصعيد العملي اتجهت للاستفادة من العقل استفادةً قصوى مع حضورٍ دائمٍ لأفكار الثلَّة المشكِّكة فيه، ممَّا أدَّى إلى استواء الميزان لديهم، فعلى إيمانهم بمحدودية العقل، استفادوا منه أقصى استفادةٍ، فتطوَّر استخدام الرياضيات والعلوم الحديثة، وشهدت المرحلة أعمال الفلاسفة الكبار التي كوَّنت الموسوعة الفلسفية الفرنسية، والتي أعطت الثورتين الكبيرتين (الأمريكية والفرنسية) لغتهما ووهجهما، وأصبح شغل العالم الأساسي تدقيق المنهج الذي يصل بين العقل والواقع.

فالتنوير هو سلطة العقل المدقِّق باستمرارٍ، الذي يسعى لفحص الواقع عبر منهجٍ، وطالما أن كل منهجٍ هو نحتٌ بشريٌّ، فهو بحاجةٍ إلى مساءلةٍ مستمرَّةٍ لنصل منه إلى أفضل النتائج.

وإن فهم التنوير بهذا الاعتبار يسع الجميع، ويذيب محلَّ النزاع؛ فجميعنا نتفق بأنه على الإنسان أن لا يقنَع بأيِّ قولٍ يسمعه ما لم يثبت عنده أنه قابلٌ لقبول العقل والمنطق.

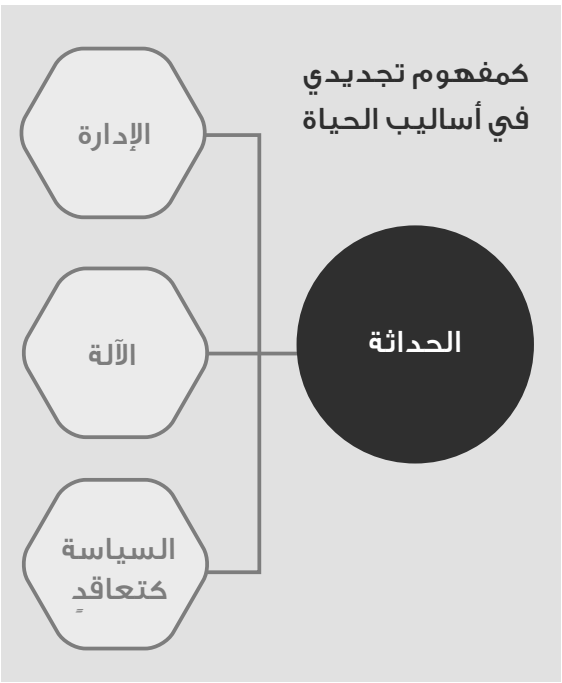


ثانياً: الحداثة (Modernity)

تختلف الحداثة في حقيقتها عن قضية التنوير، وإن كانت إحدى مخرجاتها؛ فموجة التطوُّر التي حدثت في أوروبا ولَّدت احتياج التغيير في أساليب الحياة؛ فالحداثة تتمثَّل بمغادرة الأساليب القديمة التي سادت في القرون الوسطى إلى أساليب حديثةٍ سيفرزها العلم ومقتضيات الواقع.

الحداثة كمفهومٍ تجديديٍّ في أساليب الحياة:

من الأساليب القديمة التي تبدَّلت مع الحداثة:



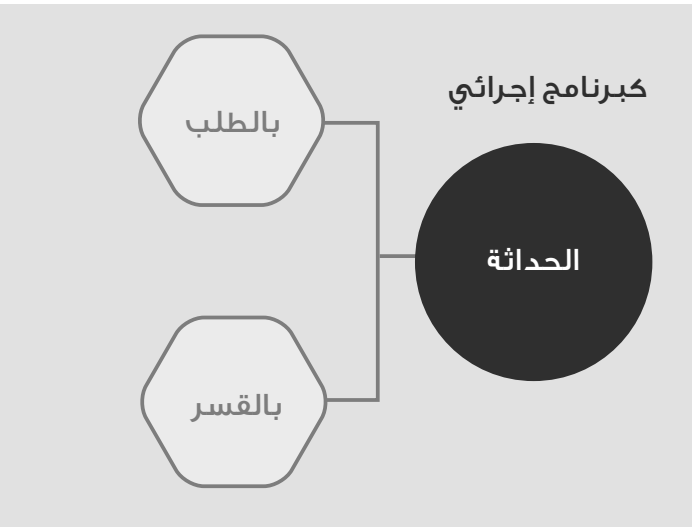
1. **"الإدارة": فالإدارة على سبيل المثال كانت في القرون القديمة مبنيَّةً على ما يسمَّى: النظام التضامنيَّ (Solidarity system)، والنظام التضامني يعني أن الناس يقومون متكاتفين بجميع الأدوار بعيداً عن فكرة التخصُّصات التي يعطى بها كلٌّ من مكانه في المجتمع، ثم أتت الحداثة لتبني المجتمع على التخصُّصات، فالطبيب يُقصد عند المرض، والبنَّاء يُقصَد عند احتياج الإعمار.. وكلٌّ في اختصاصه ومكانه بعيداً عن التضامنات العشوائية.. وبذلك قد أصبح المجتمع مجتمعاً عضويَّاً كجسم الإنسان (Organic System)؛ حيث لكلٍّ دورَتُه ومهمَّته؛ فالرئة تختصُّ بالتنفُّس، والقلب بضخِّ الدم، والكليتان بتنظيف الجسد.. ولا يوجد عضوٌ يقوم بدور الآخر، فمسألة التخصُّصات هي جزءٌ ممَّا يسمَّى: عملية التحديث.**

2. **وممَّا طالته عملية التحديث أيضاً: "الآلة"؛ ففي النظام القديم كانت العضلات تقوم بكل شيءٍ، أما في العصر الحديث، فقد أصبحت الآلة هي التي تقوم بكل شيءٍ، من الطعام، إلى الغسيل، إلى السفر.. فبين المجتمع القديم والمجتمع الحديث مسافةٌ أيضاً في استخدام العضلات أو استخدام الآلة.**

3. **وفي "السياسة" انتقلت الأمم من المجتمعات غير التعاقدية إلى مجتمعاتٍ تعاقديةٍ؛ ففي العصور القديمة والوسطى لم يكن سائداً أن يُؤخذ رأي أحدٍ في الحكم، فيتولى**

الحكمَ شخصٌ ما والسيف للمعترض، أمَّا في العصور الحديثة، فقد أصبحت الشعوب تطالب بدستورٍ، أي: بعقدٍ اجتماعيٍّ. فنجحت أممٌ في سياسة التعاقد، وبقيت أممٌ أخرى في الدكتاتوريات التاريخية.

الحداثة كبرنامجٍ إجرائيٍّ:



1. **الحداثة بالطلب:** حينما اكتشفت المجتمعات الأقلُّ تقدُّماً التقدُّم الحاصل في أوروبا، بدأت محاولات استقدام الجوهرة الموجودة في الغرب إلى بلادهم بحسب تصوُّرهم، فتوافدت البعثات إليها من جميع أنحاء العالم، وكان سلاطين الدولة العثمانية من مُبتَعِثِي البعثات إلى فرنسا لتعلُّم الإدارة الحديثة، وإحضار الآلة، وإنشاء المدارس على طريقتهم، وكذلك اليابان والصين وكثير من الدول الأخرى.

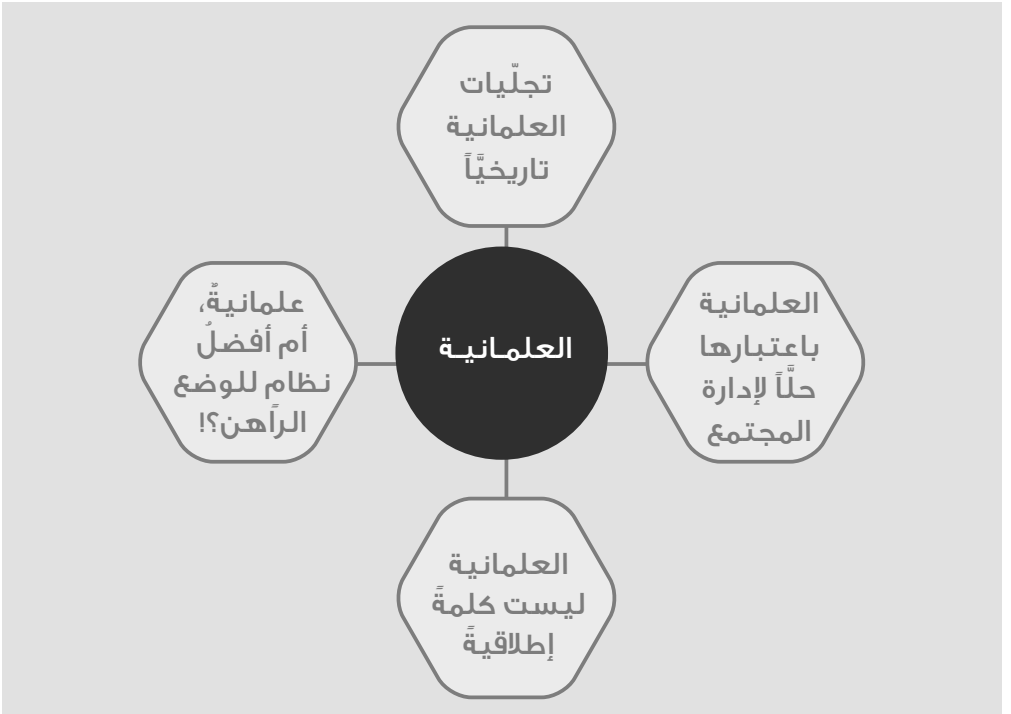
2. **الحداثة القسرية:** وتتمثَّل بتقديم البلدان المتقدِّمة وصفاتٍ جاهزةً للدول الأقلِّ تقدُّماً لمشاركتها في ركب التقدُّم، والدول التي لا تستجيب لتلك الوصفات الجاهزة اقتصاديًّاً أو اجتماعيًّاً، تمتنع الدول المتقدِّمة عن تقديم التسهيلات لها، ويمكن أن يتمثَّل ذلك بامتناع البنك الدولي على سبيل المثال عن تسليف القروض لتلك الدول الممتنعة.

وما نريده من هذا الطرح التمييز بين الحداثة كشيءٍ نعيشه، وبين الحداثة كشيءٍ نطلبه أو مجبَرين عليه، فيُنظَر لها من منظورَيْن: **1-** باعتبارها التحوُّلاتِ الكبرى في أساليب الحياة الرئيسية (الإدارة، الآلة، السياسة). **2-** كما يمكن النظر إليها باعتبارها برنامجاً إجرائيًّاً

ذهبنا لطلبه، أو فُرض علينا بشكلٍ من الأشكال، مع دخول أجنداتٍ ليست من الموضوع ذاته المتعلِّق بالحداثة، إنما القوى الغربية أرادت فرضه على العالم كالمثلية ونحوها، فالحداثة أمرٌ نحياه ولسنا مخيَّرين فيه، فلم يعد بوسع دولة اليوم أن تعود بنظامها إلى نظامٍ قرويٍّ بدائيٍّ.

ثالثاً: العلمانية

ظهرت فكرة العلمانية ابتداءً كردَّة فعلٍ على فرض الكنيسة الإرادةَ الدينيةَ على الناس، فخاضت أوروبا حروباً دينيةً استمرَّت حوالي 30 عاماً بين أنصار الكنيسة الكاثوليكية وبين البروتستانت المحتجِّين، ومات في تلك الحروب في ألمانيا وحدها حوالي ثلث الشعب الألماني! وكذلك كان الأمر في بريطانيا التي استمرَّت الحروب الدينية فيها حوالي 80 عاماً، ثم استقرَّ الأوروبيون على فكرة التصالح، فتصالحوا في معاهدة "ويستفاليا Westphalia" التي أنهت حرب الثلاثين عاماً في معظم الأراضي الألمانية، وحرب الثمانين عاماً بين إسبانيا ومملكة الأراضي المنخفضة، فتمَّ الاتفاق على سيادة الدول لنفسها، وإنهاء الحروب الدينية، وعلى أن



الدول هي الأساس، وأن الأديان لكل الناس، يختارونها بحريتهم بما يتناسب مع ظروفهم وبيئاتهم.

ومع أن ذيول هذا الموضوع لم تنتهِ بالصلح، إلا أن الصلح قد شكَّل نقطةً مفصليةً بأن وافقت الدول على أن شأن الدولة شيءٌ، وشأن المجتمع والتديُّن شيءٌ آخر، ويدار الشأن العام للدولة بمعزلٍ عن هذه التنازعات، فتشتغل الدولة كوسيطٍ بين المختلفين، لا كطرفٍ بين الأطراف. ولأن العلمانية ظهرت مقابل الحلِّ الديني، فإنها حينما تُذكر في مجتمعاتنا، تُذكر مصحوبةً بتوتُّرٍ شديدٍ.

وإننا إذا نظرنا إلى العلمانية بأقلِّ تفكيكيةٍ، باعتبار ما تريده المجتمعات عادةً على صعيدٍ سياسيٍّ، سنجد أن كافَّة المجتمعات تسعى لتحقيق ثلاثية (ضمان وجود المجتمع، وتحقيق استقراره، ونموِّه)، وأن النظام الذي سيعمل على تحقيق هذه الثلاثية، سيُحقَّق على إحدى الشكلين؛ إما أن يقرِّره طرفٌ واحدٌ يكون هو الأقوى، أو أن ترى أطياف المجتمع أنها تريد نظاماً مستقرَّاً ليس فيه ظلمٌ لأحدٍ، وبالتالي يقرِّرون أن ينظِّموا حكومةً لا علاقة لها بالدين، فيعامل الناس بالتساوي، وكل فئةٍ تمارس معتقداتها براحةٍ دون تصادم الإرادات..

في عالم التنظيم السياسي المعاصر لم يعد يُسمَح لأحدٍ أن يُخضِع أحداً أو يبيده، فالجميع مضطرٌّ للتسويات، ولا يهمُّنا الاسم الذي يمكن أن نضعه لهذه التسويات

وهنا نأتي على قضيةٍ هامَّةٍ جدَّاً، وهي أن العملية السياسية تاريخيَّاً، كانت هي التي تفرض الأشياء بالقوة. أما اليوم، فالدول الحديثة تقوم على عمليةٍ توافقيةٍ، فقمع القوة للأقليَّات، وتوحيد توجُّه الجميع على توجُّه الأقلية، لم يعد ممكناً بسهولةٍ، فإن أقلَّ مجموعةٍ سكَّانيةٍ يمكن لها أن تثير للمجتمع في يومنا زوابع لا تنتهي، وتسقطه في حروبٍ مدمِّرةٍ، تؤدِّي في نهاية المطاف لأن ينكسر تحت ضغط الواقع، ومن ثم ليبحث الناس عن حلولٍ عمليةٍ لأقرب مسافةٍ من الكمالات التي يحتاجونها، كانفصال البلاد عن بعضها البعض. وما أمر انفصال جنوب السودان عن هذا ببعيدٍ.

فلا بدَّ لنا اليوم من نظام التسويات، وإننا حينما نصل إلى "نظام التسويات" بين أطياف الشعب.. ستظهر العلمانية كأحد هذه التسويات، لتتجلَّى بصورٍ وأشكالٍ مختلفةٍ، بما

يتناسب مع البيئة التي ظهرت فيها، فنجد أنها ظهرت كـ"علمانيةٍ شاملةٍ" في بعض المجتمعات تمتدُّ بقطيعةٍ مع الدين على كافَّة المستويات. وظهرت في مجتمعاتٍ أخرى كـ"علمانيةٍ جزئيةٍ" تشتمل على الجانب السياسي والاقتصادي، وتترك الخيارات الفردية في مساحاتٍ أخرى. وهذا ما يمكن أن نسمِّيه بـ: (Best Fit System)، أي: "أفضل نظامٍ للحالة أو الوضع"، فيتولَّد من خلال هذا النظام حلٌّ سياسيٌّ مناسبٌ؛ فكلمة العلمانية ليست كلمةً إطلاقيةً، ولا توضَع في تعريفٍ ويحاكَم الناس إليه، فهنالك أشكالٌ مختلفةٌ لتطبيقها؛ حيث إنه لا يوجد خلطةٌ واحدةٌ تناسب جميع الأنظمة السياسية؛ فلبنان له خلطته، وتركيا لها خلطتها، وماليزيا لها خلطتها..

لكل بيئة خلطة مناسبة في السياسة تختلف عن المعتقدات الفردية لأفراد المجتمع

فممَّا يجب أولاً إزاء مصطلح العلمانية أن تُزال القداسة التي يحملها ذلك المصطلح، وأن يدحض تصوُّر الجريمة الذي يرتكبه؛ فالعلمانية هي إحدى الحلول المطروحة لحلِّ إشكاليات مجتمعاتٍ ابتُليت بنزاعاتٍ مصدرها الدين، فتشكَّل لديها موقفٌ من قضية تحييد الدين من الفضاء العامِّ بدرجاتٍ ونِسَبٍ مختلفةٍ..

وإننا إذا ما فهمنا موضوع "العلمانية" على شاكلته تلك باعتباره "أفضل نظامٍ للوضع القائم"، ستنتهي لدينا كثيرٌ من الإشكاليات معه، أما إذا ما احتفظت ثلَّةٌ معيَّنةٌ بفكرة فرض إرادتها؛ كما يفعل الهندوس اليوم مع المسلمين، فإن هذا سيقود إلى إبادة الأقليَّات من مسلمين وأقباطٍ وغيرهم.. لأن هذه الأقليات لن تتخلَّى عن ممارسة حياتها وفق ما تعتقد وتتصوَّر. ليبقى الحلُّ كائناً في التسويات العاقلة حول مكونات أبناء الوطن الواحد، وإن غير ذلك سيعني تفتُّتاً وانهياراتٍ في بنية المجتمع.

إن جُلَّ الخلافات الناشئة عن مصطلح «العلمانية» تظهر نتيجة اعتقاد الناس أن الموضوع متعلِّقٌ بإدارة الدين، بينما في حقيقته متعلِّقٌ بإدارة المجتمع

فمن المهمِّ أن ندرك أنه لا يمكننا إنشاء مجتمعاتٍ عبر إبادة الآخرين أو قسرهم، فحتماً سيأتي اليوم الذي يتمرَّدون فيه وتنقسم الأوطان وتتفتَّت.. وإن كل ما حصل؛ سواء في العراق، أو في سوريا، أو السودان، أو الهند، هو نتيجة هذه النقطة الأساسية. وممَّا يؤخذ هنا بالحسبان أن الأقليات في زماننا لم تعد تأخذ قوتها من اتِّساع حجمها أو صغره، فإن علاقاتها الدولية لها إسهامٌ كبيرٌ، وكذلك نسبة التعليم الموجودة لدى أبنائها، والأموال التي تمتلكها.. فبات بإمكان أقليَّاتٍ صغيرةٍ جدَّاً أن تربك كياناتٍ اجتماعيةً ضخمةً، وتسبِّب لها من القلق ما لا يمكن تصوُّره! وإن الجانب الغريب أن كثيراً من الأقليات لو كانت هي التي تمثِّل الأكثريات، لَربما فرضت على الآخرين أن ينضمُّوا لمنظومتها، دون أيِّ نوعٍ من أنواع التغييرات!

إن النظام السياسي هو نظام توفيقي بين مختلفين.. وليس نظاماً يفرض به أحد ما منظومته على الآخرين مهما كانت مبرراته..

رابعاً: موقع المجتمعات العربية من الحداثة والعقلانية (المجتمعات العالقة)

نحتاج ختاماً أن نأتي على قضيةٍ أخيرةٍ، يمكن تسميتها بـ"المجتمعات العالقة"، وتتجلَّى بأفضل مثالٍ لها في مجتمعاتنا العربية.

تمكَّنت مجتمعاتنا العربية من ناحية العقل أو "التنوير" من صنع مدارس كالمدارس الغربية، تعلِّم داخلها الموادَّ التي يعلِّمونها لديهم، إلا أن الطالب -سواء عبر النظام التعليمي، أو المدرسين، أو الثقافة الشائعة في المجتمع- لديه عداءٌ مستترٌ لقضية العقل واستقدامه، فمثلاً: تمَّ طرد طالبٍ سودانيٍّ في المرحلة الابتدائية من المدرسة؛ لأنه يطرح أسئلةً اعتقاديةً، أي: لأنه يفكِّر! فمجتمعاتنا عالقةٌ في قضايا العقل، ولم تنجز منها شيئاً، ولم تدخل بعد في سلطة العقل بطابعها العامِّ، فلا يزال كثيرٌ من قراراتنا لا تخضع لاعتباراته..

أما على صعيد "الحداثة" بمعناها المعاصر، فقد دخلت إلينا وصنعت تغييراً معيَّناً في المجتمع، إلا أن بلادنا بقيت عالقةً في المنتصف؛ فعلى صعيد الإدارة، تُدرَّس أحدث النظريات

المتقدمة القادمة من الغرب، ولكن الممارسات الفعلية لا تزال مليئةً بالواسطات والمعارف، ولم تخلص إلى الشكل الحديث الذي يعتمد على الكفاءات. والآلة أيضاً أحضرناها ولم نتَّجه لمعرفة أسرارها. والسياسة تحدِّثنا بمبادئها، كمبدأ الديمقراطية، إلا أننا حجبناها بكثيرٍ من الذرائع والحجج؛ سواء بحجة أنها لا تناسب المجتمع، أو بحجة مخالفتها للدين.. ولم ننجز في نهاية المطاف شيئاً متَّفِقاً مع الدين، أو مع البيئة، فلم ندخل الديمقراطية بمعناها الشائع في العالم، ولم ننجز نظاماً يحقِّق العدل ويتناسب مع بيئاتنا؛ بل بقينا عالقين في منطقةٍ من المناطق.

وكذلك بالنسبة للروح التنافسية في العالم على المادة (روح الحداثة) التي تدفع نحو الهمَّة والعمل والكفاءة، وتسعى لأقصى درجات الأداء؛ سواء على الصعيد الاقتصادي، أو الاجتماعي.. فأيضاً لم ندخلها.

وكذلك بالنسبة لعالم الآخرة، فقد بقينا خارجه أيضاً، فلم ننجز مجتمعاتٍ أخلاقيةً (تعلو فيها العدالة والرحمة)، فحتى ما كان جديراً بنا أن نتفوَّق به، تفوَّقت به علينا هذه المجتمعات، فأقامت أنظمةً تضمن فيها العدالة والحريات وفق ما تعتقد.

إن بلادنا العربية من المجتمعات العالقة في منطقةٍ ضبابيةٍ في المنتصف، فلم ندخل روح الحداثة بمعناها المادي، ولم ندخل روح الدين بمعناه الأخلاقي، وإن هذه المجتمعات العالقة تحتاج بنيةً من الدراسات الاجتماعية التي تبيِّن هذه المفارقات، وتوضِّحها في الحياة السياسية الاجتماعية العالقين فيها.

إن العقل مهمٌّ، وأداته تدقيق المنهج باستمرارٍ. والحداثة داخلةٌ إلينا شئنا أم أبينا، ولكننا بحاجةٍ أن ننتبه للأجندات التي تُدَسُّ في الإجرائيات الآتية معها ممَّا لا علاقة له بالحداثة. ونحتاج في قضية العلمانية أن نخلُص من هذا المصطلح إلى مصطلح "أفضل نظام يصلح للمجتمع".

فلسفة الأديان
وأهمية الدين
في حياة المجتمعات



سنخصِّص هذا المبحث للحديث عن مسألة الدين، وأهميته في حياة البشر، وعندما نقول: "الدين"، فلا نقصد أننا سنخصُّ ديناً محدَّداً دون غيره؛ بل سنتكلم في فلسفة الأديان على العموم؛ فالأديان -سواءٌ الإسلام، أو المسيحية، أو اليهودية، أو البوذية- كانت ملازمةً دائماً للإنسان، ولعبت دوراً كبيراً جدًّاً في حياة الأمم قديماً وحديثاً..

في هذا السياق، يذكر د. جاسم قصَّةً حدثت معه، فيقول: بينما كنت أجلس في إحدى مقاهي بريطانيا، وكان معي أخٌ عزيزٌ، جاءت إلينا سيدة كريمة سلَّمت علينا، وسألتنا إن كنَّا عرباً، ثم سألتنا عن ديانتنا، ومن ثم جلست إلينا وبدأت تعرض دينها علينا، فتحدثت بكلِّ ما تستطيع، ونحن بين صمتٍ وسؤالٍ، فأمضت أكثر من ساعةٍ ونصفٍ وهي تتحدث دون توقُّفٍ بكل حماسٍ وأريحيةٍ من دون أن تنتبه إلى أعمارنا أو أشكالنا.

فالدين أصيلٌ في حياة الناس، وأصحاب الأديان باستمرارٍ يدعون إلى معتقداتهم التي يؤمنون بها كافَّة المجتمعات، وإن كل أصحاب دينٍ يعتقدون أن الذي هم عليه هو الدين الحقُّ، وبالتالي فإن كثيراً من الناس مستعدُّون لأن يضحُّوا ويتعبوا ويجتهدوا، أو حتى يموتوا في سبيل أديانهم.. فالدين يلعب دوراً كبيراً جدًّاً في حياه الناس، وفهم ظاهرة الدين جزءٌ هامٌّ من الثقافة الضرورية لفهم الحياة.



أولاً- روح الأديان وأهميتها

يعرِّف "علي عزَّت بيجوفيتش" الدين على أنه مطلق التسامي؛ فالأديان -سواءٌ السماوية، أو الوضعية- تظهر في كافَّة أطوار حياة المجتمعات، وتعكس شوق الإنسان إلى الارتقاء والسموِّ، فمنذ العصور القديمة بدأت تظهر محاولات اتصالٍ بقوَّةٍ غيبيةٍ (ما ورائيةٍ)؛ سعياً لتحقيق رِيٍّ لحالة الظمأ لقوَّة تفوُّق المادة؛ فالإنسان من خلال الدين -بشكلٍ أو بآخر- يقوم بمحاولةٍ دائمةٍ للتسامي على فكرة (مجهولية المستقبل)؛ الموت والفناء، وعلى فكرة (القلق الوجودي)؛ وعدم معرفته معنى الحياة التي يعيشها. فيهتمُّ الإنسان لأن يكون هنالك حياةٌ أخرى مختلفةٌ عن هذه الحياة. وهذا تجلَّى في سلوك أناسٍ فكروا أن يبنوا المعابد والأهرامات، وأيضاً لدى معتنقي الديانة الهندوسية الذين يحملون اعتقاد "التقمُّص"؛ وهو دلالةٌ على خروج الروح من الجسد ودخول روحٍ ثانيةٍ، وأيضاً هو دلالةٌ على الصعود والهبوط من مستوىً إنسانيٍّ إلى مستوىً حيوانيٍّ، أو من مستوىً حيوانيٍّ إلى إنسانيٍّ، وهنالك أديانٌ أخرى تتحدث عن اتحادٍ في العالم العلوي؛ فالإنسان في بعض الديانات يتحرَّر من نفسٍ عليا إلى نفسٍ أعلى، أو من نفسٍ عليا إلى نفسٍ دنيا. فسنجد أنفسنا عند الحديث عن الأديان أمام المعادلات المتعلِّقة بمحاولة الإنسان التسامي بشكلٍ من الأشكال للخروج من مأزق الحياة التي تشبِّهنا بزاويةٍ من زواياها ببقية الموجودات التي تعيش وتموت ولا معنى لوجودها ولا معنى لموتها.

ثانياً- بين الدين والفلسفة

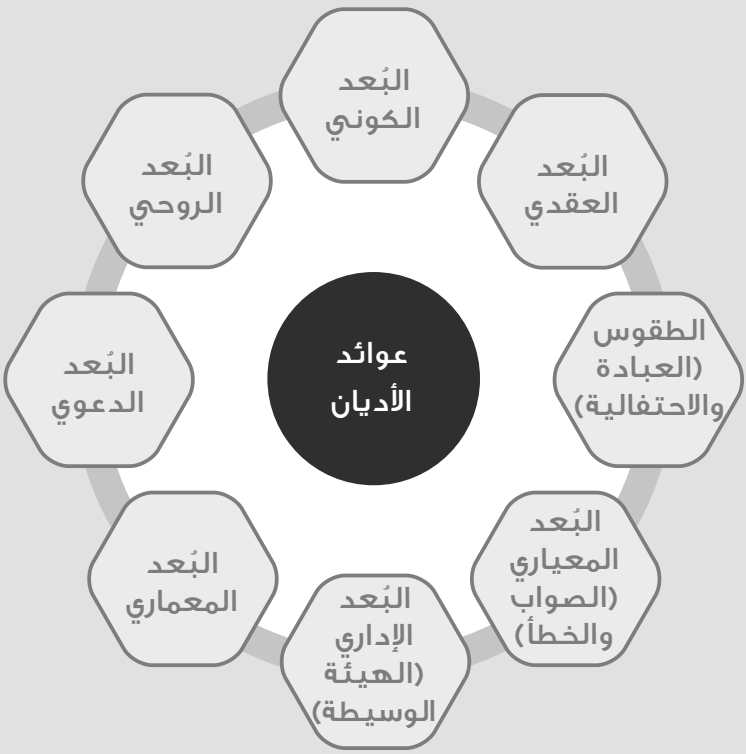
إن الفلسفة كنظامٍ معرفيٍّ تفترض أن جميع القضايا موضوعةٌ للسؤال وللمناقشة بموضوعيةٍ تامَّةٍ، فتَقبل النقاش في كافَّة الجوانب. أما الدين، فيَفترِض أن المتعالي (الأمر الخارج عن المادة) ليس محلاً للسؤال؛ بل هو محلٌّ للإيمان؛ فيُخرِج دوائرَ معيَّنةً من النقاش على أنها من المسلَّمات، على عكس الفلسفة التي تحاول إدخالها؛ فالفلسفة طبيعتها

هنالك فارقٌ موضوعيٌّ بين فكرة الدين وفكرة الفلسفة؛ فالدين يبدأ من نقطة الإيمان، بينما تبدأ الفلسفة من نقطة الشكِّ

البحث عن الحقيقة عبر المنطق العقلي. أما الدين، فيفترض أن هنالك منطقةً من الحقائق تغيب عن العقل، وإن كان يُسْتَدَلُّ عليها بالموجودات.

ثالثاً- عوائد الأديان على أتباعها

إذا نظرنا إلى الدين وما الذي يقدِّمه أو يعود به على حياة البشر، سنجد أنه في الغالب ما تتردَّد سبعة عناصر أساسيةٍ يقدِّمها الدين لأتباعه:



1. الرؤية الكونية (قصة الخلق):

الأديان جميعها تشترك في هذه البُعد، فتقدِّم روايةً كونيةً بطريقةٍ أو بأخرى لبداية الكون، تتمثَّل إمَّا بإلهٍ خَلَقَ، أو بقصةٍ من القصص المتداولة في الهندوسية والبوذية، فتعطي للإنسان تفسيراً متعالياً؛ أي: شيئاً لم يرَه عندما حدث، وأيضاً تعطي تصوُّراً عن الثواب والعقاب، والمآل

الأسمى؛ أي: المكانة الكبيرة التي تُعطَى لصاحب الصيغة الأفضل من صيغ الأداء لهذا الدين.

2. البُعد العقدي:

الدين يقدِّم للإنسان البُعد العقديَّ، أي: الحقيقة المطلقة التي يجب على الإنسان أن يخضع لها، فقد تكون إلهاً في بعض الأديان، وقد تكون روحاً تسكن العالم، وقد تكون هي ذات الوجود.. فيقدِّم الدين موجوداً أعلى، وعلى الإنسان أن يخضع له بشكلٍ من الأشكال.

وأيضاً، يوضِّح الدين الثواب والعقاب، فيثاب الإنسان ببعض الديانات من خلال ارتقائه لمستوياتٍ عليا، ومن ثم يتَّحد بالوجود الأعلى، وبالمقابل يعاقَب الإنسان بالهبوط إلى مستوى الحيوان، أو إلى موجوداتٍ أكثر تسفُّلاً، كالحشرات..

وأيضاً، يقدِّم الدين للإنسان غايةً في الحياة، فيجنِّبه أن يتَّجه فقط إلى الأغراض الدنيوية، فيحثُّه للتقدُّم والتطلُّع لأبعد من مستوى الدنيا، فيفتِّحه على فضاءٍ آخر غير الذي يعيش فيه، وتلك المستويات التي تتمثَّل بالجنة عند المسلمين، وبالنيرفانا عند البوذية..

3. الطقوس الدينية (العبادة والاحتفالات):

إن الدين لا يكتفي بالتوجيه الداخلي الفلسفي؛ بل يضع أيضاً تعبُّديَّاتٍ يوميةً أو شهريةً أو سنويةً.. فكافَّة الأديان تعطي قائمةً بالمطالب العملية التي يجب القيام بها؛ من عباداتٍ منظِّمةٍ للحياة، إلى أعيادٍ يتمُّ الاحتفال بها ونحوه.

4. البُعد المعياري (الصواب والخطأ):

الأديان تعطينا أيضاً البُعد المعياري، أي: أن أصحاب الأديان لديهم دائماً مسطرةٌ يحكمون على الأعمال من خلالها؛ سواء الأخلاقيات، أو المعاملات في العلاقات ونحوه.. فإننا -نحن المسلمين- كثيرو الترديد لعبارات: "كُلْ بيدك اليمنى، اخرج برجلك اليسرى.. هذا الفعل صوابٌ.. وهذا خطأ.."، لدينا دائماً مسطرةٌ معيَّنةٌ للصواب وللخطأ، وعندما نذهب إلى بلدٍ مخالفٍ لديننا نحرص على معرفة المسطرة التي تُحَكَّم إليها الأعمال لديهم حتى لا نخطئ معهم التصرُّف.

5. البُعد الإداري (الهيئة الوسيطة):

ممَّا يتخلَّق من خلال الأديان أيضاً البُعد الإداري، فبشكلٍ من الأشكال المقصودة أو غير المقصودة، تبرز طبقةٌ مسؤولةٌ عن المناسبات والأعياد ورعاية المعابد، تتشكَّل لها مؤسَّساتٌ، تُسنَد بتمويلٍ وأفرادٍ يشتغلون بها.. وإن هذا التنظيم نجده في كافة الديانات؛ سواء قصده المؤسسون، أم لم يقصدوه؛ فالدين يحتاج إلى مؤسساتٍ تقوم بمهمَّة تنظيم الحياة الدينية، وهي مؤسساتٌ يعيش بعض الناس منها، ويصرفون من أعمارهم في سبيل إحيائها.

6. البُعد المعماري:

تأخذ الأديان أيضاً بُعداً معماريَّاً؛ فالناس تميِّز بين الكنيسة وبين المسجد، وبين المعبد الهندوسي والمعبد البوذي، وبين المسموح به فنيَّاً وغير المسموح به، فكل دينٍ له جانبٌ معماريٌّ يعطيه صبغةً معيَّنةً وصورةً معيَّنةً، وهذه الصبغة تكتسب قداسةً بشكلٍ من الأشكال، فتصبح إهانتها إهانةً للدين ذاته..

7. البُعد الدعوي:

إن البُعد الدعويَّ حاضرٌ في معظم الأديان، ولَربما أديانٌ قليلةٌ تلك التي لا يوجد فيها بُعدٌ دعويٌّ، كاليهودية مثلاً؛ فاليهودي في الديانة اليهودية لا يمكن له أن يكون يهوديَّاً إلا إذا كانت أمُّه كذلك، أما بقية الأديان فهي باستمرارٍ تقوم بعملية الدعوة إلى حماها، فيمكن للإنسان أن ينتقل من دينٍ إلى دينٍ.

8. البُعد الروحي (بعد ذاتي):

هنالك بُعدٌ في غاية الأهمية، وهو جزءٌ من تكوين الدين؛ ويتمثَّل بالرغبة في الانعتاق من حالة الإنسان وملكاته إلى العالم المطلق، وهو بُعدٌ حاضرٌ في جميع الأديان؛ فجميع الديانات تسعى لأن تصل الإنسان المحدود بالمطلق الكليِّ، أي: إلى مرحلة "النيرفانا" عند البوذيِّين، أو"البراهما" عند الهندوس، أو "مستوى الملائكة" عند المسلمين، وبذاك السموِّ تتشكَّل القوى الخارقة، على مبدأ المسلمين كما ورد في الحديث القدسي: (.. ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ

بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنت بصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لَأعطينَّه..)، فتصبح لدى الإنسان بحسب فلسفة الأديان قوةٌ تحوي هذا الشوق للتسامي، وعند البعض فكرة التوحُّد بالمطلق، وللبحث عن الحقيقة المطلقة. ونجد باستمرارٍ أناساً يقومون بالمحاولات الروحية، وقد يكتسبون قوةً خارقةً، ويتَّصلون بالموجودات العليا، وهنا أيضاً تلعب كلٌّ من الأحلام والرؤى والكشف والإلهام دوراً كبيراً جدًّا، وإن الناس الذين يصلون إلى هذه الحالات يأتون بأخبارٍ متضاربةٍ، فلم يُجمِعوا على خبرٍ واحدٍ، إنما كلٌّ يأتي بروايته التي يوضِّح بها ما رآه بشكلٍ من الأشكال، ويحلُّ البعض هذا التضاربَ من خلال اعتباره تضارباً ظاهريًّاً فقط؛ فيعتبرون أن لكل إنسانٍ شفافيته الروحية التي تصل إلى مستوىً معيَّنٍ، فالذي قد ينفتح لإنسانٍ لا ينفتح لآخر، وبالتالي ينشب نوعٌ من الخلاف أو المفاخرة من قِبَل أتباع الشيخ الذي وصل إلى مستوىً أعلى من الانفتاح الذي وصل إليه شيخٌ آخر! وهذا موجودٌ في فضاء التصوُّف والعرفان بشكلٍ كبيرٍ، ويبقى السعي للانعتاق من الوجود المحدود من قِبَل الموجودين فيه إلى مستوىً أعلى من رؤية الأشياء والأحلام والتنبُّؤ بالحوادث محلَّ شكٍّ للإنسان الذي يعيش بحواسِّه الطبيعية الموجودة ولم يمرَّ بخبرة العبور من عالمٍ لعالمٍ، فهؤلاء البشر الذين ذهبوا وعادوا ليسوا مسؤولين عمَّا يقال، وأيضاً هم لا يملكون كلُّهم اليقين كونَها رحلةً حقيقيةً. هنا لنا الحق أن نقول: إنها تجربةٌ ذاتيةٌ فرديةٌ وليست تجربةً عامَّةً، وهذا ما جعلني أُفرد البُعد الروحيَّ عن بقية الأبعاد السابقة للدين.

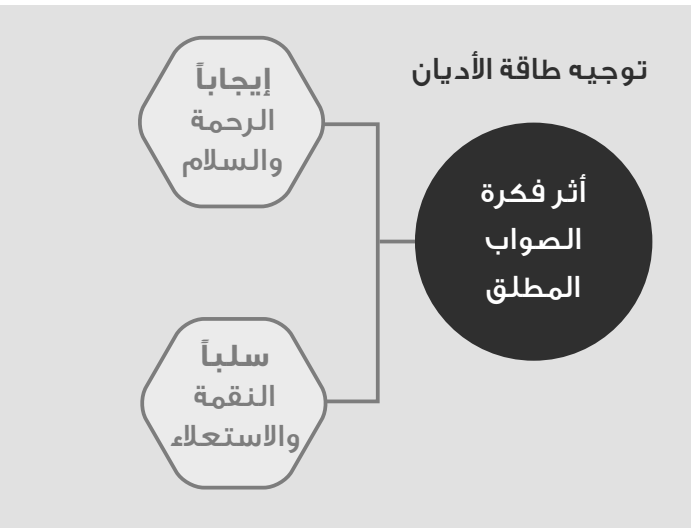
رابعاً- اعتقاد الصوابية، وأثره في توجيه طاقة الأديان إزاء المخالف

ما يعتقده أغلب معتنقي الأديان؛ أن البشرية جميعها على خطأٍ، وهم وحدهم على صوابٍ! وهي فكرةٌ لها آثارها الحميدة وآثارها غير الحميدة..

- فمن آثارها الحميدة أن الإنسان يتمسَّك باعتقاده ويعيش به، حتى إنه يمكن أن يموت من أجله..

- أما الآثار السلبية، فتكمن في كونه لا يحاكم اعتقاده محاكمةً عقليةً خاضعةً لمعايير

الصواب والخطأ؛ فقد يكون ضالًّا، ولكنه يعتقد بأنه على الهداية، ولديه الاستعداد للتضحية من أجل فهمه وتصوُّره الخاطئ، ومن جانب آخر تُعتبر الصوابية حُقنةً عاليةً في اتجاه أنَّه يمثِّل الحقيقة المطلقة، وأن الآخرين جميعهم على خطأٍ، وهذا الاعتقاد بمطلق الصواب يوجِّه المحتذي لدينٍ معيَّنٍ إزاء المخالف إلى اتجاهين متعاكسين يحملهما باستمرارٍ..



الاتجاه الأول:
أنه رحمةٌ للوجود، طالبٌ للسلام في كل العالم، يتَّجه لإحيائه أيّاً كان ذلك الإنسان ومهما اختلف عنه

الاتجاه الثاني:
أن لديه اصطفاءً واستعلاءً، فيجب على الآخرين أن يخضعوا لما يعتقده، والهلاك لمن يخالفه؛ فلديه قابليةٌ للعدوان، وإحياء الصراعات مع البشر

فيمكن أن يرتقي الإنسان بدينه ليكون نبع رحمةٍ للوجود من الشجر والحجر، وللبشرية؛ سواء اتفقت معه، أم اختلفت، كما يمكن أن يتحوَّل ليكون قنبلةً موقوتةً لتفجير نفسه في معبدٍ أو مسجدٍ أو نحوه..

يحتاج الدين إلى أن توجِّه طاقة الثقة الموجودة فيه نحو اتجاهاتٍ صالحةٍ لعمران الكون والحياة، وإن أيَّ خطأٍ في هذا الموضوع، سيقود إلى الاتجاه العكسي تماماً، كما نشاهد الآن في بعض البلاد نتيجةً لهذه العصبيَّة الناشئة عن نوعٍ من فهم الدين، فإن الطاقة المختزنة في الدين، إما أن توجَّه نحو الخير، وإما أن توجَّه نحو الشرِّ، ولذلك حدَّد الله سبحانه وتعالى

مهمَّة الرسول عليه الصلاة والسلام بالرحمة ﴿وما أرسلناك إلَّا رحمة للعالمين﴾، وإن هذه المسافة بين الاتجاه الأول والثاني هي التي صنعت هذا الشحن الكبير في العالم؛ بحيث لا تكاد تتكلم مع أحدٍ من الناس في قضيةٍ من القضايا، إلا وتبرز قضايا دينيةٌ وتصبح محلَّ صراعٍ! فعلينا أن نبحث في كيفية تجنُّب العثرات التي يمكن أن تُخلَق نتيجة توجيه الدين ضدَّ الآخرين في منحنىً مناقضٍ للمنحنى الارتقائي للبشرية، كي لا تظهر المشكلات، ويحتدَّ قتال الأديان، كتلك الحروب التي اشتعلت في أوروبا لعشرات السنين بين البروتستانت والكاثوليك، والتي أبادت مجتمعاتٍ وأقواماً، فكان ضحيّتها الملايين، وأيضاً ما يحدث اليوم في "مينمار" و"الهند" ضدَّ المسلمين، هو أيضاً نتاج فهم الأديان في منحنىً عدائيٍّ إزاء الآخرين.. فالمجتمع الإنساني اليوم في مرحلةٍ حرجةٍ جدًّا؛ نظراً لكمية التسلُّح المرعبة الموجودة فيه، والقادرة على الفتك والتدمير، فلم يعد الموضوع اليوم قاصراً على هلاك قريةٍ أو بلدةٍ، إنما هو واسعٌ ليفتكَّ بالملايين ويشرِّدهم؛ فالشحن الديني المغلوط الذي يؤدِّي إلى انفجاراتٍ اجتماعيةٍ قد ينتهي بكوارث كبيرةٍ جدًّا!

> إن الشحن الديني المغلوط للأوساط الاجتماعية قد ينتهي في يومنا هذا إلى كوارث ضخمةٍ، فعلى المجتمعات أن تنتبه لفاعلية الدين في خلق السلام أكثر من دوره كلاعبٍ في إشعال الحروب والاقتتال بين الناس!

خامساً- توجيه طاقة الدين الداخلية بين أبنائه (الصراع الداخلي حول أسسٍ تأويليةٍ)

إن الإنسان بأشدِّ الحاجة إلى الأديان؛ فالناس في علاقاتهم البعيدة عن عين السلطة (الأسرة والأصدقاء..) في حاجةٍ ملحَّةٍ لضبط العلاقات فيما بينهم، وهنا يأتي دور الدين في الضبط الموسع، وتقليل مساحة الاضطراب الاجتماعي الذي قد ينشأ في الحياة.

وإنها على الرغم من المنفعة التي تحقِّقها.. إلا أنها تشكِّل مثاراً للخلاف بين أبناء الدين الواحد، فداخل كلِّ دينٍ، سنجد اختلافاً حول تفصيلاتٍ أو تأويلاتٍ.. فمثلاً: اختلفت

المسيحية حول طبيعة الإله في قضية اللاهوت والناسوت اختلافاً بيِّناً أدَّى إلى حربٍ شنيعةٍ بين روما الغربية وروما الشرقية، وأدَّى إلى صداماتٍ ضخمةٍ جدَّاً بين الكنائس المسيحية المختلفة، وأيضاً في الإسلام انقسم الناس حول مسألة التوحيد والأسماء والصفات انقساماتٍ متعدِّدةً أدَّت إلى صداماتٍ وإلى تفسيقٍ وتبديعٍ وتكفيرٍ بين المسلمين.. وبالتالي كلما اتجه الموضوع إلى العموم، أصبح أكثر أماناً وأكثر قدرةً على جمع الناس، وكلما اتجه الناس إلى التدقيق في التفصيلات والجزئيات، كثرت الخلافات والخصومات، وقادت إلى صداماتٍ بين الناس المتفقين على الكليات العامَّة.

الخلاصة

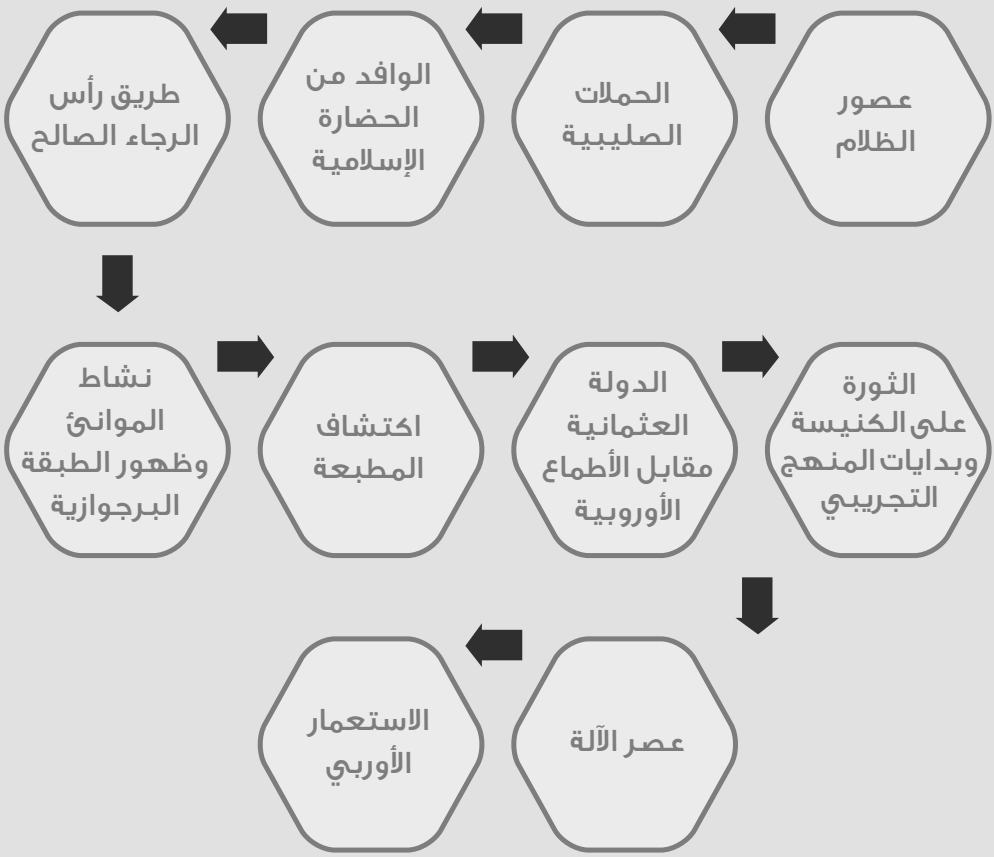
الجزء المهمُّ في حياة البشرية ألا توجَّه طاقات الناس سلباً؛ فلو كنتُ مسلماً في الهند أو في الصين، فلا يهمُّني ما يعبدون ويعتقدون.. بل ما أحتاجه هو ألا توجَّه طاقة الدين لديهم للانتقام مني، وهو ذات الشيء الذي يعنيهم بالنسبة لي؛ ألا توجَّه طاقة الدين لديَّ سلباً للانتقام منهم، وألا توجَّه طاقة الدين داخليَّاً لتفكيك المجتمع الواحد الذي يؤمن بالكليات المشتركة!

إننا إذا أدركنا هذين الخطرين، يصبح لدينا وعيٌ بالاتجاهات السلبية التي تنشأ رغم التديُّن الذي قد يقود إلى أحد طريقين: الرحمة، أو النقمة..

وننوِّه هنا بكتابٍ اسمه "حياتنا الروحية"؛ حيث يخصِّص بحثاً عن المشترك الأسمى بين جميع الديانات السماوية والأرضية.. ليجد أنَّ هناك مقولةً مشتركةً بين الجميع: "أَحبِب لغيرك ما تحبُّ لنفسك"، أو: "لا ترضَ لغيرك ما لا ترضاه لنفسك"، إلا أن هناك شيئاً ما يوجِّه طاقة الفعل أحياناً للانتقام! فيرضى الإنسان لغيره ما لا يرضاه لنفسه!

مسار الحضارات عبر التاريخ ومآلات الحضارة الغربية





قد يكون هناك تكرارٌ لما سنطرحه الآن، ولكن ما نريده من هذه المعلومات أن تكون بمثابة تمهيدٍ لرؤية تطوُّر الحضارة الإسلامية؛ لنأتي منها على الأسباب التي أوصلتنا إلى هذه الوضعية الحضارية.

وسنبدأ بالطرف المقابل لحالتنا، وهو الحالة الأوربية التي لها أثرٌ مفصليٌّ في ذلك..

عصور الظلام

عصر الظلام هو لحظة السكون المعرفي وغياب العلم في أوروبا، وكانت الحركة الأولى لنهايته بدايات تشكُّل القوميَّات في أوروبا وتعريف الذات

تكلَّمنا في المبحث السابق عن التاريخ العالمي ورحلة البشرية في تطوُّرها.. ووقفنا على حدود التاريخ الأوروبي، وقلنا: إن أوروبا منذ حوالي سنة 476م إلى 1066م (حوالي خمسة قرونٍ)، قد تركَّزت فيها عصور الظلام، وتخلَّل هذه العصور كثيرٌ من الأشياء الجيدة بالنسبة للأوروبيِّين، إلا أن الطابع الأساسيَّ لتلك العصور هو الظلام والجهل، وكان السبب الرئيسي في ذلك حكم البرابرة، فبعد أن انهارت الحضارة الرومانية -التي تعتبر امتداداً للحضارة اليونانية- أمام هجمات البرابرة -وهم عشائر بدويةٌ غير متعلِّمةٍ-، فَقَدَت أوروبا أهمَّ مميِّزٍ لها، وهي قضية العلم والمعرفة، فتكوَّنت الإمبراطورية من أناسٍ لا يعرفون القراءة ولا الكتابة، فانتشر الجهل في أوروبا انتشاراً ضخماً، ومُنعت الكتب اليونانية من التداوُل، ووجدت الكنيسة أن ما حدث يصبُّ في مصلحتها؛ لكونه يحميها من مساءلات الفلسفة في القضايا التي تطرحها، فدعمت السلطة وآزرتها، وأخذت دعماً قويًّاً منها، تمكَّنت من خلاله على الهيمنة بقوَّةٍ؛ فصادرت روح الإنسان وجسده وعقله -كما ذكرنا سابقاً-، فأضرَّت بالحياة الأوروبية بشكلٍ كبيرٍ، ما أحدث نوعاً من الركود الضخم في مجال الثقافة والعلم. فاتَّصفت المرحلة بالركود العلمي والمعرفي، وانتشار الجهل والأمية، وعدم القراءة، واختفت الكتب، ووُضِعت في الأقبية أو أُحرقت.

هذا بالإضافة إلى هيمنة النظام الإقطاعي الذي يمتصُّ دماء الناس؛ حيث شكَّلت طبقةُ الفلَّاحين ممَّن ليسوا بِمُلَّاكٍ تكتُّلاً بشريًّاً كبيراً جدًّاً من الأوروبيِّين، ويشتغل الواحد منهم ليل نهار بالزراعة من دون أن يحصل على شيءٍ مقابل جهده سوى أن يسمح له بأن يعيش على الأرض ويحصل على طعامه منها!

كما أنه في تلك الآونة لم تكن قد نشأت الدولة الوطنية أو القومية بعدُ؛ أي: أنه من الممكن أن يموت الملك البريطاني فيرثه ملكٌ فرنسيٌّ أو إسبانيٌّ؛ وذلك بسبب العوائل الملكية

المتزاوجة من بعضها البعض، فقد يصل إلى حكم بريطانيا ملكٌ لا يعرف اللغة الإنجليزية التي هي لغة الشعب!

الحملات الصليبية

مع بداية القرن العاشر الميلادي بدأت تدبُّ حياةٌ جديدةٌ في أوروبا؛ حيث بدأت تظهر النَّوَيَات الأولى للنزعة القومية الأوروبية، فأصبح الفرنسي يعرِّف نفسه كفرنسيٍّ، والإنكليزي يعرِّف نفسه بأنه إنكليزيٌّ، والإسبان والبرتغال كذلك.. وبدأت الأحوال بالتحسُّن شيئاً فشيئاً.. ولكثافة البشر الموجودين حينها -حيث كان في أوروبا حوالي 80 مليوناً من البشر- ومع زيادة الأوبئة، وشحِّ الزراعة، بدأ يتعذَّر توزيع مزيدٍ من الأراضي على النبلاء، فظهرت فكرة الخروج من أوروبا إلى مناطق تبدو غنيَّةً بالنسبة لهم، وفي هذه الآونة كان العالم الإسلامي قد بدأ يضعف، وفي المخيال الأوروبي كانت المناطق الغنية هي مناطق المسلمين، أي: بلاد الشام ومصر، فبدأت تراودهم فكرة الغزو لهذه المناطق، إضافةً لكون الموضوع له بعدٌ دينيٌّ؛ باعتبار وجود بيت المقدس الذي هو مهد المسيح، وبالتالي وجدوا حجَّةً يحقُّ لهم من خلالها حسب تصوُّرهم احتلال هذه المناطق، فبدأت الحملات الصليبية تتوالى على بلاد المسلمين لغزوها!

الوافد العلمي من الحضارة الإسلامية

على الرغم من الآثار السلبية على البلاد الأوروبية نتيجة الحملات الصليبية، إلا أنه كان لتلك الحملات عوائد إيجابيةٌ، ومنها أن اكتشف الأوروبيُّون مع هذا النشاط العسكري ثروةً علميةً ضخمةً في العالم الإسلامي، فبدؤوا بالتعرُّف على التراث الإسلامي الذي كانوا يجهلونه، كما بدؤوا يحضرون الحِلَق العلمية التي كانت تقام في قصور الملوك الموجودين، وقد كان "صلاح الدين" مشهوراً بعلاقاته الوطيدة بهم، فكانوا في أوقات السلم يزورونه ويزورهم، كما كان يرسل طبيبه لتطبيب ملوكهم، حتى إنهم كانوا يتبادلون المسائل العلمية ويعقِّبون عليها، ونشأت ممالك أوروبية في تلك الآونة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، فكانت كلٌّ من سوريا ولبنان إلى أسفل الساحل تحت حكم الصليبيِّين، فحينما التقى الأوربيُّون بالعلوم الإسلامية، وشاهدوا كيف تُدار الحِلَق العلمية.. عادوا



إلى ديارهم وبدؤوا بتشكيل حِلَقٍ علميةٍ -وخاصَّةً في إيطاليا-، على غرار الحِلَق التي شاهدوها في بلاد الشام، كما قاموا بترجمة الكتب التي أخذوها، وبدأت تؤسَّس الجامعات في إيطاليا، ومن ثم امتدَّ انتشار هذه الجامعات إلى فرنسا، وبدؤوا يدرسون غير الموادِّ التي كانوا يدرسونها في السابق (كتب اللاهوت المسيحي)، فبدأت تُدَرَّس في جامعاتهم كتب "ابن سينا" و"الفارابي" و"ابن رشد" و"ابن الهيثم" التي حملت العلوم الإسلامية التطبيقية من طبٍّ وبصرياتٍ وهندسةٍ وميكانيكا.. فأصبح هناك فضاءٌ علميٌّ متداولٌ قادمٌ من الحضارة الإسلامية إلى الدول الأوروبية، ولقَّح هذا الوافد البيئةَ الأوروبية، وظهر أثره في القرن الثاني عشر، وأصبحت العلوم المتداوَلة في البلاد الإسلامية متداولةً لديهم، ويقوم حولها نشاطٌ علميٌّ واسعٌ. فهذه المغامرة الكبيرة التي قاموا بها خصَّبت لهم الأرض بعلومٍ جديدةٍ غير العلوم المألوفة لديهم المرتبطة بالكتب المقدَّسة، علماً أن تبنِّي أفكارٍ جديدةٍ في الحياة هناك، لم يكن بالأمر اليسير، فـ"روجر بيكون" الذي دعا لتبني المنهج العلمي تمَّ سجنه 27 عاماً؛ لاعتباره

مهرطقاً، وأنه ضدُّ الكنيسة وضدُّ العلوم الأوروبية القديمة! فهل ستنجح القوى القديمة في اقتلاع هذه النواة، أم أن النواة ستجد لها تربةً وأرضاً بعد حينٍ؟!

إن هذا المشهد التحوُّليَّ في أوروبا هو طابعٌ عامٌّ في الحياة؛ فالحضارات تُلَقِّح دائماً من حضاراتٍ أخرى، فممَّا أسهم بتلقيح حضارتنا الإسلامية، انتقال علوم اليونان إلينا، وحينما انقلبت الدورة الحضارية، كان للحضارة الإسلامية إسهامٌ كبيرٌ بتلقيح الحضارة الأوروبية وتخصيبها

اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح

مع الوصول إلى القرن الرابع عشر، حدثت تحوُّلاتٌ ضخمةٌ في أوروبا نتيجة الصراع مع المسلمين؛ حيث كان الأوروبيُّون آنذاك يذهبون إلى موانئ الشام والموانئ المصرية لأخذ البضائع القادمة من طريق الحرير من الصين والهند، وكانت تجارة الترانزيت تشكِّل جانباً رئيسيًّاً للحياة الاقتصادية في كلٍّ من مصر وبلاد الشام، وفي أواخر العصر المملوكي حكم مصر والشام ما يسمَّى بـ: "مماليك البرجية"، بعد أن كانت محكومةً من قبل "المماليك البحرية"، وهؤلاء عاثوا فساداً كبيراً جدًّاً؛ فدخلوا الأسواق وبدَّلوا سعر العملة، وبدؤوا يفرضون المكوس على الناس القادمين، ويرفعون أسعار البضائع، حتى بدأ الأوربيُّون بالتململ، وقرَّروا أن يقاطعوا موانئ الشام ومصر، وحثَّتهم توصيات البابا للسعي لإيجاد طريقٍ آخر غير طريق الموانئ الإسلامية، ممَّا أحدث هزَّةً ضخمةً في الدولة المملوكية التي تعيش على تجارة الترانزيت ولها منها عوائدُ كبيرةٌ.

اتجه الأوروبيُّون للبحث عن طرقٍ جديدةٍ للوصول إلى الهند والصين، ومع عديدٍ من المحاولات، استطاعوا عبور طريق "رأس الرجاء الصالح"، ومنذ ذلك الحين أصبح مسار رأس الرجاء الصالح صالحاً للملاحة ومرور السفن، ووصلوا إلى الهند والصين بيسرٍ وسهولةٍ من دون أن يحتاجوا موانئ البحر المتوسط، فبدأت تموت التجارة في مصر والشام في فترة ما بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وبدأ يموت معها العلم والمعرفة وجميع أوجه الحياة..

نشاط الموانئ وظهور الطبقة البرجوازية

في الطرف الأوروبي المقابل، بدأت الكشوف الجغرافية تكثر وتتَّسع، وسينشأ هنا حدثٌ مفصليٌّ؛ فالأوربيون بعد اكتشافهم لرأس الرجاء الصالح، والوصول إلى الصين، وصلوا بالخطأ إلى شواطئ أمريكا الجنوبية وأمريكا الشمالية، ومع وصول الكشوف إلى تلك المناطق، اكتشفوا حضارتَي "الأنكا" و"المايا" في أمريكا الجنوبية، وهذه الحضارات عريقةٌ، وكانت تبني قباب معابدها من الذهب، وتزن حكَّامها به. وحينما وصل الإسبان إلى تلك المناطق التي كان لا زال سلاحها السهام والرماح.. غزوهم بالبنادق والمسدَّسات، واستطاعوا نقل الذهب من أمريكا الجنوبية إلى الموانئ الأوروبية، فأتت السفن الأوروبية محمَّلةً بالذهب، وانتشرت فكرة أن هناك مدناً غنيةً بالذهب قابلةً للنهب! فبدأ التجار يبنون السفن ويستثمرون في هذه الرحلات، وصارت الحاجة إلى العمالة كبيرةٌ جدًّا؛ فالميناء الذي كان يضمُّ 2000 أو 3000 عاملٍ شهد تضخُّماً، وصار يصل عدد العاملين إلى مئات الألوف من الفلَّاحين القادمين من الأرياف، وبدأ الذهب يتدفَّق على أوروبا، وامتلأت خزائنها منه..

إن المدن التي وُلدت حول الموانئ، ستولد معها طبقةٌ جديدةٌ، لديها مطالب فاعلةٌ ستُشكِّل أوروبا من الناحية الثقافية في المستقبل

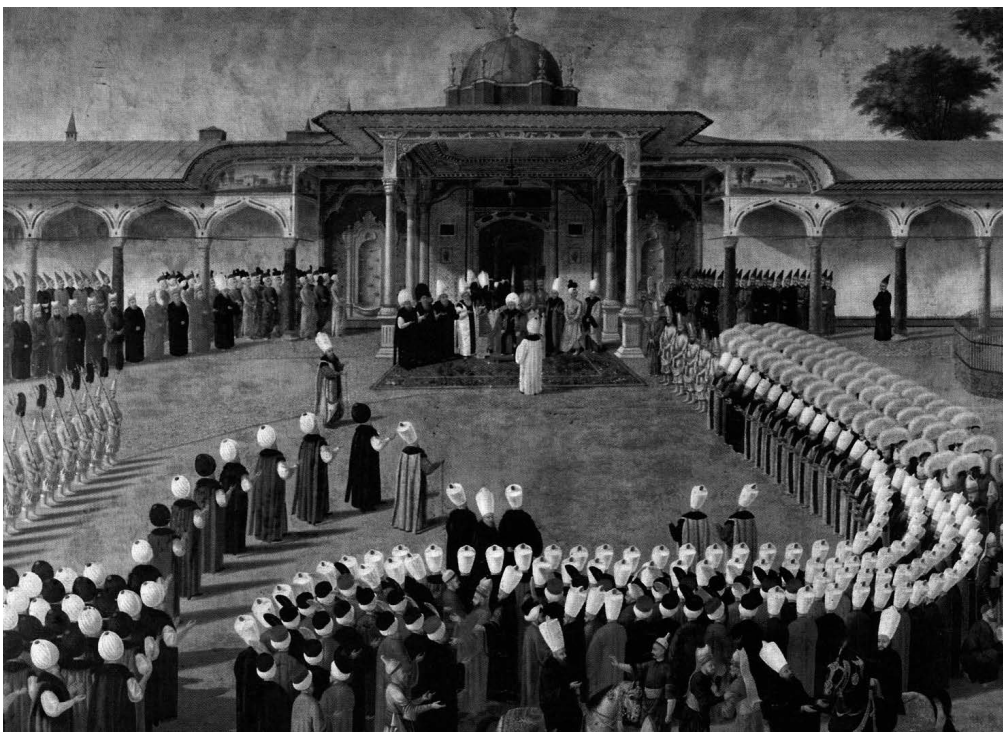
مع زحف العمَّال إلى الموانئ، بدأت تتشكَّل طبقةٌ جديدةٌ جلُّها من الفلَّاحين المضطهدين الذين سيسكنون حول الموانئ. ولم يكن لهذه الطبقة تعريفٌ في النظام الاجتماعي الموجود في أوروبا، إلا أنها ستكبر مع مرور الزمن، وستمتلك المال والعلم والمعرفة، وستسمَّى بـ: "الطبقة الوسطى" أو "الطبقة البرجوازية"، ولن يقتصر أثرها على مصير الحياة الأوروبية فقط، إنما سيمتدُّ ليطال العالم، فستبدأ -بعد أن أصبحت تكتُّلاً كبيراً وقويًّا- بمطالب جديدةٍ؛ وستبثُّ أفكار "الليبرالية" التي تنادي بتحرير التجارة، وإعادة توازن النظام السياسي، وتعديل الحياة بما يتناسب معها، ومن هذه الطبقة سيخرج لاحقاً المتعلِّمون والأغنياء وكبار الناس الذين سيقومون بتأسيس البنوك.. وسيصنعون انقلاباً كبيراً في التاريخ.

اكتشاف المطبعة

سيحدث حدثٌ مفصليٌّ أيضاً في الحياة الأوروبية، فبعد أن نشط الاقتصاد، وفُتِحت الجامعات، واتَّسعت بعلومها، ستُطَوَّر المطبعة من الطباعة اليدوية إلى الطباعة الآلية، وسيصبح بالإمكان طباعة آلاف الكتب بشكلٍ سريعٍ، فيقال: إنه بعد اكتشاف المطبعة بـ50 عاماً، وصل عدد الكتب المطبوعة إلى 90 مليون كتابٍ بعد أن كان عدد الكتب المنسوخة باليد 30 ألف كتابٍ، ومن هنا يتَّضح حجم تطوُّر الحياة العلمية والمعرفية في تلك الحقبة.

الدولة العثمانية مقابل الأطماع الأوروبية

انتقلت أوروبا نقلاتٍ ضخمةً جدًّاً، فتطوَّرت جُلُّ مناحي الحياة، وتشكَّلت الثروات، وارتفع الاقتصاد، وفُتِحَت الجامعات المنظَّمة المدعومة بالطباعة، فانتشرت المعرفة بشكلٍ كبيرٍ جدًّاً، فكانت كلُّ هذه العوامل هي إرهاصات أو خمائر قوَّةٍ كبيرةٍ.



في تلك اللحظة التاريخية، تقابَلَ حدثان ضخمان؛ فتح القسطنطينة من قِبَل "محمد الفاتح"؛ حيث كانت القوة الإسلامية العثمانية الناشئة لا تزال فتيةً، وطرد المسلمين من الأندلس. فارتفعت معنويات الأوروربيِّين، إنما مقابل ازدياد الرعب الأوروربي من التقدُّم الإسلامي الذي لا يزال قويًّا؛ حيث إن الدولة العثمانية كانت دولةً عسكريةً، وكانت قادرةً إلى القرن السادس عشر أن تغزو أوروبا وأن تصل إلى "فيينا".

الثورة على الكنيسة وبدايات المنهج التجريبي

استمرَّت أوروبا بعملية التطوير، وثارت على الكنيسة، وبدأت تتحرَّر من أفكارها، واستنفرت البحث في التراث اليوناني الذي وجدته مُعَدًّا لها من قِبَل المسلمين، وبدؤوا يستعيدون نظرةً جديدةً للعلم والمعرفة، فهم سيطوِّرون الرياضيات التي أتتْهم من الحضارة الإسلامية، وسيبدؤون النظر إلى الفلك والبحوث الفلكية، وسيكتشفون أن العالم الذي رسمته الكنيسة بمركزية الأرض للكون ليس صحيحاً، فستنهار السلطة العلمية التي كانت لـ"بطليموس" و"أرسطو"، وسيظهر أبطالٌ جددٌ، مثل: "نيكولاس كوبرنيكوس"، و"غاليليو غاليلي"، و"يوهانس كيبلر"،



وغيرهم.. ممَّن سيفتتحون الأفق نحو سؤال المنهج، فسيؤسِّسون تأسيساً حقيقيًّاً للمعرفة عبر المنهج التجريبي وتقنينه، والمنهج الرياضي وتقنينه، وستغدو أوروبا مهيَّأةً لقفزةٍ كبيرةٍ ستبدأ من القرن السادس عشر الذي على الرغم من أنه لم يحظَ باكتشافاتٍ علميةٍ ضخمةٍ، إلا أن مركزية الإنسان تغيَّرت من الهامشية ومركزية الصراع حول حقِّ الله، إلى تركيز الصراع نحو حقِّ الإنسان؛ حيث كتبت أولى الكتابات عن الكرامة الإنسانية..

وإن هذا التغيُّر المحوريَّ سيؤهِّل أوروبا في قضية النزاع على الحكم، وفي تعديل السياسة والاجتماع بما يرفع منزلة الإنسان الأوروبي ويجعله مهمَّاً في الحياة..



عصر الآلة

استمرَّ التطوُّر في أوروبا على صعيد المنهج العلمي والاكتشافات المعرفية الجديدة، وعلى صعيد الإدارة، وبدأت عمليات الطباعة الواسعة للعلوم والمعارف الموجودة، ومن ثم دخلت أوروبا ما يسمَّى: "عصر الحداثة الأوروبية"، أو "عصر الآلة"، ليبدأ في بريطانيا عصرٌ جديدٌ تدرَّج مِن المغزل اليدوي إلى المغزل الذي يدار بالمياه، ثم إلى المغزل البخاري.. وظهر عصر الكهرباء وبدأت

أوروبا تتغيَّر تغيُّراً جذريًّاً، وهذا قَلَبَ موازين العالم انقلاباً جذريًّاً؛ ففي حين كانت السيدة تحيك في سوريا جبَّةً أو سجادةً باليد، كان المصنع الموجود في بريطانيا يُخرج آلاف القطع في وقتٍ قياسيٍّ وبيدٍ عاملةٍ قليلةٍ، وفي الوقت الذي أصبحت فيه البضائع تُنقل بزمنٍ قياسيٍّ عبر السفن الأوروبية البخارية، كانت مناطق المسلمين لا تزال تعتمد على الأشرعة وعلى قوَّة العضلات! فأصبح الأوروبي أسرع في الماء وأسرع على الأرض، حتى إن السلاح الحربيَّ لديه تطوَّر من سلاحٍ وحيدٍ يُطلق رصاصةً واحدةً، إلى المدفع الآلي الذي يستطيع أن يبيد آلاف الناس.. وفي حين ظهرت الاتصالات اللاسلكية، وأصبح التواصل في أوروبا لا يحتاج إلى التنقُّل، كانت هذه الأفكار تبدو لدينا كأنها جنٌّ وعفاريت!

الاستعمار الأوروبي

خرجنا في هذه اللحظات التاريخية كدولٍ مسلمةٍ من الدورة الحضارية، وبدأ عصر الاستعمار الأوروبي؛ حيث سيجعل الأوروبيُّون العالَم بما فيه: "هم"؛ فالاستعمار الأوروبي لم يأتِ لاستعمارنا نحن فقط بحسب ما نتصوَّر؛ فالأوروبيون كانوا يريدون مناطقنا كممرَّاتٍ وسيطةٍ، بينما كان الهدف الرئيسي المناطق الكبيرة وطرق التجارة الرئيسية.. فحينما أسَّس البريطانيُّون شركة الهند الشرقية، باتوا على احتياجٍ لتأمين سفنهم من مناطق الشرق الأوسط (منطقة الخليج العربي أو الشام).. فبدأت محاولات الأوروبي للسيطرة على العالم، ولم تكن سيطرته بسبب امتلاكه للقوة فحسب، إنما اعتمدت بشكلٍ أساسيٍّ على المعرفة التي تجعل تكلفة السيطرة على الآخرين أقلَّ بكثيرٍ ممَّا يجب أن يكون.. فالسلاح لديه متفوِّقٌ، والمعرفة بهذه المناطق أصبحت عاليةً جدًّاً؛ بحيث إنهم كانوا يدرسون المناطق دراسةً أنثروبولوجية[1] من قبلِ أن يغزوها، كما أنهم على معرفةٍ بطرق التجارة العالمية، ويمتلكون السفن البخارية.. فبذلك كلِّه باتت الفجوة بيننا وبين الغرب فجوةً كبيرةً جدًّاً، وأصبح الغرب سيِّداً على العالم، بقيادة بريطانيا أولاً، ثم تتبعها فرنسا، ثم بقية العالم الأوروبي، وأميركا في الظلِّ..

1) Aygoloporhtn: البحث في أصل الجنس البشري وتطوُّره وأعراقه وعاداته ومعتقداته.

واستمرَّت التصفيات لتطال أوروربا نفسها؛ فتبدأ الحرب العالمية الأولى 1917م-1919م اقتتالاً على مراكز الدول فيها، ومَن له الأولوية.. وراح ضحيَّتها 10 ملايين إنسانٍ، وسيستمرُّ الصراع دون حاسمٍ له.. ثم لتبدأ الحرب العالمية الثانية 1939م على المراكز الجديدة والتطوُّرات الموجودة، لتتوَّج بظهور العملاقين الأمريكي والروسي.

بدأ تنظيم العالم على يد الغربيِّين الفائزين بالحرب العالمية الثانية الذين شكَّلوا "عصبة الأمم" في الحرب العالمية الأولى، ثم "هيئة الأمم المتحدة" في الحرب العالمية الثانية، وفق احتياجاتهم، تاركين الفُتات لبقية العالم!

إن أيَّ مشتغلٍ في النهضة، يتوجَّب عليه أن يعرف المسار معرفةً حقيقيةً جيدةً حتى يرى هذا العالم كيف تشكَّل؛ فأوروربا لم تتشكَّل صدفةً في لحظةٍ معيَّنةٍ؛ بل هي نتاج أحداثٍ متطاولةٍ خلال قرونٍ جعلتها تنال هذه المكانة الموجودة.

وإن أيَّ شخصٍ أراد أن يدخل في هذا الصراع الكوني، ويجد له مكاناً، فعليه أن يخدم جهداً علميَّاً ومعرفيَّاً لافتتاح عصره الجديد، كما فعلت الصين واليابان. فليس هناك طريقٌ مختصرٌ لدخوله إلا بالجدِّ والاجتهاد، وغير ذلك سيكون عبثاً..

إذاً؛ فموضوعٌ كهذا ليس محصِّلة صدفةٍ تاريخيةٍ، أو حدثٍ مضى؛ بل هي تغيُّراتٌ كونيةٌ ضخمةٌ، وعلى مَن هو داخل اللعبة أن يعرف قوانينها جيِّداً!

الحضارات عبر التاريخ
الحضارة الإسلامية -1-
الخطُّ العثماني والفجوة الكبرى



◄ ◄ ◄

سنتكلَّم في هذا القسم عن فجوةٍ تاريخيةٍ حاصلةٍ في التاريخ الإسلامي، ونحن كالعادة نضع الهيكل العظميَّ والأفكار الرئيسية، وللقارئ أن يملأ الهيكل بالتفاصيل التي يجمعها عن الموضوع، فبعد وضع الهيكل الرئيسي، يبقى من السهل جدًّاً ملء الفراغات وتعبئة الأفكار وتكوين الخطاب..

حينما نقول: "فجوة تاريخية"، قد يُخيَّل للقارئ أنها فراغٌ صغيرٌ حدث ومضى، إلا أن الفجوة التاريخية في التاريخ الإسلامي هي فجوةٌ كبيرةٌ ممتدَّةٌ من القرن الثامن الميلادي إلى نهاية عصر الدولة العثمانية تقريباً في القرن العشرين..

وإن الإخفاقات ابتداءً من تلك اللحظة التاريخية (انهيار الدولة العثمانية) وما تبِعها.. كثيراً ما تُعزى إلى تلك اللحظة، وكأنها لحظةٌ مستقلَّةٌ عمَّا قبلها، فلا يسلَّط الضوء على الفجوة الحقيقية التي سنتناولها في طرحنا الحالي، والتي كانت عاملاً رئيسيًّاً للتراجع الإسلامي في المنطقة.

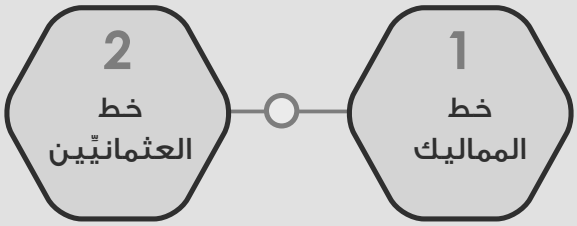
منطقة ما وراء النهر

سنبدأ حديثنا من مناطق بلاد ما وراء النهرين -ونقصد بها أواسط آسيا؛ حيث (أوزباكستان - تركمانستان - طاجكستان - إيران - أفغانستان.. وجميع المناطق التي تنتهي بالـ ..ان)-، وهي المناطق التي ستبدأ منها الأحداث وتظهر فيها أهمُّ القضايا..

فقد كان العبيد يساقون من تلك المناطق من قِبَل العباسيين إلى بغداد التي كانت عامرةً في تلك الآونة تحت سيادة الدولة العباسية، بعد أن دخلتها الحضارات بثقافاتها المتنوعة في أواخر العصر الأموي.. وقد كان العبيد يُفرَزون إلى مقاتلين وغير مقاتلين، فيتمُّ تأهيل المقاتلين عسكريًّاً ودينيًّاً.. وتذهب الفئة الأخرى كخدمٍ في قصور العباسيِّين، وكانت فعليًّاً الخلافة العباسية تستقطب الناس الذين سيشكِّلون تاريخ المنطقة فيما بعد دون أن تدري؛ فمع ازدياد قوة تلك الفئة، سيتولَّد الطموح لديها، وستتَّجه بنظرها نحو المناصب

والسلطة بحكم امتلاكها للعقل والقوة، وسيبدأ قلب الخلافة بالضعف شيئاً فشيئاً، إلى أن يصبح منصب الخليفة شكلاً رمزيًّاً فقط أمام تلك الفئة التي تقود الجيوش وتشغل المناصب العليا في الدولة، والتي ستكون أفضل درعٍ متينٍ للمنطقة عند دخول الصليبيِّين والمغول فيما بعد.. فهي من جانبٍ ثلَّةٌ مقاتلةٌ تدافع عن الإسلام، ولكنها من جانبٍ آخر ستسعى جاهدةً للاستقلال عن الخليفة.

وستنقسم تلك الفئة القادمة من بلاد ما وراء النهرين لتشكِّل خطَّين بارزين:



وسنركِّز هنا على الخطِّ العثماني الذي يُعتبر خطَّاً مفصليًّاً في تشخيص معالم الفجوة بشكلٍ أساسيٍّ..



الخط العثماني (التركي)

ستقوم دولة "السلاجقة العظام" في بلاد ما وراء النهرين (بلاد فارس)، تلك البلاد التي سيق منها العبيد كمقاتلين وخدمٍ إلى الدولة العباسية، وستقوى دولتهم وتمتدُّ امتداداً ضخماً جدًّا؛ بحيث ستسيطر على المشرق العربي، وصولاً إلى تخوم الدولة البيزنطية، إلا أن هذه القوة العظيمة -"دولة السلاجقة العظام"- ستضعف بعد موت "سنجر" آخر عظام السلاجقة، وسيظهر كامتدادٍ لها دولةٌ سلجوقيةٌ أخرى تسمَّى: "سلاجقة الروم"، وسيمتدُّ حكمها حوالي 200 سنةٍ، وسيتَّخذون من "قونيا" في الأناضول مملكةً لهم.

وهؤلاء السلاجقة هم مَن سيشكِّلون رحم الدولة التركية؛ حيث كان "أرطغرل" قائداً حدوديًّاً لهذه الدولة السلجوقية على تخوم بلاد الروم "بيزنطة"، أي: في المناطق الموجودة فيها تركيا المعاصرة الآن، فإسطنبول كانت عاصمة الدولة البيزنطية؛ حيث إن الدولة البيزنطية هي القسم الثاني من الحضارة الرومانية.

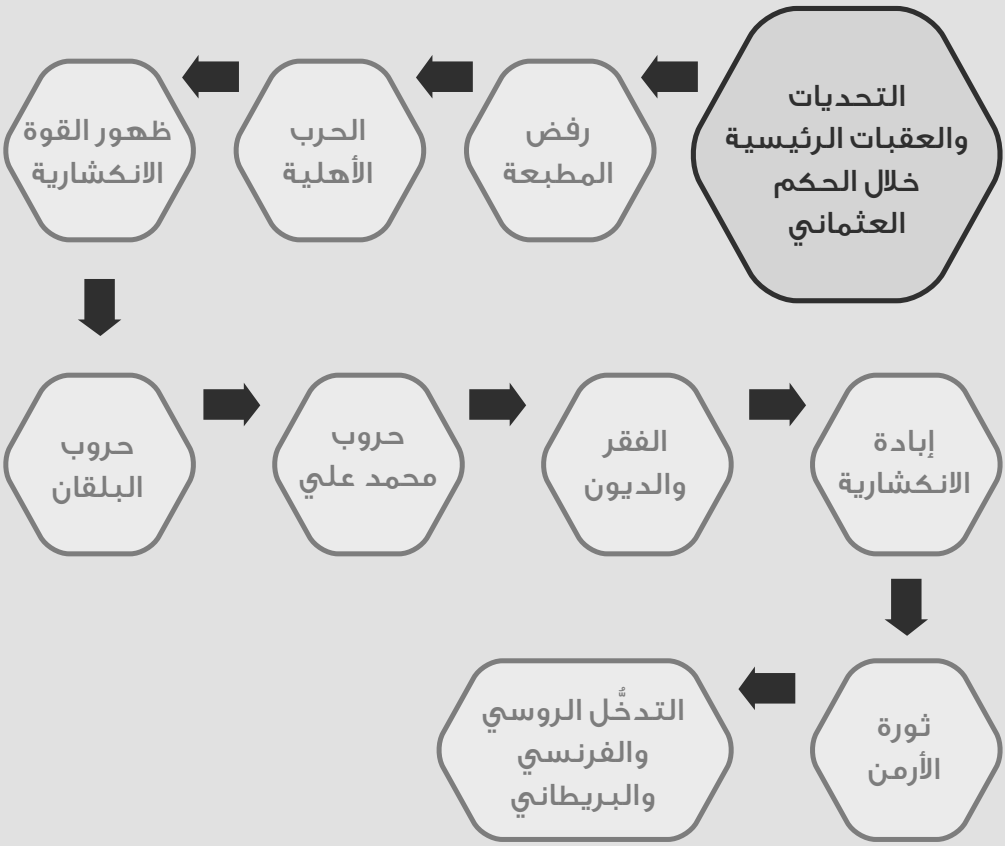
برز الأتراك كسدٍّ مانعٍ لتقدُّم المسيحية الأوروبية إلى بلاد الإسلام، وكانوا في قتالٍ مستمرٍّ معها، وإن متانة قتالهم للأوربيِّين هو الذي ولَّد ثقة السلاجقة بهم لإعطائهم الإذنَ بحكم هذه المناطق الموجودين فيها..

فنشأت الدولة العثمانية كدولة حدودٍ على تُخوم بيزنطة.

كان لدى "أرطغرل" حلم إنشاء كيانٍ موحِّدٍ للأتراك، وسعى من أجله، فنجح في التمهيد له، ليأتي بعده ابنه "عثمان" الذي سيؤسِّس الدولة، ويفتح المناطق والقلاع والعالم المحيط، مشكِّلاً قلب الدولة التركية قبل تبلورها بالشكل النهائي، ومن ثم سيأتي ابن عثمان "أورخان"، وسيكون هو المؤسِّس الحقيقي للدولة، فهو مَن سيعطيها شكلها وسمتها، واللوائح، والقوانين، ويعطيها وضعيَّتها كدولةٍ، وسيمتدُّ الزمن وصولاً إلى عام 1451م ليظهر "محمد الفاتح" كقائدٍ قويٍّ ويقوم بفتح "القسطنطينية" 1453م. وهي حقبةٌ زمانيةٌ هامَّةٌ جدًّا؛ حيث ستبدأ أولى حركات الضعف ظهوراً في الدولة العثمانية.

رفض المطبعة

إلى مرحلة "فتح القسطنطينة"، لم يكن الغرب قد تفوَّق على الدولة العثمانية، ولم يكن قد بان الفارق في المنحنى الثقافي بعدُ، ولكن قريباً من هذه اللحظة التاريخية في عام 1448م ستُكتَشَف المطبعة في أوروبا، ليزداد حجم الكتب -كما كنَّا قد ذكرنا سابقاً- ليصل عددها إلى 90 مليون كتابٍ متداولٍ، فستتضاعف حركة العلم بشكلٍ مهولٍ، في حين سيتمُّ رفض المطبعة داخل الدولة العثمانية، تعارضاً مع الإطار الديني التقليدي داخلها، الذي كان له أثرٌ كبيرٌ على الوضعية الموجودة؛ ففي حين أنه كان عنصر قوَّةٍ في القتال لإسهامه في ترسيخ التربية الجهادية المحفِّزة، إلا أنه مع التطوُّرات الحاصلة سيصبح سبباً رئيسيًّاً من أسباب ضعف الدولة!



الحرب الأهلية وتَدَخُّل الانكشارية

بعد وفاة "محمد الفاتح" ستغرق البلاد في حربٍ أهليةٍ، لحدوث نزاعٍ شديدٍ بين أخوين على السلطة بعد وفاته، وستتدخَّل للمرة الأولى في قضية الحكم القوة الانكشارية، وهي فئةٌ عسكريةٌ محترفةٌ تُعتبر من أهمِّ الفئات في الجيش العثماني، ولكن بتدخُّلها في السلطة ستفسد السلطة وسيفسد المجتمع، وسيتمُّ برغبة الانكشارية تعيين أول خليفةٍ عثمانيٍّ، وهو "بيازيد الثاني"، ومن بعده "السلطان سليم"، وإن ظهورهم في المشهد سيكون مؤثِّراً في النهايات؛ فسيطول الصراع معهم إلى سنة 1826م، وسيكون لرفضهم التامِّ للتحديث أثرٌ وخيمٌ على الدولة، ونتيجةً لفرض أفكارهم وازدياد تدخُّلهم.. سيحتدم الصراع بينهم وبين السلاطين، وستتحوَّل الانكشارية إلى ثوراتٍ مستمرَّةٍ، ليزداد طغيانهم وصولاً إلى إعدامهم "عثمان الثاني" سنة 1622م، وقتلهم "إبراهيم الأول" سنة 1642م، وعزل "محمد الرابع" سنة 1687م.

وستأتي محاولاتٌ قويةٌ لاستعادة عافية الدولة ومكانتها على يد "السلطان "سليم" والسلطان "سليمان القانوني"، فسيتجه الأول لقتال المماليك ويهزمهم سنة 1517م لتصبح مصر تحت سلطة العثمانيِّين، كما سيهزم الصفويِّين، وسيأتي بعده "سليمان القانوني" الذي كان أيضاً فلتةً من فلتات الزمن، وهو الذي قام بفتح الشمال الإفريقي، مع انتباهه لأهمية التحديث.

حروب "محمد علي"، وحروب البلقان

في الوقت الذي كان فيه الانكشاريُّون مُحكِمِي القبضة على الدولة من آثار التحديث، كان "محمد علي باشا" في الطرف المقابل يكوِّن دولته ضدَّ العثمانيين، مخترقاً قيودهم إزاء التحديث، فثارت بينهما الحروب.

وكان العثمانيون قد احتلُّوا البلقان في فتراتٍ مبكرةٍ، فقامت على إثر ذلك ثورات البلقان مدعومةً من قِبَل الروس..

الفقر والديون

بدأت الدولة العثمانية مع موجة الحروب والثورات تُنهك شيئاً فشيئاً، وتضعف من الداخل، والضعف فيها أحدَثَ فاقةً ولَّدت ديوناً كبيرةً زادتها إنهاكاً وتصدُّعاً..

إبادة الانكشارية

مع ازدياد وتيرة تدخُّل القوى الانكشارية، وازدياد تحكُّمها بالسلطة.. تصاعدت ردَّة الفعل تجاههم إلى استياءٍ عالٍ من قِبَل السلاطين، وصل أخيراً إلى محاصرتهم في "وقعة الخيرية" وقصفهم من كل جانبٍ لتتمَّ إبادتهم سنة 1826م.

ثورة الأرمن وتدخُّلات الأجنبي (الروسي، والفرنسي، والبريطاني)

كان من أكبر تحديات الدولة العثمانية مشكلاتها مع الأرمن المدعومين من قِبَل الروس، وقيام ثوراتهم المطالِبة بحقوقهم من الدولة العثمانية.

ويأتي مشهد تحديات الخط العثماني مختوماً بالتدخُّلات المتعاقبة من قِبَل الكيان الفرنسي والروسي والبريطاني، الذي كانت تزداد وتيرته كلما زاد ضعف الدولة العثمانية.

وتتناوب الأحداث وصولاً إلى عهد السلطان "عبد الحميد" سنة 1876م الذي ورث كومة إشكالياتٍ ضخمةٍ جدَّاً، قوامها دولةٌ بعيدةٌ عن التحديث، مع صراعٍ داخليٍّ مريرٍ، وتدخُّلٍ خارجيٍّ مسيطرٍ.

فحينما أمسك السلطان "عبد الحميد" السلطة، كانت دولةً ميؤوساً منها، وكان الضعف قد وصل مداه، وهذا نلحظه من تجرُّؤ اليهود على مفاوضته بالمال مقابل الأراضي الفلسطينية!

نهاية الدولة العثمانية واستلام "أتاتورك"

غدت عملية تحريك الجمود في البلاد شبه مستحيلةٍ؛ فالتقليديُّون من جهةٍ، والأقليَّات من جهةٍ، والقوميَّات من جهةٍ، علاوة على الحرب الفرنسية، والإنجليزية، والروس، والأرمن، ولم يعد بالإمكان إصلاح البنية الداخلية، ولا المشاكل الخارجية، فكان قد آن أوان نهاية الدولة، ليظهر في تلك اللحظة التاريخية "أتاتورك" ويحمل البلاد من حيث وقفت..

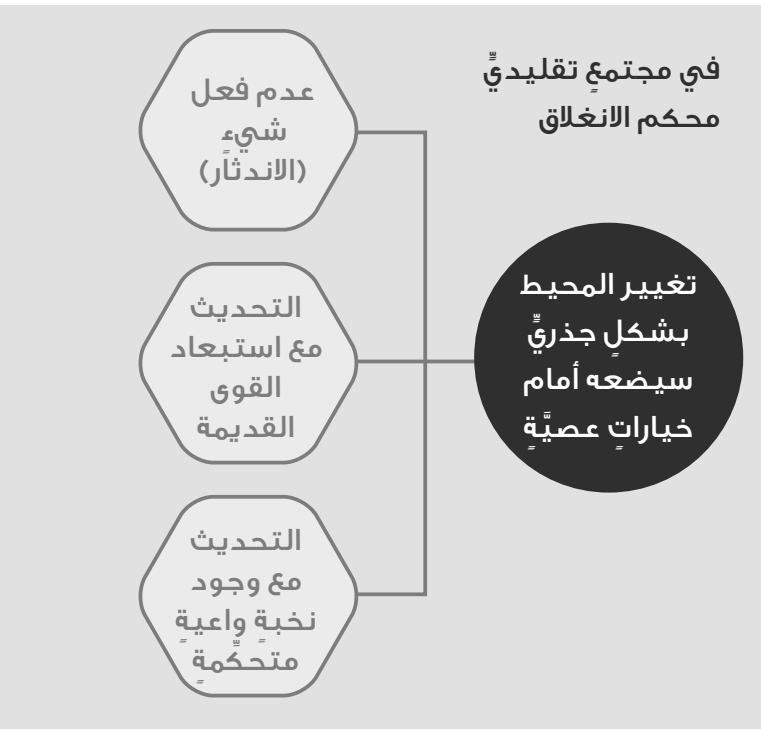


خارج ثنائية "أتاتورك" و"عبد الحميد"

إن الدول لا تسقط بسهولةٍ، إنما تسقط نتيجة عوامل داخليةٍ ضخمةٍ تُحدِث أثرها في السباق مع الأمم الأخرى؛ فالموقف ليس ببساطةٍ إزالة "عبد الحميد" واستلام "أتاتورك"! فإن دولةً كالدولة العثمانية، لم يكن ليأتيَ ضعفها بشكلٍ مفاجئٍ، فقد كانت تسمَّى: "الرجل المريض"، وقد كانت في سباقٍ مع الأوروبيِّين، وفاقتهم في لحظاتٍ تاريخيةٍ كثيرةٍ، ولكن -وبعد سلسلةٍ من التحديات- بدأت الدولة العثمانية بالخفوت، وبدأ الصعود الأوروبي بالتحكُّم في مقاليد اللعبة الجغرافية.

وإذا ما أردنا تجريد الموضوع ورؤيته من منظورٍ أكثر عالميةً وعمقاً، فإن أيَّ مجتمعٍ تقليديٍّ مغلقٍ يحمل ديانةً وطقوساً معيَّنةً، وينحدر لدرجة إيقاف عجلة التطوُّر وإحكام الانغلاق، ويطول فيه أمد التخلُّف بشكلٍ يحدُّ من مكانة الدولة في قوتها واختياراتها.. فإنه سيصل لا محالة إلى إحدى النتائج التالية:

- فإما إلى اندثار الدولة وزوالها.
- أو أن تتحدَّث مع استبعاد القوى القديمة، وبالتالي يحدث قسرٌ كما نشاهد الآن في البلاد العربية في بعض المناطق التي أُبعد فيها التيار الديني تماماً والتيارات الموجودة، لكي يمرَّ قطار التحديث بدرجةٍ من الدرجات.



- أو أن يكون في الدولة نخبةٌ توازِن العملية وتقود الدولة بيسرٍ وسهولةٍ، من دولةٍ خارج العصر إلى دولةٍ داخل العصر.

وما حدث في تركيا هو الخيار القاسي، فأتت القطيعة مع الماضي قطيعةً تامَّةً بكافَّة أشكالها، معتمدةً تجفيفَ منابع الوعي بالماضي، وبناء الجيش والقوى المسلَّحة على أسسٍ معاديةٍ للأشكال القديمة معاداةً تامَّةً، وإن ما نشاهده اليوم في تركيا؛ ممَّا يطرحه فريقٌ من الأتراك المتمثِّل بـ "استعادة الروح القومية التركية التاريخية" هو آثار ذلك الماضي.

وإن نموذج تركيا هو نموذجٌ شبيهٌ بنموذج اليابان التي كان فيها مجتمعٌ تقليديٌّ متماسكٌ ودولة مركزية ضعيفة، إلى أن أتى مَن أوقفها على قدميها.. ومع رفض المجتمع للتجديد رفضاً قاطعاً -كذاك الرفض العثماني-، حدثت إباداتٌ لأولئك الرافضين؛ فبالنموذج العثماني أُبيدت الانكشارية، وفي النموذج الياباني سيباد الساموراي. ولعلَّ فيلم (The Last Samurai الساموراي الأخير) يجسِّد النموذج اليابانيَّ بشكلٍ واضحٍ.

من المهمِّ جدَّاً اكتشاف الفجوة التاريخية الموجودة أمامنا وأبعادها، وأن ندرك أن تاريخ تركيا بدأ مع تطوُّراتٍ حدثت في مناطق ما وراء النهرين (كازاخستان، وأوزباكستان..)، مروراً بالدولة السلجوقية التي امتدَّت وصولاً إلى دخول القسطنطينية، لتستمرَّ إشكاليَّات الدولة بعد "محمد الفاتح" التي تصدَّر لها خلفاء عظامٌ وشكَّلوا نوعاً من الإنقاذ لها، إلا أنه لم يكن حلَّاً جذريَّاً، فسقطت الدولة بالاحتراب الداخلي، وآلت إلى ما آلت إليه من انتهاء

مشروع الإمبراطورية العثمانية، وبدء مشروع الدولة التركية على يد "أتاتورك". وهنالك فرقٌ كبيرٌ بين الدولة العثمانية (الإمبراطورية)، وبين الدولة التركية الحديثة وأحلامها، وإمكانية تمدُّدها كقوةٍ إقليميةٍ موجودةٍ.

من المهمِّ جدًّاً قراءة الكتاب الرائع: "الوجيز في التاريخ الإسلامي" لـ"محمد سهيل طقوش"، والتركيز فيه على هذه المنطقة التاريخية، والجولة المملوكية.

دعوا الأرقام، وشاهدوا الصور والأحداث الكبيرة التي شكَّلت تاريخ المنطقة، فمن المؤسف أن يقودنا البعض إلى استنتاجاتٍ سطحيةٍ من أن الأمور قد حدثت بثنائية السلطان الطيب والقائد المجرم، فإن الأحداث التاريخية حينما تجري، فإنها تجري وفق سننٍ كونيةٍ محكمةٍ واضحةٍ في نماذج التاريخ الكبرى.

الحضارات عبر التاريخ
الحضارة الإسلامية -2-
من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر



◄ ◄ ◄

سنعود معكم بالطرح إلى مرحلةٍ مزدحمةٍ بعض الشيء، إلا أنها ذات أهميةٍ كبيرةٍ في سيرنا التأسيسي، وهي الفترة الزمنية الممتدَّة من منتصف القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر -حوالي أربعة قرونٍ-، بدءاً من السلاجقة، وصولاً إلى المماليك..

وإن قارئ التاريخ الإسلامي سيجد كثيراً من الزحام من أسماء وتواريخ وأحداثٍ.. قد تُزهِّد الإنسان بمتابعة القراءة، وسنحاول هنا تخفيف ذاك الزحام، وتوضيح خطوط الاتصال والهيكل العامِّ لنشاهد الأحداث بوضوحٍ خلال تلك اللحظات التاريخية الهامَّة.

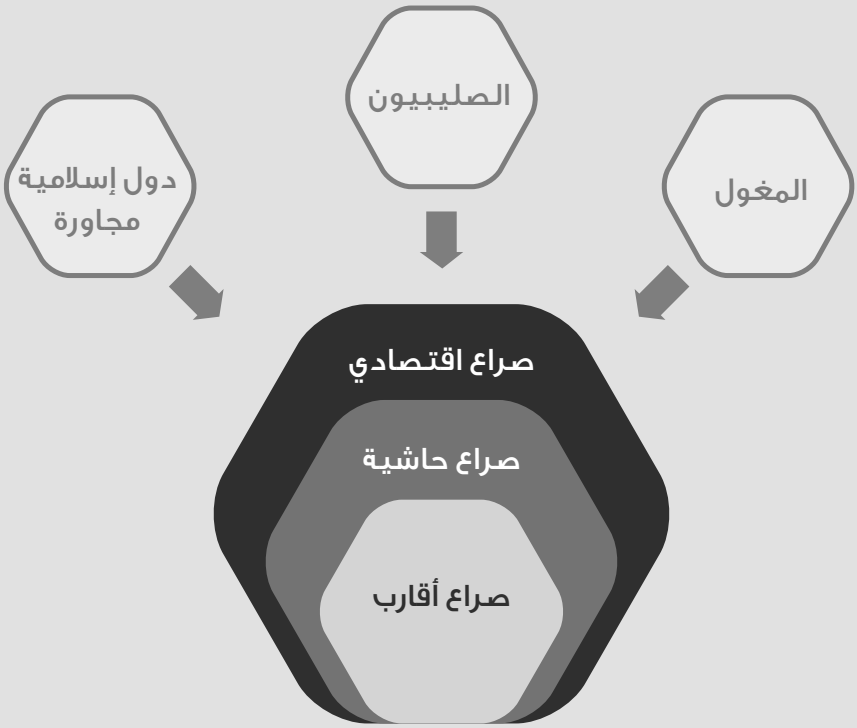
وتعود أهمية تلك اللحظات التاريخية نظراً لكونها حقبةً تجلَّى بها بوضوحٍ خطُّ الصعود الغربي، وخطُّ الهبوط للمجتمعات الإسلامية؛ حيث تشكَّلت بها القوى الخارجية، بدءاً من الصليبيِّين، وصولاً إلى الدول الغربية الحديثة، وتراجعت مجتمعاتنا من المرحلة التي نسمِّيها العصر الذهبي (العصر العباسي الأول)، إلى الوضعية الحالية.

سمات المرحلة

عند الدخول في تلك الحقبة، سنلحظ فيها أحداثاً مكرَّرةً وملامح متشابهةً.. تُمكِّنُنَا من استخلاص سماتٍ سائدةٍ لها، والتي كان من أهمِّها:

صراع الأقارب:

ساد في تلك المرحلة حالة صراعٍ كبيرٍ استغرقت كافَّة دوائر المجتمع تقريباً، فسيحضر مشهد صراع الأقارب على الحكم بشكلٍ مكرَّرٍ جدَّاً، من الزوج والزوجة والأبناء، إلى الإخوة، إلى أولاد الأعمام، وسيكثر لدرجة أنه سيستغرق تقريباً كل دولةٍ من الدويلات. ولن يتوقف صراع الحكم عند الدائرة الأصغر دائرة الأقارب؛ بل سيمتدُّ إلى الحاشية؛ أي: الدائرة المحيطة بالأسرة الحاكمة. وخارج هذه الدوائر نجد الصراع الاقتصادي في أوجهِ بين طبقات الشعب من حاشيةٍ، وتجَّارٍ، ومَن هم دونهم، لا سيما مع بدء حالة التدهور الاقتصادي، وفرض الضرائب؛ حيث بات الكل يحاول اقتطاع حصَّةٍ لصالحه من السوق.



ومن خارج تلك الدوائر، وفي تلك اللحظات التاريخية ذاتها، سنجد حضوراً بارزاً لكلٍّ من المغول والصليبيِّين والدول المحيطة التي وإن كانت ترفع الرايات الإسلامية إلا أنها وبشكلٍ فعليٍّ جزءٌ من الصراع البيني. وهذا كله يحمل في طيَّاته الصراع مع الخليفة، المتمثِّل حينها بالخليفة العباسي، فقد كان يُفعَل به الأفاعيل، ويأخذه الجميع كتكيَّةٍ له.

هكذا كان شكل العصر لمدَّة أربع مئة سنةٍ، وتكاد تكون هذه الأحداث متشابهةً بين دولةٍ وأخرى، فكثيراً ما سيمرُّ معنا عبارات: (قَتلَ، ذَبَح، طَرَدَ، وزَّع المال والبلاد على أولاده، ..)، وغيرها من العبارات..

تصوُّر الملكية الخاصَّة للدولة:

خلال تلك الحقبة التاريخية، كان الأمر السائد بصمتٍ أنَّ الدول ملكيةٌ خاصَّةٌ للحاكم، وتؤول وراثة الدولة إلى أبنائه أو أقاربه من بعده، فلم يأتِ حاكمٌ فكَّر بإنشاء مجلسٍ منظَّمٍ

للشورى، تقوم فيه اقتراعاتٌ حرَّةٌ، ليصل من خلالها الشخص الأفضل بإنصافٍ واستحقاقٍ؛ بحيث يقي الناس من أن يُحَكَّم عليهم مَن ليس بأهلٍ للسلطة.

إنَّ ما كان يُشاع في الكتابات التاريخية السائدة؛ من أنَّ في أذهان الناس والحكَّام آنذاك نظاماً إسلاميًّا فعَّالاً مختزلاً.. هذا ما لا نلحظه حقيقةً على أرض الواقع حينما نقرأ التاريخ قراءةً بعيدةً عن التلوين المؤدلج؛ بل إننا نلحظ عكسه تماماً؛ فقد غابت القيم الإسلامية التي كان شأنها أن تقيَ المجتمعات المسلمة من حال التفتُّت والتدهور الداخلي التي حلَّت بها.

وهذا ما نراه واضحاً بشدَّةٍ في كتاب: "الوجيز في التاريخ الإسلامي"، لـ"محمد سهيل طقوش"، فهو ممَّا لم يوجد له مثيلٌ في أشباهه من الكتب التي نقلت التاريخ، فامتاز من ناحية النقل الواقعي البعيد عن الأدلجة لأحداث التاريخ الإسلامي. وهذا يساعد القارئ في النظر إلى الموضوع بعيونٍ مستقلَّةٍ، وتحليله والوقوف على الخلل بشكلٍ واقعيٍّ.

التكرار من غير اعتبارٍ:

السمة الثالثة لذاك العصر تكرُّر الأحداث، وبذات الكيفيَّات، إنما دون اعتبارٍ، فبعد مشاهد الصراع والاقتتال والغدر والبطش بين أفراد البيت الواحد أو الأسرة الواحدة.. لم يكن أحدٌ ليفكِّر بتنظيم العملية وفق منظومةٍ عادلةٍ تحقن الصراعات وتحدُّ من حالة الدوران في الدوَّامات السابقة ذاتها!

غياب النظر الفلسفي:

وممَّا سبق، سنلحظ غياب النظر الفلسفي الذي يبحث ويفكِّك الأحداث ويعتَبِر وينظِّر.. فهذا كله لم يحدث في تلك العصور، وسنرى خطورة غيابه بالحلول المجتزأة التي لم تكن لتفي بالغرض!

إن أبطال هذه الرحلة كانوا عبارةً عن فرسانٍ أُحضِروا كعبيدٍ، ودُرِّبوا على القتال بمهارةٍ عاليةٍ، فحقَّقوا بدورهم العسكري نجاحاً كبيراً، وسجَّلوا انتصاراتٍ عظيمةً في مقاتلة العدو الخارجي، أما في الدور الفكري التصوُّري لإدارة الحكم، فقد كانت مهاراتهم ضعيفةً، وتجلَّى

ذلك في إدارتهم للحكم، وإن لم يخلُ الأمر من حكَّام ذوي ذكاءٍ وحنكةٍ، ولكنَّ المجمل العامَّ سلك الاتجاهات ذاتها، فلقيَ المصير ذاته، فكانت مرحلةً حضرت فيها بطولاتٌ عسكريةٌ كبرى، ولكن الإطار العامَّ لم يكن إطاراً حضارياً فيه ما يلزم من النظر والبحث والعلم والاعتبار..

هذه مجمل الملاحظات، كمحاولةٍ تفكيكيةٍ لذاك الزحام الحادث في تلك اللحظة التاريخية، وتمَّ تأطير المرحلة بالسلاجقة والمماليك؛ لأن الغالبية العظمى للوحدة الفاعلة داخل تلك العملية كان جلُّهم أتراكاً، وإذا ما استثنينا "صلاح الدين" وأسرته، فإن البقية كلهم عناصر تركية قادمة من أواسط آسيا، بحسب رواية العبيد الذين كانوا يساقون للقتال والخدمة، فكل الامتدادات هي ابنة هذا المسلسل.

الدولة السلجوقية

أسَّس "طغرل بيك" الدولة السلجوقية في "خراسان" في منتصف القرن الثاني عشر على حساب أتراكٍ آخرين وهم "الغزنويُّون"، فتغلَّب عليهم وكوَّن دولته، واعترف الخليفة في بغداد بالدولة السلجوقية، لتتمدَّد هذه الدولة الوليدة وتصبح سنة 1055م الدولة المسيطرة على العراق والشام، وتصبح لها اليد الطولى لتصل قواتها إلى حدود بيزنطة، ومن ثم يصبح الخليفة في مهانةٍ حضاريةٍ كبرى، ولا وجود له في الدولة الناشئة، واستمرَّت تلك المهانة عدَّة حقباتٍ.



بعد "طغرل بيك" حكم "ألب أرسلان"، ثم "ملِك شاه"، ومن بعده ابن أخيه "أحمد سنجر" الذي ستنتهي دولة

السلاجقة العظام بموته، وبعد "ملك شاه" سيبدأ الصراع بين أبنائه، وتتفتَّت الدولة كعادة الحقبة آنذاك.

وعلى أعقاب الدولة السلجوقية، نشأت الدولة "الخوارزمية"، وهي أيضاً دولة تركية، وما يهمُّنا هنا أن ننوِّه إلى مشهدٍ هامٍّ؛ حيث استعان الخليفة بالمغول لضرب الدولة الخوارزمية حينما اشتبكت معه، وبعد أن قضى المغول على الدولة "الخوارزمية"، توجَّهوا إلى الخليفة وأسقطوه فيما يسمَّى بـ: "سقوط بغداد"!

فنشاهد غرابةً شديدةً في التحالفات القائمة في تلك الحقبة؛ حيث إن الأطراف المتنازعة رغم تقارُب مشاربها، إلا أنها كانت مستعدَّةً للتعاون حتى مع الشيطان في سبيل الانتصار على الطرف الآخر!

الدولة الزنكية

نشأت الدولة الزنكيَّة كامتدادٍ لدولة السلاجقة؛ حيث كان لـ"ألب أرسلان" و"فاروق شاه" مؤدِّبٌ يقوم على تربيتهما العسكرية والأخلاقية، وهو "عماد الدين زنكي" الذي سيتحوَّل في فترةٍ من الفترات إلى قائدٍ كبيرٍ جدَّاً؛ حيث سيفتح الرها وحلب والطرق التجارية، وسيقوم بأعمالٍ كبيرةٍ أخرى في فترةٍ مستعصيةٍ جدَّاً، هي فترة الحروب مع الصليبيِّين، فالمنطقة كانت منهوشةً من القوى القادمة من الخارج؛ حيث امتدَّت الغزوات الصليبية لاحتلال المناطق الإسلامية (فلسطين، مصر، القسطنطينية، الشمال الإفريقي..).



في جزءٍ من صراع الحاشية على الحكم، سيُقتَل "عماد الدين" من قِبَل أحد غلمانه وهو في طريقه إلى الجهاد، وسيبرز اسم "نور الدين محمود" والي حلب الذي سيضمُّ إليها دمشق، ويوحِّد المسلمين في بلاد الشام، وسيتجه إلى مصر ليمسك بزمام الأمور؛ حيث الدولة الفاطمية في فترة ضعفٍ، وسيرسل إليها "أسد الدين شيركوه" و"صلاح الدين الأيوبي".

الدولة الأيوبية

أصبحت مصر محكومةً اسميًّا من قِبَل "نور الدين محمود"، ولكنها بشكلٍ فعليٍّ بيد "صلاح الدين" الذي استقلَّ بها بعد وفاة "أسد الدين شيركوه"، وسيخرج حينها للمسرح ما يسمَّى بـ: الأيوبيِّين، أو الدولة الأيوبية؛ فالأيوبيُّون في الأساس كانوا تحت خدمة "نور الدين زنكي"، وبعض قوَّاده وأمرائه.

بعد وفاة "نور الدين"، سحب "صلاح الدين الأيوبي" قواته إلى الشام، ووضع جميع مناطقها تحت إمرته، واستعدَّ للقاء القوة الكبرى "الصليبيِّين"، وفي سنة 1187م ستبدأ معركة حطين، ليأخذ حينها "صلاح الدين" بيت المقدس بانتصارٍ عظيمٍ.

المفاجأة أن "صلاح الدين" بعد معركة حطين بحوالي خمس سنواتٍ سيعقد صلحاً مع الصليبيِّين، وهو "صلح الرملة"، وسيُعطي فيه صلاحيَّاتٍ للصليبيِّين في الموانئ الإسلامية الممتدَّة بين لبنان وسوريا! وباقتراب موعد وفاته سيقسِّم "صلاح الدين" الأراضي التي هيمن عليها بين أبنائه وإخوانه، وستغيب كالعادة فكرة تحقيق نظامٍ عادلٍ أو شخصٍ منتخبٍ بالشورى. وبحسب نظرية (هكذا ظهر جيل صلاح الدين)، فقد كان يجدر أن يتخلَّل المشهد فكرةُ تجمُّعٍ إسلاميٍّ، وحضور قوةٍ إسلاميةٍ، ونظام شورى، وتقديرٍ لمصالح البلاد والعباد.. وغيرها من القيم الجميلة التي نتداولها حينما نتحدث عن ذلك الجيل.. ولكننا نُفاجَأ وبعد عظمة اللحظة التاريخية لدخول بيت المقدس بـ"صلح الرملة"، وبتقسيم الأراضي التي هيمن عليها "صلاح الدين" بين أبنائه وإخوانه! ليبدأ كعادة السمة الزمانية السائدة الصراعُ بين أبناء "صلاح الدين" وبين أخيه، واستطاع أخوه أن يقضي على أبنائه واحداً تلو الآخر، ولتبدأ من ذرية "صلاح الدين" سلسلة الصلح مع "الصليبيِّين" التي وصلت ذروتها في حكم "الملك

الكامل"؛ حيث أقام صلحاً معهم سنة 1228م، وأرجع إليهم فيه بيت المقدس، وبيت لحم، والناصرة، وممرَّات يافا وصيدا وحيفا..

نحن هنا أمام تناقضاتٍ هائلةٍ كبرى على الرواية الموجودة السائدة، فصلاح الدين شخصيةٌ عظيمةٌ جدًّا، ولكنه في نهاية المطاف وزَّع البلاد على أولاده وإخوانه الذين تقاتلوا فيما بينهم!

دولة المماليك

في فترة حكم الأيوبيِّين، وفي ظلِّ احتدام الصراع وضعف الدولة، بدأ الملوك باستقدام العبيد من المناطق ذاتها التي كان يُستَقدَم منها الترك.. فأُتِيَ بهم كمقاتلين، وتمَّ وضعهم في قلعةٍ في جزيرةٍ في نهر النيل، وتلَقَّوا تدريباً عسكريًّا ودينيًّا بمعزلٍ عن الناس إلى أن أصبحوا قوةً كبيرةً متكبِّرةً على الشعب، تنظر إليه باحتقارٍ ودونيةٍ شديدةٍ، حتى للعلماء منهم! فلم يكن يُسمح لأحدٍ غيرهم بركوب الخيل أو حمل السلاح.

ونسمع في تلك الفترة عن سيدةٍ اسمها "شجرة الدُّرِّ" زوجة الملك الصالح، وسعت بعد وفاته لاستلام الحكم، وحينما حاول "توران شاه" ابن "الملك الصالح" إبعادها والمماليكَ عن الحكم، تآمروا عليه وقتلوه، وبقتله سينتهي الحكم الأيوبي، ويستلم المماليك.

ولم يكن بينهم آنذاك أحدٌ يعدُّونه قائداً محصَّناً، فنصَّبوا حينها "شجرة الدُّرِّ"، وتزوَّجت "عز الدين أيبك" لتقوِّي حكمها به، وحينما أراد أن يُحضِر ابنه على حسابها قتلته، ثم نصبت لها زوجتُه السابقة كميناً فقتلتها. ليبدأ بمقتلها العصر المملوكي الصِّرف الذي سينشأ على صراعٍ بين الأقارب والحاشية.

مماليك البحرية:

بعد مقتل "شجرة الدُّرِّ"، استلم المماليك الحكم في مصر، وسُمُّوا بمماليك البحرية؛ نظراً لكونهم سكنوا جزيرةً في النيل كمقرٍّ أول لهم.

امتدَّ نفوذ مماليك البحرية إلى مصر والشام والحجاز واليمن، واستمرَّ حكمهم لقرنين



ونصفٍ تقريباً، وبالإضافة إلى سوء علاقتهم بالشعب، كان لديهم باستمرارٍ نزاعٌ داخليٌّ كبيرٌ؛ لكونهم جميعاً في الأصل عبيداً، ولم يكن لأحدٍ الأحقيَّة على الآخر باستلام الحكم، فكانوا حينما يموت الملك منهم، يقتتلون فيما بينهم ليؤول الحكم إلى الأقوى.

برز من المماليك شخصيةٌ قويةٌ هامَّةٌ، هو القائد "قطز" الذي خاض معركة "عين جالوت" وهزم فيها المغول، بعد أن كانوا خطراً قريباً يهدِّد مصر بقوَّةٍ. فحينما بلغ الجيشَ المغوليَّ خبرُ وفاة "الخان العظيم"، ترك قسمٌ كبيرٌ منهم الجيش، وذهبوا لمعرفة مآل الحال لديهم، فاشتبكت القوات الباقية منهم مع "قطز" سنة 1260م وهزمهم شرَّ هزيمةٍ، وكعادة العصر لديهم، لا ينتهي المشهد عند هذا الحدث، فسيطلب "بيبرس" -وهو أحد القادة العظام- من "قطز" أن يعطيَه منطقةً من المناطق كمكافأةٍ له على اشتراكه في الحرب، وحينما يرفض سيقوم "بيبرس" بقتل "قطز"، ليصبح هو الملك، ويعيد تنظيم الأمور في فترةٍ كانت قد قويت فيها التحالفات الغربية، كحلف المغول والصليبيِّين، وتحالف السلاجقة مع المغول.

مماليك البرجية:

سيحضر مماليك البرجية "أشرف خليل"، وسيسود حكمهم منذ حوالي 1382م تقريباً إلى انتصار الأتراك العثمانيِّين في الريدانية سنة 1517م.

ومماليك البرجية هي فئةٌ مهمَّةٌ في دراستنا؛ حيث إن الدولة المملوكية كانت تعيش على تجارة الترانزيت، فأقصر طريقٍ تجاريٍّ يمرُّ إلى أوروبا كان من طريق موانئ مصر والشام، وفي حين أن مماليك البحرية كانوا لا يتدخَّلون في السوق أو في التجارة، ولا يفرضون شيئاً على الناس، كان الصراع بين مماليك البرجية كبيراً، وكانوا بحاجةٍ إلى تمويل مكائدهم ضدَّ بعضهم البعض، فدخلوا السوق التجارية وبدؤوا يغشُّون في العملة، ويفرضون مكوساً تجاريةً على الناس، ويقومون بتجارةٍ غير عادلةٍ مع القادمين إلى الموانئ.. لتنهار في عصرهم الدولة انهياراً كبيراً جدًّا، وتقرِّر أوروبا في تلك اللحظة أن تقاطع الموانئ الإسلامية، وتبحث لها عن طريقٍ آخر ليتمَّ اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، ويحدث التحوُّل التاريخي الكبير..

إن الأتراك؛ سواء كانوا سلاجقةً، أو كانوا زنكيِّين، أو أيوبيِّين، أو مماليك.. فقد كانوا درعاً صلبةً متينةً لصدِّ القوى الخارجية من مغولٍ وصليبيِّين ونحوهم، وقاموا بحماية المنطقة بدرجةٍ كبيرةٍ جدًّا. ولكن كان النظام الداخلي لديهم نظاماً مفكَّكاً إلى دويلاتٍ صغيرةٍ، فأضعفوا القلب دون بديلٍ سياسيٍّ أو ثقافيٍّ. وحينما بدأت التحوُّلات الكبرى في أوروبا، كانوا غارقين في الصراعات الداخلية دون أن يستطيعوا الخروج منها حتى آن أوان رحيل الجميع من المشهد!

إن رحلتنا هذه مهمَّةٌ جدًّا لتوضيح المشهد وتبسيطه، ولتسلِّط لنا الضوء على ظاهرة التلوين الأيديولوجي للتاريخ؛ بمعنى أن ناقل التاريخ غالباً ما يريد أن يوصل رسالةً محدَّدةً للقارئ، فيستخدم عمليات الحجب والتمرير لمواقف التاريخ، ممَّا يؤدِّي إلى حجب الصورة الحقيقية عن القارئ.

فلسفة التاريخ



◄ ◄ ◄

في هذه المبحث سنتكلَّم عن فلسفة التاريخ، وسنقوم بالتركيز على الخطوط الرئيسية التي نريدها أن تبقى في ذهن القارئ، وتشكِّل له خارطةً معرفيةً في هذا الحقل المعرفي الهامِّ.

إن أحداث التاريخ تأتي عادةً مجزَّأةً، ولا تعطي ثمرةً حقيقيةً للإنسان، فالقارئ يظلُّ أمام أحداثٍ معيَّنةٍ لموت الشخصيات، أو ولادتهم، أو قيام الحروب ونحوه، دون التعرُّض لسؤال: ماذا يعني لنا التاريخ؟ وهل هو مجرد أحداثٍ؟ أم أن هناك فضاءً أوسع من ذلك؛ يجعل من التاريخ علماً ذا معنىً ودلالةٍ في حياتنا؟

غاصت فلسفة التاريخ بحثاً عن المعنى من أحداث التاريخ، وعن القوانين العامَّة التي تحكم حركته. وقد كتب في ذلك ثلَّةٌ من العلماء، سننتقي منها ما يفيدنا في قراءة التاريخ والاعتبار منه.

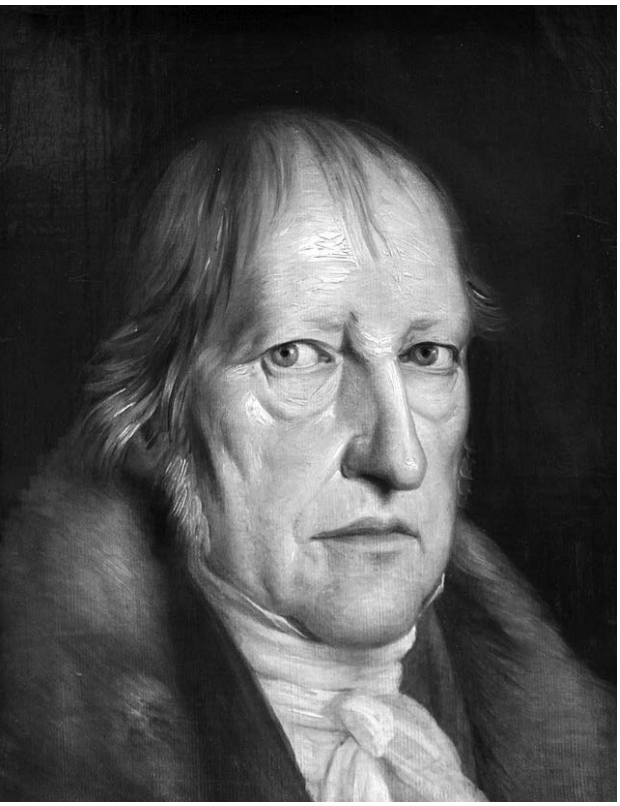
أولاً- هيجل Hegel

من عادة الناس أن تبدأ طرحاً كهذا من "ابن خلدون"، ولكنَّنا سنبدأ من "هيجل"؛ لسببٍ موضوعيٍّ، هو أنه يدرس اتجاه حركة التاريخ بشكلٍ عموميٍّ، وهذا ممتازٌ كبدايةٍ؛ لكونه يعطينا الخطَّ العامَّ الكليَّ -على الأقل في فكر "هيجل"- لحركة التاريخ..

"هيجل": هو فيلسوفٌ ألماني من أتباع المدرسة المثالية الألمانية، وسمِّيت بالمثالية؛ لأنها تعتقد أن عالم الأفكار هو الذي يحرِّك العالم ويصنعه، على عكس المدرسة المادية (الماركسية).

"هيجل"	● الإنسان الشيء، والإنسان المتحقِّق. ● التحوُّلات التاريخية الكبرى نتيجة صراع الأفكار.

الإنسان الشيء والإنسان المتحقِّق:



سنتناول ابتداءً من فكر "هيجل" نقطةً أساسيةً متمثِّلةً بما سمَّاه: "الإنسان الشيء" و"الإنسان الحقيقي"؛ حيث يرى "هيجل" أننا وبالنظر إلى حركة التاريخ، نجد أن الناس على صنفين:

- **الإنسان الشيء:** هو إنسانٌ يغيب عن ذهنه مفهوم الحرية، مستأنسٌ بأسره، ولا يعي أن كينونة الإنسان تكمن بحريته؛ فلا يستشعر أهمية اختياراته أو قراراته الفردية كإنسانٍ، فهو باستمرارٍ مسيَّرٌ بقوةٍ أخرى، كالكرسي، أو الآلة، أو السيارة..
- **الإنسان المتحقِّق:** هو إنسانٌ أدرك أنه يمتلك عقلاً وإرادةً، ويعي حريته كإنسانٍ، وأن من حقِّه أن يريد ويختار، لا أن يسيَّر من قِبَل الآخرين.

يرى "هيجل" أن أحداث التاريخ من فجر الإنسانية إلى اليوم تتجه في خطٍّ صاعدٍ باستمرارٍ نحو تحرير إرادة الإنسان، وتحويله من أن يكون شيئاً إلى أن يكون إنساناً، فقمَّة إنسانية الإنسان استشعاره بإرادته مقابل إرادات الآخرين..

فالغاية التي تحرِّك مسار التاريخ التصاعدي بحسب "هيجل" تتجه للوصول إلى إنسانٍ يستشعر حرية إرادته وقدراته، ويمتلك رغبةً دائمةً في تحقيق ذاته.. وإن حرية الإرادة تتحقق بجوانب عدةٍ؛ فهي شعورٌ من جانبٍ، وقدرةٌ من جانبٍ، وممارسةٌ من جانبٍ، وإن الممارسة تعني حضور الإرادة في وجه إراداتٍ أخرى؛ فلا يُسحَق الإنسان لإراداتٍ ثانيةٍ أيَّاً كانت، وإنَّ هذا لَتحدٍّ كبيرٌ على الإنسان أمام إراداتٍ تتشكَّل منها إرادته من قبل أن يعي، وتتمثَّل هذه الجهات بـ: (الأسرة،

والمدرسة، والمعبد والسلطة)، ومن هذه الإرادات يتعرَّض البشر باستمرارٍ لاستلاب إرادتهم، وإن الإنسان خلال رحلته لاستعادة إرادته سيواجه إشكالياتٍ كبرى؛ لكونه سيقف منفرداً أمام هذه القوى؛ لأنه يطمح لإرادةٍ حرَّةٍ مقابل هذه الإرادات، في حين أن هناك جزءاً كبيراً جدَّاً من المجتمعات تُغَيَّب فيها تماماً حرية إرادة الإنسان، والأخطر هو عدم شعوره بغيابها..

إن رحلة البشرية الطويلة لدى "هيجل" ما هي إلا عبارةٌ عن ازديادٍ مستمرٍّ في وعي الإنسان بحريّته

حضور إرادة الإنسان في المجتمعات:

تتنوَّع المجتمعات من ناحية حضور إرادة الإنسان فيها؛ فهي شبه معدومةٍ في بعض المجتمعات، وتحضر بشكلٍ جزئيٍّ في مجتمعاتٍ أخرى، ونَمَت بعض المجتمعات حتى أصبحت تحضر حضوراً كبيراً، وأصبح إنسان تلك المجتمعات واعياً للتدخُّل الذي يحدث له من الخارج في صناعة إرادته، وإن هذا يرتبط بكلام "هيجل" الذي طرحه؛ حيث يرى أن المجتمعات البشرية الأولى في الشرق بشكلٍ عامٍّ، كالحضارة الهندوسية، والحضارة الصينية، والإسلامية، والبابلية، والآشورية، والكلدانية، والمصرية.. لا نرى فيها وجوداً للشعوب، فهم خارج الإرادة العامَّة، وطابعها العامُّ أن حرية الإرادة فيها لمجموعةٍ واحدةٍ أو لفردٍ واحدٍ في المجتمع بمسمَّياتٍ مختلفةٍ؛ فقد يكون فرعوناً، وقد يكون الأمير، وقد يكون الملك، وقد يكون الإمبراطور، وقد يكون الإمام الأعظم، وقد يكون الخليفة.. فهو أيَّاً كانت تسميته إلا أنه الشخص الوحيد مع ثلَّةٍ قليلةٍ ممَّن حوله، الذين يمتلكون الإرادة المطلقة، وبقية المجتمع لا حضور لهم في المشهد؛ بل هم في الدرك الأسفل بالنسبة لـ"هيجل"؛ لكونهم لا يستشعرون إرادتهم في مقابل إرادته.. فمشكلتهم ليست بأن أحداً قد استلب منهم شيئاً وهم يريدون استرداده كحقٍّ لهم.. بل مشكلتهم أنهم يعيشون ويموتون وهم يعتقدون وقانعون أن ليس لهم إرادةٌ في مقابل إرادة هذا الفرعون..! وحينما يثورون قد يثورون اقتتالاً على الكرسي لا طلباً لحريتهم.. فتسقط دولٌ وتقوم دولٌ، ولكنَّ إنسانها غائبٌ ذائبٌ في إرادة السلطة، وهذا الإنسان بنظر "هيجل" هو في أدنى مستوى من مستويات الإنسانية.

يميِّز "هيجل" تلك الحضارات عن حضارة اليونان؛ حيث إن اليونان قديماً كانت عبارةً عن مدنٍ صغيرةٍ، ولا يوجد شخصٌ بينهم له إرادة مطلقة بالتصرُّف، فأتيحت الفرصة للناس لأن يفكِّروا بما يسمَّى: "الديمقراطية المباشرة"، وظهرت إرادتهم في صناعة القرار داخل مجتمعاتهم، وهذا المستوى من الوعي حملهم على انتخاب مَن يمثِّلهم، والتصويت على كل قرارٍ في مدينتهم الصغرى.. وهنا بدأ الإنسان الذي خرج من الشيئية إلى عالم التحقُّق، إلا أن "هيجل" لا يعتبر هذا الشكل هو الشكل الأمثل أو الكامل لتحقُّق الإنسان؛ لأنه داخل هذه المجتمعات قد كانت المرأة مستثناةً، وطبقة العبيد والناس الأغراب كذلك، وبالتالي حرية الإرادة تحقَّقت لدى طبقاتٍ دون أخرى، فلم يتحقَّق النموذج الكلي الذي يتجه له التاريخ.

وحينما ورثت روما اليونان، بدأ صراعٌ مريرٌ بين الأباطرة وبين فكرة الحرية والإرادة لدى الناس؛ فالأباطرة كان لديهم باستمرارٍ ميلٌ لتجريد الناس من الصلاحيات، مقابل فرض إرادةٍ واحدةٍ هي إرادة الإمبراطور، فكان الصراع في تلك الآونة بين مجتمعٍ يرى أن له الحق، وإمبراطورٍ يرى أن الشعب ليس له الحق، وبين كنيسةٍ ترى أن لها الحق، وبين أناسٍ يرون عكس ذلك، فلم تترجح الكفة آنذاك لصالح تحرير إرادة الإنسان ووعيه، وتستمرُّ حركة التاريخ بالنسبة لـ"هيجل" إلى أن تأتي الثورة الفرنسية فيتحرَّر الإنسان، وتقوم الديمقراطية ويكتسب الإنسان حقوقه القانونية ويصبح له صوتٌ داخل المجتمعات، فأصبح الإنسان الأوروبي ينتخب ويختار ويحتجُّ ويعزل السلطة، ويختار دينه ومعتقداته ومَن يحكمه، ويصوِّت على كافة القضايا الموجودة داخل المجتمع، فكبرت إرادة الإنسان وتحرَّرت. ويرى "هيجل" أن نهاية التاريخ قد حلَّت بوصول الإنسان الأوروبي إلى أعلى درجات التحرُّر.

هل انتهى التاريخ حقَّاً؟

إذا صحَّت فكرة "هيجل" فعلاً، وأردنا أن نستفيد من كلامه في بُعدٍ أكبر ممَّا هو قد وصل إليه، فبإمكاننا أن نقول: إن نهاية التاريخ لم تحلَّ بعدُ، وإن الحرية يجب أن تستمرَّ خطَّاً صاعداً يعمُّ البشرية جمعاء، فإن هدف التاريخ إذا ما كان موجوداً فعلاً، فإنه لا يتوقف عند تحرير الإنسان الأوروبي فحسب! إنما هو تحرير الإنسان في كافَّة بقاع الأرض، وإن هذا الأمر لمَّا يحدث بعدُ، وإن كانت تطوُّرات التاريخ تتجه باتجاهه..

إن هذا الطرح ينفعنا عند النظر في التطوُّرات الحاصلة في مجتمعاتنا اليوم؛ فسواءٌ كانت صواباً أم خطأً، إلا أنه بات لدينا نحن الشعوب تساؤلات عن مدى حريتنا وإرادتنا مقابل إرادة السلطة، فلدينا وعيٌ إنساني متزايد بحرية الإنسان، والمجتمعات العربية في ثورات "الربيع العربي" عبَّرت عن هذه الإرادة، وإذا أردنا أن نراه في صورٍ أصغر، فإننا سنراه في نقاشات أبنائنا لنا، فنحن كجيلٍ كنَّا نسلِّم سابقاً لمن يكبرنا في السنِّ. أما اليوم، فالطفل الصغير يقول لك: (أقنعني)، (هذا ليس رأيي).. وإن حرية الإرادة تتحقَّق بجوانب عدَّةٍ، فالكلام عن أن التاريخ يتجه لتحرير إرادة الإنسان له مصاديقه في الواقع العملي، وأن البشرية تتجه في هذا الاتجاه العامِّ، إنما لم يتحقَّق بعد..

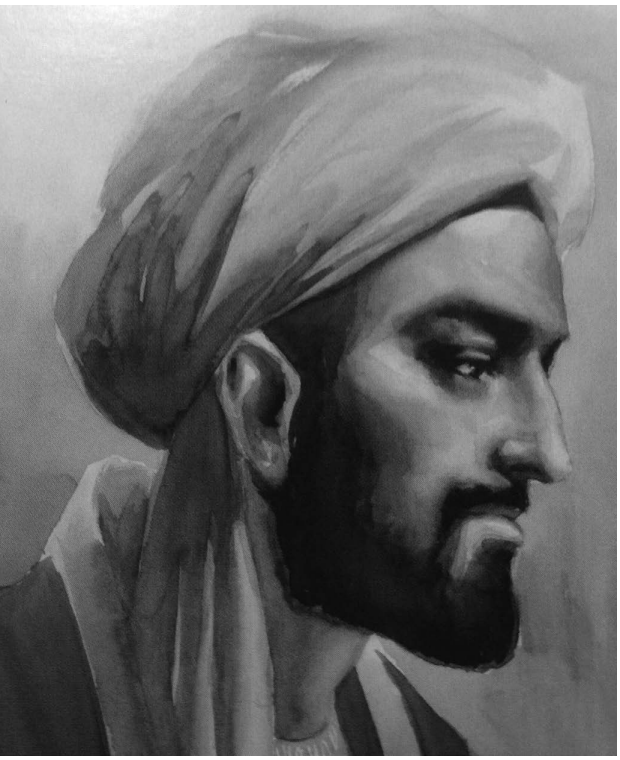
آلية التحوُّل عن طريق الأفكار:

يرى "هيجل" أن عملية التحوُّل في التاريخ تتمُّ بصراع الأفكار؛ فتبرز فكرةٌ كالدكتاتورية تصارعها فكرةٌ أخرى كالحرية، ويستمرُّ الصراع بين الفكرتين إلى أن يتفق الناس على منطقةٍ وسطى بين الفكرتين، فيها شيءٌ من التنازل عن الحريات، وشيءٌ تثبُت فيه الحريات.. فينشأ من منطقة الوسط هذه نظامٌ أو تصوُّرٌ أو فكرةٌ.. وبعد حينٍ من الزمن يكتشف الناس أن النظام القائم فيه مشكلةٌ ما، فتخرج فكرةٌ اجتماعية ثانية تصارع الفكرة الأولى الموجودة ليحدث التدافع مجدَّداً بين الفكرتين، ثم يتبعه ائتلافٌ بين الفكرتين ليتمَّ العمل على شيءٍ مركَّبٍ منهما.. ومن هذا المركَّب ستنتج لدينا أيضاً فكرة ناقصة ما دامت بشريةً، وسيأتي مَن يطرح فكرةً بديلةً ليحاول أن يعدِّل الفكرة التي كانت معدَّلةً من الفكرة التي قبلها، التي بدورها كانت معدَّلةً من فكرةٍ أخرى، وهكذا.. إذاً؛ هناك صراع نقائض باستمرارٍ؛ فالفكرة ونقيض الفكرة يأتي بالمولِّد، والمولِّد يأتي بنقيضه.. فـ"هيجل" يرى أن حركة التحوُّل التاريخي بشكلٍ عامٍّ تحدث نتيجة هذا الصراع في عالم الأفكار، فإذا جرَّدنا هذا التدافع من حركة البشر واقتتالهم وإطلاقهم الرصاص، سنجد بوضوحٍ الإرادات الفكرية الكبرى التي تتصارع لإنتاج مجتمعٍ جديدٍ، وإننا في كل مجتمعٍ نحتاج إلى أن نلحظ الأفكار المتصارعة في لحظةٍ تاريخيةٍ معيَّنةٍ، وكيف ستنتج الحلَّ الجديد الذي سيُعَبِّر عن اندماج الفكرتين بدرجةٍ معيَّنةٍ، وكيف ستولد فكرةٌ نقيضةٌ للفكرة الأولى نتيجة النواقص فيها، ليستمرَّ الجدل التاريخي..

وإن تلك الفلسفات هي من الأمور التي نحتاج إلى أن نضعها في سلَّتنا المعرفية حينما ننظر إلى العالم باعتبارها وجهاً من أوجه تفسير الحقيقة، وإن التطرُّق لفكر "هيجل" سيغذِّي سيرنا بفوائد كبيرةٍ، ليبقى السؤال: كيف يمكننا أن نستوعب هذه القضية داخل أفكارنا وتصوُّراتنا؟ وكيف يمكن أن نستبق الأحداث ونستقطب الإنسان إلى نهاية وعيه كإنسانٍ متحقِّقٍ مختارٍ متفكِّرٍ في أفكاره وفي المناهج التي تلقَّاها لحريته، دون أن يكلِّفنا ذلك عناء الدماء والأرواح والآلام؟ فهذه قضية كل المجتمعات، والفارق الذي يتميَّز به مجتمعٌ عن آخر.

وننوِّه بأنه مقابل اتجاه "هيجل" الذي هو اتجاهٌ تصاعديٌّ نحو الأعلى؛ حيث إن نظرية "هيجل" من النظريات الصاعدة، هناك أيضاً اتجاهات أخرى تنازلية، تتجه نحو الأسفل؛ فترى أن الإنسان في انحطاطٍ مستمرٍّ إلى انتهاء الزمان.

ثانياً- عبد الرحمن بن خلدون



حين ننظر اليوم إلى نتاج "ابن خلدون"، نجد قامةً سامقة سابقة لعصرها، فنحن نتكلم عن نتاجٍ في القرن الخامس عشر، أي: عن فترةٍ سابقةٍ لظهور العلوم البشرية، ففي فترةٍ مبكِّرةٍ من الوعي في التاريخ سيكتشف "ابن خلدون" قضايا هامَّةً؛ قسمٌ منها متعلِّقٌ بالمنهج، وقسمٌ متعلِّقٌ بالمُنتَج.

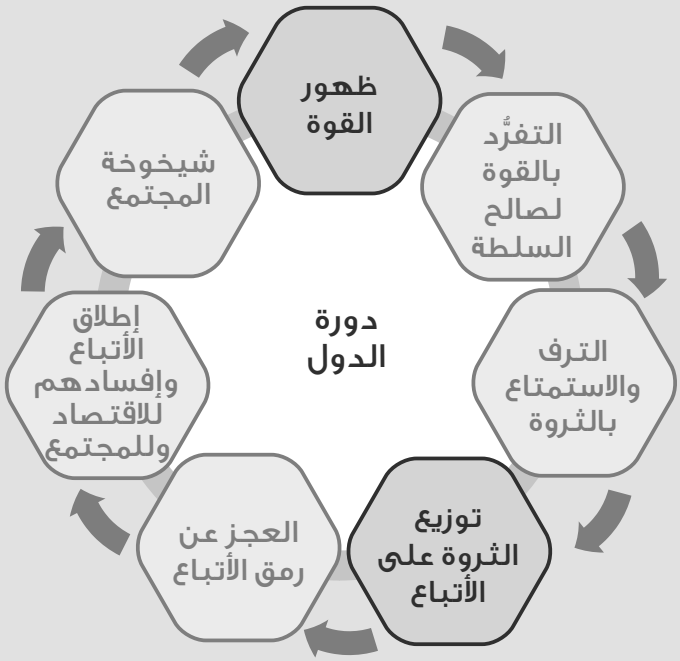
نظرية "ابن خلدون"

رصد "ابن خلدون" في المجتمعات التي يتمُّ غزوها تفشِّي ظاهرة العصبة والعصبية، فالفئة التي تغزو المدن وتصل إلى السلطة في الغالب إما أن يكون أهلها من القرى أو

من البداوة أو من الأرياف أو من الجبال.. وأهل تلك المناطق يكون بينهم عناصر التحامٍ من النسب أو من الدين، فيشكِّلون بلحمتهم قوةً تغزو المدينة، فدور البادية والعصبية سيصبح جزءاً من أطروحة "ابن خلدون".

شخَّص "ابن خلدون" ظاهرةً ثانيةً لها علاقةٌ بالفترة التي تُغزى بها هذه المجتمعات، فلاحظ أن الفترة التي تُغزى فيها، تكون في قمَّة الضعف والتفكُّك من الداخل، فلم يحدث أن غُزِيت تلك المجتمعات في لحظة قوَّتها، وانطلاقاً من تلك الظواهر التي لحظها، قرَّر دراسة الغازين الجدد، واعتبرهم نموذجاً تُدرَس من خلاله الدورة الحضارية للدول..

وجد "ابن خلدون" أن دورة هذه المجتمعات تبدأ من كونهم قبائل كبيرةً تغزو مجتمعاً ما بتكاتفٍ وقوةٍ، تجمعهم لحمة الدم وقرابة النسب أو المصاهرة، فبالتالي هم متساوون في القوة والرتبة.. فيتقدَّمون لسيادة المنطقة التي قاموا بغزوها، ويُنتَخب منهم شخصٌ واحدٌ كزعيمٍ لهم، وحينما يصبح هناك حاكمٌ ومحكومون، ستظهر معادلة السلطة الحقيقية، فالذي بيده الحكم والأمر لن يطيق رؤية أناسٍ حوله مساوين له في المنزلة والمكانة، فسيبدأ بعزلهم والاستغناء عنهم شيئاً فشيئاً مقابل أناسٍ محترفين يأتي بهم بمرتَّباتٍ ووظائف، وستصبح الفئة المعزولة في المجتمع هي فئة الأثرياء والتجَّار.. مقابل بطانةٍ جديدةٍ تتشكَّل حول الحاكم، وقوةٍ عسكريةٍ جديدةٍ من المحترفين الذين تُدفع لهم المرتَّبات، فتعيش هذه الفئة على تمويل الدولة.. ويبدأ الاستبداد بالملك من قِبل المِلك، وهذا الاستبداد الأولي يخلق في البداية دولةً قويةً؛ لأن فيها رأياً واحداً، وجيشاً واحداً، وسلطةً واحدةً.. ثم تتوسَّع الدولة وتتغذَّى على ثروات مناطق أخرى، فحينها ستكثر الأموال، وتبدأ حالة الارتخاء، ومن ثم تظهر عوامل الضعف، ويزداد لدى الحاشية وقادة الجند الطمع والشره وعمليات النهب، والصراع على الأموال، ويصلون إلى مرحلةٍ تعجز فيها الدولة عن سداد المال لهم مقابل خدماتهم، فعندها إما أن تفتح لهم موارد جديدةً، أو تسمح بأن يمدُّوا أيديهم للسوق التجارية في البلاد؛ سواءٌ في شكل مقاولاتٍ، أو في شكل أعطياتٍ أو هدايا، أو بشكل تدخُّلٍ في العملة.. فيقتحمون السوق التجارية العامرة ويفسدون شأنها، ويعتدون على حرمات الناس وحقوقهم، فيفسد نظام العدالة في المجتمع، فتصبح هنا النخبة الأولى هي النخبة المرتخية والمتنعِّمة، والنخبة الثانية هي نخبةٌ لا تشبع من النهب والسرقة.. وعندها يكون المجتمع قد أصبح ناضجاً لتأتي



قوةٌ جديدةٌ بمواصفات القوة السابقة ذاتها لتُسقِطها وتصبح هي القوة الجديدة.. فتبدأ دورة الدول ابتداءً من مرحلة القوة الغازية، إلى مرحلة القوة المطلقة المتفرِّدة وحدها بالسلطة، إلى مرحلة الرخاء والاستمتاع بالثروة، إلى مرحلة توزيع الثروة على الأتباع، إلى مرحلة العجز عن تمويل الأتباع، إلى مرحلة إطلاق يد الأتباع وإفسادهم في السوق وفي المجتمع، إلى مرحلة صيرورة المجتمع إلى مرحلته الأخيرة مرحلة الشيخوخة، ثم لتأتي قوةٌ ثانيةٌ وتنقضَّ عليه..

إذاً؛ رسم "ابن خلدون" مساراً دوريًّاً حتميًّاً للدول، رأى أنه في كل ثلاثين عاماً ستحدث الدورة ذاتها التي تمتدُّ على مدار جيلٍ كاملٍ، ومن ثم تؤول للأفول وتبدأ دورة دولةٍ ثانيةٍ وهكذا.. وإنه بانتباه أهل البلد لمثل هذا المسار، سيستطيعون تقليل الجرف الحادث مع هذا المسار وضبطه..

آفة التعامل مع فكر "ابن خلدون" في مجتمعاتنا:

وبالنظر إلى ما يُكتب عن "ابن خلدون" عندنا، نجد أن الكلام غالباً يتناول المنتج فقط، ونقصد بالمنتج؛ ما يتعلق بقيام الدولة صعوداً وهبوطاً، وأن الاستعانة بهذا الجانب من قِبلنا

فيه مشكلةٌ كبيرةٌ، تكمُن باعتبارنا أن الدولة المعاصرة في مجتمعاتنا العربية والإسلامية هي ذاتها الدولة القديمة الملكية، وتنطبق عليها القوانين والأفكار والتصوُّرات التي تكلَّم عنها "ابن خلدون" في القرن الخامس عشر! فوجود هذا الاعتبار لدينا هو أمرٌ يحتاج إلى التوقُّف، ويُفضي إلى أننا لم نغادر القرن الخامس عشر بعد! ففي إطار القرن الخامس عشر كانت الدولة صغيرةً أو متوسطة الحجم، وكانت دورتها تتمُّ بطريقةٍ محدَّدةٍ لا ديمومة لها، فقد تسقط في ثلاثين سنةً وتمضي، والفئة التي تأتي إلى السلطة وتنتزعها بالقوة كانت تستمدُّ قوتها غالباً من رابط الدم أو الدين، فيتغلَّبون على الآخرين نتيجة التماسك بينهم، فلم يدرك "ابن خلدون" عصر "الهويات المصنَّعة"، أي: حينما تجتمع المجموعة المتماسكة دون رابطة الدين أو الدم، ولم يدرك العصر الذي لم يعد لأهل البوادي قدرةٌ لغزو المدن مهما ضعفت، فالدولة المعاصرة اليوم هي دولةٌ مختلفةٌ تماماً عن فترة "ابن خلدون"، فيسود في عصرنا الحاضر نظامٌ دوليٌّ يتضمَّن كثيراً من المؤسَّسات، كما أنه حينما تحدَّث عن علم الاقتصاد، تحدَّث عن نمطٍ اقتصاديٍّ تبادليٍّ، في حين أن النمط في عصرنا هو نمطٌ عالميٌّ متَّصلٌ، إذا سقط، فإنه قد تسقط وراءه مجتمعاتٌ كبرى، فالنظرية التي طرحها "ابن خلدون" مناسبةٌ لعصره لا لعصرنا! فزيارتنا لـ"ابن خلدون" لا يجدر أن تُعتبر شيئاً سنعتمد عليه في صناعة الحاضر، إنما هي شيءٌ سنستفيد منه في هذا الوعي الجامع للأفكار الكبرى المنيرة في التاريخ..

منهج "ابن خلدون":

ويبقى السؤال بعد المعطيات السابقة: أين الإبداع الذي شاهده "توينبي" في صنيع "ابن خلدون" إذاً؟!

الإبداع لدى "ابن خلدون" كائنٌ في المنهج الذي اتَّبعه، فـ"ابن خلدون" لفت أنظارنا إلى قوة الدراسات الاستقرائية على القراءات الاستنباطية؛ حيث إن المستنبِط يأتي بقواعدَ أساسيةٍ، ثم يحاول إنزالها على أرض الواقع.. أما المستقرِئ فهو يقرأ الموجود في الواقع ويستنتج منه القوانين، فبدأ "ابن خلدون" وسنَّ سنَّة الاستقراء لتكتشف البشرية هذا المنهج بعده بحوالي ثلاث مئة سنةٍ تقريباً، إلا أننا نحن المسلمين لم نلتفت إلى المنهج الذي صنعه لولا أن أثنى

"أرنولد توينبي" عليه واعتبره أعظم شخصيةٍ أنتجتها البشرية! وذلك لكونه صنع تصوُّراً سابقاً لعصره في البحوث الاستقرائية، فلولا أن نبَّهنا "توينبي"، لَربما كان كتاب "ابن خلدون" كواحدٍ من الكتب الموجودة، أو لَبقي من المجهولين بالنسبة لنا.

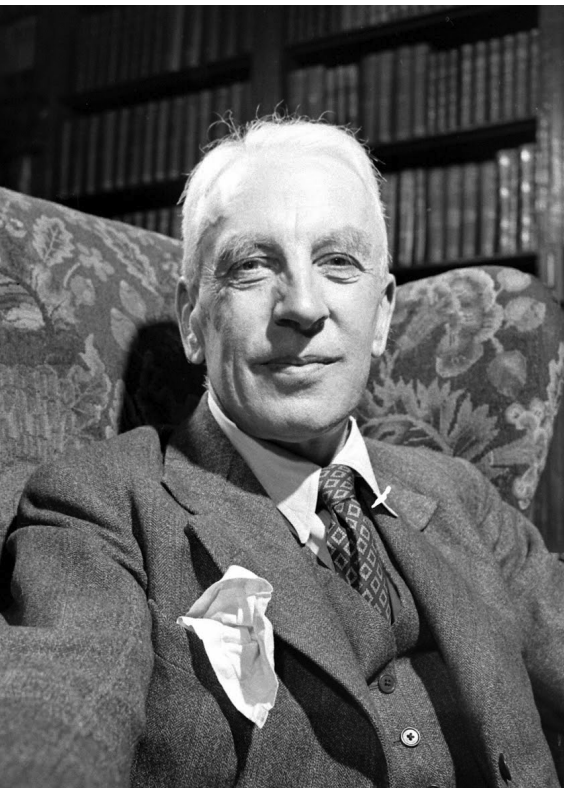
اتبع "ابن خلدون" منهجاً علميَّاً فريداً لم يكن لأحدٍ سبقٌ فيه، فبالنظر إلى الكتب التي سبقت "ابن خلدون" في التاريخ (كابن كثيرٍ والطبري وغيرهم..)، سنجد أنه لدينا سردٌ للأحداث فقط، أي: (حدث كذا في عام كذا..)، أو تُساق الآيات والأحاديث ويستشفُّ منها ما يجب أن يحدث.. فكانت الدراسات تكتفي بتدوين الأحداث فقط، دون أن تُبرِز معنى التاريخ أو تلقي الضوء على العِبَر المستشفَّة من الإحداث.. أما "ابن خلدون"، فقد سار بمنهجٍ مختلفٍ، فلم يقم بدوره كمصوِّرٍ للأحداث التي جرت في حقبةٍ ما؛ بل اختطَّ منهجاً يقوم به بدراسة ظاهرةٍ من الظواهر الواقعية الكبرى، فأخذ عيِّناتٍ من الدول التي قامت وسقطت، واعتمد سؤالاً بحثيَّاً كبيراً، ومن ثم قام بالبحث والسرد والتحليل للأطوار التي مرَّت بها الدول من مرحلة الضعف، ثم القوة، ثم الاضمحلال، فالزوال، ثم توجَّه إلى العوامل التي أدَّت إلى هذه الأحداث الدائرية بشكلٍ مستمرٍّ، بهدف الوصول إلى الإجابة، مع إدراكه أنه يشقُّ طريقاً جديداً في البحوث التاريخية والإنسانية، فحدَّد السؤال البحثيَّ في درجةٍ ممتازةٍ من الدقَّة كتلك الدقة التي نراها في البحوث العلمية اليوم.

وهذا الانتقال المعرفيُّ، هو الذي شكَّل العصور الحديثة، وشكَّل الفارق عن العصور القديمة، ونحن على الرغم من أننا أقمنا نظاماً مدرسيَّاً، واستقطبنا أشكال النظم الغربية فيه، إلا أننا لم ندرك ولم نخلُق العقلية التي تدرس الواقع وتخرِّج القوانين في كل الجوانب، فما زالت الدراسات تقوم على المنهج الاستنباطي على حساب المنهج الاستقرائي؛ فتفتقر إلى الدراسات الميدانية؛ بل تأتي بتصوُّراتٍ مسبقةٍ وتحاول أن تفرضها على الأحداث الجارية.

ابن خلدون	● المنهج الاستقرائي ● الدورة التاريخية للدول

إننا حينما ننظر إلى فلسفة التاريخ، يجب أن لا نكون أسرى تصوُّرٍ معيَّنٍ، فإن ما أنتجه "ابن خلدون" وغيره هو تصوُّراتٌ تنفعنا للنظر في التاريخ من زوايا متنوِّعةٍ، ولكن لا يصحُّ أدلجة التاريخ واعتبار مخرجات "ابن خلدون" مخرجاتٍ إسلامية لكونه شخصيةً مسلمةً! فليس منهج "ابن خلدون" المنهجَ الرئيسيَّ للمسلمين، وليست الخلاصات التي وصل إليها خلاصاتِ الإسلام، فعلينا أن ننظر إلى "ابن خلدون" كعالمٍ من العلماء اكتشف منهجاً قابلاً للأخذ به، إلا أن مستخلصاته يمكن أن تستخلص نتائج أخرى في عالمٍ آخر وفي بيئةٍ أخرى وفي مجتمعاتٍ أخرى..

ثالثاً- أرنولد توينبي



هناك مؤرخٌ كبيرٌ جدًّاً اسمه "أرنولد توينبي Arnold Toynbee"، وهو من المعجبين والمتأثِّرين بالعمل المبهر الذي قام به "ابن خلدون"، إلا أن "توينبي" رأى أن "ابن خلدون" قصُر فعلُه على دراسة قيام وسقوط الدول، فأراد "توينبي" أن ينتقل خطوةً أخرى صرف عليها حوالي أربعين سنةً من البحث، وهي دراسة الحضارات الكبرى التي قامت في العالم: كيف قامت؟ وكيف سقطت..؟

والفارق بين الدول والحضارات هو أن الحضارات يندرج تحتها عشرات الدول؛ فالحضارة الإسلامية مثلاً يندرج تحتها دول السلاجقة العثمانيين، والأيوبيين، والزنكيين، وغيرهم.. وكذلك الحضارة المسيحية يندرج تحت اسمها العديد من الدول المختلفة التي شكَّلت مصيرها.

"توينبي"	● التحدّي والاستجابة ● الوسيلة الذهبية ● الثلّة المبدعة ● ضمان الاستمرارية

وفي محاولة "توينبي" الإجابة عن تساؤل: كيف تقوم الحضارات وتنشأ؟ وكيف تسقط وتنتهي؟ قدَّم لنا مجموعةً من القوانين يُنتفع منها في مواقفَ معيَّنةٍ من التاريخ..

التحدِّي والاستجابة:

رأى "توينبي" كـ"ابن خلدون" أن للحضارات فترات طفولةٍ وشبابٍ ونضجٍ وشيخوخةٍ وانحدارٍ وانتهاءٍ.. إلا أن فلسفة "توينبي" بقيام الحضارات انطلقت من قانون التحدِّي والاستجابة.

ويُقْصَد بهذا القانون أننا حينما ننظر إلى المجتمعات البشرية الأولى وتشكُّلها، نجد أن الإنسان مرَّ بصعوباتٍ عدَّةٍ، فإنسان الكهف الأول وجد نفسه في تحدٍّ مع الحيوانات التي تحيط به، فقادته تجربته إلى صناعة الأسلحة من سهمٍ ورمحٍ ونحوهما، لمواجهة هذه الحيوانات الضارية، فكلما واجهته مشكلةٌ، صنع لها حلًّا، واستطاع بذلك أن يتقدَّم خطوةً في سلَّم الحضارة، فارتبط نهوض الأمم بنوعية التحديات التي تواجهها، وبمدى قدرتها على تجاوزها.

وإن التحديات التي تصيب الأمم لها مستوياتٌ؛ فإما أن يكون التحدي أعلى من درجة تحمُّل الأمم ويفوق قدرتها الإبداعية على الحلِّ فتندثر، كحضارات الأنكا والمايا والأولمكس في أميركا الجنوبية. فتلك الأمم سقطت؛ لأنها فشلت في الاستجابة الصحيحة للتحدي الذي اعترضها..

وقد تَحُول التحديات الكبرى دون السماح بإنشاء الحضارات من الأساس، فمثلاً: قبائل الأسكيمو في ألاسكا، لم يستطيعوا أن ينتجوا حضارةً، والسبب في ذلك أن إمكانية إنتاجها محدودةٌ، فما إن يُبنى طريقٌ حتى تملأه الثلوج، فكانت إمكانية التغلُّب على الطبيعة مستحيلةً.

وهناك حضاراتٌ لم تنشأ لانعدام التحدِّي أساساً، كنيوزيلندا مثلاً، فحينما جاءها الأوروبيون وجدوا الناس فيها عراةً، ليس لديهم أيُّ نوعٍ من الحضارة، لأنه لم يحدث لديهم أيُّ نوعٍ من التحدِّي؛ فموارد المياه متاحةٌ للجميع، والفواكه والخضروات ممتلئةٌ، وعدد السكان قليلٌ جدًّا، والحيوانات من كل حدبٍ وصوبٍ.. فالحاجة إلى الإبداع غير موجودةٍ، وما لم توجد تلك الحاجة لن تقوم الحضارة.

الحضارة بحسب "أرنولد توينبي" تنشأ عن مواجهة تحدٍّ مناسبٍ؛ سواء كان تحدّياً طبيعيّاً أو بشريّاً.. فإذا استفزَّ التحدّي طاقات المجتمع ونجح المجتمع بمواجهته؛ تقدَّم في سلَّم الحضارة. وذلك كمواجهة الزلازل بأبنيةٍ مضادَّةٍ للزلازل، أو مواجهة احتلالٍ بقوَّةٍ رادعةٍ.

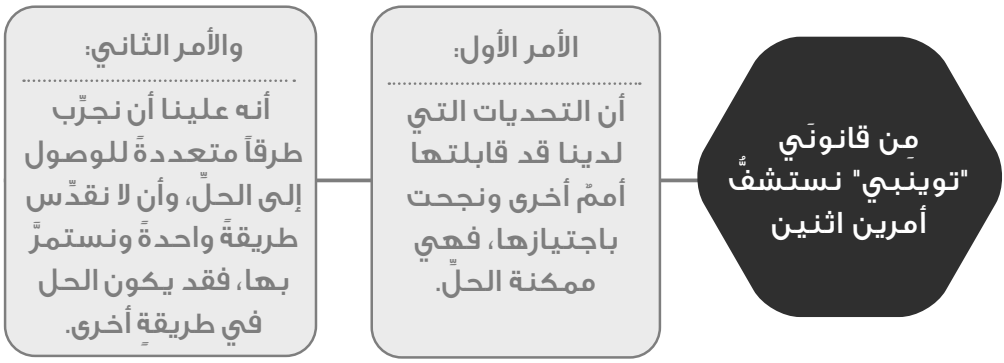
الوسيلة الذهبية:

وهناك أمرٌ آخر لاحظه "أرنولد توينبي"، فحينما درس الحضارات، وجد أن غالب التحديات ليس لها حلولٌ سريعةٌ، وبالتالي قد تجرِّب حضارةٌ ما عدَّة طرقٍ لحلِّ المشكلة، فمن خلال المحاولات المتكرِّرة التي تقوم بها، ستصل إلى "الوسيلة الذهبية"، أي: إلى الحلِّ النافع، فتتغلَّب من خلاله على ذلك التحدي. فعلى سبيل المثال لو أن مجموعةً من الناس عالقون على جزيرةٍ ما، وهم في أمسِّ الحاجة إلى العبور إلى الطرف المقابل، فهذا التحدّي بالنسبة لهم، وكانت استجابتهم إزاء ذلك التحدّي أن فكَّروا بصناعة جسرٍ للعبور، وعند التنفيذ الأولي سقط الجسر وتحطَّم؛ وذلك لأن التقنية الموجودة فيه هي تقنيةٌ ضعيفةٌ، وفي المحاولة الثانية سيكون الجسر أكثر صموداً ونجاحاً بعد تنضيج المحاولة الأولى، أما في المحاولة الثالثة، سيكون الجسر في غاية المتانة والامتياز نظراً لتراكم الخبرات واستبعاد الحلول غير المجدية، وهذا ما يسمِّيه "توينبي": الوسيلة الذهبية، فأصبحوا يستطيعون العبور إلى الجهة المقابلة في زمنٍ قصيرٍ وبأعدادٍ كبيرةٍ جدًّا.

ولنا في الرسول محمَّدٍ عليه الصلاة والسلام خير مثالٍ، فحينما أراد بثَّ الإسلام، بدأ في مكة داعياً عِلْيَةَ القوم، وظلَّ يدعوهم عشر سنواتٍ ولم يستجيبوا له، فوجَّه طاقته إلى القبائل العربية، ويقال: إنه قد مرَّ على أكثر من أربع عشرة قبيلةً عربيةً يطلب منهم النصرة، وجلُّهم

قد رفضوا أو اشترطوا عليه شروطاً لم يقبلها، وحينما أراد العودة إلى مكة، وجد فيها خمسةً قادمين من المدينة المنوَّرة فكلَّمهم وبايعوه، وحينها حاول بطريقةٍ أخرى، وهي أن يبعث إليهم مصعب بن عمير، فوافقوا وانحلَّت العقدة. فوُجِدَت الأرض التي بنى عليها الكيان السياسيَّ وحقَّق بها التمكين.. فحتى الرسل والأنبياء يدخلون -بإرادة الله- في استعصاءات الفعل البشري العادي حتى يكونوا قدوةً لغيرهم.

ونحن المسلمين اليوم في مأزقٍ تاريخيٍّ كبيرٍ، وأمامنا معضلاتٌ قويةٌ من استعمارٍ، واستبدادٍ، وتخلُّفٍ داخليٍّ، وافتقارٍ للتقنية وللتكنولوجيا، ومن صراعاتٍ داخليةٍ بين المجموعات السكَّانية.. وبالتالي أمامنا مشروعٌ كبيرٌ جدًّا في حلِّ هذه الإشكاليات، ولا يعني إذا فشلنا مرَّةً أو مرتين أو ثلاثة.. أن نعتبر أن الموضوع انتهى، وأن صعودنا في سلَّم الحضارة قد توقَّف، فإن الباب لن يغلق طالما نحن مستمرُّون في محاولة إيجاد الحلول، فإذا كنَّا نسعى ولم نيأس، فنحن في الطريق الصحيح، وسنجد يوماً المفتاح الذهبي الذي سيفتح هذه العقدة الموجودة أمامنا، وسيطلقنا في فضاء التقدُّم مرَّةً أخرى كما نتمنى..



قانون القلَّة المبدعة:

يلاحظ "أرنولد توينبي" قضيةً ثالثةً، هي أنه توجد باستمرارٍ داخل الحضارة -سواء في فترة بداياتها، أو نموِّها، أو تطوُّرها، أو حتى في انهيارها- قلَّةٌ مبدعةٌ هي التي صنعت الأفكار التي أوصلت تلك الحضارة؛ حيث إن جموع الناس في الغالب ليسوا مبدعين أو حاملي أفكارٍ ورؤى.. بل إن معظمهم يعيش حياةً خاليةً من الأحلام ومن المشاريع الكبرى، وثلَّةٌ قليلةٌ من

الناس يهتمُّون بالشأن العامِّ وبالتقدُّم الكلي للمجتمع.. وهي الثلَّة التي ستصل إلى السلطة، وستتحكَّم بالبيئة مستمدَّةً قوتها من دعم الجماهير لها، إلا أن هذه الفئة وبعد مرور فترةٍ من الزمن، ومع سباق الحضارات الأخرى، ستكون بحاجةٍ إلى التجديد لتستمرَّ في حالة السبق أمام الأمم الأخرى، وإلا فإنها بعد حينٍ من الزمن ستفقد روح الإبداع، وستعتمد على تطوُّر النظام الذاتي والأدوات التي خلَقتها في البداية، وهنا تأتي قضية ثانية، أن المجتمع سيظهر في داخله ثلَّةٌ مبدعةٌ أخرى لديها حلولٌ، ولكنها ليست في السلطة، وحينما ستبدأ بطرح أفكارها، سيكون أمامها طريقان؛ إما أن تُقمَع من قِبَل الثلَّة الأولى، وإما أن تُفتَح لها الأبواب فيتمَّ استيعابها وتستثمر طاقاتها ويُفتح أفقٌ جديدٌ بها، وهذه القلَّة هي كالعملة النادرة، فإذا قُمعت فعلى الغالب سيتراجع المجتمع، ككثيرٍ من الدول التي نجحت فترةً، ثم بدأت بالتراجع في فتراتٍ أخرى، أما إذا انحاز لها المجتمع ودعمها أو استوعبت السلطة عملية التقدُّم، كما هو الحال في كثيرٍ من المجتمعات، فحينها سيواصل المجتمع تقدُّمه. وهذه الفئة الجديدة على الغالب ستُواجَه أفكارها بالقمع والاستبداد والرفض، وطبقات المجتمع ستفضِّل أن تستمرَّ على ما كانت عليه، حتى لو كان المجتمع يسير في خطٍّ انهيارٍ! وأيضاً قد تنحسر مبادرة القلَّة أمام اعتقادهم أن الطرقات ستُفتح لهم يوماً ما وحدها، وهذا غير صحيحٍ! فإن السوق ليست فارغةً؛ بل هي مليئة بمن يعتقدون أنهم مبدعون؛ بل إنهم هم الذين أسَّسوا الإبداع الأساسيَّ، فمن أين لهم أن يسمحوا بمرور الروح الجديدة؟!

إن مشهد الاحتراب بين الثلَّة المبدعة القديمة والثلَّة الجديدة نشهده من حولنا في كافَّة المجتمعات، فحتى الدول الأوروبية نشهد فيها الصراع بين الفئات الشبابية والفئات التي شكَّلت المجتمع الأول، والفارق أنه في المجتمعات الحية يتعاملون مع هذه النزاعات بطرقٍ تسمح بتقدُّم المجتمع، في حين أن مجتمعاتٍ أخرى تقودها الصراعات إلى انهياراتٍ كبرى، وصراعاتٍ دمويةٍ تبدأ ولا يُعلَم متى وأين تنتهي..! فتدور الدورة وتتحوَّل الفئة الأولى التي أنشأت المجتمع إلى فئةٍ قاهرةٍ وقامعةٍ، ويستمرُّ المجتمع في الانهيار إلى أن تنتهي الحضارة ويأفُل نجمها.

إن مصير المجتمع مرهون لدى توينبي بمدى تقبله للإبداع الذي ستطلقة القلة الجديدة، فنهاية الحضارات لديه حينما تعجز الفئة الجديدة المبدعة من اكتساب الجماهير التي تسمح لها أن تمارس دورها..

تنضير الحضارات وضمان استمراريَّتها:

يعرض "توينبي" هذه المعلومات ليقول للإنسان المشترِك في الفعل الحضاري: إن المطلوب منه ليس محصوراً بمراقبة الخصوم المعادين لتلك الحضارة؛ بل إنه -كفاعلٍ حضاريٍّ- جزءٌ من معادلة صيرورةٍ أسقطت الحضارات الأخرى، وإن حضارته الحالية إذا لم تجد طريقاً لفتح باب الأفق أمام الفئات المبدعة لتعبِّر وتقدِّم إبداعها، فإنها لن تستمرَّ.. وإن الحضارة الأوروبية حينما فقِهَت قانون الدورة الحضارية بشكلٍ جيدٍ.. ولَّدَت فكرة "احتضان الإبداع"، واعتمدت في بنيتها على ما تعتقد أنه سيمنع عنها الانهيارات الكبرى؛ ففعَّلت في مجتمعها محرِّكات النقد، وقبِلت فكرة البُنى المختلفة عن المجتمع، ووفَّرت لهم ضمانات الحماية القانونية لتتمكَّن الفئة المبدعة من أن تعبِّر عن نفسها وأن تحمي أفكارها وإبداعاتها وتصوُّراتها، وفسح المجال أمامها لطرح أشياء مختلفةٍ عمَّا يقوله المجتمع، فالمجتمع بحاجةٍ إلى المرايا الجانبية لمشاهدة النقاط العمياء، وحماية الإبداع هنا قضيةٌ في غاية الأهمية.. فحتى وإن افتقر المجتمع للحِجَاج المناسب، فإن لهذه الفئة المبدعة وفق الآليات السابقة أن تأخذ المكان والدور المناسب، وتدفع بحضارة المجتمع مرَّةً أخرى إلى الأمام.. وهذا ما سمح لأشخاصٍ مثل "تشومسكي" و"هابرماس" ومفكرين آخرين بنقد الحضارة الغربية.

رابعاً- مالك بن نبي ومشروع النهضة:

قدَّم لنا "مالك بن نبي" منظوماتٍ في غاية الأهمية، وسنذكر هنا أهمَّ المنظومات التي يمكن أن تنفعنا في السياق الذي نتكلَّم فيه..

"مالك بن نبي"	● الفكرة الناظمة ● العوالم الثلاثة ● الأفكار الحيَّة والأفكار الميِّتة ● إنسان الانتظار

الحاجة إلى الفكرة الناظمة:



يرى "مالك بن نبي" أن مكوِّنات الحضارة الأساسية هي: الإنسان، والتراب، والوقت. فلا يوجد مجتمعٌ إلا وفيه إنسانٌ وموارد، والمقصود بالتراب مجموع الموارد المتوفرة للمجتمع في لحظة انطلاقه. أما الوقت، فالساعات الأربع وعشرون تمرُّ يوميًّاً على جميع الأمم، فالإنسان والتراب والوقت هي قضايا متوفِّرةٌ في جميع البيئات، إنما قيام الحضارة لا يمكن حدوثه دون وجود "الفكرة الناظمة" التي تعطي للإنسان أمرين هامَّين جدًّا؛ هما: الروح والمعنى للحركة، ومنهما تخلق الدافعية لدى الإنسان للفعل، ويخلق معنى الفعل الذي سيبذل الإنسان من أجله الغالي والرخيص.. فإن ما نحتاجه اليوم هو الفكرة الناظمة التي تقود تحرُّكاتنا لصنع الحضارة. فالجزائر ومصر والعراق وغيرها من البلدان.. جميعها فيها إنسانٌ وترابٌ ووقتٌ، ولكنَّ الفكرة الناظمة التي تحوِّل هذه الأشياء إلى مركبٍ حضاريٍّ هي الأساس، فلولا أفكار "مهاتير محمد" في ماليزيا، لَكانت ماليزيا الآن تتطاحن عرقيًّاً ومذهبيًّاً وطائفيًّاً كحال الدول العربية وكثيرٍ من المناطق الأخرى.

إذا أُضيفت الفكرة الناظمة –التي تبعث الروح وتجعل للعمل معنىً..– إلى التراب والوقت والإنسان، عندها تكون الحضارة على مشارف البزوغ

عوالم الإنسان (الأفكار – العلاقات – المشاريع):

يقِرُّ "ابن نبي" بأن الإنسان يعيش وفق ثلاثة عوالم: عالم الأفكار، وعالم العلاقات، وعالم الأشياء (المشاريع)، ومن أجل إطلاق الإنسان والمجتمع للفعل الحضاري، علينا أن نتفحَّص

تغييرات هذه العوالم، فإن الإنسان إذا ماحدثت تحوُّلاتٌ في عوالمه الثلاثة، فإنه سيستخدم الإنسان والتراب والوقت بطريقةٍ أكثر كفاءةً..

وقد نشأ نزاعٌ كبيرٌ جدًّاً عبر التاريخ حول هذه العوالم، وأيُّها الأقوى والأجدر بالاهتمام، فهل الأجدر هو عالم الأفكار، أم أن الأنفع أن نتَّجه للجوانب العملية؟! وهذا مفاد النزاع الذي جرى بين "هيجل" و"ماركس"، وهو نزاعٌ فلسفيٌّ كبيرٌ جدًّاً، فـ"ماركس" يرى أن السيطرة على الموارد المادية والتغيُّرات الاقتصادية هي التي تُحدِث التحوُّلات الاجتماعية، بينما يرى "هيجل" أن تطوُّر الإنسان بفكره وضميره ووعيه هو الذي سيخلق العالم الجديد، وبالتالي فإن مساحة العمل مختلفةٌ بينهما؛ فـ"ماركس" يصارع في الواقع بين العمَّال، و"هيجل" يصارع في عالم الأفكار لإنتاج الإنسان الأمثل..

حاول "مالك بن نبي" أن يمسك العصا من الوسط محاولاً الإجابة، ولرؤيةٍ أفضل:

- قلَّص المعادلة على طرفين، فاعتبر أن عالم العلاقات هو عالمٌ وسيطٌ بين كِلا العالمين؛ فإذا غيَّر شخصٌ ما أفكاره، وأراد الانتقال من مجال التعليم مثلاً إلى عالم التصوير السينمائي، فإن عالم العلاقات سيتغيَّر تبعاً له بشكلٍ تلقائيٍّ، وسيبحث عن مخرجين وسينمائيِّين، وأيضاً الإنتاج سيتغيَّر، فالعوالم جميعها مرتبطةٌ ببعضها، فقام بتنحية عالم العلاقات، وأبقى عالم الأفكار وعالم المادة.

- أعاد طرح السؤال بطريقةٍ أكثر إنتاجيةً، فجعله: "أيُّهما أقوى عالم الأفكار، أم عالم الأشياء؟"؛ لأن الحضارات بحاجةٍ إلى كلا العالمين، ولكن هناك عالم أقوى من عالمٍ.

ومن أجل الإجابة ضرب مثالاً الشعب الألماني الذي يتمتع بالتطوُّر في كِلا العالمين: الأفكار والمشاريع، واختار مقابله شعباً من أواسط إفريقيا يعاني من ضمورٍ في كِلا العالمين، وافترض أنه بعد أن يتمَّ إفراغ ألمانيا من سكَّانها تماماً، سيقوم سكَّان إفريقيا بالعيش فيها فينتشرون في مصانعها وشوارعها ومكتباتها، وبالمقابل سيفترض أن الألمان سيحلُّون في المكان الذي خرج منه الأفريقيُّون.. فـ"ابن نبي" بافتراضه هذا، نقل أناساً لا يمتلكون أفكاراً حيَّةً إلى بيئةٍ متقدِّمةٍ جدًّاً من ناحية المادة، ونقل أناساً يمتلكون أفكاراً حيَّةً كبرى من بيئتهم إلى بيئةٍ بدائيةٍ جدًّاً في الموارد والمعطيات، وافترض أنهم مكثوا خمسة عشر سنةً. فإذا كان عالم الأفكار هو الأقوى

فالألمان سيحوِّلون إفريقيا إلى عالمٍ جديدٍ، أما إذا كان عالم المادة هو الأقوى، فسيرتفع مستوى الثلَّة القادمة من إفريقيا إلى مستوى أعلى ممَّا كانت عليه، والحقيقة أننا سنجد أن الألمان قد قاموا بما يحملون من أفكارٍ بتغيير الواقع، بينما الأفارقة لن يستطيعوا أن يرتقوا إلى مستوى المادة الموجودة.. ومن هذه النتيجة وصل "ابن نبي" لاعتقاد أن عالم الأفكار هو العالم الأقوى الذي يمكنه أن يصنع عالم العلاقات وعالم المشاريع، وهي الإجابة التي حلَّ بها "ابن نبي" المعضلة في الفلسفه بين "هيجل" و"ماركس"، وهذا لا يلغي أثر بقيَّة العوالم على عالم الأفكار.

وإن البلاد العربية على الصعيد المادي، قد استُجلِب إليها في زمنٍ من الأزمنة أحدث ما في العالم؛ فأُنشئت الجامعات في مصر على غرار الجامعات الغربية، وتمَّ إنشاء المصانع، وتطوَّر التعليم، وأصبحت الشوارع آنذاك أجمل من شوارع باريس، والحال ذاته اليوم بالنسبة لدول الخليج؛ فقد تمَّ استجلاب الشكل الخارجي للحضارة.. إلا أننا لم ندخل في السباق العالمي الحضاري؛ لأن عالم الأفكار التأسيسيَّ للعلاقات والمشاريع لا ينضج ولا يتطوَّر بهذه الكيفية.. فبهذه الكيفية أصبحنا شعوباً أكثر استهلاكيةً، ولم نصعد في سلَّم الحضارة شيئاً، فإنسان البلدان المعتنية بالمظهر الحضاري فقط لن يعيش مكتفياً بموارد بيئته راكباً الجمال، مستعملاً الآلات اليدوية البسيطة، فسيشتري الأجهزة، ويركب السيارات، مستهلكاً بشكلٍ أساسيٍّ ما صنَّعته الحضارات المتقدِّمة، دون أن يفكِّر بتطوير ما أخذه أو تصنيع ما يسدُّ احتياجه، وبالتالي تبقى مجتمعاتنا استهلاكيةً لما تنتجه الحضارات، دون أن تدخل في التنافسية مع المجتمعات المتقدِّمة ما لم تُحدِث تغيُّراً بعالم أفكار الأفراد فيها..

فمن هنا تأتي أيضاً قضية التخلُّف حتى في دائرة الصراع؛ فتعداد سكان إسرائيل خمسة ملايين نسمة، أما نحن العرب فتعدادنا حوالي ثلاث مئة أو أربع مئة مليون عربي، وحوالي مليار ومئتي مسلم، ولكنَّ عالم الأفكار التي نحملها لا يوازي الموجود في هذه الدويلة، وهذه أيضاً من القضايا الهامَّة التي يجب أن نحملها معنا، فإننا إذا لم نصلح عالم الأفكار لدينا، فإن عالَمَي العلاقات والمشاريع لن يصلحَا.

الأفكار الحيَّة والأفكار الميتة:

يقودنا "مالك بن نبي" خطوةً ثانيةً إلى الأمام في التفكير، فيشخِّص عالم الأفكار، ويرى أنه ينقسم إلى: أفكارٍ حيَّةٍ، وأفكارٍ ميتةٍ، وأفكارٍ مميتةٍ.

- **فالأفكار الحية: كفكرة النهضة والتقدُّم، وكاستحضار فكر الإنسان، واستحداث عقله بدل تلقينه.**
- **أمَّا الأفكار الميتة: فهي قضايا مضت، كصراعات المعتزلة مع الأشاعرة (قضايا الأسماء والصفات)، فهي قضايا ماتت في زمنها، ولم يعد لها تأثيرٌ في عصرنا.**
- **وأمَّا الأفكار المميتة: فمثالها القبلية والطائفية، فهي أفكارٌ مميتةٌ، إذا دخلت المجتمعات قتلتها.**

وإن المجتمعات المتخلِّفة تكثر فيها الأفكار الميتة والمميتة، فيعاد مرَّةً ثانيةً تدويرها، أما الأفكار الحية، فتُستبعد من الساحة، وهذه القضية يجدر بنا استحضارها لنميِّز أفكارنا ونعرف إلى أيِّ صنفٍ تنتمي.

ميلاد إنسان الانتظار:

رأى "مالك بن نبي" أن الأفكار الميتة والمميتة تنقلنا إلى ميلاد إنسان الانتظار:

- **إنسان الانتظار الأول**

وهذه المسألة أخطر من سابقتَيْها، وهي ناتجةٌ عنهما.. يقول "ابن نبي": إن حضارة المسلمين حينما قامت كانت كبقية الحضارات؛ حيث إن المسلمين اندفعوا لإنجاز عالمهم بذاتهم، ولم يترقَّبوا الكشوف والمعجزات.. بل نشطوا وتحرَّكوا وجاهدوا، ففتحوا العالم، وضحَّوا بدمائهم وأرواحهم من أجل هذا الامتداد العسكري، وكذلك حينما طلبوا العلم، سافروا وساحوا في الأرض، وترجموا مدونات العلوم التي أنتجتها الأمم الأخرى، وقرؤوها ونخلوها وأعادوا فتحها والبحث فيها، وحينما واجهتهم الإشكاليات، حاولوا حلَّها بجهودهم الذاتية، ولكن مع مرور السنوات وتبدُّل الظروف، تحوَّل هذا الإنسان.. ومع أن دراسة "ابن نبي" كانت على مساحة الموحِّدين في المغرب، إلا أن دراسته يمكن أن تنطبق على مساحاتٍ واسعةٍ اليوم، فظاهرة الانتظار التي يصفها موجودةٌ في كل المجتمعات الفقيرة للأفكار الحية، فإنسان ما بعد الحضارة بنظر "ابن نبي" يعتقد أنه لا يتوجَّب عليه الإنجاز في حياته، وأن هناك معجزاتٍ ستقوم بهذا الأمر، وأن هذه المعجزات لا يُحتاج من أجل ظهورها أن يتعلَّم ويبذل الجهد؛ بل

هناك علمٌ لدنيٌّ، وأن اجتهاده التعبُّدي سيكفيه عن كل السعي، فلماذا يُتعِب نفسه في مكابدة الكتب والبحث والنظر: ﴿واتقوا الله ويعلِمكم الله﴾! فنشأت بيئةٌ لنوعٍ من التصوُّف الانسحابي من الحياة، وانتشر لمساحاتٍ واسعةٍ، فبعِض الناس ليسوا من المتصوِّفة، ولكنهم يردِّدون الكلمات والمعاني ذاتها التي تجعل الإنسان عاجزاً عن الفعل في هذا الوجود، وسنسمع عباراتٍ تُجرَّد من سياقاتها لتخدم القعود، وتعزِّز الانتظار، مثل مقولة: (اجري جري الوحوش غير رزقك لن تحوش)، التي تضرب مقصداً سامياً، وتنسف آياتٍ وأحاديثَ كثيرةً تدعوه لبذل قصارى الجهد في العمل، وتمَّ توظيفها في الاتجاه المعاكس، فتولَّدت فكرة السبحة، وفكرة الكرامات، والعابد الذي يطير في الهواء أو يمشي على الماء أو يغوص تحت التراب، ويرى الأشياء عن بُعدٍ ويتكلم معها بمجرَّد أنه يمارس طقوساً معيَّنةً! فإن منظومة هذا التفكير بنظر "ابن نبي" قد ورثناها مع طول الأمد من دون أن نستشعر، فاستشرى في العقل العامِّ فكرة الانتظار التي نلحظها في كل منحنى تاريخيٍّ، فمع كل أزمةٍ يتردَّد اقتراب ظهور المهدي، أو يُتكلَّم بالمعجزات الغيبية التي قاربت على الظهور! فإذا ما فتحنا شبكة "الإنترنت"، سنجد عشرات المهديِّين موزَّعين على العالم! في حين أن هناك أمماً ثانيةً لديها أفكارٌ مشابهة عن "الإنسان المخلِّص"، إلا أنهم لا يعوِّلون عليه؛ بل صنعوا الكومبيوترات والطائرات.. فإنسانهم الذي اشتاق لأحدهم لن يفكِّر أن يطير إليه في الهواء؛ بل صنع محرك الطائرة! ومن أراد منهم أن يتصل بأهله وأحبابه، صنع الهاتف الذي مكَّنه من ذلك، ولم يبقَ مع همِّه للانتظار، فعلى الرغم من أن لديه بُعداً ثانياً غيبيًّاً، إلا أنه لم يعوَّل عليه في صناعة توقُّعاته.

● إنسان الانتظار الثاني:

مع بروز الحضارة الغربية، يرى "مالك بن نبي" أنه كان من المفترض أن تخلق بنا الحضارة الغربيةُ الفاعليةَ للتقدُّم، إلا أنه باحتفاظنا بعالم الأفكار ذاته، بدأنا نسبح في عالم انتظارٍ آخر! فسمَّى إنسان الانتظار الأول بعد ظهور الحضارة الغربية إنسان الانتظار الثاني، وهو المتمثِّل بالإنسان المعاصر عندنا، وهو شخصٌ يعتقد أن الحلَّ السياسيَّ هو الذي سيُحدِث النهضة، فاستبدل السبحة بورقة الانتخابات، وحلَّ العقدةَ بنوَّابٍ يمثِّلونه في البرلمان، وعلى رأس كل أربع سنواتٍ يذهب لصندوق الاقتراع ويعاقب النائب الذي لم يفعل له هذه الأشياء، ومن ثم ينتظر أربع سنواتٍ أخرى ليعاقب النائب الآخر الذي بعده حتى لا ينتخبه، فبدَّل مكان الانتظار

من زاوية المسجد بسبحته إلى هذه الورقة الانتخابية التي يجلس معها في المقاهي.. فيلعن الظلام دون أن يشعل شمعةً! فهو لن ينظِّف شارعه، ولن يبني مدرسةً تعلِّم أبناءَه، ولن ينظِّف المسجد الذي يذهب إليه، ولا الحارة التي يسكنها، فقط يرى القمامة المرمية، وأولاد الفقراء يسيحون في الشوارع.. إلا أنه لا يصنع شيئاً لبيئته؛ بل هو على الدوام ينتظر غيره ليفعل!

إن "مالك بن نبي" رحمه الله قد تركنا مع هذه المنظومات والمواقف الفكرية.. وعلينا بدورنا أن نستكمل هذه الرحلة ونرى كيف يمكن لهذه الأفكار أن تتركَّب وتطبَّق على أرض الواقع، وكيف يمكن أن ننقلها إلى فضاءٍ جديدٍ من خلال الحديث عن مشروع النهضة الذي نشتغل عليه.

خامساً- مالك بن نبي ومشروع النهضة الذي نطرحه

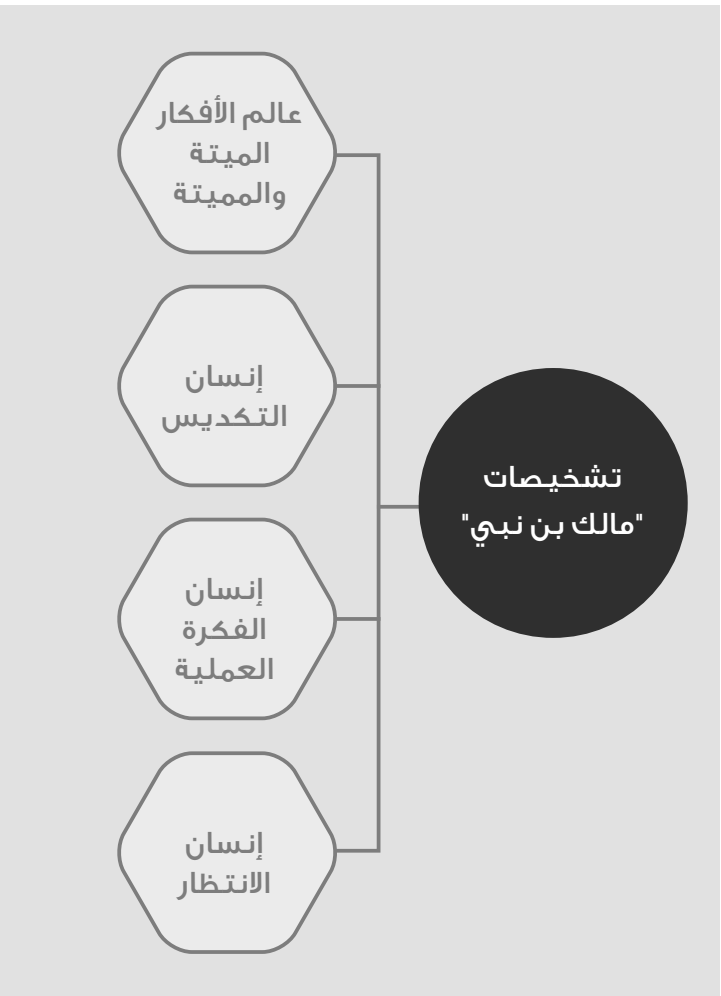
تحدثنا في الفقرات السابقة عن فلسفة التاريخ، وأنهينا الكلام مع "مالك بن نبي" رحمه الله، وسنبدأ الفقرات التالية من "مالك بن نبي" لنتحدث عن علاقته وعلاقة الفلسفات التاريخية الأخرى بمشروعنا "مشروع النهضة". وإنه خيطٌ يمكن مدُّه للخلف ليبدأ من "جمال الدين الأفغاني" و"محمد عبده" و"خير الدين التونسي"، لنلاحظ التراكمية الحادثة بدقَّةٍ في هذا الموضوع.. ولكننا سنبدأ من "مالك بن نبي"؛ لأهمية تشخيصه في الحلول التي سنصل إليها.

وإن الطرح هنا سيفدينا في وضع صورةٍ مترابطةٍ لما نقوم به في مشروع النهضة بضوء ما قام به "مالك بن نبي" رحمه الله، وامتداداً أيضاً لما قام بها "أرنولد توينبي" ومن سبقه..

وقفة مع تشخيص "مالك بن نبي"

كان دور "مالك بن نبي" كدور الجرَّاح؛ فقد قام بتشخيصٍ عامٍّ لجسم الأزمة الحضارية، وصاغ لنا مصطلحاتٍ وظَّفها تعبيراً عن المشكلات التي لحظها.

قامت فرضيَّته الرئيسية بعد التشخيص على أن الحياة الإسلامية بعد معركة "صفِّين" اختلَّت فيها المبادئ التأسيسية الكبرى التي تحملها، فصفِّين نقطةٌ فاصلةٌ بدأت الحياة



الإسلامية بعدها بالتدهور، فعالم "الأفكار الميتة والمميتة" سينتشر في الأمة، ومنه فكرة الجبر؛ بمعنى: (أن الإنسان مسيَّرٌ وليس مخيَّراً)، واعتقاد تغيير الواقع بالفعل الإعجازي والكرامات، لا بفعل البذل الإنساني.. فأمثال هذه الأفكار الميِّتة والمميتة أوصلت الإنسان المسلم إلى إنسانٍ مستسلمٍ لظروفه السياسية والاقتصادية، لا يعتقد بخصائص المادة وأسرارها، فالأمور جميعها حاصلةٌ لديه بأقدار الله وليس له فيها دورٌ، ويُسهِب "مالك بن نبي" حديثه عن أفكارٍ كبرى انتشرت في الفضاء الإسلامي وقادت إلى الاستعمار.

ومن تشخيصاته الهامَّة أيضاً كما أسلفنا، نشوء "إنسان الانتظار"، وهو الإنسان المتحوِّل من ساحة الفاعلية الحضارية إلى ساحة الانتظار؛ فهو ينتظر المعجزات والكرامات وعلامات اليوم الآخر، معتقداً أن الإنسان سيسوء بجميع الأحوال، والفعل حادثٌ سواءٌ بذل الإنسان، أم لم يبذل، وهذا الإنسان بفعل الزمن ومزيدٍ من الأفكار الميتة والمميتة التي يعاد تدويرها من حوله قد تحوَّله إلى "إنسان التكديس"؛ الذي يكتفي بأخذ الشكل الخارجي للحضارة؛ أي: تطوير عالم المادة مع استمرار الفقر بعالم الأفكار، فيطلق شراهته إزاء عالم الأشياء، ويفقد الحكمة في التعامل مع المادة، فيزيد في تكديس الأشياء دون أن يعرف أسرارها أو كيف يتحكم بها؛ فيشتري أحدث الهواتف والسيارات، ولكنه غير قادرٍ على تطويرها، كما أنه "يفتقر الفكرة

العملية"؛ فيأتي بأفكاره من الخارج، فإذا أراد تعليماً، أتى به من الخارج، وإذا أراد مصانع، أيضاً لن يطوِّر مصانع داخليةً؛ بل أتى بخلطة الآخرين، فكل شيءٍ يستقدمه من الخارج ويؤسِّس به الحياة، ويعتبر نفسه أنه يمتلكه ما دام يمتلك عالم الأشياء منه، في حين أن لا دخل له بعالم الأفكار الذي يكمن وراء هذه الأشياء.

قام "مالك بن نبي" بقائمةٍ تشخيصيةٍ طويلةٍ حاول بها أن يفكِّك ما حدث بعد صفِّين، ووصل منها إلى أنه لا يمكن لأمةٍ أن تنجح إذا لم تصلح عالم أفكارها الذي يَصلُح من خلاله عالم العلاقات والمشاريع باعتباره أقوى العوالم؛ فبإصلاح عالم الأفكار ستتَّضح عملية الفكرة، ويتمُّ التخلُّص من إنسان التكديس، وسيقضي على الأفكار الميِّتة والمميتة، ليتحوَّل الإنسان من إنسان الانتظار إلى الإنسان الفاعل..

وكلام "مالك بن نبي" في مجمله بالغ الأهمية، إلا أن أفكاره لا تزال معلَّقةً في الهواء؛ فـ"مالك بن نبي" لم يقدِّم لنا برنامجاً لتفعيل هذه الأفكار، ولم يخبرنا كيف يمكن أن ننتقل من هذه الأزمات، فقط شخَّص، ولكنَّه لم يقدِّم الحلول.. ليبقى السؤال أمامنا: كيف ستتكوَّن لدينا هذه الكتلة الحرجة من البشر الذين يحملون الأفكار الصحيحية؟

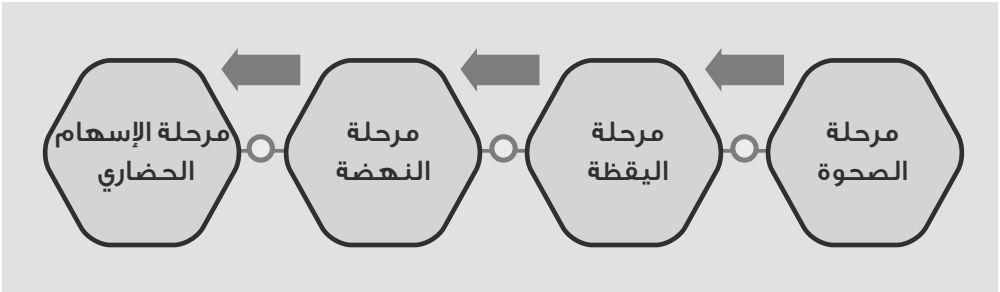
قادنا هذا السؤال لأن ننتقل خطوةً بعد الكلام عن عظمة ما طرحه إلى تفعيل ما طرحه على أرض الواقع، فكيف يمكن أن نخلق لغةً جديدةً لمستقبلٍ جديدٍ؟

تحديد المسار الكلي:

إن أولى الخطوات الرئيسية تكمن بتحديد المسار الكلي الذي سنتحرك فيه، فإعطاء لغةٍ للَّحظة التاريخية الحالية هو أمرٌ هامٌّ جدًّاً؛ لكي يتمكَّن الفاعل النشط في مشروع النهضة أن يدرك في أيِّ مرحلةٍ يعمل، وإلى أيِّ مرحلةٍ سينتقل.

وإن المسار هو مسارٌ تجريديٌّ؛ فإذا افترضنا أن الفترة الماضية من حياة الأمة هي فترة الصحوة التي دفعنا فيها أثماناً غاليةً جدًّاً لكوننا لم نمتلك الرشد الكافي لبلورة التضحيات في نتائج، ولَربما كان ذلك نتيجة الأفكار الميتة والمميتة التي تسكن فضاءَنا.. فنحن نحتاج إلى الانتقال إلى المرحلة الثانية وهي مرحلة اليقظة؛ حيث يكون فيها إصلاح هذه الأفكار السلبية وإيجاد الكتلة الحرجة التي ستنفعنا في هذه المهمَّة، التي إن نجحنا فيها سندخل

مرحلة النهضة، وهي مرحلةٌ واقعةٌ بفعل استيفاء عناصر اليقظة داخل المجتمعات، ثم تلي مرحلة النهضة مرحلة الإسهام الحضاري، وهاتان المرحلتان هما نتيجة النجاح في مرحلة اليقظة، وبالتالي سنحتاج إلى أن نكتشف طبيعة مرحلة اليقظة.



مسارات مرحلة اليقظة:

إذا كانت اليقظة هي عبارة عن تفعيل الأفكار الحية وإزالة الميتة والمميتة من الفضاء، وخلق كتلةٍ ثقافيةٍ وتيَّارٍ جديدٍ للأمة، فعلينا هنا أن نتكلم عن أمرٍ في غاية الأهمية، يُشَغِّب على قضية اليقظة؛ وهو اليأس الذي يصيب الناس نتيجة اختلاط المسارين ببعضهما، وهنا يجدر فصلهما حتى يفهم الإنسان كيف سيساهم في النهوض. فقد يأتي شخصٌ ويسأل:

كيف يمكننا أن نتحرَّك مع وجود الدكتاتوريات الموجودة في المنطقة؟ والنظام العالمي المهيمن؟

وكأن الأطروحات هذه تقول: إنه لا يمكننا فعل شيءٍ بانتظار حدثٍ قدريٍّ يزيل الدكتاتوريات ويزيل النظام العالمي المتحكِّم..

وهنا نحتاج إلى أن نفصِّل مسارين للنهضة مختلفين عن بعضهما البعض، هما: طريق الاحتشاد، وطريق التراكم:

طريق الاحتشاد:

والمقصود بطريق الاحتشاد: حينما تتبنَّى مشروع النهضة القيادات الكبرى في المجتمع، (أي: الدول)، وتقوم بتخطيطٍ مركزيٍّ كما فعلت سنغافورة وماليزيا وتركيا والهند.. فسمَّيناه طريق احتشادٍ؛ لأن الدولة هنا تأتي بأفضل المُنظِّرين والمخطِّطين الإستراتيجيِّين، وأفضل الخامات العقلية الموجودة في المجتمع، فتضع خطةً مركزيةً لعملية إعادة إنتاج المجتمع من



ألِفه إلى يائه.. كما فعلت الصين في حراكها، فتحوَّلت من مجتمعٍ منهارٍ سنة 1900 إلى مجتمعٍ يشقُّ طريقه إلى قمَّة العالم، فهذا نسمِّيه: طريق احتشادٍ؛ لأن الدولة حشدت الطاقات في منطقةٍ واحدةٍ وركَّزت الجهود، وإن هذا الطريق ليس طريقاً مستحيلاً، ولكنه يحتاج إلى إرادةٍ.. فعندما يكون هناك قيادةٌ مدركةٌ أنها ستقوم بعمليةٍ جراحيةٍ كبرى في المجتمع، يمكن للمجتمع عندها أن ينطلق انطلاقةً كبرى.. والسؤال هنا: من أين تلتقط القيادة الأفكار الحيَّة والعزيمة والإرادة الحقيقية؟ ومن أين يأتِي الأفراد الذين يحوِّلون الأحلام إلى حقائق؟

طريق التراكم:

إن طريق التراكم هو الذي يُنتِج الأفراد الحاملين للأفكار الحية وللإرادة الحقيقية لصناعة التغيير في طريق الاحتشاد، وهذا ما ينساه كثيرٌ من الناس، فهؤلاء يأتون من طريق التراكم والفعل الاجتماعي الذي يأخذ مداه دون أن تتدخَّل الدولة بشكلٍ مباشرٍ في صناعته.. وهو عبارةٌ عن الأفكار الأساسية الكبرى التي تطرحها القوى الاجتماعية بشكلٍ أو بآخر، والتي تواجه صعوبة الصدامات بين جموع الناس، فتنمو وتكبر بعزيمة أصحابها داخل البيئة والحاضنة الاجتماعية؛ بدءاً من الإنسان الذي لا يملك سوى القليل، وصولاً إلى المفكِّر الكبير، فهو مسارٌ ينهض بأصحابه.

إذاً؛ هناك طريقٌ أمره ليس بأيدينا نحن كأفرادٍ؛ بل هو طريق الدول، ولكن حينما نقول: إن الدولة الفلانية بدأت في مشروع نهضةٍ، فذلك يعني أنها التقطت أفكاراً حيَّةً، وأن هناك قياداتٍ ستحمل المشروع وتنطلق به. فما الدور المنوط بنا كأفرادٍ قبل أن تتبنَّى الدولة مشروعاً مركزيًّاً للقيام بنهضةٍ شاملةٍ في المجتمع؟

النهضة عملٌ في ظلِّ التحديات:

إن تقسيم المسارات لا يلغي فكرة أن النهضة عملٌ رغم التحديات؛ فعلى الفاعل في النهضة أن يوجد طريقاً للفعل النهضوي في ظلِّ التحديات المحلية والإقليمة والدولية، وأن لا يتوقَّف

مهما صغُر عمله طالما هو في الاتجاه الصحيح، فإننا سنفكِّر في كيفيةٍ للعبور في ظلِّ وجود الأنظمة والتحديات والعقبات التي توضَع في طريقنا، وهذا كلامٌ هامٌّ؛ لأن البعض يقوم بالتخدير فقط، ولا يعطينا صورةً واقعيةً للمشهد. فلا أحد من الأنظمة سيسمح للآخرين أن يتقدَّموا على حسابه، والحضارات تقوم رغماً عن الأنظمة الأخرى، فالصين نهضت رغماً عن أمريكا والغرب، وروسيا كذلك..

إذا ما كنَّا مجتمعاً حيَّاً، وأفكاره صحيحةً، فإننا سنعبر رغم العقبات؛ وليس لأن هناك أحداً رفع عنَّا العقبات

فمن نهض، فقد نهض رغم العقبات، لا لأن العقبات قد أزيلت، وهذه قضيةٌ في غاية الأهمية بالنسبة لصنَّاع النهضة.

فكرة التيار والجداول الصغيرة:

ليس المقصود هنا بالتيار التنظيمات أو الجماعات، إنما نستقي تشبيه التيار من النهر، فنحن عادةً نشاهد النهر المندفع من الجبال الذي يصبُّ في مجراه الأساسي، ولكن حينما نذهب إلى منابع النهر، فإننا نجد أنه ليس له منبعٌ واحدٌ؛ بل العديد من المنابع التي تغذِّي المسار الكليَّ، فنشوء الأنهار ناتجٌ عن جداول صغيرةٍ من المياه تتدفَّق شيئاً فشيئاً لتتجمَّع وتكوِّن مسار النهر التأسيسي، وهذا المسار المتكوِّن من العديد من الفروع الصغيرة والجداول يسير مغذِّياً المدن، فمن شلَّالاته تتولَّد الكهرباء، ومن مائه تنمو الزراعة وتحيا المدن..

فالتيار ليس تنظيماً واحداً، أو شخصاً واحداً، أو مؤسَّسةً واحدةً، إنما هو مجموعةٌ من الجهود تصبُّ كلُّها في اتجاهٍ واحدٍ، فإذا نجحنا في صناعة تيارٍ؛ أي: أنشأنا نظام تفكيرٍ جديداً يسمح لنا أن نلتقي في الكليات الكبرى رغم أننا قادمون من مساراتٍ مختلفةٍ (تنظيمات، أحزاب، مؤسسات، أفراد مستقلِّين، أشخاص مموِّلين، أفراد عاديِّين..)، كل هذا سيصبُّ في الاتجاه الصحيح الذي نتكلم عنه. وهذا ما نسمِّيه: مسار التراكم.

وإن هذا المسار إذا التقى بإرادة حاكمٍ مستنيرٍ، أو فئةٍ مستنيرةٍ، يتحوَّل إلى مشروع احتشادٍ ودولةٍ، كما حدث في الصين، واليابان، وبقية الدول.

أساسات العبور إلى اليقظة: فقرةٌ مكرَّرةٌ في المحاضرات الأوائل

في سبيل تمهيد الطريق لمحاولة عبورنا من مرحلة الصحوة إلى مرحلة اليقظة، وفي سبيل إدراك الاحتياجات الأساسية للعبور، أصدرنا كتاب "من الصحوة إلى اليقظة"، واخترنا محاوره لتكون أساساً للعمل في هذه المرحلة من عمر الأمَّة.. فالأشياء الكبرى التي يجدر إنجازها في مرحلة اليقظة تتمثَّل بالتالي:

1. المسألة الأولى: صناعة جهازٍ معرفيٍّ مكافئٍ للواقع



قلنا: إن أكبر مشكلةٍ طرحها "مالك بن نبي" هي عدم سلامة الأفكار التي نحملها، ولَطالما تعنونت مرحلة الصحوة بحماسٍ شديدٍ، مع افتقارٍ لإطارٍ فكريٍّ يسمح بمواجهة الواقع بما يكفي، فإن أول قضيةٍ رئيسيةٍ للعبور من الصحوة إلى اليقظة هي أن يتواجد لدينا وعيٌ مكافئٌ لهذا العصر، فإن العمود الأساسيَّ في هذا البناء هو التغيير الجذري في الجهاز المعرفي الذي نصنع به القرارات، فالجهاز المعرفي الذي نعمل به الآن لا ينتج لنا إجاباتٍ للواقع؛ بل ينتج إجاباتٍ في الخيال؛ بمعنى أننا عندما نذهب إلى شأن الدولة مثلاً، فإننا نبحث في الكتب القديمة عند "الماوردي" و"الجويني" عن الدولة التي لم تُصنَع حتى في عصورهم! ولا نتوجه لدراسة أحوال الدولة في عصورنا الحالية التي قامت، وما الذي يواجهها من إشكالياتٍ، وما الحلول العملية لهذه الإشكاليات! فنحن لا نملك منهجاً يدرس الواقعة ليستخلص منها النتائج؛ بل نحن أمْيَلُ لأن نذهب إلى القديم الجاهز ونستخلص منه حلولاً للواقع دون أن ننظر إلى الواقع ماذا يقول، فلا نسأل المريض ما الذي يعاني منه؛ بل نفترض مرضاً، ثم نأتي بالإجابات من الكتب القديمة..! وإن هذا الواقع المعقَّد هو واقع أمَّةٍ تسير بلا أقدامٍ، ولا يمكن لها أن تنجز شيئاً، فالجهاز المعرفيُّ

يحتاج إلى معالجاتٍ كبرى، وهذه من مهامِّ الانتقال من مرحلة الصحوة إلى اليقظة، فإن عدم سلامة الأفكار والخروج من الفاعلية الحضارية هو ابن الجزء العقلي المتعلِّق بنا، فعلينا أن نجدِّد نظم التفكير؛ فننتقل من قضية الاستنباط إلى قضية الاستقراء، ومن عدم اعتماد الواقع كمنتجٍ للحلول والإجابات، إلى اعتماده واعتباره المؤثِّرَ الأكبر لما يدور حولنا، فمثلاً: شخصٌ يريد أن يبحث في أسباب الفرقة بين الإسلاميِّين، وتشتُّتهم إلى جماعاتٍ متناحرةٍ، حتى إذا ما أتيحت لهم فرصةٌ تلمُّ شتاتهم كسوريا مثلاً أو العراق أو أفغانستان.. تفرَّقوا ورفعوا السلاح ضدَّ بعضهم البعض قبل أن يرفعوه ضدَّ خصمهم! وإن المتصدِّي لدراسة هذه الظاهرة لديه مساران؛ فإما أن يرتكز على الجهاز الاستنباطي ويذهب إلى النصوص ويبحث فيها ماذا قال الله وماذا قال الرسول والصالحون.. ويُخرِج لنا كتاباً نظريًّاً عمَّا يجب أن يكون، وإما أن يرتكز على القدم الاستقرائية فيذهب إلى هؤلاء الناس ويصمِّم دراسةً مبنيَّةً على مقابلة الشخصيات التي اتخذت القرارات في تلك الفترة، فيدرس الظاهرة من الداخل؛ عن طريق الاستبيانات، أو المقابلات، أو العيش داخل الظاهرة، فيقدِّم لنا إجاباتٍ من الواقع، ويعطينا حلولاً محتملةً من الواقع أيضاً.

وإن الانتقال في بيئاتنا من كثافة حضور الاستنباط إلى حضور الاستقراء هي قضيةٌ فارقةٌ؛ إذا نشأت في الكليات والمدارس الشرعية، سنكون دخلنا عصراً جديداً، فبالنظر إلى نزاعاتنا في قضايا الجماعات الإسلامية، فإن كلامنا لا يشير إلى التجربة العملية وماذا أنجزت؛ بل يتكلم عمَّا ينبغي أن يكون، وكل هذا نتيجة أزمة الجهاز المعرفي، وبالتالي نحن لدينا هدفٌ أساسيٌّ بأن ننتقل بجهازنا المعرفي من قضية إهمال الواقع إلى تبنِّي قضايا الواقع ومعرفته معرفةً حقيقيةً.

يقول د. جاسم سلطان: (سألني أحد الشبَّان يريد إجراء بحثٍ معرفيٍّ في مسألة "وحدة العالم الإسلامي"، فأخبرته أنه مجالٌ واسعٌ، واقترحت عليه اختيار عيِّنةٍ صغيرةٍ؛ حيث توجد جماعاتٌ إسلاميةٌ كلُّها تنادي بالوحدة، والقيام بالبحث فيها، واستخلاص النتائج، فإذا نجح في ذلك، فعندها يستطيع أن يجري البحث على مجموعاتٍ أكبر، فتكبر العملية.. فسألني: ألا أستطيع أن أكتب كلاماً نظريًّاً؟ فأجبته: ماذا ستقول أكثر ممَّا قاله الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾).

فما نحتاجه هنا أن نجيب على تساؤل: لماذا لا تتمُّ الوحدة عمليًّاً على الأرض بين جماعاتٍ يفترض أن جميعها تسلِّم بهذه القيم الكبرى؟! هذا ما يشغلنا، وهذا لن يأتي عبر مزيدٍ من التنظير! فإنه لا يُجدِي نفعاً أن نشرح للناس أن هناك آيةً أو نصًّاً عن هذا الأمر، فنحن نحتاج اليوم إلى أن نحدِّد سبب عدم تحقُّق هذه الفكرة عمليًّاً على الأرض..

2. المسألة الثانية: إيجاد ثقافةٍ مكافئةٍ لروح العصر

إن هذا "البرنامج التأسيسيَّ" الذي نتكلم عنه، وبرنامج "360 درجة"، وكتب النهضة وغيرها.. الهدف منها إنشاء ثقافةٍ مكافئةٍ للعصر، أي: أن يكون عند الشابِّ المسلم والفتاة المسلمة في هذه اللحظة التاريخية القدر الأدنى من المعارف الأساسية الضرورية، والإطار الثقافي المناسب؛ الذي يسمح بقراءة العصر في إطاره الموجود فيه. فإن الإنسان إذا لم يكن له علمٌ موضوعيٌّ بالمعارف الأساسية، لن يستطيع التواصل مع عصره حتى ولو خُيِّل له أنه قادرٌ على ذلك، فإن تواصله حاصلٌ بجهازٍ معرفيٍّ مشوَّهٍ؛ بحيث إنه يتلقَّى الأشياء التي تقال دون أن يستطع محاكمتها إلى إطارٍ معرفيٍّ منظَّمٍ، فيصبح ضحيةً لها بدلاً من أن يكون شريكاً في الأخذ والعطاء مع المعارف الموجودة..

3. المسألة الثالثة: التجسير بين الفئات على قواعد مشتركةٍ بما يخدم مصالح الأمَّة

المسألة الثالثة التي نحتاج أن ننجزها، والتي تعتبر ثمرةً للجهاز المعرفي والثقافة المكافئة للعصر، هي بناء الجسور بين المختلفين؛ فاليوم أيُّ نقاشٍ ندخله سينتهي بقطيعةٍ؛ لأن الأنفس ليست مهيَّأةً لبناء الجسور، فنحن نبرع ببناء القلاع والحصون وقصف الآخرين، ولكن لا نسمح للآخرين بأن يعبِّروا عن آرائهم، فإنساننا ليس هيِّناً ليِّناً يستطيع أن يتقبَّل نقد الآخرين بليونةٍ ويقول رأيه بأريحيةٍ، فنجد في مجتمعاتنا كثيراً من العلماء الكبار على الرغم من امتلاكهم لأفكارٍ نيِّرةٍ، إلا أنهم يتحرَّجون من طرحها؛ لكونهم يعتقدون أن المجتمع سيثور عليهم.

إن أمَّتنا أمَّةٌ لا تمتلك تيَّاراً عامًّاً يتفق على الحدود الدنيا، فدائماً ما يتعذَّر علينا التنسيق حول المصالح المشتركة لمجتمعاتنا، وبالتالي لا اليساريون يتكلمون مع بعضهم، ولا الليبراليون، ولا الإسلاميون، ولا هؤلاء يتكلم بعضهم مع بعضٍ، ولا مَن في السلطة يتكلم مع

من في المعارضة، ولا من في المعارضة يتكلم مع من في السلطة!! فعندنا جزرٌ معزولةٌ عن بعضها البعض، فنقوم بقصفٍ متبادلٍ طوال الوقت، وبالتالي لا ننتج حركةً للأمام.. فيجب أن تتَّسم مرحلة اليقظة بأننا استطعنا أن نخلق أوانيَ مستطرقةً بين هذه الفئات، وعقليةً تسمح بهذا النوع من الحوار البيني على المشتَرَكات، فكيف استطاع اليهود أن يقرِّروا إنشاء إسرائيل وهم من فئاتٍ مختلفةٍ علمانيةٍ ويساريةٍ ودينيةٍ..! كيف استطاعوا أن ينسِّقوا على القدر المشترك بينهم وعجزنا نحن أن ننسِّق على القدر المشترك بيننا في مجتمعاتنا العربية والإسلامية؟! إن هذا سؤالٌ كبيرٌ جدًّا مطروحٌ على النخب، وبالتالي نحتاج إلى أن نوجِد آليةً وعقليةً جديدةً تستطيع أن تجسِّر بين الفئات الموجودة لمصالح الأمة والمصالح الكبرى التي نحتاجها.

وإن مشروع النهضة الذي نشتغل عليه في مرحلةٍ ما بين الصحوة واليقظة يحاول أن يوفِّر هذه الأركان الثلاثة الأساسية، أما البرنامج المتضَمَّن في هذا المقرَّر، فهو واقعٌ في إطار الركن الثالث، والمتمثِّل بإيجاد ثقافةٍ مكافئةٍ للعصر.

استيثاق العبور إلى اليقظة:

وهنا يطرح السؤال نفسه: كيف سنعرف أننا دخلنا إلى مرحلة اليقظة؟ إن هذا لن نعرفه إلا إذا وُجدت كتلةٌ حرجةٌ ظهر منها القدرة على التواصل مع الآخر المخالف بأريحيةٍ، وأن شبابنا أصبح قادراً على التكلُّم بثقافةٍ مكافئةٍ لروح العصر، وليس بثقافةٍ منقرضةٍ! وأن جهازنا المعرفيَّ يضعنا في إطارٍ يسمح لنا أن نجيب عن تساؤل: لماذا سنغادر الجهاز القديم إلى جهازٍ معرفيٍّ جديدٍ؟ فإذا لم تتحقَّق تلك المظاهر، ولم نستطع الإجابة عن تلك الأسئلة، فهذا يعني أن لدينا مشكلةً حقيقيةً، ولا نكون قد عبرنا إلى مرحلة اليقظة بعد!

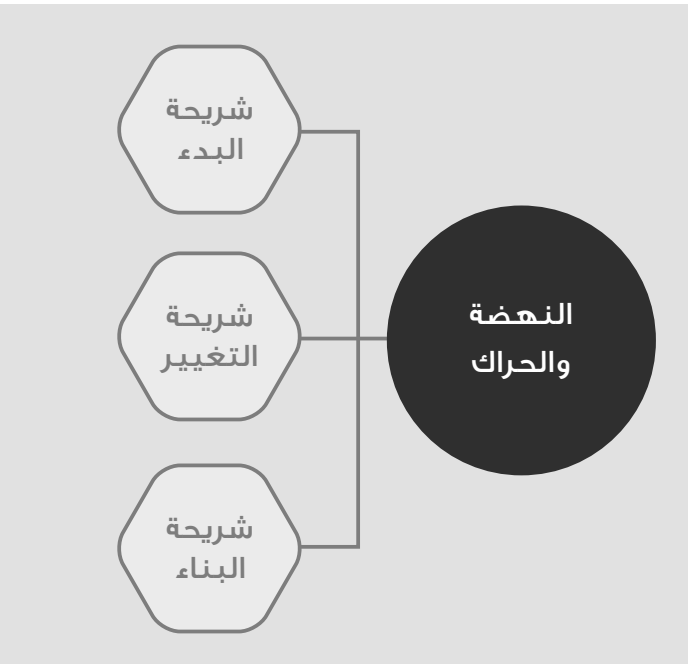
النهضة والحراك السياسي: فقرةٌ مكرَّرةٌ

نأتي إلى قضيةٍ في غاية الأهمية، متعلِّقةٍ بالعمل السياسي والحراك السياسي..

إن حديثنا عن المسار التراكمي الذي نشتغل فيه لا يغني عن دراسة مسار الاحتشاد (مسار الدولة)، فهو تهيئةٌ لمن يمكن له -ولو بعد زمنٍ- أن يحمل مشروع النهضة على مستوى الدولة، فما الأساسات التي تلزمه حتى ينحت فضاءً جديداً في ظلِّ التحديات؟

إن أيَّ مجتمعٍ يحتاج إلى ثلاث شرائح أساسيةٍ مترابطةٍ، وإذا تعذَّر التواصل والعمل فيما بينها، فإنه يتعذَّر إحداث النهضة..

شريحة البدء:



عادةً إذا كان المجتمع في حالة ركودٍ، فهو يحتاج إلى شريحة بدءٍ؛ أي: أناسٍ يطرحون أفكاراً جديدةً نيِّرةً تتَّسع دائرتها باستمرارٍ لتحديث المجتمع، ومن دون فئة البدء هذه لن يحدث تحوُّلٌ ثقافيٌّ. وشريحة البدء هذه ليس من الضرورة أن تكون كبيرةً جدًّاً، أو أن تكون متملِّكةً لعناصر القوة، فعادةً تبدأ من فئاتٍ اجتماعيةٍ صغيرةٍ من أواسط الناس تدعو إلى فكرةٍ قويةٍ تناقِش من خلالها الوضع، وتحاول أن تصحِّح وتقوِّم البنى الموجودة.

شريحة التغيير:

إن شريحة البدء لا تنجح عادةً في بلوغ أهدافها مهما اتَّسعت، ما لم تستمع لها الشريحة التي تمتلك القوة والحكم؛ أي: لا بدَّ من حدوث اتصالٍ إيجابيٍّ ودعمٍ وموافقةٍ من قِبل تلك الفئة، فالرسول عليه الصلاه والسلام لولا أنَّ دعوته بلغت بشكلٍ سلميٍّ اتصالاً معرفيًّاً مع الأوس والخزرج في المدينة، لما كان لهذا الدين أن تقوم له قائمةٌ وإطارٌ يتحرَّك فيه، وهذا ما لم يحدث في مكة؛ لكون الفكرة لم تستطع أن تبلغ دار الندوة، فإذا ما التقت فكرة شريحة البدء بشريحة التغيير التي بيدها مقاليد الأمور، فعندها نكون قد انتقلنا إلى المرحلة الثانية من احتمالية حدوث النهضة.

شريحة البناء:

إن التقاء الشريحتين السابقتين لا يُحدث نهضةً إلا في حال حصول اتفاقٍ مع الشريحة الثالثة المتمثِّلة بجموع المواطنين والساكنين في ذاك المجتمع، والتي ستتحمَّل مسؤولية النهضة، فنموذج السودان على سبيل المثال نجد فيه أن شريحة البدء قد قامت بعملٍ فكريٍّ وثقافيٍّ، والتقت مع شريحة التغيير المتمثِّلة بالجيش، وامتلكت الدولة لثلاثين عاماً، ولكن الذي أفشل المشروع عدمُ القدرة على الالتحام بشريحة البناء وجموع المواطنين المتواجدين في الأقاليم المختلفة حول مشروعٍ واحدٍ مقنعٍ لجميع الفئات على اختلاف توجُّهاتهم، فقاد الفشلُ في بناء توافقٍ اجتماعيٍّ واسعٍ إلى انهيار المبنى على ساكنيه.. فتمَّ فصل السودان الشمالي عن الجنوبي، ثم اشتعلت المشاكل في بقية السودان بين بعضه البعض إلى أن قامت الثورة الأخيرة.

فلسفة العمل لمرحلة اليقظة:

على افتراض أننا استطعنا إنشاء الكتلة الحرجة، ومرَّ الإنسان في إطارٍ ناضجٍ أصلح له جهازه المعرفيَّ، وملَّكه ثقافةً مناسبةً للعصر، وأصبح قابلاً للتجسير مع الآخرين والاستماع لهم والتفاهم معهم.. فما احتياجات تلك المرحلة؟

في هذه المرحلة، ومن أجل الاستمرار، يجب الاقتناع بفلسفةٍ أساسيةٍ كبرى قسَّمناها إلى ثلاثة أقسامٍ:

- **فلسفة التمرة:** والمقصود من تلك الفلسفة أن يقنع الإنسان أن أقلَّ القليل الذي يستطيع أن يلتزم به، سيؤثِّر في عمليات التحوُّل طالما أنه كان مخلصاً في أدائه، فعليه أن لا يتردَّد؛ إذ ليس بالضرورة أن يقود الإنسان الجيوش ويفتح البلدان.. وإن صغر المساهمة لا يعيب صاحبَها، طالما أنه مخلصٌ لدوره وملتزمٌ به.
- **فلسفة الفسيلة:** إن عادة المجتمعات في لحظات الانحدار أن يكسوَها اليأس.. وإن إطلاق شرارة النهضة في جوٍّ الإحباط هو مهمَّة المهام، أما عند اشتداد عود النهضة، فالكل سواءٌ؛ إذ نحتاج إلى فلسفة الأمل التي يحدِّثنا عنها ﷺ: "إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلةٌ، فليغرسها"، فإنه من دون الأمل لا يمكن العمل.

● **فلسفة الثوب:** أحياناً على الإنسان أن ينظر إلى المشروع كمشروعٍ تعاونيٍّ، فحجر النهضة كالحجر الأسود الذي وضعه الرسول ﷺ على ثوبه.. ثم حمَّلَ كلَّ فئةٍ طرفاً من أطرافه، فالحمل الكبير إذا تعاضدت من أجله الأطراف، استطاعت حمله.. وبالتالي فإن مَن يعمل في مشروع النهضة، يجب أن يستيقن بأن لكلٍّ مكانه من الفعل، وأنه سيرفع طرفاً من الثوب وليس الثوب كلَّه، فلا يُطلب من شخصٍ واحدٍ أو فئةٍ واحدةٍ حمل الحجر وحدها.. ولا يسقطْ في اليأس من يقوم بعملٍ جزئيٍّ ولا يرى غيره يحمل بقية الأجزاء، فكما تسخَّر هو لمهمَّةٍ، سيتسخَّر غيره لأخرى، فجهده مقدَّرٌ والخير قادمٌ، وإن مِن أسوأ الأمور التي مرَّت معنا في فلسفة النهضة فكرةَ استئثار جماعةٍ واحدةٍ بالخيرية، وأنها هي مَن ستقيم الدولة، وهي من ستضمُّ كافَّة العناصر الجيدة إليها، فإذا ما وجدت جمعيةً ناجحةً، أو مؤسَّسةً ناجحةً، صار الهدف الاستيلاء عليها ممَّن كان السبب في نجاحها أو قام عليها، بدلاً من مساعدتها على التطوُّر والنموِّ؛ فأصبح السعي نحو التمكُّن من المجتمعات بدلاً من تمكين المجتمعات. ففلسفة الثوب تحمل فكرة أن النهضة لن يحملها إلا فئاتٌ متنوِّعةٌ من كل الاختصاصات والمؤسسات، وعلينا أن نساعد أيَّ مؤسَّسةٍ على النجاح وتحقيق الحدِّ الأقصى من أهدافها.

مسالك فاعلية الإنسان في طريق النهوض:

حينما تتحقَّق الفلسفة السابقة بأجزائها الثلاثة، نحتاج إلى أن نوجِّه الإنسان إلى مجال تأثيره وفاعليَّته، فنجد أن هناك الفنَّان، وهناك المصوِّر، وهناك الطبيب.. فأين تكون فاعليَّة كل إنسانٍ للمساهمة في النهضة؟

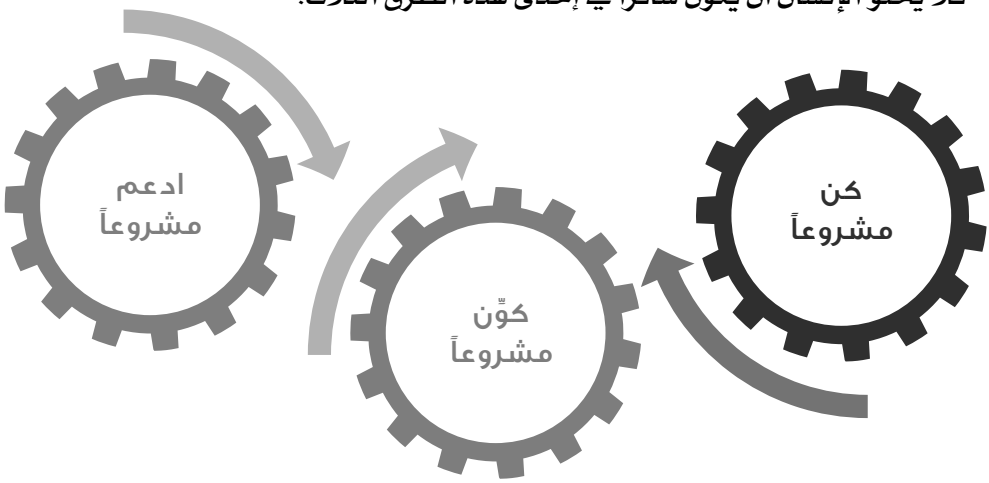
هناك في الغالب ثلاث طرقٍ للسير:

- هناك الطريق الذي يكون الإنسان فيه مبدعاً في مجاله، فيؤلِّف ويجدِّد ويضيف ما يطوِّر من خلاله بيئته وبيئاتٍ أخرى، وهذا يصنع عمقاً ووعياً في طريق النهوض.

- هناك الطريق الذي يستطيع به الإنسان القيام بمشروعٍ متجاوزاً لذاته، يدمج فيه طاقاتٍ مختلفةً للوصول إلى النتيجة، وهذا حسنٌ وممتازٌ.

- أما الطريق الثالثة، فهي أن يدعم الإنسان مشروعاً؛ فقد لا يكون الإنسان قادراً بظرفه أو بذاته على القيام بعملٍ، ولكنه قادرٌ على الدعم بجهدٍ ما من ماله، أو وقته، أو جاهه، أو مهاراته.

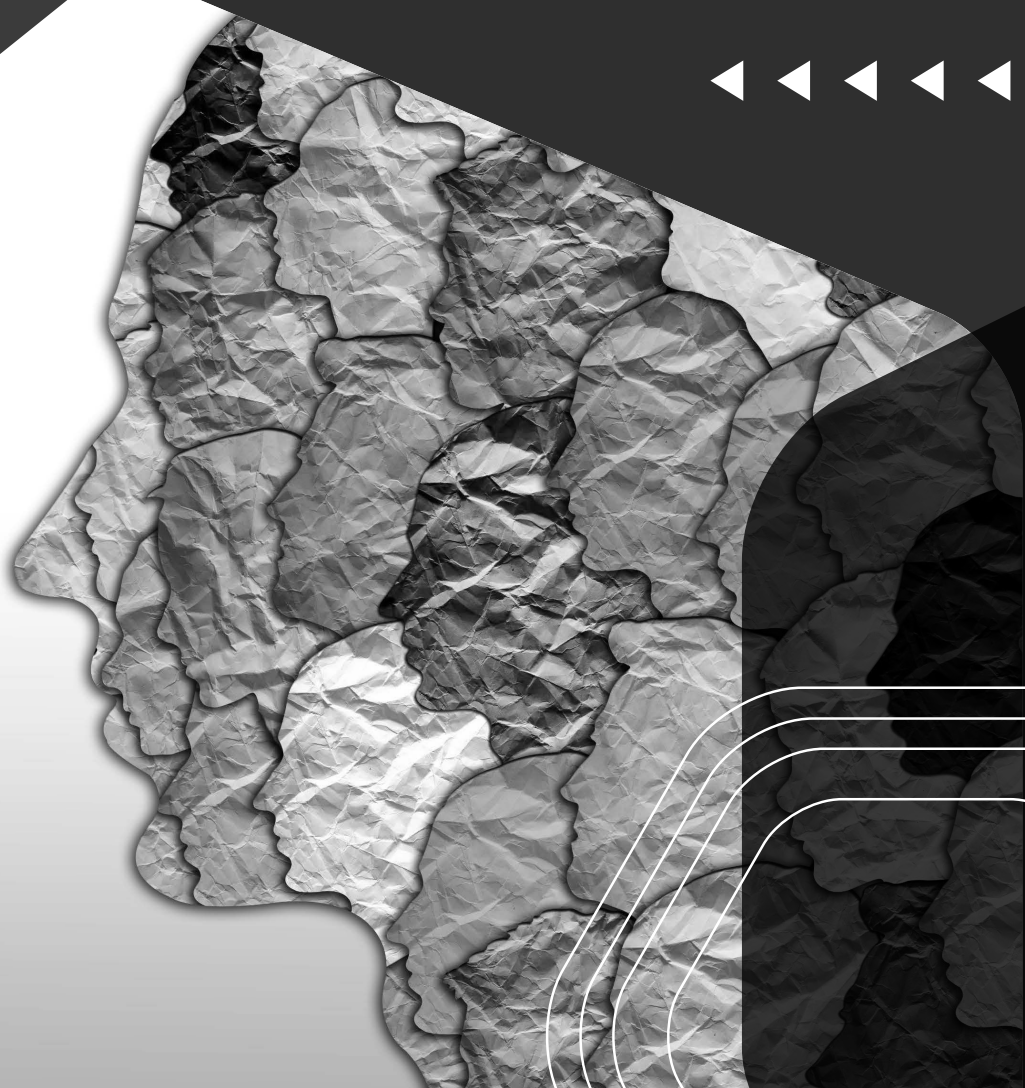
فلا يخلو الإنسان أن يكون سائراً في إحدى هذه الطرق الثلاث:



فكن مشروعاً، أو كوِّن مشروعاً، أو ادعم مشروعاً

إذاً؛ فإن مشروع النهضة في تجلِّيه العمليِّ، هو مساهمةٌ في الانتقال من مرحلة الصحوة إلى مرحلة اليقظة، وإن جميع الجهود الموجودة مباركةٌ بعون الله ما دامت تصبُّ في إحدى هذه الاتجاهات؛ من إحداث جهازٍ معرفيٍّ جديدٍ، أو من إحداث تيَّارٍ يتمتَّع بفاعليَّة التواصل فيما بين أفراده من جهةٍ، وفيما بينهم وبين مَن حولهم من جهةٍ أخرى، أو مِن غرس ثقافةٍ مناسبةٍ لهذا العصر قادرةٍ على نقلنا من الحال الذي نحن فيه إلى الحال الأفضل الذي نتمنَّاه لأوطاننا ومجتمعاتنا..

علـــم
الاجتمـــاع



◄ ◄ ◄

سنتكلم في الفقرات القادمة عن علم الاجتماع، وأن علم الاجتماع من أهمِّ العلوم التي نشأت في العالم هو والأنثربولوجيا؛ لكونهما يحدِّدان عمليات التعامل مع المجتمعات، ويبحثان في أسباب تغيُّرِها، وفي القضايا المتعلِّقة بالحراك الاجتماعي..

ورحلتنا مع علم الاجتماع ستكون رحلةً بسيطةً، مفادها: معرفة المفاتيح الأساسية، في محاولةٍ لبناء إطارٍ معرفيٍّ منظَّمٍ، يسمح لنا بأن نرى المجتمع وتحوُّلاته بصورةٍ أكثر وضوحاً.

وسنبدأ طرحنا بموضوعٍ أساسيٍّ أوَّليٍّ يحتاج الإنسان إلى أن يُلِمَّ به في هذا المقام؛ وهو ما نسمِّيه: "المنتظم الاجتماعي"، ومن ثم سنعرِّج على الفكرة المركزية والفكرة المحفِّزة، ومنها إلى زوايا النظر إلى مجتمعٍ ما..

إن علم الاجتماع يتناول النسيج الذي نعيش فيه، فنحن كبشرٍ أجزاءٌ من جهازٍ كبيرٍ مكوَّنٍ من عناصر، نحتاج بدورنا إلى أن نكتشفها ونقف عندها، ونكون قادرين على استحضارها باستمرارٍ، وهذا ما سيعيننا عليه المنتظم الاجتماعي التالي:

أولاً- المنتظم الاجتماعي

1. مستويات القاعدة التي يقوم عليها المجتمع:

- **المستوى الأول: مستوى الاعتقاد والتصوُّرات**

إن أيَّ مجتمعٍ -إذا أردنا النظر إليه بصورةٍ ذهنيةٍ منظَّمةٍ واضحة المعالم- يشكِّل البنية المجتمعية للدولة كاملةً، و يمكننا أن نمثِّل المجتمع ببناءٍ أشبه بمئذنةٍ من طوابق متعدِّدةٍ.. الطابق السفلي في كل مجتمعٍ هو طابقٌ تأسيسيٌّ يحمل معتقدات المجتمع وأفكاره الكبرى التي يُبنى عليها ويصبغ بقية الطوابق بها، ولا يوجد مجتمعٌ لا يحمل عقائد، فالمجتمع الذي يؤمن بالحرية كمعيارٍ، سيمتدُّ ذلك المعيار إلى بقية طوابقه؛ بحيث ستصطبغ جميعها



بالحرية، وكذلك إذا آمن المجتمع بالعدالة الاجتماعية وتوزيع الثروة، فإن كل البناء سيتأثَّر بهذا المعتقد، وأيضاً إذا كان يحمل في أساسه عنصريةً أو غيرها.. فإن التأسيس العقديَّ التصوُّريَّ في المجتمعات هو أمرٌ أساسيٌّ يمتدُّ صداه إلى أفرع المجتمع كافَّةً..

- المستوى الثاني: مستوى طقوسيٌّ (الشعائر)

يوجد داخل جميع المجتمعات طقوسٌ معيَّنةٌ، قد تكون طقوساً وطنيةً، أو اجتماعيةً؛ كالاحتفال بالعيد الوطني، أو بعيد العمَّال، أو بعيد الأم، أو بيوم الطفل أو المرأة.. أو طقوساً دينيةً؛ كاحتفال الأوروبيِّين بعيد الميلاد، أو احتفال المسلمين بعيدَي الفطر والأضحى.. فباستمرارٍ لدينا طقوسٌ معيَّنةٌ وأشكالٌ من الأفعال تولِّد أو تعزِّز أحاسيس معينةً، وتحذو بالمجتمع نحو اتجاهاتٍ مشتركةٍ.. وإن علم الاجتماع ينظر إلى هذه الطقوس على أنها ظاهرةٌ لها عمقٌ وظاهرٌ، ويدرسها من ناحية وظائفها والأدوار التي تلعبها، والنتائج التي تقود إليها. فيجد أن لكل نوعٍ من أنواع الشعائر وظيفةً ظاهرةً ووظيفةً باطنةً، فعزاء أهل الميت مثلاً من الطقوس الموجودة داخل المجتمعات، ويبدو في الظاهر أنه تكريمٌ للميت؛ بحيث يتمُّ ذكر محاسن الميت ونحو ذلك، ولكن في باطن هذه الظاهرة نجد أُنساً لأهل الميت وتخفيفاً لمصابهم؛ كونهم يمرُّون في الأيام الثلاثة الأولى بأوقاتٍ عصيبةٍ، وحضور الناس المعزِّين من شأنه أن يشغلهم عن مصابهم، إضافة لما يحقِّقه من مواساةٍ ومسامرةٍ من قِبَل الحاضرين؛ فالشعائر والعبادات لها وظيفتان؛ وظيفةٌ ظاهرةٌ ووظيفةٌ باطنةٌ، وعلم الاجتماع يبحث في كلا المستويين من الوظائف.

- المستوى الثالث: النظام الأخلاقي

لا يكاد يخلو أيُّ مجتمعٍ من نظامٍ أخلاقيٍّ؛ أي: معايير تحكم الصواب والخطأ داخل المجتمع، إنما قد يعلو المستوى الأخلاقي في مجتمعٍ ما، وينحطُّ في آخر، وكلما قويت بنية

الأخلاق في المجتمع، دلَّ ذلك على قوة المجتمع وتماسكه، ففي المجتمعات المتماسكة نجد احتراماً كبيراً بين الناس، وحضوراً واضحاً للنظام في الشارع، ومعاملةً طيبةً في الدوائر الحكومية، وحصولاً للناس على حقوقهم في المحاكم.. في حين إذا ما زُرنا مجتمعاً ضعيفاً، فسنجد ضابط المطار يسيء للمسافرين دون وجه حقٍّ، وإذا سكنَّا في سكنٍ، فلا نجده نظيفاً، وإذا سرنا في الشارع، فلا نجد نظاماً، وإذا ذهبنا للتقاضي، فلا تُعطَى الحقوق بالعدل.. وتؤثِّر منظومة الأخلاق في المجتمعات على مسألةٍ في غاية الأهمية، وهي "الثقة" بين أفراد المجتمع في التعاملات؛ فالمجتمعات التي تعلو فيها درجة الموثوقية في التعامل وإعطاء الحقوق والواجبات، هي من أقوى المجتمعات الموجودة، وكلما انخفضت درجة الثقة وقوي احتمال الغشِّ بين الناس، كشف المجتمع عن هشاشةٍ أساسيةٍ في تكوينه، فعنصر الثقة آخر العناصر التي يرتكز عليها المجتمع، والثقة هي أقوى العناصر التي تتمثَّل فيها الأخلاق؛ فاليوم في عقد الزواج، أو في عقد إقامة مشروعٍ سكنيٍّ، أو بناء جسرٍ، أو في التعاقد مع الطبيب أو المهندس.. جميع هذه العقود تُبنى على الثقة فيما بينها، فهناك مجتمعاتٌ لا تتخيَّل فكرة الغش نهائيًّا، بينما هناك مجتمعاتٌ الأساس الذي تفترضه أنها ستغُشُّ، فعلم الاجتماع يدرس الأخلاق وأثرها؛ لكونها كالغراء اللاصق لحركة المجتمع.

إن منظومة القيم في المجتمعات محكومةٌ بمعايير، فقد يقوم شخصٌ ما بالفعل ذاته في منطقتين مختلفتين في العالم، ولكن لا يُصدَرُ عليه الحكم ذاته، فتختلف المجتمعات فيما بينها، إنما مع بقاء التشابه في المعايير الأساسية، فتتفق المجتمعات مثلاً على مسألة العفَّة وجمال العفَّة، ولكن تختلف في معاني العفَّة في تجلِّياتها، ففي حين تعني العفة في مجتمعٍ ما عدم إقامة أيِّ علاقةٍ بين الجنسين إلا بعقد زواجٍ وبنصٍّ من المحكمة وبتوقيع الشهود وما إلى ذلك.. فهي تعني في مجتمعٍ آخر عقداً يتراضى به كلا الطرفين على العلاقة.. فلا يوجد مجتمعٌ إلا وفيه مصفوفةٌ أخلاقيةٌ تحكمه، يحكم من خلالها على الأشياء بالصواب أو الخطأ.

2. هرم المجتمع:

وبالنظر إلى هرم المجتمع، سنجده يتكوَّن من الأنظمة التالية:

- **نظام دفاعٍ خارجيٍّ:** يتمثَّل بالجيش، أو بأيِّ قوَّةٍ من شأنها حماية الحدود من العدوان الخارجي، وقوة هذه المنظومة مهمَّةٌ لبقاء المجتمع، فإذا ما كانت القوة العسكرية التي

تقف وراءها القوة العلمية والصناعية والبحثية قويةً، فهذا يعني أن المجتمع يتحلَّى بسياجٍ خارجيٍّ آمنٍ.

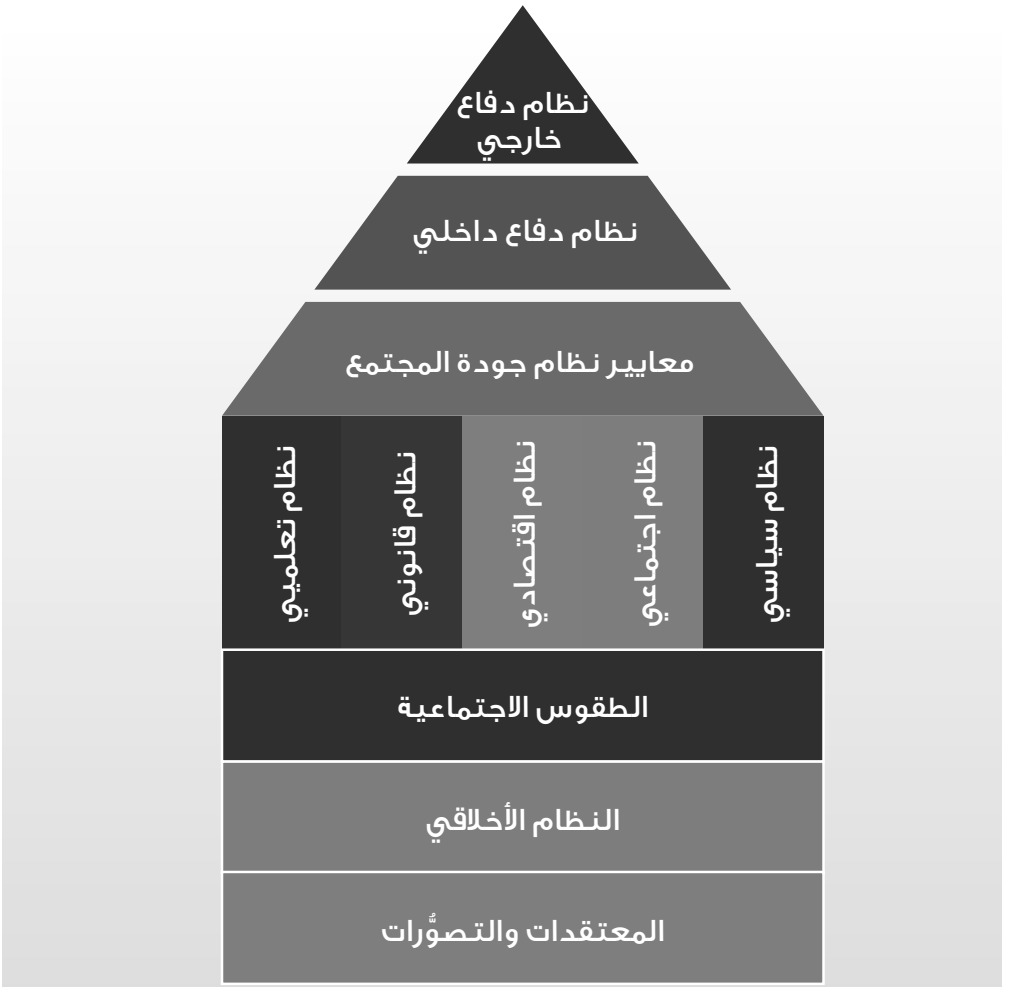


- **نظام دفاع داخلي (نظام الحقوق):** يوجد أسفل الدفاع الخارجي قوَّةٌ تحمي المجتمع من العدوان أو الظلم الداخلي؛ فتحفظ حقوق الأفراد والجماعات وفق ما يسمَّى بـ: نظام الحقوق؛ سعياً لقيام الناس بالقسط، فحفظ الداخل يستوجب نظاماً للحقوق، والمجتمعات على تفاوتٍ في هذا؛ فقد يتحلَّى مجتمعٌ ما بسياجٍ خارجيٍّ آمنٍ جدًّا، ولكنَّ حقوق الناس داخل المجتمع ضائعةٌ بشكلٍ كبيرٍ، ويعانون من الخوف والتهديد، وهذا نجده في النُّظُم الديكتاتورية القوية؛ حيث إنها قد تخلق نظاماً مرهباً للخارج، ولكن نجد إنسانها داخل مجتمعاتها يبحث عن ملاذٍ آمنٍ للهرب بسبب رداءة النظام الحقوقي.
- **نظام جودة المجتمع:** تحت النظامين السابقين، توجد منظومةٌ تقوم بوضع المعايير للنظام ومتابعته؛ كمعايير صحة الأطعمة المقدَّمة للناس ونظافتها، والمنتجات وضبط الغشِّ فيها ونحوه.. وهذه المعايير الأساسية التي يحتكم إليها المجتمع هي جزءٌ ممَّا يدرسه علم الاجتماع.

3. أعمدة المجتمع:

أما لحمة بقية المجتمع وأجزائه، فسنجد في منتصف الهرم نظاماً سياسيًّا، واقتصاديًّا، واجتماعيًّا، وقانونيًّا، وتعليميًّا..

ففي بناء المجتمع هناك ثلاثة طوابق، وفي كل طابقٍ عدة أقسامٍ؛ ففي أعلاه أبنيةٌ تحفظه وتحميه.. وثلاثة أبنيةٍ في أسفله هي أساس المجتمع، وفي المنتصف جسم المنتظم الاجتماعي.. وقد سمَّيته: المنتظم الاجتماعيَّ؛ لكونه بناءً متراصًّا كوحدةٍ بعضه مع بعضٍ، فإذا فقد جزءٌ منه وظيفةً من وظائفه، تعرَّض الباقي للخطر، فمثلاً: إذا تعرَّض النظام الدفاعي الخارجي لخللٍ ما، فإن كلَّ المجتمع سيصاب بالانهيار ويغزوه الآخرون، وكذلك النظام القانوني الذي يحمي حقوق الناس داخل المجتمع، أيضاً إذا تعرَّض للخلل، فإن المجتمع سيعاني نتيجة هذا الخلل، وستتأثَّر الأبنية الأخرى، فتختل اقتصاديًّاً، واجتماعيًّاً، وتعليميًّاً، فتتساند جزئيات هذا النظام وكأنها آلةٌ واحدةٌ لتحقِّق ثلاثة أشياء نسمِّيها: مُخرجات النظام.



- أولاً- ضمان وجود المجتمع
- ثانياً- تحقيق الاستقرار: وهذا امتحانٌ تفشل فيه مجتمعاتٌ كثيرةٌ جدًّا، مثال ذلك: السودان الذي حدث فيه الانفصال، ولم يستقرَّ إلى الآن؛ لأن النموذج الداخليَّ لعملية التعايش بين مكوِّنات المجتمع لم تجد لها طريقاً إلى الاتفاق. وقد تكون المجتمعات خليطاً بين المسيحيِّين والمسلمين، أو بين المسلمين والوثنيِّين؛ بل أحياناً بين المسلمين أنفسهم حينما يكونون تياراتٍ مختلفةً. فتكون مشكلة النظام الاجتماعي أنه لا يُخرج حلولاً وتصوُّراتٍ عن كيفية الاستقرار الاجتماعي وكيفية إدارة عملية التنازلات.
- ثالثاً- التنمية: وهي عملية تخطيطٍ واسعةٌ في المجتمعات، وتحتاج إلى عقولٍ تهندس الموارد، وتهندس الطاقات، والقدرات، وتوفِّر الوظائف، وتحشد المجتمع المحليَّ والإقليميَّ حتى لا يعترض التنمية.

فتبرز عندنا هنا فكرة المجتمع كمنتظمٍ كاملٍ يشتغل بعضُه مع بعضٍ كأول صورةٍ نريد رسمها لما نسمِّيه: علم الاجتماع، أو: التطوُّر الاجتماعيَّ السَّوِي.

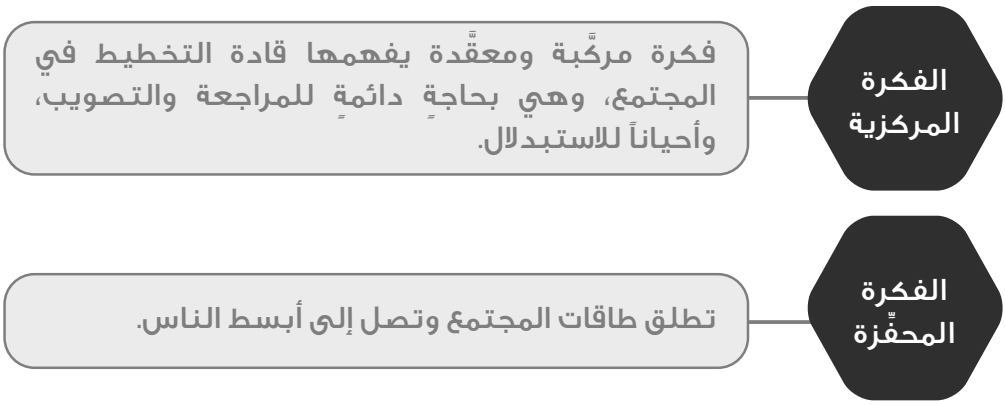
وهنا يصل بنا المطاف إلى قضيةٍ مهمَّةٍ جدًّا، وهي الفكرة المركزية:

ثانياً- الفكرة المركزية والفكرة المحفِّزة

الفكرة المركزية:

تحدَّثنا سابقاً عن أن كلَّ مجتمعٍ توجد فيه مواردُ رئيسيةٌ: (التراب، المجتمع، الوقت، الإنسان)، وأن عالم أفكاره يقوده إلى ضمان الوجود والاستقرار والتنمية، وأن الفكرة المركزية هي الخطُّ الناظم لكل الأنشطة في المجتمع، فهي التي تُشكِّل داخل المجتمع التصوُّرات الكبرى، وتحكم تشكيل الأنظمة وتكييفها وإعطاءَها صبغةً معيَّنةً.. ومع أن الفكره المركزية تتأثَّر بفعل التصوُّرات الأساسية الحاكمة داخل المنظَّمات المختلفة، إلا أنها لا تشتغل في فراغٍ؛ بل تشتغل داخل المجتمع الذي تسكنه أفكارٌ وتصوُّراتٌ ورؤىً وأحزابٌ وطوائفُ وتجمُّعاتٌ مختلفةٌ.. والفكرة المركزية هي توليفةٌ يتمُّ اختيارها وفق معايير هامَّةٍ؛ لتضمن دوام وجود المجتمع،

ودوام استقراره وحصول التنمية فيه، ومن دون أن تتحقَّق تلك الشروط، لا تكون فكرة قيام المجتمع ناجحةً! فقد يصارع الناس من أجلها طوال عمرهم، لكنها تعود عليهم بالفشل الذريع!



وليس هناك فكرةٌ مناسبةٌ تماماً أو غير مناسبةٍ، ولكن درجات المناسبة تكون بقدر حفظ الفكرة لهذه الشروط الثلاثة.. فمثلاً: الفكرة المركزية في ماليزيا تختلف عن الفكرة المركزية في تركيا؛ ففي تركيا بُنيت الفكرة على روح القومية، بينما في ماليزيا على التعدُّدية العرقية، وإن الاثنتين لا تزالَا صالحتين داخل هذه البيئات، ولكن لو نُقلتَا إلى بيئاتٍ أخرى، قد تحتاجان إلى تكييفٍ آخر، فالفكرة المركزية وإن كانت في صيغتها العامَّة تحمل روحاً معيَّنةً، ولكن في تشكُّلها السياسي ستأخذ شكلاً يناسب البيئة التي توجد فيها؛ وسنفصِّل في مثال الصين كنموذجٍ عمليٍّ؛ فالصين لديها الفكرة القديمة التي قامت عليها أيام "ماو تسي تونغ"؛ حيث اختارت الشيوعية كنموذجٍ للعدالة، وقاد الحزب الشيوعيُّ عمليةَ التحوُّل في البلد، والبدايات كانت كارثيةً بعد الثورة؛ حيث نتج عنها ما يسمَّى: الإنسان الصنم، وبدأ المشروع الصيني يتجه في المسار ذاته الذي وصل إليه المشروع السوفييتي، من فقدان فاعلية المجتمع؛ حيث إن الفكرة الناظمة ظهرت فيها إشكاليةٌ، فالناس اندفعت للفعل، ولكنَّ الخطة المرتبطة في حركة المجتمع كان فيها مشكلةٌ، فاحتاج الموضوع منهم إلى مراجعاتٍ جذريةٍ. فعالجوا فكرة الإنسان غير الفاعل، محاولين استقطاب بعضٍ من نهج الرأسمالية المحفِّز للفرد، المتعلِّق بقضية إطلاق طاقته للفعل وجعله إنساناً منتجاً. ليصبح السؤال هنا: كيف أمكن إدخال هذه الفكرة الصالحة من الرأسمالية إلى النظام الشيوعي دون إسقاط

النظام الشيوعي والفكرة الأساسية الموجودة فيه؟ هنا يأتي الإبداع الصيني حينما أخذ من الرأسمالية مع محاولة استبقاء الأفكار الأساسية للعدالة الاجتماعية، فلم يُبعِد الصينيُّون الفكرة المركزية، إنما عالجوها بحيث تصبح فاعلةً في عصرهم. في حين أن هناك مجتمعاتٍ أخرى لا تستطيع أن تفعل ذلك، فتدخل في فكرةٍ غير مجديةٍ في الواقع وتنهار الفكرة، ويبقى أهلها مصرِّين على أنها مناسبةٌ كما حدث في "الاتحاد السوفييتي".

الفكرة المحفِّزة:

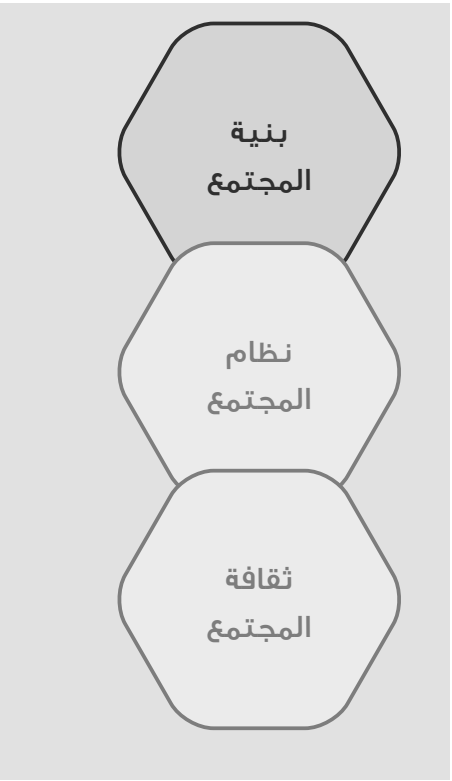
إن لكل مجتمعٍ من المجتمعات هموماً خاصَّةً به، وأوتاراً حسَّاسةً، إذا تمَّ العمل عليها وصيغت بما يفهمه كافَّة أطياف المجتمع، تحرَّكت في الناس طاقة الفعل؛ فبعض المجتمعات تحرِّكها روح القومية، وبعض المجتمعات عندها وترٌ حسَّاسٌ دينيٌّ، وبعض المجتمعات تحرِّكها العدالة الاجتماعية، فإن الفكرة المركزية فكرةٌ شاملةٌ، أما الفكرة المحفِّزة، فهي فكرةٌ جزئيةٌ تجذب أكثر قدرٍ من الناس إلى ساحة الفعل، وساحة الواقعية؛ بحيث تدفع بالناس شعوراً أنه بالإمكان إنجازها، وأنها تستحقُّ أن يفعل الإنسان من أجلها ما يغيِّر به واقعه، ففي يومٍ ما وجدت الاشتراكية من مظلومية العمَّال أداةً لجمعهم على قضية أنهم مظلومون، وأن عليهم أن يتحرَّكوا لتحرير أنفسهم من هذا الظلم. إن هذا النوع من الأفكار المركزية الجامعة التي تستطيع أن تحفِّز أكبر قطاعات المجتمع للفعل، وجدناها أيضاً في الصين، فالمظلومية التاريخية التي تعتقد الصين أنها تعرَّضت لها حينما وقعت تحت هيمنة خمس دولٍ كبرى، واحتُلَّت من قِبَل اليابانيِّين، ولَّدت فكرة المهانة الحضارية التي أدَّت إلى مزيدٍ من الاعتزاز بكينونتهم كصينيِّين، وحفَّزتهم بوجوب العمل للصين الكبرى، فخليط التحدِّي الذي نتج عن المهانة الحضارية التي تعرَّضت لها الصين مع اعتقادها بأنها أمةٌ عظيمةٌ.. أشعل لدى شعبها فتيل الطاقة للتحرُّك ولتبذل الجهد من أجل استرجاع المكانة الحضارية! وإن كل مجتمعٍ يجد

> إن المجتمعات تبحث عن أفكارٍ كبرى تصبغ بها المجتمع، تحقِّق بها ثلاثية الوجود والاستقرار والتنمية؛ وعن أفكارٍ تحرِّك بها أفراد المجتمع نحو العمل المشترك والتضامني من أجل عبور العقبات التي تقف أمامهم

صيغةً من الصيغ لتحريك الجموع في اتجاهٍ معيَّنٍ يحقِّق لها مصالح في مكانٍ ما وفي لحظةٍ تاريخيةٍ معيَّنةٍ، ونصل من هنا إلى مدخلنا لفكرة علم الاجتماع..

ثالثاً- علم الاجتماع

من أجل أن نفهم علم الاجتماع بشكلٍ منظَّم، علينا أن ننظر إلى المجتمع من ثلاث نوافذ مختلفةٍ، إن المجتمع في شكله العامِّ يبدو واحداً، إلا أننا عندما نوسِّع دائرة النظر وننظر إليه من عدة نوافذ، فستعطينا كل نافذةٍ المنظر من زاويتها المختلفة عن زاوية النافذة الأخرى؛ بحيث ستساعدنا جميع تلك الزوايا على التفكير المنظَّم في شكل المجتمع وتقدُّمه..

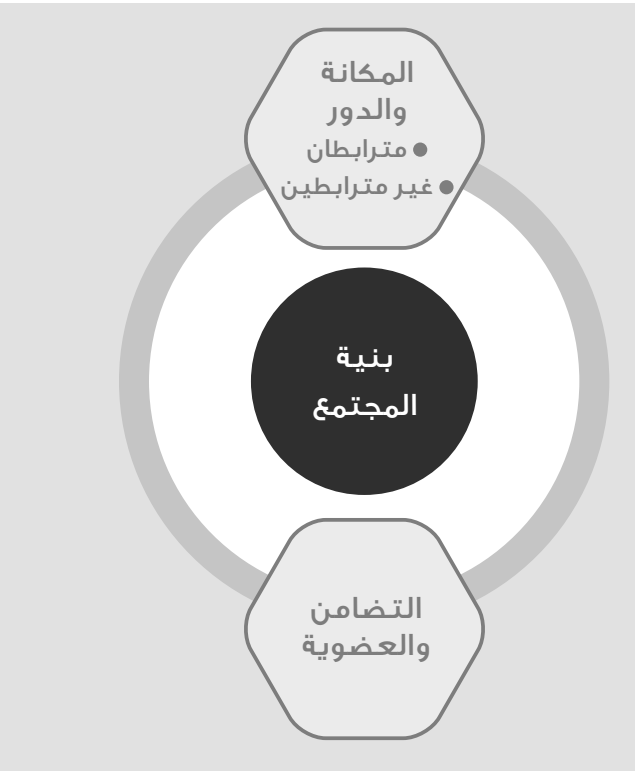


1. النافذة الأولى: بنية المجتمع

إن أول قضيةٍ يُنظر إليها من النافذة الأولى هي البنية الاجتماعية، وإن البنية الاجتماعية عبارةٌ عن هرمٍ تبدأ من الحاكم الذي يمتلك الصلاحيات والقدرات، ومَن يأتي بعده مِن حكَّامٍ ووزراء ومدراء، وصولاً إلى بقية فئات المجتمع الوسطى والدنيا بحسب توزيع القوة والثروة داخله.. فهو هرمٌ صاعدٌ تتركَّز فيه القوة والمال والقرار، كلما اتجهنا تصاعديًّاً، وتقلُّ كلما اتجهنا تنازليًّاً.. وإن هذا التصنيف للمجتمع ينفعنا في معالجتنا لقضايا اجتماعيةٍ عدةٍ؛ منها:

المكانة والدور:

إن المكانة والدور في المجتمع القديم ليس بينهما علاقةٌ حقيقيةٌ؛ بمعنى أن الإنسان يمكن له أن يكون وزيراً أو مديراً.. ولكن لم يتحصَّل على هذه المكانة بقدراته ومعرفته



وشهاداته.. فقد يستلَّم شخصٌ ما أحد الأدوار في المجتمع، ويُتوقَّع منه من خلال هذا الدور دراسة مستقبل البلد وموارده، ومستقبل الأجيال القادمة، أو التواصل مع الناس والاستماع لشكاويهم ورُؤاهم، أو استقبال الوفود الخارجية وإعطاء رأيه بالقضايا الهامَّة.. ولكنه لا يملك من هذا شيئاً، فهو غير مؤهَّلٍ للقيام بهذه الأدوار! ولا يستطيع أن يفهم شيئاً منها؟! فهذه المكانة التي يشغلها لا يستطيع أن يؤدِّي بها الدور المطلوب منه. وإن هذا الفصام بين المكانة والدور له أثره الوخيم في المجتمع مهما قلَّت مساحته أو كبرت؛ فهناك قاعدةٌ جديرةٌ بالذكر هنا، تقول: "إن قوة أيِّ سلسلةٍ، بقوة أضعف حلقةٍ موجودةٍ فيها"، فعلى افتراض وجود سلسلةٍ متألِّفةٍ من عشر حلقاتٍ قويةٍ، وواحدةٍ ضعيفةٍ، فإن دوام ارتباط حلقات السلسلة بعضها ببعضٍ مرهونٌ بتلك الحلقة الضعيفة، فضعف الحلقة الواحدة سيؤدِّي إلى تبعثر السلسلة. فإذا ما سُلِّم على سبيل المثال منصب قائد القوات المسلحة إلى مَن لا يعرف بالعسكرية، ولا في الإستراتيجية، ولا في التخطيط، في بلدٍ معرَّضةٍ لاهتزازاتٍ أمنيةٍ كبيرةٍ، فنتوقع أن يصبح الأمن الخارجي هشَّاً، وهذا يقاس عليه كل منطقةٍ من المناطق، وكل حلقةٍ من الحلقات، فنحن بحاجةٍ إلى أن نصلح الخلل، وأن نجسِّر علاقة الدور بالمكانة بعلاقةٍ وطيدةٍ متينةٍ لكي نحافظ على المجتمع.

التضامن والعضوية:

إذا أمعنَّا النظر في بنية المجتمعات، نجد أن مجتمعات ما قبل الحداثة تسمَّى: مجتمعات التضامن "Solidarity"، فمثلاً: لو كنَّا في قريةٍ أو في حيٍّ من الأحياء القديمة، فلن نجد مشفى تخصُّصيًّاً نسائيًّاً للولادة، ولن نجد شركات بناءٍ محترفةٍ، أو عمَّالاً للنظافة محترفين،

ولا شركة كهرباء.. وبالتالي سيسود داخل هذه المجتمعات سلوكٌ تضامنيٌّ؛ فعند حالة الولادة تأتي إحدى الجارات للتوليد، وأخرى للخدمة، وجميعهنَّ لسنَ مختصَّاتٍ ولا يتقاضون أجراً.. وفي حال سقوط جدارٍ، سيحضر الجيران أيضاً للمساعدة في البناء والترميم، وكذلك في موسم الحصاد والحرث.. فهو باستمرارٍ مجتمعٌ تضامنيٌّ ليس فيه تخصُّصاتٌ؛ فالعلاقات فيه مبنيةٌ على القرابة والدم، يتساعد الجميع بالمهامِّ بناءً على الأريحية والعلاقات الاجتماعية؛ فهو مجتمعٌ يعتمد على القوة الذاتية المتوفرة لشخصٍ ما داخل البيئة. أما المجتمعات الحديثة، ففيها تخصُّصاتٌ دقيقةٌ؛ فمهندس الديكور يختلف عن مهندس البناء وعن مهندس الكهرباء، وحتى القانون المختصُّ بحلِّ المشكلات بين الناس يتفرَّع إلى تخصُّصاتٍ متنوعةٍ.. وإن هذا المجتمع الحداثيَّ الموجود يسمَّى: مجتمعاً عضويَّاً؛ لكونه أشبه بتنظيم الجسد؛ حيث لا يمكن أن تقوم الرئتان بعمل القلب، ولا القلب بعمل العيون، ولا العيون بعمل الكلى، فكل شيءٍ في هذا الجسم العضوي له تخصُّصٌ محدَّدٌ يقوم به ولا يقوم بغيره.

إن فكرة الدور والمكانة الاجتماعية أداةٌ جيدةٌ للنظر إلى مجتمعٍ ما، ومعرفة أين يتجه في خارطة التقدُّم أو التخلُّف

وهناك نمطٌ ثالثٌ لن تجدوه في الكتب، هو نمط المجتمعات العالقة في الوسط، وهذه مجتمعاتنا نحن، التي يتمُّ فيها الخلط بين النظام التضامني وصورة الأنظمة العضوية، فمثلاً: إذا تقدَّم أحد الناس لوظيفةٍ ما على الإنترنت، غالباً ما يحاول البحث في معارفه عن موظفٍ في هذه المؤسسة، فهو يريد جزءاً من النظام القديم ليستصحبه معه في النظام الجديد؛ لكونه يعلم أن النظام الجديد ليس نظاماً صرفاً، ففيه الشكل الخارجي فقط، فثقة إنسان تلك المجتمعات في وجود هذا النظام الحديث غير موجودةٍ..

إذاً؛ علينا أن ننظر من المنظار الأول إلى بُنيان المجتمع، وندرك الفرق بين المكانة والدور؛ لأننا بحاجةٍ إلى التوفيق بينهما، فعضوية المجتمع لتتحقَّق هي بحاجةٍ إلى ضبط التجسير بين الدور والمكانة، والإنسان الذي أتى إلى مكانٍ لا يجيد دوره فيه، سيديره بالنظام التضامني القديم، والنظام القديم سيوصل شخصاً ما إلى مكانةٍ لا يجيد دورها.

إن المجتمعات العالقة بحاجةٍ إلى دراساتٍ خاصَّةٍ تغطِّي الحدَّ الوسط الذي لم تغطِّه الدراسات الغربية، فإن استمرار الجمع بين القديم والحديث، هو استمرارٌ في السير على خطَّين لا يلتقيان.

2. النافذة الثانية: نظام المجتمع

ذكرنا سابقاً أن المجتمعات المتخلِّفة تميل إلى التكديس، بينما المجتمعات الحديثة تنظر إلى الترابط والنظام بين مكوِّنات المجتمع.. وسنقوم هنا بقليلٍ من التفسير والتوضيح بهذا الخصوص..

إننا في المجتمعات العربية سابقاً، قد كنَّا أحضرنا نظم تعليمٍ مدرسيةً للابتدائية والإعدادية والثانوية، وهذه النظم أتتنا من فرنسا، وهي نُظُمٌ تُفضي إلى دخول الجامعة، والجامعة هي أيضاً نظامٌ حداثيٌّ أحضرناه من الغرب يفضي بدارسيه لِأَن يذهبوا إما كموظفين في القطاعات الخاصة، وإما في القطاع الاقتصادي الحرِّ، أو القطاع العامِّ الحكومي، بما فيه الجيش والقوات المسلَّحة، وإن حاجة الجيش والقطاع التجاري للمؤسسات البحثية والباحثين داخل المجتمع نابعةٌ من احتياج تلك القطاعات إلى إجاباتٍ عن أسئلةٍ متعلِّقةٍ بالتقدُّم والعسكرية والحروب، فيعودون بأسئلتهم تلك على مراكز البحوث والدراسات والتصنيع التي تقوم بدورها في الإجابة عن الأسئلة لتتطوَّر الحياة الاقتصادية والعسكرية داخل المجتمع، فيصبح المجتمع نامياً بفضل الترابط الحاصل بين مؤسَّساته؛ فالمنزل يعِدُّ طفلاً بمواصفاتٍ معينةٍ، والمدرسة تصقله بمهاراتٍ وعلومٍ أخرى، والجامعة تكمل تلك المسيرة، ومن ثم بيئة العمل تشترط شروطاً خاصَّةً لها، فالقطاع الحكومي والقطاع البحثي لكلٍّ منهما شروطه الخاصة، كما ينتظر قطاع الأعمال والجيش والقوات المسلحة دعماً من هذه الفئات المجتمعية داخل هذا البنيان، والمهمُّ وجود ترابطٍ حقيقيٍّ بين كل طرفٍ من هذه الأطراف وبين المنظومة المتكاملة.. والسؤال هنا أين مكان بلادنا من هذا الترابط؟

سنبدأ من سؤال: هل قطاعات الأعمال والجيش والقوات المسلحة في مجتمعاتنا تطرح أسئلةً حقيقيةً على مراكز البحوث المتوفرة داخل المجتمع؛ بحيث تصبُّ تلك المراكز البحثية بمخرجاتها داخل إطار الجيش والاقتصاد الموجود، أم أن العلاقة بينهما مفكَّكةٌ؟

إن تلك الجهات في بلادنا تبحث عن إجاباتٍ في الخارج، وهي لا تريد شيئاً من المراكز البحثية المتوفرة في الداخل! إذاً؛ لماذا الجامعة ستخرِّج باحثين من الفئة "أ"، وباحثين من الفئة "ب"؟ لمن سيعمل أولئك الدارسون؟ وفي الأساس، لماذا سنحتاج إلى مراكز بحثيةٍ إذا كنَّا في طبيعة الحال سنستورد الإجابات جاهزةً من الخارج؟!

يوجد داخل مجتمع النظام تتابُعٌ؛ فكل طرفٍ فيه يسلِّم الراية لمن بعده، بينما في مجتمعات التكديس، فإن الأطراف مفصولةٌ عن بعضها البعض، ولا علاقة بينها

- إن تلك المراكز التي نسمِّيها: مراكز بحثيةً، ليس لها وظيفةٌ حقيقةٌ. وبالتالي؛ فإن أيَّ شخصٍ يعمل في هذه المراكز، يدرك أنه لن يُطلَب منه إلا القيام بالشكل الخارجي للوظيفة!

- وإذا أخذنا مثال الأسرة في مجتمعنا، نجد أن الأسرة تعِدُّ طفلاً صغيراً بمعارف ومهاراتٍ قد لا تلبِّي الحدَّ الأدنى الذي تحتاجه المدرسة الابتدائية، وبالتالي تخفِّض المدرسة الابتدائية شروط أخذها لهذا المُخرَج، وكذلك المدارس الإعدادية والثانوية والجامعة، كلٌّ منها سيخفِّض شروطه بما يتناسب مع ما قبله، فتنخفض الشروط ليبدو البناء الاجتماعي متخلِّفاً وغير فعَّالٍ، أما في المجتمعات الحديثة، فهناك ترابطٌ عميقٌ جدَّاً بين كل هذه البُنى، وبالتالي تغدو الحاجة إلى المصنع، والحاجة إلى الجيش، والحاجة إلى العسكرية، جميعها تصبُّ في المراكز البحثية، وبالمقابل تطالب المراكزُ البحثيةُ الجامعاتِ بمستوىً محدَّدٍ من الباحثين، وتَتَتَابع السلسلة.. فالجامعات تطالب الثانويات، والثانويات تطالب الابتدائيَّات، والابتدائيَّات تطالب المنزل..

إذاً؛ إن فكرة النظام فكرةٌ أساسيةٌ نطِلُّ بها على المجتمعات، ونعرف من خلالها إن كان المجتمع هو مجتمع تكديسٍ، أم مجتمع نظامٍ، فكلا المجتمعين يحمل داخله المسمَّيات ذاتها، ولكن داخل مجتمع النظام، كل شيءٍ يصبُّ في الآخر؛ وكأن هناك سباقَ تتابُعٍ، كل شخصٍ يسلِّم الراية لمن بعده، بينما في مجتمعات التكديس، فإن كلَّ الأشكال موجودةٌ، ولكنها أشبه بقطع غيار السيارة، فمهما حَسُنَت هذه القطع وعَلَت جودتها واكتملت، إلا أنها في النهاية قطعٌ متفرقةٌ لا ترابط بينها لتشكِّل سيارةً كاملةً..

3. النافذة الثالثة: ثقافة المجتمع

إن ثقافة المجتمع في عمقها تعني: "النظرة للحياة"؛ بمعنى إذا أردنا أن نقيِّم ثقافة مجتمعٍ ما توجَّهنا إلى نظرته للحياة التي تتمثَّل بأمورٍ عدَّةٍ نسمِّيها: "المناظير الثمانية"، وهي:

● نظرة المجتمع للإنسان:

أي: كيف ينظر المجتمع إلى الإنسان؛ فلو غابت الكرامة الوجودية مثلاً، فسينظر الأزواج بعضهم إلى بعضٍ بطريقةٍ مختلَّةٍ، وسينظرون إلى الأولاد على أنهم أشياء وممتلكات، وسينظرون إلى السائق والخادم على أنهم جزءٌ من منظومة الرقيق، وكذا النظرة إلى الإنسان الغريب في الشارع، فلن ينظر إليه كإنسانٍ له كرامته. وهذه النظرة للإنسان هي أهمُّ ما يميِّز مجتمعاً عن مجتمعٍ آخر، وإذا ما اختلَّت، انعكس ذلك على بقية الأشياء الأخرى الموجودة.

● النظرة للعلم – النظرة للطبيعة:

ونظرة المجتمع للعلم هي أمرٌ في غاية الخطورة والأهمية؛ فالمجتمعات المضطربة علميَّاً يمكنها أن تؤسِّس الجامعات، ولكنها لن تخرِّج علماء يبحثون في العلم وفي الطبيعة وفي المادة، أو في القوانين التي تحكم الكون وتعمُره. فنحن بإمكاننا أن نستورد أحدث الجامعات من الخارج، ولكن قد تبقى النظرة الخرافية للأشياء هي النظرة السائدة في مجتمعاتنا.

● النظرة للعمل – النظرة للوقت:

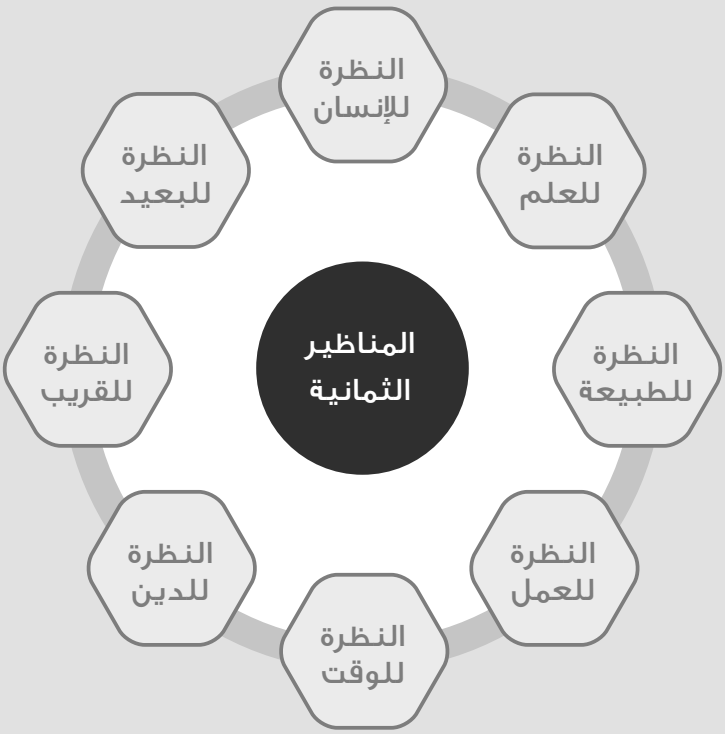
هناك مجتمعاتٌ تنخفض فيها قيمة الوقت والعمل بشكلٍ وراثيٍّ؛ فالمجتمع يتوارث عدم الإحساس بالزمن وبالقضايا الرئيسية الكبرى التى تصنع المجتمعات، فلا يُتَّجه بتلك المجتمعات نحو العلم أو نموٍّ الإنسان.

● النظرة للدين:

فهل الدين في المجتمع قوةٌ فاعلةٌ لدفع الإنسان إلى العمل والعطاء، وإلى الإحسان والسباق: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾، أم هي قوة قصورٍ ودفعٍ نحو الانعزال!؟

● النظرة للعلاقات البينية (الداخلية):

فهل ثقافة المجتمع تدفع إلى الوحدة الوطنية، أم تدفع نحو العكس!؟



● النظرة للآخر البعيد:

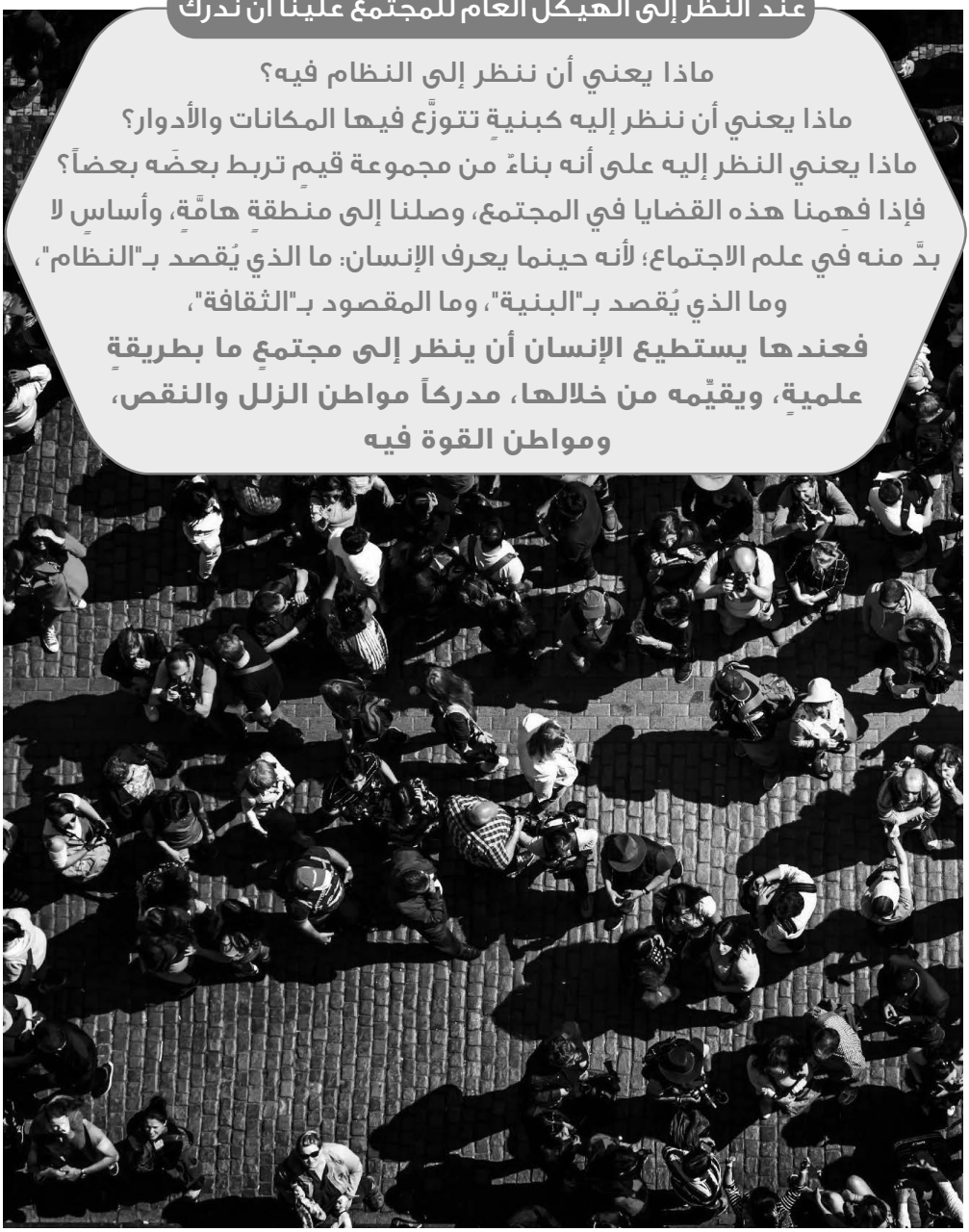
المتمثِّلة بالنظرة إلى المجتمعات والحضارات الأخرى؛ فهل البنية الثقافية تقوم على الاستفادة من الآخرين ومن تجاربهم، أم تسعى إلى بناء قلاعٍ وحصونٍ أمام الآخرين وإنشاء معارك معهم!؟

علينا معرفة ثقافة مجتمعٍ ما، إن كانت ثقافةً موروثةً، أم ثقافةً منتقاةً؛ بمعنى: هل هي فقط ما ورثناه من الماضي بجهلٍ، أم ما اخترناه بناءً على احتياجاتنا وتوجُّهاتنا؟ فالمجتمعات الحديثة قد قامت باختيار القيم وتركيزها على أساس أن تصنع المواطن المناسب لنهضتها، وبالتالي هي لا تتوه في المسمَّيات العديدة، إنما تركِّز على قيمٍ أساسيةٍ معدودةٍ تطرحها داخل المجتمع، وتعتني بها بعيداً عن منظومةٍ مطلقةٍ من القيم، لا يعرف أحدٌ أولها من آخرها، فيُعرَف المطلوبُ في كل دائرةٍ بوضوحٍ في المجتمعات المتقدمة، بدءاً من الأسرة، مروراً بالمدرسة والجامعة، وصولاً إلى السياق الاجتماعي، فتصنع نهضات المجتمع بالتصميم والتخطيط،

وليس عن طريق الصدفة، أما مجتمعات ما قبل الحداثة، فتأخذ موروثها من دون تنقيحاتٍ؛ بل تعزِّز الأخطاء، وتعيد تدويرها مرَّةً أخرى.

عند النظر إلى الهيكل العامِّ للمجتمع علينا أن ندرك

ماذا يعني أن ننظر إلى النظام فيه؟
ماذا يعني أن ننظر إليه كبنيةٍ تتوزَّع فيها المكانات والأدوار؟
ماذا يعني النظر إليه على أنه بناءٌ من مجموعة قيمٍ تربط بعضَه بعضاً؟
فإذا فهِمنا هذه القضايا في المجتمع، وصلنا إلى منطقةٍ هامَّةٍ، وأساسٍ لا بدَّ منه في علم الاجتماع؛ لأنه حينما يعرف الإنسان: ما الذي يُقصد بـ"النظام"، وما الذي يُقصد بـ"البنية"، وما المقصود بـ"الثقافة"،
فعندها يستطيع الإنسان أن ينظر إلى مجتمعٍ ما بطريقةٍ علميةٍ، ويقيِّمه من خلالها، مدركاً مواطن الزلل والنقص، ومواطن القوة فيه



رابعاً- نظرية النخبة

حاولنا في الفقرات السابقة مشاهدة المجتمع من ثلاثة نوافذ أساسيةٍ: نافذة البنية، ونافذة النظام، ونافذة الثقافة. وقلنا: إن غاية النظام الاجتماعي ضمان الوجود، وضمان الاستقرار، والتنمية.. وإن الفكرة المركزية التي تصبغ المنتظم الاجتماعيَّ، من أدوارها التمكين لهذه الثلاثية..

وسنتناول فيما يلي أموراً مهمَّةً أخرى في علم الاجتماع، وهي من الضرورات التي يحتاج الإنسان إلى اصطحابها معه وهو يفكِّر في وضع المجتمعات التي نعيش فيها..

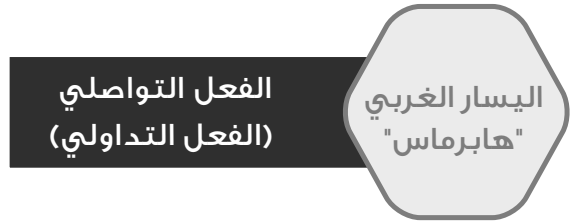
إننا كثيراً ما نستمع إلى "سيناريو القوة الضخمة التي تسيطر وتتحكَّم" -حتى في البلاد الغربية-، وهذا الطرح هو مفاد نظريةٍ في العلوم السياسية، اسمها: "نظرية النخبة"، وهي من أهمِّ النظريات الموجودة، ولكن كثيراً ما يتمُّ تجاوزها أو تجاوز أجزاءٍ منها في منطقتنا العربية.. فإن نظرية النخبة قد تطوَّرت عبر الزمن وتجلَّت بتجارب واقعيةٍ، حريٌّ بنا أن نتتبَّعها بدقةٍ..

عند البحث في نظرية النخبة، نجد أنها تطال الدول الغربية، بما فيها "الولايات المتحدة الأمريكية"؛ فنجد أُسراً غنيَّةً تمتلك الشركات الكبرى، لا سيما شركات النفط، ويقف وراءها المجمع العسكري الأمريكي الشهير، والقيادات الكبرى، فتشكِّل كياناً قويَّاً يقود المجتمع من خلال ما يموِّله ويمتلكه من مراكز بحثيةٍ، ومؤسساتٍ إعلاميةٍ، وجامعاتٍ، وأحزابٍ سياسيةٍ.. ويتحكَّم بدوائر المجتمع من خلال التأثير بالرأي العامِّ أثناء التصويت، فيدعم من المرشَّحين مَن يضمن أن يحقِّق مصالحه بالشكل الأفضل. وإن هذا أساس العملية الديمقراطية في الغرب، وبالتالي الغرب ليس حرَّاً، والموضوع في حقيقته عبارةٌ عن عمليةٍ دكتاتوريةٍ كالموجودة في بلادنا، إنما بإخراجٍ مختلفٍ!

وإن النخبة التي نتحدَّث عنها، ليست نخبةً واحدةً مهيمنةً تتَّجه نحو المصالح المشتركة ذاتها، إنما هي نخبٌ متصارعةٌ، فتدعم كلُّ نخبةٍ الطرف الذي يحقِّق مصالحها، وتتراوح فترات القوة فيما بينها، فهذا السيناريو الأقوى أمام الأمثلة الحية التي نشاهدها؛ فـ"هيلاري كلينتون" مثلاً قد تمَّ إخراجها من السباق أمام "ترامب"، علماً أنها حازت على أصواتٍ أكثر منه! وأيضاً قد تمَّ إخراج "ترامب" أمام "بايدن" في الدورة التالية.. فلو كانت نخبةٌ واحدةٌ هي

المتحكِّمة فقط، لَكشف الطرف الخاسر عن هذه النخبة التي تقوم بالعمليَّات غير الشرعية، ولو كانت قوةً واحدةً، لَكانت بحاجةٍ إلى "شيفرة للصمت"، وهذا يستحيل في دولةٍ كأمريكا، فلو كانت قوةً واحدةً، لَتمَّ الإفصاح عنها، ولَأُفشي سرُّها منذ زمنٍ.

"هابرماس" واليسار الغربي:



إذا طوَّرنا النقاش، ودخلنا في نظرية النخبة بشكلٍ أكبر للبحث عن أفضل مَن ناقش النظرية، وحاول أن يجد لها حلولاً في هذا العصر، سنجد أن أشهر المؤسَّسات التي تُتابِع هذا الموضوع بدقَّةٍ، هي المجموعات الثقافية اليسارية الموجودة في الغرب، وأشهر شخصيات تلك المجموعات هو "هابرماس" الذي يرى أن داخل الولايات المتحدة الأمريكية مشكلةً حقيقيةً مع الديمقراطيات المعاصرة، والمشكلة في حقيقتها تكمن في كون اللعبة تُدار من خلال قوةٍ تمتلك الإعلام والطاقة ودوائر أخرى مؤثِّرةً في المجتمع.. وبالتالي لديها القدرة على توجيه وعي الناخبين نحو الاتجاه الذي تريده حتى لو كان في عكس مصالحهم.

فطرح "هابرماس" نظريَّتَه التي يرى بها أن سبب عدم فاعلية القوى الاجتماعية الضخمة في توجيه الرأي نحو مصلحة المجتمع، هو فقر القوى الاجتماعية بالمعلومات عن الأوضاع، وعدم تداول النقاشات معها بشكلٍ حرٍّ.. وبالتالي إذا ما وجدت آلية تواصلٍ مع عمق المجتمع الأمريكي، فحينها يمكن النهوض بطلبة الجامعات والمؤسسات المدنية لدوائر فعلٍ أكثر نضجاً في اتخاذ القرار وتوجيه دفَّته، واختيار القيادات التي تمثِّله. والمجتمع الأمريكي يمتلك الأدوات والقوة اللازمة بوفرةٍ؛ مثل: السينما، والتلفاز، والمسرح، والقنوات الفضائية.. وبالتالي يقترح "هابرماس" تفعيل هذه الأدوات من خلال نظريةٍ يسمِّيها: "الفعل التواصلي"؛ حيث يدعو مِن خلالها إلى توظيف هذه الأدوات لجعل النقاشات تنزل إلى أدنى مستوىً؛ بحيث يستطيع أيُّ إنسانٍ عادي التعرُّف على خبايا الأحداث والقرارات المؤثِّرة، فيتشكَّل في المجتمع فئاتٌ ناخبةٌ واعيةٌ لصنع

القرار، تستطيع إنقاذه من هذه العجلة المصمَّمَة لتزييف وعيه.. وما نشهده اليوم من صراعاتٍ ضخمةٍ داخل النظام، هي نِتاج الأدوات التي تُوفَّر للجماهير من أجل الحراك والتغيير..

نظرية النخبة اليسارية (المركز والأطراف):

إن نظرية النخبة في المجتمعات المتقدِّمة، قد ناقشت الأوضاع بشكلٍ علميٍّ وموضوعيٍّ، كما شاهدنا في المثال السابق، ولكن إذا عدنا إلى الوراء قليلاً، سنجد أن نظرية النخبة سابقاً اختلفت في طريقة تداولها للحلول..

إن الذي نظَّر لنظرية النخبة القديمة، هم مجموعة ثوَّارٍ مِن أمثال "ماركس" ومَن حوله، وتقول هذه النظرية: إن المراكز الاستعمارية التي تبدَّلت عبر التاريخ؛ من بريطانيا، إلى الولايات المتحدة، وقبلهم إسبانيا وفرنسا.. هذه القوى العملاقة هي التي صنعت الرأسمالية الدولية، فاحتلَّت العالم وحوَّلته إلى ما يشبه المركز والأطراف؛ فصنعت النخب الموجودة في المدن الكبرى في العالم (دول المركز)، وأقامت علاقةً تبادليةً؛ بحيث تأخذ الموادَّ الخام والأيدي العاملة من (دول الأطراف) الفقيرة بأرخص الأثمان إلى دول المركز، لتُصنَّع فيها، ثم تعود إلى دول الأطراف وتباع ثانيةً كبضائع بأغلى الأثمان، وبالتالي يستمرُّ ضعف الأطراف ويقوى المركز باستمرارٍ نتيجة تدفُّق الأموال إليه!

وإن هذه النظرية حاصلةٌ أيضاً في المدن التي صنعها المستعمر، فالنخب في مركز المدن تقوم تجاه الأرياف بالعملية ذاتها؛ فتأخذ الموادَّ الخام والأيدي العاملة بأقلِّ الأسعار، ثم تعيد بيع هذه الأشياء إلى الأرياف بأغلى الأسعار! فالعملية التي تتمُّ بين النظام الدولي والمدن، تتمُّ أيضاً بين المدن والأرياف!

وقد جاء الاقتراح اليساري التاريخي إزاء هذه المشكلة بأن تقوم ثورةٌ عمَّاليةٌ داخل البلدان، وثورةٌ على النظام العالمي؛ بحيث تهدم المجتمع على رؤوس هؤلاء، وتبني المجتمع الجديد مثلما فعلت كوبا، ومثلما فعلت روسيا القيصرية، فكان نداء الشيوعية: "يا عمَّال العالم اتحدوا"، وقد تمَّت هذه المحاولة على أيدي "الاتحاد السوفيتي"، فدعا العالم إلى الثورة، وإلى تشكيل اتحاد عمَّالٍ ضخمٍ يسيطر على العالم، ولكنَّ النظرية انهارت ولم تنجح، لتعود روسيا نفسها اليوم إلى نظامها القديم كدولةٍ رأسماليةٍ!

نظرية النخبة في أمريكا الجنوبية:

بدأت هذه النظرية بدعوةٍ ثوريةٍ كبرى على المركز الذي يستغلُّ الأرياف، وهذه الدعوى أدَّت إلى قيام مجموعاتٍ عسكريةٍ توزَّعت في الغابات، وتمثَّلت بثوَّارٍ كبارٍ من أمثال "تشي جيفارا" وغيره من المقاتلين الشرسين، إلا أن النظريات تتطوَّر ولا تقف عند ذلك، فقد برزت إشكاليَّاتٌ على هذه النظرية؛ منها ما يقول: إننا حتى ولو غيَّرنا النخبة الموجودة داخل المدينة بنخبةٍ جديدةٍ، فإن هذه النخبة ستصاب بالأعراض ذاتها؛ لأنها تعيش في النظام الدولي الحالي نفسه، وستُبتلى بالمشاكل نفسها الموجودة عند النخبة السابقة، وإن تعديل الأوضاع لن يتمَّ بكيفية الثورة؛ لأن الثورات جُرِّبَت من قبلُ ولم تنتج إجاباتٍ لمعضلات التخلُّف الموجودة في هذه المجتمعات، فطرحوا حلَّاً مركَّباً لدول العالم الثالث يتجلَّى في عدة إجراءاتٍ:

- **أولاً- تقليص الاستغلال بالتفاوض:** فيتمُّ التفاوض بين النخب الواعية باحتياجات المجتمع، وبين النخب صانعة القرار في المدن بعيداً عن الحروب، في سبيل تقليص الاستغلال، وزيادة العائد على الأرياف.
- **ثانياً- إنشاء أسواقٍ ذاتيةٍ:** والعدول عن فكرة اعتبار أن السوق الدولية مع مراكز الاستعمار هي السوق المعتمدة، فإن دول العالم الثالث تستطيع أن تخلق بينها أسواقاً توفِّر لها قَدراً من العدالة وقدراً من العوائد تسمح لها بأن تطوِّر ذاتها وتطوِّر المجتمعات الموجودة.
- **ثالثاً- نبذ الحلول البدائية وتتبُّع الحلول المطروحة:** إن النخب في دول العالم الثالث بحاجةٍ إلى أن تدرك أن نظرية المؤامرة التاريخية الكبرى في مجالها العلمي وجدت تعديلاتٍ جوهريةً؛ سواء في الولايات المتحدة، أم في أمريكا الجنوبية، وهذه المجتمعات التي لا زالت تتحدَّث بالحلول القديمة؛ إما أنها لا تقرأ كثيراً، أو أنها لا تريد أن تتطوَّر، فتعيش في إطار الضحية باستمرارٍ!

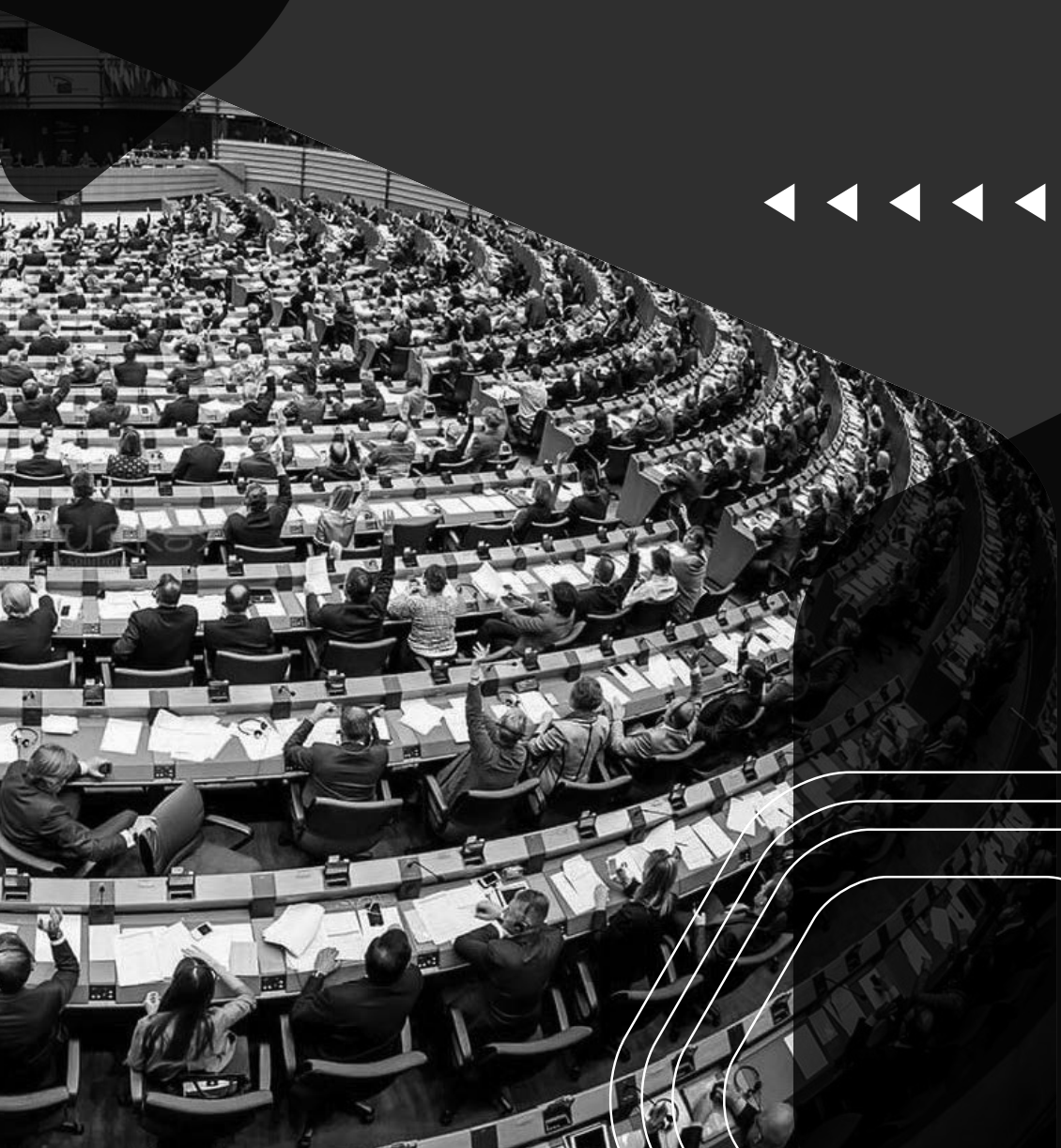


المسارات فيها واقعيةٌ جيدةٌ وأملٌ كبيرٌ؛ خاصَّةً مع تجربة الصين العملية في تعديل المسار الشيوعي إلى مسارٍ رأسماليٍّ شيوعيٍّ إلى حدٍّ ما، ومع تجربة الفيتنام وماليزيا..

إن جميع هذه التجارب قد دمجت بين منظَّماتٍ مختلفةٍ، وحصدت أملاً جيداً أكبر من أمل الصراع التاريخي السابق.

وعلينا بدورنا في بلادنا العربية أن ننتبه من كوننا لا نزال نغرِّد بلغة الستينات التي طرحها اليسار الغربي منذ زمنٍ، وطالتها التحديثات مع العصر الجديد، فلَربما اللغة التاريخية لا تزال هي السائدة في منطقتنا العربية، وهذه اللغة لا تستبطن النظرية بتطوُّراتها، إنما تعالج فترةً زمنيةً من مراحل تطوُّرها!

السياسة



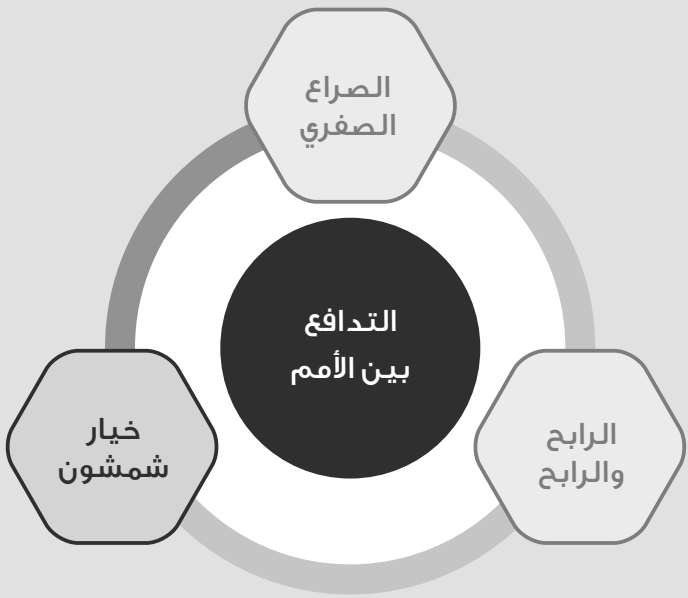
أولاً- السياسة والتدافع ومرتكزات القرار السياسي

كثيراً ما ترِد أسئلةٌ من أشخاصٍ من بلدانٍ مختلفةٍ عن إمكانية الفعل والتأثير في ظلِّ الظروف السياسية الحاصلة في بلادنا اليوم، لا سيما في سوريا وليبيا ومصر وغيرها من البلدان التي تحمل ظروفاً وأوضاعاً خاصَّةً، وهنا لا بدَّ لنا من مسطرةٍ نحاكم إليها القرارات والأفعال المتعلِّقة بالسياسة، ولا بدَّ من دراسة هذه المساحات المتعلقة بالتدافع والقرارات السياسية.

وسنمرُّ في رحلتنا التأسيسية على بعض المحطَّات التي نحتاج فيها إلى معلوماتٍ أساسيةٍ تزيد عمَّا نعرفه ونتداوله عادةً، وسنبدأ بأنواع الصراع وأنواع التدافع بين الأمم في العالم..

إن اتخاذ قرارات الحرب والسلم ليست بالقرارات اليسيرة، وللتدافع أو الصراع بين المتخاصمين ثلاث صورٍ أو أنواعٍ، نوجزها فيما يلي:

أنواع الصراعات السياسية في العالم



الصنف الأول: الصراع الصفري

وهو الصراع الذي يؤدِّي إما إلى الربح أو الخسارة دون خيارٍ ثالثٍ؛ فيحدث حينما يرى طرفٌ من الأطراف أن المعادلة بالنسبة له ليس لها حلولٌ عاقلةٌ، فيقرِّر إخضاع الطرف الآخر دون قيدٍ أو شرطٍ، فمثلاً: بريطانيا كان خيارها في الحرب العالمية الثانية مقابل هتلر صفريًّاً، فهتلر ليس من النوع الذي يمكن التفاهم معه أو مهادنته، فهو يريد أن يحتلَّ المنطقة دون خيارٍ آخر، وكذلك الصراع الصهيوني الفلسطيني، فإسرائيل أرادته صراعاً صفريًّاً وتريد أن تحلَّه على المدى الطويل. فهناك صراعاتٌ لا تنتهي إلا بحلولٍ جذريةٍ، وهذا يسمَّى: صراعاً صفريًّاً.

الصنف الثاني: صراع الرابح والرابح "Win win"

في هذه الصراع يخرج كلُّ طرفٍ من أطراف المعادلة كاسباً لشيءٍ ما، وبالتالي بقدر رضاه عن الجزء الذي أخذه يستمرُّ السلام لسنواتٍ طويلةٍ لاحقاً، فالأمريكان مثلاً بعد انتهاء الحرب، حاولوا أن يعطوا بعض المكاسب للدول التي يحتاجونها من أجل توازن المعادلة الدولية، وخاصَّةً ألمانيا، واليابان، ولم يُحوِّلوا الصراع معهم إلى صراعٍ صفريٍّ كصراعهم مع العراق.

وإن النظام الدولي المعاصر في شكله الخارجي انبنى على فكرة أن الفاعل السياسي هو فاعلٌ رشيدٌ وعاقلٌ، ولديه مصالح يحترمها، وبالتالي يمكن الكلام حول مصالحه ومصالح الآخرين، فتدور النقاشات بين القوى الدولية المختلفة كلٌّ بحسب وزنه، فيأخذ كلٌّ حصَّته من السوق العالمية بما يكفل له القدر الأدنى من احتياجاته في الدولة.

الصنف الثالث: خيار شمشون

تدخل بعض الجهات اللعبة السياسية بقناعة إما أن تربح هي، وإما أن لا يربح أحدٌ، فيحدث دمارٌ شاملٌ بين جميع الأطراف، ولا يربح من العملية أحدٌ، وهذا ما يسمُّونه: خيار شمشون (عليَّ وعلى أعدائي)، وهذا يحدث فيما يسمَّى: حركات النضال الوطني بشكلٍ كبيرٍ، وبين الأطراف المتعدِّدة حينما يتقاتل أناس الغابات في جهةٍ والحكومة في جهةٍ أخرى، وتأتي التكلفة البشرية عاليةً.. فحينها تستمرُّ الحروب وتستنزف المجتمعات لمدىً زمنيٍّ طويلٍ، ثم لتعود بعد عملية التفاوض من جديدٍ بإيجاد حلٍّ وسطٍ وإقامة حكوماتٍ توافقيةٍ بين الموجودين. وهذا

كما حدث في سوريا، فكانت جميع الخيارات متاحةً بالنسبة للنظام السوري مقابل أن لا تحصل المعارضة على ما تريد.

فالخيارات متنوِّعةٌ إزاء الصراعات السياسية في العالم، ونحن بدورنا علينا أن نعي الخيارات جيداً، وأن ندرك أنواع هذه الصراعات وفي أيِّ اتجاهٍ ستسير.

تعريف السياسة

إن تعريف السياسة أمرٌ في غاية الأهمية، إلا أننا نجد في كتب علم السياسة اختلافاتٍ كثيرةً حول تعريف السياسة، ولنعرف إلى ماذا تؤول إليه هذه التعريفات نسوق بعضاً منها:

- هناك مَن يعرِّف السياسة بأنها "فنُّ إدارة الدولة".

- وهناك مَن يقول: إن السياسة "فنُّ توزيع القوة بين الأطراف المختلفة". وإنَّ كلا التعريفين يُفضِي أحدهما إلى الآخر؛ فالدولة في نهاية المطاف عبارةٌ عن السلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية، وكل طرفٍ منها بحسب الدستور لديه صلاحياتٌ محدَّدةٌ، وبالتالي قادرٌ على أن يوقِف الطرف المتغوِّل إن تجاوز حدَّه، وقد تتواجد السلطة الرابعة المتمثِّلة بالإعلام وبحريته، والسلطة الخامسة المتمثِّلة بالمجتمع المدني.. وإن توزيع القوة بين هذه الأطراف المختلفة هو فنُّ إدارة الدولة؛ حيث تُحدَّد صلاحيات وسلطات الجهاز التشريعي والجهاز التنفيذي، وبالتالي تُحدَّد سلطات الجيش والقضاء الممنوحة لهم، وحدود قوتهم ومَن يستطع أن يوقف قوةً ما إذا طغت على القوانين العامَّة؛ أي بعبارةٍ أخرى: هل هناك توازنٌ بين الأطراف ونظام مراقبةٍ بينيةٍ، أم أن هناك اختلالاتٍ لصالح جهةٍ معيَّنةٍ تؤدي لأن يقف النظام على قدمٍ واحدةٍ وإن كان قد يبدو في شكله الخارجي متوازناً؟ فإن الدول الناجحة توزِّع هذه القوة بطرقٍ أكثر فاعليةً وكفاءةً لإنتاج ثلاثية الوجود والاستقرار والتنمية؛ بحيث يأخذ كل طرفٍ من الأطراف حصَّته من القوة، ويكون نداً لبقية الأطراف الموجودة في المعادلة السياسية، بينما الدول الأكثر فشلاً تفشل في توزيع السلطات، فقد تتركَّز السلطة في يد شخصٍ واحدٍ، وبالتالي يختلُّ التوازن داخل السلطات وتتعرَّض لانتكاساتٍ كبيرةٍ جدًّا.

- هناك مَن يعرِّف السياسة بأنها "فنُّ التفاوض"، والتفاوض يتمُّ على أوراق القوة لدى كل طرفٍ؛ سواءٌ كانت أطرافاً داخلية، أو أطرافاً أخرى، والتنازلات تتمُّ عادةً بين الأطراف بحسب

وزن القوة الموجودة لديهم، وتنخفض القدرة على التفاوض كلما قلَّت أوراق القوة.

- هناك مَن يعرِّف السياسة بأنها "فنُّ التنازلات"، وهذا يقودنا إلى النقطة السابقة ذاتها؛ بحيث إن الأوراق الضعيفة يمكن أن تُسلَّم وبسهولةٍ، في حين يُحتفظ بالأوراق القوية، وكلما استطاع طرفٌ ما أن يحتفظ بأوراق القوة عنده، كان لاعباً سياسيًّاً أكثر كفاءةً في اللعبة المحلية أو الدولية.

- والبعض يعرِّف السياسة بكونها "فنَّ حيازة القوة والمحافظة عليها وحسن استخدامها"..

وإننا لو نظرنا داخل جميع المفاهيم المضمَّنة بالتعريفات، سنجد فكرة القوة حاضرةً فيها، فالسياسة شيءٌ متعلِّقٌ بالقوة، ولنمسك الموضوع من أطرافه، فإننا نحتاج إلى أن نعرِّف القوة.

ليس المقصود بالقوة هنا نظام الغابة، إنما هي القدرة على التأثير؛ أي: قدرتنا على تحريك الآخر في اتجاه الطرف الذي نريده، فكيف يُستَحوَذ على القوة، وكيف يُحافَظ عليها، وكيف توزَّع بين الأطراف الموجودين داخل الدولة وخارجها.. هي من مباحث السياسة الهامَّة.

فاليوم على سبيل المثال هناك صراعٌ ضخمٌ جدًّاً في اليمن يدور بين المجموعة الحاكمة في صنعاء وبين ما يسمَّى: "الشرعية" في محاولة فرض الإرادة من الطرفين بعضهم على بعضٍ، وإن عدم القدرة على حسم النزاع لصالح أحد الطرفين بطريقةٍ واضحةٍ، جعل الصراع يطول لمدىً زمنيٍّ طويلٍ جدًّاً، فتستمرُّ عملية الاشتباكات والاستنزاف بين القوى الموجودة، فإذا رجحت كفَّة أحد الطرفين واستطاع أن يفرض إرادته على الطرف الآخر، فهذا يعني امتلاكه للقوة.

ومن القوة السياسية مثلاً: أن يكون لدينا القدرة للتأثير على الصهاينة؛ بأن يتزحزح موقفهم تجاه حلٍّ عادلٍ للقضية الفلسطينية، فهذه إذا وُجدت، نسمِّيها: قوةً سياسيةً، فعلوُّ كفة أحد الطرفين واستطاعته أن يفرض إرادته على الطرف الآخر، فهذا يعني امتلاكه للقوة.

عناصر القوة:

لمزيدٍ من التعرُّف على القوة جديرٌ بنا أن نتعرَّف على أدواتها، فللقوة ثلاث أدواتٍ تتفرَّع عنها جميع أشكال القوة، وهي:



1. المنطق وأدواته:

وهي قوةٌ أساسيةٌ وفاعلةٌ ذات تكلفةٍ قليلةٍ، فإذا ما استطاع طرفٌ من الأطراف إقناع أناسٍ معيَّنين بصوابية حجته ورأيه، وصلاحية الموضوع الذي يطرحه عليهم، فحينها تكون استجابتهم تلقائيةً وطويلة الأمد، وبالتالي تكون التكلفة قليلةً والعائد كبيراً، وإن أدوات الإقناع التي تستخدمها الدول تتمثَّل بالإعلام، وبالمفاوضات السرية والعلنية، والدبلوماسية المباشرة وغير المباشرة.. فإن جميع هذه الأدوات هي أدوات إقناعٍ لطرفٍ من المعادلة السياسية برأيٍ من الآراء الموجودة.

2. المال:

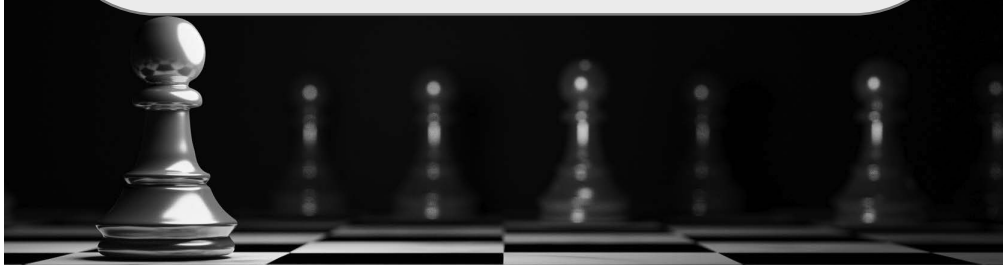
في حال عدم فاعلية أداة الإقناع، ربما يتمُّ اللجوء إلى أداة المال، وأداة المال قد تأخذ أشكالاً متنوعةً ومتعدِّدةً مع الدول التي يراد التفاوض معها، فمنها مثلاً: السماح للشركات بأن تعمل في هذه الدولة، أو السماح للدولة بأن تبيع بضائعها للخارج، أو السماح لها بأن تطوِّر قطاعاتٍ معينةً بطريقةٍ ما حتى تستطيع أن تبيع بضائعها، أو تقديم حِزَم الدعم والمساعدات والمِنَح التي تأتي من الدول المانحة، أو السماح لصندوق النقد الدولي بإقراضها، أو السماح لمؤسساتٍ ودولٍ أخرى بأن تتعاون معها.. فهناك طرقٌ عدَّةٌ لاستخدام المال في العطاء، وإن هذه الطرق ذاتها يمكن أن تُستخدَم في المنع والحجب من خلال العقوبات؛ فقد يمنع البنك الدولي من إعطاء سلفةٍ لدولةٍ ما، وقد تُمنَع الشركات من دخولها، وقد يُمنَع تداول العملة لهذه الدولة ويُضيَّق على وارداتها وصادراتها، وقد لا يُسمح لها بدخول قطاعاتٍ معيَّنةٍ من خلال حجب تكنولوجيا معينةٍ عنها، وهناك كثيرٌ من الطرق الأخرى التي يسمُّونها: حِزَم الضغط، وإن هذه الحزم متدرِّجة، فكلما صعدنا في الحزم، زاد الضغط على الدولة، وهو ما يسمَّى بالكمَّاشة الاقتصادية.

3. القوة الصلبة:

مع أن القوة الصلبة هي أقوى الأدوات، إلا أنها آخر الأدوات استخداماً؛ لأنه لا يبقى بعدها غير نزيف الدماء، وإن استفتاح الحروب هو أمرٌ ممكنٌ، ولكنَّ إغلاقها صعبٌ جدًّاً، وهذا مثاله ما حدث في الفيتنام، وما حدث في العراق وسوريا واليمن.. فالإقدام على خطوة الانتقال من عملية الضغط الاقتصادي أو الضغط المعنوي والإقناعي إلى مسألة استخدام السلاح، يمرُّ بدرجاتٍ كثيرةٍ، من ضمنها التهديد باستخدام السلاح والمناورات والعمليَّات الجزئية.. إلى أن تصل إلى الاشتباك الشامل الكامل الذي لا يرغب أحدٌ من الأطراف بالوصول إليه نظراً لتكلفته الكارثية على كافَّة الأصعدة..

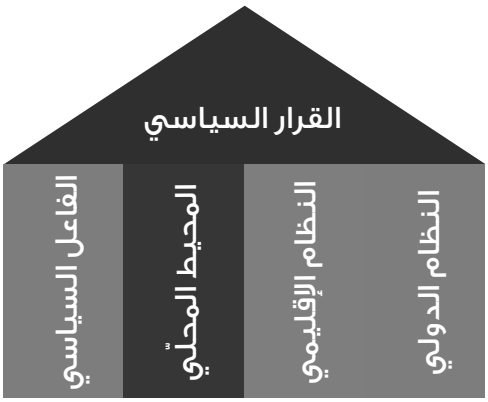
فمثلاً: إذا أخذنا عمليات التفاوض مع إيران، نجد أنها بدأت بحزمٍ اقتصاديةٍ، منها تشجيعيةٌ ومنها عقابيةٌ، وحينما لم تنفع معها هذه الطرق، بدأت حزمةٌ أخرى بتصريحات الغرب بأن إيران لن ينفع معها إلا العنف، ثم تمَّ التصعيد بالقيام بتدريباتٍ على أهدافٍ إيرانيةٍ، ومع عدم استجابة إيران دخلت المفاوضات مرحلةً ثالثةً، فبدأت عمليات تحريك أساطيل وقطعٍ عسكريةٍ في الخليج العربي تلميحاً لحربٍ عسكريةٍ، وحينها ردَّت إيران بعملياتٍ بحريةٍ صغيرةٍ تستعرض من خلالها قدرتها على تدمير الأساطيل التي تتحرَّك في الخليج.. وهذه الحزم كلها لم تصل إلى خيار القوة الصلبة (الحرب)، إنما هي رسائل للتفاوض، لتبقى الحرب آخر خطوةٍ يلجأ لها الأطراف.

عادةً ما يكون في كل مستوى من مستويات التفاوض درجاتٌ للتطبيق، وإن جميع الدول تمتلك درجةً من درجات هذه القوة، وتكمن المهارة الحقيقية بفعل صانع القرار في الدولة حينما يستخدم هذه الأدوات بالتناوب أو بالتدرُّج أو بالجمع.. وفقاً للظرف والموقف



القرار السياسي ومرتكزاته (نظرية الطاولة السياسية)

سننتقل إلى موضوعٍ في غاية الأهمية، سنسمِّيه: "الطاولة السياسية"، والمقصد من ذلك المصطلح أن أيَّ طرفٍ سياسيٍّ داخل الدولة (حزب أو حكومة..)، يريد أن يتخذ قراراتٍ معيَّنةً، عليه أن يراعي الأرجل الأربعة للطاولة السياسية، وهذه الأرجل هي:



1. **القوة الداخلية لصاحب القرار:** وتمثِّل الحقيقةَ الذاتية لصاحب القرار كحزبٍ أو تيَّارٍ أو قوةٍ، فإن أيَّ طرفٍ سياسيٍّ قبل أن يطرح قراراً ما، عليه أن يدرك وزنه، وكم يمتلك من أدوات القوة التي تحدَّثنا عنها: (إقناع، ومال، وقوة صلبة)، فإن هذه الرِّجلَ الأساسية التي يحتاج صاحب القرار إلى أن يطمئنَّ إلى ثباتها عند اتخاذ القرارات.

2. **الوضع المحلي:** المتمثِّل بجموع المواطنين الموجودين ببيئة صانع القرار؛ سواء كانوا قوةً تجاريةً، أو عسكريةً، أو أمنيةً، أو اقتصاديةً.. فعلى الطرف السياسي المُقْدِم على قرارٍ ما، أن ينظر إلى أيِّ درجةٍ سيسانده الشعب في قراره، ومدى قدرته واستعداده على الصمود.

3. **الوضع الإقليمي:** من الضروري معرفة ردود أفعال الدول المحيطة للقرار الذي سيُتَّخَذ، وموقف تلك الدول تجاهه: فهل ستؤيِّده أم ترفضه؟ وإن كان سيؤثِّر ذلك على مصالحها سلباً أم إيجاباً.

4. **الوضع العالمي:** إن جميع الدول لا تسبح في فراغاتٍ؛ بل تسبح في نظامٍ عالميٍّ، والنظام العالمي له من القوة ومن الأتباع ومن السيطرة والعلاقات ما يسمح له أن يُفسِد أيَّ طبخةٍ سياسيةٍ! **وبالتالي:** فإن صانع القرار السياسي الحكيم، عندما يقرِّر أن يضع قراراً سياسيًّاً على الطاولة السياسية، عليه أن ينظر إلى هذه الأرجل الأربعة، وإلى أيِّ مدىً ستصمد وتتحمَّل نتيجة هذا القرار، فعلى سبيل المثال: إن اتخاذ قرار حربٍ خارجيةٍ في دولةٍ مرهقةٍ

بحربٍ داخليةٍ طويلةٍ، لن يَلقى تشجيعاً أو دعماً من المجتمع المنهك، فالمجتمع المحلي لن يساند هذه الحرب، وكذلك المجتمع الإقليمي والعالمي، وحينها سيقع العبء كله على الفاعل السياسي الذي اتخذ القرار، وبالتالي مهما كانت قوته، فلن يستطيع أن يتحمَّل وحده عبء ثلاثة أرجلٍ ناقصةٍ في المعادلة، فإن وظيفة اللاعب السياسي عند اتخاذ القرارات السياسية أن يوفِّر أكبر قدرٍ من القوة التي تحقِّق استقرار الطاولة السياسية، وإنه لن يوجد طرفٌ قادرٌ على امتلاك العناصر كافَّةً، ولكن كلما استطاع أن يزن الموضوع ويراه في ضوء الأرجل الأربعة، سيكون قادراً عندها أن يقدِّر درجة نجاح القرار الذي سيتخذه، ومدى قدرته على اتخاذه..

العلاقات النوعية ورعايتها

إن مسيرة أيِّ حزبٍ أو جهةٍ أو مجموعةٍ.. تريد أن تسير باتجاه تكوين كتلةٍ سياسيةٍ، عليها أن تبدأ أولاً بالعلاقات النوعية؛ سواء على صعيدٍ محليٍّ، أو أقليميٍّ، أو دوليٍّ، وإن هذه العلاقات النوعية تُبنى على مدىً زمنيٍّ طويلٍ؛ فإذا كنَّا نريد الإعلام، فسنبني معه علاقاتٍ على مدىً طويلٍ، وإن كنَّا نريد نخباً علميةً معرفيةً أيضاً، سنبني علاقاتٍ طويلةً، وكذلك هو الحال مع نخب الأحزاب السياسية.. إن رعاية هذه العلاقات قبل أن نبدأ العمل السياسيَّ، ستسمح بأن نخطو خطوةً ثانيةً لاحقةً نستثمرها حينما نحتاجها، فمثلاً: في إحدى الدول تمَّ اختيار مجموعةٍ من الشباب النابغين، وتمَّ إرسالهم إلى أفضل الجامعات في أمريكا، فأثبتوا تفوُّقهم، والتقوا بالنخب الأمريكية داخل الجامعة التي لديها شركات البترول والقطاعات الاقتصادية والأحزاب، وحينما عادوا إلى بلادهم وشغلوا مناصب عُليا، واحتاجوا إلى معونةٍ من الدول الأخرى، كان بإمكانهم التواصل بشكلٍ مباشرٍ مع هذه النخب. فهذه مفاتيح أساسيةٌ في العالم، والداخلون في السياسية يهتمُّون بها بشكلٍ كبيرٍ؛ لكونها أولاً مصدراً للمعلومات، فمن خلال هذه العلاقات تستطيع معرفة الأصدقاء والأعداء، وثانياً هذه العلاقات هي مصدر دعمٍ قويٍّ؛ سواءٌ في فترات الرخاء، أو الشدة؛ فيُستفاد منها كونها جسر اتصالٍ مع القوة التي تعترضنا وتهدِّد مصالحنا، فتعمل على التخفيف والتجسير مع مراكز القرار القادم من القوة المهدِّدة. وإن إهمال بعض الدول والكتل لهذا الإسناد هو دلالة ضعفٍ سياسيٍّ، والذي يريد ويعي أهمية إسنادٍ كهذا، عليه أن يصنعه صناعةً، لا أن ينتظره ليتشكَّل.

نحو الهدف



أولاً- الاعتراف:

إن أول قضيةٍ أساسيةٍ للفاعل السياسي من أجل الوصول إلى هدفه، الاعتراف بالواقع وعدم المكابرة عليه وتجميله، وهذا يساعد على المضيِّ قُدُماً نحو الخطوة الثانية، وهي تعريف المشكلة الحالية.

ثانياً- التعريف:

وتعني هذه المرحلة تعريف المشكلة الحالية، أو الوضع الذي نعيشه، مضافاً إليه الخبرة التي اكتسبناها من أوضاعٍ سابقةٍ.

ثالثاً- المرحلية والرؤية:

الفاعل السياسي لديه باستمرارٍ أحلامٌ كبيرةٌ ورؤىً حالمةٌ (الحرية، الكرامة، الوطن..)، وللوصول إلى هذه الرؤى، نحتاج إلى تدرُّجٍ واضحٍ، فعلينا أن ندرك مسألة المرحلية؛ فنعي أن المرحلة التي نحن فيها، ستقود إلى مرحلةٍ ثانيةٍ وثالثةٍ.. وقد تتمثَّل المرحلة الأولى بتأسيس

تحالفٍ وطنيٍّ جديدٍ، أو تكون بالعودة خطوةً إلى الوراء لتأسيس ثقافةٍ تسمح لنا بإنشاء مشروعٍ وطنيٍّ، فالتراجع للخلف لا يعني عدم الاستعداد للقفز نحو الإمام.

رابعاً- تدبيب السهم:

علينا تدبيب الهدف، أي: أن نركِّز بدقَّةٍ كيف سننجز الهدف القادم؛ فلو كان هدفنا مثلاً نشر ثقافة الوحدة الوطنية والتغلُّب على الأفكار القاتلة والانقسامية الموجودة في المجتمع، فعلينا أن نوجِّه السهم تجاه هذه الحالة التي أدَّت بالمجتمع إلى الانكسار والهزائم، فإن كانت المفاهيم الدينية المغلوطة أو المفاهيم القومية والعلمانية هي التي أوصلت المجتمع إلى الهزائم، فنحن بحاجةٍ إلى أن نغيِّرها ونوجِّه السهم صوبها.

خامساً- التقدُّم والتراجع:

في الفعل السياسي التقدُّم والتراجع مرهونان بكمية المصالح التي ستتحقَّق لنا؛ فقد نحمي بالتراجع مقدَّراتٍ إستراتيجيةً لفترةٍ زمنيةٍ حتى نتمكَّن من أن نعيد الكرَّة في التقدُّم مرَّةً ثانيةً، فمثلاً: انسحاب المسلمين من مؤتة، لم يكن تراجعاً صفريًّا، إنما كان تراجعاً لإحداث تقدُّمٍ في جبهةٍ ثانيةٍ من مرحلةٍ لاحقةٍ في الصراع الموجود.

الخلاصة

إذا فهمنا هذه المعادلات البسيطة في السياسة؛ من تمييز الصراع إن كان "صفريًّاً"، أو "رابح رابح"، أو "صراع شمشون"، فعلى الأقل سندرك أنواع الصراعات وإلى أين ستتَّجه..

وإذا عرفنا أن السياسة هي القوة، وأن أدوات القوة هي المال والمنطق والقوة الصلبة، سيكون لدينا أشياء واضحة نستطيع أن نقيس بها بشكلٍ واقعيٍّ وجدّيٍّ مدى القدرة على الاشتراك في العمل السياسي..

في القرار السياسي: إذا ما أدركنا أهمية توازن القرار على الأرجل الأربعة للطاولة السياسية؛ سندرك مدى قدرة الفاعل السياسي على حمل القرار الذي اتخذه..

إن إدراكنا لمعنى العلاقات النوعية على صعيدٍ محليٍّ أو أقليميٍّ أو دوليٍّ؛ سيجعلنا نعي أهميَّتها كصمَّام أمانٍ للحصول على المعلومات، أو إفساد المخطَّطات الموجودة في الخارج، وتذليل العقبات.. ممَّا يجعلنا نحرص على أن نبنيها مبكراً في الفعل السياسي.

وأخيراً؛ من الضروري أن ندرك أنه لتحقيق الهدف في الفعل السياسي، علينا الاعتراف بالمرحلة التي نمرُّ بها، والتعرُّف عليها، وتوصيفها، وأن نعي المرحلة التي نعيشها، والمراحل التي سنحقِّقها باتجاه الهدف، وتدبيب السهم نحو الهدف الذي سنحقِّقه في هذه المرحلة، وأن التقدُّم والتراجع ليس عيباً في السياسة، فإذا أدركنا هذه الأمور الأساسية، فهذا يعني أنه لدينا المفاتيح الأولى لتقويم أيِّ عملٍ سياسيٍّ، والقدرة لتقديم المشورة في ذلك.



ثانياً- الإستراتيجية (الغموض والجمال)

سأتحدث في الفقرات القادمة عن فكرة الإستراتيجية.. وهي مفهومٌ هامٌّ جدَّاً، لا سيما في مجالَي السياسة والإدارة.. فالسياسة في كثيرٍ من مساراتها تتعلَّق بالإستراتيجيَّات، وفنُّ السياسة لا يقوم دون فهم معنى الإستراتيجية وأبعادها وطرق إسقاطها على أرض الواقع..

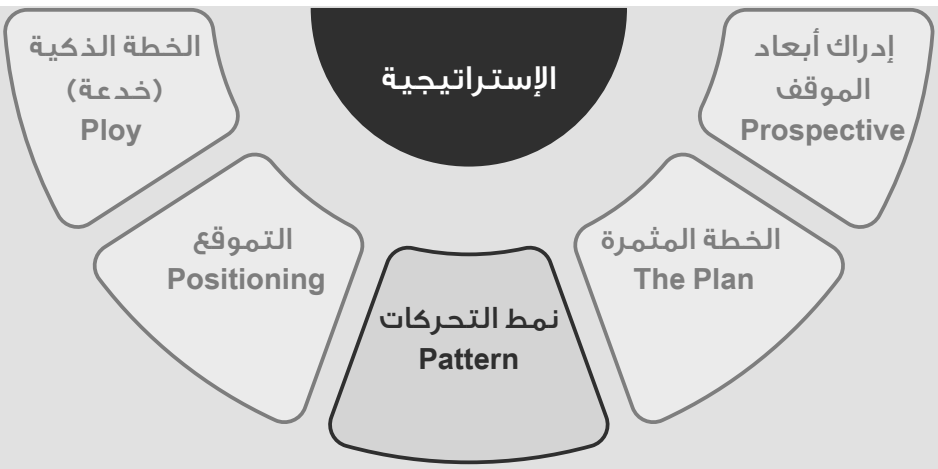
وإن كلمة "الإستراتيجية" كما أنها تدخل في الكلام الكبير الذي يقال على مستوى الدول والشركات الكبرى، فإنها تدخل أيضاً في المسائل الصغيرة..

وإنها وبقدر ما تبدو واضحةً وشائعةً، بقدر ما يكتنفها الغموض، فهي من أصعب القضايا في تعريفها، حتى إن بعض الناس يرى استحالة تعريفها!

فمتى تحضر هذه الكلمة؟ ومتى نستخدمها على وجه التحديد؟ وهل أيُّ شخصٍ يضع خطَّةً يصبح لديه إستراتيجية؟ أو هل أيُّ شخصٍ لديه فكرةٌ جيدةٌ يكون لديه إستراتيجية؟

تعريف الإستراتيجية

تعدَّدت تعريفات الإستراتيجية، وحاول العالم أنسوف (Harry Igor Ansoff) أن يحيط بمعنى الإستراتيجية، فوجد أن التعريفات التي وُضعت لها تؤدِّي إلى خمسة معانٍ أساسيةٍ، في كل تعريفٍ من التعريفات، نجد كلمةً مفتاحيةً نستخدمها في فتح مفهوم الإستراتيجية لندخل به في موضوع السياسة والعلاقات التي نتكلَّم عنها.. وهي:



1. إدراك أبعاد الموقف "Prospective":

أول
ما تُعرّف به
الاستراتيجية وجود
نظرة بانورامية علمية
لكافة الأبعاد المحتملة، فكلما
كان صاحب القرار أكثر دراسة
للأبعاد كلما سَهُلَ عليه
اتخاذ القرار
الأكثر رشداً

إن أول ما تُعرَّف به الإستراتيجية ما يسمَّى: "Prospective"، أي: المنظور، أو رؤية أبعاد الموقف، فالإستراتيجية في جوهرها رؤية أبعاد الموقف، فإذا ما أدركنا الأبعاد السياسية والاقتصادية والجغرافية والقانونية والمناخية.. لموقفٍ ما بشكلٍ جيدٍ، نكون قد أمسكنا الإستراتيجية، وعندما يقول شخصٌ ما: "لم نكن نعلم"، أو "لم نكن نتوقع.."، فهذا يعني بالضبط أنه لم يكن يرى الأبعاد جيداً، فالقرار السياسي على سبيل المثال إذا لم تُرَ أبعاده السياسية كاملةً، فهذا يشكِّل مشكلةً حقيقيةً.. فالموضوع ليس فقط من يمتلك سلاحاً أكثر من الآخرين؛ بل المسألة لها أبعادٌ اقتصاديةٌ واجتماعيةٌ، وإذا ما طال أمدها، ستنعكس سلباً على خطط التنمية والتقدُّم والأمن، وعلى جميع نواحي الحياة داخل المجتمع، وإن معرفة هذه الأبعاد بدقَّةٍ وعمقٍ، يتطلَّب مصادر خاصَّةً للمعرفة، ولا تكفي المصادر العامَّة في ذلك، وهذا ما يجعل للدول استخباراتها الخاصة، وأجهزتها الأمنية، والجواسيس، كل ذلك سعياً للحصول على معلوماتٍ حقيقيةٍ عن مدى استعدادات الأطراف الأخرى وخططهم الموجودة. فهي لا تخمِّن كما نخمِّن نحن، وإن كان لها تخميناتٌ بنسبةٍ معيَّنةٍ، فهي تخميناتٌ علميةٌ مبنيةٌ على معلوماتٍ حقيقيةٍ.

2. الخطة المثمرة The Plan:

إن وضع الخطة سعياً للوصول إلى الهدف يسمَّى عادةً: إستراتيجية، وهي خطوةٌ ثانيةٌ بعد رؤية الأبعاد، والخطة تعني أن هناك تحرُّكاتٍ معيَّنةً ستجري بنسقٍ معيَّنٍ، وبترتيبٍ معيَّنٍ، وبأطرافٍ معيَّنين، وهذا التحرُّك بعد أن يُكتب على الأوراق يسمَّى: خطَّةً، فيقال: إن هذه الشركة لديها خطةٌ، أو إن هذا الجيش لديه خطة، إلا أن الإستراتيجية لا تعني وجود خطةٍ

فحسب؛ بل الإستراتيجية هي "ثمرة الخطة"، فمن أجل التخطيط الإستراتيجي في مجال التنافس العسكري يُخطَّط لما هو أفضل نوعٍ من السلاح، ولما هو أفضل نوعٍ من العلاقات التي تمكِّننا من التفوُّق على الأطراف الأخرى، ولأفضل موقعٍ نتَّخذه إعلاميًّاً وسياسيًّاً واقتصاديًّاً وعسكريًّاً، فلا يكفي أن يكون لدينا مذكرةٌ فيها مجموعةٌ من الخطط إذا كانت لا تحقِّق لنا الثمرة المطلوبة.

3. نمط التحرُّكات Pattern:

هناك مَن يرى أن الإستراتيجية نمطُ تحرُّكاتٍ نستطيع أن ندرسها من الخارج، فإننا في أحيانٍ كثيرةٍ لا نتوصَّل إلى إستراتيجية جهاتٍ معيَّنةٍ، ولكننا قادرون على قراءتها من الخارج؛ فنحن لم نرَ إستراتيجية إسرائيل، ولم نطَّلع على الوثائق التي وضعوها، ولكن يمكننا تخمينها، فبالنظر إلى أيِّ دولةٍ من الدول، يمكننا معرفة وزن إستراتيجيَّتها الحقيقي، فاليوم العالم الغربي يخاف من تقدُّم الصين على الرغم من أنه لم يطَّلع على الخطط التي وضعتها.. ولكنَّ نمط تحرُّكات الصين في محاولات التمركز في التقنية والتكنولوجيا والعسكرية والتموقع الاقتصادي العالمي، يقول: إنه في نهاية المطاف، وإذا استمرَّ النموُّ التصاعدي للصين، فستصل إلى منطقةٍ يصعب فيها التغلُّب عليها، وستصبح منافستها أمراً مستحيلاً.. وكذلك بالنظر إلى إسرائيل، فإن مجمل التحرُّكات التي تقوم بها، ستنتهي إلى ابتلاع فلسطين كاملةً، وإخراج أهلها منها.. فيمكن دراسة اتجاه المسار الكلي عبر ما يسمَّى: نمط التحرُّكات، والتفريق بين الإستراتيجية الناجحة والإستراتيجية الفاشلة.

4. التموقع Positioning:

وليس المقصود بالتموقع التمركز في موقعٍ إستراتيجيٍّ معيَّنٍ من أرضٍ معيَّنةٍ، فلربما هو تفوُّقٌ أخلاقيٌّ، فيكسب الرأي العام العالمي في الجانب الأخلاقي من القضية التي يحملها أحد الأطراف، كما يمكن أن يكون لديه تفوُّقٌ اقتصاديٌّ في مجالاتٍ معيَّنةٍ يسمح له أن يضغط على أطرافٍ ويحيِّد أطرافاً أخرى، ويمكن أن يكون تموقعه جيداً من ناحية التحالفات المفيدة التي يمكن لها أن تقف معه في الأزمات، في حين قد يكون

الطرف المقابل داخلاً في تحالفاتٍ ستتخلَّى عنه أثناء الأزمات.

فمفهوم التموقع هو مفهومٌ أساسيٌّ في الإستراتيجية، فالبعض ينظر إلى الإستراتيجية باعتبارها ثمرة التمركز الجيد داخل ساحة الفعل الذي حقَّق لنا ميزةً على الأطراف الأخرى.

صانع الإستراتيجية هو باحثٌ باستمرارٍ عن التموقعات المادية والمعنوية التي تسمح له بالتفوُّق على خصمه

5. الخطة الذكية (خدعة) "Ploy":

البعض يرى أن الإستراتيجة عبارةٌ عن خطَّةٍ ذكيةٍ (خدعة)، ومفاد مصطلح الخطة الذكية يأتي من كون اللاعب السياسي قد لا يمتلك دائماً جميع أوراق القوة، فيجب أن يكون لديه درجةٌ من الذكاء تسمح له بأن يصنع بأوراقه المتوفرة لديه مهما صَغُرَت نتائجَ كبيرةً، ويوهم الأطراف الأخرى بقوته، وينتزع منهم ما لا ينتزعه بأشكالٍ أخرى من الصراع.. وأذكر هنا مثالاً "خالد بن الوليد" في معركة مؤتة حينما كان جيش المسلمين صغيراً جدَّاً حوالي ثلاثة آلاف مقاتلٍ أمام جيش الروم الذي كان تعداده ما بين ستين إلى مئةٍ وعشرين ألف مقاتلٍ، فلم يكن أمام جيش المسلمين إلا الخسارة، حتى إن إمكانية الانسحاب كانت مستحيلةً، فحينها وضع خالد خطةً عبارة عن خدعةٍ كبيرةٍ، وسار وفق نمط تحرُّكاتٍ يوحي للآخر برسائل مغلوطةٍ؛ بحيث لا يتجرَّأ الطرف الآخر على التقدُّم، فبدَّل ملابس الجنود المتواجدين في مقدمة الجيش، وبدَّل أماكن أفراد الجيش، حتى يوحي للعدو تجدُّد الجيش وكثرته، وبدَّل الرايات إلى راياتٍ جديدةٍ، ووضع قواتٍ عسكريةً في المؤخرة تثير الغبار بشكلٍ كبيرٍ، ليوحي أن هناك دعماً قادماً.. وحينما استيقظ الطرف الآخر، وجد أمامه جيشاً جديداً ورايات جديدةً، وظنُّوا بوجود مددٍ كبيرٍ لجيش المسلمين، وحينما انسحب جيش المسلمين، ظنَّ جيش الروم أنها خدعةٌ، وأن المسلمين ينصبون لهم كميناً، فلم يلحقوا بهم.. وخرج خالدٌ بقوَّاته سالماً.

الخلاصة

إن الإستراتيجية في تعريفاتها غامضةٌ إلى حدٍّ ما، وإن كل تعريفٍ يعطينا خيطاً معيَّناً لها، وما يربط هذه الخيوط بعضها ببعضٍ تصوُّرٌ عامٌّ، يبدأ من النظرة الشاملة، أي: من إدراك أبعاد الموقف الذي نواجهه، ثم بوضع خطَّةٍ صالحةٍ ترفع صاحبها إلى وضعيةٍ تسمح له بالفوز بالتنافسية الموجودة، ومن المهمِّ أيضاً دراسة نمط التحرُّكات للأطراف الأخرى التي من خلالها نستطيع معرفة مدى نجاح الإستراتيجية من فشلها، وأن يتمَّ اتخاذ موقعٍ في ساحة الصراع يسمح بالنصر، وأن يكون لدينا حسن أداءٍ ودرجة ذكاءٍ يسمحان لنا بمفاجئة الخصم بخطةٍ أو خدعةٍ ذكيةٍ.. ويمثِّل هذا بمجمله فحوى قضية الإستراتيجية

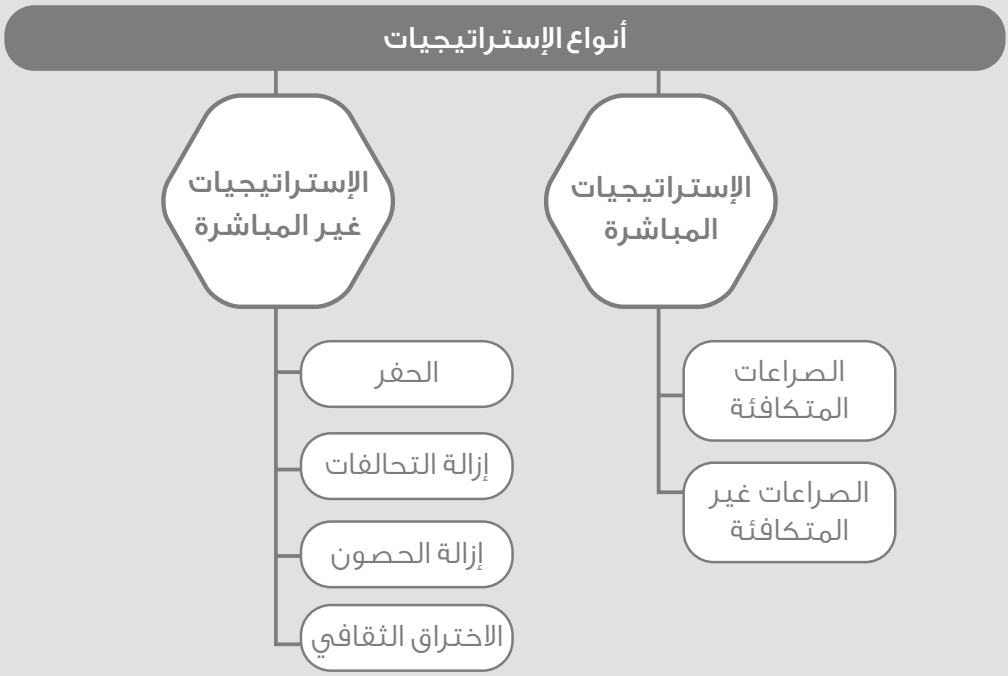
فمعرفة "روح الإستراتيجية" مهمَّةٌ جدًّا، أما الكلام عن الإستراتيجية المطلقة المتمثلة بالرؤية والرسالة والأهداف العامَّة والأهداف المحددة والسياسات والإجراءات.. فإن هذا كلَّه عبارةٌ عن الشكل الخارجي للموضوع، ومن الممكن لأيِّ محترفٍ في الإدارة أن يضع الشكل الخارجي، إنما من دون وجود إستراتيجيةٍ حقيقيةٍ، فالإستراتيجية الحقيقية يدلُّ عليها أمران كبيران؛ الأول: نمط التحرُّكات، والثاني: قوة التموقع الذي تخلقه هذه التحرُّكات، وإننا بمعرفتنا لمعنى الإستراتيجية، نستطيع أن ندرس بدرجةٍ كبيرةٍ مدى نجاح إستراتيجية كتلةٍ ما، دون أن نطَّلع على أوراقها السرية، أو على درجة نجاحها وفشلها كلاعبٍ سياسيٍّ في المنظومة الدولية، وهذا ينطبق على المنطومات مهما صغرت أو كبرت.

نمط التحرُّكات ← قوة التموقع الناتج عن التحرُّكات ← إستراتيجية حقيقية

أنواع الإستراتيجيَّات

ننتقل الآن للكلام عن أنواع الإستراتيجيات، وذلك لزيادة العمق في فهم الإستراتيجية ووضوحها.

إن أنواع الإستراتيجيَّات تقسَّم عادةً إلى نوعين؛ فإما أنها مباشرة، أو غير مباشرة..



الإستراتيجيَّات المباشرة:

تكون الإستراتيجيات مباشرةً في الصراعات المباشرة، وتأخذ عادةً أحد شكلين:

- **الصراعات المتكافئة:** تكون حينما تضرب القوى المتكافئة بعضها، كما حدث في الحرب العالمية الأولى والثانية؛ حيث كانت القوى متكافئةً بالقوة والعتاد.
- **الصراعات غير المتكافئة:** وهذا أشبه بصراع الفيتناميِّين مع الولايات المتحدة الأمريكية؛ فأمريكا تمتلك المال والسلاح، وتمتلك المعرفة والعلم، وتمتلك إعلاماً ضخماً، وتمتلك القوة، فلديها جيشٌ مدرَّبٌ هو من أحدث الجيوش العالمية.. فهي قوةٌ متفوقةٌ قادمةٌ لاحتلال بلدٍ فقيرٍ كفيتنام، فالفيتناميُّون هنا لا يستطيعون خلق قوةٍ عسكريةٍ مكافئةٍ بالمعنى المباشر من دباباتٍ وطائراتٍ ونحوها..، ولا إعلاماً مكافئاً.. فليس أمامهم إلا أن يستخدموا إستراتيجيات غير متكافئة، فهم يمتلكون التصميم والإرادة،

وكثافة التعداد، ويمتلكون المعرفة بالأرض التي تتميَّز طبوغرافيَّتها بالغابات الكثيفة.. فقرَّروا أن لا يخوضوا حرباً صداميةً مباشرةً؛ بل ينتقلوا إلى نوعٍ آخر من الحروب، يسمَّى بـ: "حرب البراغيث" التي نشأت تسميتها من مثال انقضاض البراغيث الصغيرة على الفيل الضخم الذي يُعتبر من أقوى الحيوانات في الغابة، فحينما تنقضُّ عليه مجتمعةً، وتأخذ منه قطرات الدم بكثرةٍ، يصاب الفيل بالأنيميا؛ لأنه باختلال كمية كريات الدم الحمراء يتعذَّر وصول الأوكسجين إلى الخلايا فيفقد القدرة على التنفس، وينهار على الأرض، وعندها تستطيع جميع الحيوانات أن تنهش فيه، فمِن هنا نشأت تسمية "حرب البراغيث" التي تعتمد على طول النفس وغزارة القرصات التي يسبِّبها الجسم الصغير للجسم الكبير.. ففي حرب فيتنام استخدم الفيتناميُّون حرب الأنفاق، وأصبحوا يظهرون في كل مكانٍ، يضربون، ثم يعودون إلى الأنفاق.. إلى أن أُنهِكَت القوات الأمريكية، وأصبحت فاعلية الأداة الإعلامية الفيتنامية أعلى بكثيرٍ من فاعلية الأداة الأمريكية الموجودة، ووصل صوتهم إلى الشعب الأمريكي في الداخل عبر الخطاب، والجثث التي تذهب في الصناديق



إلى الولايات المتحدة الأمريكية، فعندها لم يكن أمام الولايات المتحدة إلا أن تنهار كقوةٍ غازيةٍ، وتخرج من الفيتنام ليعود استقلالها.

إذاً؛ فالإستراتيجيات المباشرة؛ إما أن تكون متكافئةً، أو غير متكافئةٍ، ولا يقتصر استخدامها على السياسة، وإنما يمكن لها أن تُستخدم في معاملات الأسواق والمؤسسات..

الإستراتيجيات غير المباشرة:

الحفر:

إن الحروب غير المباشرة أشدُّ خطورةً من الحروب المباشرة، فإننا عندما بدأنا خوض الحرب ضدَّ إسرائيل، كانت القوى الكبرى في آسيا جميعها في طرفنا متمثِّلةً بـ"دول عدم الانحياز"، بما فيها الصين وتعدادها مليار وثلاث مئة مليون نسمةٍ، والهند وفيها مليار من البشر، وإفريقيا وفيها سبع مئة وخمسون مليوناً، وأمريكا الجنوبية.. فكان هناك كتلةٌ تصويتيةٌ ضخمةٌ لصالحنا في الأمم المتحدة، وإعلامٌ كبيرٌ يمكن للخطاب العربي من خلاله الوصول إلى أكبر كتلةٍ بشريةٍ موجودةٍ للتلويح بقضيةٍ عادلةٍ كالقضية الفلسطينية، وعندما تمَّ السلام، ووُقِّعت معاهدات 1978م كمعاهدة "كامب ديفيد" ونحوها.. دخلت أكبر الدول العربية في صلحٍ مباشرٍ مع إسرائيل، وبدأت إسرائيل حينها ما يسمَّى بالحرب غير المباشرة، بسياسة "الحفر تحت الأسس"، فالسياسة العربية كانت مبنيَّةً على أساس أن لديها الكتلة التصويتية التي تسبِّب على الأقل ضعفاً وضغطاً معنويَّاً على الولايات المتحدة وإسرائيل.. فذهبت إسرائيل إلى الصين التي كان لديها في تلك الأيام مشكلةٌ في تطوير بعض الأسلحة المتعلِّقة بالطائرات، وأخبرتها أن الاتفاق والصلح قد تمَّ مع العرب، ولم يعد هناك مشكلةٌ، وعرضت عليها أن تقدِّم لها التكنولوجيا المتقدِّمة في الطائرات -التي قد تأخذ محاولة تطويرها ذاتيَّاً من الصين 50 عاماً- مقابل عقد شراكةٍ إستراتيجيةٍ مع إسرائيل.. فقبلت الصين ووقَّعت وخرجت.. وبخروجها خرج من معسكرنا مليار وثلاث مئة مليون إنسانٍ كانوا يمثِّلون كتلةً بشريةً كبيرةً جدَّاً لصالح القضية العربية الفلسطينية، ومن ثم اتجهوا إلى الهند التي كان لديها مشكلة الكومبيوترات العملاقة، فتفاوضوا معها على ذات المنوال، فعقدوا معهم اتفاقاً إستراتيجيَّاً في تطوير الأبحاث في مجال الكمبيوترات العملاقة.. وخرجت كتلةٌ بشريةٌ أخرى فيها مليار من البشر، وأيضاً وقَّعت معهم إفريقيا مقابل تطوير التقنية في مجال الزراعة الذي

يسُدُّ من احتياجات المجاعة البشرية الحاصلة لديها، فصحَونا بين عشيَّةٍ وضحاها لنجد أن كافَّة الكتل البشرية قد خرجت من بين أيدينا نتيجة ما يسمَّى: الحروب غير المباشرة، ولذلك تعتبر تلك الحروب في غاية الخطورة والصعوبة.

إزالة التحالفات:

من ضمن التكتيكات التي تُستخدم في الحروب غير المباشرة أيضاً، هدم التحالفات، فمثلاً: كان لدى العرب تحالفٌ إستراتيجيٌّ مع الكتلة الشيوعية التي تمثِّلها روسيا أو الاتحاد السوفيتي. والروس من ناحية التحالفات كانوا أكثر مصداقيةً وثباتاً من الأمريكان، إلا أن الدول العربية، لا سيما مصر، قرَّرت فضَّ التحالف مع الروس والانضمام إلى صفِّ الغربيِّين الذين كانوا حينها في صدامٍ مع الاتحاد السوفييتي في أفغانستان، فدعم العرب إسقاط الاتحاد السوفييتي في أفغانستان، وكنَّا نقول: إذا ما سقط الاتحاد السوفييتي، سنستعيد أفغانستان، إلا أننا -في الوقت نفسه- لم ندرك أننا سنكون قد خسرنا ورقةً ضاغطةً كانت تُمدُّنا بالسلاح في اللحظات الحرجة، ولو كان سلاحاً أقلَّ جودةً من المنتظر، إلا أنها كانت تخلق توازناً معيَّناً في الصراع.. وسقط الاتحاد السوفييتي، وكنَّا قد ساهمنا في سقوطه، فأصبحنا أمام قوةٍ واحدةٍ نتفاوض معها دون امتلاكنا لأيِّ من أوراق المساومة! فكانت إزالة التحالفات تقنيةً من التقنيَّات الكبرى..

إزالة الحصون:

لنفترض أننا في بلادنا نعمل على بناء اقتصادٍ بدرجةٍ مستقلَّةٍ عن العالم، وأنه لدينا تعرفةٌ جمركيةٌ على البضائع القادمة من الخارج؛ بحيث إن المصانع المحلية تعمل وتنتج، وبالتالي فإن البضاعة القادمة من الخارج أغلى سعراً من البضائع المحلية، فللتاجر المحلي فرصة بيع بضاعته والكسب منها..

ولكن ماذا لو استطاعت القوى الخارجية إقناعنا بإتفاقيات إزالة الحماية الجمركية، فتدخل بضائع الصين والهند والولايات المتحدة الأمريكية إلى البلاد بميزات المصانع المحلية نفسها!؟ عندها ستزول التنافسية، ويُغلِق المصنع المحلي أبوابه؛ لكونه لن يستطيع مجاراة العمالة الرخيصة الموجودة في الهند أو في الصين، ولا يملك رؤوس الأموال والتقنية الموجودة

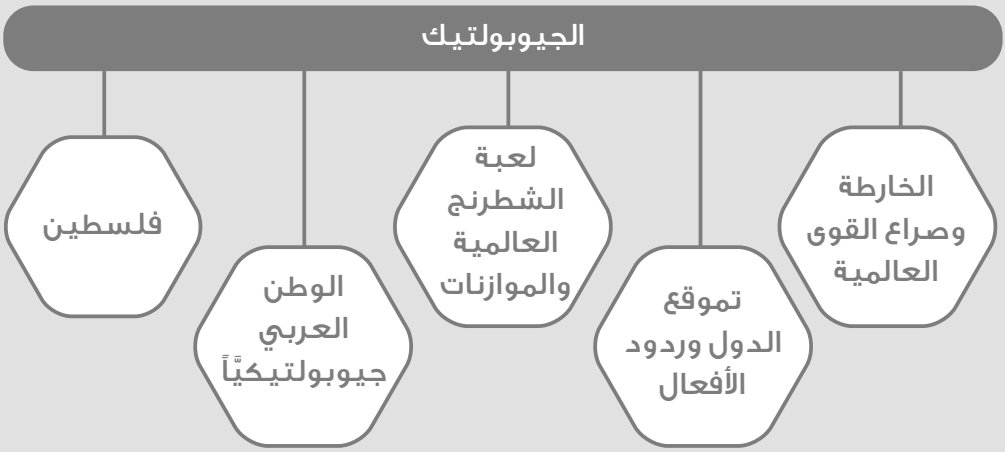
في الولايات المتحدة الأمريكية، فيضطر صاحب رأس المال المحلي إلى إغلاق مصنعه، وعندها يموت الاقتصاد المحلي، وهذا ما يسمَّى بـ: إزالة الحصون التي تهدِّد الاقتصاد المحليَّ.

الاختراق الثقافي:

إن الاختراق الثقافيَّ لا يقتصر فقط على محاولات التحديث أو بثِّ الأفكار والأنماط الجديدة التي نخاف منها عادةً؛ بل يتعدَّاه إلى محاولات التجهيل وإبقائنا في القرون الوسطى، فيتمُّ حينها إسقاطُ عمليات التقدُّم على أيدينا ونحن نظنُّ أننا نحافظ على هويتنا أمام الموجات القادمة، وهذا ما نلحظه بشدَّةٍ حينما نجد مَن يحارب العدالة والحرية باعتبارها موجاتٍ سيئةً قادمةً من الغرب، وكأننا في هذه القضايا متقدِّمون، ولم يبقَ أمامنا سوى هدم رموز الفساد! بينما في الواقع نحن أحوج الناس إلى الحريات والعدالة بغضِّ النظر عن مصدرها، وهذا جزءٌ من الحرب الثقافية التي تعزِّز لدينا نزعة التراجع إلى الخلف وعدم التقدُّم، فنحن غالباً ندخل من الباب الخاطئ؛ فإذا تحدَّث أحدهم عن الحرية، فسيُردُّ عليه بسؤالٍ عن المثلية، ففي حين أن هناك أنواعاً كثيرةً للحرية تتمثَّل بحرية الرأي وحرية التعبير والمعتقد والتصرُّف والتنقُّل والتقاضي وغيرها، يأتي شخصٌ ويدخلنا من بابٍ ضيقٍ جدَّاً للحرية يتمثَّل بالمثلية الجنسية. فعلينا بدورنا أن نتحلَّى بالوعي الكبير أمام هذه الإستراتيجيَّات المتَّبعة.

الجيوبوليتيك





أولاً- الخارطة وصراع القوى العالمية

سنتحدث في هذا القسم عن علم الجيوبوليتيك، وهو استكمالٌ لكلامنا في السياسة، فبعد أن تحدَّثنا عن السياسية وكيف تُدار، سنتكلم عن العالم كيف يتشكَّل وماهية الصراعات فيه.

وهدفنا من الجيوبوليتيك تمليك المتعلِّم لأدوات فهم اللغة السائدة في العالم، وحركة القوى الموجودة فيه، وحقيقة اللَّغط الموجود، بدءاً من الصراعات بين القوى الكبرى، وصولاً إلى وضعية الوطن العربي والإسلامي بشكلٍ عامٍّ.. فإن هذه القضايا الكبرى تحتاج من إنسان النهضة أن يستوعبها ويفكِّر فيها بطريقةٍ موضوعيةٍ، ليبني تصوُّراته حول الأمور بنظامٍ معرفيٍّ واقعيٍّ. وننوِّه بأن ما سيتمُّ ذكره في الفقرات التالية مُتَضَمَّنٌ في كتاب: "الجيوبوليتيك والحلم العربي القادم" للدكتور جاسم سلطان، لمن شاء أن يطَّلع على موضوع الجيوبوليتيك بتفاصيله.

1. سبب التسمية:

إن أول سؤالٍ يُطرَح عادةً حينما نكتب كلمة "جيوبوليتيك": لماذا لا نسمِّيها: الجغرافيا السياسية؟ وما سبب تعقيد المصطلح بهذا الشكل؟.

إن الجغرافيا السياسية هي موضوعٌ أوسع بكثيرٍ من الجيوبوليتيك؛ فالجيوبوليتيك فرعٌ صغيرٌ جدًّا داخل الجغرافيا السياسية؛ حيث إن الجغرافيا السياسية فرعٌ من الجغرافيا العامَّة، ومن الجغرافيا السياسية يتفرَّع الجيوبوليتيك..

"الجيوبوليتيك" مبنيَّةٌ على النظر إلى العالم وتحرُّكاته، ونوع المصالح، وقوة الدولة وتمكُّنها في ذاتها وفي محيطها وعلى المستوى العالمي

والمقصود بهذا المصطلح: "أثر الجغرافيا على اتخاذ القرار السياسي"، إلا أنه لا يقتصر معنى الجيوبوليتيك على ذلك، فموضوع الجيوبوليتيك يحوي شقًّا عدوانيًّا إلى حدٍّ ما؛ فعند نشأة المصطلح كان يستهدف خلق تصوُّرٍ معيَّنٍ عند القادة والسياسيِّين وصانعي القرار، وليس فقط كيفية الدفاع عن منطقةٍ معيَّنةٍ؛ إنما كيفية زيادة قوة الدولة لأخذ ما لدى الآخرين، فالروح العدوانية فيه جعلت الفرنسيِّين بعد الحرب العالمية الثانية يتَّخذون منحىً آخر، ويرفضون كلمة "الجيوبوليتيك"، ويستخدمون كلمة "جيوإستراتيجي"، وفي كلا الحالتين لم يفرق الأمر كثيراً، فهو تغيير مصطلحٍ لا أكثر.

2. ملحوظات أولية في الخارطة العالمية:

قبل أن نشرع بالحديث عن الجيوبوليتيك، نحتاج إلى أن نلِمَّ بخارطة العالم، وبما أن الخرائط كانت تشكِّل إزعاجاً لنا أيام الدراسة نظراً لتعقيدها، فسنحاول قدر الإمكان أن نبسِّط في طرحنا الخارطة العالمية.

بالنظر إلى خارطة العالم، سنجد عدَّة ملاحِظَ رئيسيةٍ:

- إن العالم أشبه ببركة ماءٍ كبيرةٍ فيها جزرٌ متعدِّدةٌ يعيش الناس عليها، تتفاوت أحجامها، ويحيط بها الماء من كل جانبٍ.
- إحدى هذه الجزر هي كتلةٌ عملاقةٌ متَّصلةٌ فيما بينها تتألَّف من: (آسيا، وأوروبا، وإفريقيا).
- بالنظر إلى جوانب الجزيرة العملاقة، نجد جزراً تتفاوت في حجمها، منها: جزرٌ صغيرةٌ كاليابان وبريطانيا واستراليا والفلبين وأندونيسيا.. ومنها جزرٌ أكبر حجماً تقع على الطرف الأيسر المقابل للخارطة تتمثَّل بالأمريكيتين..



3. الجغرافيا الناطقة (تشبيهات مجازية للدول في الجيوبوليتيك):

إذا أردنا تشبيهاتٍ توضيحيةً، تحمل دلالاتٍ أكثر تعبيراً لهذه القطع الكبرى من الأرض.. فبإمكاننا أن نلحظ التالي:

الصقر العملاق:

في الجزء العلوي الأيمن من خارطة العالم، سنجد (روسيا) ضمن كتلةٍ كبيرةٍ تشبه الصقر الذي مدَّ جناحيه على العالم، ويهيم جناحه الأيمن في فضاءٍ ليصل إلى البحار المتجمِّدة، مقترباً من منطقة اليابان وكوريا الشمالية وكوريا الجنوبية التي نجدها عند طرف جناحه الأيمن.. وعند الجزء السفلي للصقر الهند والهند الصينية..

وعند جناحه الأيمن وكأنما هناك ريشٌ يتساقط منه متمثِّلاً بجزيرة اليابان، ويتوزَّع ريش الصقر المتساقط باتجاه منتصف الصقر مشكِّلاً أرخبيل الفلبين وأندونيسيا وماليزيا، وفي الأسفل كتلةٌ كبيرةٌ جدَّاً سقطت منه أيضاً هي أستراليا، فالعالم بدأ يتشكَّل لنا في صورة صقرٍ ضخمٍ جدَّاً، وهذا الصقر يمدُّ جناحيه على العالم، ويغرس رجليه في أسفله، وتتشكَّل منه البقعة الأكبر من العالم.

أما جناح الصقر الغربي الأيسر، فنراه ملتحماً بالقارة الأوروبية، ملتقياً مع أوكرانيا، وجوروجيا وألمانيا (الشرقية) سابقاً، وغيرها من الدول التي كانت أشبه بسورٍ بين الاتحاد السوفياتي السابق وبين دول حلف الناتو الذي تمثِّله ألمانيا (الغربية)، وفرنسا، وبريطانيا..



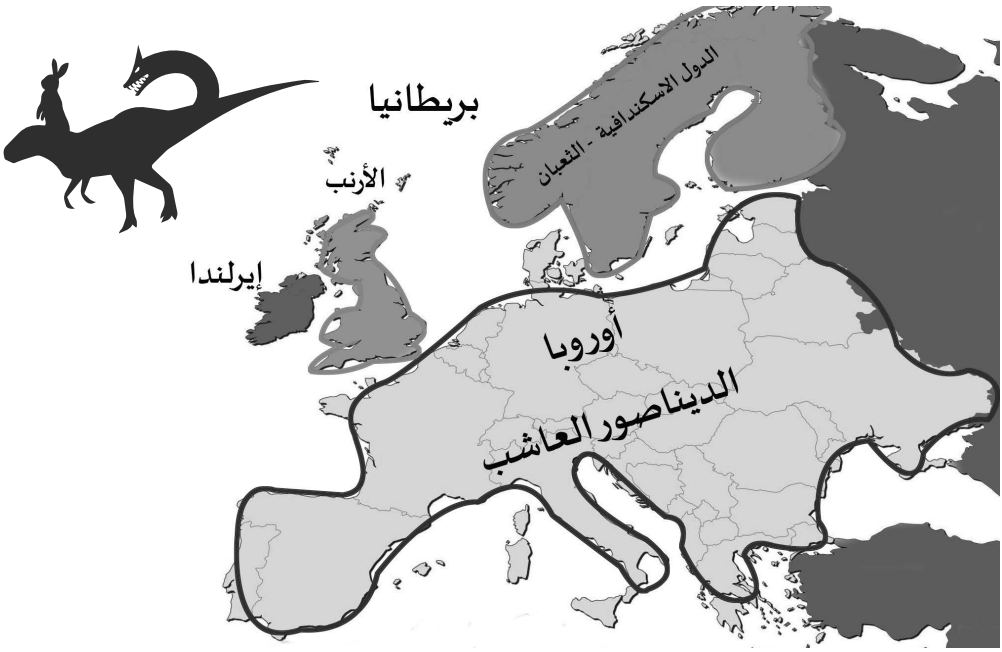
التنين النائم:

داخل الصقر العملاق هناك كتلةٌ هامَّةٌ جدًّاً، هي أشبه بتنِّينٍ نائمٍ أو مستلقٍ على ظهره يمثِّل (الصين)، وعلى صدره هضبة مانغوليا، ومن فوقها روسيا، ويلامس شواطئ البحار، وعلى ضفافه جزرٌ صغيرةٌ من ضمنها: هونغ كونغ وتايوان.. وهي بقعٌ مهمَّةٌ جدًّاً في العالم، أما رأس التنين النائم، فيمتدُّ منه شيءٌ أشبه بقرنٍ، وعند هذا القرن امتدادٌ هو كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية.. أما إذا بحثنا عن ذيل التنِّين، فإننا سنجده في المنطقة الممتدَّة من إيران والشرق الأوسط الذي يليها إلى أن تصل إلى حدود إفريقيا..



الديناصور العاشب:

إن أوروبا على الخارطة أشبه بديناصورٍ عاشبٍ، ملتحمٍ بجناح الصقر الأيسر برأسه المتمثِّل بإسبانيا وفرنسا، وظهره المتمثِّل بألمانيا، وقدمه إيطاليا، وذيله أوروبا الشرقية والدنمارك.



الأرنب المتذاكي:

على امتداد المنطقة الأوروبية يوجد بقعةٌ هامَّةٌ جدًّاً تبدو كالأرنب الصغير الجالس على رجليه وهي (بريطانيا)، هذا الأرنب يحمل بيده لعبةً كأنها دبٌّ صغيرٌ (إيرلندا)، ويتجه بنظره إلى الولايات المتحدة الأمريكية، هذه الجزيرة الصغيرة حكمت العالم يوماً، وشكَّلت قوةً ضخمةً، وتتحالف اليوم مع الولايات المتحدة الأمريكية، وتُفسِح لها الدور لإدارة العالم.

الثعبان:

في أعلى الديناصور الأوروبي نجد على الخارطة وكأنما ثعبانٌ يريد أن يقضم ذيل الديناصور، وهذا الثعبان يمثِّل الدول الإسكندنافية.

المسدسان:

ويبقى لنا أن نفصِّل في ثلاثة أشكالٍ رئيسيةٍ مهمَّةٍ، هي؛ إفريقيا التي تبدو كأنها مسدس يتجه باتجاه البحر نحو مسدَّسٍ آخر يقابله هو أمريكا الجنوبية، بينما تظهر أمريكا الشمالية على شكل ديناصورٍ لاحمٍ.



الديناصور اللاحم، حرف الـ C، السيجار الكوبي:

في الجزء الغربي من العالم يمتدُّ ذيل الديناصور اللاحم (أمريكا الشمالية) في الماء وتنتهي أرجله إلى أمريكا الوسطى، وهو متأهِّبٌ للقفز على العالم، ويربطه من الأسفل مع أمريكا الجنوبية حرف الـC (أمريكا الوسطى)، وداخل حرف الـ C يوجد خطٌّ رفيعٌ جدًّاً شكله كالسيجار الكوبي، ويمثِّل ألماً شديداً للولايات المتحدة الأمريكية تاريخيًّاً (جزيرة كوبا). إذاً لدينا بالإضافة إلى الصقر العالمي، وبالإضافة إلى التنين النائم، ديناصورٌ لاحمٌ شهيَّته مفتوحةٌ على العالم، وينظر إليه بشراهةٍ.

إننا إذا استطعنا كمتتبِّعين للجيوبوليتيك النظر إلى الخارطة العالمية بتصوُّرٍ من هذا النوع، واستطعنا تمييز المناطق التي أشرنا إليها على مستوى الخارطة، نكون قد بلغنا قدراً من نضج وعينا للكلام في الجيوبوليتيك؛ لأن الجيوبوليتيك متعلِّقةٌ بالجغرافيا وبالكتل السياسية؛ أي: بالحديث عن روسيا وأوروبا، وكوريا الشمالية والجنوبية، واليابان والصين والهند، وعن المنطقة المكتظَّة التي تضمُّ الفيتنام ولاوس ومناطق الهند الصينية، أو بالحديث عن الشرق الأوسط، أو إفريقيا وأمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية، وعن البقع الملتهبة في هذه المناطق، مثل: كوريا الشمالية وكوبا.. فنحن أمام الخارطة العالمية التي سنبدأ انطلاقاً من فهمنا لها في رحلة الكلام عن الجيوبوليتيك.

4. مفاهيم يحتاجها الإنسان في رحلته لفهم الجيوبوليتيك:

● أولاً: الجزيرة العالمية

يُقصد بها موطن البشرية الأكبر (آسيا، وإفريقيا، وأوروبا)، وهي أشبه بقطعة أرضٍ واحدةٍ متصلةٍ كيابسةٍ تحيط بها المياه من كل جانبٍ، وإن العالِم "ماكندر Halford Mackinder " حينما وضع نظريته "كيف يمكن أن نحكم العالم؟"، اعتبر أن مَن يسيطر على هذه الجزيرة قادرٌ على أن يحكم العالم.

إن العمق الرئيسيَّ في الجيوبوليتيك هو النظر إلى العالم كصورةٍ واحدةٍ ووحدةٍ واحدةٍ، والنظر إلى مصالح الدول من خلال تلك الصورة الكبيرة، والتحرُّك على هذا المستوى العالمي الكوني

وتأتي أهمية هذه الجزيرة باعتبارها موطن الحضارات الكبرى والأولى في العالم، وبكونها كتلةً كبيرةً متصلةً برًّا، وفيها وجودٌ بشريٌّ ضخمٌ، وفيها الأسواق والأيدي العاملة والممرَّات التجارية الحيوية، وهذا يعني أن القوى الموجودة فيها لا تحتاج إلى السفر جوًّا أو بحراً لتُأَمِّن احتياجاتها وتحقِّق تجارتها؛ بل إنه يمكن لها أن تتحرَّك في القطارات السريعة بين مناطقها، وكذلك يمكن أن تُنقَل البضائع والعملة والعمَّال بشكلٍ سلسٍ وسهلٍ.. وبالتالي لو أن قوةً ما ظهرت في هذه المنطقة واستطاعت أن تمدَّ خطوط القطارات بينها، ولديها الكفاءة التقنية والعلمية، وأصبحت المُصَدِّر الأكبر إلى هذه المنطقة، فلن يستطيع أهل الجزر (الأمريكيتين وبريطانيا واليابان) أن ينافسوا من هو على اليابسة في الوصول إلى جميع هذه المناطق بطريقةٍ سهلةٍ وسريعةٍ، وهنا تكمن خطورة وأهمية الجزيرة العالمية.

إن أُولى قواعد الجيوبوليتيك النظر إلى العالم كوحدةٍ واحدةٍ، وأهمُّ مناطقه الجزيرة العالمية.. وإننا بفهمنا لهذه القضية، سنفهم كثيراً من الصراعات الدولية الموجودة الآن على سطح الأرض.

● ثانياً: قوى البرِّ والبحر

حينما وصل "ماكندر" إلى نظرية تقسيم العالم إلى جزيرةٍ عالميةٍ، وجزرٍ صغيرةٍ تحيط بالعالم، أصبح لدينا تقسيمٌ آخر للقوى في العالم؛ فصار هناك قوى البرِّ وقوى البحر.

- فالدول الموجودة على الجزيرة العالمية، وتتحرَّك على اليابسة بسهولةٍ للوصول إلى مناطق العالم كثيفة السكَّان والموارد.. سنسمِّيها: قوى البر؛ لأن هذه الدول لا تحتاج إلى السفن، وبالتالي أساس قوتهم مبنيٌّ على فكرة أنها قوَّةٌ موجودةٌ على البرِّ وتتحرَّك على اليابسة.
- أما قوى البحر، فهي القوى المتواجدة على الجزر، والتي لا تستطيع أن تتصل باليابسة العظمى أو بالجزيرة العالمية إلا عن طريق السفن؛ ولذلك تسمَّى: قوى البحر، مثل: الولايات المتحدة، وأمريكا الجنوبية، وبريطانيا، واليابان، وأستراليا.

● ثالثاً: المنطقة الخطيرة (قلب العالم)

طوَّر "ماكندر" كلامه خطوةً إلى الأمام، وطرح سؤاله: من يستطع السيطرة على العالم؟ وأين توجد أهمُّ منطقةٍ حصينةٍ تاريخيًّاً فيه؟

عاش "ماكندر" في الفترة التي كانت فيها الإمبراطورية الإنجليزية تحكم العالم، وبالتالي درس القوى العالمية وحركتها من مكانه وزمانه، ورأى أن الإمبراطورية الوحيدة التي كانت عملاقةً عبر التاريخ بشكلٍ مذهلٍ، وغزت العالم، ولم يستطع أحدٌ غزوها في منطقة تمركزها، هي قوى "المغول"؛ فالمغول ابتداءً من "جنكيز خان" وأبنائه قد سيطروا على ثلاثين مليون كيلومتر مربع من العالم، ولم ينافسهم في مساحة الأراضي التي احتلُّوها سوى البريطانيِّين؛ حيث سيطروا على ثلاثةٍ وثلاثين مليون كيلومتر مربع من العالم، ولكن الفارق بينهم أن البريطانيِّين قد غُزُوا في أرضهم، وأن سبب الزيادة في مساحة الأرض التي غزوها وصولهم إلى الأمريكيتين، وبالتالي يظلُّ السبق الأساسي للمغول؛ حيث إنهم بلغوا مدىً من الأرض على اليابسة لم تبلغه إمبراطوريةٌ سابقةٌ من قبل..

بدأ "ماكندر" يدرس الميزة الإستراتيجية لمنطقة المغول (روسيا حالياً)، فوجد أنها كانت موجودةً في العمق السيبيري في منطقةٍ من مناطق السهوب التي يصعب أن تصل إليها أيُّ قوةٍ ثانيةٍ عن طريق البرِّ.. وبالتالي لن يغامر أحدٌ في عبور هذه المناطق لخطورة الطريق، فكان المغول قادرين على أن يخرجوا لغزو العالم، ولكن لم يكن أحدٌ قادراً على غزوهم، لذا اعتبر "ماكندر" أن هذه المنطقة بسبب حصانتها الطبيعية، إذا ما امتلكت الإرادة والقوة (التي عصبها التكنولوجيا والمعرفة)، فيمكن لها أن تسيطر على العالم المحيط، وتمدَّ خطوطاً اقتصاديةً إلى الجزيرة العالمية من دون عناءٍ، واعتبر أن الغرب في خطرٍ في حال قيام قوةٍ في هذه المنطقة تمتلك هذه الوضعية الإستراتيجية المميِّزة..

رغم أن نظرية "ماكندر" كانت مبنيَّةً على معطيات القوة العسكرية في الفترة التي وُجد فيها "ماكندر"، وأن العالم قد تغيَّر بعد ذلك، وتغيَّرت القوى التدميرية له.. إلا أن الأسس الكبرى لهذه النظرية سليمةٌ وصحيحةٌ، وظلَّت محور التفكير العالمي، وظلَّت القوى العالمية تدور حولها بطريقةٍ ما، ويرون أنه لو قامت قوةٌ من روسيا تحديداً (وهي مناطق وجود المغول سابقاً)، وامتلكت التكنولوجيا والمعرفة، وتحرَّكت على اليابسة، لَأمكنها أن تسيطر على العالم القديم (الجزيرة العالمية) من خلال مدِّ خطوط المواصلات، لتصبح هي القوة الرئيسية، وصاحبة الميِّزة الإستراتيجية الكبرى في العالم كلِّه؛ أي: على حساب الجزر العالمية (الأمريكتين وبريطانيا واليابان).. وهذا يضعنا أمام تساؤلاتٍ عن تفاصيل نظرية "ماكندر"..

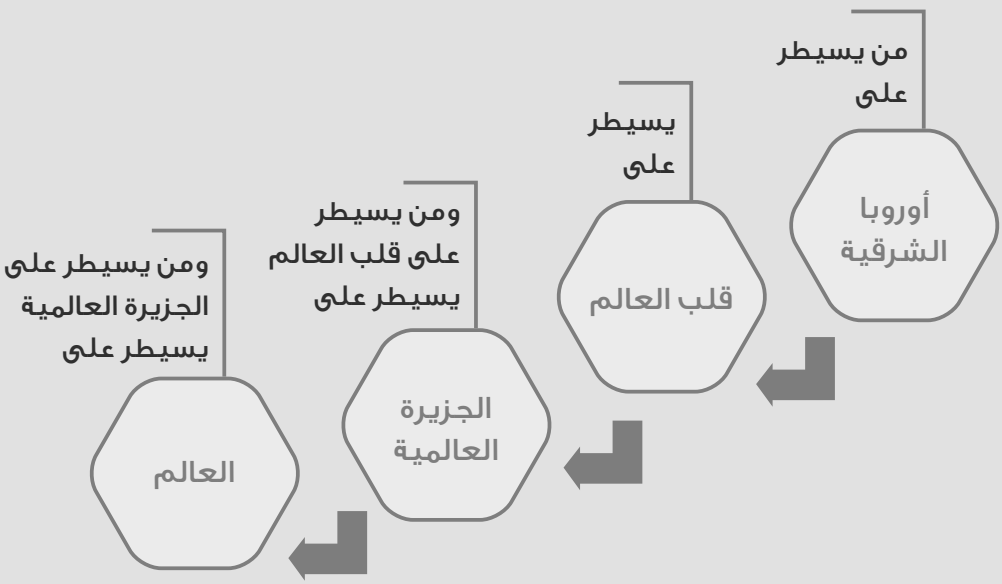
5. احتلال قلب العالم (نظرية ماكندر):

كان "ماكندر" موجوداً في بريطانيا (الأرنب الصغير الذي تكلمنا عنه)، وكان ينظر باتجاه الشرق، ويرى أوروبا ملتحمةً بأوروبا الشرقية، ومن بعدها الاتحاد السوفييتي.. فوضع "ماكندر" التصوُّر التالي:

عمق نظرية "ماكندر"

مَن يستطع أن يسيطر على أوروبا الشرقية، يستطع أن يسيطر على قلب العالم (روسيا)، ومَن يسيطر على قلب العالم (روسيا)، يستطع أن يسيطر على الجزيرة العالمية ومواردها (آسيا، أوروربا، إفريقيا)، ومن يستطع السيطرة على الجزيرة العالمية ومواردها، يصبح سيد العالم ويسيطر عليه

أصبح العقل العالمي الإستراتيجي الكلي ينظر إلى روسيا باستمرارٍ على أنها الخطر الرئيسي الذي لو تمكَّن ستسهل سيطرته على موارد العالم.



وبدأت القضايا تتطوَّر حينما همَّ "هتلر" في أن يحقِّق مضمون النظرية محاولاً المرور من بولندا إلى روسيا للسيطرة على قلب العالم، وتحقَّقت نظرية "ماكندر" بنسبةٍ معيَّنةٍ؛ لأن العمق الإستراتيجيَّ والظروف المناخية لم تسمح لأحدٍ بالعبور برًّا إلى هذه المناطق، وبالتالي اندحرت أفضل قوات العالم التي كانت تمثِّلها القوات الألمانية حينما دخلت في محاولةٍ لاحتلال روسيا، وروسيا في المقابل أصبحت حريصةً جدًّا على أوروبا الشرقية كستارٍ حديديٍّ لمنع وصول القوى الغربية إليها.

منطقة الارتطام "Crach Zone":

شكَّلت أوروبا الشرقية ومناطق الشرق الأوسط ستاراً حديديًّاً بين كلٍّ من روسيا والغرب، فأصبحت مناطق ارتطامٍ بين هذه القوى، فمن أراد أن يسدَّ الطريق على روسيا، فعليه أن يأخذ هذه المناطق إلى حضنه، وعلى روسيا أن تحاول باستمرارٍ اختراق هذا الحصار والحصول على موطئ قدمٍ داخلها.

تقدَّمت روسيا بعد الحرب العالمية الثانية مسيطرةً على أوروبا الشرقية، كما ضمَّت قسماً من ألمانيا إليها، فانقسمت ألمانيا إلى قسمين شرقيٍّ وغربيٍّ، وأَدخلت (أوروبا الشرقية) والمناطق المحيطة بها داخل المنظومة المسمَّاة: "الاتحاد السوفييتي"، وتمدَّدت إلى مناطق (...ستان) الموجودة في العالم، فأصبحت روسيا كإمبراطوريةٍ محاطةً بحاجزٍ بينها وبين أوروبا.

توازن الرعب:

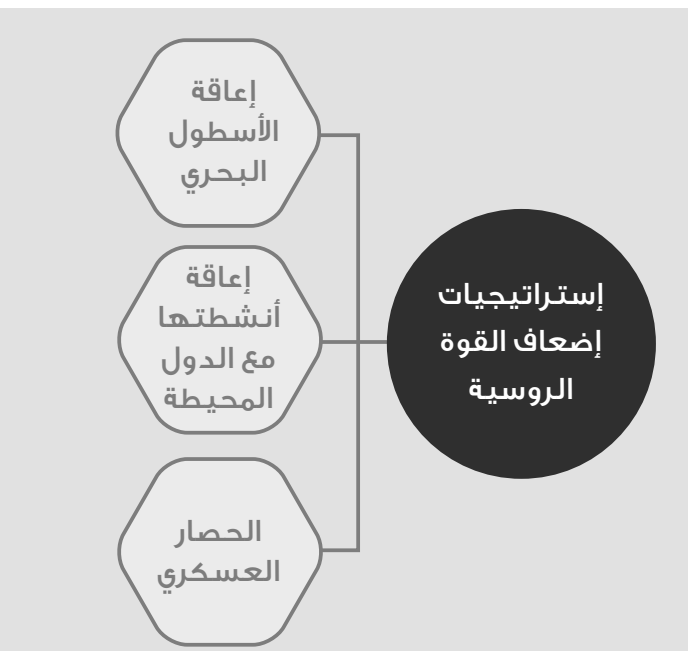
مع حالة التوازن في حجم القوَّتين بين الاتحاد السوفييتي والغرب، نشأ صراعٌ سمِّي بـ: (الحرب الباردة)، تمثَّل باستعداداتٍ عسكريةٍ متقدِّمةٍ لصناعة صواريخ بالستيةٍ، وقنابل نوويةٍ، وطائراتٍ حربيةٍ، وتزويد الوقود في الفضاء، والسيطرة على شبكة الاتصالات. وعلى الرغم من أنها سمِّيت بالحرب الباردة، إلا أن الحرب بشكلٍ فعليٍّ لم تكن باردةً، إنما كانت حرباً بالوكالة؛ فكانوا يديرون اشتباكاتٍ ضخمةً في إفريقيا وآسيا، نتج عنها قتلى بأعدادٍ كبيرةٍ، وسمِّيت باردةً؛ لكون القوى العظمى لم يصطدم بعضها مع بعضٍ بشكلٍ مباشرٍ؛ وذلك لأن بينها توازن رعبٍ، فإذا ما اصطدموا، سيدمِّرون أنفسهم والعالم، وبالتالي كان يتجنَّب كلٌّ من حلف وارسو وحلف الناتو الصدام البينيَّ.

تطوَّرت الأمور، وضعف الاتحاد السوفييتي من داخله، وقرَّر الغرب حينها إنهاء الملف وتفكيك روسيا، مستغِلًّا حالة الإنهاك التي كانت عليها، فاستخدم أفغانستان كعصا لكسر الاتحاد السوفييتي، فبعد أن لعبت العوامل الأخرى (التدهور الاقتصادي، والاستنزاف العسكري، وفشل النظرية السياسية والاقتصادية..) دوراً بارزاً في الموقف.. قام الغرب بتسليح أفغانستان، ووجَّهوا طاقة الأفغان، فكانت القشة التي قسمت ظهر البعير، فانهار الاتحاد السوفييتي، وبدأت فرصة الدول التي تنتهي بـ(.. ستان) للتحرُّر من مجاله، ولدول أوروبا الشرقية للتحرُّر من سيطرته، فاستعادت ألمانيا قسمها الشرقيَّ من أيدي الروس.

6. مخطَّط إستراتيجيات الولايات المتحدة لإضعاف القوة الروسية:

ممَّا يكمِّل الصورة في أذهاننا، ويمكِّننا من فهم التحرُّكات الروسية، التطرُّق لبعض الإستراتيجيات التي كانت أمام الولايات المتحدة الأمريكية والغرب بعد انهيار الاتحاد السوفييتي للحدِّ من القوة الروسية، ومنعها من أن تصبح قوةً مسيطرةً على العالم؛ ومنها:

- **إعاقة تحرُّكات الأسطول النووي:** لدى روسيا: أسطولٌ نوويٌّ ضخمٌ يتحرَّك من البحر الأسود مروراً بمضائق تركيا وصولاً إلى البحر الأبيض المتوسط. و: قاعدتان لتزويد هذا الأسطول باحتياجاته؛ الأولى: في طرابلس الغرب، والثانية: في سوريا. فإذا ما تمَّ تجريدها من الموانئ التي ترسو فيها السفن، والتحكُّم بجزيرة القرم منعاً لها من العبور عبر البحر الأسود أيضاً، فإن هذا سيشكِّل إرباكاً لها، وسيُضعف حركتها في المياه الدافئة التي تحتاجها.



- **إعاقة روسيا من التمدُّد وإقامة علاقاتٍ حيويةٍ مع الدول المحيطة:** إذا استطاعت الولايات المتحدة سحبَ الصين والهند من التحالف مع روسيا، وإحاطةَ ظهر روسيا بقوَّةٍ كاليابان وكوريا الجنوبية، وضمَّ جميع المناطق التي تنتهي بـ(...ستان)، كأفغانستان وباكستان وغيرهما، وضمَّ منطقة الشرق الأوسط إلى تحالفٍ غربيٍّ، سيكون عندها قد أُحكِم الطوق على روسيا، ولم يعد لها مجالٌ حيويٌّ تتحرَّك فيه.
- **الحصار العسكري:** إن نصب محطَّاتٍ فضائيةٍ وقواعد عسكريةٍ في دول الحدود الروسية بحيث يكون فيها صواريخ بالستية مضادَّة للصواريخ الروسية، من شأنه إعاقة روسيا عسكريًّا بما يمنع خروج الهجمات من أراضيها.

7. التحرُّكات الروسية وردودها المضادَّة:

وبالفعل وبناءً على الإستراتيجيات السابقة، بدأت أوروبا تحرُّكاتها الكبرى سريعاً قبل أن تستعيد روسيا أنفاسها لضمِّ أوروبا الشرقية إليها، وذلك من خلال توسيع حلف الناتو، وبدأت فكرة نقل القواعد التي ترصد الصواريخ البالستية إلى الحدود الروسية مباشرةً من خلال أوروبا الشرقية؛ بحيث يتمُّ ردع أيِّ صاروخٍ يمكن له أن يخرج من روسيا، وبدأ التفاوض مع الدول التي تنتهي بـ(..ستان) من أجل المزيد من التحرُّر من سيطرة الروس، وبدت روسيا حينها في منتهى الضعف، وبعد أن كان هناك قطبان في العالم (روسيا وأمريكا)، بقيت أمريكا القطب الوحيد فيه.. إلا أن امتلاك روسيا للذخيرة الوطنية وللعلم والمعرفة والقوة، جعلها قادرةً على تجاوز تلك المحنة التي ألَّمت بها، لتجمع خيوطها مرَّةً أخرى، فتمَّ إحضار "بوتين" إلى سدَّة السلطة، مع دعم القوى الوطنية، فتغلَّفت البلاد بالديمقراطية الظاهرة، إنما في داخلها كانت دولةً قوميةً تحكم بطريقةٍ حديديةٍ؛ فالدول عادةً إذا تعرَّض وجودها حيويًّا للتهديد، تنكمش إلى شكلٍ من أشكال المركزية القوية داخل الدولة..

بدأت روسيا تفكِّر باستعادة ما فقدته، فأعادت التفاوض حول الوجود العسكري على حدودها، وقادت هذه المسألة إلى مفاوضاتٍ شاقَّةٍ ومناوراتٍ إستراتيجيةٍ كبرى، ربما لا يزال بعضها حاضراً في الذاكرة؛ متمثِّلاً بأزمة القرم والتدخُّل العسكري الروسي فيه وفي جورجيا.. وذلك بعد أن كان الغرب قد أعطى الأمان لتلك المناطق، وأراد أن يضمَّها إلى

كتلته الأساسية وفق خطة حصاره لروسيا، ولكن روسيا قرَّرت أن تُظهِر مخالبها، وأن تتقدَّم وتعلِّم وترمي القفَّاز في وجه الساحة الأوروبية! والتقط الأوروبيُّون الرسائل وأدركوا مدى جدية روسيا في هذا الموضوع.. فدخلوا في التفاوض معها، ولكن ليس على إزالة القواعد، وإنما على كيفية إدارة هذه القواعد، فالتقوا بما يسمَّى: مؤتمر "لشبونة" في البرتغال، وتمَّ الاتفاق على أن لا تكون هذه القواعد خالصةً للأوروبيِّين والأمريكيِّين؛ بل يجب أن يكون فيها أيضاً خبراء روسٌ متخصِّصون في المجالات نفسها، إضافةً إلى قاعدةٍ عسكريةٍ خاصَّةٍ بالروس، موجودةٍ في هذه المناطق تتلقَّى المعلومات ذاتها التي تتلقَّاها قواعد الغربيِّين، وبالتالي تأمن روسيا من أيِّ غدرٍ أوروبيٍّ بها.

وحينما انطلقت شرارة الصراع في سوريا، قرَّرت روسيا أن ترسل الرسالة الأكبر للعالم؛ بكونها عائدةً إلى المسرح الدولي، وأنها لن تتخلَّى عن هذه المنطقة حتى لو وضعت فيها كلَّ أوراقها، وأنه على الغرب أن يعترف لها بهذا الوجود في المنطقة!

كما أنها وبعد أن أُخرِجَت من أفغانستان، عادت بدورٍ تصالحيٍّ معها مرَّةً أخرى، لتُطلَّ على المشهد دون أن تدعه يستقرُّ لصالح الأمريكان.

ومن التحرُّكات الروسية الأخيرة، الحرب التي شنَّتها على أوكرانيا؛ فهي ردَّات الفعل المحتملة لاستمرار الاتحاد الأوروبي بحالة الغزل مع الأوكرانيِّين.

كما وجدت روسيا مخرجاً ضخماً لها من خلال العلاقة بالكتل العملاقة الطموحة الموجودة في آسيا كالصين لإنشاء تكتُّلٍ قويٍّ، وبالتالي أصبحت مغناطيساً جاذباً للقوى التي تطمع في فضاء حرياتٍ أكبر في العالم..

ثانياً- تموقع الدول الكبرى وردود الأفعال

سنقف في الفقرات القادمة مع بعض المواقع ذات الأثر الكبير عالميًّاً، كما أننا سنمرُّ على بعض المصطلحات الهامَّة التي تعتبر مفتاحاً إيضاحيًّاً هامًّاً للأفكار التي سنأتي إليها، وسنبدأ بمصطلحَي: "الموقع، والتموقع"..

ونذكِّر ابتداءً بنظريةٍ هامَّةٍ في الجيوبوليتيك مرَّت معنا، وهي:

> **تذكَّر أنَّ**
>
> من يسيطر على أوروبا الشرقية، يسيطر على قلب العالم، ومن يسيطر على قلب العالم، يسيطر على الجزيرة العالمية، ومن يسيطر على الجزيرة العالمية، يسيطر على العالم

وهذا ما جعل الألمان يسعون للسيطرة على قلب العالم، وبعد فشلهم، وُلدت فكرة "حصار قلب العالم"، وهو ما يفضي إلى منع روسيا من التمدُّد في المحيط الذي يشكِّل لها مجالاً حيويًّاً، وإحاطتها بقوىً صلبةٍ كاليابان وكوريا الجنوبية، وغير ذلك من أشكال الحصار.

الموقع والتموقع:

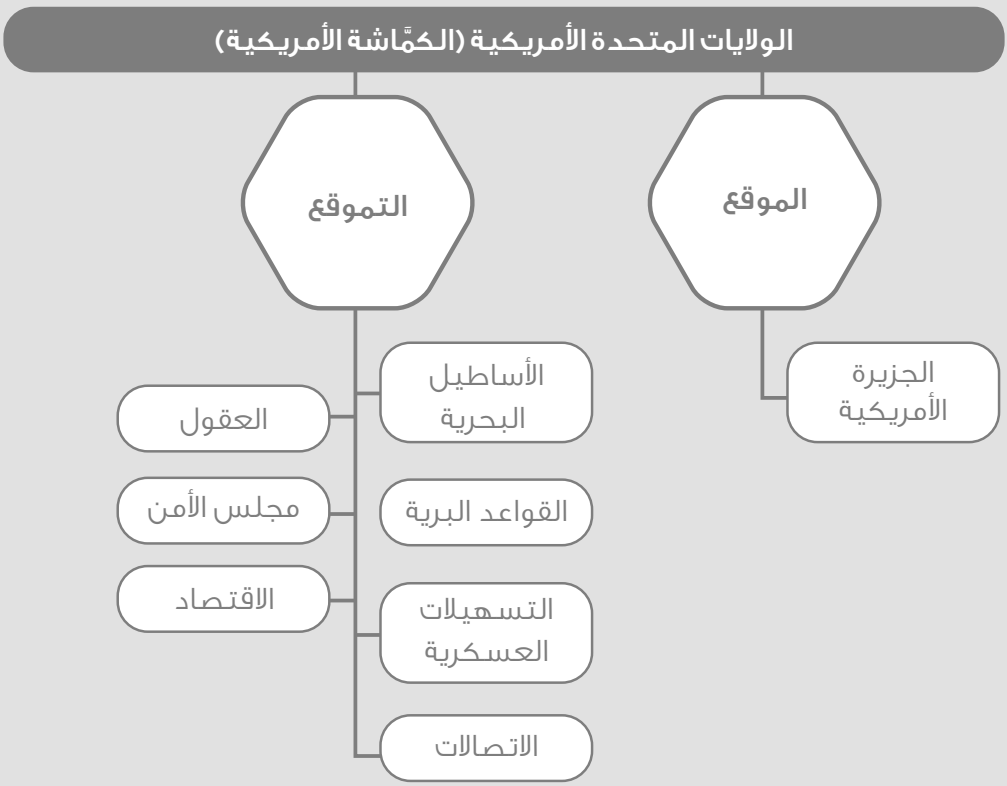
حينما نقول: الموقع والتموقع، نكون أمام مصطلحين مختلفين عن بعضهما؛ فالموقع: هو الحدود الجغرافية التي نراها على الخارطة المعترف بها دوليًّاً لبلدٍ ما، أما التموقع: فهو حضورٌ لبلدٍ ما في العالم، غير مقنَّنٍ بحدودٍ معترفٍ بها دوليًّاً.. وهذا ما سيتَّضح لنا حينما نتناول الولايات الأمريكية من ناحية الموقع والتموقع.

الولايات المتحدة الأمريكية:

نحن بحاجةٍ إلى أن نعرف الولايات المتحدة كمفهوم، لا كدولةٍ فقط، بمعنى أن أمريكا لديها تصوُّرُ كليٌّ للعالم وضعت له مخطَّطاً كبيراً وتسير وفقه، ولذلك نحن نسمِّيها: "الكمَّاشة الأمريكية"؛ لكونها تتحكَّم بالعالم بما يشبه قبضة الكمَّاشة..

- فأمريكا من ناحية الموقع تبدو كأنها منطقةٌ معزولةٌ في تلك الجزيرة البعيدة عن العالم، وهي آمنةٌ بموقعها البحري المحاط بقوىً عسكريةٍ بحريةٍ تحقِّق لها أماناً كبيراً، وتحول بينها وبين أيِّ عدوانٍ خارجيٍّ.

- أما من ناحية التموقع، فكانت مكتفيةً بعزلتها إلى أن وقعت الحرب العالمية الثانية، فدخلت الحرب بثِقَلها بعد أن أُنهكت القوى التاريخية الكبرى (بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، وروسيا)، وبانتهاء الحرب العالمية الثانية كانت الولايات المتحدة -التي دخلت متأخِّرةً- تمتلك القوة والمعرفة والمال، وأصبحت سيدة العالم بامتيازٍ، وبدأت مرحلة الخروج من عزلتها والتحرُّك في العالم، وتبادلت المواقع مع الإمبراطورية الإنكليزية القائمة؛ بحيث تخرج بريطانيا باتفاقٍ منمَّقٍ من مناطق سيطرتها، لتعطي سيادة هذه المناطق الولايات المتحدة الأميركية، شأنها شأن الإمبراطوريات الأخرى التي لم تقتصر حدودها على الأرض المقنَّنة باسمها.



التموقع الأمريكي وأشكاله في العالم:

عند البحث والنظر في التموقع والانتشار الأمريكي حول العالم، نجده واسعاً شاملاً يكاد يحيط بالعالم من كل اتجاهٍ، عبر أشكالٍ وطرقٍ متعدِّدةٍ ومختلفةٍ؛ منها:

الأساطيل البحرية والغوّاصات:

تسيطر الولايات المتحدة على العالم من خلال ثلاثة عشر أسطولاً بحريًّاً عملاقاً تجوب بحار العالم، فتمتدُّ وتهيمن هذه الأساطيل في المحيط الأطلسي والمحيط الهادىء والبحر المتوسط والبحر الأحمر؛ بحيث إن سطح البحر يحمل مدناً عسكريةً متحرِّكةً تحوي مدارج للطائرات والمروحيات وقواتٍ خاصَّةٍ، وأسلحةٍ نوويةٍ تكتيكيةٍ.. وكل ما تحتاجه الحروب يتواجد في هذه المدن المتحرِّكة في البحار التي تمثِّل امتداداً للولايات المتحدة الأميركية، وقد حلَّت الولايات المتحدة معضلة انقطاع المحيط الهادئ عن الأطلنطي بحفر قناة "بنما".

وهنا يجدر التنوية إلى أن الناظر إلى خارطة العالم وهي مسطحة، سيرى الولايات المتحدة بعيدةً عن قلب العالم، ولكنها فعليًّاً، ومع تموضعها على الأرض الكروية، تلتقي مع روسيا بشكلٍ وثيقٍ جدًّاً في ممرٍّ لا يكاد يفصل بينهما شيءٌ.

وأيضاً، نجد في عمق البحار أسطولاً أمريكيًّاً من الغوَّاصات العملاقة التي تجوب بحار العالم بما فيها البحار المتجمِّدة، وهي أيضاً مزوَّدةٌ بكافَّة أنواع الأسلحة والتقنيَّات المناسبة للحروب المعاصرة..

القواعد البرية:

يتمُّ التمركز العسكري الأمريكي في العديد من المناطق، فنجد ما يقارب مئةً وثمانين قاعدةً منتشرةً ومنظَّمةً تمتدُّ من الولايات المتحدة الأمركية إلى الشرق الأوسط برمَّته، وإلى آسيا الوسطى، وإلى ما هو أبعد من ذلك، وتكاد تشكِّل دائرةً تحيط بالعالم، وبالأخصِّ روسيا والصين.. وحينما نقول: "قواعد"، يعني أننا نتحدث عمَّا يشبه المدن العسكرية المزوَّدة بكافَّة أنواع الأسلحة والخبرة والاتصالات؛ بحيث تستطيع أميركا أن تدير عملياتها في المدن من خلال هذه القواعد الضخمة المنتشرة..

التسهيلات العسكرية:

إن الوجود الأمريكيَّ عالميًّاً لا يقتصر على القواعد، فهناك معاهداتٌ توقِّعها الولايات المتحدة مع كثيرٍ من الدول؛ بحيث يحصل تدريبٌ مشتركٌ لضبَّاطها مع ضبَّاط بلدانٍ أخرى، فإذا ما احتاجت القوات الأمريكية الدعم، أمدَّتها الجيوش الصديقة به، كما أنها تستطيع أن تستعمل المطارات والأراضي والموانئ التابعة لتلك الدول في حالة الحرب، فهناك احتياطيٌّ من المعاهدات للمستقبل لتسهيل عمل الولايات المتحدة الأميركية في حال نشوب الحروب على الأرض.

الاتصالات:

الفضاء الكوني هو أيضاً مسرحٌ لهذه الحركة المهيمنة، فنجدها حاضرةً بعددٍ من الأقمار الصناعية التي ترصد التحرُّكات على الأرض، وتجوب خارطة العالم وتمسحه تقنيًّاً باستمرارٍ..

وهذا هي الحال أيضاً بالنسبة للفضاء الإلكتروني، فإن أيَّ رسالةٍ إلكترونيةٍ نريد إرسالها إلى العالم من خلال الأجهزة الموجودة لدينا.. ستمرُّ بسيرفراتٍ موجودةٍ في الولايات المتحدة الأميركية!

تشكيل العقول:

أنشأت الولايات المتحدة أكبر شبكةٍ علميةٍ وإعلاميةٍ، وإن أفضل تعليمٍ يريده الإنسان، قد يناله في الولايات المتحدة الأمريكية، وكذلك الحال إذا أردنا الاستماع إلى أقوى إعلامٍ، نجده أيضاً في الولايات المتحدة، من خلال الأفلام والمسلسلات والثقافة، فمنتجات هوليود الفنية متدفِّقةٌ إلى العالم، وتشكِّل خارطةً ذهنيةً للشباب..

مجلس الأمن:

الهيمنة الأمريكية لا تتوقَّف على ما أسلفناه فقط؛ بل تمتدُّ إلى درجة أننا إذا أردنا أن نشتكي على الولايات المتحدة الأميركية، فسنذهب إلى مجلس الأمن الموجود في الولايات المتحدة الأميركية!

الاقتصاد العالمي:

الاقتصاد العالمي مرتبطٌ بالدولار بشكلٍ وثيقٍ، وبالتالي تُقيِّم عملات العالم نفسها أمام الدولار الأمريكي، وأمام الاقتصاديات الأمريكية الضخمة الموجودة فيه.

إذاً؛ فنحن أمام كمَّاشةٍ ضخمةٍ تتمثَّل بالتموقع العملاق للولايات المتحدة، الذي لا يزال فاعلاً وحاضراً في العالم، فأمريكا قد تكون دولةً كبقية الدول، إنما كمفهومٍ فهي وجودٌ عالميٌّ، بوزنٍ إستراتيجيٍّ ساحقٍ، وبمسرحٍ سياسيٍّ دوليٍّ استثنائيٍّ؛ بمعنى أن كل اللوبيات العالمية مسموحٌ لها أن تعمل داخل الولايات المتحدة الأمريكية، وأن تساعد وتعين ضمن آلياتٍ معيَّنةٍ لتحقيق مصالح الدول الأخرى، فإن ساسة العالم يجدون مناطق ارتكازٍ في مناطق الدراسات والكونغرس لآرائهم وتصوُّراتهم عبر الآلية التي خلقها النظام السياسي هناك، فأمريكا كمفهومٍ تختلف عن أمريكا كدولةٍ، وبالتالي يُنظَر إليها عالميَّاً بالوزن الفعلي لها.

ولكن الله لم يخلق السماوات والأراضين ليسيطر عليها طرفٌ واحدٌ من الأطراف؛ فالعالم لا يمكن له أن يُحكَم بإرادةٍ واحدةٍ مهما كانت قويةً، وإن كُلَّاً من الصغير والكبير قادرٌ على إيجاد مكانه في هذا العالم، إلا أن الصغير لافتقاره للقوة الكافية يحتاج إلى الذكاء، ومن لا يمتلك الذكاء، يصبح ضحيةً لا محالة.

الفعل وردُّ الفعل

بالانتقال إلى جزءٍ آخر من أجزاء المشهد، سنأتي إلى ما يسمَّى بـ: الفعل وردِّ الفعل.

كنا قد تحدثنا بأن روسيا هي محلُّ نظر أمريكا؛ لذا هي تسعى لحصارها؛ وقد رتَّبت خطَّتها على هذا الأساس؛ فأنشأت حلف "الناتو" وأحلافاً أخرى لتطوِّق روسيا بالحزام الأوروبي الغربي، وبالمقابل صنعت روسيا حاجزاً في وجههم تمثَّل بأوروبا الشرقية من خلال حلف "وراسو" الذي شكَّل بعد انحلاله أزمة "جورجيا" و"أوكرانيا".. وإن التدافع بين هذه القوى هو الذي شكَّل الحركة في العالم المتمثِّلة بـ"الفعل" و"ردِّ الفعل"؛ فحينما بدأت الولايات المتحدة الأمريكية بـ"الفعل"، وهاجمت الاتحاد السوفييتي، ونجحت بحلِّه وتفكيكه، جاءها "ردُّ الفعل" حينما أعادت روسيا تشكيل نفسها واستعادت لياقتها مرَّةً أخرى على يد القوميِّين الروس، وبدأت بإرسال الرسائل مقابل تهديد مناطق موانئها، فكانت سوريا من أعنف المناطق

التي تمَّ من خلالها إرسال هذه الرسائل، ومن ثم تلَتْها ليبيا، وهما منطقتَا الموانئ الروسية مع البحر الأسود كما أسلفنا سابقاً.

كان الرعب العالمي الأكبر أن تستطيع روسيا مدَّ شبكة السكك الحديدية إلى أرجاء الجزيرة العالمية، فتسيطر على طرق التجارة، وتنخفض تكلفة المواد عليها، وتنافسُ بذلك القوى العظمى.. وبالفعل ضربت روسيا ضربتها الكبرى، فسعت بكلِّ ثِقَلها لِأَن توجِدَ خطَّاً تواصليًّاً مع أكبر القوى الصاعدة في آسيا وهي الصين، فنجحت مستفيدةً من الطموح الصيني في اتفاقية "شنغهاي"، وضمَّت إليها الهند وباكستان وإيران.. فتحقَّقت المخاوف الأوروبية باتفاق هذه القوى المليارية على توحيد اقتصادها ومصالحها تدريجيًّاً، وعلى توفير القدرات لمدِّ السكك الحديدية إلى أوروبا وإفريقيا. لنسمع أن الرئيس الصينيَّ يشيد بوحدة هذا التكتُّل بقيادة "روسيا"! وهذا يعني أن الرعب الأوروبيَّ الذي بدأ به "ماكندر" حديثه عن قوىً تسيطر على منطقة الجزيرة العالمية، قد أصبح قاب قوسين أو أدنى! وها نحن أمام انقلابٍ كونيٍّ عالميٍّ ضخمٍ، قد حدث بشيءٍ بسيطٍ، وهو اتفاقيات "شنغهاي" التي لم تتبلور حتى الآن!

الصين وأسباب تغيُّبها عن الصراع الدولي:



يطرح السؤال نفسه بنفسه عن أسباب تغيُّب الصين عن ساحة الصراع؟ فلو نظرنا تاريخيًّاً إلى الصين، سنجد أنها دائماً تفضِّل أن تكون معزولةً عن العالم، وكأنه إحساسٌ ملازمٌ لها عبر التاريخ بأنها لا تحتاج إلى التمدُّد أو التفكير في الغزو العسكري للعالم المحيط بها؛ بل تكتَّلت باستمرارٍ حول ذاتها، وبنت سوراً ضخماً حولها؛ بحيث لا يأتيها أحدٌ. وهنا السؤال: أين الصين من هذا الصراع؟ ولماذا لم تدخله كما دخلته روسيا؟

● إن الصين من حيث الموقع ليست دولةً معزولةً كالولايات المتحدة الأمريكية، فأمريكا كما أسلفنا هي جزيرةٌ بحريةٌ محميةٌ بأساطيل، ويحدُّها من اليابسة شمالاً "كندا"، وجنوباً "المكسيك"، وكلا البلدين لا يشكِّلان أيَّ خطورةٍ أو تهديدٍ عليها، وبالتالي لا يوجد لديها قلقٌ جغرافيٌّ. وذلك على عكس الصين، فبنظرةٍ واحدةٍ إلى موقعها الجغرافي، سنجد أنها في منطقةٍ ملتهبةٍ تحيط بها المشاكل من كل صوبٍ وحدبٍ:

- فنجد على صدر الصين هضبة منغوليا، وهي هضبة إشكالية بالنسبة للصين.

- وفوق هضبة منغوليا، توجد روسيا بثقلها الإستراتيجي الضخم الذي شكَّل في لحظةٍ من اللحظات حافزاً وتحدِّياً أثناء الثورة الشيوعية للصينيِّين حينما رفضت روسيا إعطاءَهم أسرار المفاعلات النووية.

- أيضاً تلتحم الصين جغرافيًّاً بقوةٍ ضخمةٍ هي الهند، ولديها خلافاتٌ حول الحدود معها.

- وهناك مناطق (..ستان) التي تحيط بها، ولديها صراعٌ حدوديٌّ معها أيضاً.

- ومن الجهة الأخرى، هناك ما يسمَّى: الهند الصينية (لاوس - فيتنام - وما حولها من مناطق..) التي تعجُّ بمشاكل ليست باليسيرة مع الصين.

- وفي شرقها كوريا الشمالية والجنوبية؛ حيث يحاول الغرب أن يخترق الصين من جانب هذه المناطق المتوترة، كما توجد اليابان التي غزت الصين في حقبةٍ زمنيةٍ مضت.

- وفي البحر المقابل للصين، سنجد مشكلتي تايوان وهونج كونج تؤرِّقانِها باستمرارٍ..

فالصين كعملاقٍ له محيطٌ ضخمٌ جدًّاً، تحتاج مراقبته إلى تكاليف طائلةٍ!

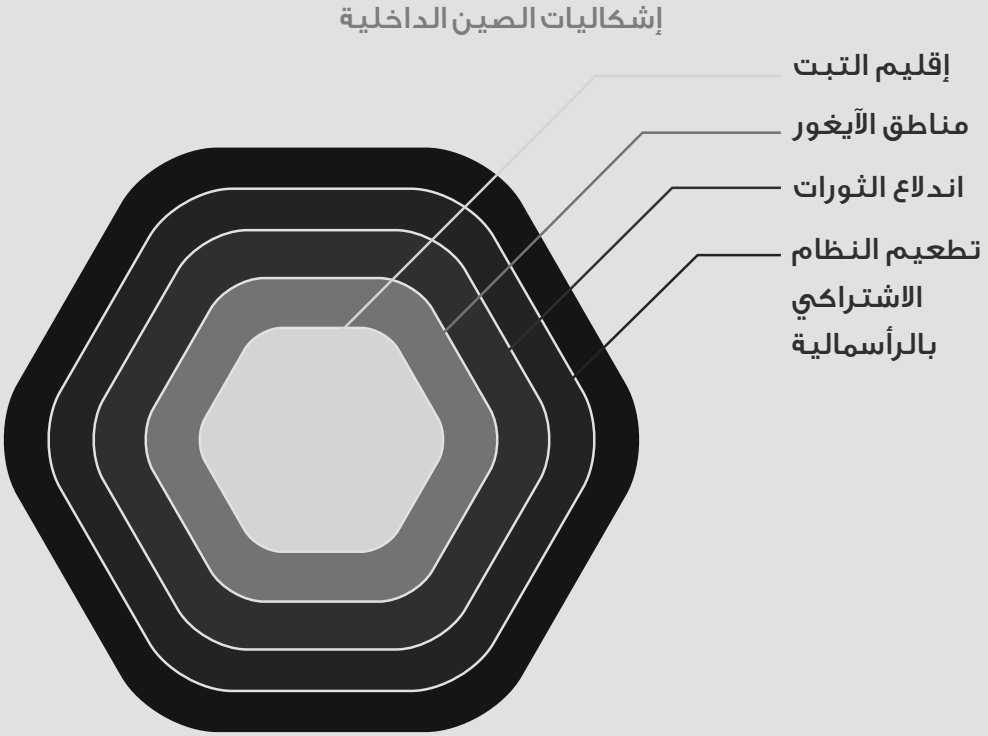
وهذا كله علاوةً عن الصراع في الداخل الصيني، فمعادلة الصين الداخلية فيها إشكاليَّاتٌ عديدةٌ تتمثَّل بـ:

- محاولة انفصال إقليم التبت تاريخيًّاً عن الصين.

- محاولة مناطق الآيغور والمناطق المحيطة بها الانفصال عنها أيضاً.

- انخفاض مستوى الحريات في الصين نسبةً إلى بقية العالم، ممَّا ولَّد ثوراتٍ كبيرةً تمَّ قمعها بقوَّةٍ.

- تطعيم النظام الاقتصادي الاشتراكي الذي بناه "ماوتسي تونغ" بالنظام الرأسمالي.. فهناك تساؤلٌ مستمرٌّ إن كان النموذج المطروح الآن سيقضي على الروح الاشتراكية الموجودة، أم أنه ستنشأ خلطةٌ مناسبةٌ للمجتمع..



إذاً؛ لا زالت الصين تعجُّ بالإشكاليات؛ من ناحيةٍ تصوُّريةٍ إستراتيجيةٍ، ومن ناحيةٍ عمليةٍ في الحريات وحقوق الإنسان، ومن ناحية الأقلِّيَّات التي تريد الانفصال، ومن ناحية المحيط الملتهب الضخم.. فإن هذا كلَّه يستهلك موارد عملاقةً منها، ويجعلها عرضةً لإشكاليَّاتٍ ضخمةٍ، في حين أنها تريد التركيز على التنمية التقنية والمعرفية والاقتصادية.. التي يكون لها نقطة ارتكازٍ وقوةٍ مع العالم الخارجي، وبالتالي تسير على نهج التقليل من الصدامات الخارجية قدر الإمكان لتشتغل على الملف الداخلي توسيعاً لقوتها الذاتية، على عكس الولايات المتحدة الأمريكية التي تستنزف نفسها في الخارج على حساب بنائها الداخلي والتعويل عليه!

وعلى الرغم من هدوء التعبير، إلا أن الصين تُعِدُّ لاتفاقية "شنغهاي" إعداداً ضخماً، فالعملاق الصيني الذي يبدو هادئاً ونائماً ومتغافلاً.. هو في حالةٍ حيويةٍ، ويُعِدُّ لمستقبله إعداداً كبيراً!

مراكز الثقل الإستراتيجي:

هناك فكرةٌ أخرى كانت تحيط بفكرة العالم، وهي "مركز الثقل الإستراتيجي في العالم"، وهذه الفكرة أيضاً نحتاج إلى استحضارها معنا عند الحديث عن الجيوبوليتيك.. فماذا يُقصد بمركز الثقل الإستراتيجي في العالم؟ وهل هو مركزٌ ثابتٌ، أم متحرِّكٌ؟

إن مركز الثقل الإستراتيجي يُعرف عندما يتكثَّف حضور القوى العالمية في منطقةٍ محدَّدةٍ من العالم؛ أي: عندما يحدث صراعٌ على منطقةٍ محدَّدةٍ، فيعرف حينها أنها هي القلب الجديد للعالم، فإذا نظرنا إلى تاريخ العالم، سنجد أنه في لحظةٍ تاريخيةٍ معيَّنةٍ التقى الصراع الروسي والأمريكي والإسرائيلي والبريطاني والفرنسي في منطقه ارتطامٍ حادَّةٍ جدَّاً، هي قناة السويس؛ حيث كانت تشغل نقطةً محوريةً في تطوُّر العالم في ذلك الوقت، وأهميتها لم تكن اقتصاديةً فقط؛ كونها الممرَّ الوحيد الذي يربط البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر الذي تعتمده التجارة العالمية بشكلٍ كبيرٍ، ولكن من يسيطر على هذه المنطقة، فسيسيطر على عصب العالم الحيوي الذي تتحرَّك منه السفن والناقلات العملاقة. وبمرور الأيام تغيَّرت هذه الفكرة نتيجة تطوُّر السفن والنقل البحري بشكلٍ كبيرٍ جدَّاً، وأصبح الموضوع متعلِّقاً بالطاقة، فانتقل مركز الثقل الإستراتيجي إلى مناطق البترول في العالم، واشتعل الصراع حولها، فشهدنا صراعاً جوهريَّاً ضخماً جدَّاً بين القوى الأوروبية وبين الاتحاد السوفييتي حول اختراق الشرق الأوسط أو تركه، وأقيمت القواعد، وأصبحت منطقة الشرق الأوسط مبتلاةً بالحروب نتيجة غزارة البترول فيها، أما في أيامنا هذه ، فقيل: إن مركز الثقل الإستراتيجي قد انتقل إلى جنوب شرق آسيا؛ نتيجة ظهور قوة الصين، وبسبب عدم حاجة أمريكا إلى بترول الشرق الأوسط؛ نظراً لتطوُّر تقانة استخراج البترول من الصخر، وظهور مخزونات آلاسكا، فبدأ التفكير بشكلٍ مفاجئٍ في إخلاء منطقة الشرق الأوسط تدريجيَّاً، ومع فكرة تقليل الوجود الأمريكي في المنطقة، أصبحت مسرحاً للصراع بين القوى الإقليمية في المنطقة؛ فبرز دور إيران وتركيا وإسرائيل، وحاول بعض العرب الدخول في اللعبة، وأخيراً دخلت روسيا

لإسناد حلفائها، وهدف كل الأطراف من التقدُّم هو حضورهم على مائدة اتخاذ القرارات بشأن المنطقة، فمن يمتلك وجوداً عسكريًّاً على الأرض، لا يمكن تجاهله في المفاوضات أثناء تشكيل مستقبل المنطقة.

صراع الكبار:

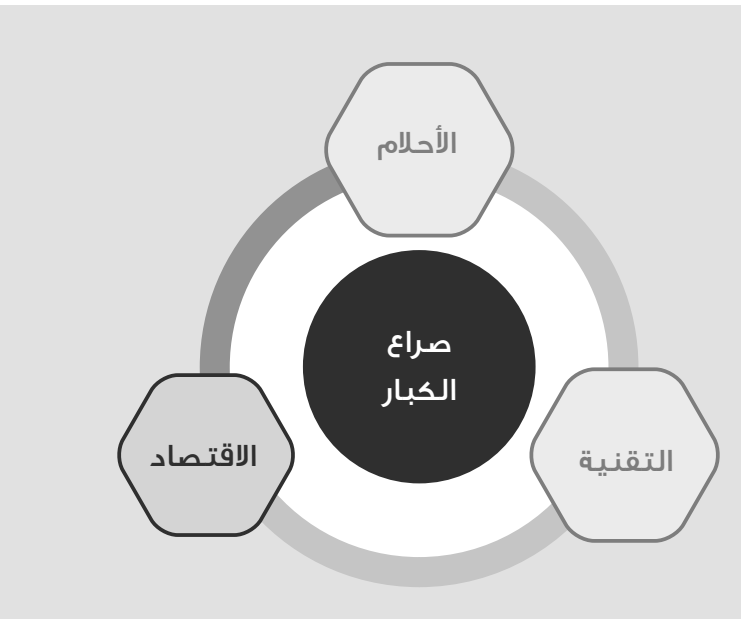
يتحكَّم في صراعات الدول الكبرى ثلاثة أمورٍ أساسيةٍ تتمثَّل بـ: أحلام تلك الدول وكبار مؤسِّسيها، وأيضاً بالمجال التقنيِّ العلمي، فالحروب لم تعد تدار بعدد، الأفراد إنما تدار بتقنياتٍ وخوارزمياتٍ معقَّدةٍ، وأيضاً ببناء الاقتصاد الضخم الذي يزيد فيه الصادرات عن الواردات.

بين أمريكا والصين:

بالنظر إلى صراع الكبار، وتحديداً أمريكا والصين، كفرسَي رهانٍ يمتلكان الأدوات أكثر من غيرهما، سنجد أن لكلٍّ من البلدين ما يميِّز أحدهما عن الآخر:

- امتيازات الولايات المتحدة الأمريكية:

من ناحية الوزن الاقتصادي؛ نجد أن إجمالي الناتج القومي في أمريكا حوالي واحد وعشرين ترليون دولار، في حين تقول بعض المصادر الموثوقة: إن إجمالي الناتج القومي في الصين حوالي أربع وعشرين ترليون دولار، ولكن في المقابل هذا الرقم مقسَّم في الصين على مليار وثلاث مئة مليون من البشر، أما في أمريكا فهو مقسَّم على حوالي ثلاث مئة وتسعين مليوناً من البشر.



- أما من الناحية التقنية؛ فنجد أن لدى الولايات المتحدة الأمريكية تقنيةً متقدمةً أكثر بكثيرٍ عن الصين والروس.
- ومن الناحية العسكرية؛ نجد أن القوة الأمريكية أيضاً متقدِّمةٌ على القوة الصينية، فالقوة الأمريكية هي قوةٌ مستعدَّةٌ، أما الصين وغيرها فهي قواتٌ صاعدةٌ.
- أما من ناحية ماذا بيد أمريكا ضد الصين؟
- نجد أن الأمريكان يوجِّهون اتهاماتٍ دائمةً للصين، وأكبر تلك الاتهامات تتمثَّل بالتجسُّس الصناعي، واعتداء الصين على الملكية الفكرية لهم، فما إن تُطرح فكرة في الولايات المتحدة الأمريكية، نجد أن الصين تصنِّعها، وتنشرها في الأسواق.
- وأيضاً نجد أن أمريكا قد حدَّت من الصادرات الصينية إليها.

- امتيازات الصين:

- ديموغرافية الصين تتميَّز بقوةٍ؛ حيث إن لدى الصين كتلةً بشريةً ضخمةً تسمح لها بتحريك السوق الداخلية حتى وإن قاطعها العالم.
- وأيضاً موقع الصين الجغرافي، وعلى اشتعاله، إلا أنه أكثر حيويةً من موقع الولايات المتحدة الأمريكية.
- وممَّا يميِّز الصين أيضاً أن لديها نموَّاً مطَّرداً مستمرَّاً نلحظه بقوةٍ؛ سواء على الصعيد الثقافي، أو العلمي، أو الاقتصادي، أو التقني؛ فيوجد في الصين اليوم حوالي خمسة جامعاتٍ معنيَّةٍ فقط بمشروع السكك الحديدية، وأيضاً حاولت الصين ونجحت بالقضاء على الهيمنة الأمريكية على فضاء الاتصالات، فتحرَّروا من هيمنتها التقنية، وتحرَّروا أيضاً من الهيمنة الإعلامية، فأصبحوا هم المسيطرين على فضائهم الداخلي، كما تميَّزت بسباق التقدُّم بإعانة الدول والوصول إليها، ومحاولة بناء شراكاتٍ إستراتيجيةٍ مع العالم.

- أوراق أخرى للَّعب بين الصين وأمريكا:

- تايوان: وهي منطقةٌ تتألف بالأصل من الشعب الصيني، ويستمرُّ الصراع عليها بين الولايات المتحدة والصين، فالشعب في تلك المنطقة انفصل عن الفكرة الشيوعية، وأنشأ نظاماً رأسماليَّاً، وأقام تحالفاتٍ مع الولايات المتحدة الأمريكية.

- **إيران:** تعتبر إيران أيضاً من المناطق المركزية التي يدور حولها صراعٌ ضخمٌ، ونجد أنها قد عزَّزت علاقاتها مع الصين بشكلٍ مكثَّفٍ، وتعوِّل الصين على النفط الإيراني كعاملٍ مهمٍّ في تغذيتها.
- **كوريا الشمالية:** عند النظر إلى عقدة كوريا الشمالية، نراها تبدو وكأنها جزءٌ من قرن التنِّين النائم. وقد طوَّرت كوريا الشمالية نفسها بشكلٍ مرعبٍ، وأصبحت تمتلك أكثر من ستين رأساً نووياً، كما أنها طوَّرت صواريخها بما يمكِّنها من ضرب السواحل الأمريكية، وقد حاولت أمريكا في فترةٍ غير بعيدةٍ تفعيل حالة غزلٍ مع كوريا الشمالية، ممَّا أزعج الصين وجعلها تتجه مرَّةً أخرى إلى إصلاح علاقاتها معها.
- **كوريا الجنوبية واليابان:** وتبقى كلٌّ من اليابان وكوريا الجنوبية كالطوق الذي وضعته الولايات المتحدة الأمريكية حول الصين وروسيا، بما في ذلك أرخبيل الفلبين وأندونيسيا و..

إن فهم القضايا الجيوبولتيكية الكبرى؛ كالفعل الأمريكي، وردِّ الفعل الروسي، وعقدة الصين، وأسباب غيابها عن النشاط العالمي (رغم أهميتها الإستراتيجية وتركُّز النظر إليها)، وفهم العلاقات المركَّبة بين الاقتصاد والسياسة، وفهم التدافع العالمي، والسعي نحو التموقع في العالم، والفارق بين الموقع والتموقع.. وإلى غير ذلك من القضايا.. يجعل الإنسان أكثر وعياً واستيعاباً، وأكثر امتلاكاً للأدوات التي تمكِّنه من تقييم الأحداث الصغرى التي نستمع إليها في الأخبار ووضعها في المكان الصحيح، والابتعاد عن الفهم السطحي الذي اعتدنا أن نتعاطى به عند التعامل مع خارطة العالم وتحرُّكاته، فتتخلَّق لدى الفاهم لِخارطة تلك الأحداث قوةٌ على مسرح التفكير والتصوُّر، تجعله يتلقَّى التحليلات التي يسمعها، ويُسقِط منها أو يضيف وفق إطارٍ ناضجٍ..

ثالثاً- لعبة الشطرنج العالمية

إن مصطلح لعبة الشطرنج كان قد استُخدم لتشبيه العالم بأحجارٍ متصارعةٍ، أو للدلالة على القوى المتحكِّمة في العالم.. وسنستعير هنا التشبيه تعبيراً عن حالة الصراع الكبير، فالعالم باستمرارٍ كرقعة شطرنجٍ تقوم فيه التحرُّكات والتحرُّكات المضادَّة من غير توقُّفٍ.

وسنتابع في الفقرات القادمة إيضاحاً لتحرُّكات اللعبة العالمية عبر رحلةٍ سنستكمل فيها بعض الأجزاء الهامَّة من الفقرات السابقة التي كنَّا قد بدأنا بها في الجيوبوليتيك..

خارطة العالم من زاويةٍ أخرى:



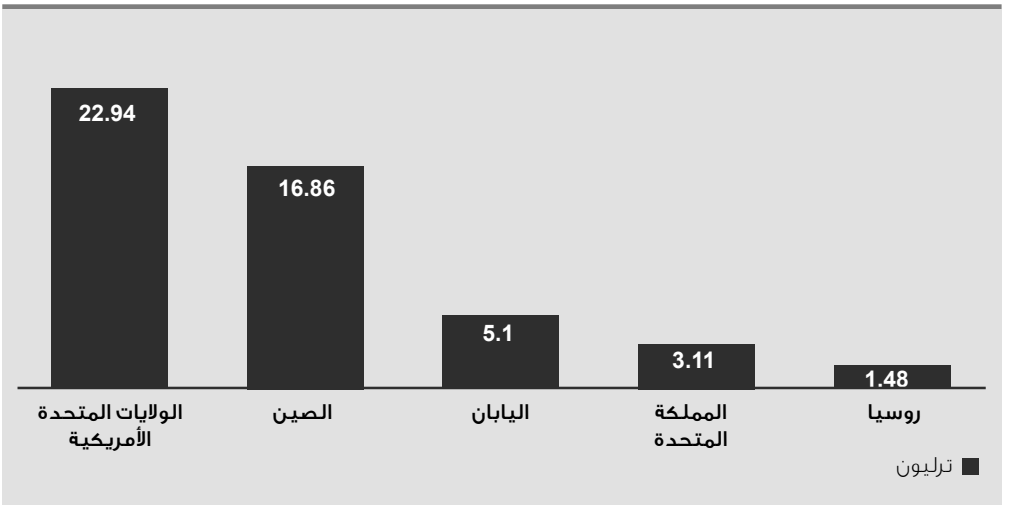
بعدما عجز الألمان كما أسلفنا عن احتلال روسيا، تحوَّلت فكرة "احتلال قلب العالم" إلى فكرة "حصار قلب العالم"، ونشأ مع هذه الفكرة تصوُّرٌ جديدٌ لخارطة العالم؛ يبدو فيها وكأنه قلبٌ ويحيط به هلالان؛ هلالٌ لصيقٌ به يسمَّى: منطقة الارتطام أو الهلال الداخلي، وهلالٌ بعيدٌ يحيط بالهلال الداخلي نسمِّيه: الهلال الخارجي، ويبدأ من بريطانيا، ثم أمريكا، وأستراليا، واليابان، وجزر أخرى.. ومن هذا التقسيم تأتي فكرة أن من يحتل الهلال الداخلي يحتل القلب، ومن يحتل القلب يحتل العالم.

وزن اللَّاعبين الاقتصاديُّ:

كنَّا تحدثنا في الفقرات السابقة عن اتفاقية "شنغهاي" وحلف القوى المليارية، ولمزيدٍ من اتضاح الصورة وملء الفراغات، لا بدَّ لنا من وقفةٍ مع الجانب الاقتصادي لهذه الدول الذي

يقلب الموازين ويضبط حالة الأوهام التي تصنعها الخيالات الجامحة، فالبعض يتصوَّر أن الغرب سينتهي، وكذا الحال بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية، وأنه سيبدأ العصر الصيني والروسي بتلك البساطة.. وهو احتمالٌ موجود، إلا أنه لا يزال ضعيفاً في الفترة الراهنة.

إجمالي الناتج المحلي للدول الكبرى:



وأُولى الحقائق التي يجدر الوقوف عندها هو وزن اللَّاعبين السياسيِّين اقتصاديًّاً، فالحروب تحتاج إلى اقتصادٍ، أي: احتياطٍ ماليٍّ موجودٍ في الدولة، وقدرةٍ على تحمُّل الضغوط والأعباء المادية، دون انهيار البلاد، فعشر سنواتٍ من الحرب في كلٍّ من إيران والعراق أدَّت إلى تدهور أحوال البلدين، وانخفضت قيمة العملة وتردَّت بشكلٍ لم يُتَمكَّن من إصلاحه بعدُ.

وإن أول ما يُنظر إليه لتقييم اقتصاد بلدٍ ما عادةً الـ"GDP"، أي: ما يُسمَّى: "مستوى إجمالي الناتج المحلي"، وهو رقمٌ ماليٌّ معيَّنٌ يقاس به اقتصاد الدول، وتتمُّ المقارنات من خلاله فيما بينها. وإن أكبر مستوى لـ"GDP" بين بلدان العالم بحسب بعض الدراسات على اختلافها هو اقتصاد الولايات المتحدة الأمريكية الذي يبلغ حوالي 23 ترليون، وثاني أكبر اقتصادٍ هو اقتصاد الصين؛ حيث يبلغ بحسب الشائع حوالي 17 ترليون، وتليهم اليابان بإجمال ناتجٍ محليٍّ يبلغ حوالي 5 ترليون، ثم ألمانيا بحوالي 4 ترليون، ثم بريطانيا بحوالي 3 ترليون، ثم روسيا بحوالي 1.5 ترليون.

فروسيا بهذا المعنى هي عملاقٌ عسكريٌّ يمتلك أسناناً حادَّةً جدَّاً، إنما من ناحية الاقتصاد تأتي في المرتبة الثانية عشر في ترتيب اقتصاد العالم!

والسؤال هنا الذي يطرح نفسه: كيف لدولةٍ ضعيفةٍ اقتصاديًّاً كروسيا أن يكون لها وزنٌ كهذا في السياسة الدولية؛ بحيث تكون المنافس الرئيس للولايات المتحدة الأمريكية!؟

روسيا واللعب خارج الوزن:

حجم الإنفاق العسكري

استثمرت روسيا على مدار سنواتٍ في الإنفاق العسكري، فبحثت عن توازنٍ لها مع الغرب من خلال الصناعات البالستية والتوسُّع في الصناعات النووية.. فأنفقت إنفاقاً ضخماً في هذا المضمار، لتُحدِث بذلك ما يسمَّى: توازن الرعب.

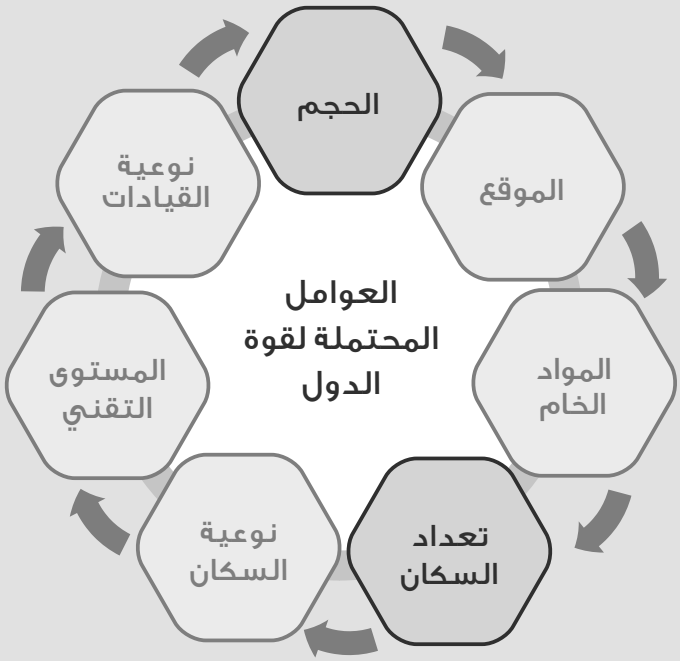
توازن الرعب:

ويُقصد بهذا المصطلح القدرة على تدمير الخصم بالقدرة ذاتها التي يستطيع بها الخصم أن يدمِّرها، حتى ولو لم تكن متكافئةً معه اقتصاديًّاً..

فلم يوجَّه الاقتصاد الروسي لصالح الإنسان وبنائه في الدرجة الأولى، إنما وُجِّه لصالح الإنفاق العسكري، فالعملة ضعيفةٌ، والإنسان الروسي ضعيفٌ داخل مجتمعه، ولكن روسيا كقوةٍ عسكريةٍ هي بلدٌ قويٌّ جدَّاً، وهذا ما شهدناه في الحرب الأوكرانية، فروسيا لديها قوةٌ تدميريةٌ، ولكنها تفتقر إلى القوة النوعية!

عوامل القوة المحتملة:

حينما نقول: إن روسيا تفتقر إلى القوة النوعية، ذلك لأن توازن القوى عالميًّاً يحتاج إلى عوامل أخرى تختلف عن القوى العسكرية، فهناك عوامل محتملةٌ لقوة الدول، ونقول: محتملة؛ لأن هذه العوامل قد تكون عوامل ضعفٍ في بعض الأحيان، وليس بالضرورة أن تكون عوامل قوةٍ دائماً، فالدولة إذا لم تمتلك ذكاءً وفعلاً لتحويل القوة المحتملة لديها إلى قوةٍ حقيقيةٍ، فستتحوَّل إلى منطقة استنزافٍ ماديٍّ، فتغدو عليها نقمةً بدلاً من أن تكون لها نعمةً، ومن تلك العوامل المحتملة:



● حجم الدولة:

إن حجم الدولة الكبير يُسهم إسهاماً هامًّاً في كثرة الثروات والمواد الخام التي تغذِّي المصانع وتقوِّي حركة البلاد، ولكن في حال الضعف العلمي للدولة، ستصبح المساحات الواسعة عبئاً، فمصر على سبيل المثال هي بلدٌ كبيرٌ، ولكن المساحات المأهولة فيها حوالي 5% فقط، وهي الأراضي المحيطة بنهر النيل، أما بقية المساحة 95%، فهي أراضٍ صحراوية غير مأهولةٍ، وكثيراً ما تكون مرتعاً للمناوئين للدولة والمهرِّبين.. وهذا حال ليبيا أيضاً، وكثيرٍ من المناطق الأخرى التي تُعتبر فيها المساحات الواسعة همًّاً، بدلاً من أن تكون ميزةً.

● الموقع:

موقع الدول أيضاً يلعب دوراً هامًّاً، فروسيا هي دولةٌ محاصرةٌ، ولا يوجد لها مناطق تطلُّ منها على المياة الدافئة إلا مساحةٌ صغيرةٌ تطلُّ منها على البحر الأسود، فتعبر سفنها من ممرَّاتٍ مملوكةٍ لدولٍ أخرى، وهذا على عكس الولايات المتحدة التي تُعتبر كجزيرةٍ كبرى تحيط بها المياه من كل اتجاهٍ، فتسهُل حركة أساطيلها ويصعب حصارها.. وهذه الميزات

المتعلِّقة بالموقع هي ذاتها تسبِّب حروباً وإشكاليَّاتٍ، كالحرب بين الكويت والعراق؛ فالعراق دولةٌ ضخمةٌ تتمتَّع بموارد كثيرةٍ، إلا أنها مخنوقةٌ من الناحية المائية باستثناء شطٍّ صغيرٍ، فتبدو محاصرةً، وهذا جزءٌ من مشكلتها مع الكويت التي تتمتع بشواطئ واسعةٍ على الرغم من صغرها.

● الموارد الخام:

الموارد الخام أيضاً من العوامل التي يمكن أن تكون من الميزات، أو تتحوَّل إلى أزماتٍ؛ فوجود المواد الخام الأولية في الدول الإفريقية أطال فترات احتلالها وإضعافها من قبل القوى الغربية، وأيضاً كثيرٌ من دول النفط يؤخذ منها النفط الخام بأسعارٍ زهيدةٍ ليُصنَّع في دولٍ أخرى ويعود إليها فتشتريه بأضعاف المبالغ التي باعته بها.

● عدد السكَّان:

يلعب عدد سكَّان البلاد دوراً هامَّاً، سلباً أو إيجاباً؛ فيعتبر عدد السكَّان الكبير ميزةً هامَّةً للدول المتقدمة، التي يُحسَن فيها إدارة البلاد، ونجد أن بعض الدول تطمح إلى زيادةٍ معيَّنةٍ في عدد سكَّانها كماليزيا، ففي حين أن عدد سكَّانها يبلغ حوالي 25 مليون نسمةٍ، إلا أنها تطمع بأن يصل في السنوات القادمة إلى 50 مليوناً من أجل صنع سوقٍ داخليَّةٍ ضخمةٍ تُصنِّع فيه وتبيع. وبالمقابل قد يغدو عدد السكَّان الكبير نقمةً على الدول المتأخرة؛ فمصر مثلاً عدد سكَّانها حوالي 100 مليون، وتعتبرهم عبئاً عليها.

● نوعية السكَّان:

إنَّ عدد السكَّان ليس بأهمية نوعية الشعب وإنتاجيَّته، فاليابانيون مقارنةً بدولٍ أخرى عددهم قليلٌ جدَّاً أمام ضخامة إنتاجيَّتهم. على عكس شعوبٍ أخرى تكثر شعوبها، إنما تقلُّ الإنتاجية لديها، ومثال هذا واضحٌ في الدول العربية؛ فبلداننا تتمتَّع بممرَّاتٍ وموارد وإمكانيَّاتٍ عاليةٍ، إنما مستوى إنتاجية الفرد محدودٌ، وهذا يسهم في إضعافها.

● المستوى التقني:

من البنود الهامَّة جدَّاً في تقييم الدول المستوى التقني، فدولةٌ مثل اليابان أو أمريكا أو الصين يُنظر إليها باعتبار المستوى التقني الدقيق الذي وصلت إليه.

● نوعية القيادات وطموحاتها:

من القضايا الهامَّة في هذا السياق نوعية القيادات في الدولة ومدى تبلور طموحاتها، وحساباتها الدقيقة للأرجل الأربعة للطاولة السياسية التي تكلَّمنا عنها، وهذا يتضح في المواقف العملية للدول.

حينما يتضح لنا حجم الطموح وإستراتيجية الصراعات واتخاذ القرار الذي تحتذيه قيادات الدول، نستطيع أن نتنبَّأ إلى حدٍّ ما: كيف ستسير الأحداث فيما بعد؛ فممَّا يتضح لنا من سياسة روسيا مثلاً في طريقة مفاوضاتها مع الغرب بعد سقوط الاتحاد السوفييتي بأنها تدفع بالصراع إلى حدٍّ عالٍ جدًّا، ثم تساوم على سقفٍ أخفض منه بالقدر الذي تحتمله، وهذا يجعلنا قادرين على خلق تصوُّرٍ معيَّنٍ لانتهاء الحرب الروسية الأوكرانية -وإن لم يكن على سبيل الجزم- فممَّا يُتَصوَّر كمآلٍ للحرب أن تخفِّف روسيا حدَّة الصراع مقابل إعطائها بعضَ المكاسب لا جميعَها.

أين دور الدول الإقليمية؟

من الأسئلة الهامَّة التي تخطر في بالنا في صراع العمالقة على رقعة الشطرنج: ما دور الدول الإقليمية، أي: الأصغر مكانةً وتأثيراً، مثل: تركيا، وإيران..؟

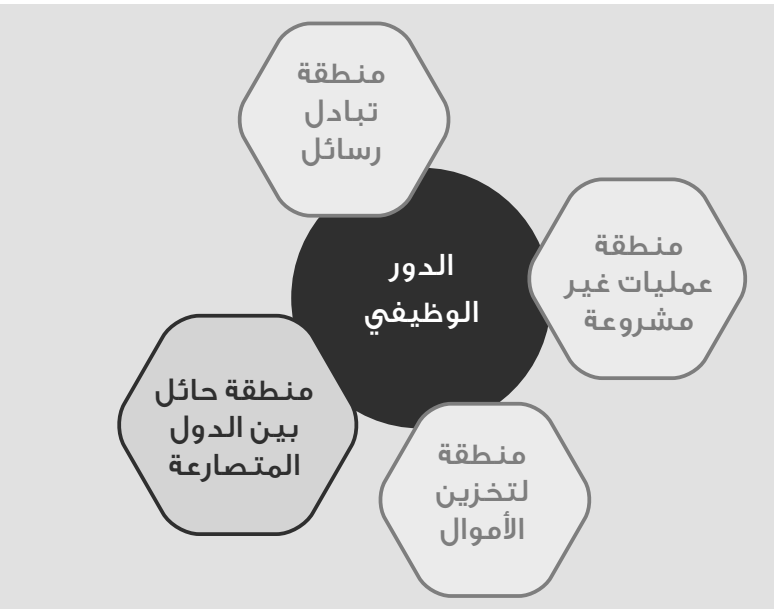
● التمركز الإقليمي:

وظيفة اللاعب الإقليمي أن يُعاظم دوره المحلي بما يضمن ويرعى مصالحه

إن هذه الدول في سعيٍ دائمٍ نحو خلق مكانةٍ لها تحقِّق بها وجودها وتخدم مصالحها، ومن أهمِّ عمليات التمركز التي تسعى لها هذه الدول "التمركز الإقليمي"؛ أي: أن تصبح قوةً يُرجع لها في القرارات التي تخصُّ الإقليم الذي تشغله، فلا يتمُّ اتخاذ قرارٍ دوليٍّ دون أن يمرَّ عليها، فتصبح رقماً هامًّاً في هذه المعادلة، ويمكن قراءة تحرُّكات هذه الدول بهذا الاعتبار؛ فتركيا مثلاً سواء بالملفِّ السوري أو الروسي، أو ملف البوسنة، أو أوروبا الشرقية.. تبدي حضوراً إقليميًّاً واضحاً؛ بحيث تدعم سير الأحداث أو تعيقه في الرقعة الجغرافية المحيطة

بها بما يدعم مصالحها باستمرارٍ. وأما إيران، فنجدها قد وضعت أذرعاً عسكريةً لها في لبنان وفلسطين واليمن.. وحينما يُتخذ قرارٌ ما يخصُّ هذه المناطق، تكون حاضرةً في ساحة القرار.

● الدور الوظيفي:



الأمر الثاني الذي يمكن أن تقوم به الدول الصغرى هو البحث عن أدوارٍ وظيفيةٍ في خضمِّ رقعة الشطرنج المعقَّدة، فبعض الدول في العالم وجودها يكمن في الدور الوظيفي الذي تشغله، وتتنوَّع أشكال الدور بتنوُّع الموقع الجغرافي والإمكانيات التي تتمتَّع بها هذه الدول:

- فالدور الوظيفي لبعض الدول يكمن في كونها حائلاً "Bufferzone" بين طرفين من أن يصطدمَا اصطداماً مباشراً، وهذا كالدور الذي كانت تلعبه أوروبا الشرقية حينما كانت حائلاً بين حلف الناتو وحلف وارسو، والأردن في يومنا أيضاً يمكن اعتبارها "Bufferzone" بين إسرائيل والمنطقة العربية، وهذا الدور لا يأتي غالباً للدولة عن سبق تخطيطٍ أو إصرارٍ، إنما يحدث لكونها تشغل منطقةً جغرافيةً هامَّةً لبعض الأطراف، فتستغل الدولة ذلك وتشغل هذا الدور بما يحقِّق مكانةً لها ويضمن مصالحها.

- كما يمكن أن يكون الدور الذي تشغله بعض الدول كونها منطقةَ تبادلِ رسائلَ في العالم كأفغانستان ولبنان.. فتتبادل الدول الكبرى رسائلها من خلال هذه الدول الصغرى، وتأتي الرسائل من خلال تفجيراتٍ معيَّنةٍ، أو قتل شخصياتٍ، أو نحوه..

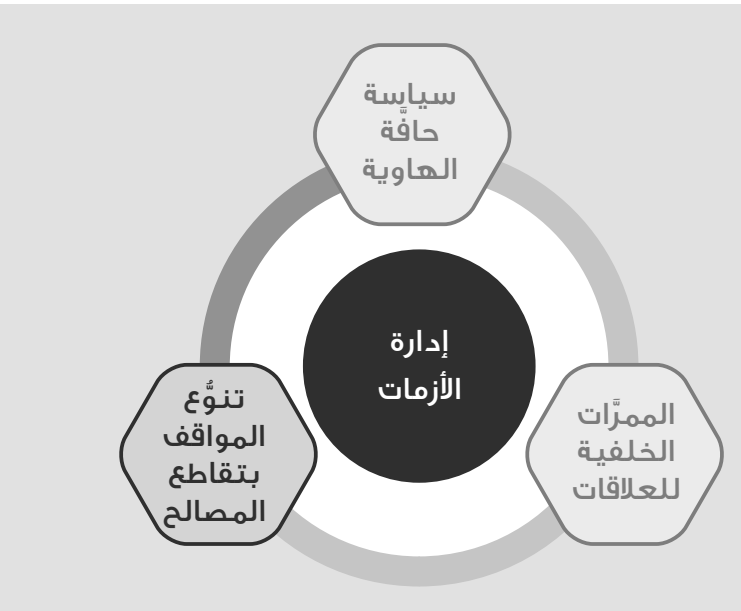
- وهناك مناطق أخرى دورها الوظيفي القيام بالعمليات غير المشروعة؛ كتجارة السلاح أو المخدرات، أو تبييض الأموال.

- وهناك مناطق دورها تخزين الأموال كسويسرا مثلاً..

فتتنوَّع الأدوار الوظيفية التي تشغلها الدول الصغرى داخل النظام الدولي في ظلِّ انشغال الدول الكبرى بما يحقِّق لها المصالح والمكاسب.

بعض الأشكال الهامَّة لإدارة الأزمات في السياسة:

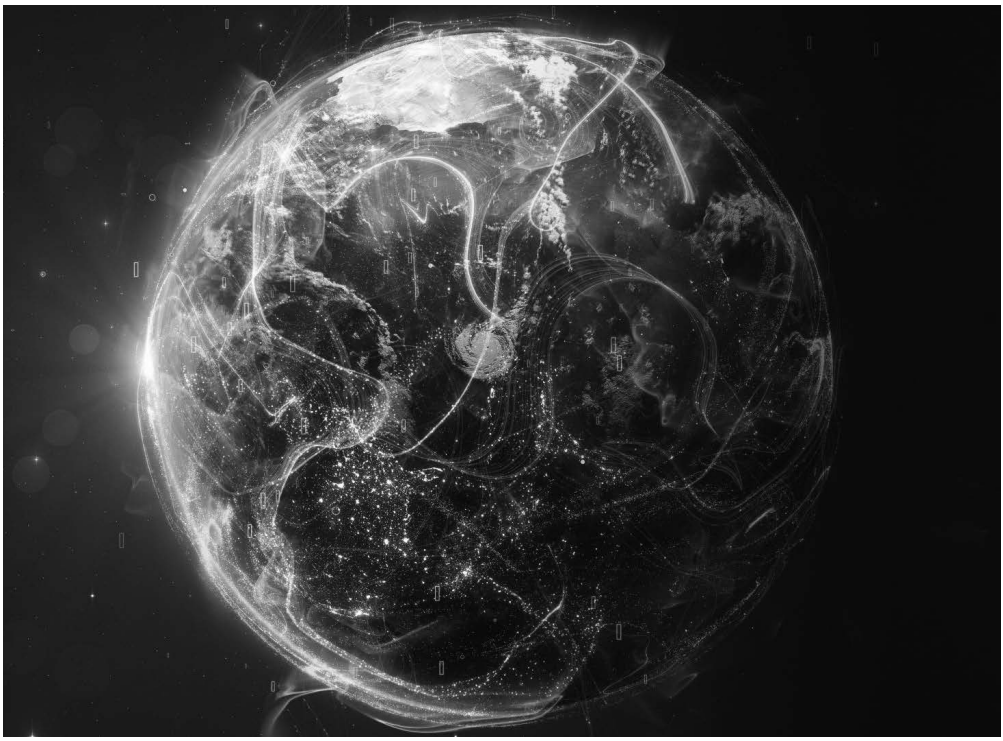
● سياسة حافَّة الهاوية:



من السياسات السائدة التي تُتَّبع عند الأزمات بين الدول ما يُسمَّى: سياسة حافَّة الهاوية، ويتجلَّى هذا المفهوم على أرض الواقع حينما نجد نزاعاً حادَّاً يحدث بين قوتين كبيرتين، فتتعالى المشادَّات لتصل إلى أعلى مستوياتها حتى يكاد يُظنُّ أن الحرب ستنفجر.. وفجأةً تُعقَد بين الطرفين اجتماعات ولقاءات لنجد أن الأزمة قد شارفت على الانتهاء، وأنَّ حالة التصعيد قد تراجعت، فسياسة حافَّة الهاوية هي حالة التصعيد إلى أعلى الدرجات، لكن ليس للوصول إلى الحرب كما يعتقد البعض، إنما بهدف الوصول إلى التسوية، وهي سياسةٌ معتمدةٌ في كثيرٍ من أزمات العالم التي تحدث من حولنا، وإلا لَكانت الحرب مشتعلةً على الدوام في العالم على أوجها..

في العلاقات السياسية: الكثير من التصعيدات التي توهِم البعض أن الحرب قد آنَ أوانها.. الغرض الخفيُّ منها تحريك الملفات للوصول إلى تسوياتٍ معيَّنةٍ

وهذه السياسة من المهمِّ أن ندركها جيِّداً؛ درءاً لأن نقع ضحيةً لآراء الخرَّاصين الذين يذيعون باستمرارٍ نهاية العالم مع كل تصعيدٍ من هذا النوع..



● الممرَّات الخلفية للعلاقات:

إن وجود ممرَّاتٍ خفيَّةٍ بين الدول، هو نوعٌ من السياسات التي تخفى على الكثير من الناس، فإعلان إحدى الدول القطيعة مع دولةٍ أخرى، لا يعني عدم وجود قنواتٍ خلفيةٍ بينهم، ففي السياسة الدولية تلعب الممرَّات الخلفية دوراً هامَّاً في هندسة الصراع بين الأطراف، فالتصعيد أو القطيعة بين الدول لا يعني القطيعة التامَّة فيما بينها، فليس من المستغرب أن تنكشف لقاءاتٌ بين الدول المتصارعة -إلا لمن لا يقرأ السياسة بشكلها الصحيح-؛ فالممرَّات الخلفية تشتغل بشكلٍ شبه دائمٍ في حالات الصراع والحروب والانقطاعات..

● تقاطع المصالح سلباً وإيجاباً وتنوُّع المواقف:

هذه قضيةٌ تشغِّب على عقول كثيرٍ من الناس؛ خاصَّةً في البيئات التي لا تعرف إلا نمط الأسود أو الأبيض، فمثلاً قد تختلف تركيا مع إسرائيل في كثيرٍ من الملفَّات، ويتفقون على ملفَّين أو ثلاثةٍ.. فهل سيتمُّ إلغاء الملفَّين مقابل الملفَّات الأخرى المختلف فيها!؟ ما يحدث في السياسة -غالباً- هو أنه تتمُّ الموازنة بين هذه الملفَّات بما يخدم مصالح الطرفين!

فقضية الأسود والأبيض السائدة في عقولنا، والتعاطي من خلالها مع تعقيدات الواقع، هي ما يشكِّل لنا حالة الصدمة باستمرارٍ، ففي كل مرَّةٍ نعلن الصدمة حينما نرى إحدى الشخصيات التي ننظر إليها على أنها بيضاء أو سوداء تدخل في منطقة اللون المقابل..

في العلاقات السياسية تُقسم الصراعات إلى ملفَّاتٍ، وكل ملفٍّ يُتعاطى معه بطريقةٍ مختلفةٍ عن طريقة الملفات الأخرى بما يخدم مصالح الدول بعيداً عن العواطف

الخلاصة

حينما نتكلم اليوم عن لعبة الشطرنج العالمية بما فيها تقسيمات (القلب والهلال الأوسط والهلال الخارجي)، والسيطرة على الجزيرة، ووزن اللَّاعبين السياسيِّين، وتفاوت القوى فيما بينهم بكل جانبٍ على حدةٍ، وأن قوة الجانب العسكري لا تعني قوة الجانب الاقتصادي.. وكيف أنه من الممكن أن تكون عوامل القوة لدولةٍ ما هي ذاتها عوامل الضعف لدولةٍ أخرى إذا لم تحسن استخدام الموارد لديها، وكذلك نوعية القيادة وطموحها، والتمركز الإقليمي للدول، أو تفعيل الدور الوظيفي، وأيضاً نوعية الإدارة بالأزمات.. فجميع هذه القضايا والمفاهيم يجب أن تكون حاضرةً في عقولنا؛ لكونها العدَّة الأساسية في فهم اللعبة الدولية، وحضورها في عقولنا تجعلنا في أمانٍ من الشطح الذي نسمعه في التحليلات السياسية، فامتلاكنا لهذه الأدوات يمكِّننا من التمييز بين الآراء الواقعية والجادَّة في التحليل، وبين ذوي النظرة الأحادية للعالم الذين يتكلمون وكأنهم يمتلكون التقارير النهائية التي لا يمتلكها رؤساء الدول الكبرى أنفسهم!

رابعاً- الوطن العربي جيبوبوليتيكيّاً (معايير التقييم)

كنَّا تحدثنا سابقاً عن تصرُّفات الدول في ضوء معطياتها واحتياجاتها، وكيف أنها تُقسم إلى دولٍ كبرى عالميةٍ، ودولٍ إقليميةٍ، ودولٍ صغرى.

وما نضيفه في هذه الفقرات، هو أنه لكلٍّ من هذه الدول دوائر تسعى لتزيد من خلالها قوتها وتحقِّق مصالحها وفق ثلاثة اعتباراتٍ؛ اعتبار الدولة (الوطن)، واعتبار الدين (الأيديولوجيا)، والقبيلة (القومية)، وتختلف أولويات الدول من ناحية هذه الاعتبارات؛ فالأتراك مثلاً يأتي لديهم الوطن أولاً، ثم يليه الدين أو القبيلة.. وبالتالي كافَّة القرارات التي تُتَّخذ لديهم، تتخذ بالنظر أولاً إلى مصلحة وطنهم؛ وهذا ممَّا يبرِّر التعاون التركي مع إسرائيل الذي استنكره الكثيرون ممَّن لا اطِّلاع لهم على الجيوبوليتيك..

ونجد دولاً أخرى قد تبالغ في الجانب العسكري على حساب جوانب أخرى بما يضمن لها خلق حالة "توازن رعب" مع بقية الدول الكبرى، وهذا نجده غالباً لدى الدول التي تؤمن بأيديولجيا معينةٍ غير مقبولةٍ عالميًّاً، كالاتحاد السوفييتي سابقاً، وكوريا الشمالية وإيران وإسرائيل. وإننا بإمساكنا لقواعد اللعبة الأساسية، وفهمنا لكيفية لعب الكبار والأقليميِّين والصغار.. سيصبح لدينا مفاتيح تفسيريةٌ غير عاطفيةٍ للأحداث.

الوطن العربي من نظرةٍ جيوبوليتيكيةٍ:

من أدرك مرحلة الستينات في الوطن العربي، فهو قد شهد الفترة القومية وترسانة الأناشيد التي تتغنَّى بالوحدة العربية، نحو: بلاد العرب أوطاني.. أمجاد يا عرب أمجاد.. وحدة ما يغلبها غلَّاب.. هذا علاوةً على ما تغتني به الكتب من معلوماتٍ عن خيرات مصر والسودان، والممرَّات الحيوية والبحار الهامَّة، وثروة النفط والغاز المتواجدة في الوطن العربي.. وهذا كله صحيحٌ، ولكنَّ هناك جزئياتٍ مغيَّبةً في الجيوبوليتيك باعتبار أن الموارد في البلدان احتماليةٌ إذا لم تمتلك البلاد إمكانية تحقُّقها؟ فما الشيء الذي لم يذكر لنا في هذه العملية الترويجية القومية، الذي شكَّل إشكاليَّاتٍ حقيقيةً في الوعي العربي؟

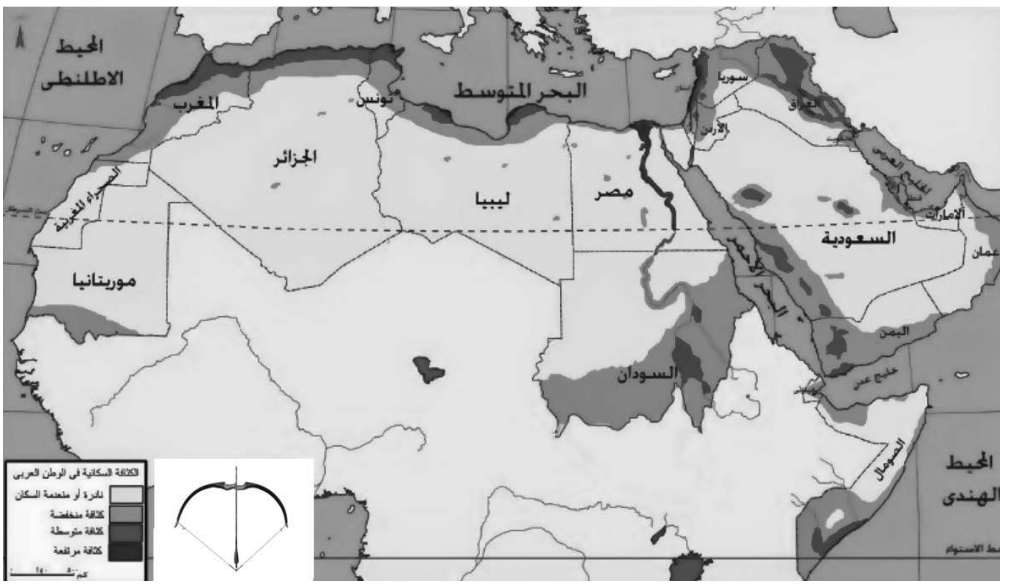
1. القوس والسهم والصحراء المسيطرة:

سنحاول أن نعطي وصفاً للمنطقة العربية بما نسمِّيه: "القوس والسهم"، فعند النظر إلى الوطن العربي، نلحظ ملحظين واضحين:

الملحظ الأول: إننا إذا نظرنا إلى المنطقة العربية من موريتانيا، مروراً بالمغرب العربي والجزائر وليبيا، وصولاً إلى الجزيرة العربية.. سنجد أن المناطق السكَّانية منتشرةٌ كقوسٍ رفيعٍ على أطراف البحار، ونجد قلب الوطن العربي كقلبٍ صحراويٍّ خاوٍ من المدن المسكونة، فالكثافة السكَّانية في المنطقة العربية ليست منبسطةً بانبساط الأرض؛ بل إن قلب الوطن العربي هو عبارةٌ عن صحراء غير مستفادٍ منها؛ بل هي تزحف باستمرارٍ على المدن، فيتآكل الرصيد الاحتمالي للزراعة فيها.

الملحظ الثاني: إننا نجد الكثافة الحقيقية للسكَّان واضحةً في مصر والسودان، وكأنها سهمٌ للقوس الرقيق.

إذاً؛ في الوطن العربي هناك مشكلةٌ ديموغرافيةٌ، متعلِّقة بنوعية الأرض المتواجدين عليها، فالتصحُّر منتشرٌ بقوَّةٍ، وهذا تحدٍّ كبيرٌ في الوطن العربي؛ متمثِّلٌ بتوزيع الثروات وتوزيع البشر



ومناطق سكنهم، فمصر مثلاً يتوزَّع سكَّانها على 5% فقط من الأراضي، و95% من أراضيها عبارةٌ عن صحارى ليس فيها سكَّان، ممتلئةٌ بالألغام التي لم تُنزع منذ أيام الحرب العالمية!

1. علاقة قوة الشعب بعبء الموقع والموارد:

من التشخيص السابق نجد أنفسنا أمام مشهدٍ مركَّبٍ، وإن تطويره لحالةٍ فاعلةٍ حقيقيةٍ يحتاج إلى شروطٍ هامَّةٍ، تتمثَّل في نوعية شعوبٍ متقدِّمةٍ قادرةٍ على تحويل هذه الموارد المعطَّلة في المنطقة العربية إلى مصادر قوةٍ، وإلا فإن هذه الطاقات ستبقى إشكاليةً حقيقيةً في المنطقة العربية؛ بل ستغدو عبئاً على السكَّان إن لم يكونوا على قدر هذه الممتلكات.

إن وجود المشروع القومي، وتوفُّر العقول داخل المجتمعات، والحريات والعدالة، واستغلال الطاقات البشرية، وبناء مشاريع عملاقةٍ للتواصل بين أجزاء المنطقة العربية.. فهذه قضايا مفصليةٌ وذات حساسيةٍ عاليةٍ، وتحتاج إلى تطويرٍ لنتمكَّن من تحويل الثروة من نقمةٍ إلى نعمةٍ كبيرةٍ تصبُّ في صالحنا، إن هذه الحلول حينما لم تتحقَّق، بقيَت البلاد العربية تردِّد الأناشيد القديمة ذاتها دون دراسةٍ علميةٍ حقيقيةٍ لجيوبوليتيك المنطقة العربية؛ بحيث تنظر إلى العوائق بواقعيةٍ كما تنظر إلى الميزات!

1. المسطَّحات الأربعة:

عند النظر إلى منطقةٍ ما بين النهرين (بلاد الشام والعراق)، نجدها تطلُّ على بحارٍ هامَّةٍ، وتتمتَّع بميزاتٍ جغرافيةٍ ومناخيةٍ كانت جاذبةً للسيطرة عليها عبر التاريخ، ونستحضر هنا قضية المسطَّحات الأربعة لخلق تصوُّرٍ جيوبوليتيكيٍّ عامٍّ عن المنطقة، فنجد:

- في جنوب (بلاد الشام والعراق) الجزيرة العربية كمسطَّحٍ رمليٍّ قليل الموارد، كان يدفع بالقوة البشرية للهجرة إلى مناطق الوفرة في الشام والعراق.

- ونجد أيضاً مسطَّحاً جبليَّاً يحيط بالمنطقة يتمثَّل بالجبال الإيرانية، وحينما كانت تحدث فيه انهياراتٌ جبليةٌ كان سكَّانه يتَّجهون نحو العراق ومناطق الثروة المائية، فنحن حينما نتحدث في التاريخ الإسلامي عن خراسان وخوارزم والدول التي نشأت فيها وسيطرت

على بغداد كالسلاجقة وغيرهم.. نجد أنهم كانوا جميعاً ينتهون إلى السيطرة على بغداد وإقامة قوةٍ في الشام.

- لدينا مسطَّحٌ آخر يتمثَّل بهضبة الأناضول التي كانت أيضاً حينما يعجز قومها عن دخول أوروبا والسيطرة عليها تأتي صوب مناطق العراق والشام بما اشتهر بحروب الأتراك تاريخيًّاً.

- وأيضاً كان الروم يجدون المسطَّح المائيَّ المتمثِّل بالبحر الأبيض المتوسط باستمرارٍ مطيَّةً للوصول إلى هذه المناطق الموجودة.. فتناوب عليها نفوذ الروم والفرس والعرب، وأيضاً الأتراك الذين كان لهم النصيب الأكبر في السيطرة على المنطقة تاريخيًّاً.



الخلاصة:

إننا حينما ندرك موضع القوة العالمية، والقوة الإقليمية، والقوة ما دون الإقليمية، وكيفية تصرُّفاتها، سنستطيع أن نقدِّر أفعال الدول في الـ"Real Politics" السياسة الحقيقية لتلك القوى، وما الذي ستفعله من أجل البقاء بعيداً عن العواطف..

ومن المهمِّ حينما نتحدَّث عن المنطقة العربية، النظر إليها بشيءٍ من التصوُّر الذهني العامِّ

الواضح؛ فحينما نتحدث عن القوس الواسع الذي يمرُّ على المياه، وعن الكثافة السكانية عند السهم، فهذا لنسهِّل الرؤية البصرية للمشهد المعقَّد الموجود أمامنا..

وإن معرفة فكرة الجزر السكانية التي تحيط بها الرمال، تشرح لنا فكرة سيطرة الصحراء وإحاطتها بالمناطق المأهولة التي تزحف إليها باستمرارٍ، والاحتياج إلى حلولٍ جبَّارةٍ لربط هذه المناطق بعضها ببعضٍ..

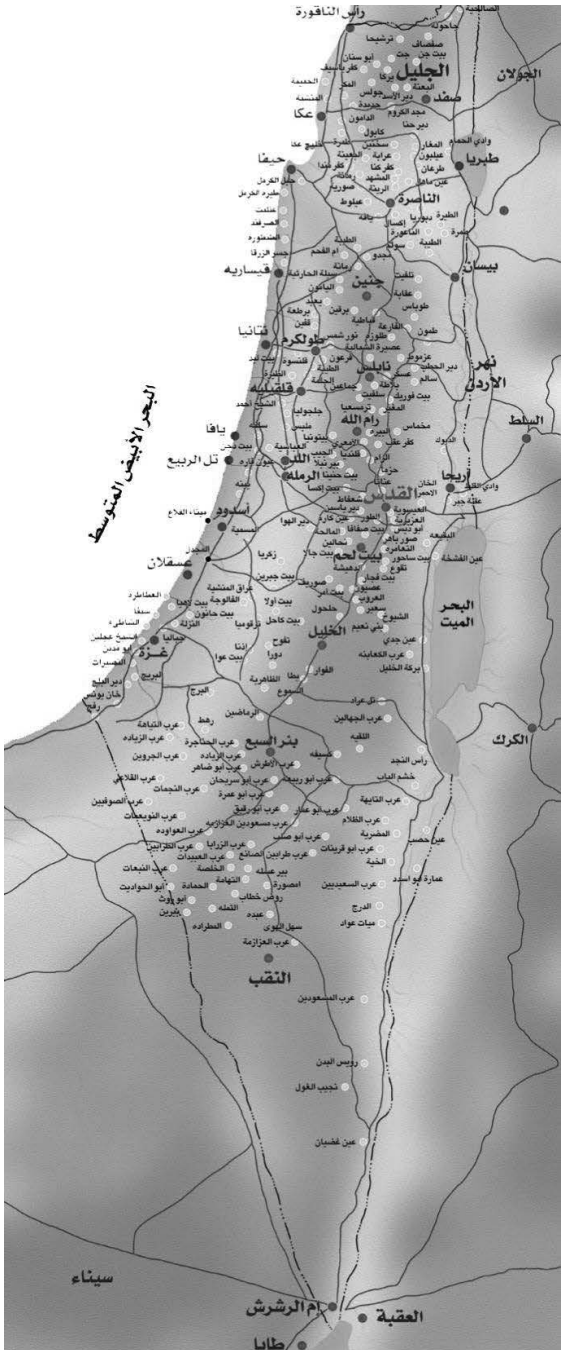
وأيضاً في حديثنا عن مشكلة الموارد الموزَّعة توزيعاً غير متساوٍ بين القوى؛ دون أن يوجد جهةٌ تضحِّي لحساب الجهة الأخرى مقابل تحقيق التوازن في المنطقة، فهذا للتنويه على أهمية إيجاد الحلول العميقة الواقعية للمشكلة الحاصلة.

وأيضاً بالنظر إلى منطقة الشام والعراق كمنطقة ارتطامٍ لأربعة مسطَّحاتٍ تُصرِّف فيها طاقتها باستمرارٍ -ولربما مستقبل المنطقة العربية عموماً مرتبطٌ بهذه القضية الأساسية! فتجمُّع القوى هو مشهدٌ مكرَّرٌ تاريخيَّاً، وليس شيئاً استثنائيَّاً في حركة التاريخ-، فحينما تتمُّ دراسة شخصية هذه المنطقة جيوبوليتيكيَّاً، سنفهم من خلال النظر إلى حركة القوى هذه مصير العالم العربي ومستقبله، وما الذي يجب عليه أن يفعله حتى يستطيع بتعدُّد القوى والأعراق والطوائف الموجودة فيه أن يجد له مكاناً في الخارطة العالمية، وماذا عليه أن يفعل، وكيف له أن يستفيد من هذا المكان الحيوي الذي يتموضع فيه..

وإن هذا كلَّه يقودنا إلى مسألةٍ هامَّةٍ: "مسألة الخروج الحضاري"؛ أي: عدم دخول الحضارة العربية في السباق المادي على الأقلِّ، المرتبط بقضيَّتين: العلم، وقيم العمل؛ فصناعة الحضارة تعني وجود علمٍ وقيم عملٍ، وهاتان القضيَّتان إذا غابتَا في مجتمعٍ ما، سيفتقد الحصانة وقوة الردع، وسيصبح من السهل أن تغزوه قوة الآخرين، وهذا الكلام سنشاهد أبعاده واقعيَّاً حينما نتكلم في الفقرات القادمة عن القضية الفلسطينية، وكيف كان أثر وضع الوطن العربي عليها.

وإلى هنا نكون قد حصَّلنا الجيوبوليتيك العالمية بشكلٍ من الأشكال، وتبقَّى لدينا الضحية الكبرى "القضية الفلسطينية" ضحية الأوضاع العالمية المعقَّدة والصراعات، وضحية العجز العربي المزمِن الموجود في المنطقة..

خامساً- فلسطين جيوبوليتيكيّاً



يفترض للقارئ للفقرات السابقة أنه بات قادراً على النظر إلى العالم وكأنه وحدةٌ واحدةٌ، مع وضوح النظرة إلى تحرُّكات القوى العالمية الكبرى، وحقيقة الصراع الدائر بين روسيا والغرب، ودور الصين المتنامي في المعادلة، وسبب عدم خروجها إلى الساحة بحجم الوزن الذي هي عليه كقوةٍ كبرى في العالم، وأيضاً وضوح تصرُّفات الدول الإقليمية والدول الصغرى، وفكرة الدور الذي تحاول أن تلعبه القوى..

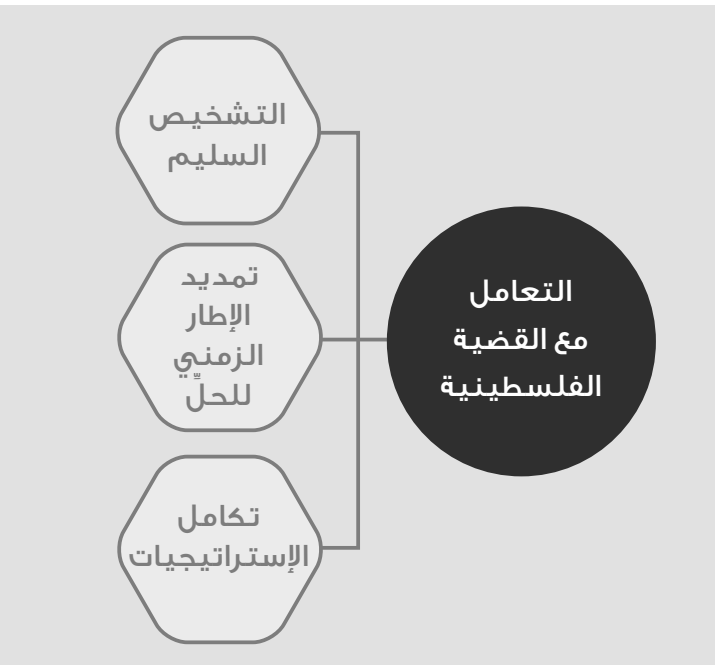
ويمكن للقارئ -بهدف المزيد من التمكُّن- الوقوف على كتاب "الجيوبوليتيك ومستقبل الوطن العربي"، فإن فهم هذه الدوائر والتمكُّن منها، سيعين كما كنَّا تحدثنا سابقاً على فهم الأخبار من حولنا ووضعها في الإطار المناسب لها..

وبقي لنا في إطار حديثنا في الجيوبوليتيك قضية فلسطين وشعبها الذي تعرَّض لأقسى ما يمكن أن يتعرَّض له شعبٌ في العالم..

1. الموقع الوجداني لفسلطين:

إن فلسطين مشكلةٌ حقيقيةٌ للضمير والوجدان الإسلامي والعربي، فنحن أمام شعبٍ سُرقت منه أرضه وهو حيٌّ، وهُجِّر من وطنه ليحلَّ غيره فيه، وهذا كله في حضور ما يقرب من أربع مئة مليونٍ من العرب، ومليارٍ وأربع مئة مليونٍ من المسلمين، ففلسطين ليست فقط الأرض، وليست فقط الشعب؛ بل هي قطعةٌ من الوجدان العامِّ في العالم الإسلامي يستشعره الجميع، لا سيما أحرار العالم وإن كان بدرجاتٍ متفاوتةٍ.

2. الرمز والدلالة الفلسطينية:



إن فلسطين بالنسبة للمسلمين والعرب هي رمزٌ لقضيَّتين تبدوان متناقضتين، فهي رمزٌ للمقاومة (ممثَّلة بشعبها)، وهي رمزٌ للهزيمة والانكسار (ممثَّلاً بالعجز العربي أمام التحدي الصهيوني الذي احتلَّ الأراضي وطَرَدَ من الأوطان أهلها).

ومن زاويةٍ أخرى، تحقِّق القضية الفلسطينية شيئاً من الحلم العربي بالوحدة؛ باجتماع المسلمين على قضيةٍ واحدةٍ على الأقلِّ؛ ففلسطين تبدو وكأنها عقدة الموقف بالنسبة لأحلامنا الكبرى، فإننا إن لم نستنقذ مساحةً صغيرةً من الأرض التي تُنتهك وينتهك شعبها، فأين لنا أن نوحِّد عالماً إسلاميًّاً ضخماً ممزَّقاً ومنقسماً على ذاته، واقتتاله الذاتي أكثر من اقتتاله مع الأعداء والخصوم!؟

3. تشخيص المشكلة وتشخيص الإمكانات:

من أين نبدأ!؟ إنَّ تشخيص أيِّ مشكلةٍ، حينما يبدأ من مكانٍ خاطئٍ، فكل ما سينبني عليه سيكون خاطئاً! فالعرب حينما جاءت إسرائيل، كانوا ينظرون إليها على أنها دويلةٌ وكيانٌ زائلٌ، وكان التصوُّر أن الجيوش العربية إذا ما اجتمعت من كل حدبٍ، وهاجمت إسرائيل، فإنها ستنتصر عليها، وستحصل على ما تريد! وهذا ممثَّلٌ بما كنَّا نهتف به على نحو: "أخي أيها العربي الأبيُّ أرى اليوم موعدنا لا غداً".

كما أن القضية كانت تبدو وكأنها احتياجٌ لأعدادٍ بشريةٍ، فلو استطعنا جمع قواتٍ أكثر ممَّا يجمعه الإسرائيليُّون، وحصلنا على السلاح والعتاد من نوعٍ ما، فإن ذاك هو كلُّ ما نحتاجه للتحرير.

ولكن! من حرب الـ48 إلى حرب الـ67 إلى الـ73 إلى الحروب التي تلت ذلك.. تبيَّن أن الموضوع أعقد جدَّاً من الأعداد والعتاد.. فكأنه عبارةٌ عن فارقٍ نوعيٍّ صنعته الحضارة الغربية التي تقدَّمت بشكلٍ مذهلٍ في التخطيط والتوجيه والرقابة، وفي بناء الأحلام والأهداف، وفي صناعة الأجهزة الاستخباراتية والأمنية، وفي بناء القدرات الصناعية؛ من بناء الصناعات الدقيقة، والبنية التحتية، وفي قضية تطوير الإنسان ذكاءً وقدرةً وفعلاً.. فأصبح العدد القليل بإمكانه أن يهزم العدد الكبير نتيجة الفوارق الأساسية المتعلِّقة بالنموِّ الحضاري في المنطقة، وبالمقابل فإن المنطقة العربية لم تستطع أن تدخل مجال الحداثة، لا في مجال السياسة، ولا الاقتصاد، ولا الاجتماع، ولا الصناعة، ولا الزراعة، ولا حتى في قضية تقدُّم الأفكار نحو اتجاه الكرامة والحرية والعدالة الداخلية! فمشكلتنا ليست متعلِّقةً بالكمِّ أو بالشجاعة أو بحجم الغضب الذي يعتمر نفوسنا.. فهذا كله نفوق به إسرائيل، ولكن إسرائيل اليوم ليست في حقيقتها الكيان الذي نراه في الظاهر فقط؛ بل هي مجموع العلوم الغربية والتحالفات العالمية التي تساندهم في مشروعهم.. فبعد

إن إمكانية التشخيص الصحيح هو مفتاحٌ أساسيٌّ لحلِّ المشكلة الفلسطينة والإعداد لها كما ينبغي، فمن دون المستوى الكافي في الأداء، سيذهب الوقت هدراً والجهد سُدىً

الـ73 استطاع اليهود إقامة تحالفٍ مع الصين ومع الهند، ومدَّ الجسور مع إفريقيا.. وبالتالي استطاعوا حصارنا بالكتل البشرية، علاوةً على الإمكانات المادية..

إذاً؛ فلدينا مشكلةٌ حقيقيةٌ في التشخيص، وقلَّةُ ثقافةٍ بالعصر الذي نعيشه، ونحيلكم هنا إلى موقف بعض الشباب الذين اتجهوا بعد ثورات الربيع العربي إلى القدس ليحرِّروها كما حرَّروا أوطانهم، ظنَّاً منهم أنها ستُحرَّر بتلك الطريقة! فمثل هذا الموقف يوضِّح طبيعة العقلية التي ربَّيناها عبر الزمن، التي تمتلك قدراً كبيراً من الحماس، لكنها لا تمتلك قدراً موازياً من الذكاء والقدرات العقلية لمواجهة الخصوم. ففي مقابل هذا النوع من التفكير لدينا، كانت إسرائيل قد تمكَّنت في بضع ساعاتٍ في حرب الـ67 من إزالة كافَّة الطائرات والقوى المصرية الموجودة؛ نتيجة الاستخبارات والعمل الأمني الذي قامت به آنذاك.

4. تمديد الإطار الزمني:

كما إنه من الضروري في التعامل مع القضية الفلسطينية اليوم إدراك الواقع جيِّداً، فمن الضروريِّ أيضاً وضع التقدير الزمني الصحيح لإمكانية إصلاحه؛ فهناك حالة عزلةٍ حاصلةٌ مع الشعب الفلسطيني؛ بمعنى أن حلم تحرير فلسطين يكاد يكون تبخَّر عند الدول العربية، وبات لديها يأسٌ تامٌّ من تحقيق ذلك الحلم، وكل ما باتت تأمله الدول العربية اليوم من هذه القضية أن تقيم علاقاتٍ مع إسرائيل بدرجةٍ من الدرجات سرَّاً أو علناً، فتضمن بذلك مستقبلها. وهذا يعني أن على الشعب الفلسطيني أن يفكِّر في إطارٍ زمنيٍّ بعيدٍ، فلَربما عليه أن يكافح مدَّة قرنٍ ولا يأتي لنجدته أحدٌ، فعلينا أن نمدِّد التصوُّر الزمني ونضع خطَّةً متدرِّجةً لحلِّ المشكلة الحضارية التي نعاني منها في المنطقة العربية والإسلامية، فالشعب الفلسطيني بذاته لن يستطيع أن يقف أمام هذا التطوُّر الضخم الموجود في العالم.. فقد يستطيع الصمود وقد يستطيع المواجهة، ولكن كما شاهدنا وعرفنا، فإن الأرض تتقلَّص باستمرارٍ من تحت أقدام الشعب الفلسطيني؛ بحيث أصبح معزولاً في الضفة الغربية وقطاع غزة، وهما كتلتان صغيرتان محاطتان بكتلٍ استيطانيةٍ ضخمةٍ.

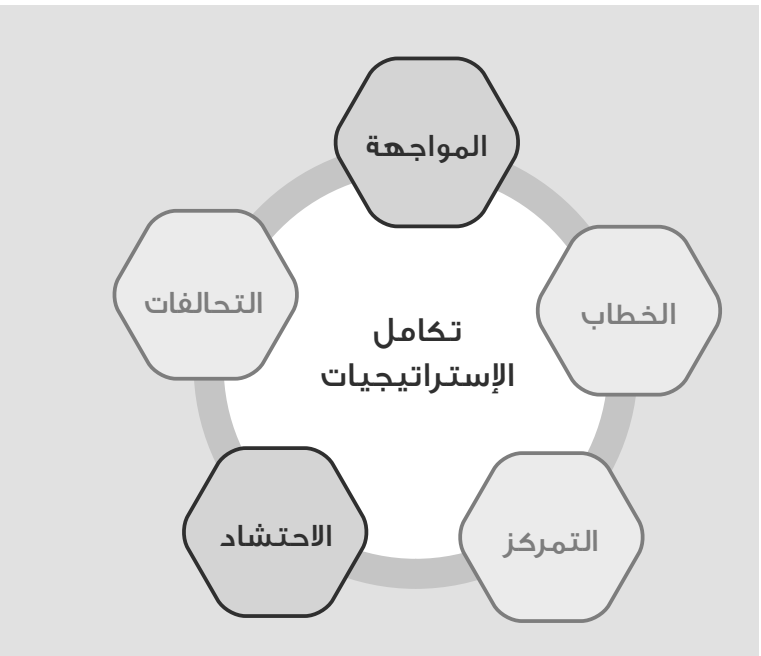
إذاً؛ فموضوع الشجاعة هو موضوعٌ مفروغٌ منه، وموضوع وجوب المقاومة هو أيضاً موضوع مفروغ منه، ولكن كيفية القيام بهذا على مدىً زمنيٍّ طويلٍ، وتحقيق النتائج المرجوَّة يحتاج

إلى تفكيرٍ مختلفٍ عن التفكير السابق الموجود الذي يعتمد على أنه إما أن إسرائيل سيحدث لها شيءٌ من الداخل، وإما أنه ستقوم حربٌ عالميةٌ ستبيد الإسرائيليِّين فقط!

5. تكامل الإستراتيجيات:

إذا تغيَّرت لدينا فكرة المدى الزمني، وفكرة تشخيص الحالة إلى أنها حالةٌ حضاريةٌ، فالخطاب عندها سيأخذ مساراً مختلفاً، والمواجهة ستأخذ مساراً مختلفاً أيضاً، وتمركزنا في العالم كذلك سيأخذ مساراً مختلفاً، والاحتشاد كذلك، والتحالفات.. بمعنى أن التخطيط لمواجهةٍ طويلة الأمد في ضوء ما نعرفه من حقائق الوضع التقني والمعرفي والعلمي العالمي الموجود، وتطوُّرات العالم في اتجاهاتٍ جديدةٍ، وتحوُّل العالم العربي في اتجاه خطِّ مواجهٍ للمقاومة لا مساندٍ لها، وانعزال المقاومة في تحالفٍ مع إيران لا يُعلَم مصيره إلى الآن.. فهذا كلُّه يحتاج إلى تفكيرٍ إستراتيجيٍّ كبيرٍ جدًّا.

وإننا نؤمن بأن المفكرين والقائمين اليوم على المقاومة الفلسطينية ليسوا قلَّةً، ولديهم القدرة على إعادة المراجعة الجذرية للموضوع، وتمديد المدى الزمني للمواجهة، وهذا سيقود بطبيعة الحال إلى خطابٍ جديدٍ وتمركزٍ جديدٍ؛ وحينما أقول: تمركز جديد، قد لا يكون في فلسطين؛ بل قد يكون في مناطق أخرى، كأمريكا الجنوبية مثلاً.. فيتمُّ تأهيل كتلٍ ضخمةٍ من الفلسطينيِّين ليصبحوا مشاركين في عملية التحرير، وفي زيادة الوزن النوعي للفلسطينيِّين في العالم، فعندنا اليوم مخيماتٌ كبيرةٌ في الأردن، وكذلك في لبنان، وهذه المخيمات مليئةٌ بالطاقات والقدرات التي تموت نتيجة الحصار المفروض عليها، وإن إطلاق



هذه الطاقات وتفعليها على مدى قرنٍ أو نصف قرنٍ من الزمان شأنه أن يحدث تمركزاً نوعيَّاً جديداً سيعيد تركيب المعادلة مرَّةً أخرى.

وأيضاً حشد الطاقات الفلسطينية مرَّةً اخرى حول مرتكزاتٍ جديدةٍ، فالفلسطينيُّون انقسموا إلى قسمين؛ قسم يفضِّل الاستعداد العسكري، وقسم أراد السلام وانتهى إلى الاستسلام، وإن كلا الفريقين يمثِّل فلسطين، ومهتمٌّ بها، ولكن اختلفت بهم المسارات، فمنظمة التحرير الفلسطينية ممثَّلةً بـ"فتح"، اتجهت بعد مسارٍ عسكريٍّ ونضاليٍّ طويلٍ جدَّاً إلى الحلِّ السلمي بدرجةٍ من الدرجات، وفي هذا الحلِّ السلمي تمَّ استدراجها إلى فخٍّ كبيرٍ وقعت فيه؛ بحيث أصبحت جزءاً من الآلة الأمنية الإسرائيلية (بحسب ما نسمعه)، وبالمقابل أصبحت المقاومة محصورةً في زاويةٍ معيَّنةٍ، وتُقصقَص الأرض من حولها؛ فأُخرِجَت من سوريا ومن لبنان، وانتشرت بالمنافي لفترةٍ من الزمن، وكوَّنت في غزة كتلةً شرسةً مقاتلةً أصبحت كالشوكة في حلق الإسرائيليِّين.. ولكن هذا كما أسلفنا لا يكفي لحلِّ مشكلة الشعب الفلسطيني، فلا بدَّ أن يكون هناك على الأقل دراساتٌ وتصوُّراتٌ جديدةٌ من خارج الصندوق الماضي الذي أوصلنا إلى مساراتٍ مسدودةٍ، ومع صدق العزم والنية سيفتح الله لنا مساراتٍ جديدةً في إجراء تحوُّلاتٍ فكريةٍ وإن كانت مؤلمةً لمواجهة هذا السرطان المتمدِّد في المنطقة العربية والإسلامية.. وهذا كلُّه سيعني بالضرورة رؤيةً جديدةً للعالم، وبالتالي تحالفات جديدة..

أخيراً.. إن الطاقات متوفرة، والعقول متوفرة، إنما قرار التحوُّل ليس قراراً يسيراً! فالناس بطبعها حينما تألف وضعاً معيَّناً، وتصميماً فكريَّاً، ومعالجاتٍ ونقولاتٍ معيَّنةً.. تصبح أسيرةً لها، في حين أن الواقع الخارجي يشهد تحوُّلاتٍ كبيرةً، فمن كان يصدِّق أن يتحوَّل أمل السلام من أملٍ إسرائيليٍّ إلى أملٍ عربيٍّ؟! فبدل أن يطالب الإسرائيليُّون بالسلام، بات العرب هم الذين يطالبون به! وهذا الخطُّ منذ ثمانينيات القرن يسير إلى الإمام بشكلٍ كبيرٍ، ففي الغد قد نرى تمدُّد خطوط القطارات بين الكيان الصهيوني والمنطقة العربية والإسلامية، وقد نرى الوفود والسفارات، ومظاهر أخرى كانت تبدو لنا غريبةً، فمن ينظر إلى القوى العالمية وتحرُّكاتها، وينظر إلى التغيُّرات التقنية والمعرفية الحاصلة في العالم، سيعرف أننا طالما بقينا خارج دائرة الصراع الحضاري، وبقينا في قضية العواطف، فلن نستيطع أن ننجز شيئاً، أو أن نسير قُدُماً

الاقتصاد



سننتقل بحديثنا إلى علم الاقتصاد، والحديث في علم الاقتصاد يطول، ولكننا سنكتفي بشرحٍ مبسَّطٍ للأفكار الرئيسية الكبرى التي يدور حولها اقتصاد الدول، وكيفية اشتغال الأنظمة الاقتصادية على العموم.. وإن هذا المعلومات على بساطتها وأهميَّتها، إلا أنها تغيب عن الكثيرين!

أولاً- أنواع الاقتصاد



يقسَّم الاقتصاد إلى نوعين:

- **الاقتصاد الجزئي Microeconomics:**

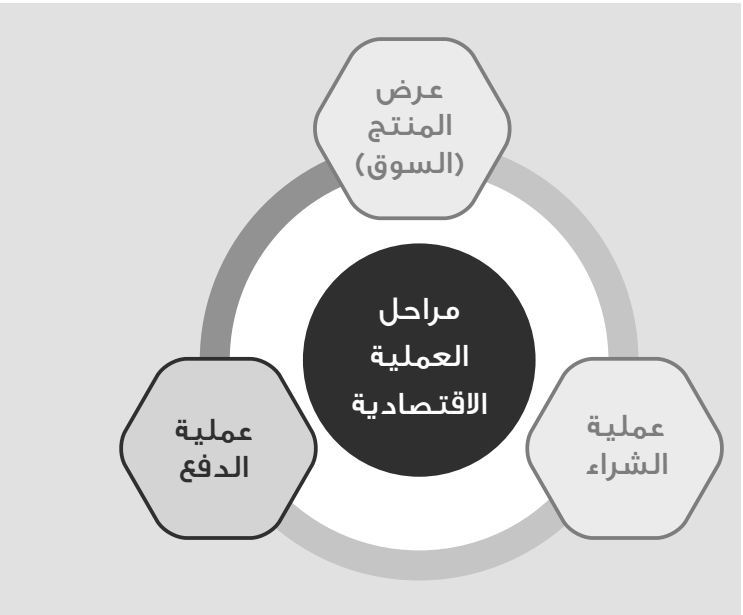
هو الاقتصاد على مستوىً ضيِّقٍ، متمثِّلاً باقتصاد الشركات والأفراد..

- **الاقتصاد الكلي Macroeconomics:**

هو ما يتعلَّق بالمساحة الكبرى المتمثِّلة باقتصاد الدول وكيف تدار. ومن المهمِّ في مرحلة التأسيس أن نقف على الاقتصاد الكلي ابتداءً؛ حيث لا يمكننا أن نفهم حركة الاقتصاد في البلدان التي نعيش فيها ما لم نفهم حركة الاقتصاد العام.

ثانياً- العملية الأساسية في الاقتصاد

يتكوَّن الاقتصاد في أساسه من عمليةٍ رئيسيةٍ، تحدث بين جهتين أو طرفين على ثلاث مراحل.



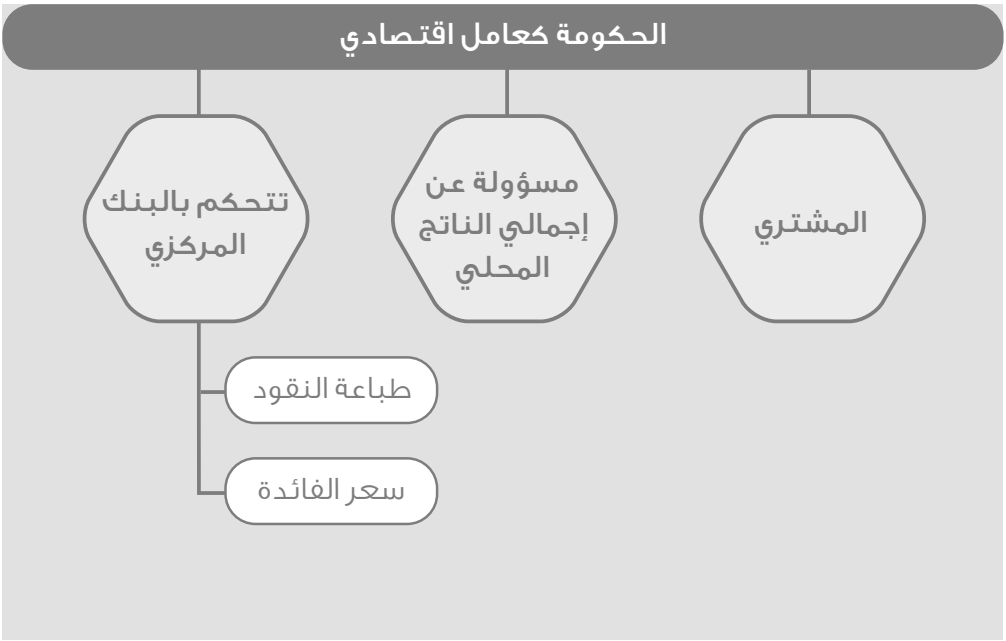
- **السوق:** تبدأ عملية الاقتصاد من البائع الذي يعرض منتجاته في السوق، وتتنوَّع هذه المنتجات من أسهمٍ أو سياراتٍ أو حبوبٍ أو طاقةٍ أو ذهبٍ.. حتى إن العملة نفسها تشترى وتباع في الأسواق.
- **عملية الشراء:** في مقابل البائع هناك المشتري، الذي تَحْدُث من قِبَله عملية الشراء، وقد يكون المشتري فرداً أو مؤسَّسةً أو دولةً.
- **عملية الدفع:** تلي عملية الشراء مرحلة الدفع، التي تحدث عادةً على شكلين؛ الدفع النقدي، أو الدفع بالدين (الدفع المستقبلي).

ومن تكرار مراحل هذه العملية بين البائع والمشتري لملايين المرَّات، يتشكَّل الاقتصاد؛ سواء كان المشتري أو البائع فرداً، أو شركةً، أو حكومةً.. وهذا هو ألف باء الاقتصاد الذي تدور حوله حياة البشر، ويؤدِّي إلى حروبٍ واقتتالٍ فيما بينهم.

ثالثاً- الحكومة كعاملٍ اقتصاديٍّ

الحكومة مُشْتَرٍ:

إذا أردنا أن نعمِّق أكثر في مجرى الحديث، سنأتي إلى حكومات الدول وأثرها كلاعبٍ اقتصاديٍّ هامٍّ، وأول ما ينظر إلى الحكومات في الإطار الاقتصادي، يُنظر إليها على أنها "المشتري"، والحكومة ليست كأيِّ مشترٍ، فحينما تطلب حكومةٌ قويةٌ قادرةٌ على الدفع بضاعةً ما، سترتفع قيمة هذه البضاعة تلقائيًّاً على المشترين؛ لكونها ستطلب بضائع بكمياتٍ كبيرةٍ.



إجمالي الناتج المحلي للدول:

وأيضاً ممَّا تهتمُّ به الحكومات وتساهم في زيادته وتُسأل عنه: "إجمالي الناتج المحلّي" للدولة، فعلى الحكومات أن تدَّخر نسبةً قويةً من رأس المال؛ لأنه من خلاله يُقيَّم مدى قوتها من عدمه مقارنةً بالدول الأخرى.

التحكُّم بالبنك المركزي:

وأيضاً من الأدوار التي تمارسها الحكومات في الاقتصاد امتلاكها لد"بنك المركزي" في الدولة التي تحكمها، والبنك المركزي مسؤولٌ عن أشياء رئيسيةٍ في اقتصاد الدول؛ منها:

- **طباعة النقود: فإذا نظرنا إلى أيِّ عملةٍ بين أيدينا، سنجد عليها توقيع البنك المركزي كضمانٍ لهذه العملة.**
- **التحكُّم بسعر الفائدة: حيث تخضع جميع البنوك، الربوية منها والإسلامية، لسعر الفائدة الذي يضعه البنك المركزي بتسييرٍ من الحكومة، ولا يوجد في أيِّ دولةٍ مؤسَّسةٌ تجاريةٌ صغرت أم كبرت خارجةٌ عن هذه النسبة التي يحدِّدها البنك المركزي.**

رابعاً- إجمالي الناتج المحلي للدول"GDP"

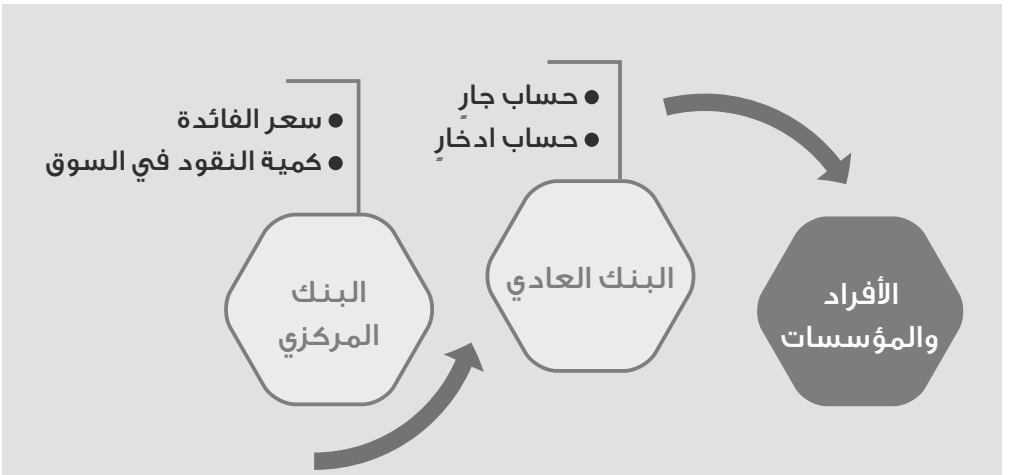
ما المقصود بالـ"GDP"؟ هو رمز اختصارٍ لـ"مستوى إجمالي الناتج المحلي"، وهو عبارةٌ عن رقمٍ ماليٍّ معيَّنٍ يقاس به اقتصاد الدول، وتتمُّ المقارنات بين اقتصادها من خلاله، فمثلاً: إجمالي الناتج المحلي للولايات المتحدة الأمريكية يقرب من 22-24 ترليون دولار، بينما الناتج المحلي لروسيا حوالي 2 ترليون دولار، وهذا يعني أن النشاط الاقتصادي في الولايات المتحدة هو أضعاف ما عليه النشاط الاقتصادي في روسيا. وكثيراً ما نسمع بأن وزيراً للاقتصاد في بلدٍ ما يصرِّح بأنه استطاع في فترة إدارته أن يزيد إجمالي الناتج المحلي لدولته.. وهذه الزيادة قد تفضي إلى إدارةٍ رشيدةٍ للاقتصاد..

المصادر التي يتولَّد منها الـ"GDP":

هناك عدة مصادر يتولَّد منها إجمالي الناتج المحلي لدولةٍ ما؛ منها:

الادِّخار البنكي لأفراد المجتمع:

إن الفرد حينما يفتح حساباً بنكيًّا، يكون عنده حسابان؛ حساب جارٍ، وحساب ادخارٍ؛ حيث يدَّخر فيه شهريًّا نسبةً من دخله، وهذه النسبة تلعب دوراً كبيراً في اقتصاد الدول مهما صَغُرَت، فهي لا تُودع في البنك العادي بحسب ما نظنُّ؛ بل تودع في البنك المركزي، وتساهم



في حصيلة الناتج المحلي للدول، وهي نسبةٌ لا يُستهان بها؛ كونها تتشكَّل من حصيلة ادخار عددٍ كبيرٍ من سكَّان البلاد، العدد الذي قد يصل إلى الملايين وقد يزيد.. ويكون دور البنك العادي هنا أشبه بالوسيط المستفيد من عميلة الادخار، فهو ليس المدَّخِر الحقيقي، ولا يحقُّ له الاحتفاظ بجميع هذه المبالغ، إنما يحدِّد البنك المركزي له النسبة التي يحقُّ له أن يحتفظ بها، وباقي المبلغ المدَّخَر يودَع في البنك المركزي، وبالتالي لو حدث أن طالب الناس دفعةً واحدةً بأموالهم المدَّخَرة في البنوك، لَتعذَّر على البنك سداد كامل المبلغ؛ كونه لا يحتفظ إلا بحساباتهم الجارية، ونسبةٍ محدَّدةٍ من الحساب المدَّخَر يَسمح بها البنك المركزيُّ.

التجارة الداخلية (المستثمر المحلي) والخارجية (المستثمر الأجنبي):

ويُقصد بالتجارة الداخلية حركة السوق المحلي؛ مثل: استثمارات التجَّار، وشراء المقاولين لمواد البناء والسباكة والكهرباء.. ممَّا ينشِّط السوق.

كما أن تميُّز إحدى البلدان ببضائعها المحلية يجعلها مقصداً لتجَّار الخارج، ممَّا يسهِم أيضاً في تنشيط السوق المحلي.

المشاريع الحكومية والضرائب:

تقوم المشاريع العملاقة التي تقوم بها الحكومة برفع المستوى الإجمالي للناتج المحلي للدولة، وتتمثَّل تلك المشاريع بالشوارع والمطارات وشبكة المواصلات وغيرها.. كما تقوم



الحكومات بتحسين مواردها المالية من خلال الضرائب التي تفرضها على السكَّان، فشراء المنتجات، ودخول المستشفيات، والسير في الطرقات، وفواتير الهاتف والكهرباء والماء.. كلُّها تُفرَض عليها ضرائب تصبُّ في صالح اقتصاد الدولة.

الاقتصاد يُضبَط بمعايير أخرى:

وتجدر الإشارة إلى أن "GDP" لا يُعتبر ميزاناً دقيقاً، ومؤشِّراً حقيقيًّاً بمفرده للمقارنة بين اقتصاد الدول؛ فهناك اعتباراتٌ أخرى يجب أخذها بعين الاعتبار؛ منها:

عدد السكَّان:

عندما يزيد مجموع الناتج المحلي لدولةٍ ما على دولةٍ أخرى، فلا يمكن اعتبار هذه الزيادة تفوُّقاً اقتصاديًّاً قبل أن نُدخِل في المعادلة عدد السكَّان، فنقسم إجمالي الناتج على عدد السكَّان ليخرج لنا متوسِّط دخل الفرد، فبعد أن تتمَّ المقارنة بين متوسِّط دخل الأفراد في كِلا البلدين، يمكن عندها تحديد الدولة الأفضل من ناحية الناتج المحلي.

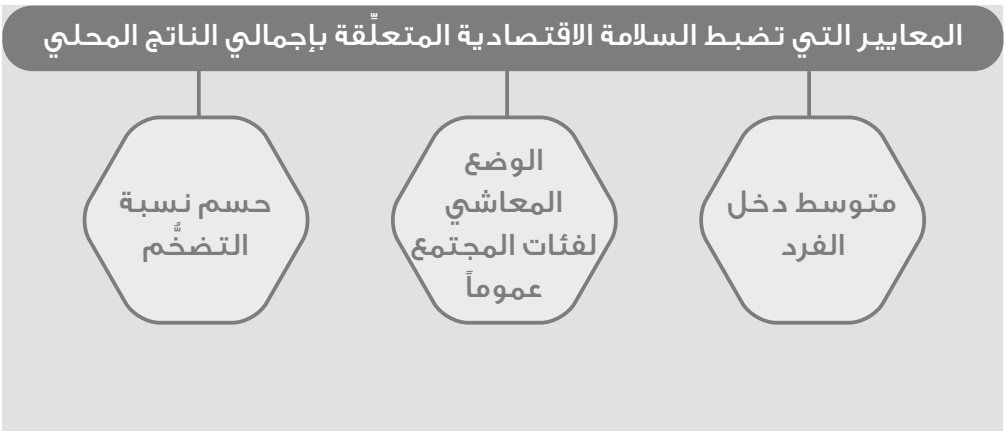
توزيع الثروة:

إن متوسِّط دخل الفرد -على أهميَّته-، قد لا يعطينا نتائج دقيقةً، فبعض البلدان لا يتمُّ فيها تقسيم الثروة على عدد السكَّان بشكلٍ متقاربٍ، إنما تذهب النسبة الأكبر لصالح الطبقة الغنية، ويبقى المجتمع في حالة فقرٍ بسبب سوء توزيع الثروة؛ فتوزيع الثروة من المعايير التي يُحاكَم إليها الوضع الاقتصادي أيضاً..

التضخُّم:

حينما يحدث التضخُّم في بلدٍ ما، يرتفع رقم الـ"GDP"؛ فقد يبدو وكأن هناك زيادةً في الناتج القومي، ولكن في الحقيقة لا يكون النشاط التجاري قد ازداد شيئاً، وللتأكُّد من إجمالي الناتج القومي، يُطرح معدَّل التضخُّم من الرقم الصلب، وقد تنحسر الزيادة بعد طرحه، فيعود الرقم وكأن شيئاً لم يحدث!

فكلام وزير الاقتصاد عن زيادة إجمالي الناتج المحلي يحتاج أن نحاكمه إلى معاييرٍ موضوعيةٍ، مثل أن نسأل عن التضخُّم، وإذا ما تمَّ حسمه من إجمالي الناتج المحلي، وعن



أعداد السكَّان، وعن الوضع الاقتصادي لعموم المواطنين.. وغيرها من العناصر الأساسية التي يجب أن ننظر إليها عادةً في معالجة الموضوع..

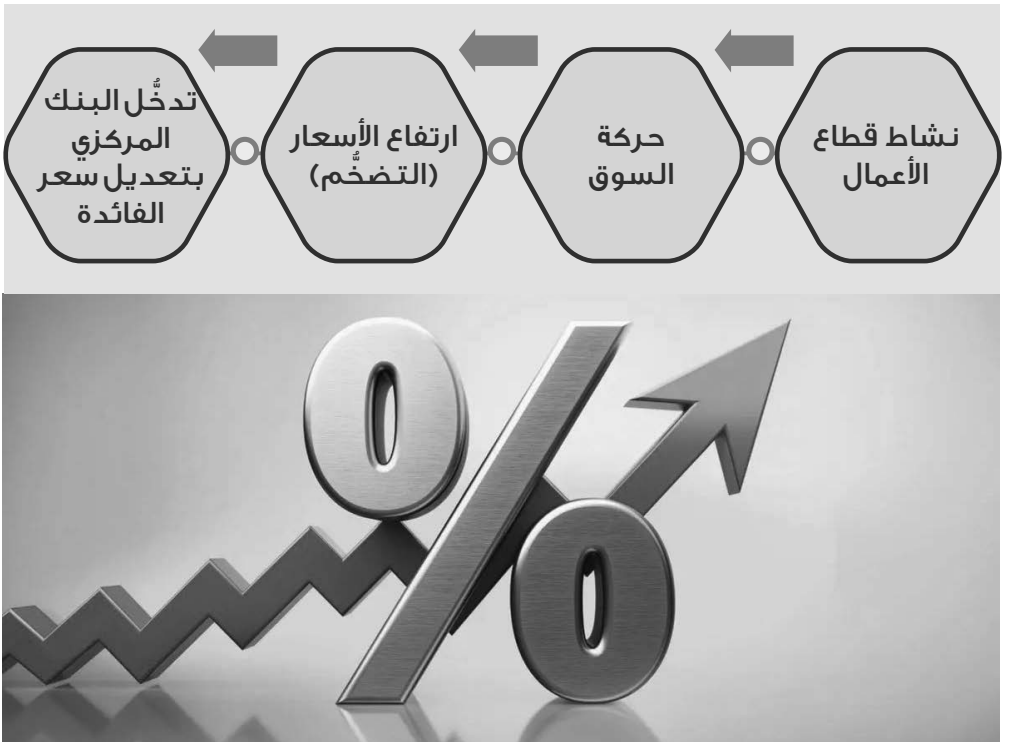
خامساً- سعر الفائدة وأثره على اقتصاد الدول

البنك ليس فقط مكاناً لتخزين الأموال وسحبها؛ بل هو كالتاجر الذي لديه مدَّخراتٌ يتاجر بها، أو يقرض منها بما يخدم مصالحه.. فحينما يريد الفرد أن يفتح مشروعاً، يذهب إلى البنك ويقترض منه.. وأرباح البنك من هذه العملية لا علاقة لها بأرباح التاجر أو إفلاسه، إنما الربح العائد للبنك حاصلٌ من سعر الفائدة الذي يفرضه البنك مقابل إقراضه. ويُحَدَّد سعر الفائدة من قِبَل البنك المركزي وفق آليةٍ معيَّنةٍ، ومن ثَمّ يضيف البنك العادي على سعر البنك المركزي نسبة ربحٍ له.

لنفترض أن البنك المركزيَّ حدَّد سعر الفائدة بـ 6%، وهو رقمٌ ممتازٌ بالنسبة للتاجر؛ لأن التاجر حينما يدير تجارته يحسب أرباحه على الأقل بنسبة 15% خلال العام، فعندما يدفع منها 8% بعد أن يضيف فائدة البنك العادي الذي أقرضه 2%، يبقى لديه حوالي 7%، وهو مبلغٌ ممتازٌ كربحٍ بالنسبة للشركات والمؤسَّسات، وبناءً على سعر الفائدة المنخفض ينشط التجَّار، ويتحرَّك السوق، وتزداد القروض السكنية واستقدام العمالة من الخارج، ويكثر الطلب على البضائع، وكلما كان هناك نشاطٌ أكبر في السوق وبيعٌ وشراءٌ، زاد اقتراض التجَّار لإنشاء شركاتٍ جديدةٍ..

وعندما تبدأ أسعار المنازل والبضائع بالارتفاع، وتصير الأجور أقلَّ من الاحتياجات.. يتدخَّل البنك المركزي ويرفع سعر الفائدة على البنوك؛ لأن البنوك قد أنهت مدَّخراتها، وتريد المزيد من الأموال، فيرتفع سعر الفائدة إلى 10% على سبيل المثال، والبنك العادي يضيف إليها 2% ربحه، فتصبح 12%، فيغدو ربح التاجر 3% فقط، وهذا غير مجزئٍ، فتتوقف عملية الزيادة في السوق، وتبدأ بالتقلُّص، ويبدأ هبوط الأسعار شيئاً فشيئاً، وتغلق بعض الشركات أبوابها، ويتمُّ تسريح الموظفين؛ لأنها لم تعد تستطع أن تؤمِّن عائداً مجدِياً بالنسبة لها بسبب انخفاض النشاط التجاري.. وعندها يهدأ السوق التجاري وينخفض الاقتصاد.

فيتمُّ التحكُّم من قِبَل البنك المركزي بالأسعار وضبطها وضبط التضخُّم -أي: عملية ارتفاع الأسعار وانخفاضها- عبر سعر الفائدة، وإن أيَّ بنكٍ سيعمل في السوق -بغضِّ النظر عن كونه إسلاميًّاً أم ربويًّاً-، سيخضع لهذه الآلية الأساسية في إدارة شؤون الدولة المعاصرة، ولا يستطيع أن يتحرك تحت سقفٍ آخر، فكل ما يملكه أن يعدِّد المعاملات الداخلية، ولكن الآلية الكبرى وباستمرارٍ معتمدةٌ على سعر الفائدة.



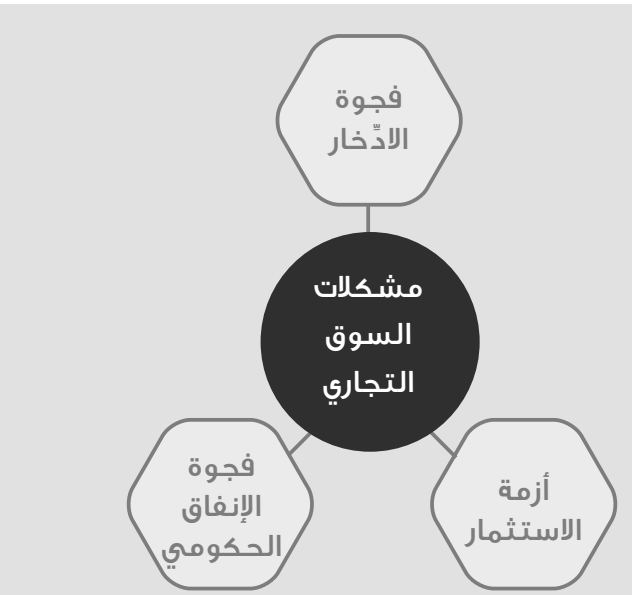
سادساً- مشكلات السوق التجارية التي تؤدِّي إلى خللٍ في الاقتصاد

فجوة الإنفاق أو فجوة الادِّخار:

كثيراً ما يقال عن السوق التجارية بأنها سوقٌ نفسيةٌ عاطفيةٌ، ويعني ذلك أن أيَّ إشاعةٍ معيَّنةٍ قد تُحدِث أزمةً اقتصاديةً، فيكفي أن تشعر الأسر بقدوم حربٍ حتى يستخدموا مدَّخراتهم في البنوك ويكدِّسون احتياجاتهم في البيوت، ومع حركة الشراء الضخمة من الأسواق تنضب البنوك من المدَّخرات ويموت النشاط التجاري في البلاد، وتتوقَّف البنوك عن الإقراض، فتتوقَّف الاستثمارات الجديدة وتزداد البطالة.. وتسمَّى هذه الحالة بـ: فجوة الادِّخار؛ حيث تُستنزف مدَّخرات الأسر في البنوك، فتُحدِث خللاً اقتصادياً في البلاد.

أزمة استثمارٍ:

كذلك الحال بالنسبة للمستثمر، فقد تُحدث إشاعةٌ معيَّنةٌ لقدوم حربٍ أو شيءٍ من ذلك خوفاً لدى المستثمرين، فتؤدِّي إلى إغلاق محلَّاتهم وأعمالهم، وتحدث أزمةَ استثمارٍ، فيقلُّ المستثمرون في البلاد، ممَّا يؤدِّي إلى ركودٍ اقتصاديٍّ.



فجوة الإنفاق الحكومي:

بعد أن تحدث الأزمات، ويركد الاستثمار، يُطلب من الحكومة أن تتدخَّل من أجل تنشيط الاقتصاد، فإذا تداركت الحكومة وتدخَّلت إيجاباً من أجل إحياء الاقتصاد، وزرعت الثقة مرَّةً ثانيةً، وأعلنت عن مشاريع عملاقةٍ في البلاد، فسيعتقد

الناس حينها أن البلاد مقبلةٌ على نشاطٍ تجاريٍّ، فيعاودون التجارة مرَّةً أخرى ساعين لفتح المشاريع الجديدة، واستقراض القروض ليزهو الاقتصاد من جديدٍ، وأما إذا لم تتدخَّل الدولة، فسيصبح عندنا ما يسمَّى: "فجوة الإنفاق الحكومي".

فباستمرارٍ هناك آلياتٌ متعدِّدةٌ داخل السوق تحكمه، قد تؤدِّي إلى فجواتٍ داخل الاقتصاد، أو إلى ركودٍ اقتصاديٍّ.

سابعاً- الاستقرار الاقتصادي للدول

بقي لدينا أمرٌ هامٌّ في الاقتصاد، نحتاج إلى أن ننتبه إليه، وهو المعايير التي يقاس من خلالها مدى استقرار الاقتصاد في دولةٍ ما؛ حيث إن الدول يقاس استقرارها الاقتصادي بنوعية الاقتصاد الموجود لديها، وهناك ما يسمَّى بـ: "توازن الهيكل الاقتصادي في الدولة"، أي: أن الدول كلما احتوت على الصناعات والزراعات، كان دخلُها الاقتصادي أكبر وأكثر استقراراً؛ لأن الصناعات والزراعات لا تُسَيَّل وتُخرَج بسهولةٍ من الدولة، أما الدول التي يُبنى اقتصادها على الخدمات والفنادق والسياحة وشركات التمويل وعمليات المضاربة وعمليات الترانزيت.. فهذا ما يسمُّونه: اقتصاداً هشَّاً.. فلو حدثت أزمةٌ أمنيةٌ في البلاد، كتفجيرٍ ما، أو نحوه، لَسهُل جدَّاً تسييل الاقتصاد فيركع البلد على قدميه.. إذاً؛ فدائماً ما تعسى الدول لأن يكون لديها اقتصادٌ متوازنٌ، وهو مرهونٌ بما يسمَّى: حجم السوق المحلية، وأيضاً متعلِّقٌ بعدد السكَّان في المجتمع، فيقال: إن أقلَّ حجمٍ تحتاجه الدولة للاستقرار واستمرار الحياة بطريقةٍ جيدةٍ في حال الأزمات أن يكون لديها سبعون مليوناً من البشر، وهذا حدُّ التأمين لضمان استمرار الحيوية في السوق الداخلية، فتستمرُّ المصانع في العمل والإنتاج؛ لأن فيه سوقاً داخليةً تستهلك هذه الأشياء.

ثامناً- الخضوع للنظام الاقتصادي العالمي

إن العمليات الاقتصادية للأفراد والمؤسَّسات، ليست محكومةً فقط محليَّاً بنظام البنك المركزي للدولة؛ حيث إن تحديد سعر الفائدة لا يرتبط بالسوق المحلي فقط؛ بل هو مرتبطٌ

أيضاً بالسوق العالمية؛ فالأنظمة الاقتصادية للدول تتماهى ضرورةً مع النظام الاقتصادي العالمي، فكما أن الحكومات تشتري من السوق الداخلي، فإنها تشتري وتبيع أيضاً من السوق الخارجي، فهناك من يحدِّد سعر الفائدة عالميًّاً، وهو متمثِّلٌ حاليًّاً ببنك انكلترا " Bank Of England"، الذي يحدِّد سعر الفائدة صعوداً أو نزولاً، كما يحدِّد العملية الاقتصادية الكلية في العالم.

إن كثيراً من الدارسين للاقتصاد الإسلامي اليوم غير مدركين لهذه الدورة الكبرى أو لهذه العملية المعقَّدة، فيتكلَّمون وكأنهم قد صنعوا اقتصاداً معزولاً عن هذه الاقتصاد الموجود، حتى إنهم لا يستغربون كيف أن البنوك العالمية يمكن لها أن تفتح نوافذ إسلاميةً؛ بل ويعتبرون ذلك حَدَثَ لاختلاف الاقتصاد الإسلامي عن المنظومة الاقتصادية الكلية، والحقيقة أنه يتمُّ فتح تلك النوافذ؛ لأنها تتماهى مع منظومتهم؛ بل هي جزءٌ منها ولا تخالفها، وبالتالي هم مستفيدون بأن تأتيهم أموالٌ زائدةٌ من المسلمين؛ فالمسلم في النهاية يتعامل ضمن الإطار العالمي الربوي الموجود، إنما ضمن مبادئه الإسلامية! ولا يمكن أن يستغني عن هذا النظام لسببٍ بسيطٍ جدًّاً، وهو أن الدول لا تستغني عن التعامل الاقتصادي مع النظام الخارجي الموجود، فحتى الاتحاد السوفييتي المعادي للنظام الرأسمالي مضطرٌّ للبيع والشراء وفق النظام العالمي المحيط به.

ويُنصح لمزيدٍ من الفهم في هذا المجال، والتوسُّع في الموضوع، قراءة كتاب "خطوتك الأولى نحو فهم الاقتصاد" للدكتور جاسم سلطان.

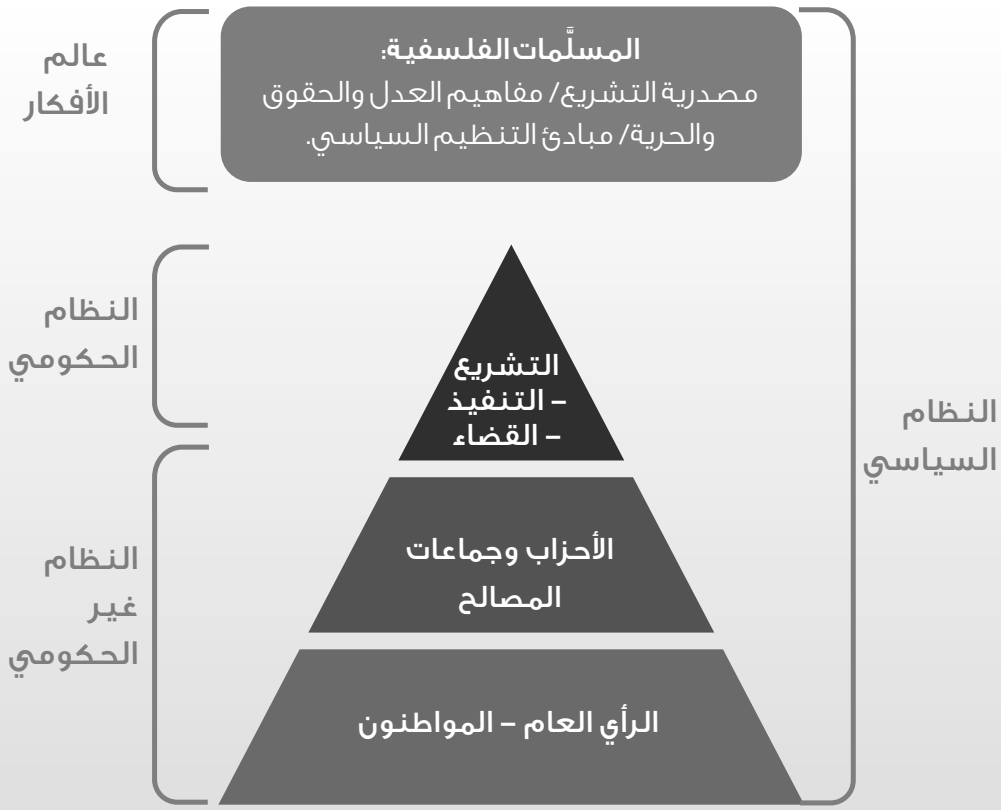
الدولة
التصوُّر العامُّ للدولة ومشكلات التنمية



أولاً- شكل الدولة

تحدثنا سابقاً عن شكل الدولة التي كانت فيه العقائد في قاعدة الهرم، ومن فوقها الأخلاق، ثم الطقوس والعبادات، ثم نظام الدفاع ونظام الحقوق في رأس الهرم، وفي المنتصف جوانب الاقتصاد والاجتماع ونحو ذلك..

أما في هذا الفصل، فسنعتمد في طرحنا مفهموم الدولة على الهيكل أدناه؛ حيث سيتمُّ شرح مفهوم الدولة من زاويةٍ أخرى وبطريقةٍ أكثر تبسيطاً واختزالاً.. حتى يتسنَّى للمتعلِّم في برنامج العلوم التأسيسية أن يختزن مفهوم الدولة، ابتداءً بأبسط تصوُّرٍ سياسيٍّ، ثم يبني عليه ما يبنيه، ويضيف إليه ما يضيفه حينما يتعمَّق لاحقاً.



بالنظر إلى الهرم أعلاه، سنجد أنه يتألَّف من ثلاث طبقاتٍ رئيسيةٍ:

- رأس الهرم: نجد فيه النظام الحكومي الذي يمثِّل الدولة، وداخله النظام التشريعي، والتنفيذي، والقضائي.
- وفي منتصف الهرم: لدينا المجتمع المدني، المتمثِّل بالأحزاب، وجماعات المصالح المؤثِّرة في صناعة الدولة والنظام السياسي.
- قاعدة الهرم: وهي تمثِّل الرأي العامَّ والمواطنين. ويأتي أثرهم في السياسة كونهم قد يشكِّلون الأحزاب وجماعات المصالح، أو قد يترشَّحون ويصلون إلى مناصب وزاريةٍ عليا..
- ولدينا على قمَّة الهرم ما نسمِّيه: المسلَّمات الفلسفية؛ فالدولة في جوهرها الأساسي، فيها مسلَّماتٌ فلسفيةٌ، يمكن أن نسمِّيَها: "عالم أفكار الدولة"، أو: "عالم أفكار صانعي الدولة"، وممَّا يجلِّي لنا عالم الأفكار هو النظر في عدَّة أمورٍ هامَّةٍ:

  - ما مصدرية التشريع لصانعي الدولة؟
  - كيف يتركَّب مفهوم الحقوق والعدل لديهم؟
  - ما الحرية ومبادئ التنظيم السياسي في العقل الجمعي الموجود؟

وتتأثَّر بهذه المفاهيم الأساسية الأولية جميع أجزاء الهرم؛ فكلما كانت هذه الأفكار الأساسية ناضجةً في الدولة، كان وضع الدولة أكثر رقيًّا وتقدُّماً، وكلما كانت هذه الأفكار مضمرةً، كانت الدولة تمرُّ بأزماتٍ حقيقيةٍ في كافَّة مستوياتها..

فعلى المستوى الحكومي، إذا سادت الدكتاتورية في بلدٍ ما، سنجد أن الأنظمة (التشريعية - والتنفيذية - والقضائية) ستندمج في أشخاصٍ محدودين، هم الذين يقومون بالتشريع والتنفيذ والقضاء، أما إذا كانت المسلَّمات الأساسية راقيةً بمفهوم العدل والحقوق والحريات، فسنجد أن التنظيمات التشريعية والتنفيذية والقضائية هي سلطاتٌ حقيقيةٌ وفعَّالةٌ، تعمل وفق صلاحياتٍ محدَّدةٍ.

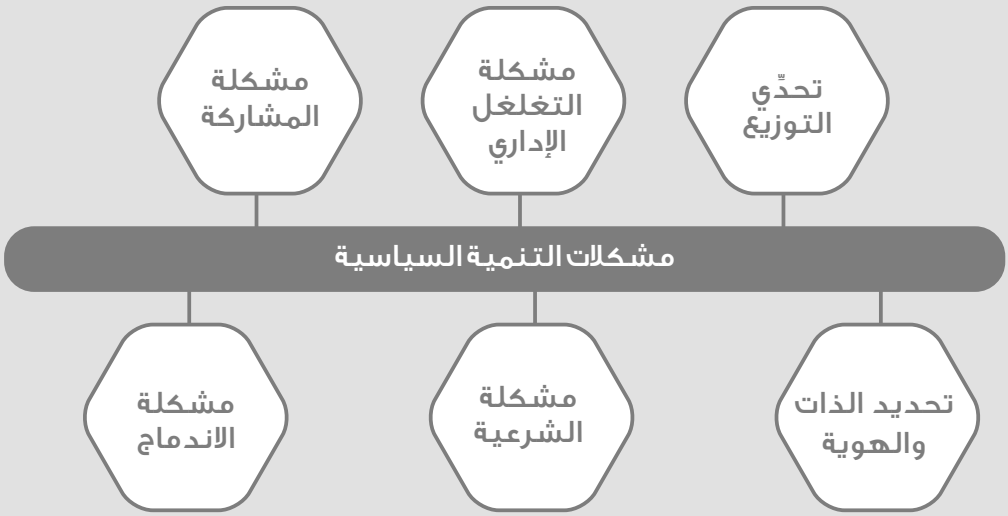
وأيضاً على مستوىً مدنيٍّ وشعبيٍّ، كلما نضجت مفاهيم العدل والحرية، وقوِي نظام الحقوق والحريات، قوِيت الأحزاب والجماعات، وكان الرأي العام أكثر نضجاً وتأثيراً في حال البلاد.

فعندما نلحظ في دولةٍ ما اختلالاً في السلطات، أو على صعيد الأحزاب، أو على صعيد جماعة المصالح وتنظيمها داخل المجتمع، أو اختلالاً في الرأي العام، أو.. فهنا يجدر بمسؤولي التصحيح التوجُّهُ نحو عالم الأفكار، والنظر في مشاكل المسلَّمات الفلسفية الأولى؛ إما على مصادر التشريع، أو على صعيد مفهومات العدل والحقوق والحرية، أو على صعيد مبادئ التنظيم السياسي، أو بها جميعاً.

وهذه هي أول قضيةٍ رئيسيةٍ عن تمثُّل الدولة، يجدر أن توضَع في ذهن المهتمِّ بالسياسة أو الفاعل السياسي.

ثانياً- مشكلات التنمية السياسية

يوجد في جميع الدول ما يسمَّى بـ: مشكلات التنمية، إنما بنسبٍ متفاوتةٍ، من هذه المشكلات:



1. من أُولى المشكلات الرئيسية في التنمية السياسية: "تحديد الذات والهوية"، وهي انعكاسٌ لمدى تقبُّل الناس في البلد الواحد -على اختلافهم- للانتقال من الأشكال الأولية (القبائل والأعراف..) إلى تمثيلٍ سياسيٍّ واحدٍ، يمكِّن السكَّان من

تحديد هويةٍ واحدةٍ لهم، يعرفون حدودها بشكلٍ واضحٍ، وإذا لم يتمَّ هذا الانتقال، فهذا يعني أن الدولة التي يريدون صناعتها ستواجه مشاكل حقيقيةً، ومشكلة الهوية هذه نجدها واضحةً في دولٍ عدَّةٍ، مثل: سوريا، والعراق، ولبنان، وأفغانستان؛ وذلك لعدم قدرة هذه البلاد على الانتقال من الأصول الأولية للسكَّان إلى تمثيلٍ سياسيٍّ يجمعهم ويوحِّدهم.

2. من التحديات الأخرى في الدول، ما يُسمَّى بـ: "تحدِّي التوزيع"، أي: كيف توزَّع الثروة والسلطة داخل المجتمع؟ ونأخذ السودان كمثالٍ على بلدٍ قد فشل فشلاً ذريعاً في توزيع الثروة والسلطة، فبقي المركز محتفظاً في كافَّة الخيوط الأساسية دون توزيعٍ عادلٍ يُشعِر مناطقه المترامية بالانتماء والأمان.

3. وأيضاً لدينا مشكلة الشرعية، ونأخذ مثالاً على هذه المشكلة جنوب إفريقيا، ففي لحظةٍ تاريخيةٍ معيَّنةٍ، كان الصراع على أوجهِ بين قبائل الزولو -وهي المَلَكِيَّة القديمة التي كانت تحكم البلاد في الماضي-، وبين النظام العنصري الذي كان قائماً، وبين حركة مانديلا، فهذه ثلاث شرعياتٍ؛ الأولى: تدَّعي الملكية، والثانية: تدَّعي القوة، والثالثة: تدَّعي المشروعية الجماهيرية والتأييد الشعبي.

4. وأيضاً هناك مشكلة "التغلغل الإداري" التي تتعلَّق بالسيطرة الفعلية على الأقاليم؛ فهناك بعض البلدان التي لم تتمكَّن فيها الحكومة من أن تطبِّق خطَّتها على جميع بقاعها، ومثال ذلك ما نجده في الصومال؛ حيث يوجد بعض المناطق التي لا تزال مستقلَّةً عن الحكومة الصومالية، ولا تخضع لقوانينها بشكلٍ مباشرٍ.

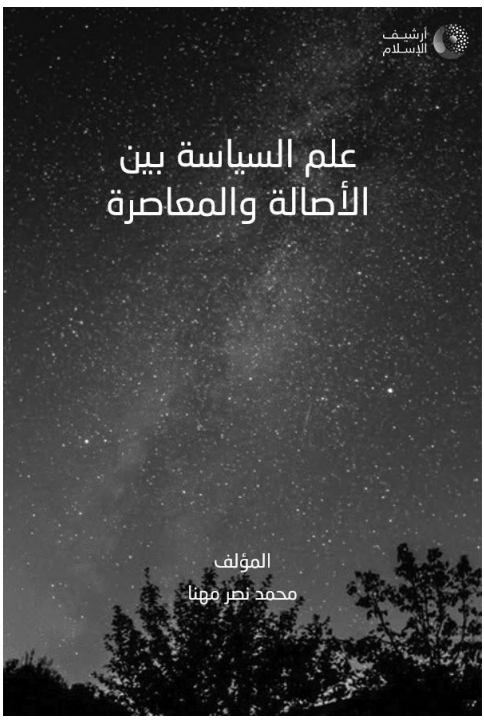
5. مشكلة المشاركة: ونعني بها عدم قدرة القوى السياسية المؤمنة بالحريات والعدالة على أن تنسِّق فيما بينها، فتحدث فراغاتٌ داخل الدولة يمكن أن تودي بها، وأوضح مثالٍ لتلك المشكلة نجده في مصر؛ حيث تصارعت القوى السياسية على السلطة، ومن ثم تمَّ تسليمها للجيش بعد أن لم يتمَّ التوصُّل إلى اتفاقٍ بين القوى السياسية المدنية على نوعية المشاركة المطلوبة من الأطراف، وبالتالي احتدَّ الصراع الذي فتح الأفق أمام الجيش للتمكُّن من السلطة في البلاد.

6. مشكلة الاندماج: وتأخذ مشكلة الاندماج عدَّة أشكالٍ؛ ففي بعض الأحيان ترفض بعض الجماعات من أصحاب الهويات المعيَّنة الاندماج، وتطالب بكثيرٍ من الشروط التي يصعب على بقية أطياف المجتمع تقبُّلها، وبالتالي يدبُّ الصراع في المجتمع، فيضعف حال الدولة. وأيضاً قد تحدث مشكلة الاندماج نتيجة عدم إجماع فئات المجتمع على بعض القيم السياسية والاجتماعية. وقد تتمثَّل مشكلة الاندماج بفجوةٍ واسعةٍ بين النخبة وبين الجماهير.

إن من معايير نجاح الدول هو مدى قدرتها على التغلُّب على هذه الإشكاليات، فهي إشكالياتٌ لا تختفي في الدول، ولكن تختلف نسب معالجتها بين المجتمعات، ويتحدَّد نجاح المجتمع في تحقيق ثلاثية (ضمان الوجود، وضمان الاستقرار، وضمان التنمية) من خلال معالجة هذه القضايا الرئيسية في شأن الدولة.

ثالثاً- كتاب علوم السياسة

أخيراً؛ من الأمور الهامَّة في هذا الباب: كتاب في العلوم السياسية اسمه: "علوم السياسة: دراسةٌ في الأصول والنظريات"، لمحمد نصر مهنَّا، فقراءة هذا الكتاب وتلخيص الزبدة منه، مع التمكُّن من الهيكل العامِّ للدولة، وفهم إشكاليات التنمية السياسية، سيساعد في فهم فكرة الدولة والإشكاليات التي يمكن لها أن تتعاقب عليها.



إنشاء الدول

تحدَّثنا في الفقرات السابقة عن التصوُّر العامِّ للدولة والإشكاليات التي تعترضها؛ سواء فيما يتعلَّق بالهوية، أو في توزيع الثروات، أو شرعية الحكم، أو في السيطرة على مجال الدولة، أو في الاندماج بين فئات الشعب، وهي جميعها قضايا تقف حائلاً أمام التشكيل السليم للدول..

وسنتناول فيما يلي مفهومين يعتبران أيضاً معياراً هامًّاً في تقييم مدى نجاح الدول أو فشلها، مع التأكيد على ضرورة فهم الفارق بينهما بوضوحٍ، وهذان المفهومان هما: بناء الدولة، وبناء الأمَّة.

أولاً- نشوء الدولة والاحتياج الإنساني لها

عند النظر إلى المتكلِّمين عن نشأة الدولة، سنجد أن هناك آراءً مختلفةً؛ منها:

نظرية الحقِّ الإلهي:

يرى البعض أن نشأة الدولة مرتبطٌ بأمرٍ إلهيٍّ؛ حيث يوحي الله عزَّ وجلَّ لملكٍ ما بإقامة الدولة، ويصبح بهذا الحقِّ الإلهيِّ سيداً على الناس، وبالتالي وجبت عليهم الطاعة، فتنشأ الدولة وفق هذه النظرية بنصرٍ وتأييدٍ وتكليفٍ إلهيٍّ.

نظرية البيعة:

مع نزول الإسلام، نازعت النظرية السابقة نظريةٌ أخرى؛ حيث إن الموضوع لم يعد متعلِّقاً فقط بقضية أن شخصاً ما نزل عليه الوحي الإلهي؛ بل نشأ ما يسمَّى: "البيعة"، وهي عبارةٌ عن تعاقدٍ بين الأطراف مقابل أداء واجباتٍ معيَّنةٍ تجاه المجتمع والناس؛ بحيث إن الناس تختار شخصاً ما ويصبح ملزَماً بأداء واجباتٍ معيَّنةٍ تجاههم.. وبهذا الشكل ظهرت نظرية التعاقد الاجتماعي.

نظرية التعاقد الاجتماعي:

مرَّت نظرية التعاقد الاجتماعي في التراث الأوروبي بمرحلتين:

1. **المرحلة الأولى:** كانت نتيجة إشكالياتٍ كبرى حدثت في بريطانيا؛ حيث فُقِد الأمن، وسادت الصراعات، وكثُر القتل، فخرجت نظرية ما يسمَّى: "الدولة الوحش" التي تعني أن البشرية تميل أساساً إلى القتل والذبح وسفك الدماء، فالإنسان بطبعه متوحِّشٌ، والجسم الاجتماعي هو وحشٌ كبيرٌ، وهذا الوحش الكبير لا يستطيع أن يتعايش مع بعضه.. فقرَّر هؤلاء جميعاً أن يعطوا السلطة لشخصٍ واحدٍ من دون أيِّ مساءلةٍ، ويتنازلون عن جميع حقوقهم لهذا الشخص.. وهكذا أصبح هناك حقٌّ مطلقٌ ناشئٌ عن تعاقدٍ اجتماعيٍّ توافَق عليه الناس، وله مطلق الصلاحية بأن يفعل بهم ما يشاء.
2. **المرحلة الثانية:** جاء من عدَّل النظرية، وقال: إن الناس يجب أن لا يتخلَّوا عن كامل حقوقهم، وإن الناس بشرٌ وليسوا وحوشاً، إنما الإشكاليات الكبرى التي تقوم بينهم بسبب حقِّ الملكية، فهم يتنازعون على الأرض والعقار.. ويحتاجون إلى مَن ينظِّم لهم هذه الأمور، ولكن تبقى حريتهم في التنقُّل والتعلُّم والتديُّن ليست بالمجالات التي تعطى لأحدٍ غيرهم، فالمجتمع بإرادته تخلَّى عن جزءٍ من حقوقه لصالح شخصٍ يقوم بإدارة هذه العملية، ولكنه في الوقت نفسه احتفظ المجتمع بحقِّ تغيير هذا الشخص إذا لم يلتزم بالعقد ولم ينفِّذ ما وعد القيام به..

فإذاً؛ كانت البشرية دائماً بحاجةٍ إلى تنظيم أحوالها.. ولذلك قلنا: إن الدولة حاجةٌ واقعيةٌ، ولم نبنِ ذلك على معرفتنا بكيفية نشأة الدولة، فهو ما لم يُقطع به تماماً؛ سواء كانت قد نشأت من تطوُّر الأسر إلى قبائل، والقبائل إلى حكوماتٍ صغرى، والحكومات الصغرى إلى دولةٍ.. أم أنها ناشئةٌ عن التعاقد بين الناس، إنما المقطوع به هو أن الدول لا تدوم؛ بل دائماً ما يحدث فيها انفجاراتٌ اجتماعيةٌ وسياسيةٌ تؤدِّي إلى زوال حكوماتٍ، ووصول أو عودة حكوماتٍ أخرى، وكلما نشأت أو عادت حكومةٌ، عادت بوعودٍ جديدةٍ، كإقامة الاستقرار، وتحقيق الأمن، والعمل على البناء..

إذاً؛ هناك ثلاث احتياجاتٍ أساسيةٍ للإنسان، يجب أن نستحضرها من أول الرحلة لفكرة بناء الدول:

- أنها حاجةٌ إنسانيةٌ.
- أنها ردٌّ على احتياج الواقع.
- أن الوعود التي ستأتي بها الجهة أو الشخص الذي سيتولَّى الدولة الجديدة؛ من ضمان الوجود والاستقرار والتنمية للمجتمع في الدولة الجديدة.. إما أنها وعودٌ ستتحقَّق، وإما أن المجتمع سيدخل مرَّةً أخرى في مرحلة ثوراتٍ وتغييراتٍ..

ثانياً- بناء الدول والأمم

في العصور الحديثة، بدأت تظهر أدبيات "بناء الدول State Building" و"بناء الأمم Nation Building".. ونشأت هاتان الفكرتان من تطوُّراتٍ كبرى حدثت في العالم. وعلى أن الأدبيات المتاحة في هذا المجال ليست كثيرةً، وهي عملياتٌ تجريبيةٌ يُحاوَل أن ينظَّر لها، ولكن معرفة المصطلحَينِ والفرق بينهما من الأمور الهامَّة لمن يشتغل في هذا الفضاء المتعلِّق بقضية المجتمعات والتطوُّر الاجتماعي وقضاياه، وإن كِلا الفكرتين ليستَا بالأفكار الجديدة، فعبر التاريخ كانت الدول تتشكَّل، ولكن حينما أُرِيدَ تقنين هوية الشعب وضبطها بطريقةٍ علميةٍ، نشأت لدينا مصطلحاتٌ مكافئةٌ لمثل هذه الاحتياجات، فهناك دولٌ أريد إنشاؤها من العدم، كإسرائيل على سبيل المثال، فهي دولةٌ ليس لها ماضٍ وليس لها تاريخٌ، أُنشئت على أرض أناسٍ آخرين، وأُقيمت لها المؤسَّسات والمنشآت.. وأيضاً في جنوب السودان، كان هناك محاولاتٌ حقيقيةٌ لإنشاء دولةٍ معاصرةٍ ببرلمانها واقتصادها وبكافَّة مؤسَّساتها من الصفر في مجتمعٍ قرويٍّ وأرضٍ زراعيةٍ، إلا أن بناء دولةٍ من الصفر، من القضايا الشائكة، وهي ممَّا لا يقلُّ صعوبةً عن إعادة بناء دولةٍ قد انهدَّ كيانها السياسي والاجتماعي، كالعراق، وسوريا، وأفغانستان، وغيرها... والجدير بالذكر ابتداءً ذكر قاعدةٍ عامَّةٍ كبرى، وهي أن الدولة حاجةٌ إنسانيةٌ، وهي ردٌّ على حاجةٍ واقعيةٍ، وهذا المبدأ الأولي البسيط كثيراً ما يضيع في خضمِّ النقاشات.

بناء الدول:

عندما نتكلم عن إعادة بناء الدول أو إنشائها، يظهر لدينا معنىً من معاني "المشروع"، ويقصد بكلمة مشروع من ناحيةٍ إداريةٍ: العمل المنظَّم الذي له مخرجاتٌ محدَّدةٌ وتكلفةٌ محدَّدةٌ وزمنٌ محدَّدٌ، وإذا ما كانت الدولة صغيرةً، فترتيب أمورها والصرف عليها أسهل بكثيرٍ ممَّا لو كانت كبيرةً ومتعدِّدة الأعراق والمذاهب، وتقوم على مساحاتٍ كبيرةٍ، فعندها تكون التكلفة ومحاولة الضبط والتنسيق عاليةً ومعقَّدةً..

وإن بناء الدول -إضافةً إلى الإذن الدولي- يتطلَّب عدة احتياجاتٍ أساسيةٍ من أجل هندسة الدولة بشكلٍ سليمٍ، تتمثَّل بما يلي:

- **الجيش والشرطة:** يُقرَّر عادةً لكل دولةٍ التعداد المناسب من الجيش والقوة العسكرية بما يتناسب مع حجم الدولة، وتعداد سكَّانها.
- **البنك المركزي:** وهو الذي يقوم بالعملية الاقتصادية ويديرها تسخيناً وتبريداً؛ فيصدِّر العملة، ويحدِّد سعر الفائدة.. ونحو ذلك من الأمور التي تحدثنا عنها سابقاً.
- **الإدارة:** المتمثِّلة بأجهزة الإدارة الحكومية المختلفة الموجودة في الدولة.
- **البنية التحتية؛** مثل: بناء الشوارع، والمدارس، والمشافي.. والخدمات الأخرى التي يحتاج لها الناس داخل الدولة.



بناء الأمم:

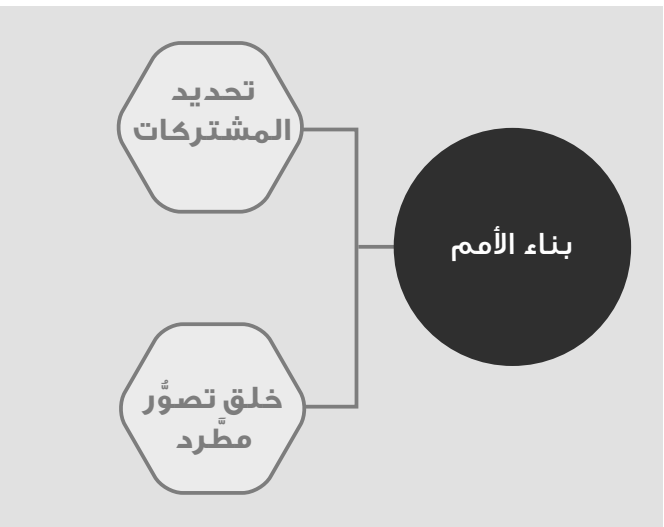
إن بناء الدول يعترضه بناء الأمم، فمن أجل بناء الدولة لا بدَّ من تشكيل أمَّةٍ، وبناء الأمم هو معضلةٌ حقيقيةٌ في أغلب

بلدان العالم، والمقصود ببناء الأمم الانتقال من البنيان القديم للشعوب إلى البنيان الحديث في إطار الدولة، وذلك كالانتقال من حالة القبائل المتعدِّدة أو التنظيمات الأولية العشائرية التي تسير على مجموعة الأعراف والتقاليد، إلى كيانٍ حكوميٍّ يوحِّدهم في وطنٍ واحدٍ.

وإن الانتقال من الوضع الجزئي إلى الوضع الكلي ليس بالأمر البسيط، فإذا ما انتقلنا إلى مرحلة الكيف، سنجد أن مصطلح الأمَّة مفهومٌ واسعٌ ومعقَّدٌ جدًّا، وضبطه ليس بالسهولة التي قد نتصوَّرها؛ فالأمَّة العرقية تختلف عن الأمة الدينية التي تختلف بدورها عن الأمة القومية..، فكيف سننشئ وحدةً بين المتفرِّقين المختلفين الذين كانوا يتقاتلون فيما بينهم!؟ وما نوع العَلَم الذي سيختارونه ويجتمعون عليه من بين الرايات المختلفة التي كانت ترمز لهم؟ وكيف سننشئ جيشاً واحداً من جيوشٍ متفرِّقةٍ؟ فغالباً ما تتنوَّع الشرعيَّات في البلد الواحد؛ فهناك من يدَّعي الإرث التاريخي، وهناك من يتكلم عن الشعبية الموجودة، وبالتالي فإن هؤلاء الناس ينادون بالنظام الجمهوري والاتفاق الوطني، وهناك فريقٌ آخر يمتلك السلاح ولا يهمُّه مصدر شرعيَّته، ويريد أن يأخذ قطعةً من الأرض ويعتبرها ملكاً له.

وفي سبيل حلِّ هذه المعضلات، نحتاج أن نستشفَّ الحلول الرئيسية التي اتَّبعتها تلك الشعوب التي نجحت في بناء الأمم؛ حيث نجد داخل هذه الدول:

1. الحد الأدنى الهوياتي:



والمقصود هنا البحث عن المشتركات الممكنة التي لن يختلف عليها شعب الدولة بجميع أطيافه، ونأخذ اليهود مثالاً لذلك؛ فحينما أقاموا دولتهم، اعتبروا أنه من أجل التعايش بينهم يكفي انتساب الإنسان لليهودية بغضِّ النظر عن الشكل التنفيذي لتديُّنه طالما أنه يلتزم بالقانون الذي يسود الدولة، ويقوم بالواجبات التي ينصُّ

عليها القانون، ويحترم الإطار الاجتماعي.. فهذا كافٍ ليُعتبَر مواطناً يهوديًّاً ينتمي إلى الدولة اليهودية. وكذلك الأمر في أمريكا التي تزدحم بالهويات المختلفة؛ حيث تمَّ النزول إلى الحدِّ الأدنى للهوية المشتركة، فتمَّ اعتبار أيِّ مولودٍ على الأرض الأمريكية مواطناً أمريكيًّاً، فكلما كان المجتمع أكثر تنوُّعاً، زادت الحاجة إلى النزول بالحد الأدنى للهوية، فتحديد المشتركات أمرٌ هامٌّ جدًّاً، وهذه المشتركات في الغالب يتمُّ تحديدها على نطاق الحدِّ الأدنى، وهذه أول قاعدةٍ كبرى فيما يسمَّى: "Nation bulding" أو "بناء الأمَّة" في الدولة المعاصرة.

لماذا الهويات الوسيطة وليس النقيَّة؟

إن الحديث عن الهويات الجامعة، يقودنا إلى مسألةٍ هامَّةٍ، وهي الأشكال النقيَّة من الهويات، ونقصد بالأشكال النقية؛ الهوية الإسلامية والهوية اللِّيبرالية والهوية الاشتراكية.. باعتبار أن هناك هوياتٍ نقيةً من هذه الأشكال ربَّما هي الأسلم لحكم منظوماتها الاجتماعية؛ فالميراث العام إذا وُجِدَ، فإنه يساعد في قضية التضامن الاجتماعي والشعور بالهوية الجامعة، ولكن في الحقيقة نقاء الهوية في المجتمعات اليوم هو أمرٌ نادرٌ جدًّاً، فالهوية الجامعة في المجتمعات المعاصرة هي تشكُّلٌ اختياريٌّ أكثر من كونها ميراثاً، فلا بدَّ في عصرنا من توليفةٍ تقام بين عددٍ من التصوُّرات لتناسب المجتمع، فلا تكاد توجد دولةٌ معاصرةٌ فيما هو معلومٌ نقيَّةً تماماً من الاختلافات العرقية والهويات الفرعية، وكل هويةٍ ستنازع الآخرين على أنها التمثيل الحقيقي للدولة بسبب قِدَمها الاجتماعي، أو لكونها تمثِّل الأكثرية.. والمجتمعات التي تبدأ بالاستقرار تحاول أن تبحث عن منطقةٍ وسطى لتشكِّل من خلالها هوياتٍ وسيطةً وليست حدِّيةً.. وعندما شكَّل الإسرائيليُّون دولتهم، كانوا خليطاً من العلمانيِّين والشيوعيِّين واليساريِّين والمتدينين.. وآخرون ليس لهم هوياتٌ محدَّدةٌ سوى انتمائهم إلى اليهودية وشعور الرغبة بالهجرة إلى الأرض الجديدة، فجمعوا الشعب على الحدِّ الأدنى من شعور الانتماء إلى اليهودية.

إنَّ إنشاء الدول يحتاج إلى اتفاقٍ أدنى بين "مختلفين" على العيش المشترك، لا بين "متفقين"، وهو الأمر الذي يغيب عن أذهان كثيرٍ من الشباب المسلم في يومنا

فاعتقاد بعض المسلمين اليوم أن الحدَّ الأدنى مقرَّرٌ سلفاً؛ بأن يكون الإنسان مسلماً هو اعتقادٌ

خارجٌ عن الصواب، ففي واقع الدول المعاصرة يمكن أن تكون مسلماً بين أقلِّيَّةٍ غير مسلمةٍ، كحال الهند مثلاً، وفيها 200 مليون مسلمٍ، يقابلهم أضعافٌ مضاعفةٌ من الهندوس، فهنا على الدولة أن تنزل بالحد الأدنى للهوية المشتركة لتجمع بين الملل والنحل المتواجدة على أرضها.

2. خلق تصوُّرٍ جامعٍ

إن خلق تصوُّرٍ جامعٍ إزاء الدولة لدى الشعب يمكِّن انتماءَهم ويعينهم على العيش المشترك.. وهذا يتمُّ على مرحلتين:

1. المرحلة الأولى (التوافق الأولي عند التأسيس): ونعني به القيم والتصوُّرات التي اتفق عليها المؤسِّسون أو المشرفون في مرحلة التأسيس، كاتفاقهم على العلمانية مثلاً.
2. المرحلة الثانية (التنشئة والتوجيه اللَّاحق): تأتي في المرحلة الثانية التنشئة الاجتماعية؛ فهل سترقى لأن تخدم القيم المشتركة التي وضعت في مرحلة التأسيس، أم أنها ستغذِّي النزعات القديمة الموجودة؟ وذلك كما حدث في الهند من انتكاساتٍ كبرى في المجتمع تجلَّت بتصرُّفات بعض متطرِّفي الهندوس إزاء الهنود المسلمين، فعادت بالهند إلى ما قبل الاتفاق العلماني الحالي الموجود. وهكذا فقد ينجح الآباء المؤسِّسون وتفشل التنشئة.

إن الدعاية السياسية، والنظام التعليميَّ، ونظام الجندية، والاحتفاء بالإنجازات الضخمة المشتركة، وعَلَم الدولة.. جميعها أدواتٌ تُسهِم في خلق شعورٍ مشتركٍ يوحِّد الأمة حول شيءٍ معيَّنٍ، فمثلاً: في الولايات المتحدة الأمريكية حينما يقول الأمريكي: "أنا أمريكي"، نتسائل: ما الذي وحَّد الولايات المتحدة وهي الدولة التي تكوَّن شعبها من شتات شعوب الأرض المتنوِّعة دينيَّاً وعرقيَّاً، تلك الشعوب التي انتقلت هرباً من ظروف العيش الصعبة!؟

إن كون الشخص أمريكيَّاً اليوم يعني أنه يمتلك الحدَّ المشترك من الثقافة الأمريكية الجامعة التي شكَّلها الدستور، والعلم الأمريكي، والجيش، والدعاية الهوليودية الإعلامية، والنظام التعليمي.. فجميعها شكَّلت هويةً معيَّنةً وطابعاً معيَّناً للأداء الأمريكي في الحياة،

حتى إن اللغة الإنجليزية قاموا بمحاولة كتابتها ونطقها بالطريقة الأمريكية، لتصبح جزءاً من تكوين الهوية الأميركية.

فحينما نتحدَّث عن الأمَّة؛ فإننا نقصد إيجاد هويةٍ جامعةٍ ينتسب إليها الناس من دون أن يتنازع عليها هوياتٌ أقوى منها، وخلق شعورٍ تضامنيٍّ بين أفراد المجتمع يمكِّنهم من العيش المشترك، ويعينهم على تقديم التضحيات من أجله، ومن دون هذين العنصرين تتعرَّض الدولة عادةً لاهتزازاتٍ مستمرَّةٍ نتيجة النزاع على الهويات.

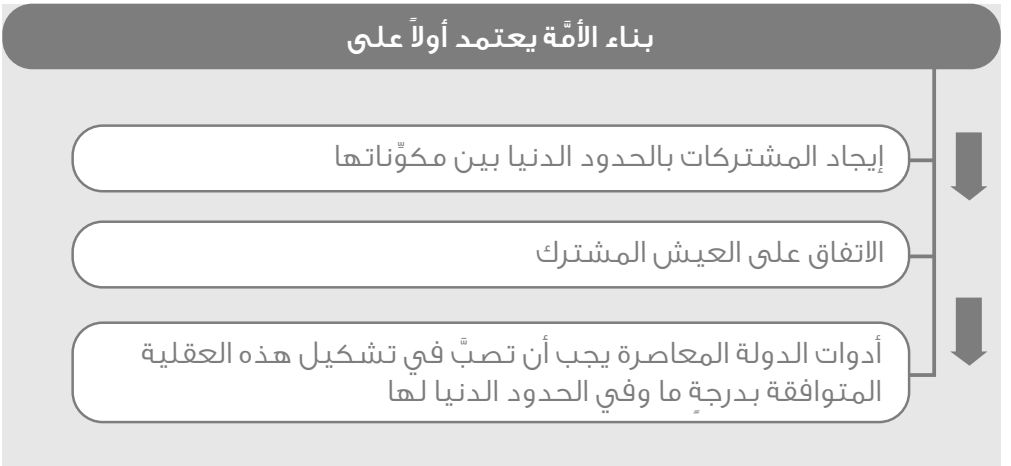
من الأمور الهامَّة أيضاً في بناء الدول وتشكيل الأمم:

3. القيادات الموثوقة والمسؤولة:

أسلفنا في الفقرة السابقة أنه قد ينجح الآباء المؤسِّسون في خلق تصوُّرٍ جامعٍ، وتفشل التنشئة، والعكس صحيحٌ؛ فقد تكون القيادات المؤسِّسة لا ترقى لمستوى اللحظة التاريخية لتكوين الدولة، وهذا ما لاحظناه في مصر، فلم يكن هناك قياداتٌ ترقى لإنشاء دولةٍ تحوي جميع المواطنين، فحدث تنازعٌ على هوية الدولة، وهو تنازعٌ لم يكن ليحدث ضمن أطياف الشعب المصري، ولكن حينما فشلت النخبة في الاتفاق على الحدود الدنيا للهوية المصرية، فتحت مجالاً لعودة الدكتاتورية مرَّةً أخرى إلى المجتمع. فوجود قياداتٍ ترقى لمستوى اللحظة التاريخية قضيةٌ أساسيةٌ في مشروع النهضة، ومن دون تلك القيادات التي تُعنى بمتطلَّبات التوفيق بين الأطياف المختلفة لا يُرجى أيُّ أملٍ في إقامة الدولة بشكلٍ سليمٍ.

4. الخبراء موثوقون:

إن عمار الدول ليس أمراً عبثيًّاً؛ فهناك أشياء معقَّدةٌ، كإنشاء الجيوش، وبناء النظام الاقتصادي، وتأسيس أنظمة التعليم القويمة، والتخطيط للعمليات المعقَّدة والمركَّبة في مجتمعاتٍ تُحسِن حمل السلاح ولا تحسِن البناء.. فالنخب تحتاج إلى خبراتٍ تُسهِم في إنشاء الكيان السياسي الجديد، وفي حال لم تتوافر تلك الخبرات، فسيحصلون على استشاراتٍ تقودهم إلى مساراتٍ خاطئةٍ؛ كما حصل في العراق؛ حيث تمَّ تكوين تيَّارٍ طائفيٍّ أدَّى إلى عزل فئاتٍ كبيرةٍ داخل المجتمع، وبالتالي لم يستفِد المجتمع من الثروات الضخمة الموجودة لديه، فتولَّد الخلل ذاته -الذي كان في القيادات السابقة- في القيادات اللَّاحقة!



ثالثاً- الإستراتيجيات المتَّبعة عند بناء الدول

1. وقف الصراع:

إن أول قضيةٍ رئيسيةٍ يستهدفها الناس الذين يشتغلون على بناء الدولة أو ترميمها، هي وقف الصراع أو تخفيضه إلى الحدِّ الأدنى، فوقف الحرب أو على الأقل تخفيض وتيرتها إلى الحدود التي لا تؤثِّر على البناء الجديد، هو شرطٌ أول لإعادة بناء الدولة.

ووقف الصراع يتمُّ بإحدى طريقتين؛ إما أن تتفق القوى المتصارعة على وقف الصراع بينها وترك السلاح والاحتكام إلى العقل. أو تُترَك الحرب مشتعلةً إلى أن تُستنزَف طاقات الأفراد ومقدَّراتهم حتى يصلوا إلى اللَّحظة التي يستطيعون فيها البدء بالنقاش والحوار.. فبعض الحروب تُترك لفتراتٍ زمنيةٍ طويلةٍ إلى أن تصل الأطراف إلى نهاية المطاف في محاولةٍ إلى فرض إرادتها على الآخرين.. فعندها يمكن قبول احتمالات الشراكة والبناء.

2. تحديد حجم الأجهزة الأمنية:

تحديد حجم الجيش اللَّازم والأمن والشرطة لدولةٍ ما، يحتاج إلى حساب النسب داخل الدولة، كأن يقال: إن كل عشرة آلاف مواطنٍ يحتاجون إلى رجلين أو ثلاثة رجالٍ من الأمن، بما يحقِّق ضمان الأمن الداخلي والخارجي.



3. تحديد حجم التمويل الضروري:

إن إدارة الدولة الناشئة تحتاج إلى تمويلٍ ضروريٍّ لإدارة المرافق العامَّة؛ الصحية، والتعليمية، والشرطية، والخدماتية من مياهٍ وكهرباء ونحوه.. وهذا يتطلَّب ابتداءً ضبط موارد الدولة بالشكل الصحيح للوصول إلى القدر المعيَّن الذي تحتاجه، ثم يتمُّ البحث عن مصادر وجهاتٍ لتمويل الضروريات، وبالتالي يبدأ الناس يجدون الاستقرار في حياتهم.

4. تحديد حجم الفجوة الثقافية:

كثيراً ما تُعزى المشكلات بين الشعب الواحد إلى اختلاف الهويات والأديان وتنوُّعها، ولكن قد لا تكون المشكلة بحقيقتها كذلك، فكثيرٌ من المجتمعات تكمن معاناتها الحقيقية بوجود عوائق ثقافيةٍ ضخمةٍ تحول دون سلامتها، فمثلاً: دولٌ كسوريا والعراق وأفغانستان، لديها عوائق ثقافيةٌ كبيرةٌ تجاه الوحدة تحول دون اجتماع شعوبها، وأيضاً شعوب بنغلادش وباكستان التي انفصلت عن الهند بسبب اختلاف الأديان بحسب ظنِّهم، ولكن ما حدث أنه

لم تصمد الوحدة الداخلية لكلا البلدين رغم اتفاق شعوبهم على ديانةٍ واحدةٍ، فكلتَا الدولتين تعتمد -من أجل البقاء- على الخارج أكثر من اعتمادها على كيانها الداخلي.

5. المحاصصة، أم الكفاءة:

كثيراً ما تنشأ عند قيام الدولة نزاعاتٌ بين القوى السابقة والقوى الجديدة، فتبدأ المحاصصة، والمجتمعات التي تبدأ عبر المحاصصة، غالباً ستنتهي الأمور بها إلى فئاتٍ اجتماعيةٍ لا تمتلك المعرفة والمؤهِّلات، ليصل إلى وزارة التربية والتعليم مَن لا يحسن القراءة والكتابة! وإلى وزارة الاقتصاد مَن لا يحسن حتى أن يفهم ما يقوله المستشار الاقتصادي! فالمحاصصة وصفةٌ قاتلةٌ لأيِّ مجتمعٍ من المجتمعات، وفي نموذج لبنان يتضح لدينا فشل مسألة المحاصصة في إنشاء كياناتٍ سياسيةٍ، وكيف أنها قادت المجتمع إلى خرابٍ كبيرٍ.

6. البحث عن منطقة ارتكازٍ اقتصاديٍّ

حينما تستقرُّ الدولة على القواعد الأولية بدرجةٍ معيَّنةٍ، تبدأ عملية التنمية، وبحكم أن الدول الجديدة عادةً لا تمتلك موارد لما يسمَّى بـ: النهضة الشاملة، فإنها تبحث عن منقطة ارتكازٍ للاقتصاد الجديد تبدأ منها وتنفق عليها حتى تستطيع أن تأتي بدخلٍ لتمويل المناطق الضعيفة الموجودة داخل المجتمع، مع ضرورة السعي للوصول إلى مرحلة نضج الهيكل الاقتصادي في كلٍّ من الصناعة والزراعة والقطاع الخدمي والتكنولوجيا، وهو أمرٌ هامٌّ لقوة الدولة، وإن فشل توليد المال من هذا المرتكز الاقتصادي أو من سوء إدارته، فإنه سيؤدي لأن يعاني المجتمع من الفقر مرَّةً أخرى، وذلك كما حدث في العراق؛ حيث يوجد موردٌ اقتصاديٌّ هو البترول، ولكنه سُرق وذهب هباءً، فضاع المورد الرئيسي بسبب الفساد الحاصل. فمعرفة مِن أين ستبدأ التنمية في المجتمعات التي لا تستطيع أن تنفق على تنميةٍ كليةٍ كاملةٍ، قضيةٌ هي في غاية الأهمية وتحتاج إلى تخطيطٍ وبناءٍ.

7. اختيار النظام السياسي الأمثل:

إن اختيار النظام السياسي الأمثل هو أيضاً من القضايا المفصلية، وكثيراً ما تُذكَر الديمقراطية باعتبارها الحلَّ الأمثل، فهل الديمقراطية هي بالفعل الحلُّ الأمثل لجميع المجتمعات؟ إن كل نظامٍ سياسيٍّ، يأتي ومشاكله معه، والمفاضلة ليست فقط بين نظامٍ

كاملٍ ونظامٍ ناقصٍ؛ بل تتعلَّق العملية بموازنةٍ تخدم مستقبل البلد وتطوُّره..، وفي الحقيقة الديمقراطية لا تشتغل منفردةً، فلا يمكن أن تُنجِز الديمقراطية وعودَها في جميع البلاد في ظلِّ جميع الظروف؛ ففي بلدٍ فيه طائفيةٌ مثلاً، والتصويت على أساسٍ دينيٍّ، لا يمكن أن تطبَّق الديمقراطية فيه بشكلها الحرِّ المبنيِّ على اختيار الشعب في حدودٍ عاليةٍ للأكفأ، وفي حال تمَّت السيطرة على العملية الديمقراطية من قِبَل فئاتٍ معيَّنةٍ، فإن العملية الديمقراطية ستفقد معناها وتتحوَّل إلى شكلٍ خارجيٍّ فقط بلا مضمونٍ حقيقيٍّ! فالنظام السياسي الأمثل هو الذي يسمح بالتطوُّر أكثر، ومدى درجة القبضة المركزية تتعلَّق باحتياجات المجتمع، فالديمقراطية ليست حلاًّ لجميع المجتمعات، وأيضاً الديكتاتورية ليست كذلك، فأحياناً تبدأ الدولة بقبضةٍ حديديةٍ، ومن ثم شيئاً فشيئاً تتحوَّل إلى نظامٍ ديمقراطيٍّ، وأحياناً يستبدُّ الإنسان الذي أنشأ الدولة الأولى بالقبضة الحديدية ويريد الاستمرار والدوام، فعندها تدخل الدولة في صراع الديكتاتورية بعد أن كانت حركتها تصبُّ في محاولات الإنشاء والبناء.

أخيراً.. إن اعتقاد بعض الناس أن هناك وصفةً واحدةً سحريةً مُثلى صالحةً لكل زمانٍ ومكانٍ وفيها سعادة الشعوب وإمكانية البناء هو اعتقادٌ باطلٌ، فالمدينة الفاضلة قيامها ممكنٌ في الخيال ولا تقييد عليه، أما في الواقع فهناك ظروفٌ تقيِّدها وتعيد تشكيلها.. وإن هؤلاء الناس حينما يتكلمون، فإن كلامهم من وحي الجانب النظري دون أن يرون إمكانياته في الواقع الموجود، فحال المجتمعات العربية والإسلامية اليوم كمَن يقع في البحر ويوشك على الغرق لعشرات المرَّات، ثم لا يزال يدَّعي أن لديه الوصفة المُثلى للسباحة! وهذا ممَّا لا حلَّ له في عقولنا نحن المسلمين! فحتى وإن كان الذي يقود رحلة البناء رسولٌ أو نبيٌّ، فإنه سيراعي البيئة والواقع، وهذا ما نستشفُّه من قوله عليه الصلاة والسلام في مسألةٍ بسيطةٍ كمسألة إعادة بناء الكعبة على أسس إبراهيم عليه السلام، فنجده يقول للسيدة عائشة: "لولا حداثةُ عهدِ قومك بالكفر لَنقضتُ الكعبة، ولَجعلتُها على أساس إبراهيم".

إذاً؛ فلدى المجتمعات دائماً ما تفرضه، وإن عدم أخذ التطوُّر الزمني، والبنية الاجتماعية، والإشكاليات الواقعية على محمل الجدِّ، يقود إلى وصفةٍ لا تناسب البنية والتطوُّر والقدرات المعرفية، ولا تُوجِد الاستقرار، ولا تضمن الوجود ولا التنمية..

ولعلَّ التثقيف يكون منظار الناس إلى النور، وأداةً لتجلية الأوضاع الموجودة..

الإدارة



سنبدأ جولةً مع الإدارة والأفكار الإدارية، وإن كتب الإدارة اليوم كثيرةٌ جدًّا، والأناس المشتغلة في الإدارة والتنمية كُثرٌ، ومنهم قاماتٌ كبيرةٌ، والقضايا التي سنذكرها في الفقرات التالية على أهميَّتها، إلا إنها قلَّما تُذكَر، وهي قضايا عمليةٌ ومفيدةٌ بشكلٍ مباشرٍ في السياقات التي نتحدث عنها.

أولاً- جوهر الإدارة

إن فكرة الإدارة الرئيسية "التحكُّم" لدرء الدخول في أنشطةٍ عبثيةٍ، فجُعلت الإدارة لضبط المخرجات، والتوفيق بينها وبين المدخلات، فخضوع المدخلات للعمليات الإدارية سيجعلنا أمام مخرجاتٍ أفضل، وهذه هي آليات عمل المؤسَّسات والحكومات عموماً؛ أنها تأخذ الموارد، وتُدخِلها في عملياتٍ معيَّنةٍ، لتخرج بنتائج تؤثِّر بالبيئة، وكلما كانت الإدارة أفضل، كانت النتائج أفضل.



1. بين روح الإدارة وتنمية المهارات الإدارية:

إن القضية البسيطة والأولية في الإدارة تقودنا إلى مسألةٍ هامَّةٍ جدًّا؛ وهي أن الكلام في الإدارة يمكن أن يتجه إلى اتجاهين رئيسيَّين:

إما أنه يتَّجه لما يسمَّى بـ: المهارات؛ أي: ما يسمَّى بالتنمية البشرية في عمومه: (كيف تنظِّم وقتك؟ وكيف تطوِّر شركتك؟ ..)، أو يتجه إلى المعنى الجوهري للإدارة، وهو الاتجاه الذي لا يُتناول في الغالب ولا ينتظم في عقولنا على الرغم من ضرورة تنظيمه، فإن تنمية المهارات الإدارية من الأمور الهامَّة في الإدارة، ولكن تبيَّن عبر الزمن ومع كثرة الدورات أن، اقتصار الطرح في اتجاهها لا يسدُّ الاحتياج، ولا يجعل الإنسان واعياً بمدى احتياجه من عدمه بالمدخلات الإدارية التي يسمعها، طالما أنه لم يَعِ روح الإدارة وجوهرها.

2. الإدارة:

من أهمِّ القضايا التي نريد أن نتحدث عنها: الفارق بين مصطلح "Management" ومصطلح "Administration" اللّذَين يُعتبرانِ كجناحين للإدارة، وإن كِلا المصطلحين حينما يُستخدم أحدهما بشكلٍ منفردٍ يؤدِّيان إلى المعنى نفسه، ويستخدمان على أنهما أمرٌ واحدٌ، ولكنَّ هناك فارقاً هامَّاً بالنسبة لنا كمهتمِّين بعملية الإدارة.

إذا قلنا: إن الإدارة هي اتخاذ القرارات، فنحن نتحدث هنا عن الجناح الأول من الإدارة، وهو الـ Management، ويكون الجناح الثاني التأكُّد من نفاذ القرارات، وهو الجزء المتعلِّق بما يسمَّى بالـ: Administration.

وإن كثيراً من المؤسَّسات الكبرى في بلادنا، تُتَّخذ فيها القرارات ليلاً نهاراً دون أن تجد لها طريقاً إلى التنفيذ، فأين هذه القرارات؟ ولماذا لم تنفَّذ؟ السبب أن عملية اتخاذ القرار ليست هي العملية الوحيدة.. فالقرار عندما يخرج من قاعة المدراء، يجب أن يُتابَع من عدة نواحٍ: أين سيذهب؟ ومن سيحتفظ به؟ ومن سيقوم بالإجراءات اللَّاحقة له؟ وكيف ستتمُّ متابعته والتوصُّل إلى كونه نُفِّذَ أم لم يُنفَّذ؟ وهل تأخَّر عن وقته؟ وهل يحتاج إلى مزيدٍ من القرارات؟

إذاً؛ فالمشكلة تبدأ من عدم فهم الإدارة بجوهرها الصحيح ابتداءً، فنحن مجتمعاتٌ مكتظَّةٌ بالقرارات التي لا تعبُر نحو التنفيذ، وهي مشكلةٌ كبيرةٌ جدَّاً في الإدارة، وإذا ماحُلَّت، يُحَلُّ معها كثيرٌ من المشكلات الأخرى.



في إحدى المرَّات، عُقِدَ ملتقى في بريطانيا حول فكرة مواجهة العولمة بحضور الدكتور جاسم سلطان..

يقول د. جاسم: أثناء حضوري اللقاء، اكتشفت أن الموضوع ليس له تحديدٌ، ولا يمكن ضبطه، وأكبر من قدرة الناس المجتمعين في التحدُّث عن الموضوع، ناهيكم عن اتخاذ إجراءاتٍ ضده..، في نهاية الاجتماع اتُّخِذَ بضع وثلاثون قراراً لمواجهة العولمة، وتمَّ توزيعها على الموجودين حتى يقوم كل واحدٍ بدوره في مواجهتها. ومرَّت الأيام والسنوات، وقابلت أحد الأفاضل ممَّن كانوا في الاجتماع، فأخبرني أنه خارجٌ من مؤتمرٍ يحمل العنوان ذاته والفكرة ذاتها، فقلت له: أنتم اتخذتم أكثر من ثلاثين قراراً يومها، فماذا حدث لها؟ فأجابني: بأنه لم يُنَفَّذ منها شيءٌ؛ بل أضيف لها بضعٌ وثلاثون قراراً جديداً!

هنا تبرز معضلة القرارات التي ليس لها أرجلٌ، فلدينا في المنطقة العربية تُخمةٌ في اتخاذ القرارات، يقابلها ضعفٌ شديدٌ جدَّاً في كيفية تحويل هذه القرارات إلى الواقع التنفيذي على الرغم من كثرة الحديث في الإدارة في بيئاتنا، فالقرار الذي له إدارة (Administration) لا بدَّ أن يصل إلى مراحل تنفيذه الأخيرة، وإن مَن لا يلِمُّ بهذا الأمر، سيحضر عشرات المؤتمرات وهو يتساءل عن عدم فاعلية هذه المؤتمرات التي تركت كلَّ شيءٍ في مكانه دون أدنى جدوى من حضورها! فتعاد وتتكرر وتعالج المواضيع ذاتها وفق الآليات القديمة ذاتها، وكأن قاصد هذه المؤتمرات يدور في حلقةٍ مفرغةٍ.

فالإدارة ليست مجرَّد اتخاذ قراراتٍ، إنما هي أيضاً تدوين هذه القرارات، وتوزيعها، والتأكُّد مَنِ المسؤول عنها، ومَنِ الذي سيتابعها، وما الإجراءات التي ستترتَّب لإصلاح المسار في حال لم يُنفَّذ القرار، وتوزيع المعلومات بين الأطراف؛ أي: وصول القرارات إلى نتائجها أو إلغائها، فهي دورةٌ كاملةٌ تمرُّ بها العملية الإدارية.. وإذا حُلَّت هذه المشكلة، ستحلُّ معها مشكلاتٌ كثيرةٌ، فعلينا إذا اتخذنا قراراتٍ أن نتأكَّد أن الجهاز الذي يأخذها من قاعة اتخاذ القرار إلى الفاعلية حاضرٌ وفاعلٌ، وإلا سيكون القرار فارغاً من المعنى، مثله مثل بقية القرارات السابقة.

وبصورةٍ أكثر عمقاً.. إن الجناح الثاني للإدارة أو الـ Administration هو عبارةٌ عن فنِّ إيجاد الأجهزة المناسبة التي تتحرَّك عليها القرارات لتأخذ مسارها في الواقع العملي.

وفي المقابل؛ فإن الجناح الآخر للإدارة الـ Management هو عبارةٌ عن عملية اتخاذ القرار المتعلِّقة بعقل متخِذِي القرار، ومدى إدراكهم للموضوع الذي يتحدثون عنه، وخبرتهم به، ووجود الاستشاريِّين الذين يحيطون بهم.. وهذا الجناح أيضاً قد تعترضه مشكلاتٌ؛ فحينما ننظر إلى متخذي القرار في معظم المؤسَّسات الفاشلة، نجد أن خلفيَّاتهم لا تسمح لهم أن يفهموا ما يقوله الخبراء، وفي أحيانٍ كثيرةٍ لا اهتمام لهم أساساً بأن يعرفوا ما الموضوع الذي يدور الحديث حوله، فعملية متخذي القرار في غاية الأهمية، كلما كان القرار هامَّاً، سواء في السياسة، أو الاقتصاد، أو التربية، أو التعليم..، كانت المعرفة أهمَّ؛ فمَن يدخل في حربٍ ولم يحضر في حياته حرباً، فمِن أين له أن يتَّخذ قراراتٍ حكيمةً تنقذ المجتمع والبلاد من الشرور التي تحيط بها.

فالقضية الأولى التي نتحدَّث عنها تدور حول ضرورة كفاءة متخذي القرار، ودقَّة متابعِيهِ في دوائر التنفيذ والتعديل داخل المنظمة، وهذا يحتاج إلى تطوير طريقة التفكير في المنظمة، وينقلنا إلى آليات فحص المنظمة، والتأكُّد من سلامة سيرها.

ثانياً- تقويم المنظَّمات

قد يسأل شخصٌ ما عن تقويم إحدى المؤسَّسات.. أو عن مدى سلامة سيرها من عدمه؛ سواء كانت مؤسَّسةً، أم حزباً، أم حكومةً، أم ..، وفي سبيل ذلك هناك إطارٌ سباعيٌّ يسمُّونه: (7S) يضمُّ سبعة عناصر تبدأ بحرف الـ (S)، يحسن تذكُّرها باستمرارٍ؛ لأنها تنفع عادةً بشكلٍ كبيرٍ في حلِّ تلك المسائل:

1. أهداف المؤسسة "Shared Values":

إن أول قضيةٍ رئيسيةٍ يُنظَر إليها عند تقويم المؤسسة، هي الأهداف التي أُنشِئت من أجلها هذه المؤسسة، فبعض المؤسسات أهدافها ربحيةٌ فقط، وبعض المؤسسات تحمل أهدافاً كبرى وتخدم في أعماقها تطلُّعاتٍ ساميةً.. وكلما كان الهدف الذي أُنشئت من أجله المؤسسة هامَّاً، ويحمل في طيَّاته قيماً كبرى، تفاعل معه العاملون وقُدِّمَت له التضحيات؛ فحينما

نتكلم عن الأهداف الكبرى للأنبياء والمضحِّين عبر التاريخ؛ من إنقاذ الناس وهدايتهم وإنشاء الأوطان.. نجد وراءهم قوافل من الناس التي ضحَّت بالغالي والنفيس لقوة قيمة الهدف الذي حملوه. وهذا ما يجعل القائمين على المؤسسات يضعون الأهداف الكبرى ويزرعونها في أذهان موظَّفيهم، الكبير منهم والصغير.

وأيضاً هناك معضلةٌ أخرى، تكمن في تلاشي أهداف المؤسسة مع الزمن، وصيرورتها إلى الذاكرة الخفية، وتبقى المؤسسة في الواقع تشتغل لتدوير عجلة ما هو قائمٌ فقط؛ فيصبح دور الحزب مثلاً أن يدير نفسه دون الالتفات إلى أهداف التأسيس الرئيسية! وهذا ما يحدث أيضاً في الدول الناشئة، فيُقال: نريد إنشاء دولةٍ وطنيةٍ لأننا أمَّةٌ تستحقُّ الكرامة والحياة، ونحتاج وطناً مستقلَّاً يمكن أن ينافس بقية الأمم.. وبعد فترةٍ تفقد الأمة هذا الحسَّ ويصبح تدوير الكيان والتنافس عليه هو الأساس، وهذا يحدث كثيراً في حياتنا أيضاً كأشخاصٍ، فتكون لدينا حياةٌ ساميةٌ وأهدافٌ ساميةٌ، ومع مرور الزمن نكتفي بإدارة حياتنا فقط، وتختفي الأهداف السامية في طيَّات الزمن!



2. الإستراتيجية "Strategy":

المؤسَّسات عادةً تحتاج إلى إستراتيجيةٍ معيَّنةٍ للوصول إلى أهدافها بالشكل الأفضل، فيسعى المؤسِّسون لاعتماد وسيلةٍ معيَّنةٍ يُعتقد أنها ستوصلهم إلى غايتهم بأقصر الطرق.

وكنا تحدثنا عمَّا يرمز له مصطلح الإستراتيجية؛ من كونه الخطَّةَ التي توضع، أو التموقع الذي يؤخَذ، ونحو ذلك ممَّا يصبُّ في سؤال: "ما الإستراتيجية التي اعتُمِدَت للوصول إلى الغايات والأهداف؟"، أو: "ما الإستراتيجية التي تجعل هذه المؤسسة مميَّزةً عن بقية الشركات الموجودة؟"، فإن الجزء الذي يخصُّ التفوُّق على الآخرين هو ما يتعلَّق بقضية الإستراتيجية. فقد تكون الإستراتيجية تنافسيةً سياسيةً في الأحزاب، وقد تكون حربيةً وعسكريةً في منظَّماتٍ انقلابيةٍ، وقد تكون حكوماتٍ تعتقد أن إستراتيجيَّتَها للتقدُّم تكون بتطبيق نظامٍ اشتراكيٍّ أو ليبراليٍّ، أو بتطبيق نظريةٍ ما لخبيرٍ معيَّنٍ..

في بعض الأحيان قد تكون الإستراتيجية التي أُنشئت من أجلها المنظمة تعدَّاها الزمن، وثبت أنها غير نافعةٍ عمليَّاً على الأرض، ومع ذلك ونظراً لكون الغاية قد فُقدِت، يتمُّ استخدام الإستراتيجية ذاتها على اعتقاد أنها ستنتج إجاباتٍ في المستقبل، وهذه إحدى المشكلات الكبيرة التي تواجه المؤسسات حينما يطول أمدها وتفقد الاتجاه..

3. الهيكل أو البنية "Structure":

عادة تبنى الإستراتيجية على هيكلٍ يحقِّقها؛ فمثلاً: إستراتيجية الجيوش عند الحرب تبنى على شكلٍ هرميٍّ عسكريٍّ، وهو أصلب الأشكال، يسمُّونه: "المنظَّمة الميكانيكية"، أي: نفِّذ ولا تسأل؛ فالمعلومات تكون في أعلى الهرم، أما في أسفله فيتمُّ التنفيذ فقط دون معلوماتٍ، فهذا الشكل يصلح للعسكرية التي لا يصلح فيها أن يسأل الجندي في منتصف الحرب: لماذا عليَّ أن أفعل كذا؟ أما في المنظمة الإبداعية التنافسية التي تقوم على المبدعين، لو وضعت في قالبٍ بيروقراطيٍّ، فلن تنجز في مسيرتها شيئاً، فهذا الشكل الصلب لا يصلح لها؛ لكون أمثال هذه المؤسسات ترقى بأفكار المبدعين فيها. فما يصلح لشيءٍ، قد لا يصلح لشيءٍ آخر، فالسؤال الثالث لتقييم المؤسسة: "هل يتناسب الهيكل الذي وُضع مع الإستراتيجية التي وضعت؟".

4. التوظيف "Staffing":

الهيكل عادةً عبارةٌ عن أشكالٍ وفراغاتٍ وصناديق موضوعةٍ يتمُّ ملء احتياجاتها من خلال التوظيف، فهنا السؤال: "هل تمتلك المنظمة العدد الكافي من الأفراد لإدارة الأهداف التي تشتغل عليها؟ وهل المنظمة اختارت الشخص الأنسب للمكان الأنسب؟"، فقد يترأس المهامَّ صاحب الشهادة الأعلى رغم قلة كفاءته، ويبقى صاحب الكفاءة تحت جناحه كونه يحمل شهادةً أدنى، ونجد في أحيانٍ أخرى شخصاً واحداً تكتظُّ حوله المهمَّات في المؤسسة لقلَّة أعداد الموظفين، فتضيع منه خارطة العمل، ويحدث إرباكٌ في سيره.

5. المهارات "Skills":

لتقويم مدى فاعلية المؤسسة، يُنظر إلى حال الموظفين فيها، فـ"هل الموظفون الذين يشغلون المؤسسة يمتلكون الكفاءات والمهارات التي تسمح لهم بأداء أعمالهم بأفضل دورٍ؟"، فمثلاً: إذا كانت المنظمة تحتاج إلى إبداعٍ، فيا ترى هل الجزء الخاصُّ بما يسمَّى: "Researsh and Developmet"، أي: البحث والتطوير، فيه المهارات اللازمة؟ فإذا خلت هذه الصناديق من أناسٍ يمتلكون المعرفة والمهارات المناسبة، فستكون المؤسسة أشبه بهيكل سليمان بعد موت سليمان؛ فيبدو فيه حياة ولكنه فاقدٌ للحياة.. وهذا شأن كثيرٍ من المؤسسات التي تبدو ضخمةً جدَّاً من الخارج، إنما عند الدخول إلى تفصيلاتها، نجد فراغاً ضخماً من المعرفة والمهارات داخل القطاعات الموجود فيها، فأحياناً تدفع المنظمات والمؤسسات والدول مبالغ طائلةً جدَّاً على أشياء لو ننظر إلى جوهرها لَوجدناه فارغاً!

6. النظم "Systems":

وأيضاً هناك أمرٌ هامٌّ، وهو: "هل المنظمة مبنيةٌ على الأنظمة، أم على الأفراد؟"، فإذا ما تمَّ سحب أحد أفراد المنظمة، فهل تتعطَّل المؤسسة، أم تتابع سيرها بشكلٍ سليمٍ؟ يجب أن يكون في المؤسسات لوائح وقوانين تمنع تضارب الصلاحيات والأعمال، وتسمح لأن يعرف كل شخصٍ ما له وما عليه، وكذلك إجراءات الفصل والتعيين والتعاون بين الأطراف المختلفة، جميعها تخضع لنظمٍ تسمح للمؤسسة بأن تشتغل بشكلٍ مريحٍ، فالكلُّ يعرف حقوقه وواجباته، ويعرف الإجراءات التي يجب عليه أن يتَّبعها والحدود المسموح له أن يتخذ قراراً فيها..

7. شكل القيادة "Stayle":

الأمر الأخير الذي يهمُّنا في موضوع تقويم المنظَّمات، هو: "مدى تناسب القيادة الموجودة مع المؤسسة وأهدافها وغاياتها وطريقة عملها"، فمثلاً: لو افترضنا أن لدينا فيلسوفاً ومنظِّراً كبيراً، ولكنه ليس شخصاً عملياً يستطع أن يسمع المشاكل الإدارية، ثم وضعناه في القيادة، فعندها سيصاب العمل بالشلل، فالمشكلة هنا ليست في ثقافة الشخص؛ بل المشكلة أن ثقافته لا تتناسب مع البيئة والمكان والعمل الذي سيقوم به. وكذلك الأمر لو أن المكان يحتاج إلى قيادةٍ مفكِّرةٍ إستراتيجيةٍ، ووضعنا شخصاً إدارياً مشغولاً بالتفصيلات، فأيضاً لن تعمل المؤسسة ولن تنجح، وكذلك لو كانت المؤسسة تحتاج إلى إبداعٍ، وبنيتها الأساسية بحاجةٍ إلى مطوِّرٍ مبدعٍ، وأتينا بشخصٍ بيروقراطيٍّ لا يهمُّه إلا الهرم الموجود.. فستفقد حينها المؤسسة قدراتها على الفاعلية والنشاط.. وأيضاً لو أخذنا النمط الديمقراطي ووضعناه في الجيش، وكان لكل فردٍ من أفراده خيار رفع القضايا وإجراء النقاشات إزاء الأوامر الصادرة لانهار الجيش.. وكذلك هو الحال لو عيَّنَّا شخصاً من الجيش لإدارة البرلمان الذي يحتاج إلى حواراتٍ وأخذٍ وردٍّ ونقاشاتٍ واعتراضاتٍ، فمن الأكيد أنه سيفشل! فالنمط القيادي مهمٌّ جدَّاً لشكل المؤسسة.. ولذلك في نظريات الإدارة هناك سؤالٌ تقليديٌّ يُطرح عادةً: هل الأفضل الإدارة الديمقراطية في المؤسسة، أم الإدارة الدكتاتورية؟ والسؤال هنا مربكٌ للذهن؛ لأنه من ناحيةٍ أخلاقيةٍ الإنسان يفكِّر بالشكل الديمقراطي، ولكن الشكل الديمقراطي لا يصلح لكل مؤسسةٍ، وأيضاً الشكل الديكتاتوري لا يصلح لكل مؤسسةٍ.. فنشأت نظريةٌ وسيطةٌ تسمَّى: "Best Fit System"، أي: أفضل نظامٍ مناسبٍ للعمل الذي سيقام، أي: هناك درجةٌ من الدكتاتورية، وهناك درجةٌ من الديمقراطية، قد يواءَم بينها لمناسبة هذا العمل، فالذي سيحكم اختيار النمط القيادي هو نوع العمل والمنتج الذي يراد أن يخرج.

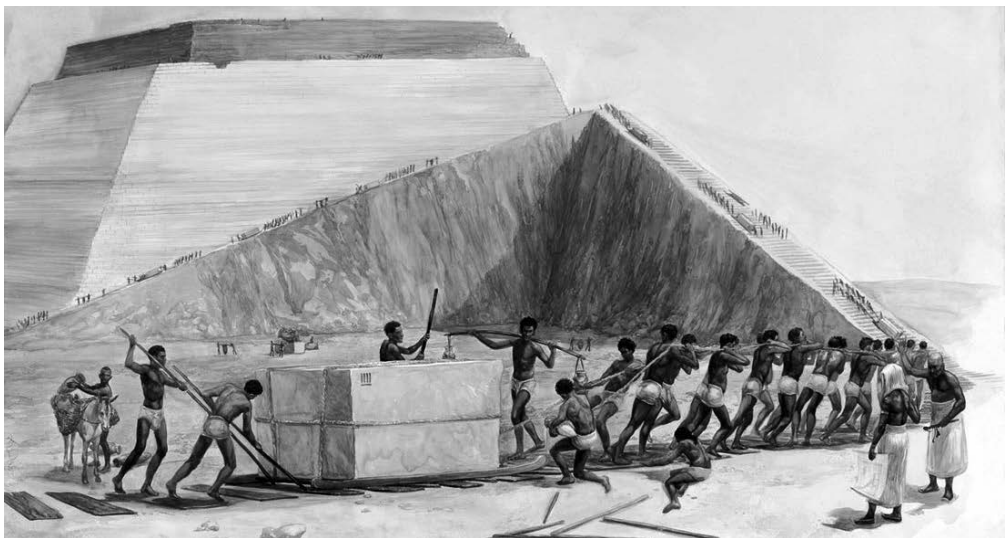
إن التمكُّن من هذه المعايير الأولية السبعة التي تسمَّى: "Seven S"، هو أمرٌ هامٌّ جدَّاً للمشتغل في النهضة أو المهتمِّ بها؛ لكونها بمثابة الأدوات الحقيقية لتقويم منظومات الحياة من زوايا مختلفةٍ.

ثالثاً- تاريخ الإدارة

الإدارة قديمةٌ، وليست حديثةً:

إن الإدارة في حياتنا ليست بالعمليات الحديثة، فالمشاريع التاريخية العملاقة؛ كبناء سور الصين العظيم، والأهرامات، وسدِّ ذي القرنين، وغيرها من المشاريع، جميعها كانت تحتاج إلى إدارةٍ معقَّدةٍ ومركَّبةٍ..

ففي مثال الأهرامات: من المحال أن ترتفع الحجارة إلى السماء بهذه الأشكال العملاقة دون نظامٍ إداريٍّ عملاقٍ.. فالمشتغلون في هكذا مشروعٍ هم آلافٌ مؤلَّفةٌ، وتغذية هؤلاء الناس العاملين، وعلاجهم، وبناء مساكن لهم، وإدارتهم لسنوات العمل الطويلة، ليس بالأمر اليسير، كما أن طبيعة العمل هي طبيعةٌ شاقَّةٌ؛ بدءاً من تقطيع الحجارة وتوضيبها بأحجامٍ مختلفةٍ، مروراً بنقلها من مكان التحجير إلى مكان صفِّ الحجارة، وصولاً إلى بناء الأهرامات، وما سبق هذه المراحل من هندسةٍ وقياسٍ للأهرامات.. فهذا كله عملٌ معقَّدٌ وكبيرٌ.. وتنظيمه يحتاج إلى عقولٍ إداريةٍ جبَّارةٍ، فالمشاريع العملاقة التاريخية كان وراءها إدارةٌ عظيمةٌ، إنما لم تترك لنا آثاراً مكتوبةً عن طرق الإدارة وكيفيتها.. فالإدارة ليست أمراً حادثاً، إنما الكتابة فيها هو الأمر الحادث.



رابعاً- الوظائف الإدارية

سنتحدث في الفقرات القادمة عن الوظائف الخمس الإدارية، وعن وظائف أخرى هامَّةٍ للمدير استُنبِطَت من الواقع العملي له، لنصل من هذا كله إلى معنى الفاعلية والكفاءة في الإدارة، ونتعرف على المستويات الدنيا للإنتاج.

1. أساسات الإدارة (الوظائف الخمس الإدارية):

بالتأمُّلات الأولى للإدارة، نجد فيها خمس وظائف رئيسيةٍ، فالإدارة من ناحيةٍ أساسيةٍ هي عمليات (التخطيط، والتنظيم، والتوجيه، والتنسيق، والرقابة)، وهناك كتيبٌ قديمٌ اسمه: "Management"، يحوي سلسلةً باقيةً في الأسواق إلى يومنا، وعلى الرغم من أنها قد تقادمت وخرجت سلاسل أخرى فيها صور ورسوم توضيحية، إلا أن أسلوب العرض في تلك السلسلة قائمٌ على اختصار الموضوع في صفحاتٍ قليلةٍ، كما اعتمدت أسلوب القصة لإيصال الفكرة، لذا سأسوق منها شيئاً لتوضيح بعض الأفكار الآتية..

1. التخطيط:

يُضرَب لتلك السلسلة مثالٌ لشخصٍ دُعي إلى إنشاء منتجعٍ سياحيٍّ كبيرٍ، في أرضٍ طينيةٍ سبخةٍ، فيها مستنقع مياهٍ، وداخله تماسيح ضخمةٌ.. وإن أول مسألةٍ ستخطر في ذهن الرجل هي الخطة التي ستضمن له القدرة على إقامة البناء وتجاوز الإشكاليات الموجودة على الأرض، فالمياه تحتاج إلى أن تُستنزف، والحيوانات تحتاج إلى اصطيادٍ، ومن ثم سيحتاج المكان إلى عمليات ردمٍ كبرى، وهذا يتطلب كمياتٍ هائلةً من الصخور والطين.. فإن العملية التي سنقوم بها حينما يُعرض علينا مشروعٌ ما؛ أولاً علينا التخطيط للصورة النهائية لذلك المشروع بعد أن يُنجَز، وثانياً التخطيط للمراحل والخطوات التي سيمرُّ بها هذا المشروع.

2. التنظيم:

عند عودة الرجل إلى منزله، أمسك ورقةً ووضع جدولاً لتنظيم هذه المشاريع بحسب خبرته، ثم بدأ في التفريغ على الورق تفصيلاً لأجزاء المخطَّط الكلي، وبدأ يظهر تنظيمٌ معيَّنٌ لمن سيقوم بمراحل هذا التخطيط، وكيف ستنتظم الهياكل الموجودة..، وبدأت عملية

استقطاب الشخصيات المناسبة للتنفيذ، وبذلك انتقل المشروع من مَوْضِع التخطيط إلى مَوْضِع التنظيم، فالعملية الثانية تنظيم المشروع في شكل أجزاءٍ صغيرةٍ؛ بحيث يقوم كلٌّ بمهامه. المقصود بالموضِع المكان، كأن حال الكلمة السابق كان أفضل.

3. التوجيه:

بعد أن تمَّ وضع التنظيم الكبير، واختيار طاقم العمل، وانطلاق المشروع، ستبرز بعض المشكلات، وسيحتاج العاملون إلى جهاتٍ يعودون إليها كمستفسرين، وتعود هي عليهم بالمتابعة والتوجيه، فالمشاريع تحتاج إلى ضبط بوصلتها دائماً، ولا يمكن أن تُترك فقط للتخطيط والتنظيم.

4. التنسيق:

داخل العمل الكبير كثيراً ما تتداخل الأعمال وتحتاج إلى الترتيب والتنسيق فيما بينها، وإلا يكون حالها كحال الشوارع في بعض البلدان؛ فكثيراً ما نمرُّ في إحدى الشوارع فنجد الحفريات وأعمال الصيانة الكهربائية قائمةً، وبعد تسوية الشارع بفترةٍ قصيرةٍ نجده محفوراً من جديدٍ! وحينما نسأل عن سبب حفره مرَّةً أخرى، يُقال: لوضع أنابيب المجاري! وهنا السؤال: لماذا لم يتمَّ وضعها حينما كانت حفريات الكهرباء قائمةً من قبل؟ السبب ببساطةٍ عدم وجود تنسيقٍ بين الأطراف، فكلٌّ يجتهد في وقته ويقوم بالعمل بمعزلٍ عن الطرف الآخر، وهذا ما يزيد العمل كلفةً وجهداً ووقتاً.. فيجب التنسيق بين الأطراف والمراحل؛ بحيث تصبُّ كل مرحلةٍ في المرحلة التي تليها، فهذا أيضاً من مهامِّ الإدارة.

5. الرقابة:

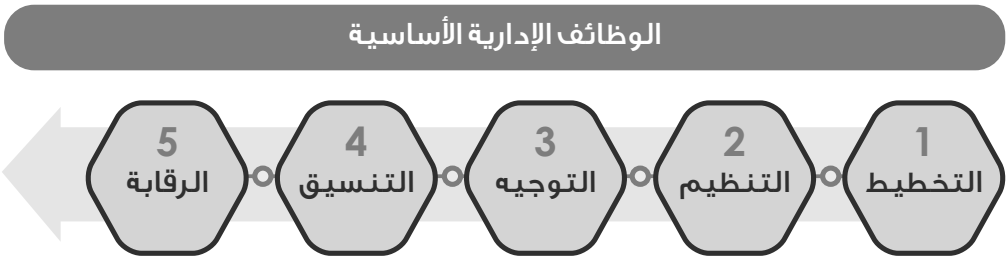
إن التوجيه يحتاج إلى عملية رقابةٍ ومعايير؛ أي: ما الذي تمَّ؟ ومتى؟ وبأيِّ جودةٍ؟ وما التكلفة؟ ومتى سينتهي؟ وما درجة الانحراف عن المواعيد المقرَّرة في الجدول؟ فعملية الرقابة هي عمليةٌ أساسيةٌ لضمان سير الأمور بالكفاءة المطلوبة، وفي الوقت المحدَّد بحسب الجداول الموجودة والموازنات، فقد نجد في بعض المؤسَّسات العمل الذي خُطِّط له أن يُنجَز في سنةٍ يتطلَّب عدة سنواتٍ، وذلك لغياب الرقابة المطلوبة.

إننا كثيراً ما نسمع عن الصَرْعات الإدارية التي تظهر وتختفي وتُدفَع من أجلها الملايين، مثل ظهور صرعة الإدارة بالأهداف؛ حيث صرفنا كمؤسَّساتٍ مبالغ مهولةً عليها باعتبارها

الفكرة المنقذة، وكذلك هو الحال بالنسبة لغيرها من الصَرْعات الأخرى..

والحال أن الأساسات في الإدارة تبقى أساسات، وأننا نحتاج إلى أن نمسكها بشكلٍ جيدٍ، ونعرفها في أبسط أشكالها؛ لأنها تعطينا إطاراً واضحاً لفهم الأمور الإدارية..

وإنه مهما خرجت أفكارٌ وصَرعاتٌ جديدةٌ يبقى مآل الإدارة بشكلٍ أساسيٍّ إلى هذه القضايا الخمس البسيطة التي لا تزال تشكِّل المرتكزات الرئيسية للفكر الإداري، ولا يوجد كتابٌ في الإدارة إلا ويبدأ بها ويتكلم عنها.



2. وظائف إدارية أخرى ومهارات يجدر توافرها:

هنالك مَن ناقش الإدارة بشكلٍ أكثر عمليةً، وقرَّر أن يعايش المدراء خلال يومهم ويقف على مهمَّاتهم الحقيقية التي يُستنزف بها وقتهم بعيداً عن الجانب النظري، فتمَّ الوقوف على أمرٍ هامٍّ جدًّا، وهو أن معظم المدراء في يومنا أصبحوا يأتون إلى شركاتٍ ناضجةٍ، فيها أجهزةٌ تغطِّي عمليات التخطيط والتنظيم والتوجيه والتنسيق والرقابة، فلا ينشغلون بهذه القضايا الخمس..

فعلى الرغم من أن عدم معرفة المدير بتلك الأساسات هو من سوء حظِّ المؤسَّسات، إلا أن وضع الشركات التي تخدِّم تلك العمليات من خلال أجهزةٍ منفصلةٍ عن الإدارة، يوجِّهنا لتركيز النظر على شخص المدير، وإلى الأدوار التي تستنزف جُلَّ وقته، والتي من المفترض أن يتمكَّن منها ويمتلك مهاراتها..

حينما تمَّت دراسة الوظائف التي يقوم بها المدير في يومنا، تمَّ الوصول إلى أنه يقضي معظم وقته في مهمَّاتٍ يحتاج من أجل تأديتها إلى عدة مهاراتٍ، تتمثَّل بالتالي:



● **وجاهة تمثيلية للمؤسسة:**

المدير غالباً ما يمثِّل المؤسسة في الاجتماعات الرسمية واللِّقاءات.. ويمضي جزءاً كبيراً من وقته يقابل شخصياتٍ ومؤسساتٍ، فيشرح لهم، ويناقش معهم القضايا المتعلقة بمؤسسته، ولذلك يجدر أن يكون قادراً على التعريف بها وبالذي تفعله بأفضل صورةٍ، وعلى طرح أفكارٍ قويةٍ تدلُّ على نضج المؤسسة، وهذا الدور وإن كان غير موجودٍ في الكتب الإدارية، إلا أنه يستنفذ وقتاً جيداً من عمل المدراء.

● **القدرة على حلِّ المشكلات:**

الأمر الثاني الذي تمَّت ملاحظته في هذه الدراسة العملية، هي أن المدير يقضي وقتاً كبيراً في حلِّ المشاكل الخارجية مع الزبائن، أو الداخلية بين الموظفين، وهذا يأخذ وقتاً أكبر بكثيرٍ من عمليات التخطيط للمؤسسة.. وبالتالي فإن القدرة على حلِّ المشكلات من المهارات الأساسية التي يجب أن تكون لدى المدير، فالمدير الجيد هو مستمعٌ جيدٌ، صاحب وعيٍ عالٍ، منظَّمٌ في عقله، ويستطيع أن يربط الأشياء بعضها ببعضٍ، ليجد حلولاً آمنةً تسمح

للمنظمة بالاستمرار، موظِّفاً الحزمَ واللينَ والتشجيع في أمكنتهم الصحيحة؛ بحيث يكون جزءاً من الحلِّ، لا جزءاً من المشكلة.

● التنسيق:

يشتغل المدراء أيضاً في قضية التنسيق بين جوانب المؤسسة، فكثيراً ما تنشأ فجواتٌ أو خلافاتٌ بين الدوائر المتنوعة في المؤسسة الواحدة، وذلك يحدث لأسبابٍ متعددةٍ؛ مثل أن تسوِّر الدوائر حدودها وتحتفظ بخطتها لذاتها، أو تختلف وجهات النظر بين الدوائر.. وغيرها من الأسباب التي من شأنها أن تخلق فجواتٍ وتولِّد نزاعاتٍ وتحدث خللاً في نتاج المؤسسة؛ فمثلاً لو كانت إدارة التسويق التي تدرس احتياجات الجمهور في إحدى المؤسسات غير مرتبطةٍ بإدارة الإنتاج، وذلك كما حدث مع أشهر الشركات الأمريكية في تصنيع السيارات (فورد) التي كان يقودها "هنري فورد"، وكان رجلاً مسنَّاً ويعتقد أنه سيفرض على السوق ما عليه أن يختاره، فاختار أن يبني أساطيل من السيارات السوداء الطويلة، في حين كان لدى اليابانيِّين قراءةٌ جيدةٌ للواقع، فلاحظوا نشوء الطبقة الوسطى التي لا تريد سياراتٍ كبيرةً، وكثرة النساء الذاهبات إلى العمل، وميلهنَّ إلى الألوان المتنوعة، فاحتلَّت اليابان السوق بسياراتها، في حين خسرت شركة (فورد) خسائر هائلةً.

فالإدارة في جزءٍ كبيرٍ منها هي إدارة التنسيق، وعندما لا تكون الإدارة قادرةً على التنسيق والقيام بالحوار الداخلي وحسم الصراع على أساسه، فحينها تخسر المنظَّمات..

● القدرة على استطلاع البيئة:

إن المنظَّمات لا يمكن أن تعمل بمعزلٍ عن التحوُّلات المحيطة، ووظيفة المدراء مراقبة البيئة الخارجية والبيئة الداخلية، والاستعداد للمستقبل، وبالتالي من الضروري أن يكون لدى المدير ثقافةٌ عامَّةٌ في الحياة، وقدرةٌ على الإلمام بالتحوُّلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تحيط بالمؤسسة، وتغيُّرات الاتجاهات الذوقية في المجتمع، والتغيُّرات المتعلقة بقضية الدول التي يتمُّ استيراد الموارد منها، وعمل البنوك.. فـ"هنري فورد" في المثال السابق لم يستطع أن ينظر إلى صوت الجمهور وصوت الناس، وأصوات التحوُّلات الأخرى من حوله.. ولم يلحظ دور العمالة الجديدة من النساء وأثرها في سوق المشتريات.. وهذه من أهمِّ الأساسيات في عمل

المدير. وإن تحقُّق هذا القدر من المعرفة التأسيسية ضروريٌّ جدًّاً لاستطلاع البيئة الخارجية ومراقبتها بالشكل الصحيح، وبالتالي فإن تدريب المدراء ومتَّخِذِي القرار على مراقبة البيئة الخارجية، وفهم كيف تُدرَس مؤشراتها، هي قضيةٌ في غاية الأهمية في عصر المتغيِّرات الذي نعيشه، مثلما حدث مع مرض كورونا؛ حيث انشلَّت معه الحياة الاقتصادية، وانهارت مشاريع وأحلامٌ كبرى..

● القدرة على قراءة المعلومات وتحليلها بدقَّةٍ:

ممَّا يحتاجه المدير في منصبه القدرة على فهم المعلومات التي تصل إليه من أطراف الإدارة، فقد نصادف مديراً في منظمةٍ تخوض صراعاً سياسيًّاً ضخماً، لا يعرف عملية اتخاذ القرار السياسي ومراكز اتخاذه، وأهمية التفاعل السياسي الدولي والمحلي مع القرار، وقد نصادف مديراً في مؤسسةٍ ماليةٍ يعجز عن أن يقرأ وثيقة التوازن المالي أو يحلِّلها، أو يعرف التدفُّقات النقدية الموجودة، ومن الطرائف أنه ليس من ضمن ما نعلِّمه في المدارس قراءة الإحصائيات والأرقام وتحليلها! وإذا ما أُعطيت، فيعطى منها هامشٌ صغيرٌ، في حين أن من يعمل في الإدارة، سيجد نفسه أمام سيلٍ من المعلومات والأرقام والإحصائيات والرسومات المعنيَّة في هذا الجانب، فإذا لم يكن يحسن قراءة هذه الأشياء قراءةً علميةً موضوعيةً، سيجد نفسه خارج الخارطة، ومضطرًّاً للاعتماد على الآخرين ليتخذوا عنه القرار، فالقدرة على استيعاب المعلومات الموجودة في الخارج أصبح ضرورةً بالنسبة للقيادات في هذا العصر أكثر من أيِّ عصرٍ آخر.

● الطبيعة الإبداعية والانفتاح على التصوُّرات الجديدة:

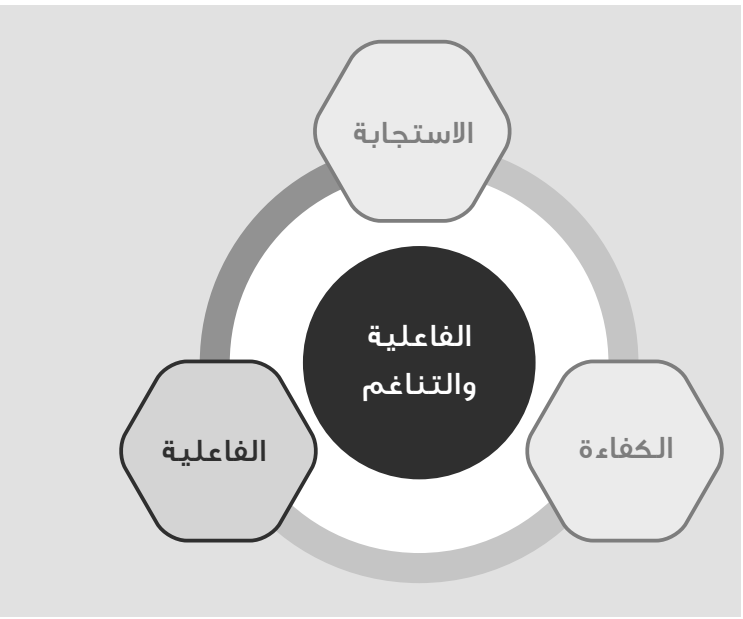
من الأمور الهامَّة التي لوحظت، أن المدراء يختلفون في أمور الإبداع والانفتاح، فـ"هنري فورد" كان في لحظةٍ تاريخيةٍ من أكبر مؤسِّسي الشركات في الولايات المتحدة الأمريكية، لكنه كبر في السنِّ وفقد عملية الإبداع، ولم يكن منفتحاً على التحوُّلات الحاصلة في المجتمعات ليسابِقَها، فمن المهمِّ أن يكون لدى المدراء القدرة على سماع المقترحات الجديدة وإحداث التغيير في الوقت المناسب، فلم يعد بالإمكان السير على قالبٍ ثابتٍ دون الاستماع لصوت العصر وللتحوُّلات الحادثه فيه.

● **مهارة التفاوض:**

أخيراً؛ إن من أهمِّ الأمور لدى المدراء القدرة على التفاوض، فالمدراء عبارةٌ عن جهازٍ تفاوضيٍّ مستمرٍّ مع الموظفين، ومع الزبائن الخارجيِّين، ومع البيئة السياسية، ومع المجتمع العالمي في سبيل مصلحة المؤسسة بما يوفِّر لها أفضل المكاسب ويقلِّل خسائرها باستمرارٍ، فالقدرة على التفاوض واحدةٌ من أهمِّ القضايا التي يجب أن يُعَدَّ لها المدراء في هذا العصر. وهو أيضاً ممَّا لا يدرَّس كثيراً.

إننا بإلمامنا لهذه الجزئية التي تحدثنا عنها، سنتمكَّن من التخطيط لأشكال المدراء الذين نحتاجهم، وإعداد القيادات القادمة لشيءٍ مختلفٍ عن الأشياء التقليدية التي كانوا يتلقَّونها في السابق فيما يسمَّى بـ: الإدارة..

3. الإدارة رحلة بحثٍ عن الفاعلية والتناغم:



إن كل ما تحدثنا عنه سابقاً يصبُّ في هذا المكان، فهناك مثلَّثٌ في غاية الأهمية في رحلة الإدارة، من المهمِّ أن ندرك أساساته جيِّداً لنحدِّد ما إن كانت المؤسسة تحذو حذو الإنتاج السليم، أم أن إنتاجها عبثيٌّ؛ تنتج لمجرَّد الإنتاج، فعملها يكون بمثابة تدويرٍ للموارد فقط؛ لكونه يعاني من: خلل الاستجابة للبيئة، أو ضعف الكفاءة، أو قلَّة الفاعلية، أو يعاني منها جميعها؛ فسواء نشأت المؤسسة من أجل الربح، أو لإيجاد الاستقرار السياسي، أو لإحداث التنمية في المجتمع، أو للفوز في صراعاتٍ عسكريةٍ.. يبقى السؤال باستمرارٍ عن مدى

درجة فاعليَّتها وكفاءتها في تحقيق ما أُنشئت من أجله، ولذلك سنقف مع توضيحٍ بسيطٍ لتلك القضايا:

1. الاستجابة للبيئة:

إن فشل المؤسسة بالاستجابة للبيئة يُخرجها من السوق، مثلما حدث مع شركة نوكيا؛ حيث فشلت في قراءة السوق، فكانت استجابتهم لتغيُّرات السوق ضعيفةً، فأدَّى ذلك إلى خروجها منه بعد أن كانت قد احتلَّت سلَّم الريادة بهواتفها النقَّالة.

2. الكفاءة:

وهي النظر إلى عمل المؤسسة من ناحية جودة المخرج، والميزانية التي صُرِفَت عليه، والزمن الذي استغرقه في الإنجاز، فالكفاءة هي أن ننتج ما نعرفه على وجهٍ حسنٍ؛ فمن الممكن أن يأتي مقاولٌ ويبني منزلاً جيِّداً، ويأتي مقاولٌ آخر ويبنيه بمواصفاتٍ أجود وبزمنٍ أقلَّ، وبأنسب من تكلفة المقاول السابق، فنقول: إن المقاول الثاني أكفأ في أداء عمله من المقاول الأول.

3. الفاعلية:

وتعني أن تنجح المؤسسة بتوفير النتيجة المرجوَّة؛ بحيث تغدو منتجاتها ذات فاعليةٍ حقيقيةٍ في البيئات التي تُطرَح فيها، وكثيراً ما نجد أن بعض المؤسسات في حصيلتها النهائية لا تنتج ما تَعِدُ به، وهذا وجدناه بكثرةٍ في العمل الإسلامي، فهناك جهدٌ كبيرٌ يبذل، ولكن حينما ننظر إلى الحصائد الأساسية، نجدها متدنِّيةً أو شكليةً فقط دون أدنى فاعليةٍ حقيقيةٍ، فمثلاً في المخرجات التربوية؛ على نحو التعامل مع المراهق، أو تنمية مهارات الطفل وغيرها.. نجد فراغاتٍ ضخمةً، ومخرجاتٍ لا تقدِّم حلولاً فعَّالةً. وأيضاً نجد برامج في البيئات الثقافية عفا عليها الزمن، وأصبحت غير صالحةٍ للعصر الموجود، وتُجرى عليها تحسيناتٌ طفيفةٌ من ناحية إدخال العلوم الإدارية، أو العمل على إخراجها بأشكالٍ جديدةٍ، ولكنها من ناحيةٍ علميةٍ لا تنتج شيئاً فعَّالاً، فالناتج الذي يحصل عليه الإنسان في مقابل الساعات التي يقضيها في "التمدرس" ضئيلٌ جدَّاً.

إذاً؛ فالتقصير في قضيَّتَي الفاعلية والكفاءة يمكن أن ينحدر بالمؤسسات إلى مستوى التدوير فقط؛ حيث يشتغل الموظفون ويظنُّون أنهم يفعلون شيئاً، ولكن نتاجهم يأتي دون فاعليةٍ أو كفاءةٍ، فتُصرَف الجهود والأموال والأوقات والطاقات على تدوير الطاحونة وليس على إنتاج الطحين!

خامساً- رحلة الإدارة عبر الأزمان

هناك جوانب في الإدارة كثيراً ما تغيب عن الأذهان، ولا يتمُّ تناولها ولا التطرُّق إليها، ومن هذه الجوانب: مراحل الإدارة والسياقات التي وُلدت فيها الأفكار الإدارية، وإنه من دون معرفة مراحل السياقات الإدارية لا يمكن أن ينشأ عقلٌ إداريٌّ سويٌّ قادرٌ على فهم الظاهرة الإدارية بشكلٍ صحيح. ولَربما استحضر البعض أفكاراً عفا عليها الدهر، وتعاقبت عليها التحديثات، ولم تعد تصلح لزماننا الحاضر.

فمعرفة السياقات الكبرى التي نشأت فيها الأفكار مهمَّةٌ لمن يعمل في الإدارة حتى يكون على بيِّنةٍ من أن هذه الأفكار لم تولَد في فراغاتٍ، وأن نعرف حدود هذه الأفكار، ومدى فائدتها.

1. معالجة موضوع الإدارة عربيّاً:

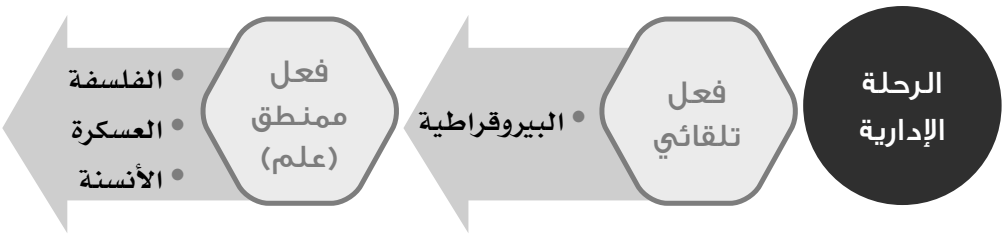
كثيراً ما يتمُّ التعامل مع الإدارة في سياقٍ قديمٍ مرَّ عليه الكثير من التحديثات. ونذكر هنا قصةً حدثت مع الدكتور جاسم سلطان؛ حيث يروي أنه كان في إحدى الدول العربية من أجل حضور مؤتمرٍ إسلاميٍّ عن الإدارة في الإسلام، وكان هناك عددٌ كبيرٌ من المحاضرين سيتناولون مواضيع متنوعةً، وبحسب العنوان كان من المفترض أن يقدِّم المؤتمر بحوثاً ميدانيةً عن الإدارة، وبالتالي فإن المتوقَّع أن يكون هناك كلامٌ إداريٌّ عن الإدارة في البلاد العربية، والأنماط السلوكية الشائعة، والعقبات في البيئات الموجودين فيها ميدانيّاً عبر طرح بعض العيِّنات، ثم نحصد النتائج التي سنصل إليها، وربَّما قمنا بمقارنتها مع مجتمعاتٍ أخرى لديها سلوكيَّاتٌ أكثر تطوُّراً في العمل الإداري..

ولكن ما حدث فعلاً أن المحاضرات كان منها ما يحاول أن يُلبِس ما أنتجه الآخرون عمامةً أو عباءةً؛ بحيث يصبح إسلاميّاً، ومنها ما تحدث عن حال المسلم في الإدارة؛ من كونه صادقاً

وأميناً ويؤدِّي دوره.. ونحو ذلك من القضايا.. فلم ينتبه أصحاب المؤتمر أن هذا هو النمط السائد ما قبل العصور الحديثة، فهم هنا يتكلَّمون عن نمطٍ من الإدارة المتخيَّلة التي ركَّبها الفيلسوف في ذهنه بشكلٍ معيَّنٍ ويعتقد أنها ستشتغل ميكانيكيًّاً بطريقةٍ معيَّنةٍ. وبالتالي كانت الدراسات المقدَّمة لا تزيد ولا تنقص عن كونها مواعظَ، واستحضاراً لمراحل إداريةٍ عفا عليها الدهر!

حينما تشاهد شخصاً يحلِّق بك **فيما لا ينبغي**، فهو يعيش فيما قبل العصور الحديثة؛ لأن ميزة العصور الحديثة الأساسية أنها انتقلت وارتقت إلى مسارٍ تبحث فيه **كيفية تحقُّق أقرب مسافةٍ ممَّا ينبغي أن يكون** من خلال دراسة الواقع والخروج بحلولٍ عمليةٍ منه

2. الرحلة الإدارية:



كنا قد تحدثنا عن أن الإدارة قديمةٌ عبر العصور، وهي لم تنشأ ابتداءً نتيجة العلوم والتطوُّرات الحديثة، فلا يكاد يوجد مجتمعٌ إلا وكانت فيه إدارةٌ ما تضبط اتجاهاته الكلية، فالمجتمعات فيها بيروقراطيةٌ تضبط إدارة الدولة، والشركات والمؤسَّسات كذلك، فلا يوجد فراغاتٌ إداريةٌ في العالم، أما التنظير الفعَّال للعملية الإدارية ومحاولة تطويرها بطريقةٍ واعيةٍ، فهذا جهدٌ معاصرٌ وحديثٌ.

وحينما نتحدث عن رحلة الإدارة العلمية، نجدها قد تطوَّرت في ثلاث مراحل واضحةٍ؛ مرحلة الفلسفة، ثم مرحلة العسكرة، وصولاً إلى مرحلة الأنسنة.

● مرحلة الفلسفة:

بدأ الكلام عن الإدارة في الفكر القديم في إطار فلسفتها فقط، فهناك كتبٌ فلسفيةٌ تناولت الإدارة، ككتاب "الجمهورية" لأفلاطون، وكتاب "المدينة الفاضلة" للفارابي، ولكن هؤلاء تكلَّموا في جانبٍ فلسفيٍّ نظريٍّ تخيُّلِيٍّ.. يتخيَّل فيها الفيلسوف الصورة الأمثل لما يجب أن تكون عليه الإدارة والإنسان النموذجي في البيئة النموذجية.

وبعد هذه المرحلة برزت فكرة الأجرأة والحسابات والدقَّة في العمل الإداري كما في مرحلتَي العسكرة والأنسنة.

● مرحلة العسكرة:

كانت الفكرة المهيمنة في كتابات هذه المرحلة هي الفكرة العسكرية؛ أي: أن شخصاً ما يسيطر ويرتِّب الأمور بطريقةٍ هرميةٍ من الأعلى إلى الأسفل، ويتحكَّم بالمشهد بالطريقة الميكانيكية التي تدار بها الجيوش، وهذه الفكرة ظلَّت مسيطرةً إلى العصور الحديثة تقريباً.

- من أقدم الكتابات المتاحة في هذه المرحلة كتاب "فن الحرب"، ويقال: إن من وضعه هو "سون تزو Sun Tzu" في القرن السادس قبل الميلاد، وهو قائدٌ عسكريٌّ عاش في فترة تفكُّك الدولة الصينية، وكان منظِّراً لعلم الإستراتيجية العسكرية؛ أي: كيف تدار الجيوش وكيف تنتصر؟ وقد اختاره الإمبراطور في زمانه ليكون قائداً للقوات المسلحة، وكان على الإمبراطور من أجل ضمان النجاح فقط تحديد الهدف الذي ستتمُّ محاربته، ثم يترك التفاصيل الأخرى لـ"Sun Tzu" الذي لم يخسر أيَّ معركةٍ من المعارك، وقد أصبح كتابه أيقونةً في العصور الحديثة، ويقال: إن الأمريكان حينما غزَوا العراق، كانوا يوزِّعون كتاب "فن الحرب" على الجنود والعساكر والضبَّاط، فـ"سون تزو" حوَّل الأفكار الإدارية العسكرية إلى أفكارٍ إجرائيةٍ يمكن إجراء حساباتٍ حولها.

- ساد بعد ذلك فراغٌ ضخمٌ إلى أن ظهر كتاب "ميكافيلي" (الأمير) في القرن الخامس عشر تقريباً، كتب فيه عن كيفية تصرُّف الأمير عمليَّاً ليحافظ على الحكم في دولةٍ ما.. وبغضِّ النظر عمَّا كُتِب فيه، فإنه قد أخذ مساحةً جيدةً، وتمَّ تداوله بشكلٍ كبيرٍ؛ لكونه قد تحدَّث عمَّا يجب أن تفعله السلطة إجرائيَّاً لإدارة الدولة، وتسيير أمورها..

فكِلا الكتابين عبارةٌ عن محاولاتٍ إداريةٍ وضعت قواعد عمليةً للحياة التي نتحرك فيها يوميًّا، فـ"سون تزو" وضع قواعد يتَّبعها قائد الجيش ليصل من خلالها إلى النتائج التي يريدها، و"ميكافيلي" في كتابه "الأمير" أيضاً وضع قواعد لتَحكُّم الأمير في إدارة إمارته؛ أي: كيف يدير الصراعات الموجودة فيها، وما الذي يستطيع فعله حتى يضبط الإيقاع داخلها.

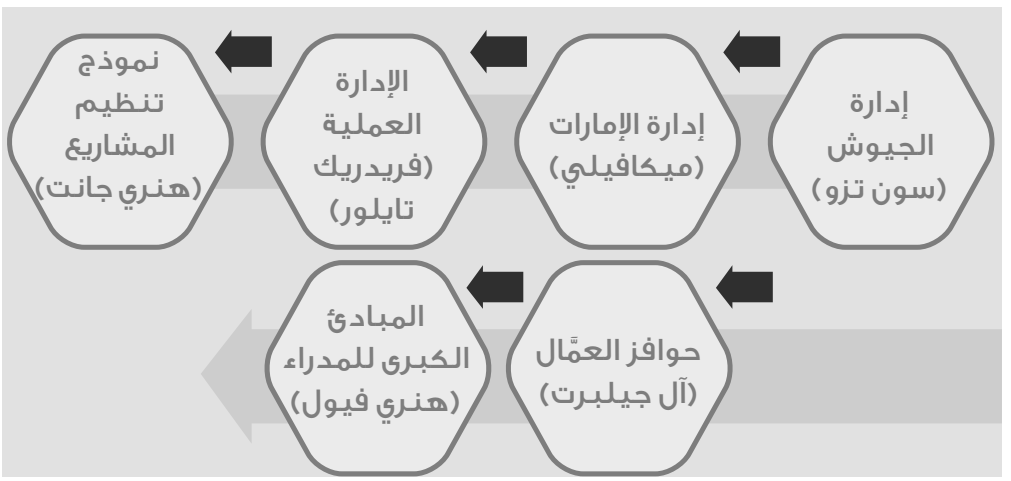
- عَقَبَ كتابَ "ميكافيلي" فجوةٌ امتدَّت من سنة 1531 إلى حوالي سنة 1910، ليُصْدِرَ حينها "فريدريك تايلور Frederick Taylor" كتاباً أسماه: "الإدارة العلمية"، وصاحب هذا الكتاب مهندسٌ كان يشرف على ورشة عملٍ ويطلُّ عليها من غرفته في الأعلى، فأخذ ورقةً وقلماً، وأخذ يراقب العمَّال أثناء عملهم.. فلاحظ كم يضيِّع العامل من وقته وهو يبحث عن الأدوات التي سيعمل بها، وكم يمضي في الكلام مع أصحابه أثناء العمل، فوجد أن وقتاً كبيراً يضيع في العلاقات الاجتماعية التي لا تجدي في العمل شيئاً، فأصدر كتابه وأنشأ فيه نظاماً يقوم على مبدأ الإنسان الميكانيكي؛ بحيث إن الموظف لا يقوم إلا بعملٍ واحدٍ في مكانٍ واحدٍ، وكل عاملٍ عدَّته موجودةٌ عنده، والأشياء تتحرَّك إليه، ويقوم بعمله دون أن يبحث عن العدة، ودون أن يتكلم مع أحدٍ، فحينما نرى السيارات تأتي لعاملٍ ما ليركِّب العَجَلات عليها، فهذا من بقايا أفكار "تايلور"، فالنظرية العلمية تعني ضبط الحركة الميكانيكية في المصانع، وضبط العمَّال والعمل الذي يقومون به، وتوفير الزمن والتكلفة لترتفع العوائد في الشركات. ومن هنا بدأنا نصل إلى مرحلة الإدارة للإنسان الذي تمَّ تحويله إلى جزءٍ من آلةٍ ميكانيكيةٍ.

- تبع "تايلور" في عام 1919 "هنري جانت Henry Gantt"، ونجد أن معظم الناس الذين يشتغلون في المشاريع، عندهم ما يسمَّى: "Gantt Chart"؛ وهو نموذجٌ تنظيميٌّ هامٌّ للمشروع، يتمُّ تطبيقه على ورقةٍ كبيرةٍ تُظهِر تفاصيل العمل في المشاريع؛ متى تبدأ، ومتى تنتهي، والعلاقة الموجودة بين هذه المشاريع في بداياتها ونهاياتها.. بحيث نتمكَّن من إحكام كافَّة هذه الخيوط والتحكُّم بها. ولا يزال "Gantt Chart" مستَخدَماً بشكلٍ كثيفٍ جدًّا في الإدارة، ولا يخلو متعلِّمٌ للإدارة إلا ويعرف هذا النموذج الذي تعود بداياته لأكثر من 100 عام.. فأحدث "جانت" قفزةً كبيرةً في متابعة المشاريع.

- بدأ تغيُّرٌ طفيفٌ في أساس التفكير الإداري في العام 1920 مع الزوجين "آل جيلبرت".. فكَّر هذان الزوجان بآلياتٍ تزيد الأرباح، وبحثَا عن الأسباب التي يمكن لها أن تُخفِّضَها، ووجدَا أن هناك علاقةً بين الزمن وبين الحوافز، أي: أن العامل إذا اشتغل لفتراتٍ طويلةٍ جدًّا ومن دون حوافز سيصاب بالإجهاد، وستقلُّ إنتاجيته في العمل، وبالتالي ستقلُّ أرباح المصانع والمؤسسات.. فهنا دخلنا في عصرٍ جديدٍ أصبح فيه الإنسان عنصراً أساسيًّاً داخل العملية، وأصبح هناك التفاتٌ نحو الإنسان العامل، وليس فقط للربحية..

- تطوَّر الأمر شيئاً فشيئاً إلى مساحاتٍ أكبر من ذلك، ففي سنة 1925 ألَّفَ الفرنسي "هنري فيول Henri Fayol" كتاباً في الإدارة، وكان يعمل مديراً في منطقةٍ للتعدين، ويمثِّل النموذج المثالي للإدارة الناجحة في عمله، وضمَّن كتابه الواجبات الكبرى للمدير، فوضع 14 مبدأً أساسيًّاً، ولا تزال مبادؤه إلى اليوم معتمدةً في العمليات الإدارية، ويُرجَع إليها كمفاهيم كبرى، ومنها:

- تقسيم العمَّال إلى فرقٍ.
- تخصص كل فريقٍ بعملٍ واحدٍ.
- عدم تلقِّي العمَّال الأوامر إلا من جهةٍ واحدةٍ، حتى لا تتضارب مع بعضها.
- تحقُّق العدالة في الشركة؛ بحيث لا يشعر الموظف أن هناك موازناتٍ غير عادلةٍ فتقلَّ كفاءته.



- تحقُّق الاستقرار الوظيفي، فلا يتغيَّر الموظفون كلَّ مدَّةٍ، فيتأثر الأداء الوظيفي في المؤسسة.
- سيادة المصلحة العامَّة، فلو أن شخصاً ما اشتغل لمصلحته الخاصة، فذلك من شأنه أن يحدِث خللاً في المؤسسة.
- التركيز على روح الفريق.. وغيرها من الأمور التي تطوَّر بها علم الإدارة بشكلٍ كبيرٍ..

- وصلنا إلى العام 1935 تقريباً، وفيه دخلنا في مرحلة أنسنة الإدارة؛ وتعني: العناية بالإنسان داخل العملية الإدارية.

وممَّا سبق نودُّ التأكيد على أهمية أن يدرك الإنسان الفارق بين الفلسفة العامَّة في الإدارة (ما ينبغي أن يكون)، وبين ما انتقلت إليه العصور الحديثة (دراسة ما هو كائنٌ، ومحاولة أجرأته وتحويله إلى ما ينبغي أن يكون)، وملاحظة النتائج.

● مرحلة الأنسنة:

بعد أن كانت النظرة إلى الإنسان العامل في المرحلة الثانية من مفهوم الإدارة قائمةً على أنه كالآلة، ويتمُّ البحث عن السبل التي يمكن من خلالها زيادة الربح على حساب إنسانيَّته.. بدأت النظرة تتغيَّر باتجاه ما يحقِّق إنسانيَّته التي بتحقيقها يتحقَّق النجاح الحقيقي للمؤسسات.. فستأخذ رحلة الإدارة طريقاً آخر، وستقفز قفزةً جديدةً على صعيد الاهتمام بالإنسان.

في سنة 1970 قدَّم "أبراهام ماسلو Abraham Maslow" رؤيةً غير علميةٍ؛ أي: غير مدعومةٍ بإثباتاتٍ، تمثَّلت بتقييم الحاجات الإنسانية من خلال هرمٍ مشهورٍ شغل العالم به، يقول فيه: إن الإنسان لديه مجموعة حاجاتٍ مرتَّبةٍ ترتيباً هرميَّاً، وكان هرم "ماسلو" من أنجح النماذج في إيصال المعلومات.

يرى "ماسلو" في هرمه أن أول حاجاتٍ يسعى الإنسان لتأمينها هي الحاجات الفيزيولوجية؛ كالطعام والشراب والتكاثر.. وإذا حقَّق هذه المهمَّة، يأتي إلى الحاجة الثانية، وهي حاجته إلى الأمان؛ فيبحث عن بيتٍ يسكنه، وعن وظيفةٍ مستقرَّةٍ، ويحاول أن يوجد شروط الأمان التي تجعله آمناً من الحاضر والمستقبل وتغيُّراته، فإذا وصل إلى هذه القضية، فهو يبحث عن وسطٍ اجتماعيٍّ، فالإنسان كائنٌ اجتماعيٌّ في طبعه يريد علاقاتٍ إنسانيةً، ويريد أناساً يتعاطفون

معه عندما يمرض، وحينما يتعب أو تحدث له ضائقةٌ، وإذا حقَّق هذا الأمر، فالإنسان لا يتوق فقط لأوساطٍ اجتماعيةٍ، إنما يحب أن يُنظر إليه أيضاً بتقديرٍ واحترامٍ ضمن هذه الأوساط، وأخيراً الإنسان يبحث لنفسه عن إنجازٍ ما في اتجاهٍ معيَّنٍ لينجزه في حياته وينسبه إليه، أي: إنه في قمَّة الهرم يريد أن يُعرَف بكونه أنجز شيئاً في حياته، وتحقَّقت ذاتيَّته الداخلية، وشعر بأنه قدَّم شيئاً مهمَّاً في هذه الحياة. فيري "ماسلو" أنه كلما تحقَّقت الحاجات الجسدية للإنسان، وشعر بالأمان، ولُبِّيَت حاجاته الاجتماعية مع التقدير بشكلٍ سليمٍ، واستطاع تحقيق ذاته.. كان الإنسان أكثر إشباعاً لذاته وإحساساً بالاستقرار والراحة، وبالتالي كان أكثر إنتاجاً، وبالتالي على المؤسسات أن تراعي هذه الاحتياجات لدى الأفراد العاملين فيها.



اعتُمِدَ هرم "ماسلو" بقوةٍ إلى يومنا هذا، واستُخدِم في تقويم الحاجات، وقامت عليه دراساتٌ كثيرةٌ في علم النفس، على الرغم من أنه لم يقم على دراساتٍ نظريةٍ وتجارب عمليةٍ تقول بصحته، فالهرم فيه إشكالياتٌ، أهمُّها: أن ثقافة الناس تختلف من مجتمعٍ إلى مجتمعٍ آخر، والأولويات تختلف، فبيئة القرية تختلف عن بيئة المدينة، والبيئة الغنية تختلف عن البيئة الفقيرة، كما أن الانتقال من مستوىً إلى آخر ليس تلقائيًّاً، فبعض الناس منذ بداية حياته يتأثر بمحيطه الذي يختلف من مجتمعٍ لآخر، فالبعض لديهم استشعارٌ لمستوىً في الهرم أكثر من مستوىً آخر، ومستعدٌّ لأن يضحِّي بمستوىً لصالح مستوىً.. إلا أن "ماسلو" ظلَّ علامةً فارقةً في مدرسة العلاقات الإنسانية..

وها نحن وصلنا إلى منطقةٍ في غاية الأهمية وفي غاية الطرافة، وهي: كيف انتقلنا إلى الخطوة الثانية من الإدارة في العصور الحديثة، أي: كيف انتقلنا إلى الكلام الذي يدور بيننا عن الإدارة في يومنا الحالي، وهذا ما أحدثته الثورات الإدارية بنقلةٍ كبرى في علم الإدارة..

3. الثورات الإدارية الكبرى:

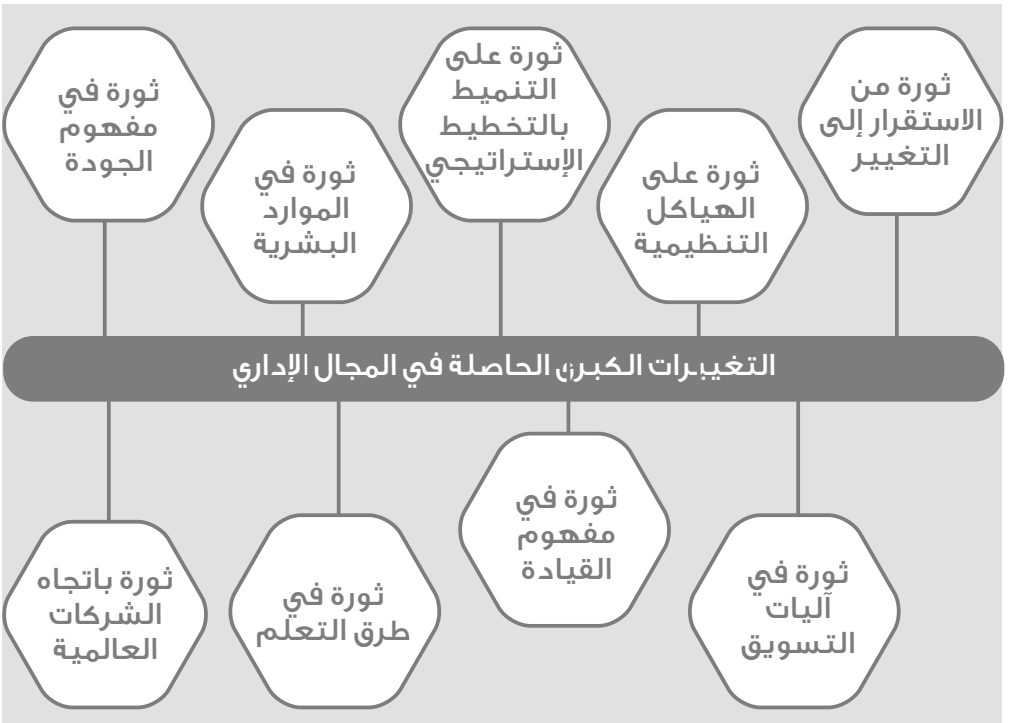
يلخِّص كتاب "Key management Ideas" أهمَّ الأفكار الكبرى التي طُرِحت في الإدارة، والشخصيات التي طرحتها، وسياقها التاريخي الذي وُلدت فيه.. وهو كتابٌ مهمٌّ جدًّاً لدارس الإدارة ليطَّلع على السياقات التي وُلدت فيها الأفكار؛ بحيث لا يظلُّ أسير فكرةٍ واحدةٍ، فيرى كيف تطوَّرت الأفكار ولا زالت تتطوَّر على مدى الزمن طالما أن هناك علماء وباحثين ومنُظِّرين.. وسنسوق في الفقرات القادمة بعضاً من الأمور التي تضمَّنها الكتاب والتي تخدم السياق العامَّ الذي نتحدث عنه.

من أفكار الكتاب أن هناك تغييراتٍ كبرى حدثت في الفكر الإداري في تسع مساحاتٍ أساسيةٍ سنتناولها بإيجازٍ..

أولاً- ثورة من الاستقرار إلى التغيُّر:

إن أول قضيةٍ رئيسيةٍ شكَّلت تحوُّلاً هامًّاً في علم الإدارة التغيُّرات الحياتية؛ حيث إن الشركات سابقاً كانت تبني أفكارها على أن التغيُّرات تحدث ببطءٍ شديدٍ. ويتمُّ التخطيط لها كالتخطيط للجيوش دون الاعتقاد أن هناك تغييراتٍ سريعةً يمكن أن تحدث في الحياة..

ومع دخول التسعينيات بدأت التغيُّرات تصبح ضخمةً وسريعةً؛ خاصَّةً بعد الحرب العالمية الثانية، إلا أن حجم الشعور بالأزمة لم يكن كبيراً، وبدأ يكبر شيئاً فشيئاً مع تغيُّر التكنولوجيا المتطوِّرة، فبدأت ترِدُ فكرة أن الاستقرار الذي كان موجوداً من قبل هو استقرارٌ وهميٌّ، وأن الأصل في العالم هو التغيُّر وليس الاستقرار، فلم تعد تستطيع المؤسسات والشركات أن ترى المشهد لأبعد من سنةٍ أو سنتين؛ لكونه لا يلبث أن يخرج منتجٌ جديدٌ فيغيِّر السوق بالكامل ويقلبه رأساً على عقب! فأصبح الإنسان الذي يشتغل في مجال "البزنس - الأعمال" دائم التوقُّع للمفاجآت التي لا تحدث فقط بفعل التكنولوجيا، فهناك مفاجآتٌ من نوعٍ آخر، مثل الأوبئة ككورونا.. ونظراً إلى كمية الانشغال الكبير في علم التغيُّر، ظهر علمٌ كاملٌ اسمه: "Change Management"، أي: إدارة التغيير، ويحكم هذا العلم مساراتٍ كبرى؛ فقد يطال التغيير الهياكل، أو نوعية العمل، وقد يكون تغيير البزنس وإلغاؤه بالكامل، وتسريح أناسٍ من أعمالهم.. فعمليات التغيير قد تحمل معها آلاماً كبيرةً، ولكن إذا ما عجزت الشركات عن القيام بعمليات التغيير الضرورية، فإن مصيرها الخسارة، وذلك كما حدث مع كثيرٍ من الشركات التي كنَّا قد أسلفنا ذكرها (فورد، نوكيا..).



ثانياً- ثورة على الهياكل التنظيمية الهرمية "Matrix Organization":

إن التغيُّر أصبح حاكماً في العالم، والقادرون على مواكبته بشكلٍ سريعٍ يحقِّقون تقدُّماً كبيراً على الآخرين الذين ما زالوا عالقين في فكرة الهرم التحكُّمي التاريخي الذي كان سائداً

تَبِعَ الثورةَ الكبرى الناتجة عن التغيُّرات الحاصلة في العالم ثورةٌ ثانيةٌ متعلِّقة بالهياكل التنظيمية؛ أي: بأشكال التنظيم، فتاريخيَّاً كان الشكل الهرمي هو سيد الموقف، كمثال الجيوش التي يعلو الهرمَ فيها قائدٌ عسكريٌّ وتحته قادةٌ أصغر منه، وهؤلاء بدورهم تحتهم قادةٌ أصغر إلى أن نصل إلى الجنود الذين ليس لهم حيلةٌ في المشروع، فدائماً كانت هناك فكرة الهرم، ومع تعقُّد الحياة الاقتصادية، وحدوث الثورة الصناعية، بدأ العمل ينقسم، ويزداد بانقسامه الهرم ابتعاداً عن القاع، فبات من يتخذ القرار بعيداً جدَّاً عمَّا ينفِّذه وعمَّا يجري لدى الموظفين والعمَّال.. ومع تغيُّرات العصر، بدأت فكرة الزمن تلعب دوراً كبيراً أيضاً؛ حيث إن القرار إذا لم يُتَّخذ في وقته الصحيح، واستغرق وصوله إلى الإدارة العليا ونزوله إلى أسفل الهرم وقتاً طويلاً، فقد تكون الفرصة التجارية قد ضاعت، ولن تكون له حينها أيُّ قيمةٍ، فبدأت فكرة ضغط العمل؛ من خلال شلِّ الإدارات الوسيطة، ومحاولة تقريب القمة من القاعدة، فأوجدوا التنظيم المسطح (Flat organization)، ثم أوجدوا فكرة تجميع فريق عملٍ واحدٍ في مكانٍ واحدٍ، من تخصُّصاتٍ مختلفةٍ، لإدارة مشروعٍ محدَّدٍ في المؤسسة؛ كأن يحضر محاسبٌ من قسم المحاسبة، ومهندسٌ من قسم الهندسة، وإداريٌّ من الإدارة، وشخصٌ فنيٌّ من جهةٍ فنيةٍ، ومسوِّقٌ من قسم التسويق، ومن ثم يُكوَّن منهم فريقٌ لإدارة المشروع في زمنٍ محدَّدٍ، فبدأ يظهر شكلٌ ثانٍ من أشكال الإدارة، وهي الإدارة التي يكون أفرادها ليسوا من داخلها، إنما مستعارون من أجزاءٍ أخرى من المنظمة ولديهم عقلان؛ عقل الجزء الأساسي الذي جاؤوا منه، والعقل الجديد الذي سيشتغلون به في إدارة المشروع. والتطوُّر لم يتوقَّف عند ذلك، فمع تطوُّر العصر وظهور الاتصالات وتواجد أشخاصٍ ذوي خبراتٍ في مناطق مختلفةٍ، ظهرت فكرة الأشخاص الذين يعملون من مكانهم "Freelancers" لحسابهم الخاصِّ، وبدأت تتكوَّن منظَّماتٌ ظرفيةٌ؛ كأن يوجد صاحب العمل شركته في أيِّ مكانٍ بالعالم ويستقطب الفنيِّين المتخصِّصين من

شتَّى أنحاء العالم، فتوضع خطة المشروع، وإدارة المشروع، والأرباح المتوقَّعة، ويقدَّم المشروع باسم الشركة، وبعد أن يتمَّ تنفيذه في الواقع، تنفضُّ الشراكة، ويتمُّ البحث عن مشروعٍ آخر.. إذاً؛ أصبحت الشركات القائمة تستطيع أن تشتغل "Freelancers" في إدارة الفريق، فظهرت منظَّمةٌ هلاميةٌ تعتمد على الذكاء المعرفي وتكوين مجموعات عملٍ سريعةٍ لالتقاط الفرصة.. فحتى شكل المنظمة الهرمي بدأ ينهار لصالح التشكيلات الأخرى بفعل التقنية وتسارع التغيُّرات في العالم، فقد نجد مدير شركةٍ في يومنا الحالي يشتغل من مطبخ بيته، ومكتبه هو حاسوبه النقَّال، وتتمُّ جميع العلاقات من خلاله..

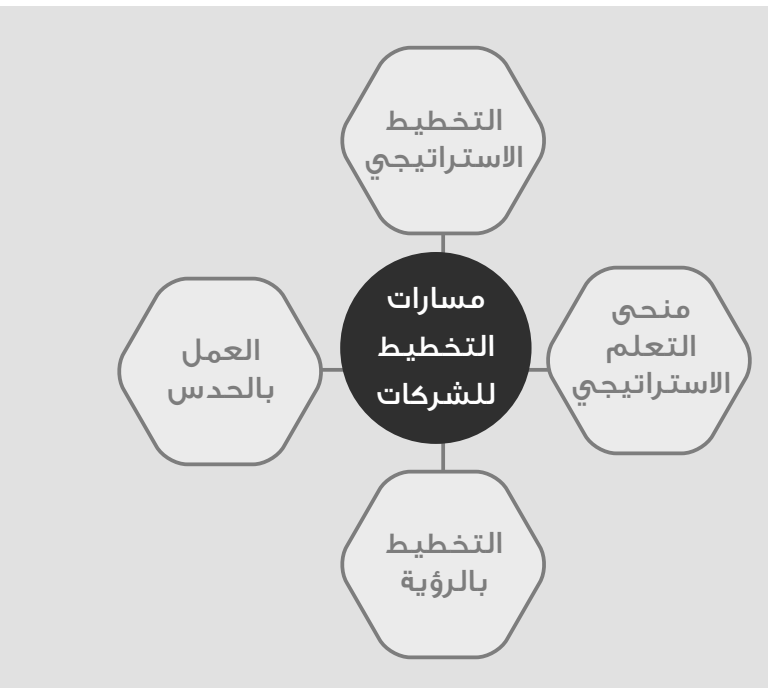
ثالثاً- ثورة على فكرة التنميط بالتخطيط الإستراتيجي:

أما القضية الثالثة التي حدثت فيها ثورةٌ كبرى، فهي فكرة الإستراتيجية، والإستراتيجية فكرةٌ لطيفةٌ مبنيَّةٌ على التحكُّم في المسار المستقبلي لمدىً زمنيٍّ طويلٍ من خلال التخطيط، أي: أننا نخطِّط من الآن لعشر سنواتٍ قادمةٍ، ونحدِّد نوع المشاريع وكيف ستتحرَّك.. إلا أنه داخل هذه الفكرة هناك فرضيَّتان أساسيَّتان كبيرتان غير مضمونتَي الحضور:

- **الفرضية الأولى:** هي استمرارية استقرار الظروف في البيئة التي نخطِّط فيها؛ بحيث تبقى ظروف اليوم هي ذاتها بعد عشر سنواتٍ.
- **الفرضية الثانية:** معرفة تفاصيل "البزنس" الذي سنشتغل فيه بشكلٍ دقيقٍ..

وهاتان الفرضيَّتان سمحتَا بظهور ما يسمَّى: التخطيط الإستراتيجي، الذي ظهر في المؤسسات بعد سنة 1945 تقريباً، حينما تمَّ تسريح عددٍ كبيرٍ من الجنرالات الذين كانوا في الجيوش الأمريكية والبريطانية والفرنسية، وبعد تسريحهم تمَّ توظيفهم كمدراء للشركات باعتبار أن أفضل المدراء هم الذين يمتلكون عقليةً عسكريةً؛ وذلك لأن العقلية آنذاك كانت تعتبر الشركات أشبه بجيوشٍ صغيرةٍ تحتاج إلى انضباطٍ، وهؤلاء الجنرالات قد نقلوا معهم آلية التخطيط الإستراتيجي المعتمدة في الجيش، فالجيوش تحارب قوىً معروفةً، وحدوداً محدَّدةً، ولا يوجد تغيُّراتٌ في العالم إلا في حال حدوث تغيُّرٍ في التسلُّح، وهذا عادةً لا يحدث بشكلٍ سريعٍ.. إلا أن وضع الخطط الإستراتيجية في الشركات تختلف عن تلك التي في الجيوش؛ حيث لا يوجد استقرارٌ، ولا تعرض لنا عوائق السوق كما تعرض في الجيوش.

في سنة 1965 وُلِدَ أول كتابٍ في التخطيط الإستراتيجي على يد عالمٍ كبيرٍ في مجال الإدارة اسمه: "إيجر أنسوف Igor Ansoff"، وسرعان ما أبهر كتابه الشركات والمؤسسات؛ لأنه قام بوضع نظامٍ يوضِّح كيف يمكن للشركات أن تفكِّر بنمط تخطيطٍ إستراتيجيٍّ، فوضع لها خطوةً تعرف بها واقعها؛ من عناصر الضعف والقوة، والفرص والمخاطر الموجودة، ودراسة البيئة والإشكاليات، وتحديد مكان الشركة المستقبلي، وكيف تعبُر مؤسسةٌ ما من وضعها الحالي إلى الوضع المستقبلي.. طارت الشركات فرحاً بأطروحات "أنسوف"؛ لكونها أصبحت تستطيع أن تضمن مستقبلها عبر التخطيط الدقيق الذي ضمَّنه في كتابه، وصرفت مئات الملايين في هذا الموضوع، إلا أنه وبعد مرور بضع سنواتٍ تبيَّن أن 96% من الشركات التي صرفت أموالها على التخطيط الإستراتيجي لم تنجح، و4% من الشركات فقط استفادت، وهي نسبةٌ عاديةٌ قد تحدث في جميع الأحوال! فطرح "أنسوف" من جديدٍ كتاباً أسماه: "الإدارة الإستراتيجية"، واعتبر أن الإدارة الإستراتيجية هي التفعيل الخاصُّ بالوصفة الأولى، ولكن الشركات وبعد عدة سنواتٍ من جمع كلا الوصفتين وتطبيقهما معاً لم تجد أيضاً النتائج المرضيَّة، فطرح "أنسوف" فكرته عن البرمجة الإستراتيجية، وقامت الشركات بتطبيقها، فلم يكن أثر تطبيقها على الشركات بأفضل من السابق! فعندها قرَّر "أنسوف" التفكير والبحث مليًّاً.. وبعد عشر سنواتٍ من العمل مع فريقٍ كبيرٍ مكوَّنٍ من أكبر الجامعات العالمية، خرجوا بفكرة أن المشكلة الرئيسية تكمن في الجاهزية الإستراتيجية، وأن المطلوب هو إجراء فحصٍ للشركات الموجودة ليتضح مدى جاهزيَّتها وصلاحيتها



لتحمل إستراتيجيةً معيَّنةً، فليست جميع الشركات تحتاج إلى التخطيط الإستراتيجي؛ لكون التغيُّر هو طابع العصر، والتخطيط الإستراتيجي مبنيٌّ على الاستقرار الطويل الأمد، وهذا يقودنا إلى قضيةٍ مهمَّةٍ وهي أن التخطيط للشركات عبارةٌ عن أداةٍ من أربع أدواتٍ كبرى في العمل الإستراتيجي، والإنسان يحتاج إلى أن يعرف أيَّ نوعٍ أو أيَّ وصفةٍ من الوصفات تنطبق على مؤسسته ليتمكَّن من اختيار نمط التخطيط المناسب لها.. فهناك عدة حالاتٍ يجب اعتبارها لإنزال الوصفة المناسبة عليها:

1. الحالة الأولى: التخطيط الإستراتيجي

يمكن أن يطبّق التخطيط الاستراتيجي حينما تتواجد الفرضيتان اللتان تحدثنا عنهما؛ المعرفة في العمل والاستقرار في البيئة، فيصلح معها التخطيط الاستراتيجي.. وهذه الحالة نجدها غالبة في الجيوش، فالجيوش كما أسلفنا تعتمد على التنظيم الميكانيكي الذي لا يناقش، والتغييرات التي تحدث فيها طفيفة وليست بنيوية، أي أن التخطيط الاستراتيجي يحتملها بهامش التغييرات الصغير لديه..

2. الحالة الثانية: منحنى التعلُّم الإستراتيجي:

وهي الحالة التي يعمل فيها المستثمر في سوقٍ مستقرَّةٍ، ويسمح بالتخطيط طويل الأمد، إلا أن معرفته بالبزنس تكون قليلةً، فحينما يدخل ذاك المستثمر سوق العقار على سبيل المثال، سيجده مستقرًّا بدرجةٍ كبيرةٍ؛ حيث إن الناس تفضِّل استثمار أموالها فيه لأجل ذلك، وسيجد أمامه خياراتٍ متعدِّدةً؛ فإما أن يأخذ مساحاتٍ كبيرةً ويقوم بإعمارها ثم بيعها، وإما أن يبني عماراتٍ وشققاً ويقوم بتأجيرها، وإما أن يعتمد على عمليات الإقراض.. وبما أنه لا يعرف السوق العقاريَّ، فسيمرُّ بنوعٍ من التخطيط يسمُّونه: "منحنى التعلُّم الإستراتيجي"؛ أي: أنه يدخل في مجالٍ يعرف أنه سيتعلَّم فيه بمساحةٍ معيَّنةٍ، وإن لم تنجح معه خلال فترة ستة أشهرٍ أو سنةٍ، فسينتقل إلى محاولاتٍ أخرى.. ومن خلال تجربته لمسارٍ أو مسارين أو ثلاثةٍ، سيكتشف أيَّ مسارٍ أكثر ربحيةً ليضع قدميه عنده.

إذاً؛ فليس كل شيءٍ ينفع في التخطيط الإستراتيجي، فأحياناً نضطرُّ إلى أن ندخل بما يسمَّى: "التخطيط في منحنى التعلُّم".

3. الحالة الثالثة: التخطيط بالرؤية

في الحالة الثالثة تكون السوق غير مستقرَّةٍ، إلا أن الخائض فيها لديه معرفةٌ عاليةٌ بالمجال.. فلنفترض على سبيل المثال أن هناك تقنيًّاً مهتمًّاً فيما يخصُّ الهواتف، وعارفاً جيِّداً في السوق، إلا أن طبيعة سوق الهواتف متغيِّرةٌ جدًّاً، وكل ستة أشهرٍ يظهر تحديثٌ جديدٌ.. وبالتالي لو خُزِّنت الهواتف بكمياتٍ كبيرةٍ لمدة عشر سنواتٍ، ستذهب المخزونات كلها هدراً، فبأمثال تلك الحال، يطبَّق "التخطيط بالرؤية"، أي: تكون الرؤية بعيدة المدى، ولكنَّ التخطيط يكون قصير المدى، فالتخطيط طويل المدى يكون لنموِّ الشركة وتطويرها، والتخطيط قصير المدى يكون لِما سيُشتَرى ويُباع في السوق.

4. الحالة الرابعة: العمل بالحدس

أحياناً تكون المعادلة أن العمل يبدأ من منطقة تجارةٍ غير معروفةٍ، وفي سوقٍ غير مستقرٍّ، فيسير على الحدس.. وهذا حال معظم "البزنس" التاريخي عند الناس؛ حيث إنهم يشتغلون بما يسمَّى بـ: "نظرية الحدس"، فغالباً عندما تسأل أحد التجَّار عن كيفية البدء بتجارته، سيتحدث عن رأس مالٍ استثمره في مكانٍ ما فربح، ثم اتجه إلى استثماراتٍ أخرى نجح الكثير منها بشكلٍ حدسيٍّ إلى أن كوَّن ثروته.

إذاً؛ فلدينا أربعة مساراتٍ كبرى للتخطيط تعتمد على مدى استقرار السوق، وعلى المعرفة بالعمل، ولا تعتمد على مجالٍ واحدٍ كما يتمُّ الحديث عنه عادةً ضمن نطاق التخطيط الإستراتيجي.. فلو سمعنا شخصاً يتحدث عن خطةٍ إستراتيجيةٍ على أساسٍ تطوُّريٍّ لمدة ثلاثين عاماً، فهذا جيِّدٌ كتدريبٍ عقليٍّ، ولكن في الواقع العملي هذا أشبه بالاستحالة؛ لأنه مبنيٌّ على افتراض بأن العناصر لن تتغيَّر، وهو افتراضٌ باطلٌ، فالتخطيط الإستراتيجي له عناصر معيَّنةٌ تقود إليه، وبالتالي نحتاج أن نميِّز جيِّداً بين هذه المساحات.

لم يعد التخطيط الإستراتيجي الحلَّ الدائم للشركات والمؤسسات، فاختيار التخطيط المناسب يعتمد على نوعية العمل إن كان يحتاج إلى تخطيطٍ إستراتيجيٍّ، أو إلى تخطيطٍ بمنحنى التعلُّم، أو التخطيط بالرؤية، أو بالحدس

رابعاً- ثورة في الموارد البشرية:

من الأشياء التي تغيَّرت بشكلٍ جوهريٍّ في الإدارة التعامل مع الموارد البشرية، فحينما ظهرت فكرة الموارد البشرية، بدأت كفكرةٍ بسيطةٍ جدًّاً، فكان العامل قديماً يُعتبَر أرخص شيءٍ داخل المصانع والشركات؛ لكون الأيدي العاملة كثيرةً، فكلما احتاج صاحب المصنع إلى أيدٍ عاملةٍ، كان يعلن فيأتي الناس أفواجاً فيسترخصهم، وبالتالي كان العامل يُعطَى ألفاظاً وأسماء لا تليق بمكانته كإنسانٍ وكشريكٍ في إنتاج الثروة.. تغيَّرت لغة الكلام عن العامل، وبدأت تظهر فكرة تعليم الموظفين وتطويرهم والعناية بهم، وطريقة إدارتهم أيضاً، فتولَّدت فكرة الموارد البشرية "Human Resources"، وفكرة الأصول العقلية "Intellectual Assent" التي توجد داخل المنظمة، فأصبحت المؤسسات تعتمد اعتماداً كليًّاً على كفاءة وقدرة وتفاعل الموظفين الموجودين فيها، وأصبحت فكرة "Headhunting"، أي: البحث عن الكفاءات، ورصد العناصر المميَّزة في العالم، كما أن المحافظة على العمَّال والحرص على عدم انتقالهم إلى مؤسَّساتٍ جديدةٍ أصبحت عمليةً مهمَّةً، فتغيَّر أساس النظرة إليهم من كونهم عمالةً رخيصةً يؤتى بها اليوم وتُغيَّر غداً؛ كونهم ثروة المؤسسة الأساسية التي يراد الحفاظ عليها.

خامساً- ثورة في مفهوم الجودة:

وأيضاً حدثت ثورةٌ في التعامل مع الجودة.. فبعد أن كانت النظرة الفاحصة لجودة المنتج قاصرةً على الشكل الأخير؛ بحيث إنه يأتي مشرف الجودة لفحص المنتج في مرحلته الأخيرة، أصبح هناك حالةٌ تنافسيةٌ كبيرةٌ على قضية الجودة والإشادة بالجودة، إلى أن وصلنا إلى فكرة "Total Quality Managment"، أي: أن الجودة تبدأ من أول عمليةٍ من عمليات الإنتاج لترتبط بكامل السلسلة من بداية الإنتاج إلى نهايته (الإدارة الشاملة للجودة).. وهذه الأفكار التي برزت في قضية الجودة ستؤثِّر في فضاء الإدارة بشكلٍ قويٍّ، فمنها برزت أفكارٌ كبيرةٌ كالآيزو (ISO) وشهادات التميُّز في الجودة.. وأيضاً لم تعد الجودة مرتبطةً بتوقُّعات المصنِّع، إنما أصبحت مرتبطةً بشكلٍ أساسيٍّ بتوقُّعات الزبون ومدى رضاه عنها، وهذا كله نشأ عنه "بزنس" مهمٌّ وأصبح له عالمه الكبير..

سادساً- ثورة في آليات التسويق:

من أكبر الثورات التي حدثت في الإدارة ثورة التسويق.. وكانت فكرة التسويق الرئيسية سابقاً هي أن تنتج الشركات والمعامل الأشياء التي يحتاجها الناس، فإذا التقطت الجهات التجارية حاجات الناس بشكلٍ جيِّدٍ، فسيقصدها الناس للشراء.. أما في الوقت الحالي أصبح العصر يقول لك: إنه بالإمكان بيع أيِّ شيءٍ في السوق بأعلى سعرٍ إذا استطعنا تسويقه بطريقةٍ جيدةٍ؛ أي: أننا يمكن أن نخلق الحاجة عند الجمهور، ثم ننتج ما يناسبها؛ بحيث نبحث في الأعماق الدفينة لنفسية الجمهور، ونكتشف الطرق التي نحتاجها لبيع المنتجات! وهي فكرةٌ نحتاج الوقوف عندها؛ لكونها فكرةً أساسيةً في العصر الرأسمالي، وهي فكرة (خلق الاحتياجات)، أو البحث عن الاحتياجات الدفينة الغائرة في نفس الإنسان الداخلية.. فمن كان يصدِّق أن البنطال الممزَّق القديم سيصبح أغلى سعراً من البنطال النظيف المرتَّب! كيف استطاعوا عبر التسويق أن يقنعوا الشابَّ والفتاة أن يلبسوا بنطالاً ممزَّق الركبتين والأفخاذ، وشكله قديمٌ وكأنما سيارة قد داست عليه عشرات المرَّات!؟ وكيف خلقت الصورة النفسية التي تجعل الإنسان يتجه من باب المحلِّ مباشرةً إلى تموضع البناطيل الممزَّقة؟ في تلك المسألة يلعب علم النفس دوراً هامَّاً جدَّاً في عمليات الربط غير المنظور، والبحث عن ثغرات النفس لدى الفئات المستهدفة؛ فمثلاً البنطال الممزَّق ربما يسدُّ احتياجات الرجولة لدى الشباب؛ لكونه قد يحمل في شكله الممزَّق سمات الرجل الخشن، فإذا ما أُلبِسَ لشابٍّ جميلٍ لديه عضلات وجسم جميل، ويقف بجانب سيارة "فراري" وبجانبه حسناء في غاية الجمال.. فهذا من شأنه أن يسدَّ احتياجات الرجولة التي يطلبها الشباب.. وإن هذا الأمر أصبح فنَّاً ضخماً يبيع الوهم للناس ويخلق في أذهانهم الاحتياجات.. وأيضاً الأمر ذاته في مثال التسويق للأجهزة الرياضية؛ حيث إننا قد نجد إنساناً لديه في بيته جميع أشكال الأدوات الرياضية، ومع ذلك لا يزال سميناً ولم ينقص وزنه كيلو واحداً بسببها! وهنا السؤال: كيف استطاعوا بيع جميع هذه الأجهزة؟ إن الجهاز الرياضي حينما يسوَّق، تصاحبه فكرة بساطة الاستخدام، وفكرة فاعلية النتائج، وقصر الزمن التي ستحدث فيه، فالصورة المصاحبة له أن شخصاً كان سميناً وفجأةً خسر وزنه، وفتاةً كانت سمينةً وأصبح لها جسمٌ رشيقٌ، وكل ذلك حدث بمجرَّد تركيبه لهذه الدراجة والمشي عليها وعلى الآلات الرياضية الأخرى دون أيِّ تغييرٍ في

المجال الغذائي أو غيره.. وبهذا الشكل يمكن أن يباع الوهم إلى الناس، فالتسويق أصبح لا يبيع لنا ما نحتاجه، ولكنه يخلق عندنا احتياجاتٍ وهميةً ويبيع لنا من خلال هذه النافذة كلَّ ما يريد.. فهي ثورةٌ ضخمةٌ في مجال التسويق قلبته رأساً على عقبٍ، وجعلته يلعب بعقول الناس، فقطعة قماشٍ لا تساوي شيئاً يُطبع عليها شكلٌ صغيرٌ و"ماركة" معيَّنةٌ، تباع بعشرة أضعاف مثيلاتها، فقط لوجود هذه الماركة عليها! وهي عمليةٌ لا تعني شيئاً أكثر من غيرها سوى أن صاحبها يشعر بأنه أكثر غنىً من الآخرين.. وإن ثورة التسويق كغيرها من الثورات، لها روَّادها الذين ألَّفوا عنها كثيراً من الكتب والنظريات..

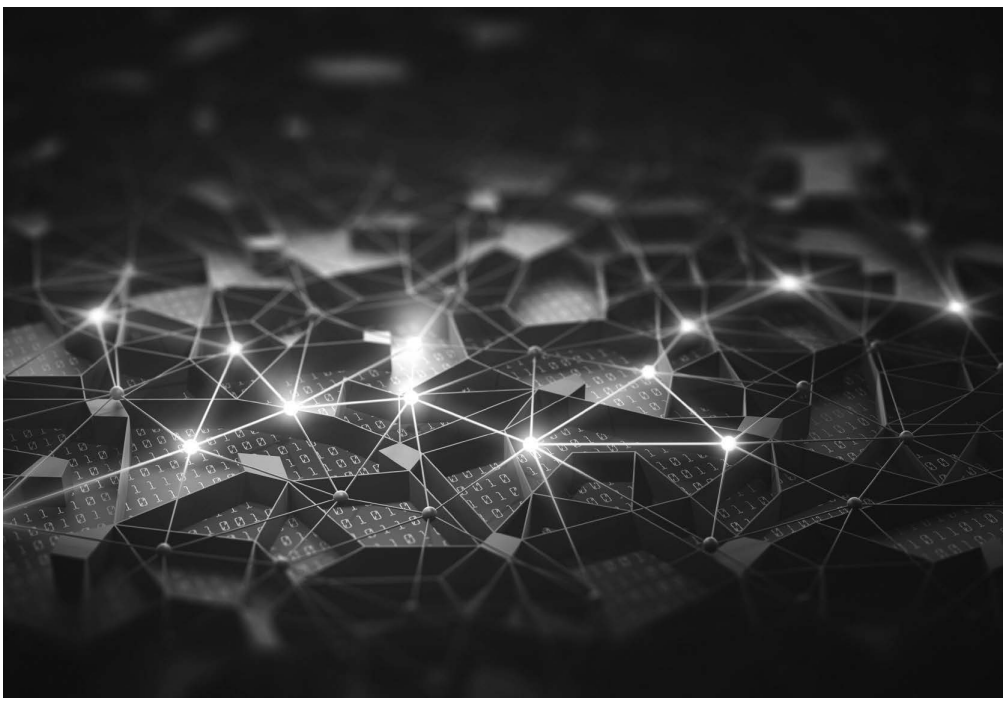
سابعاً- ثورة في مفهوم القيادة (التفكير الإستراتيجي والمهارات):

بعد أن كانت القيادة متعلِّقةً بالمدير الذي تكمن وظيفته بتسيير المؤسسة، أصبحت متعلِّقةً بالرؤية والأهداف، وكيف للمدير أن (يفكِّر إستراتيجيًّا)، وننوِّه هنا إلى أن التفكير الإستراتيجي مختلفٌ عن التخطيط الإستراتيجي؛ فقدرة المدير على التفكير الإستراتيجي تعني أن لديه القدرة على التفكير الاستباقي والخطوات الاستباقية، ومشاهدة التغييرات بشكلٍ جيِّدٍ، وإلى أين ستتجه رياح الأرباح في العالم، ونحو ذلك.. سواء استخدم آلية التخطيط الإستراتيجي، أو آلية الحدس، أو آلية التعلُّم، أو التخطيط بالرؤية.. وذلك بحسب المناسب لمؤسَّسته. وعلى أن فكرة القيادة هي فكرةٌ حقيقيةٌ نتجت عن ثوراتٍ في الإدارة، إلا إنها أصبحت في يومنا مجالاً للبيع بشكلٍ مختلٍّ، فبدأ البيع التسويقي بأمثال جملة: (كيف تصبح قائداً في بضعة أيام؟)، وأصبح من الممكن إقناع إنسانٍ ما بأنه سيصبح قائداً كبيراً بمجرد حضوره لدورةٍ معيَّنةٍ والدخول فيها، فقلَّما تطرح حقيقة أن هذه الدورات قد تدعم قدراتٍ وتطوِّر مهاراتٍ لدى الإنسان تمكِّنه إذا ما كانت لديه القابلية أن يصبح قائداً ناجحاً..

فمجال القيادة لدينا فيه خللٌ نابعٌ من أن التنمية البشرية جعلت فكرة القيادة مرتبطةً بمجالٍ واحدٍ وهو إدارة "البزنس"؛ فشاع الظنُّ السائد بأنه إذا أحضرت شخصاً وأدخلته دورةً في التخطيط الإستراتيجي، وفي كتابة مخطَّطات البزنس، وزوَّدته بمهارة العلاقات مع الناس والذكاء العاطفي، فسأكون قد أعددته لِأَن يكون قياديًّاً ناجحاً في الحياة، حتى ولو كان لا يمتلك أيًّاً من المؤهِّلات التي تمكِّنه من ذلك! فإن هذا النمط منتشرٌ بشكلٍ واسعٍ، وهو أزمةٌ

كبيرةٌ لثلَّةٍ من الناس في أساس شخصيتها؛ حيث لا تمتلك مؤهِّلات القيادة، ولكنها تبرع في مجالاتٍ أخرى..

ثم إن مجال القيادة في مجتمعاتنا لم يعد يفرِّق بين إعداد إنسان ليكون فاعلاً ثقافيًّاً في المجتمع، وبين أن يكون صاحب شركةٍ، وبين أن يكون إنساناً جيِّداً في الكشافة.. فأصبحنا حينما نتحدث عن برنامجٍ قياديٍّ، فالغالب عليه هو إعدادٌ في المجال الإداري.. بينما نحن نعيش في مجتمعاتٍ شكواها الأساسية أنها تحتاج إلى مثقفين اجتماعيِّين، عندهم القدرة على الوعي بعصرهم وزمانهم ومكانهم الذي يعيشون فيه، فتنتج هذه الدورات شخصاً كلُّ معرفته عن الأفكار المتعلِّقة بالبزنس، حتى إن معرفته عنها قد تكون مشوَّهةً في كثيرٍ من الأحيان! فنحتاج إلى أن نفهم في موضوع القيادة أنه قد حدثت فيه تغيُّراتٌ ضخمةٌ، إلا أن ما نقوم به نحن هو وجهٌ واحدٌ من هذه الأوجه؛ وهو بيع بعض المهارات المتعلِّقة بالإدارة؛ ربما لكونها الأسهل بيعاً من بقية الأشياء التي من شأنها أن تغيِّر تفكير الناس وتصوُّراتهم.



ثامناً- ثورة في طرق التعلُّم:

في مجال التعلُّم أيضاً حدثت ثورةٌ كبرى، فبعد أن كانت طرق التعلُّم الكلاسيكية هي الطرق السائدة، أصبح بإمكان الإنسان من خلال التعلُّم عن بعد أن يحصل على أفضل الشهادات في أفضل المهارات.. وأيضاً تغيَّر مفهوم المؤهِّل العلمي لكثيرٍ من الشركات الحقيقية في العالم؛ فالموظف المطلوب اليوم هو القادر على حلِّ المعضلات بأقصر وقتٍ وأنسب طريقةٍ؛ بحيث إنهم سيعطون للمتقدِّم إلى الوظيفة معضلةً حقيقيةً ليحلَّها، فإذا استطاع حلَّها، فهذا يعني أنه كفءٌ ليأخذ الوظيفة، بغضِّ النظر عن الجهة التي حصَّل منها شهاداته.. فيتجه التغيير في طرق التعلُّم إلى تحجيم الجانب النظري الصرف مقابل التوسُّع بالاهتمام بالجانب العملي الذي يتعلَّق بحلِّ إشكاليات الواقع بشكلٍ فعَّالٍ.

تاسعاً- ثورة نحو الشركات العالمية:

آخر القضايا الإدارية التي حدثت مع العولمة وانفتاح العالم على نفسه جغرافيَّاً هي الشركات الضخمة، فأصبح هناك شركاتٌ عالميةٌ تختزن رؤوس أموالٍ ضخمةً؛ بحيث إنها قد تمتلك عوائد أكبر من ميزانيات الدول، والسبب في ذلك أن الشركات لم تعد محصورةً في السوق المحلية، فلم تعد فكرة "هنا وهناك"، إنما أصبحت: "ما هو هنا هو هناك، وما هو هناك هو هنا".. فهذا التغيُّر الضخم في مجال الإدارة أيضاً أُلِّفَت فيه كتاباتٌ هامَّةٌ.

إن الثورات الكبرى الحادثة في الإدارة، كان لها سياقٌ عالميٌّ، وقد حدثت في بيئاتٍ تنافسيةٍ يتمُّ البحث فيها عن أفضل الوسائل في كل مجالٍ من هذه المجالات.. فهي تسير بمسارٍ تطويريٍّ، وبالتالي ما نسمعه اليوم من أفكارٍ وصرعاتٍ موجودةٍ في الإدارة جميعها متعلِّقةٌ بهذه الثورة العالمية التي غيَّرت شكل العالم..

ولكن علاقتنا الإدارية بهذه الأحداث والأفكار علاقةٌ سطحيةٌ جدَّاً، بمعنى أننا نأخذ قشور الأشياء دون أن نفكِّر في السياق الذي وُلدت فيه، ومدى احتياجات شركاتنا أو مؤسَّساتنا منها! فمثلاً بعض الحكومات تخصِّص ميزانياتٍ لتدريب الموظفين على الدورات الإدارية، والدورات الإدارية مصمَّمةٌ بالأساس لأناسٍ يشتغلون في القطاع الخاصِّ أو في القطاع الحكومي التنافسي؛ بمعنى أنه يُحسب الصرف على كل موظَّفٍ بالعائد الذي سيعود به عندما يعود

إلى شركته، فهو ليس تدريباً مقابل لا شيء، ولكن الموظف الذي يعيش في مؤسسةٍ حكوميةٍ غير تنافسيةٍ، ويعرف أنه سيحصل على راتبه؛ سواء عمل، أم لم يعمل، فماذا يمكن أن يفعل بهذه الدورات!؟ فهو يعرف ضمناً أنه لن يُسمح له بممارسة ما تعلَّمه في مجاله! فأصبح الهدر ضخماً في مجالاتٍ كثيرةٍ!

وكثيراً ما يأتي شخصٌ قد حضر عشرات الدورات بما يخدم التخطيط الإستراتيجي، وحينما نسأله سؤالاً بسيطاً: (كيف تعرِّف الرؤية؟ ما الفرق بين الرؤية والرسالة؟)، فلا يستطيع الإجابة! فالعائد من هذه الدورات في الغالب هو عائدٌ قليلٌ.

فمعظم ما يحدث اليوم أننا ننتج مستهلكين، أي: أناساً يصبحون أسرى الصرعات أو الأفكار التي يُرَوَّج لها، ثم لا يدرون لماذا اختفت أموالهم التي صرفوها على هذا المجال الذي كان يُعتقد بأنه هو نهاية المطاف!

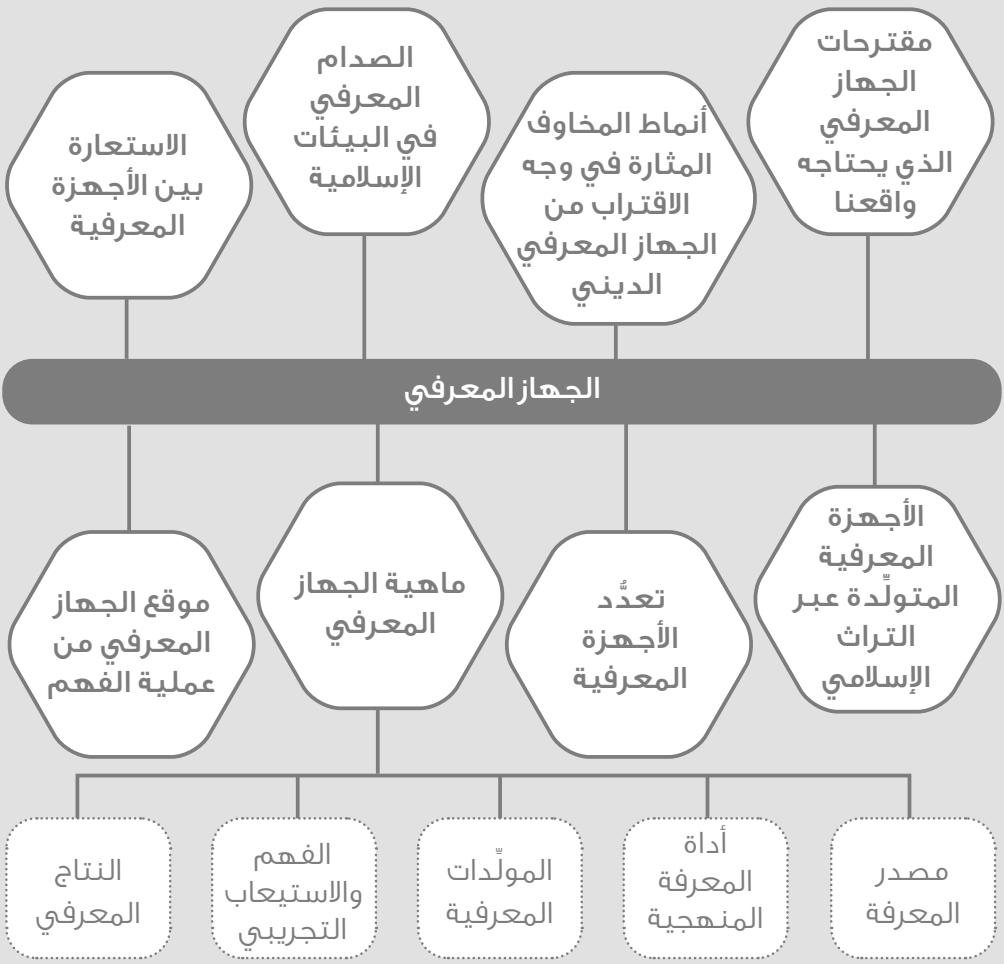
الجهاز المعرفي



◄ ◄ ◄

بوصولنا إلى موضوع "الجهاز المعرفي" نكون قد اقتربنا من نهاية البرنامج التأسيسي، الذي كان الغرض منه إثراء الخارطة العقلية وإعادة ترتيبها؛ بحيث يكون باستطاعة الإنسان استحضار معارفه العقلية، وتوظيفها في الحياة بالشكل الأفضل.

وسنستعرض في هذا المبحث موضوع الجهاز المعرفي أو القناة المعرفية التي نعتمدها في إنتاج المعرفة وفق العناوين التالية:



أولاً- موقع الجهاز المعرفي من عملية الفهم

الصورة التي أمامنا تفصِّل بطريقةٍ ما اكتساب الإنسان لمعارفه ومفاهيمه:



- إقبال عقل الإنسان على المعرفة -سواء المعرفة المنظمة، أو المعرفة التي يحتاجها الإنسان العادي في حياته- التي يكوِّن بها أفكاره وتصوُّراته عن العالم الخارجي.
- مقابل العقل هناك المصدر الذي سيكتسب منه الإنسان معرفته؛ سواء كان هذا المصدر الكون، أو النصَّ... فإن غالب معارفنا التي نكتسبها في الحياة ناتجةٌ عن القراءة في هذين المصدرين، فإن فهم الواقع الخارجي محلُّ دراسةٍ؛ من الطبيعة والسنن ونحوه.. وأيضاً النص محلُّ دراسةٍ لنا، فثقافة بيئاتنا تتمركز حول النصِّ الذي يشغل جزءاً كبيراً من فضاء المعرفة لدينا.
- بين عقل الإنسان ومصدر المعرفة يوجد قناةٌ يَتلقَّى من خلالها الإنسان معارفه، وهي ما نسمِّيه: (الجهاز المعرفي)، وهو بمثابة المنظار الذي ينفتح به الإنسان على الكون.
- وعن هذه الأمور الثلاثة ينتج فهم الإنسان الذي يتنوَّع من شخصٍ إلى آخر، ومن مجتمعٍ إلى آخر بناءً على تنوُّع الأجهزة المعرفية.

وفي سبيل التوضيح نأخذ مثالاً عن شخصين؛ الأول: يعمل في "ناسا"، والثاني: مِن سكَّان الأمازون يعيش فيها معزولاً عن العالم وقد ورث جميع معارفه من قبيلته التي تحيط به، وهذه

القبائل "أرواحية" ؛ تعتقد أن كل شيءٍ في الكون فيه روح، وأن الأرواح تتناسخ، فهو يعتقد أن أسلافه جميعهم لا زالوا موجودين داخل الأشجار أو النباتات أو الحيوانات أو الطيور، فكل من يموت سيدخل في جسمٍ من أجسام هذه الكائنات الموجودة، والشخصية الدينية الموجودة لديهم، ستقوم بتأويل الأشياء من حولهم، وستفسِّر لهم أيَّ شيءٍ غريبٍ، فكل شخصٍ في القرية لديه جهازٌ معرفيٌّ ينظر من خلاله إلى العالم الخارجي، ويفسِّر العالم في ضوئه، فمهما كان جهاز هذا الإنسان بدائيًّاً يمكن له أن يرى العالم، ولكن نتاجه بالفهم سيختلف تماماً عن نتاج الشخص الأول بما يدخل عليه من معارف وأحداثٍ وحقائق علميةٍ كبيرةٍ، وإن كلا الشخصين أيضاً ستكون نظرتهم مختلفةً عن فتاةٍ عاشت في الصعيد المصري، أو شابٍّ وُلد وكبر في كوريا الشمالية، فكل واحدٍ من هؤلاء قد شكَّلت له بيئته نظرةً للعالم يطلُّ من خلالها عليه.

ويحكي الدكتور جاسم مثالاً يوضِّح ذلك لإحدى الحالات المرضية التي واجهتهم كأطباء؛ حيث إن إحدى السيدات كان ينقلب صوتها إلى صوت رجلٍ عند الكلام، فيقول الدكتور جاسم: كان التشخيص الأول الذي راود عقولنا أنها حالة جنٍّ وعفاريت، وهذا على الرغم من أننا ندرس الطبَّ والعلوم المادية المبنيَّة على الحسابات الدقيقة، ولكن بحكم أن جهازنا المعرفي الذي هو أقدم من الجهاز الذي اكتسبناه بعد دراسة الطبِّ كان ينظر إلى هذه الأشياء على أنها جنٌّ وعفاريت، فجميعنا فسَّر الموضوع على هذه الشاكلة ابتداءً!

> نحن لا ننظر إلى العالم كما هو بتجرُّدٍ تامٍّ؛ بل نستقبله من خلال قناةٍ معرفيةٍ، تكوَّنت من البيئة حولنا، وتلاحقنا دائماً في كافَّة قراءاتنا، إلى أن نكتسب قنواتٍ أخرى

وحينما وصل العلم إلى فكرة أن الإنسان يقرأ العالم ويشكِّل معارفه من خلال قناةٍ يكتسبها من البيئة، بدأت المخاوف حول كيفية تجنيب الإنسان لتأثير بيئته، أو عن حلولٍ للتخلُّص من هذه القناة التي تؤثِّر أو تُخِلُّ بفهم الإنسان للعالم، ولكن ما تمَّ التوصُّل إليه بأن هذه القناة لا يمكن التخلُّص منها، ليتَّجه السؤال نحو جودة هذه القناة، ومدى قابليَّتها للتدقيق من قِبَل جهاتٍ خارجيةٍ، أو إمكانية وضع معايير مشتركةٍ تنقِّح من خلالها وتعايِرُ القنوات بين البشر على اختلاف بيئاتهم وتنوُّعها.

وقد تمَّ التوصُّل إلى أن هناك أجهزةً معرفيةً يمكن لها أن تُضْبَط بمعايير مشتركةٍ بين البشر جميعاً، وذلك على نحو المعايير التي يُضبَط بها بحثٌ جامعيٌّ، أو مقالٌ يجاز لكونه استوفى معايير علميةً محدَّدةً في العلوم الإنسانية، أو على نحو تجربةٍ معمليةٍ في العلوم المادية إذا أجريناها في الواقع ستعطينا نتائج مشابهةً.

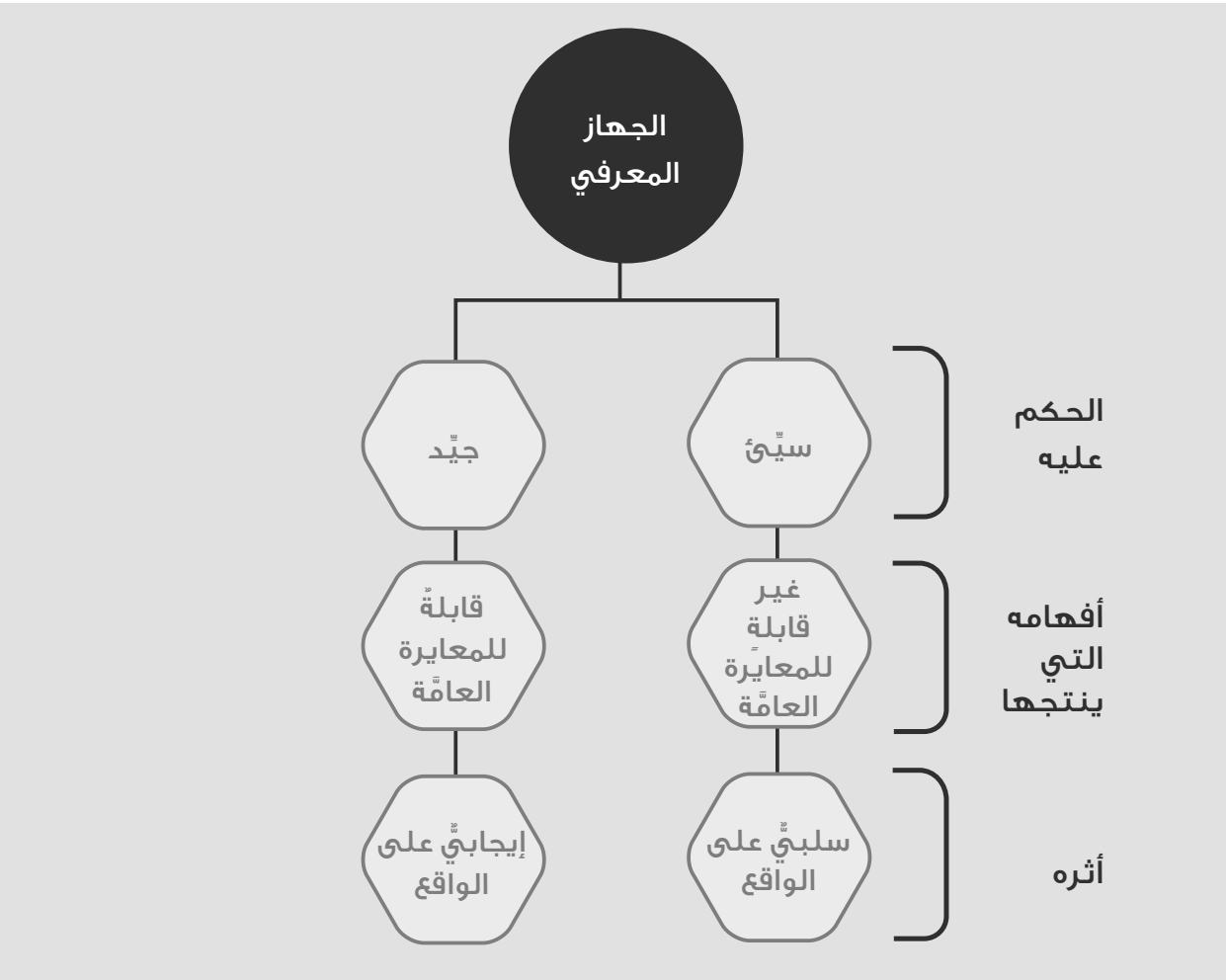
إننا حينما نطَّلع على موضوعٍ ما، سنطَّلع عليه من خلال الجهاز المعرفي، وإن دقَّة المنتج الذي نأخذه وجودته تأتي من المعايير التي يحتكم إليها هذا الجهاز؛ سواء كانت معايير ضيقةً خاصَّةً لا تُقنِع إلا فئاتٍ معيَّنةً، أم معايير كونيةً عامَّةً يتقبَّلها الناس على اعتبار أنها تشكِّل وحدةً بينهم، فالمعايير المضبوطة التي يمكن لها أن تُعمَّم هي المعايير التي إن كرَّرت تجاربها من قِبَل أشخاصٍ مختلفين استطاعوا الوصول إلى النتائج نفسها، أما إذا تضاربت الفهوم مع أجهزةٍ أخرى، فهذا يعني أننا لن نستطيع أن نحسم شيئاً في اتجاهٍ محدَّدٍ، أو بعبارةٍ أخرى: هنالك مشكلةٌ في معايير هذا الجهاز.

إن جودة الجهاز المعرفي ستنعكس على مخرجاته؛ فإن كان جهازاً سيِّئاً سينعكس سلباً على الفهم الناتج عنه، وإن كان جيِّداً سينعكس إيجاباً، وإننا من هذا الفهم الناتج عن الجهاز المعرفي، سنصنع واقعنا الخارجي؛ سواء في الاقتصاد، أو الاجتماع، أو الفلسفة، أو التاريخ، أو الصناعة، أو التجارة..

كلما كانت الأمَّة أصوب في جهازها المعرفي، كانت قراراتها وأحوالها أصوب من غيرها، فكل عطبٍ في الجهاز المعرفي للأمة سينعكس مباشرةً على الواقع الخارجي لها

وبالتالي إن الأهمية الأولية لأيِّ أمَّةٍ لديها أزمةٌ، أو حالها أدنى من بقية الأمم، أن تنظر في جهازها المعرفي لتعرف ما هي مشكلته.

والمفارقة أن كثيراً من هذه الأمم تعتقد أن جهازها المعرفيَّ ثابتٌ، وعلى الأمم الأخرى أن تستجيب للطريقة التي تفكِّر بها! وهذا ما لا يحدث في الواقع، فما يحدث هو أن الواقع الخارجيَّ يسير في طريقه ويترك هذه الأمة منفردةً بأفكارها وتصوُّراتها، وكلما تقدَّم الزمن، ابتعد العالم خطوةً إلى الأمام عن الواقع الذي تعيشه هذه الأمة!



ثانياً- ماهية الجهاز المعرفي

إن ثقافة أيِّ شخصٍ في عصرنا لن تكتمل دون أن يمرَّ على مشكلةٍ اسمها: "أزمة الجهاز المعرفي"، وأزمة الجهاز المعرفي نلحظها مع مرور كل يومٍ، وفي كل لحظةٍ وثانيةٍ من ثواني حياتنا.. فيكفي أن نفتح مواقع التواصل الاجتماعي لنعرف الأزمات المتوالية الموجودة نتيجة الخلل في جهازنا المعرفي.. فباستمرارٍ لدينا صراعٌ كبيرٌ جدَّاً بين رؤيتنا (للدين) وبين رؤيتنا (للحياة المعاصرة)، فهذان المركَّبان يبدو وكأنهما لا يلتقيان وليس بينهما اتساقٌ، فتبدو مشكلةٌ كبيرةٌ بين هذا الفضاء وذاك..

وكمثالٍ بسيطٍ على هذا الصراع: تحديد بداية شهر رمضان المبارك.. فاليوم وعلى الرغم من وجود التلسكوب، ووجود الحساب الدقيق لميلاد القمر، إلا أنه لا زال لدينا في كل سنةٍ أزمةٌ كبيرةٌ في تحديد دخول شهر رمضان والعيد.. فندخل في لغطٍ كبيرٍ إن كانت الرؤية العينية هي التي ستحسم المسار، أم الفلك بدقَّته هو الذي سيحسمه! وتطفو محاولات التوفيق بين الاثنين، ويعاد تكرار القضية ذاتها في كل عام.. وتتكرَّر المسألة وكأننا ندور في حلقةٍ مفرغةٍ! فمع أن العلم المعاصر حسم موضوع ميلاد القمر حسماً نهائيًّا؛ بحيث أصبح بإمكان العلماء تحديد موعد ميلاد القمر، ومن أيِّ مكانٍ، وفي أيِّ زمانٍ، وفي أيِّ منطقةٍ من العالم يمكن مشاهدته، وفي أيِّ ظروفٍ جويَّةٍ، وفي أيِّ درجة نموٍّ نريد أن نراه.. فعلى الرغم من كل ذلك لا نستطيع أن نحسم هذه المسألة لصالح العلم!

هنا تظهر أزمة الجهاز المعرفي بين فكرة القمر الديني، والقمر العلمي الموجود في الأرض، وهي تمثِّل عمق الأزمة؛ فنحن أمام تأويلٍ علميٍّ وتأويلٍ دينيٍّ، وبينهما تناقضٌ غالبٌ! حتى إن مدرسة المقاصد الشرعية التي ترى أن المقصد هو معرفة القمر، وعلى الرغم من وجودها منذ زمن الشاطبي، لم تستطع حلَّ اللغز والانتصار في هذه المعركة.. وبين ثلاثية القمر الديني والقمر العلمي وأزمة الأطروحات التي تحاول إيجاد حلٍّ عبر مدرسة المقاصد، نستطيع أن نكتشف أزماتٍ كثيرةً تدور في الدائرة ذاتها، ولا نستطيع أن نحسمها، فنظلُّ ندور فيها إلى يوم القيامة، وكأنها تولَد من جديدٍ في كل مرَّةٍ من المرَّات مع ورود الحدث ذاته، وعلى الرغم من أننا نعرف شكل الإجابات التي ستكون عليها، إلا أننا نعيد تكرار ذات الظاهرة وذات النقاشات!

وأزمة الجهاز المعرفي أزمةٌ كبيرةٌ تطال القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والظواهر العلمية وحياة الأفراد الخاصَّة والعامَّة وقضايا الدولة المعاصرة والسياسة الدولية.. فجميعها تصطدم باستمرارٍ بالعائق ذاته؛ وهو أن الجهاز المعرفيَّ فيه مشكلةٌ لم نستطع أن نقوم بحلِّها، وكذلك لم تستطع الحلول الوسيطة؛ كمدرسة المقاصد، ومدرسة الضرورات، ومدرسة فقه النوازل، وفقه الأولويَّات، وفقه الموازنات.. القيام بذلك.

فجميع تلك المدارس لم تستطع أن تحلَّ الصراع وتحوِّله إلى شيءٍ مفهومٍ في أذهان الناس، فما زالت هذه البنى لا تستجيب للتحوُّلات والمطالب الأساسية الموجودة في العالم، ممَّا أحدث فجوةً كبيرةً بين الاحتياجات المعاصرة، وبين الأفكار الأساسية التأسيسية، لتزداد اتساعاً مع تطوُّر التقنية والتكنولوجيا وتقدُّم العلوم..

إذاً؛ فمن الأشياء المهمَّة جدَّاً التي نريد أن نعرفها أزمة الجهاز المعرفي، ونحن لا ندَّعي أننا نملك الحلَّ له، ولكن على اعتبار أنه من المهمِّ جدَّاً أن تُشخَّص المشكلة ابتداءً لنعرف ما الذي يقف أمامنا وما الذي نريد حلَّه، فإن تشخيص السؤال بطريقةٍ جيدةٍ لا يقلُّ أهميةً عن إيجاد الإجابة المناسبة.. وربما تكون الإجابات موجودةً ولكنَّنا معرضون عنها، أو أن قطَّاعاً من الناس لا يدرك أنها موجودةٌ.

مكوِّنات الجهاز المعرفي



ولشرح ماهية الجهاز المعرفي بشكلٍ دقيقٍ لدى المجتمعات والأمم، سنستعين بنظرة الغرب إلى الجهاز المعرفي كنموذجٍ، وإن الجهاز المعرفيَّ السائد اليوم في الغرب ينظر إليه من خمس زوايا رئيسيةٍ، وإن هذه الزوايا هي بذاتها المكوِّنات الأساسية لأيِّ جهازٍ معرفيٍّ في العالم:

1 مصدر المعرفة

وهو المنبع الذي نستقي منه المعرفة كالنصِّ والعقل والواقع والإلهام الغيبي.. فمثلاً في المعرفة الدينية قد يشترك العقل والإلهام كمصدرٍ، ولكن يبقى النصُّ حاضراً بالدرجة الأكبر.

2 أداة المعرفة المنهجية

هي الآلة التي يتمُّ بها إنتاج المعرفة، أو المنهج الذي يُتوصَّل من خلاله إلى المعرفة؛ كاللغة، أو المنطق، أو الاستقراء الواقعي، أو النصِّيِّ.

3 مولّد المعرفة

هو ما يمكنه تفسير أكبر قدرٍ ممكنٍ من القضايا العائدة للجهاز، فمثلاً الظاهر العرفيُّ للنصِّ في عصر التنزيل يفسِّر أكبر قدرٍ من مخرجات الجهاز البياني، وهو أساسٌ له.

4 الفهم

حين نتعامل مع النصِّ قد نخضعه للمعنى الإشاري، أو التأويلي، أو الظاهري، أو الإيضاحي، وبالتالي يختلف نوع الفهم، فقول القرآن: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾، قد يفسَّر بالظاهر، فيقال: استواءٌ على الحقيقة بما يليق بجلاله دون التعرُّض للكيف. وقد يتمُّ التفسير بالإيضاح، فيقال: بما يفيد التجسيم من التحيُّز والمماسَّة. وقد يفسَّر بالمجاز، فيقال: استوى؛ يعني: استولى، وقد يقال بالتفسير الإشاري: بمعنى اتصف بعزِّ الصمدية وجلال الأحدية وانفراده بنعت الجبروت وعلاء الربوبية.

5 النّتاج المعرفي

هو كل ما ينتج من معرفةٍ لاحقةٍ.

باستمرارٍ لدينا خمسة أشياء يمكن أن نسمّيها: الجهاز المعرفيّ، ويمكن فحص أيّ جهازٍ معرفيٍّ من خلالها حينما نتساءل عن



ثالثاً- تعدُّد الأجهزة المعرفية

هناك عددٌ من الأجهزة المعرفية المتنافسة في الواقع، فلو نظرنا مثلاً إلى الغرب كنموذجٍ لدراسة الأجهزة المعرفية، سنجد أن لديه ثلاثة أجهزةٍ معرفيةٍ متنافسةٍ في البيئة، وعلى الرغم من أن الجهاز الاستقرائيَّ هو المسيطر بينها، ولكن الجهازين الآخرين يشتغلان في البيئة ولهما منتجاتٌ.. فمثلاً لو أننا افترضنا أن الغرب عبارةٌ عن طاولةٍ، وأن هذه الطاولة عليها منتجات تلك الأجهزة المعرفية، فسنجد أن المنتجات هي ثمرة ثلاثة أجهزةٍ معرفيةٍ كبيرةٍ:

الجهاز الأول الاستقراء

وهو الغالب على الحياة الأوروبية.

الجهاز الثاني الفلسفة

فالفلسفة جهازٌ معرفيٌّ آخر، وأداة الحفر فيها هو المنطق، ويمرُّ على قضية البرهان باستمرارٍ، ومنتجات هذا الجهاز لها الطابع الفلسفي، فيوجد داخل البيئة الغربية منتجاتٌ لها طابعٌ فلسفيٌّ، وتحاكمها أساساً الفلسفة، وليس التجربة المعملية والمختبرية.

الجهاز الثالث الجهاز الديني

الذي رغم ضموره في هذه المجتمعات إلا أن له حضوره أيضاً وينتج عوامله، فهو يعتمد على النصِّ، وعلى وجود اللغة التي تفسِّر النصَّ بشكلٍ من الأشكال.

إذاً؛ فهناك ظاهرة وجودِ عددٍ من الأجهزة المتنافسة التي نحتاج أن نعرفها باستمرارٍ..

رابعاً- الاستعارة بين الأجهزة المعرفية

ظاهرة الاستعارة ظاهرةٌ موجودةٌ بين الأجهزة المعرفية، فلا يوجد جهازٌ معرفيٌّ إلا ويستعير من جهازٍ معرفيٍّ آخر موجودٍ في البيئة ذاتها، فيستعير أشياء محدَّدةً -من غير إدراكٍ- ويحلُّ اختناقاته من خلالها..، فعلى سبيل المثال: المدارس التجريبية الصرفة تعتمد على الاستقراء، ولكن في بدايات عملها استعارت من المدرسة الفلسفية تصوُّراً فلسفيًّاً عن طبيعة الكون، ففيزياء "نيوتن" بُنيَت أساساً على فلسفةٍ مضمرةٍ بأن الكلَّ مركَّبٌ من أجسام، والأجسام ذرَّاتٌ، وكل واحدةٍ لها كتلةٌ.. وعلى هذه الفلسفة الأساسية تُبنى بقية المنظومة الموجودة..

وأيضاً عندما دخلنا فيما يسمَّى: "الفيزياء الكمِّيَّة"؛ فقد كانت نقلةً فلسفيةً تقف وراءها فلسفةٌ كبرى تقول: إن العالم عبارةٌ عن موجاتٍ، وليس ذرَّاتٍ وكتلاً..

والجهاز الديني أيضاً يستعير، فمثلاً في إثبات الحجج الدينية قد يستعير الديني في الغرب فكرةً علميةً معيَّنةً ويؤكِّدها.. مثلما فعلت الكنيسة مع أفكار "أرسطو"، فـ"أرسطو" كان يتكلم عن تركيب الكون بطريقةٍ معيَّنةٍ، والمسيحية وجدت أن تفسير الكتاب المقدَّس قابلٌ لأن يتشكَّل بهذه الطريقة، ففُرضت أفكار "أرسطو" على تفسير الكتاب المقدَّس بما يسمَّى: التفسير العلمي للكتب المقدسة.. فسنجد داخل الأطر استعاراتٍ أحياناً تكون مكشوفةً ومعروفةً، وأحياناً تكون استعاراتٍ مضمرةً.

المناهج المعرفية يستعير بعضها من بعض، خاصَّةً حينما تصل إلى اختناقاتٍ معيَّنةٍ، وتكون استعاراتها أحياناً مكشوفةً وأحياناً مضمرةً

إن الذي يميِّز هذه الأجهزة عن بعضها أمران: المصدر، والدينمو المولِّد.. فالنظام يحافظ على نفسه من خلال حماية المصدر وحماية النظام المولِّد؛ ففي الحضارة الغربية مثلاً إذا حذفنا (المصدر) الذي هو الطبيعة، لا يقوم عندها العلم التجريبي، وإذا بقيت الطبيعة من غير التجربة (الدينمو المولِّد)، لن يكون هناك علمٌ غربيٌّ.

يحافظ العلم على نفسه من خلال احتفاظه بالمصدر واهتمامه بالدينمو المولِّد

وهنا يطرح السؤال نفسه: لماذا تتعدَّد الأجهزة المعرفية داخل البيئة الواحدة؟

السبب هو أن المنهج نحتٌ بشريٌّ، والبشر مختلفون في تصوُّراتهم.. **فأنتجوا مناهج مختلفةً لمقاربة الواقع الموجودين فيه..**

خامساً- الصدام المعرفي في البيئات الإسلامية

إن الأجهزة المعرفية الكبرى داخل الحياة الإسلامية سمتُها الظاهرة عند اجتماعها أنها متصادمةٌ ومتنافرةٌ، وليست متناسقةً، وإن هذا التصادم أنتج لنا صراعاً يتجلَّى في عدة نواحٍ؛ فنجده في العقائد، وفي الفقه، وعلى مستوى الطوائف.. ويتكرَّر صداه في الفتاوى المختلفة التي تدور حول السياسة والاقتصاد، وحول المناسبات والأعياد. كل هذه القضايا نسمع فيها صراعاً مريراً يصل إلى حدِّ التفسيق والتبديع والتكفير..

إشكالية في المنهج، أم في الدين؟

إن هذا الصراع بلغ مبلغاً رهيباً من الاقتتال البيني بين طوائف المسلمين في القرن الرابع والخامس والسادس الهجري.. وانتهينا إلى أننا لا نصلي مع بعضنا البعض؛ فالأحناف يصلُّون منفردين، والمالكية منفردين، والشافعية منفردين، والحنابلة كذلك، وأصبح لكلٍّ أناسٍ مسجدهم ومدارسهم..! ونجد في بعض الكتب الحديثة التي حاولت أن ترصد الظاهرة علميًّاً في محاولة معرفة ما الذي كان يدور في تلك الفترة كمًّاً من الصراع الكبير داخل البيئات الدينية حول صوابية كل اتجاهٍ من الاتجاهات، لدرجة أنه قد يأتي شخصٌ ويقول لك: إذا تزوجت من الشافعية، فتزوجها على أنها كتابية..! فأصبح الموضوع قاتلاً بين أفراد الأمة، ولم ينتبهوا إلى أنها مشكلة منهجٍ لا مشكلة دينٍ؛ وذلك لأن من يدرس داخل مذهبٍ من المذاهب، يُصَوَّر له أن هناك تطابقاً بين فهم المذهب وبين الدين، فيعتقد كمالية المنهج الذي يحتذيه؛ فإذا كان حنفيًّاً فهو كامل، وكذلك إذا كان شافعيًّاً أو مالكيًّاً أو حنبليًّاً أو ظاهريًّاً أو منهجاً آخر.. وكل منهجٍ يوهِم كماله بالنسبة لمحتذيه.. وبالتالي تصبح المناهج الأخرى خارجةً عن الدين بشكلٍ أو بآخر! ولذلك انتشر التكفير والتبديع والتفسيق بين المسلمين في تلك العصور (الرابع والخامس والسادس الهجري)، وهي ذاتها العصور التي غُزينا فيها من قِبَل الصليبيِّين والتتار، وانتشر القتل والفوضى نتيجة هذه القضايا.

إننا الآن في عصرٍ جديدٍ، وفي تصوُّرٍ جديدٍ للحياة، وإذا فهمنا أن هذه الأجهزة المعرفية تشتغل عبر أدواتٍ معيَّنةٍ؛ أي: أن لديها مصدراً، ودينمو مولِّداً.. وبأن هذين الأمرين يحكمان الأفهام التي تخرج منها، ويحكمان المنتجات التي ستخرجها.. فعندها ستخفُّ حالة الصراع البيني، وسيصبح السؤال حول كفاءة هذه المناهج في الإجابة على أسئلتنا المعاصرة؛ هل ستستطيع الإجابة، أم أننا نحتاج منهجاً آخر يضبط لنا المعادلة؟

وإننا إذا لم نستطع أن ننتج عصراً جديداً عبر تغيير المناهج وإعادة النظر فيها، فلن نستطيع أن نتحرَّك إلى الأمام؛ بل سنظلُّ أسرى القضايا ذاتها، بالشكل ذاته، والآليَّات ذاتها..

ملاحظة هامَّة

إن المناهج المذكورة سابقاً جميعها مناهجُ محترمةٌ، ولكن بالمقابل جميعها نحتٌ بشريٌّ، وبالإمكان النظر إليها وتقويمها تقويماً معرفيّاً، يسمح لنا بأن نختار ونقدِّم ونؤخِّر وننظر فيها علميّاً ومعرفيّاً إذا اقتنعنا بأن هناك مشكلةً، أما من لا يرى أن هناك مشكلةً، فلا داعي لإكمال الحديث معه.. فحوارنا هنا مع من يستشعر المشكلة، ويرى بأنها قضايا قابلةٌ للنظر العلمي التجريدي، وبأنه يتوجَّب القيام بمحاولاتٍ لإنتاج تصوُّراتٍ جديدةٍ لهذا العصر الجديد، كما فعل الصحابة والعلماء في زمانهم، حينما أنتجوا شيئاً احتاجه الواقع ولم يكن على عهد الرسول ﷺ..

خلاصات

- الجهاز المعرفي يتكوَّن من خمسة مصادر رئيسيةٍ، هي: المصدر، والأداة، والجهاز المولِّد، والفهم، والمنتجات.
- جميع الأجهزة المعرفية هي نحتٌ بشريٌّ، وليست وحياً منزَّلاً؛ فالبشر ينحتون مناهج يستخرجونها إما من الظواهر الطبيعية، أو من النصوص، أو من مختلف المجالات العلمية التي يشتغلون بها.
- نتاجات الأجهزة المعرفية في البيئة الواحدة؛ إما أن تكون متصالحةً ومتَّسقةً، وإما أن تكون متصادمةً ومتنافرةً.

سادساً- أنماط المخاوف المثارة في وجه الاقتراب من الجهاز المعرفي الديني

ممَّا لا يُغفَل عنه أن الأجهزة المعرفية أنشأت منتجاتٍ كثيرةً، فلو نظرنا إلى منتجات كل مذهبٍ من المذاهب الفقهية، فإننا سنجد آلاف الكتب التي خرجت من تحت كل مذهبٍ، وآلافاً مؤلَّفةً من العلماء الذين تخرَّجوا من هذه المذاهب.. وكذلك إذا نظرنا إلى الفرق الكلامية، فسنجد أيضاً عشراتٍ من الفرق الكلامية المختلفة التي تنازعت في مسائل الاعتقاد، وكذلك إذا نظرنا إلى الطوائف الموجودة.. وإن الكثير من الناس يعتقدون أن الاقتراب من ظاهرة الجهاز المعرفي قد يربك عليهم أعمالهم ويسبِّب لهم مشاكل كثيرةً، وبالتالي أيُّ محاولةٍ للاقتراب من فكرة فهم الجهاز المعرفي تلقى صدوداً كبيرةً جدَّاً تتنوَّع أنماطها:

- **أولاً:** هنالك من يستنكر وجود مشكلةٍ في الجهاز المعرفي معتبراً الحديث عن تلك المشاكل ضرباً من الأوهام، وحجته في ذلك بأنه لو حصلت مشكلةٌ فعليةٌ في الجهاز المعرفي، لَأدركها العلماء والفقهاء..
  - إن هذا المنطق لا يرقى للحديث معه؛ لأن مظاهر المشاكل الموجودة كبيرةٌ وصادمةٌ، وهي حاضرةٌ بوضوحٍ في كثيرٍ من المجالات؛ ففي مجال الاعتقاد مثلاً نجد ظاهرة الإلحاد، وظاهرة التكفير البيني المتبادل بين الفرق، وغيرها من القضايا.. وأيضاً في الفقه نجد صداماتٍ كبيرةً في القضايا المستجدَّة؛ حيث إنها أصبحت تسبِّب إرباكاً لا حدود له في البيئة، هذا علاوةً على تاريخ الصراع بين المذاهب.
- **ثانياً:** هنالك من يصدُّ محاولات الاقتراب من الجهاز المعرفي على مبدأ إذا كنت لا تمتلك بديلاً لهذه الأجهزة، فاصمت ولا تهدم البيت وتترك الناس في العراء. فيقولون: إنه إذا ما تمَّ البدء بنقد الأجهزة المعرفية وتشريحها، فإن الناس لن تستمرَّ بالإيمان بهذه الأجهزة القائمة، وسيجدون أنفسهم في فراغٍ كبيرٍ جدَّاً.. فأين سيذهب الناس إذا فقدوا السقف الذي يقفون تحته؟
  - إن هذه الحجة هي حجةٌ شهيرةٌ ومتكرِّرةٌ، بينما هي في الحقيقة متهافتةٌ.. لأن الإشارة إلى تصدُّعات بيتٍ ما لا تعني هدمه، كما أنها لا تعني بالضرورة إيجاد الحلِّ؛ فلو كان

لك بيتٌ وفيه تصدُّعاتٌ ولاحظ بعض أهل البيت هذه التصدُّعات، فأشاروا إليها، فقد يسارعون إلى تعميره وإصلاحه من جديدٍ.. وقد يفكِّر هؤلاء الناس في أن هذا البيت لم يعد صالحاً ويُنشِئون بيتاً آخر، وقد يفلح هؤلاء الناس في وضع مخطَّطٍ لبيتٍ جديدٍ.. فإن البيت لا ينهار وينتهي لمجرَّد أنه يُنقَد، فقد تستمرُّ الأجهزة المعرفية وقد تتجاور في بيئاتٍ كثيرةٍ جدًّا، وإن أقدم الأنظمة الموجودة عن السحر والجنِّ والعفاريت والتنجيم لا زالت قائمةً في المجتمعات العالمية، فالأجهزة المعرفية لا تختفي بالكلية؛ بل تبقى بقاياها طالما أن هنالك أناساً يؤمنون بها.. فإن مقولة: مَن لا يمتلك بديلاً فليصمت، ليست قاعدةً جيدةً؛ لأن إشارة أحد الأشخاص إلى خللٍ في سيارتك، لا يعني أنه يستطيع تصليح السيارة أو إيجاد الحلِّ!

- **ثالثاً:** قد تكون حجة بعض الناس أنه من الإجرام تصفير تراثٍ ومناهجَ عمرُها ألفٌ وأربع مئة سنةٍ..

  - في المعرفة دائماً وأبداً يكون الجديد عبارةً عن اعتراضٍ بوجهٍ ما على الأمر السائد القديم، ولكن ليس بالضرورة إلغاءً لكل ما هو قديمٌ، فعلى الجديد أن يقف على كافة إيجابيات القديم ويستصحبها معه، ويحاول إزالة الشوائب والإشكاليات الموجودة فيه.. فمثلاً: التراث الصيني لا يزال موجوداً، والتراث الأوروبي أيضاً لا يزال موجوداً على الرغم من كل النقد الذي وجِّه له، فلا تزال كتب "أرسطو" و"أفلاطون" و"توما الأكويني" تُدَرَّس في جامعات العالم، وما زال يُبحَث فيها، فنقد الجهاز المعرفي ليس عبارةً عن النهايات، ولا يوجد شيءٌ في المعرفة اسمه: "تصفير".

- **رابعاً:** هناك من يستنكر فكرة الإتيان بشيءٍ جديدٍ بناءً على أن مَن سلف لم يترك شيئاً لمن خلف.. وهذه الفكرة تُطْرَح من وجهين:

  - **الوجه الأول:** باعتبار أنه لا داعيَ للجديد أساساً، وأن العلم قد نضج حتى اكتمل، وهذا يُطرح في كافَّة المجالات؛ ففي التكنولوجيا يقال: إن كل شيءٍ من التقانة قد انتهى وقُدِّم ولا حاجة لأيِّ شيءٍ جديدٍ.. ويقال ذلك في الفلسفة أيضاً، فلا نحتاج إلى فكرةٍ جديدةٍ، ويمكن قوله في الدين..

- **والوجه الثاني:** باعتبار أنه لا جديد فيما يُقدَّم، ولو كان جديداً لقبلَه، فبعض الناس كلما ذكرت له منظومةً فكريةً جديدةً، ذكر لك جزئياتٍ مشابهةً لها قد قالها السابقون في لحظةٍ تاريخيةٍ معيَّنةٍ نفياً لحداثة المطروح..

- أما بخصوص الاعتبار الأول: فالواقع يقول عكس ذلك؛ فالحياة متجدِّدةٌ باستمرارٍ، وفيها أسئلةٌ جديدةٌ، وبالتالي هي تطرح أشياء جديدةً وتحتاج إلى أفكارٍ جديدةٍ.

- وبخصوص الاعتبار الثاني: فنؤكِّد هنا أن الفارق كبيرٌ جدَّاً بين أفكارٍ تجديديةٍ مجزَّأةٍ مترامية، وبين نظامٍ يوحِّد الأفكار ويصوغ منها منظومةً كلِّيَّةً، وهذا كالفارق بين إيجاد قطع غيار السيارة وإيجاد السيارة.. فقطع الغيار قد تكون متناثرةً في كل مكانٍ، إلا أن تجميعها في نظامٍ موحَّدٍ أمرٌ شاقٌّ جدَّاً، وكذلك هو الأمر مع وجود أشياء كثيرةٍ قيلت عبر التاريخ، فتوضيب هذه الجزئيَّات لا يقلُّ أهميةً؛ بل لَربما هو الأهمُّ من وجودها.. فقول الفقيه الفلاني والأصولي الفلاني لا يغني عن فكرة إيجاد نظامٍ جديدٍ؛ لأن الجهاز المعرفيَّ ليس مجرَّد قطعةٍ صغيرةٍ، إنما هو نظامٌ كاملٌ.

● **خامساً:** هناك من يقول بأننا لو أخذنا بالمقاصد، وفقه الأولويات، وفقه الضرورات، وفقه المآلات، وفقه النوازل، ستُحَلُّ كلُّ مشاكلنا..

- ولكن ما الذي يعيق عمل هذه الأنظمة في الواقع!؟ فالمقاصد مخدومةٌ، وفقه الضرورات مخدومٌ.. وكل هذه المدارس موجودةٌ داخل البيئة الإسلامية، وأُلِّف فيها دراساتٌ وبحوثٌ كثيرةٌ.. فلماذا لا تفعل فعلها وتنتج لنا جهازاً معرفيَّاً يستطيع أن يجيب على أسئلة العصر، فنخلص من الإشكاليات الموجودة بنوعٍ من راحة الضمير؟

● **سادساً:** يضاف إلى الإشكاليات السابقة إشكالياتٌ متعلِّقةٌ بجانبٍ ليس له علاقةٌ تماماً بالكلام الذي نتحدَّث عنه، فهناك من يقول: إن نقد الجهاز المعرفي الديني ومناقشته تؤدِّي إلى بثِّ الإلحاد.. وهذا الطرح يدخل ضمن ما يسمُّونه بـ: المنحدر الزلِق؛ وهو نوعٌ من المغالطات المنطقية التي كنَّا قد تطرَّقنا لها سابقاً، وهي تعني مدَّ نتائجَ معيَّنةٍ غير محمودةٍ إلى قضايا قد لا تكون قريبةً منها.. فالإلحاد له مجاله، وله أسبابه التي تختلف عن مناقشة الأجهزة المعرفية..

وكذلك الحال بمَن يقول: إن هذا النوع من الكلام يؤدي إلى فسادٍ وفسقٍ وفجورٍ وانحلالٍ وما إلى ذلك.. وأيضاً هنالك من يرى أن من خلال هذا النوع من الأطروحات يتمُّ الاعتداء على السُّنَّة النبوية وعلى النصوص قطعية الدلالة قطعية الثبوت.. إلا أن هذا كلَّه ليس بالضرورة أن يحدث؛ بل هو مرهونٌ بما سينتج عن النقاش في النهاية..

إن المصادرة على المطلوب من قبل أن يبدأ هي أداةٌ من أدوات الحجْر على العقل، ومن أدوات وقف تقدُّم المجتمعات التي تعاني من إشكالياتٍ حقيقيةٍ ناتجةٍ عن اضطراب الآراء والتصوُّرات

فالنقاش قد ينتهي إلى جوانب ممتازةٍ ورائعةٍ مثلما حدث مع أممٍ كثيرةٍ تقدَّمت، وكذلك قد ينتهي إلى نتائج سلبيةٍ.. فلعلَّ أحداً ما قد يُنتِج جهازاً معرفيًّاً جديداً يمكن أن يصبح قابلاً للتداول، وأحداً آخر يمكن أن يقترح جهازاً معرفيًّاً أو يعدِّل في جهازٍ معرفيٍّ.. ولكن الحَجْرَ على الموضوع من قَبْلِ أن يبدأ بسبب كل هذه المخاوف ليس وضعاً طبيعيًّاً، إنما هو جزءٌ من آليات التخويف التي اتَّبعتها النظم القديمة لمنع تقديم تصوُّراتٍ جديدةٍ، أو على الأقل بحث الأشياء القديمة..

سابعاً- الجهاز الذي يحتاجه الواقع

وبعد الحديث عن الجهاز المعرفي والخلل الحادث، سيُطرح السؤالُ نفسُه: ما الذي يحتاجه واقعنا اليوم؟

إن العقلية التي تولَّدت عندنا هي عقليةٌ متعلِّقةٌ بالمنهج الاستنباطي الذي فصَّلنا في الحديث عنه سابقاً؛ فالجهاز المعرفي لدينا يعتمد على وجود نصٍّ، سواء كان قرآنيًّاً، أو حديثيًّاً، أو نصًّاً لشخصيةٍ قديمةٍ.. ليتمَّ القيام بتفسيره وشرحه باعتباره يجيب عن أسئلة الواقع.. بينما العلم كله أصبح مبنيًّاً على الاستقراء! فلو أن أمةً من الأمم تعاني من انقسامٍ ومشكلاتٍ، لا يكفيها شخصٌ يخبر شعبها أن في الاتحاد مصلحةً، فالسؤال المهمُّ هنا هو: ما الذي يعوق هذه المصلحة؟

إن جهازنا القديم مبنيٌّ على قضية الحلال والحرام، ولكن من الصعوبة بمكانٍ أن يجيب عن سؤالٍ معقَّدٍ فيه السياسي والاقتصادي والاجتماعي.. علاوةً على أنه لَربما أيَّد اتجاهين متنافرين تماماً! فكثيراً ما يخرج شيخٌ مؤيِّدٌ لقضيةٍ معيَّنةٍ، فيخرج مقابله عشرات المشايخ ليخرجونه من الملة والدين..!

وقامت خلال الفترة الماضية أحداثٌ في غاية الأهمية، وهي أحداثٌ تؤكِّد مستوى الضعف في الجهاز المعرفي لدينا، فالمثلية الجنسية والتجريم الحاصل إزاء أيِّ انطباعٍ عدائيٍّ نحوها، ومطالبة المساجد ببعض المناطق بالاعتراف بزواج المثليِّين، علاوةً على الحملة الشرسة ضدَّ الإسلام في فرنسا وغيرها.. فهذا كلُّه جزءٌ من تحدياتٍ يعانيها المسلمون الموجودون في بيئاتٍ لا يستطيعون أن يخرجوا منها بعد أن فرُّوا إليها من بيئات القهر..

فالواقع بدأ يشكِّل فضاءً صعب التناول، ويجعلنا نقتتل فيما بيننا، دون أن نجد بوصلةً تفسِّر هذا الاضطراب الموجود سوى أن ننعت الآخر بأنه متفلِّتٌ وخارجٌ عن الشريعة وخارجٌ عن الإسلام!

ويحكي الدكتور جاسم فيقول: إنني حينما سألت أحد المشايخ الأفاضل عن الصراع بين روسيا وأوكرانيا، والرأي الفقهي فيها، فأجابني: بأن القتال في الفقه الإسلامي معنونٌ لإعلاء كلمة الله، وفي حرب أوكرانيا لم ينشأ القتال لتكون كلمة الله هي العليا، فالموضوع يدور في دولةٍ وطنيةٍ، ولا يوجد لدينا في الباب شيءٌ يخصُّ الحرب في دولةٍ وطنيةٍ لها خصائصها ومكوِّناتها، وتختلف عن دولةٍ فيها مسلمون!

إننا متى ما تعلَّمنا أن العالم ليس ابن الإطلاقيَّات، وأنه ابن الواقع الذي نتحرَّك فيه، فسنفهم لماذا نزل القرآن الكريم منجَّماً.. فالقرآن نزل منجَّماً؛ لأنه كان يعالج واقعاً، والواقع جزئيَّاتٌ متناثرةٌ، فلو نزل نصَّاً مطلقاً، لَقالت الناس: عرفنا، ولكن كيف سنعمل!؟ لكنه نزل منجَّماً ليجيبهم عن السؤال العملي المباشر الموجود على الأرض، ثم ينتقل بهم خطوةً إلى الأمام.. فالواقع هو الذي يعطي الإجابات الممكنة وغير الممكنة انطلاقاً من إحداثياته، وأن معرفة الواقع لا تعني الانسحاق له والاستسلام، إنما معرفته هي المقدمة الحقيقية للانتقال به خطوةً أو خطوتين إلى الأمام باتجاه الأهداف المطلوبة..

في صميم كل ما سبق!

إذا كان لدينا عقلٌ، وجهازٌ معرفيٌّ جيدٌ، وعندنا الواقع أو الكتاب الذي سنقرؤه.. فسينتج لدينا فهمٌ، وإن هذا الفهم ليس ادِّعاءً؛ بل هو أحوالنا وأوضاعنا العملية التي نعيشها، وإن مهزومية أمَّة ما، يعني أن جهازها المعرفيَّ تعتريه أخطاء، فإذا كانت الأمَّة لا تُصنِّع ما تستهلكه، فهذا يعني أن جهازها تعتريه مشكلةٌ، وإذا كانت الأمة تفتقر للالتزام والصدق في معاملاتها، فهذا يعني وجود مشكلةٍ، فكل خللٍ في الجهاز المعرفي يُنتِج خللاً في الواقع الخارجي المقابل له، ومن مجموع الخلال أو خليط الإيجابيات مع الخلال تتشكَّل الوضعية الحضارية للأمَّة، وقد كانت رحلتنا الطويلة في صميم البحث في كيفية تعاطي عقولنا في السياسة والاقتصاد والاجتماع والفلسفة والتاريخ..

مقترحات الجهاز المعرفي الجديد:

يجدر التنويه ابتداءً إلى أننا حينما نقول: "جهاز معرفي جديد قابل للمعايرة"، فنحن هنا نتحدث عن جهازٍ يستوعب النظام القديم وليس العكس، بمعنى أن النظام الجديد لا يهمل ما أنجزه النظام القديم، ولكن يضعه في إطاره وفي تصوُّره؛ بحيث إنه يستوعبه ويدخله داخل منظومته التي يعمل من خلالها.

وإن المعايير التي ينبغي أن يحاكَم إليها الجهاز الجديد، هي معايير محايدةٌ تستخدمها البشرية جمعاء في العلوم، فمثلاً: معيار "دراسة الواقع"، ليس أمراً خاصًّاً بشيءٍ محدَّدٍ، فإن جميع الأجهزة الموجودة تفهم فكرة دراسة الواقع، وإحصائيات الواقع، والأرقام الموجودة فيه، وأيضاً معيار "تتبُّع المقاصد"، فكون القضايا لها غاياتٌ فهذا لا يتعلَّق فقط بالمسلمين، إنما يتعلَّق بالبشرية جمعاء، فهناك دائماً حكمةٌ من وراء وجود الأشياء، ولا يوجد عبثيةٌ، وأيضاً الحفاظ على "الوجدان الأخلاقي الفطري العامِّ"، فهذا أيضاً ما يجب أن تعايَرَ به مخرجات أيِّ جهازٍ معرفيٍّ، فالفطرة البشرية بوجدانها العامِّ تحبُّ أن يُعترَف لها بالفضل والإحسان.. وتكره أن يسرقها أحدٌ أو يغشَّها..، وأيضاً لا بدَّ من أن يحكم الجهاز المعرفيَّ "المنطق" الذي تشترك فيه

البشرية؛ خاصَّةً قانون عدم التناقض، وداخل هذا كله لا بدَّ من مراعاة فكرة "الأنساق"، وهي ما سنُفرِد له حديثاً مفصَّلاً في مواقع أخرى بعون الله.

إذاً؛ فمعرفة المعايير الجديدة التي يجب أن تضاف إلى المعايير القديمة، ومعالجة المعايير القديمة بحيث تصبح جزءاً من النظام الجديد، أمرٌ هامٌّ جدَّاً، وهو علمٌ بحدِّ ذاته اسمه: "علم الطريقة"، وقد فصَّل به الأستاذ "يحيى محمد"، وأفرد جزءاً كبيراً للأمثلة الواقعية في العقائد والفقه وفي القضايا المعاصرة.. في كتابه "النظام الواقعي"، وعلى كل من يحاول أن يفهم النظام الجديد، أن يفهم الأساسات المطروحة ويتقنها بشكلٍ جيدٍ، ثم يدخل لدراسة الحالات العملية الموجودة؛ لأنها تساعده على الفهم أكثر، فكلما بذل الإنسان جهداً أكبر، أمكن له أن يتقدَّم في الموضوع ويصبح أكثر كفاءةً به.

ويبقى أن نضع بعض المقترحات للجهاز المطلوب، والتي قد اختصرناها في تسعة نقاطٍ أساسيةٍ متمثِّلةٍ بـ:

1. **أن يعترف بالنصّ:** فالنصُّ وعاء التكليف، ولا قيمة لفهمٍ إسلاميٍّ يستبعده أو يعزله.
2. **أن يعترف بأن الأصل في النصّ القصدية؛** فلا يعامل النصَّ على أنه نصٌّ أدبيٌّ نبحث فيه عن الجماليات على حساب القصدية، وهذا فارقٌ أساسيٌّ عن دائرة النصوص الأدبية؛ حيث تختفي قصدية الكاتب عند رؤية القارئ وذوقيته.
3. **حضور واقع التنزيل المحايث للنص؛** فنزول النصِّ منجَّماً مراعياً بيئة وثقافة وظرف وحاجة المفسِّر لتغاير الأحكام، وهو منهج القرآن المغاير لألواح موسى ذات الوصايا العشر. وهذا يعني ضرورة البحث الاجتماعي التاريخي لتركيب صورة الواقع الذي حاوره النصُّ.
4. **حضور واقع النصّ المعاصر استقرائيّاً؛** فسبب الحاجة أصلاً إلى الاجتهاد؛ هو تجدُّد الواقع وقضاياه، والواقع هو ما يرشِّح الخيارات الأقرب للنفاذ لحلِّ إشكال الواقع، أو تخفيف الضرر.
5. **أن تُعتَبر الضرورة مستبطَنةً في كل واقعٍ؛** وهذا يعني أن النصَّ يبقى حيَّاً، ويجادل كل واقعٍ بضروراته؛ فالضرورة هنا ليست حالةً استثنائيةً؛ بل حالةً متجدِّدةً، تفرض تجدُّد النظر، وتديم حياة النصِّ، وهي فارقٌ جوهريٌّ بين مقولة الضرورة الاستثنائية

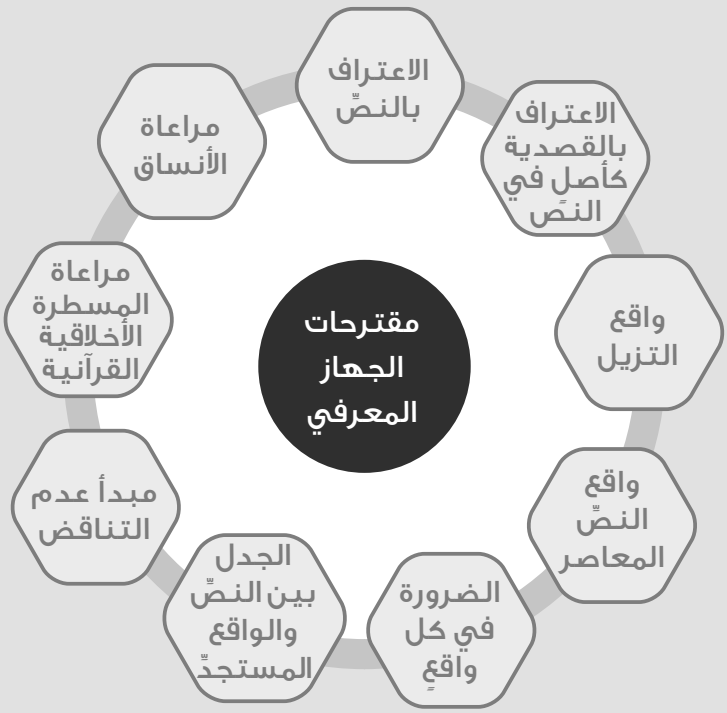
التي يُتوقَّع لها الانتهاء للعودة إلى الحكم السابق ما لم يكن هو المرشَّح بحسب الجدل الجديد، وبين النصِّ والواقع.

6. أن يقيم جدلاً بين النصِّ والواقع المستجدِّ محافظاً على مجال النصِّ وقصديَّته، والجدل بين النصِّ والواقع محكومٌ بالمقاصد، وعند فساد الواقع فالمقصد حاكمٌ.

7. أن يحافظ على مبدأ عدم التناقض.

8. أن يراعي المسطرة الأخلاقية القرآنية فلا يتمُّ تجاوزها.

9. أن تراعَى الأنساق بجمع النصوص المتعلِّقة بموضعٍ واحدٍ؛ فلا ينفرد أحدها بتحديد المعنى بمعزلٍ عن النسق.



إلى هنا، وبحمد الله وفضله، نكون قد أنهينا هذه السلسلة من المنهج الأساس، ولعلَّ الله تعالى ينفع بها أيُّها الإخوة القرَّاء.. وصلَّى الله وسلَّم وبارك على النبيِّ المختار وآله وصحبه.